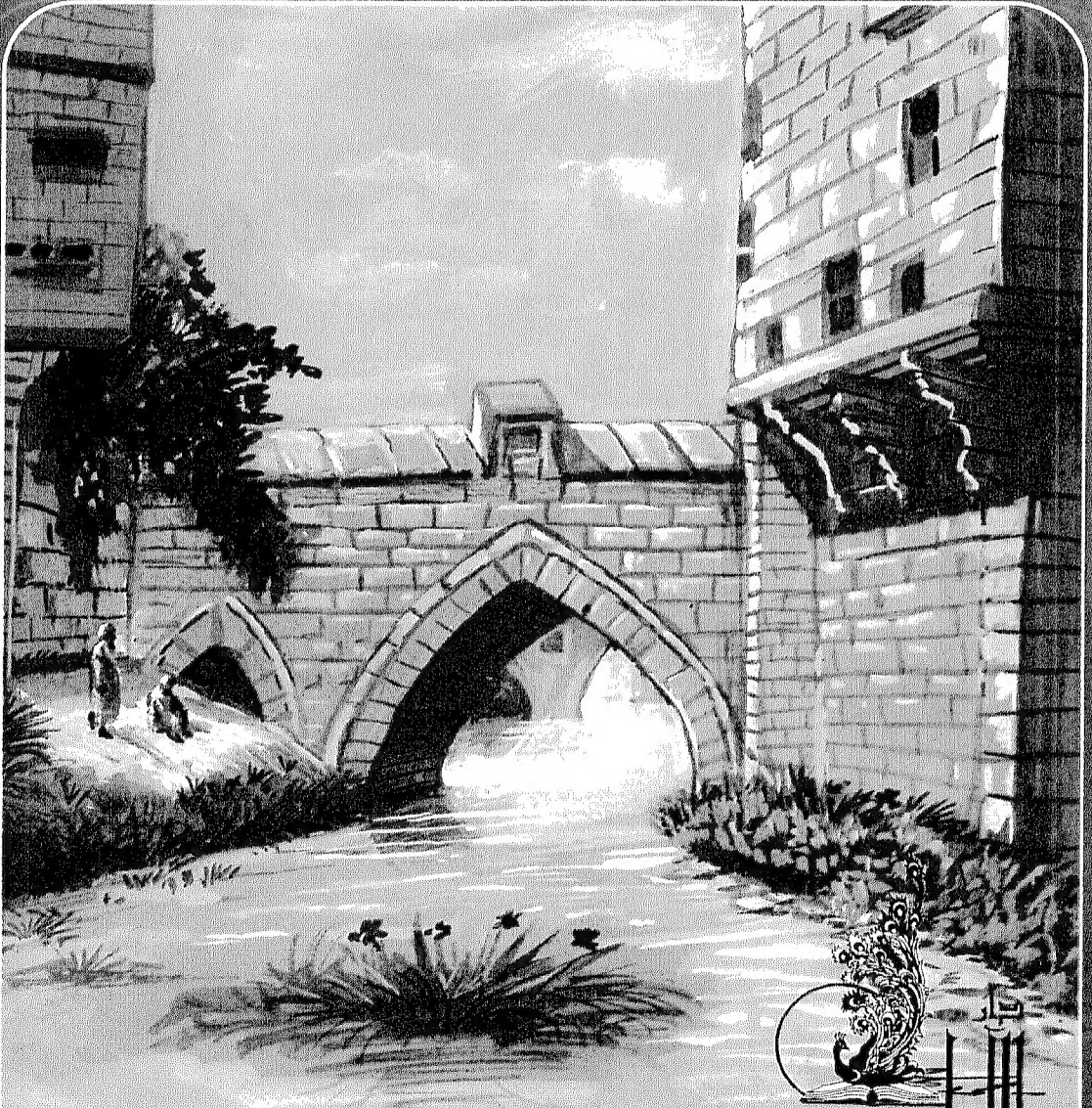


مسترحات القاهرة

في العصرين المملوكي والعثماني



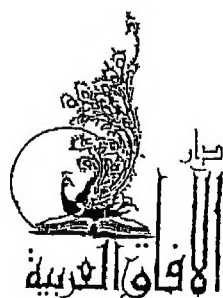
محمد الششتاوي



مَنْزِلُ الْفَاهِرَةِ

فِي الْعَصْرِينِ الْمَمْلُوكِي وَالْعُثْمَانِي

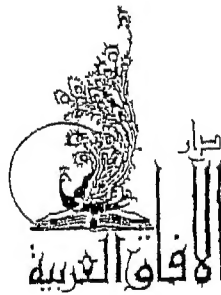
د. مُحَمَّدُ الشَّشْتَاوِي



الطبعة الأولى
١٤١٩ هـ / ١٩٩٩

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناسخ

٩٨/١٦٦٧٧	رسم الإبداع
977-5727-31-6	I. S. B. N الترقيم الدولي



القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت من شارع الطيران
مدينة نصر - ت: ٢٦١٠١٦٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾

صدق الله العظيم

سورة البقرة آية ٣٢

تقديم

نبذة عن تطور القاهرة العمراني في العصرين المملوكي والعثماني:

بلغت القاهرة القمة في تطورها العمراني في العصر المملوكي (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)، وقد اتسع مدلول لفظ القاهرة بين المؤرخين والرحالة وكتاب الخطط في العصر المملوكي ليشمل المدينة المسورة التي بناها الفاطميون، وظواهرها أى الخطط والحارات التي بنيت خارج الأسوار، وكذلك شمل العواصم القديم الفسطاط، والعسكر، والقطائع، بالإضافة إلى القلعة، إلى جانب الضواحي الشمالية، وذلك لاتصال التعمير في كل هذه الأنحاء حتى غدت القاهرة كبرى مدن العالم آنذاك.

ومنذ أوائل الدولة المملوكية زاد عدد سكان القاهرة نتيجة للهجرات التي جاءت منها من شرق العالم الإسلامي فراراً من المغول، فوجب ذلك زيادة مساحة القاهرة، ويتضح ذلك جلياً في سلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري (٦٥٨ - ٦٧٦هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧م) حيث «بنى في أيامه مالم يبن في أيام الخلفاء المصريين (الفاطميين) ولا ملوك بني أيوب من الأبنية والرباع والخانات والقواسير والدور والمساجد والحمامات، من قريب مسجد التين إلى أسوار القاهرة إلى الخليج وأرض الطبالة، واتصلت العمائر إلى باب المقسم إلى اللوق إلى البورجى، ومن الشارع إلى الكبش وحدره ابن قمبيح إلى تحت القلعة ومشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها إلى السور القراقوشى^(١)».

وكان الملك الظاهر بيبرس قد أمر في سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦١م بعمارة الجانب الغربى للخليج بالدور الكثيرة في منطقة باب اللوق لإسكان قسم من جيش هولاكو قائد المغول فر إلى مصر في تلك السنة^(٢).

(١) ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (طبعة دار الكتب، ج ٧) ص ١٩٦ - ١٩٧.

مسجد التين يقع الآن داخل سراى القية، وأرض الطبالة هي الفجالة حالياً، وباب المقسم موقعه الآن في ميدان رمسيس، والبورجى موقعه ميدان التحرير الآن، والشارع المذكور المقصود به شارع المعز لدين الله، وحدره ابن قمبيح تقع بزينهم حالياً، وقد تناولت تلك الأماكن بالتفصيل تباعاً.

(٢) المقرئى (تقى الدين أحمد بن على، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) المواعظ والاعتبار يذكر الخطط والآثار المعروفة بالخطط، طبعة بولاق ١٢٧٠هـ ج ٢، ١١٧، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة، سعيد عاشور، طبعة دار الكتب (١٩٣٤ - ١٩٧٤م)، ج ١، ص ٨١٢.

وقد أهتم الظاهر أيضاً بمنطقة جنوب غرب القاهرة ينما عمر قناطر السباع على الخليج ليسهل العبور بين ضفتي الخليج وييسر الطريق بين القاهرة ومصر القديمة، كما عمّر الجسر الأعظم الفاصل بين بركتي الفيل وقارون جنوبي القاهرة حتى ييسر الطريق إلى القلعة^(١).

وقد أهتم الظاهر ببيرس بالقلعة اهتماماً كبيراً فعمّر بها عمارات عظيمة جعلتها أشبه بالمدينة، واهتم بالأسواق حولها وخصوصاً سوق الخيل بالرميلة وأنشأ به حماماً لولده الملك السعيد^(٢).

وقد عمل الظاهر على اتصال العمارة من باب زويل إلى القلعة، فأنشأ في تلك المسافة بيوتاً للأمراء، يسكنوها بحاشيتهم واتباعهم لأنه «كان يكره سكنى الأمير بالقاهرة مخافة من حوآشيهِ على الرعية»^(٣).

وعمل الظاهر أيضاً على تعمير القاهرة خارج سورها الشمالي، فأسس في سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م جامعة الكبير شمال الحسينية، وأنشأ زاوية الشيخ خضر على الخليج بجواره، وبنى حماماً وطاحوناً وفرناً^(٤)، وبدأ حي الحسينية يتطور منذ أيامه حتى بلغ أوج ازدهاره في أيام سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩-٧٤٠هـ / ١٣١٠-١٣٤١م).

أما عن القاهرة الفاطمية فكانت مكتملة العمارة في ذلك الوقت وإن ما كان يحدث بها إما مجرد ترميم أو تعمير لخرائب أو هدم وإعادة بناء، وقد عمر بها الظاهر مدرسة عظيمة ذات تخطيط جديد اتخذ نبراساً لما بنى بعدها من مدارس، وكان لها دور علمي كبير في العصر المملوكي^(٥)، بالإضافة لذلك فقد جدد الظاهر بعض الجوامع السابقة مثل جامع الفكهاني الذي بناه الخليفة الفاطمي الظاهر (٥٤٤-٥٤٩هـ / ١١٤٩-١١٥٤م)، وجدد الجامع الأزهر، وأعاد إليه خطبة الجمعة بعد أن توقفت مائة عام، وقد أهتم ببيرس بجزيرة الروضة ورمم المقياس بها^(٦).

وحظى حي الحسينية بعناية كبرى أثناء سلطنة الملك العادل كتبغا (٦٩٤-٦٩٦هـ / ١٢٩٤-١٢٩٦م)، فقد أقيم به الكثير من الدور والمنشآت الدينية والاجتماعية، والأسواق العظيمة حينما أنزل الملك العادل به مهاجرين من المغول المعروفين بالآويراتية في سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م^(٧).

(١) انظر بالتفصيل فيما يلي، ص ٢٧٨. (٢) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٩١.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٢٩٩، ٤٣٠، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص ١٩٢.

(٥) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٣٧٨-٣٧٩.

(٦) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٧، ص ١٩٢.

(٧) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٢٢-٢٣، السلوك، ج١، ص ٨١٢.

وقد بلغت القاهرة أقصى اتساع لها فى فترة حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة ، فمعاصره المؤرخ «ابن فضل الله العمرى» يذكر أن حاضرة (عاصمة) مصر فى وقته كانت تشمل ثلاث مدن عظام صارت كلها مدينة واحدة هى القسطنطينية والقاهرة وقلعة الجبل^(١) .

ويعتبر عصر الناصر محمد هو العصر الذهبى لتعمير القاهرة بل لمصر كلها ، وظلت حدود مدينة القاهرة دون تغيير كبير من أيامه حتى نهاية العصر العثمانى ، وقد امتد العمران بالقاهرة شمالاً عبر الصحراء وفى الشمال الغربى وفى غربى الخليج والأرض التى اتصلت به من طرح النيل ، ومن جنوب القاهرة حتى اتصلت بالقلعة ومصر القديمة والسيدة نفيسة ، وقد قال «المقريزى» عن امتداد القاهرة أيام الناصر محمد « واتصلت عمائر مصر والقاهرة فصار بلدًا واحدًا يشتمل على البساتين والمناظر والقصور والدور والرباع والقياس والأسواق والفنادق والخانات والحمامات والشوارع والأزقة والدروب والخطط والحارات والأحكار والمساجد والجوامع والزوايا والربط والمشاهد والمدارس والترب والحوانيت والمطابخ والشون والبرك والخلجان والجزائر والرياض والمتنزهات ، متصلًا جميع ذلك بعضه ببعض من مسجد تبر إلى بساتين الوزير قبلى بركة الحبش ومن شاطئ النيل بالجيزة إلى الجبل المقطم»^(٢) .

وقد بلغت جملة الاحكار أيام الناصر محمد أكثر من ستين حكرًا وبلغ عدد المساجد الجامعة التى بها خطبة الجمعة أكثر من ثلاثين جامعًا^(٣) ، وعمرت المناطق شمال وشمال غرب القاهرة عمارة عظيمة وخصوصًا حى الحسينية الذى صار من أكثر الاخطاط ازدحامًا نظرًا لكثرة المهاجرين إليه من المشرق الإسلامى ، ولهذا أقيم به أيام الناصر خمسة جوامع بخطبة^(٤) ، وأيضًا شيد الناصر محمد عدة قناطر على الخليج لربط الحسينية بكوم الريش (الشراية حاليا) ، وأرض الطباله فى البر الغربى للخليج كان لها أثر عمرانى كبير ، وهذه القناطر هى القنطرة الجديدة تليها قناطر الأوز ثم قنطرة بنى وائل^(٥) .

أما عن التعمير على الجانب الغربى للخليج فيما بينه وبين النيل فكان على أبداع ما يكون ، فحكورت البساتين والأرض الزراعية على طول الخليج وعمرت عمارة حسنة امتدت من قناطر السباع (ميدان السيدة زينب) إلى البركة الناصرية إلى اللوق إلى المقس (الأزيكية) ، وفى سنة

(١) ابن فضل الله العمرى (شهاب الدين أحمد بن يحيى ، ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) مسالك الأبصار فى ممالك الامصار ، تحقيق أمين فؤاد سيد ، المعهد العلمى للأثار الشرقية بالقاهرة ، ١٩٨٢م ، ص ٢٠ ، ٧٩ .

(٢) الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٥ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٩٨ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٣٦٥ ، ج ٢ ، ص ٢٣ ، ٢٤٥ ، ٣١٠ ، ٣١٢ ، ٣٢٥ .

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٠٠ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٧ - ١٤٨ . وانظر بالتفصيل الفصل الرابع من هذه الرسالة .

٧٢٠هـ / ١٣٢٠م حفر الناصر محمد البركة الناصرية على الجانب الغربى للخليج ، فحكر الناس الأرض حولها وبنوا عليها الدور العظيمة (١) .

وفى سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م حفر الناصر محمد الخليج الناصرى وكان فمه بالقرب من القصر العينى ويتجه شمال شرق حتى يلتقى مع الخليج الكبير عند جامع الظاهر بيبرس ، وقد نتج عن ذلك حكر العديد من الأراضى الزراعية الواقعة بين الخليجين (المصرى والناصرى) ، وكذلك التى بين الخليج الناصرى والنيل ومنحت للأمراء الذين عمروا بها الدور والأسواق والجوامع والحمامات والشون (٢) .

وأنشأ الناصر القناطر على الخليجين حتى جعل البر الغربى للخليج سهل الأتصال بالقاهرة الفاطمية التى ظلت المركز التجارى الرئيسى (شكل ١) .

وفى أيام الناصر محمد أيضا طرح النيل أرضا جديدة فعمرت الخطط الحسنة والموانئ الكبيرة عليه وامتدت من أثر النبى جنوبا مرورا بمصر القديمة فمنشأة المهرانى فبولاق حتى منية السيرج شمالا ، وكانت تلك الأراضى قبل ذلك تلالاً ورمالاً وحلفاء ، فصار لا يرى قدر ذراع إلا وفيه بناء قام به كثير من الأمراء تقريبا منهم للسلطان (٣) . فالناس على دين ملوكهم ، فعمروا أسوة بالناصر محمد راعى العمارة والتعمير ، وعمل الناصر محمد على إيجاد تعمير ترفيهى غربى الخليج وعلى النيل يتمثل فى الميادين مثل إنشائه الميدان السلطانى على النيل وميدان المهارى بجوار البركة الناصرية وغيرها (٤) .

وامتدت يد التعمير أيام الناصر محمد أيضا إلى المنطقة خارج السور الجنوبى للقاهرة الفاطمية فعمر خط تحت الربع وحول بركة الفيل ، وعمرت المنطقة ما بين باب زويلة إلى القلعة بدور كبار الأمراء ، وكذلك ما بين باب زويلة إلى باب الوزير واتصلت تلك العمائر والخطط حتى القلعة (٥) .

ولاقى القلعة عناية كبيرة من الناصر محمد فعمر بها أهم منشآتها فى العصر المملوكى ، مثل الجامع والقصر الأبلق والأيوان والقصور الجوانية والسبع قاعات والطبلخانة تحت القلعة

(١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ ، وانظر بالتفصيل الفصل الثالث من هذه الرسالة .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٦٥ ، ج٢ ، ص ١٣١ ، وعن الاحكار الواقعة على الخليج بالتفصيل ، انظر : الخطط ، ج٢ ، ص ١١٤ - ١٢١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٦٥ . السلوك ، ج٢ ، ص ٥٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٨٢ - ١٨٥ .

(٤) انظر بالتفصيل الفصل الخامس .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٦٥ .

وأحواش الغنم والبقر وغير ذلك^(١)، وعمر الناصر أيضا ميدان الرميطة والميدان السلطاني تحت القلعة، ومد إليهما الماء عن طريق مجرى العيون^(٢)، وانتعشت الأسواق التي ارتبطت بالنظام العسكري المملوكي حول ميدان الرميطة مثل سوق السلاح وسوق الخيل وسوق الخيم، وقد أقيم حول الميدان عدد من القصور للأمراء، وعمر الطريق من الميدان إلى قناطر السباع بالقصور والمنشآت الدينية، فأكتظت خطط الصليبية وابن طولون والجسر الأعظم بالعمائر الفخمة، وكذلك أقام الناصر عدة مناظر وقصور على هضبة الكباش^(٣).

وعمرت المنطقة فيما بين قبة الإمام الشافعي إلى باب القرافة (بميدان السيدة عائشة حاليا) بالعمائر الجنائزية والدينية كالقباب والتراب والخانقاوات والمساجد، وانتشرت العمائر على امتداد القرافة الكبرى حتى بركة الحبش جنوبا^(٤).

أما عن الجانب الشرقي للقاهرة فيما بين قرافة السيوطي جنوبا وبين خانقاة فرج بن بروق شمالا فكان التعمير بها نواة للمجمعات الدينية والجنائزية التي حفلت بها المنطقة عقب ذلك، وقد أتى اهتمام الناصر محمد لتلك المنطقة لأنه كانت مسار الطريق السلطاني المستخدم للسفر للحجاز والشام.

ونظرا لاتساع القاهرة الكبير أيام الناصر محمد فقد أعقبه بلا شك زيادة سكانية كبيرة، وإن كنا لم نعلم احصاءا سليما للسكان في العصر المملوكي، فقد قدر البروفيسير اندريه ريمون عدد سكان القاهرة زمن الناصر محمد بخمسمائة أو ستمائة ألف نسمة^(٥)، ولكن نظرا لانتشار الأوبئة والطواعين في ذلك العصر فقد انخفض عدد السكان بنسبة كبيرة ولاسيما سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م في ذلك الوباء الأسود الذي ساد العالم آنذاك، وأثر بشكل كبير على دول حوض البحر الأبيض المتوسط وقد عرف هذا الوباء بالفناء الكبير وانخفض عدد سكان القاهرة بنسبة كبيرة في تلك السنة^(٦). وكذلك انخفض عدد سكان القاهرة ومصر كلها بنسبة كبيرة لا تقي أعقاب الوباء الذي حدث أيام الأشرف شعبان سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م واستمر مدة (١) كازانوف، تاريخ ووصف قلعة الجبل، (القاهرة، ١٩٧٤)، ص ١١٥-١٥١.

(٢) انظر بالتفصيل ميدان الرميطة في الفصل الخامس.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج٢، ص ٥٤٠، وعن المناظر بالتفصيل، انظر الفصل السادس من هذا الكتاب.

(٤) المقرئزي، الخطوط، ج٢، ص ٥٤٠، وانظر بالتفصيل: محمد حمزة، قرافة القاهرة في عصر سلاطين المماليك، ماجستير «مخطوطة»، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٦).

(٥) Raymond, A., " La Population Du Cairo, De Maqrizi á La Description de L'Egypte " (٥) B E O (1975), P. 251.

(٦) المقرئزي، الخطوط، ج١، ص ٣٣٩، ٣٦١، ٣٦٥، السلوك، ج٢، ص ٧٥٩، ٧٧٠، ٧٧١، ٧٧٦، ٧٧٨، ٧٨٩، ٧٨٠، ٧٨٧، ابن تغري بردي، النجوم، ج١٠، ص ١٥٩-٢٢١. ابن إياس (أبو البركات محمد بن أحمد بن إياس، ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، طبعة ١٩٨٢، ج١، ق١، ص ٥٢٧-٥٣٧.

ستين (١).

أما أخطر الأزمات التي تعرضت لها القاهرة فكانت حسبما ذكر المقرئى هى المحن والحوادث والأوبئة التى داهمتها سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م وما أعقبها من سنين، ففى تلك السنة حدثت أزمات اقتصادية كبيرة نتيجة لعدم وفاء النيل وانخفاضه الذى أعقبه غلاء كبير فى الأسعار، وصاحبه أوبئة عديدة لانتشار الفتن والاضطرابات والصراعات الداخلية واغتصاب الأوقاف بالقاهرة بالإضافة إلى ذلك كانت الأخطار محدقة بالشام من قبل الدولة التيمورية، وكانت هذه السنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م بداية لخراب كبير للقاهرة فخربت معظم الخطط والاحكار التى حدثت أيام الناصر محمد، وخربت الأحياء شمال القاهرة وعلى الأخص حى الحسينيه وهجر السكان منه وكذلك كثير من الأراضى غربى الخليج تجاه اللوق وكانت القاهرة قد فقدت نحو ثلثى سكانها (٢).

ولكن القاهرة تغلبت على المحن التى ألمت بها وعاد إليها بعض رونقها فى سلطنة الملك المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤هـ / ١٤١٣ - ١٤٢١م) فأعيدت الحياة للخطط على شاطئ النيل وصارت بولاق بلدة عظيمة وميناءً كبيراً اضمحل معه أمر ميناء القسطة (٣).

وعاد للقاهرة وجهها المشرق الذى كانت عليه أيام الناصر محمد بن قلاوون أثناء سلطنة الأشرف قايتباى (٧٨٣ - ٩٠١هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٦م) الذى عمر بالقاهرة الكبرى العديد من المنشآت الهامة (٤)، وكذلك كان لأمرائه دور فى تعمير ضواحي شمال القاهرة وغربها، فقد أنشأ الأمير يشبك من مهدى الدواوير انشاءات عظيمة أحيت المنطقة وصارت من أعظم متنزعات مصر، فقد أمر يشبك بإزالة القبور والدور التى كانت منتشرة فى المنطقة الواقعة بين الحسينية والريديانية (العباسية) وأقام مكانها قبة ومدرسة وحوضاً لشرب الدواب وغرس بها حدائق وبساتين للنزهة، وقد بقى من هذه المجموعة القبة المعروفة بقبة الفداوية الواقعة بشوارع العباسية (أثر رقم ٥)، وهذه القبة دليل على عظمة همة الأمير يشبك، وفى ضواحي القاهرة الشمالية بنى يشبك مجموعة معمارية كبيرة جنوب المطرية بقى منها القبة (أثر رقم ٤)، وعرف الحى الذى بها حى القبة، وكانت تلك المنطقة متنزهاً جميلاً فى العصر المملوكى (٥).

وفى أيام السلطان قايتباى أيضاً امتد التعمير للضفة الغربية للخليج حيث أنشأ الأمير (١) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٣٣٩. ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٦٦.
(٢) كانت هذه الأزمات التى بدأت سنة ٨٠٦ / ١٤٠٣هـ هى الدافع للمقرئى لتأليف كتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة. وانظر ما يلى ص ٤٨.

(٣) انظر بالتفصيل الفصل الأول من الرسالة.

(٤) عن منشآت قايتباى بالتفصيل انظر: حسنى نوبصر، مجموعة سبل السلطان قايتباى بمدينة القاهرة، ماجستير، مخطوط، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٠م). منشآت السلطان قايتباى الدينية بمدينة القاهرة، دكتوراه مخطوط، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م).

(٥) السخاوى (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٨م)، الضوء اللامع لأهل القرن =

الأتابك أزيك من ططخ الأزيكية ، فقد حفر البركة وأجرى إليها الماء من الخليج الناصري وأنشأ حولها القصور والقاعات والدور والمنشآت التجارية والاجتماعية مثل القياصر والحمامات ، وأنشأ بها مسجدا كبيرا ، واهتم ثروة القاهرة وأعيانها بالتعمير بالأزيكية فصارت من أعمر بقاع مصر^(١).

القاهرة فى العصر العثمانى

لم يطرأ تغيير محسوس أو تبديل ملفت للنظر فى تخطيط أو مساحة القاهرة طوال القرون الثلاثة التى حكمها العثمانيون عما كانت عليه أيام المماليك ، ولم تسير الزمن فى تقدمه بل ظلت على حالها ولا تغالى إذا قلنا أنها رجعت القهقرى وفقدت بريقها ورونقها وجمالها ، ولم يعمل العثمانيون على تطويرها لتفشى الفساد الإدارى والسياسى أيامهم ، إلى جانب عامل هام أثر فى حياة القاهرة وتطورها فى مصر كلها ألا وهو العامل الاقتصادى ، إذ يرجع تردى الأوضاع الاقتصادية بمصر إلى ما قبل دخول العثمانيين مصر بقليل وظهر أثره جليا فى عهدهم ، وذلك عندما أكتشف طريق رأس الرجاء الصالح فى فترة حكم الغورى فتحول طريق التجارة عن مصر آنذاك ، وكان حكام مصر يجبون أموالا طائلة من المكوس والضرائب والاحتار فى تجارة الشرق إلى أوروبا ، وتأثرت مالية الدولة كثيرا بفقدان ذلك المورد الهائل مما حدا بالغورى أن يعرض تلك الخسارة على حساب كاهل الشعب المصرى .

وأثناء الغزو العثمانى لمصر تعرض بعض أحياء القاهرة للأضرار الناتجة عن المعارك بها ، بالإضافة إلى نهب الجيش وتخريبهم لأحياء وخطط كانت فى غاية العمارة مثل الناصرية والأزيكية إلا أن تلك الحالة لم تدم طويلا فسرعان ما تم اصلاح ذلك ، وحل العثمانيون محل أمراء وجيود المماليك فى دورهم وأملاكهم بالقاهرة .

وقد زار مصر فى بداية العصر المملوكى الرحالة «الحسن بن الوزان المعروف بليون الأفريقى» فوصف القاهرة وصفاً ليس به أى تغيير عما كانت عليه أيام الغورى ، وجاء

= التاسع، نشر مكتبة القدس، القاهرة، ١٣٥٣هـ-١٣٥٥هـ، ج١، ص ٢٧٤. ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦٠.

Abouseif, D., " The Northe Eastern Extension of Cairo Under the Mamluk. An Isl, XVII (1981), PP. 171 - 188., id., " Four Domes of the Late Mamluk Period : An Isl XVII (1981) P. 193.

وعن أعمال يشبك بالتفصيل انظر : سامى عبد الحليم، الأمير يشبك من مهدى وأعماله المعمارية بالقاهرة، ماجستير مخطوط، (كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٦٩م).

(١) عن الأزيكية بالتفصيل انظر الفصل الثالث ص ٢٠٩.

وصفه للحياة الاجتماعية بها فى غاية الدقة (١).

وقد حافظت القاهرة على شكلها ومساحتها طوال العصر العثمانى، وأدخل العثمانيون بعض الطرز المعمارية الجديدة على العمائر مثل المدارس والمساجد والأسبلة والأضرحة إلا أن الطرز المحلية ظلت سائدة فى الأغلب.

وقد تم الاهتمام فى العصر العثمانى ببعض أحياء القاهرة مثل الأزبكية بركة الفيل (٢) والجانب الغربى للخليج، وقد ازدهرت بولاق بشكل واضح فى العصر العثمانى.

أما عن صورة القاهرة حين قدمت الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨، فبالنظر إلى الخريطة التى وضعوها لها سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م، نجد أن حدها الشمالى يمتد بين الحسينيه وباب الحديد، والحد الجنوبي بين القلعة إلى باب عرب يسار إلى باب القرافة بالسيدة عائشة إلى جامع السيدة نفسية فباب طولون فباب البغالة فباب السيدة زينب، والحد الغربى من باب السيدة زينب إلى الناصرية فباب الشيخ ريحان فباب اللوق إلى الأزبكية إلى باب الحديد، والحد الشرقى يمتد من القلعة فباب الغريب فباب الحسينية.

وكان موقع القاهرة يبعد أكثر من ألف متر عن شاطئ النيل وبينها وبينها مزارع، وكانت بولاق ومصر القديمة ضاحيتين مستقلتين فقد كان الطريق إليهما يمر بالمزارع والحدائق، وكان على شاطئ النيل الشرقى بعض مبان قديمة كقصر إبراهيم بك (قصر العينى) تجاه الروضة وجواره بيت محمد كاشف الأرنؤوطى وعلى شماله بيت مصطفى بك.

وقد اتفق أكثر الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى أن شوارع القاهرة كانت ضيقة كثرة التعاريج، وكان أطولها الشارع الموصل بين باب الحسينية إلى باب السيدة نفسية وطوله أربعة آلاف وستمائة وأربعة عشر مترا، ولم يكن بالقاهرة سوى أربعة ميادين فسيحة هى ميدان قرة ميدان تحت القلعة وميدان الرملة بجواره وميدان بركة الفيل (بركة الفيل نفسها) وميدان الأزبكية (بركة الأزبكية نفسها) (٣).

وقد كانت القاهرة فى ذلك الوقت باستثناء ضاحيتى بولاق ومصر القديمة يبلغ محيطها ٢٤ ألف متر بينما تبلغ مساحتها ٧٩٣٠ هكتارا (١) وإذا أضيفت إليها مصر القديمة وبولاق

(١) ابن الوزان (الحسن بن محمد الوزان الفاسى المعروف بليون الأفريقى، ت بعدة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م)، وصف أفريقيا، ترجمة عن الفرنسية وحققه محمد حجي، ومحمد الأخضر، الطبعة الثانية، (المغرب، ١٩٨٣)، ج٢، ص ٢٠٣-٢٢١.

(٢) انظر بالتفصيل الفصل الثالث من هذه الرسالة.

(٣) عبد الرحمن زكى، القاهرة تاريخها وأثارها، ٩٦٩هـ / ١٨٢٥م، من جوهر القائد إلى الجبرنى المؤرخ، (الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦)، ص ٢٤٩.

تصل مساحتها إلى ٨٨٣ر٨ هكتارا، وكانت القاهرة مضافة إلى مينائها تفوق في الحجم كل العواصم الأوروبية فيما عدا لندن وباريس^(٢). وقد قدر عدد سكان القاهرة في أيام الحملة الفرنسية بمائتي وستين ألف نسمة.

وقد تعرضت أحياء القاهرة للتخريب نتيجة ثورتى القاهرة ورد الفعل الفرنسى لهما إلا أنها رمت بعد ذلك، وأدخل الفرنسيون بعض التنظيمات الإدارية على القاهرة بتقسيمها إلى ثمانية أقسام وتوسيع بعض شوارعها وشق شوارع جديدة وادخال العادات الصحية للمدينة من نظافة وتجميل^(٣).

وقاد محمد على باشا الكبير (١٢٢٠ - ١٢٦٥هـ / ١٨٠٥ - ١٨٤٨م) مصر نحو نهضة شاملة وخص القاهرة بنصيب كبير من التقدم، فشقت الطرق الجديدة بها وأدخلت طرز معمارية أوربية جديدة، ورممت مبانيها القديمة وعمرت خرائبها وأزيلت الكيمانات بها، وعمرت مكانها المتنزهاة والحدائق، وبدأت بعض الأحياء في الأزدهار مثل شبرا التى أمتلأت بالقصور وشقت طرق واسعة مشجرة تؤدى إليها وكذلك منطقة جاردن سيتى، وعمل محمد على باشا مجلسا للأشراف على تجميل القاهرة وتنظيمها.

ثم أخذت القاهرة شكلا جديدا في عهد الخديو إسماعيل، إذ أنها أصبحت ذات شقين الشق الأول وهو الشرقى يمثل القاهرة القديمة، والشق الآخر غربى الوجهة والطراز لأن الخديوى أدخل الطرز الأوروبية في هذا القسم وعمل الخديو على تنظيم القاهرة وتجميلها فصارت القاهرة ندا لأعظم عواصم أوربا أن لم تكن قد تفوقت عليها بالفعل.

وظل وجه القاهرة منذ عهد إسماعيل إلى منتصف هذا القرن مشرقا بقسميها الشرقى والغربى، إلا أنها نمت واتسعت اتساعا كبيرا في هذا النصف من هذا القرن وزاد عدد سكانها زيادة عظيمة، ولكن يؤخذ عليها أنها فقدت هويتها وشخصيتها وجمالها فلم تحافظ على طرزها المعمارية الجميلة، وأما أصبحت مبانيها كتلا أسمتية متنافرة وحفلت القاهرة الكبرى بأحياء عشوائية كبيرة ذات مشاكل جمّة أدركت الدولة خطورتها فأعلنت عن خطط لتطويرها، ندعو الله أن نرى آثارها.

(١) الهكتار وحدة مساحة فرنسية تساوى عشرة آلاف متر.

(٢) جومار، وصف مصر (وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل)، ترجمة وتحقيق أمين فؤاد سيد، (نشر مكتبة

الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٨)، ص ٧٥.

(٣) جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٩٠.

الفصل الأول

نهر النيل بحدود مدينة القاهرة

مقدمة : مكانة نهر النيل عند المسلمين :

نهر النيل أعظم نعمة وهبها الله سبحانه وتعالى لمصر وأهلها على مر التاريخ ، فهو لهم حياة ووجود ، ورزق وسعود ، وجمال وخلود ، وقد وجد النيل حظه من التبجيل والتقدير فى زمن حكم الفراعنة وما تلاهم من الاغريق والرومان ، كما حظى فى حظيرة الإسلام بمكانة دينية مرموقة وحسبه ذكره فى القرآن الكريم وفى كتب الحديث النبوى الشريف ، وقد نعته المسلمون بأنه «سيد الأنهار» وأنه « بحر النيل المبارك » .

ولأن النيل شريان الحياة لمصر فقد عنى به حكام مصر على مدى التاريخ الإسلامى عناية كبيرة للحفاظ على جريانه وضبطه الضبط الصحيح بما يكفل لهم حياة آمنة ، فأقاموا السدود والجسور عندما كان يطنى ويزيد عن الحد الذى يكفل لهم حياة وزراعة آمنة ، ويحفروه عندما يقل عن الحد وتعوق الرمال والنباتات جريانه ، وكان المصريون يدفعون الثمن دائما أرواحهم وأموالهم وأماكهم فى تلك المشاريع ، كما عنوا بدراسته ووصفه ورصد أوقات فيضانه فأقاموا المقاييس لتتبع مقادير زيادته ونقصانه ، واحتفلوا الاحتفالات البهيجة الرائعة بمواسم فيضانه ، وأقاموا النظم لربط سنتهم الهجرية بالسنة الشمسية التى تسير عليها مواعيد فيضان النيل والزراعة وجمع أموال الخراج .

وكتب المؤرخون والجغرافيون والرحالة المسلمون الكتب والمقالات لدراسة النيل ووصفه ودراسة فروعه وخلجانه وجسوره وقنواته وقناطره ومقاييسه ، وحظى النيل فى مجال الأدب بنصيب وافر فأفاض الأدباء فى وصفه والتغنى به ونشروا مما خلف أدبا جما وتراثا أدبيا خالداً .

وإذا كانت اليوم صيحات النداء للمحافظة على البيئة ترتفع وتتعالى ، فقد سبق الإسلام تلك الصيحات بزمان كبير ويتجلى ذلك فى الحفاظ على الأنهار ومنها نهر النيل ، فقد أجمع فقهاء المسلمون على أنه لا يجوز البناء على شاطئ النهر للسكنى ولا غيرها إلا القناطر المحتاج إليها لأنها ملك للناس جميعا فلا يجوز التعدى عليها ، لذا فقد وضع الفقهاء «حرم» لتلك المجارى المائية لا يجوز البناء فيها بأى شكل من الأشكال فكان حرم العيون خمسمائة ذراع وحرم الأنهار ألف ذراع^(١) .

وعن ذكر النيل فى «القرآن الكريم» فقد ورد فى عدة مواضع إما تصريحاً أو تلميحاً، وقد خصه الله سبحانه وتعالى بلفظ «اليم» التى تطلق أيضاً على البحار فجاءت وقفاً على نهر النيل دون غيره من الأنهار، جاء ذلك فى قوله تعالى عن سيدنا موسى عليه السلام: ﴿أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي النَّابُوتِ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَهُ﴾ (٢)، وفى قوله سبحانه وتعالى أيضاً، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ﴾ (٣).

وقد ذكر النيل بصفة ضمنية بمعناه فى قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ (٤) فالمقصود بالأنهار فى هذه الآية هى نهر النيل وفروعه حيث كانت أرض مصر فى أيام فرعون عامرة بالقناطر والجسور بتدبير وتقدير حتى أن الماء كان يجرى تحت منازلهم وأقيبتها فيحبسونه كيف شاءوا ويطلقونه حيث شاءوا (٥)، كما فسر بعض المفسرين قوله تعالى أخباراً عن فرعون الذى حدد لسيدنا موسى عليه السلام موعداً لمقابلة السحرة ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ (٦)، أنه يعنى الاحتفال بوفاء النيل وكسر الخليج إذ أن العادة قد جرت منذ القدم على أن اجتماع الناس لتخليق المقياس يكون فى هذا الوقت (٧)، وفى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ (٨) وكنوز ومقام كريم (٩) فسر المفسرون هاتين الآيتين أن الجنان كانت بأرض مصر بحافتى النيل من أوله إلى آخره على الجانبين جميعاً ما بين أسوان إلى رشيد (٩).

(١) ابن الحاج (أبو عبدالله محمد بن محمد العبدى الفاسى، ت ٧٣٧هـ / ١٣٣٧م)، المدخل، ط ١ (المطبعة المصرية بالأزهر، ١٩٢٩م، ج ١)، ص ٢٤٧.

(٢) سورة طه: الآية ٣٩.

(٣) سورة القصص: الآية ٧.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٥) قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، (ط دار المعارف، ١٩٧٨م)، ص ١٠٤.

(٦) سورة طه: الآية ٥٩.

(٧) التويرى (شهاب الدين أحمد عبد الوهاب النويرى، ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م)، نهاية الأرب فى فنون الأدب (ط دار الكتب، ١٩٢٤م)، ج ١، ص ٢٦٤، الكتبى (محمد بن إبراهيم بن يحيى بن على الشهير بالوطواط الكتبى، ت ٧١٨هـ / ١٣١٨م)، مباحج الفكر ومناهج العبر، ج ١، (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٥٩ علوم طبيعية) ورقة ٨٦، المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٦١.

(٨) سورة الشعراء: الآيتين ٥٧، ٥٨.

(٩) السيوطى (الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطى، ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م) حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (القاهرة، ١٩٦٧)، ج ٢، ص ٣٤٦.

أما ما خص النيل من الحديث المنسوب إلى الرسول ﷺ فكثير ، قليل منها ذكر في صحيحى مسلم والبخارى خصوصا في أحاديث الاسراء والمعراج فقد ورد عن أنس بن مالك في حديث المعراج ثم رفعت إلى سدرة المنتهى فإذا نبتها مثل قلال هجر وإذا ورقها مثل آذان الفيلة قلت : ما هذا يا جبريل؟ فقال : هذه سدرة المنتهى وإذا أربعة أنهار : نهران ظاهران ونهران باطنان قلت : ما هذا يا جبريل؟ قال : أما الباطنان فنهران في الجنة وأما الظاهران فهما النيل والفرات^(١).

وفى صحيح مسلم حديث ينتهى سنده إلى أبى هريرة قال : « قال رسول الله ﷺ سيحان وجيحان والفرات والنيل كل من أنهار الجنة »^(٢).

وقد أورد المقرئى فى خططه ما جاء فى كتاب غريب الحديث لابن قتيبة «نهران مؤمنان ونهران كافران أما المؤمنان فالنيل والفرات ، وأما الكافران فدجلة ونهر بلخ ، وإنما جعل النيل والفرات مؤمنين على التشبيه لأنهما يفيضان على الأرض ويسقيان الحرث والشجر بلا تعب فى ذلك ولا مؤنه ، وجعل دجلة وبلخ كافرين لأنهما لا يفيضان على الأرض ولا يسقيان إلا شيئا قليلا وذلك القليل بتعب ومؤونة فهذان فى الخير والنفع كالمؤمنين وهذان فى قلة الخير والنفع كالكافرين»^(٣).

وروى ابن عبد الحكم عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه قال « نيل مصر سيد الأنهار سخر الله له كل نهر بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد الله أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمدّه فتمدّه الأنهار بمائها ، وفجر الله له عيوناً فأجرته إلى ما أراد الله عز وجل ، فإذا انتهت جريته أوحى الله إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره»^(٤).

وإذا تتبعنا بقية الأحاديث المنسوبة للرسول ﷺ فيما يخص النيل لوجدناها كثيرة جدا ، وتبدو هذه الأحاديث فى رأى المتواضع أنها من الإسرائيليات والأحاديث الموضوعية ، وقد ورد ذكرها فى كتابات مؤلفى العصرين المملوكى والعثمانى لأنهم هالوا نهر النيل بصفة

(١) انظر : الألف المختارة من صحيح البخارى ، تحقيق عبد السلام هارون ، ج٢ ، (نشر الخانجى ، ١٩٧٩م) ، ص ٧٧ . التنويرى ، نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٢١٣ ، المنوفى (أبو العباس شهاب الدين أحمد بن محمد ، ت ١٥٢٥م / ٩٣١م) ، الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد ، (مخطوط بدار الكتب ، رقم ٦٦ جغرافيا) ص ٩ .

(٢) حديث مسلم ، كتاب ٥١ حديث ٢٦ ، السبوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٤٠ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٥١ .

(٤) ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ، ت ٢٥٧هـ / ٨٧١م) ، فترج مصر وأخبارها ، (ط ليدن ، ١٩٢٢م) ، ص ١٤٩ ، المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٥٠ .

القداسة والإيمان وأنه سيد الأنهار، وقد سخر الله له كل الأنهار والعيون لتمده بمائها وقت زيادته، وهو يجرى بوحى من الله وهو نهر الخمر فى الجنة^(١).

أما عن الكتابات العلمية للجغرافيين والرحالة والمؤرخين المسلمين عن نهر النيل وفيضانه فكثيرة جدا إلا أن معظم كتاباتهم تعتمد على ما نقلوه من علماء الأغريق والرومان وتملؤها الخرافات والأساطير خصوصا فى الكلام عن منابعه، أما عن جريان النيل فى أرض مصر فقد اتسمت بالدقة^(٢).

أولا : تحول شاطئ النيل بحدود مدينة القاهرة منذ الفتح الإسلامى حتى سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م

تحول مجرى النيل منذ الفتح الإسلامى لمصر حتى العصر الحديث ثمان مرات على شاطئه الشرقى ومرتين على شاطئه الغربى^(٣)، وقد تأثرت عمارة القاهرة وضواحيها نتيجة لتلك التحولات، وهذه التحولات إما طبيعية أو صناعية.

ويرجع المرحوم الأستاذ «محمد رمزى» هذه التحولات المتكررة إلى ما كان عليه اتساع مجرى النيل بين شاطئيه فى الأزمنة السابقة وبسبب قوة جريان ماء النيل وقت الفيضان، حيث تسلط هذه القوة على أراضي الجزر وعلى الأراضي المرتفعة الواقعة على جانبي مجرى النيل وعلى الأخص الأجزاء التى لا تتحمل مقاومة تيار الماء الجارف فيأكلها النهر بتيار وينقل طينها من مكانه الأصلي ويطره بجوار الشواطئ البعيدة عن تأثير قوة جريان ماء النيل وأن قوة وسرعة جريان التيار وقت الفيضان تخف بجوار الشواطئ فى المناطق التى يكون فيها مجرى

(١) للمزيد فى هذا الموضوع انظر : ابن ممتى (أبو المكارم اسعد بن مهذب، ت ٦٠٦هـ / ١٢٠٩م)، قوانين الدواوين، تحقيق عزيز سوربال (القاهرة، ١٩٤٣) ص ٧٤-٧٥، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٥١-٥١، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٠، الحجازى (شهاب الدين أحمد بن محمد، ت ٨٧٥هـ / ١٤٧٠م)، نيل الرائد فى النيل الزائد، (مخطوط بدار الكتب رقم ٣٨٠ جغرافيا)، ص ٨-٩، المنوفى، الفيض المديد، (مخطوط)، ص ١٢، ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا وكامل المهندس، مركز تحقيق التراث، (مطبوعات دار الكتب، القاهرة، ١٩٦٩م) ص ١٥٧-١٧٧، حمدى المناوى، نهر النيل فى المكتبة العربية، (القاهرة، ١٩٦٦)، ص ١٧-٢٣، قاسم عبده قاسم، النيل والمجتمع المصرى، ص ١٠٤-١٠٦.

(٢) عن هذا الموضوع انظر مثلا : المقرئى، الخطط، ج١، ص ٥١-٥٧.

(٣) عالج المرحوم الأستاذ محمد رمزى هذا الموضوع على أتم وجه فهو الذى حصر تحولات النيل بالقاهرة وحقق أبحاثه فى مقالته : الجغرافية التاريخية لمدينة القاهرة (شاطئ النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة وما طرأ عليها من التحولات من الفتح العربى إلى اليوم)، مجلة العلوم، المجلد الرابع، السنة التاسعة، ١٩٤٢، ص ٤٩٧-٥٢٣.

النيل واسعا فيرسب الطمي الذي تحمله المياه تدريجيا على الجانب الذي تضعف فيه قوة التيار ، وعلى أساس هذه النظرية تكرر حدوث طرح البحر في مجرى النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة (١) .

وكانت هذه الأراضي التي نتجت عن ظاهرة طرح النهر تبقى فترة لبنه وغير متماسكة حتى تتماسك مع الزمن وتصلح لأغراض البناء عليها والزراعة بها (٢) .

وقد كان النيل وقت الفتح العربي لمصر يمر شاطئه الشرقي تحت الباب الغربي لقصر الشمع (حصن بابليون) وتحت جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة ثم يسير إلى الشمال مارا في الجهة الغربية من جامع السيدة زينب على بعد ثلاثمائة متر من موقع الجامع الحالي ، ثم يسير النيل في طريقه مارا في الجهة الغربية من ميدان عابدين فشارع عماد الدين ومنه إلى قرية أم دنين حيث يوجد الآن جامع الفتح (أولاد عنان) بميدان رمسيس ثم إلى منية السرج ، وكانت الأراضي الواقعة بين هذا الشاطئ وبين جبل المقطم تجاه القاهرة كلها أرض زراعية يخترقها الخليج المصري من الجنوب للشمال (٣) (شكل ٥) .

وأما من الجهة الغربية فكان النيل بعد أن يمر تحت سكن مدينة الجزيرة يسير إلى الشمال مارا تحت سكن الدقي ثم يسير في طريقه إلى الحوتية (العجوزة حاليا) ومنها إلى امبابية (٤) .

وهذه التحولات كما حصرها الأستاذ محمد رمزي، هي:

(١) التحول الأول : حدث سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م وقت ولاية عبد العزيز بن مروان على مصر حيث طرح البحر أرضا جديدة اتصلت بالشاطئ القديم في المسافة الواقعة الآن بين ساحل أثر النبي وبين النقطة التي يتلاقى فيها بشارع السد البراني بشارع بيرم التونسي (سكة المديح سابقا) بقسم السيدة زينب (٥) .

(١) محمد رمزي، المرجع السابق، ص ٤٩٨ ، وانظر أيضا Kubiak, Al Fustat, Its Foundation and Early Urban Development, Cairo, AUC, 1987, P. 47.

(٢) أندريه ريمون، فصول التاريخ الاجتماعي للقاهرة العثمانية «مجموعة مقالات» ترجمها زهير الشايب، نشر روز اليوسف، القاهرة، ١٩٧٤، ص ٨٩، Clergel (M), Le Cairo, Etude De Géographie Urbaine et D'histoire Economique, Le Cairo, 1934, P. 194, Haswell, Cairo, Origin and Development, Some Notes on the Influence of the River Nile and Its Changes, Bulletin de la Societe Royale de Geographie D'Egypte, Vol. II (3-4) December 1922, pp. 171 - 176.

(٣) محمد رمزي، المرجع السابق، ص ٤٩٧ . (٤) نفس المرجع والصفحة.

(٥) نفس المرجع، ص ٥١١ - ٥١٢ ، وقد استنتج المرحوم محمد رمزي ما ذكره من خلال ما كتبه المقرئ عن ساحل النيل في الخطط، ج١، ص ٣٤٣، ج٢، ص ١١٣ .

(٢) **التحول الثاني** : ظهر هذا الطرح حوالى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤١م أى فى زمن الدولة الأخشيدية إذ طرح النهر أرضا جديدة أوصلته بالشاطئ القديم الأصى فى المسافة الواقعة الآن بين جامع الطيبى بشارع الديورة بقسم السيدة زينب وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع التحرير (الخديوى إسماعيل سابقا) بشارع محمد فريد (جزء من شارع عماد الدين سابقا)^(١).

(٣) **التحول الثالث** : ظهر حوالى سنة ٥٢٠هـ / ١٢٦م أى فى زمن الدولة الفاطمية إذ طرح البحر (النهر) أرضا جديدة اتصلت بالطرحين السابقين فى المسافة الواقعة بين جامع الطيبى وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع عرابى (توفيق سابقا) بشارع رمسيس (الملكة نازلى سابقا)^(٢).

(٤) **التحول الرابع** : ظهر حوالى سنة ٥٦٠هـ / ١٢٥٢م أى فى أوائل حكم الدولة المملوكية البحرية إذ طرح البحر أرضا جديدة متصلة بالطرح الثالث فى المسافة الواقعة جامع الطيبى وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع النباتات بشارع إبراهيم باشا نجيب بجاردن سيتى وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع مريت باشا بشارع رمسيس^(٣).

(٥) **التحول الخامس** : ظهر حوالى سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م واتصلت أرضه بالطروح السابقة فى المسافة الواقعة بين جامع سليمان باشا الفرنساوى بشارع كورنيش النيل (عمرو بن العاص سابقا) بمصر القديمة وبين النقطة التى يتلاقى فيها شارع مريت بشارع رمسيس^(٤).

(٦) **التحول السادس** : وهى أكبر طرح ظهر لمدينة القاهرة وقد حدث سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، وتمثل أرضه الآن قسم بولاق بأكمله وجزء من قسم الأريكية والأرض الواقعة بين السكك الحديدية الموصلة إلى الصعيد وبين شارع جزيرة بدران من قسم روض الفرج، وطمت أيضا أرض السيالة التى كانت فاصلة بين أراضى منية السيرج والشراية

(١) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٢-٥١٣، وقد استنتج الأستاذ رمزى ما ذكره اعلاه من خلال ما كتبه المقرئى فى الخطط عن ساحل النيل بمدينة مصر، ج١، ص ٣٤٤. وانظر أيضا : على مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، (ط بولاق، ١٣٠٦هـ)، ج١٨، ص ١١٦.

(٢) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٣-٥١٤، وقد استطاع الأستاذ رمزى تحديد هذا الطرح من خلال ما ذكره المقرئى فى الخطط فى كلامه عن المنشأة، ج١، ص ٣٤٥. وفى كلامه على الميدان الصالحى، ج٢، ص ١٩٨ وفى كلامه عن اللوق، ج٢، ص ١١٧.

(٣) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٤، وقد استنتج الأستاذ رمزى ذلك من خلال ما كتبه المقرئى فى الخطط فى كلامه عن الصناعة، ج٢، ص ١٩٨.

(٤) محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥١٥، وقد استنتج الأستاذ محمد رمزى ذلك من خلال ما كتبه المقرئى فى الخطط عن ساحل النيل بمدينة مصر، (ج١، ص ٣٤٥ وعن الصناعة، ج٢، ص ١٩٧).

وميدان رمسيس من جهة وبين جزيرة الفيل التى بها الآن قسما شبرا وروض الفرج من جهة أخرى (١).

(٧) **التحول السابع :** ظهر هذا الطرح فى سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م فى المسافة الواقعة بين مبنى فندق هيلتون النيل وبين النقطة التى يتقابل فيها شارع أبو الفرج بشارع جزيرة بدران (٢).

(٨) **التحول الثامن :** ظهر فى سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م وشمل المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بقم ترعة الإسماعيلية ومن الغرب بمجرى النيل الحالى ومن الجنوب من حد مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب حاليا ومن الشرق بشارع المطبعة الأهلية ببولاق وشارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل ، وهذا هو الطرح الثامن والأخير تجاه القاهرة (٣).

يتضح مما سبق أن شاطئ النيل الشرقى الحالى لمدينة القاهرة استجد جميعه بعد الفتح العربى لمصر من أثر النبى جنوبا إلى قم ترعة الإسماعيلية شمالا . (انظر الخريطة).

أما عن الشاطئ الغربى للنيل بالجزيرة تجاه القاهرة فقد طرأ عليه تحولان الأول بعمل هندسى تم بين سنتى ١٨٦٣ إلى سنة ١٨٦٥م فى عهد الخديوى إسماعيل ، والطرح الثانى أعقبه فى سنة ١٨٧٠م كنتيجة ترتيب على التحول الأول (٤).

ثانياً : الاهتمام بحضر النيل وإقامة الجسور عليه لضبطه بطول القاهرة حتى نهاية العصر العثمانى ؛

كان اهتمام ولاة مصر وخلفائها وملوكها وسلاطينها حتى بداية دولة المماليك منصبا على فرع سيالة الروضة وذلك لمجاورته للفسطاط ومصر القديمة - مركز التجمع السكانى والعمرانى حتى العصر الأيوبرى - وكذلك لعدم تعمير الخطط على النيل فى مواجهة القاهرة إلا فى العصر المملوكى بوجه خاص ، ولما عمرت الخطط فى العصر المملوكى اهتم السلاطين بالنيل فى المسافة بين الحد الشمالى لمصر الفسطاط حتى شبرا .

وقد تم الحفاظ على مجرى فرع الروضة (سيالة الروضة) بفضل التدخل البشرى لحمايته على مدى تاريخ مصر الإسلامى ، ولم يضيع كما ضاع الفرع الذى كان يحيط بجزيرة الفيل بالقاهرة ، وكان حرص حكام مصر على الاعتناء بفرع الروضة وخاصة أيام الأيوبيين

(١) نفسه ص ٥١٦ . (٢) نفسه، ص ٥١٦ .

(٣) نفسه، ص ٥١٨ .

(٤) انظر بالتفصيل، محمد رمزى، المرجع السابق، ص ٥٢٢ - ٥٢٣ .

والممالك يرجع لأنه مصدر تزويد مدينة الفسطاط بالماء وكذلك وقيع ساحل الفسطاط عليه وهو أكبر موانئ مصر النيلية آنذاك خصوصاً بعد أن طم ميناء المنس الذي كان ميناء القاهرة وتحول ميناؤها إلى بولاق بعد ذلك بقرنين.

وكان الاهتمام بفرع الروضة يتم بأسلوبين أولهما حفره، وثانيهما تعلية قاع فرع الجيزة وعمل السدود الحجرية به حتى يتجه الماء إلى فرع الروضة.

حفر سيالة الروضة قبل العصر المملوكي :

ظهرت الحاجة الملحة للاهتمام بحفر سيالة الروضة في زمن الدولة الأخشيديّة (٣٢٣- ٣٥٨هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩م) ففي سنة ٣٣٦هـ / ٩٥٠م جف النيل في فرع سيالة الروضة، واضطر سكان الفسطاط أن يجلبوا ماء النيل من فرع الجيزة، لذلك تولى الأستاذ كافور الأخشيديّ مقدم أمراء الدولة لأنوجور بن الأخشيد حفر الروضة فتم حفره ودخل الماء إليه وانتفع به أهل الفسطاط^(١).

ومع الزمن كان النيل ينحسر عن البر الشرقي للفسطاط إلى الغرب لذا كانت تنكشف أراضي جيدة على ساحل مصر الفسطاط وتكثر الرمال بسيالة الروضة ويضعف جريان الماء بها ويتحول إلى الفرع الغربي ناحية الجيزة، ونظراً لتراكم الرمال بسيالة الروضة سنوياً صار قاعها يخاض بالأقدام، وكانت لا تملأ إلا في وقت الفيضان فقط^(٢).

وقد حدث أن انحسر الماء عن ساحل مصر القديمة قبل سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤م وصار يقل في زمن احتراق النيل بعد ذلك حتى صار الطريق إلى المقياس يابساً، فلما كان في سنة ٦٢٨هـ / ١٢٣١م خاف السلطان الملك الكامل محمد (٦١٥ - ٦٣٥هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٧م) من تباعد النيل عن العيران بمصر فأمر بحفر فرع الروضة من جهة دار الوكالة^(٣) إلى صناعة

(١) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٣٤٤، السيوطى، كوكب الروضة، (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٦٤ تاريخ)، ورقة رقم ٣٦.

(٢) المقرئى، نفس المصدر والصفحة.

(٣) دار الوكالة هذه كان أصلها دار الملك التى كانت عبارة عن منظرة (قصر) بناها الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م، وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر فصارت بها، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متزهات الخلفاء، وكان بها بستان عظيم، وما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية فجعلها الملك الكامل محمد دار متجر، ثم عملت فى أيام الملك الظاهر بيبرس دار وكالة.

وقد ذكر «المقرئى» أن موضعها كان ما وراء رجة الخروب بجوار المدرسة المعزية وبقي منها جدار يجلس تحتها يباعو الخناء. الخطط، ج١، ص ٤٨٣، ويمثل موقع دار الملك الآن المنطقة الواقع بها قسم شرطة مصر القديمة بجوار جامع عابدى بك (أثر رقم ٥٢٤) الذى حل محل المدرسة المعزية.

التمر الفاضلية^(١)، واستمر العمل فيه مدة ثلاثة أشهر من مستهل شهر شعبان إلى آخر شهر شوال، حتى صار الماء يحيط بجزيرة الروضة دائماً بعد أن كان فرع الروضة جدولاً رقيقاً^(٢).

وقد كان هذا العمل بمثابة مشروع قومي فقد ذكر المؤرخون أن الملك الكامل عمل فيه بنفسه وألزم الأمراء وأعيان الناس بالحفر إلى جانب عامة أهل القاهرة، وقد تم توزيع نفقات الحفر على الدور التي تقع بالقاهرة ومصر والروضة^(٣).

وكان الاهتمام الأعظم بفرع سيالة الروضة على يد الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧هـ / ١٢٣٩ - ١٢٤٩م) وذلك لبناء قلعته الصالحية جنوب جزيرة الروضة، فأراد أن يحيط الماء بالجزيرة طول العالم، فغرق عدة مراكب محملة بالحجارة في فرع النيل الغربي تجاه الجزيرة حتى يتحول الماء إلى فرع الروضة، وسار في كل سنة يحفر فرع الروضة بجنداه ونفسه^(٤)، وكان يتم طرح الرمل في البقعة التي عمر فيها الملك الناصر محمد بن قلاوون جامعته الذي سمي الجامع الناصري الجديد^(٥) على النيل، ونتج عن ذلك أن شرع خواص السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بالعمارة على ساحل مصر من موضع الجامع الناصري الجديد إلى المدرسة المعزية^(٦).

(١) صناعة التمر الفاضلية كان أصلها دار وقف على فكك الأسرى بناها القاضي الفاضل وعرفت بعد ذلك بصناعة التمر الفاضلية. ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١٢، ويمثل موقعها الآن منطقة فم الخليج.

(٢) المقرئ، الخطط، ج١، ص ٣٤٤-٣٤٥.

(٣) ابن المقفع (ساويرس بن المقفع أسقف الأسمونين)، تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية، ج٤، (القاهرة، ١٩٧٤)، ص ٥٦-٥٧. المقرئ، الخطط، ج١، ص ٣٤٥.

(٤) المقرئ، نفسه.

(٥) الجامع الناصري الجديد بناه الملك الناصر محمد سنة ٧١٢هـ، وقد اندثر الآن وكان موقعه المنطقة التي يخترقها شارع السكر والليمون المتفرع من شارع كورنيش النيل بمصر القديمة بفم الخليج. ولزيد من التفاصيل عنه، انظر ما يلي ص ٤١.

(٦) ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير، ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م)، الانتصار لواسطة عقد الأمصار، (ط بولاق، ١٨٩٣م)، ج٤، ص ٧٧، المقرئ، الخطط، ج١، ص ٣٤٥، السلوك، ج١، ص ٣٤١، السيوطي، كوكب الروضة (مخطوط) ورقة ٣٧.

المدرسة المعزية أنشأها الملك المعز أيك سنة ٦٥٤هـ / ١٢٥٦م ومحلها الآن جامع عابدي بك (أثر رثم ٥٢٤) المطل على شارع كورنيش النيل بمصر القديمة وما حوله. ولزيد من التفاصيل عنها، انظر: ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٩٢-٩٣، محمد رمزي، تعليقه على النجوم الزاهرة لابن تغري بردي، ج٧، ص ١٤.

حفر النيل بطول القاهرة فى العصر المملوكى:

استمر الاهتمام بحفر فرع الروضة فى العصر المملوكى ، وقد اهتم بذلك السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٥٩ - ١٢٧٧ م) ففى سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م تم حفر فرع سيالة الروضة ، وقد شارك السلطان بنفسه وعساكره فى الحفر (١).

وفى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) ازداد العمران على ساحل مصر وأتم ما كان قد بدأه الصالح نجم الدين أيوب من بناء وعمل بساتين على الساحل ، فأتاح الناصر محمد للأمرء والناس إقامة الدور والقصور والمناظر والمنشآت الأخرى على ساحل النيل من دير الطين (دار السلام حاليا) جنوبا حتى منشأة المهرانى (القصر العينى حاليا) شمالا (٢).

أما أعظم مشروع للاهتمام بحفر سيالة الروضة والجانب الشرقى للنيل كله - شرقى الجزيرة الوسطى حتى بولاق - فقد تم على يد الملك المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢٠ م) ، ففى شهر صفر ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م وقع الشروع فى حفر الرمال التى أحدثت ما بين الجامع الناصرى الجديد خارج مدينة مصر وبين جامع الخطيرى ببولاق (٤) ، وسبب ذلك أن النيل فى ذلك الوقت قد غير مجراه إلى الغرب عما كان سابقا وصار جانب النيل الشرقى فيما بين طرا و طرف جزيرة الروضة رمالاً لا يعلوه الماء إلا فى أيام الفيضان فقط ، وصار معظم الماء يمر من غرب جزيرة الذهب ويستمر تياره يسير بقوة غرب جزيرة الروضة وغرب الجزيرة الوسطى ، أما الجانب الشرقى من تلك الجزر فقد زادت الرمال بها زيادة كبيرة وتكاد تكون منقطعة الماء فخربت معظم الأماكن والخطط على البر الشرقى للنيل مثل منشأة المهرانى (٥) ،

(١) المقرئى ، السلوك ، ج١ ، ص ٥٤٤ . (٢) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٤٥ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص ٣٠٢ .

(٤) جامع الخطيرى ذكره «المقرئى» وقال أنه بناحية بولاق وكان موضعه قديما مغمورا بالماء إلى نحو سنة ٧٠٠ هـ ، ولما انحسر النيل زرع مكانه وصار موضعه متنزها يجتمع عنده الناس ثم بنى مكانه دار فاشتراها الأمير عز الدين أيدمر الخطيرى أحد الأمراء مقدمى الألوف فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون فهدم الدار التى كانت مكان الجامع وكانت تعرف بدار الفاسقين وبنى مكانها هذا الجامع وسماه جامع الثوبة وبالغ فى عمارته وزخرفته وقد تم بناءه سنة ٧٣٧ هـ ، وقد طغى النيل عليه عدة مرات فهدم وجدد مرات عديدة . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص ٣١٢ .

وأقول أن البقايا الأثرية للجامع كانت موجودة لوقت قريب وهو موقع ومسجل بفهرس وخريطة القاهرة للآثار الإسلامية (لوحة ١ أثر رقم ٣٤١) إلا أن تلك البقايا قد أزيلت حاليا وبنى موضع الجامع جامع جديد البناء ، وهو يقع بأول شارع الخطيرى المتفرع من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) إلى الشرق قليلا من كوبرى أبو العلا .

(٥) عن منشأة المهرانى ، انظر ما يلى ، ص ٤٢ .

ومنشأة الكتبة^(١)، وخط موردة البلاط^(٢)، وخط زربية قوصون^(٣)، وخط فم الخور وحكر ابن الأثير^(٤)، لا نقطاع الماء عنها، وكانت تلك الأمكنة في غاية العمارة فاتفق أن السلطان المؤيد ركب إلى هذه النواحي وكان عهده بها عامرة فسأل عن سبب خرابها فأخبره فأراد حفر ما بين الجامعين الناصري والخطيري ليعود الماء إليها شتاءً وصيفا كما كان أولاً ثم يشرع في الأمر بعمارتهما^(٥).

وقد أمر المؤيد في يوم السبت عاشر صفر ٨١٨هـ / ١٤١٥م أن يشرع في الحفر وندب له الأميرين كزل العجمي وسودون القاضي، ونم تجهيزهم بما يلزمهم من أبقار لجرف الرمال وأدوات الحفر وغير ذلك، وقد استمر العمل بقية شهر صفر وشهر ربيع الأول^(٦).

وكان العمل في هذا الحفر على درجة كبيرة من الأهمية بحيث أنه يكاد يكون الناس جميعاً قد شاركت فيه، وقد شدد المؤيد في العمل وهدد كل من يتوانى عن انجازه فخرج الناس للعمل على هيئة أشبه بأيام النزّه، وقد شارك المؤيد شيخ نفسه وامراءه ووجوه دولته في العمل^(٧).

(١) عن منشأة الكتبة، انظر ما يلي، ص ٤٩.

(٢) عن خط موردة البلاط انظر ما يلي، ص ٥١.

(٣) عن خط زربية قوصون انظر ما يلي، ص ٥٣.

(٤) عن خط فم الخور وحكر ابن الأثير انظر ما يلي، ص ٥٥.

(٥) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٣٠٢-٣٠٤، ابن حجر العسقلاني (شهاب الدين أحمد بن على بن محمد ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م)، انباء الغمر بابناء العمر، تحقيق حسن حبشى، (القاهرة، ١٩٧٦)، ج٣، ص ٥٤، العيني (بدر الدين محمود العيني، ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م)، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق عبد الرزاق القرموط، (بدون ناشر، القاهرة ١٩٨٥)، ص ٢٢٣، ابن تغرى بردى (أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغرى بردى الاتابكى، ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تحقيق جمال محرز، وفهم شلتوت، ج٤، (القاهرة، ١٩٧٠م) ص ٢٧.

(٦) نفس المصادر والصفحات.

(٧) ذكر المؤرخون في هذا الشأن «أنه في يوم الاثنين ثانى ربيع الآخر سنة ٨١٨هـ / ١٤١٥م، ركب السلطان من قلعة الجبل بأمرائه وماليكه ووجوه دولته وسار إلى حيث العمل في حفر البحر تجاه منشية المهراتى، ونزل في مخيم قد نصب له هناك، ونودى بخروج الناس للعمل في الحفر، وكتبت حوائيت الأسواق كلها فخرج في ذلك اليوم الناس طوائف طوائف ومع كل طائفة الطبول والزمور وهم فى لهو ولعب وغلقت الأسواق كلها واقبلوا على العمل ونقلوا التراب والرمل من غير أن يكلف أحد منهم فوق طاقته، وعمل جميع العسكر أيضاً من الأمراء والمماليك وجميع أرباب الدولة واتباعهم، ثم ركب السلطان بعد العصر، وقد مدت أسمطة جليلة فكان يوماً بالهزل واللهو أشبه منه بالجد، ووقف السلطان حتى فرض على كل أمير من الأمراء حفر قطعة بعينها له وعاد إلى القلعة واستمر العمل والنداء كل يوم بالقاهرة أن يخرج أهل الأسواق وغيرهم للعمل في الحفر». انظر: المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٣١٣، ابن حجر، انباء الغمر، ج٣، ص ٥٥، العيني، عقد الجمان، ص ٢٢٤، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٠-٢١.

وأصبح الأمراء الكبار يخرج واحد منهم يوميا ومعه طائفة من طوائف الشعب حتى صوفية الخوانق شاركت فى العمل، واستمر العمل طوال شهر ربيع الآخر وأثناء شهر جمادى الأولى أيضا^(١).

وقد صاحب ذلك الحفير عمل جسر يمتد من آخر خرطوم الروضة أى الطرف الشمالى لجزيرة الروضة إلى جزيرة أروى (الجزيرة الوسطى) ليتحول جريان ماء النيل إلى الشاطئ الشرقى فيمتلأ الخليج الناصرى شتاء وصيفا، وكذلك يجرى فى الخلجان والترع الأخرى المتفرعة من النيل مثل خليج الزريبة^(٢)، فلما قوى ماء النيل فى جمادى الأولى والناس منهمكون فى عمل الحفير والجسر وزاد الماء وبلغ أثنى عشر ذراعا، أكل الجسر وما فاد من تعب الناس فيه شيئا وراح على الناس تعبهم^(٣).

ومن الطريف أن العمل فى ذلك المشروع اتسم بالخفة والظرف دون غيره من المشاريع التى سادت فيها السخرة وهلك فيها بعض الناس من شدة العمل، إذ ذكر «المقريزى» الذى عاصر عمل هذا المشروع . . . خرج ركب الأمير الطنبغا القرشى بالفيل والزرافة بعدة بطول وزمور، وقد اجتمع هناك معظم الناس من الرجال والنساء للفرجة، فكثرت سخرتهم وتضاحك بعضهم على بعض^(٤).

وكما هو معروف عن المصريين خفة الدم فقد ألف الناس فى عمل الحفير والجسر البلاليق (وهى الأغاني الشعبية الهزلية) وصاروا يتغنون بها ويتضاحكون ويتهكمون على أنفسهم، فقد ذكر ابن اياس . . . انه لما زاد النيل وبلغ اثنى عشر ذراعا أكل ذلك الجسر وقد خرج المؤيد إلى الشام بسبب عصيان النواب عليه طلع مكان ذلك الجسر الذى عمره السلطان كوادى رمل^(٥)، فتهتك الناس على الفرجة عليهم، ونصبوا هناك الخيام على الروضة والمنشية ولا سيما العسكر كان غائبا مع السلطان، وصنفوا أهل مصر فى ذلك غنوة وهم يقولون هذه :

يارايح الشام غادى	سَلَّم وبوس الأيادى
وقل لجيش المؤيد	أدى الحريم فى الكوادى ^(٦)

(١) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٣١٥، العينى، عقد الجمان، ص ٢٢٣.

(٢) كان خليج الزريبة يخرج من ماردة الجبس بجوار مخرج الخليج الناصرى وموقعه الآن بجاردن سبتى بالقاهرة وكان يصب فى بولاق حيث يروى أراضيها، وانظر أيضا ما يلى ص ٣١٥.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص ٣٠-٣٢، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢١.

(٤) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٣١٣-٣١٤.

(٥) الكوادى كما يبدو هى قطع من الأرض مليئة بالرمال كانت محاطة بالماء على هيئة جزر صغيرة.

(٦) بدائع الزهور، ج٢، ص ٢١.

عمل الجسور والسدود لضبط النيل بالقاهرة في العصر المملوكي :

نظرا لوقوع القاهرة على الضفة الشرقية للنيل ، واعتماد الناس على حاجاتهم من الماء عن طريق نهلمهم من الشاطئ الشرقى للنيل من القسقاط جنوبا حتى شبرا شمالا ، وكان يقطع مسار النيل عدة جزر ، فقد كان النيل أحيانا تتدفق مياهه بسرعة وغزارة من الناحية الغربية من الجزر أى ناحية الجيزة وبولاق التكرور وامبابه ، ويجف أو تقل مياهه ناحية القسقاط والقاهرة فتربك حياة الناس وتحدث أزمات كبيرة ، لذلك فقد حرص السلاطين والأمراء على العمل على جعل الفرع الشرقى للنيل هو الفرع الأساس وتحويل المياه إليه بدلا من الفرع الغربى ناحية الجيزة ، لذا فقد أنشئت العديد من الجسور التى كانت عبارة عن سدود تصل بين جزيرة الروضة والجزيرة أو بين الروضة والجزر الأخرى لكى يتدفق الماء فى فرع سيالة الروضة حتى يحصل أهل القسقاط والقاهرة على حاجاتهم من الماء بسهولة .

وأحيانا يحدث العكس بحيث تزداد قوة الماء ناحية القسقاط والقاهرة فتغرق سواحلها والأحياء والخطط الواقعة على النيل مثل منشأة المهرانى وخط فم الخور وبولاق وشبرا فحيثئذ يعمل السلاطين والأمراء الجسور بحيث ترد الماء عن بر القاهرة .

وهذه الجسور على نيل القاهرة تنشأ لمواجهة الطوارئ وحالات طغيان النهر وغرق القاهرة أو جفاف مياه النهر تجاه ساحلها ومن ثم فهى تختلف عن الجسور الدائمة الأخرى التى كانت تمتد على النيل وفروعه والخلجان والترع التى تخدم أغراض الزراعة (١) .

(١) الجسور التى تخدم أغراض الزراعة على طول البلاد وعرضها كان كل منها عبارة عن سد ترابى مبنى على حافة النهر أو الترعة يحفظ الماء من أن يفيض على ضفتيه ويغرق البلاد المحيطة وتستمر هذه الجسور فى حجز مياه الفيضان كى يستفاد منها فى عمليات الرى ، حتى ينصرف النيل ويحول الخوف من خطر الفيضان العالى . وكانت الجسور من الأمور الهامة التى تؤثر على الحياة الاقتصادية فى مصر منذ القدم . وكانت فى مصر الإسلامية نوعان من الجسور الأولى هى الجسور السلطانية والثانية هى الجسور البلدية . أما الجسور السلطانية فهى تلك الجسور التى يعم نفعها كل الأرض الزراعية المصرية فى أنحاء البلاد ، لذا كانت تشيد وتتم صيانتها من الديوان السلطانى ولها رسوم مقررة على البلاد المصرية فى شكل جرائف ومحاوئ وأبقار مرتبة على غالب البلاد المصرية ، وكانت الدولة مسئولة عن إقامة وصيانة هذه الجسور وكان لها ديوان مخصوص يقوم العاملون به بتحصيل ضرائب سنوية تخصص لعملها وصيانتها ، وقد وصفت الجسور السلطانية بأنها بمثابة السور المحيط بالمدينة وعلى السلطان أن يهتم بهذا السور ويكفى الرعية أمر التفكير فيه . وكان لهذه الجسور السلطانية كاتب خاص مقرر فى ديوانه ما على كل بلد من الأبقار والجرائف .

أما الجسور البلدية فهى خاصة النفع بنواحى أو قرى معينة لذلك كانت مسئولة انشائها وصيانتها تقع على عاتق المقطعين الأرض فى هذه النواحى والقرى من الأمراء والأجناد وغيرهم من الفلاحين من الأموال الجارية فى اقطاعاتهم ، وقد وصفت هذه الجسور بأنها تماثل الدور الواقعة داخل نطاق سور المدينة (الجسور السلطانية) وبطبيعة الحال فإن كل صاحب دار من هذه الدور مسئول عن صيانة داره وحمايتها . انظر : ابن ممتى ، قوانين الدواوين ، ص ٢٣٠ - ٢٢٣ ، القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٤٤٨ - ٤٥٢ ، قاسم عبده قاسم ، النيل والمجتمع المصرى ، ص ٢٣ - ٢٤ .

وكانت طريقة عمل الجسور والسدود بنيل القاهرة تتم عن طريقين ، أما بتعليق أحد فرعى النيل وذلك بتغريق مراكب محملة بالأحجار وإهالة التراب والشقف والطمي والطين عليها لتعليقها حتى تصبح سدا محكما ، والطريقة الأخرى هى أن هذه الجسور تقام عن طريق عمل حائطين متوازيين من الأخشاب الصلبة . وافلاق النخيل وحشو ما بينهما بالتراب والشقف والأحجار وغيره (١) .

ومن أمثلة الجسور التى عملت لطرد الماء عن بر القاهرة ما حدث سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون حيث زاد النيل عن ثمانية عشر ذراعا ، وخرق الماء ناحية بستان الخشاب (٢) ودخل الماء إلى جهة بولاق وفاض إلى باب اللوق حتى اتصل بباب البحر وبساتين الخور (٣) فغرقت البساتين وهدمت عدة دور مطلة على النيل وكثير من دور الأحكار بطول شاطئ النيل ، فقام الفخر ناظر الجيش بهذا الأمر وعرف الناصر محمد أنه متى غفل دخل الماء إلى القاهرة وغرق أهلها ومساكنها ، فركب السلطان إلى النيل ومعه الأمراء فرأى ما هاله وفكر فيما يدفع ضرر النيل عن القاهرة فاقضى رأيه عمل جسر عند نزول الماء وانصرف ، فقيوت الزيادة وفاض الماء على منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة وغرق بساتين بولاق وجزيرة الفيل حتى صار ما بين ذلك ملقه واحدة ، وركب الناس المراكب للفرجة ومروا بها تحت الأشجار ، فأمر السلطان والى القاهرة والى مصر أن يلزما الناس أن يرموا الأتربة بناحية بولاق وفى الأماكن التى علا فيها النيل (٤) .

وكثر الخوف من غرق القاهرة ، وجمع أغلب الناس فى هذا العمل ، وكانت محاصيل كثيرة قد فسدت وتلفت وكذلك مظامير الغلال والمخازن وارتفعت بعض الأسعار وتأخر الزرع عن أوانه لكثرة مكوث الماء ، فكتب لولاه الأعمال بكسر الترع والجسور لكى ينصرف الماء عن أراضي الزرع إلى البحر المالح ، وأخذ السلطان فى عمل الجسور ، واستدعى المهندسين وأمرهم بإقامة جسر يصد الماء عن القاهرة خشية أن يكون نيل مثل هذا ، وكتب باحضار خولة البلاد ، فلما تكاملوا أمرهم فساروا إلى النيل وكشفوا الساحل كله فوجدوا ناحية جزيرة الفيل مما يلي منية السيرج قد صارت أرضها وطيفة ومن هناك يخاف على القاهرة من الماء ، فلما عرفوا السلطان ذلك أمر بإلزام كل من له دار على النيل بمصر أو منشأة المهرانى أو منشأة الكتبة أن يعمر قدامها زربية (٥) ففعلوا ذلك . وأمر السلطان الأمراء باستدعاء

(١) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ص ١٦٥ ، السلوك ، ج٣ ، ص ٤٦٩ - ٤٧٠ .

(٢) بستان الخشاب يشمل منطقة أبو الريش والقصر العيني ، وعنه بالتفصيل انظر ما يلى ص ٥١ .

(٣) عن خليج الخور وبستان الخور انظر ما يلى ص ٣١٠ .

(٤) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ص ١٦٦ ، السلوك ، ج٢ ، ص ٢٥١ .

(٥) الزربية هى ما يبنيه الناس من أصحاب البيوت المطلة على النيل من حوائط لحماية بيوتهم من فعل الماء ، ومن سبلالم لتسهيل الوصول من تلك البيوت إلى النهر كما هو متبع فى البيوت الباقية على شواطئ =

فلاحيههم من النواحي فحضرُوا بالأبقار والجراريف لعمل الجسر من بولاق إلى منية السيرج ،
فقاس المهندسون الأرض ووزعت بالأقصاب على الأمراء فنصب كل أمير خيمة وخرج
برجاله للعمل ونصبت لهم الأسواق حتى كمل الجسر فى عشرين يوما ، وكان ارتفاع الجسر
من الأرض أربع قصبات ^(١) فى عرض ثمان قصبات ، فانتفع الناس به انتفاعا كبيرا ، وقد أراد
السلطان بعمله لهذا الجسر أن لا تغرق البلاد مثلما غرقت سنة ٧١٧هـ / ١٣١٧م ^(٢) ، ومكان
الجسر الآن شارع التربة البولاقية من بولاق إلى منية السيرج .

وفى سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م قوى النيل على ناحية بولاق وهدم جامع الخطيرى ، ثم جدد ،
وتيار البحر يزداد قوة على بر القاهرة فأمر السلطان الملك الناصر محمد سكان دور شاطئ
النيل بعمر زرابى لجميع تلك الدور فلم يفد ذلك شيئا ^(٣) .

فاهتم الملك الناصر بهذا الموضوع اهتماما كبيرا حتى أنه طلب مهندسين من الشام بالإضافة
إلى مهندسى مصر ، فركب بعساكره وصحبته المهندسين وخولة الجسور وتوجه إلى شاطئ
النيل ونزل فى المركب السلطاني المسمى الحرافة وكشف أمر شطوط النيل فاقتضى الرأى أن
يعمل جسر بوسط النيل وأن يحفر بالجزيرة الوسطى خليجا منخفضا يمر فيه الماء ، وعند زيادة
النيل يقف السد حائلا للماء فيرتد إلى الناحية الأخرى للنيل بحيث يزيد على بر الجزيرة
وبولاق التكرور وامبابه ^(٤) .

وهذا هو الذى سماه المقرئى « الجسر بوسط النيل » ^(٥) ومما ذكره المقرئى وابن تغرى

= النيل بدمياط وسمند ورشيد ، كما كانت الزريبة أيضا مكان لتربية الخيول أو الماشية ، وكانت تحاط بزربى
(حزم) من البوص أو الغاب ثم يشد بالحبال ثم يطين ليزداد تماسكا ، وقد كانت هذه الزرابى تبنى على
ضفاف النيل والخلجان والترع حتى تحمى الدور من ارتفاع الماء ، وقد كانت هذه الزرابى منتشرة فى مصر
انتشارا كبيرا فى العصر المملوكى ، ومن معانى الزريبة أيضا هو الكورنيش . انظر : السلوك ، ج٢ ، ص
٢٥١ ، الحاشية .

(١) القصبه التى كانت تستعمل فى القياس فى العصر المملوكى هى القصبه الحاكمية وكان طولها يوازى الآن
٣٨٥ مترا . انظر : عبد اللطيف إبراهيم ، وثيقة قراقجا الحسنى مجلة كلية الآداب ، المجلد ١٨ ، الجزء
الثانى ، ديسمبر ١٩٥٦ ، ص ٢٣٦ .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ، السلوك ، ج٢ ، ص ٢٥١ .

(٣) الشجاعى (شمس الدين الشجاعى ، ت ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م) ، تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون
وأولاده ، (نشر فرانز شنابر ، فيسبادن ، ١٩٧٨) ، ص ٣١ ، المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٧ ،
السلوك ، ج٢ ، ص ٤٤٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٢ ، ص ١٢٥ .

(٤) المقرئى ، الخطط ، ص ١٦٧ ، السلوك ، ج٢ ، ص ٤٥٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٢ ، ص
١٢٦ - ١٢٧ .

(٥) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٧ .

بردى^(١) فى هذا الخصوص أرى أن هذا الجسر كان يصل ما بين حكر ابن الأثير جنوب بولاق وبين رأس الجزيرة الوسطى (بالقرب من موقع فندق شيراتون الجزيرة حالياً)، وأن الخليج الذى حفر كان بالجزيرة الوسطى^(٢). (شكل ٦).

وابتدأ العمل فى ذلك المشروع يوم الأحد عاشر من ذى القعدة سنة ٧٣٨هـ، وشأن تلك الأعمال التى تحتاج إلى أعداد كبيرة من الناس وسخرة فى العمل فقد تم استقدام الكثير من الناس من جميع أنحاء مصر، واستقدم الحجارون ورؤساء البحر وصناع السفن، وندب السلطان لهذا العمل الأمير أقبغا عبد الواحد والأمير برصبا الحاجب، وجمع واليا مصر والقاهرة والناس وسخروهم فى العمل حتى هلك عدد كبير منهم^(٣)، وكان السلطان ينزل إلى موقع العمل ويحث الأمير أقبغا على سرعة انجازه حتى تم العمل فى النصف الأول من ذى الحجة أى بعد شهرين فقط، وكانت عدة المراكب التى غرقت فيه وهى مشحونة بالحجارة اثني عشر مركبا سعة كل واحد منها ألف أردب غلة، وكانت عدة المراكب التى اشحنت بالحجارة المقطوعة ورميت فى البحر حتى صار جسرا يمشى عليه ثلاث وعشرين ألف مركب، وحفر الخليج بالجزيرة فلما زاد النيل جرى الماء فيها، وتراجع الماء عن بر القاهرة وقوى على بر الجيز وبولاق التكرور وامبابة، فسر السلطان والناس جميعا لما كان يعترهم من خوف على غرق القاهرة فكان هذا الجسر سبب انطراد الماء عنها^(٤).

نتج عن تلك الأعمال التى قام بها الناصر محمد تأثير جانبي كبير إذ أن النيل تحول إلى الغرب وبعد عن بر القاهرة وانكشفت أراضي كثيرة من قبالة منشأة المهراني إلى جزيرة الفي

-
- (١) نفسه، السلوك، ج٢، ص ٤٤٩ - ٤٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١٢٦ - ١٢٧.
- (٢) نظرا لعدم الدقة والتحديد من المؤرخين فى الكلام عن هذا المشروع اعتقد المرجح محمد رمزى أن الجسر كان يصل ما بين بولاق إلى رأس جزيرة الوراق، وأن الخليج الذى حفر كان بجزيرة الوراق وأنه هو الموجدو حاليا بين الجزيرة والشاطئ الغربى للنيل، انظر تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٢٤.
- إلا أن هذا الاعتقاد غير عملى لأن المسافة كبيرة بين بولاق ورأس جزيرة الوراق كى يتم عمل الجسر بها كذلك فإنه لا يخدم المناطق والخطط المعمورة المراد تجنبها زيادة النيل وهى تمتد من منشأة المهراني (القصر المعنى حاليا) إلى بولاق إلى منية السراج أى أنها توازى جزيرتى الروضة والوسطى بينما المنطقة التى توازى جزيرة الوراق تقع فى شبرا الخيمة أى بعيدة عن الغرض المراد، كما أن فراغ النيل غربى جزيرة الوراق الفرع الرئيسى للنيل ويبلغ اتساعه ضعف اتساع الفرع الشرقى.
- وباستعراض أقوال المؤرخين تبين لى أن الجسر كان يصل بين حكر ابن الأثير بجنوب بولاق (أمام فندق هيلتون رمسيس حاليا) إلى رأس الجزيرة الوسطى (جزيرة الزمالك حاليا) بالقرب من موقع فندق شيراتو الجزيرة حاليا، وأن الخليج الذى حفر كان بالجزيرة الوسطى.
- (٣) المقرئى، السلوك، ج٢، ص ٤٥٠، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١٢٧.
- (٤) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ٣١ - ٣٢، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١٢٨، المقرئى الخطط، ج٢، ص ١٦٧، السلوك، ج٢، ص ٤٤٩ - ٤٥١.

وإلى منية السيرج، وصار الناس يجدون مشقة لبعدها عن القاهرة، وغلت روايا الماء، وكذلك ضعف تيار الماء بسيالة الروضة وصار الماء يخاض بالأرجل من بر مصر إلى المقياس، فكثرت شكاوى الناس بسبب ذلك، وجرت عدة محاولات أثناء سلطنة الكامل شعبان (٧٤٦ - ٧٤٧هـ / ١٣٤٥ - ١٣٤٦م)، وسلطنة أخيه حاجي (٧٤٧ - ٧٤٨هـ / ١٣٤٦ - ١٣٤٨م) لعمل سدود بين الجزيرة والمقياس حتى يتحول الماء إلى ناحية سيالة الروضة والقاهرة، ولكن تلك المحاولات باءت بالفشل^(١).

فلما كان في سنة ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م في سلطنة الملك الناصر حسن ازداد احتراق النيل عما دى قبل، وازدادت الرمال على الجانب الشرقى للنيل بطول ساحل مصر والقاهرة حتى بولاق، فاقتضى الرأى عمل جسرين، الأول بين المقياس والجزيرة والآخر بين جزيرة الروضة والجزيرة الوسطى ليعود جريان النيل ناحية الفسطاط والقاهرة، وكان المشرف على ذلك الوزير منجك، فجهز ما يحتاج إليه في عمل الجسرين، وكانت طريقة عمل الجسرين أن تقام الأخشاب بجانبى كل جسر منهما وردم التراب والحجارة في وسطه مع الحلفاء وتم قطع الطين من بر الروض ورميه بوسط الجسر وغرقت عشرة مراكب مملوءة حجارة في وسط جسر المقياس وردم عليها التراب، واستمر العمل أربعة أشهر من مستهل المحرم إلى آخر ربيع الآخر ٧٤٩هـ^(٢).

وكان منجك قد حفر أيضا خليجاً تحت الدور من موردة الحلفاء إلى بولاق (شكل ٣٧) فلما زاد النيل جرى الماء ودخلته المراكب الصغار ففرح الناس به وسروا سروراً زائداً ونسوا ما نزل بهم من الغرامة والمشقة، وكانت قد جبيت أموال كثيرة بسبب ذلك المشروع، ولم يتم من العمل سوى ثلثيه وقويت الزيادة فبطل العمل ولم تزل تقوى حتى علا الماء على جسر الروضة وكاد يقطعه فركب منجك ومعه والى الجزيرة وخلائق كثيرة من العامة والأمراء وردمه بالتراب فاندفع الماء إلى جهة الميدان السلطاني وزرية قوصون^(٣).

وكان طول جسر الجزيرة الوسطى مائتى وتسعين قصبة في عرض ثمانى قصبات وارتفاع أربع قصبات وطول جسر المقياس (الذى بين المقياس والجزيرة) مائتى وثلاثين قصبة، وعدة مارمى في هذا العمل من المراكب المشحونة بالحجارة اثنى عشر ألف مركب سوى التراب والطين وغرم عليه مالا يمكن خصره، ويقال أنه جبى من الناس بسببه زيادة على ثلاثمائة ألف دينار، ويذكر «المقريزى» أنه بقى من جسر منجك هذا بقية كانت موجودة على أيامه في طرف الجزيرة الوسطى^(٤).

(١) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٦٧ - ١٦٨، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٠، ص ١٣٠ - ١٣١.

(٢) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٦٩. (٣) نفس المصدر والنصفحة.

(٤) عن ذلك بالتفصيل انظر: المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٦٨ - ١٦٩، السلوك، ج٢، ص ٧٦١ - ٧٦٦.

ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٥٢١ - ٥٢٣.

وفى عام ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م كان النيل منطرداً عن بر القاهرة فأراد الأمير جهار كرس الخليلي أن يعود الماء إلى بر القاهرة طول العام لذا بدأ فى شهر ربيع الأول من نفس السنة بعمل جسر بين الطرف الشمالى لجزيرة الروضة والطرف الجنوبى لجزيرة أروى (الجزيرة الوسطى) فاقام الخوازيق من خشب السنط وسمر فيها أفلاق النخيل الممتدة كالستارة وألقى بين الخوازيق تراباً كثيراً، بالإضافة لذلك حفر فى وسط النيل خليجاً من الجسر إلى زريبة قوصون (شكل ٣٧)، وغرم جهار كرس أموالاً كثيرة فى ذلك من ماله الخاص، ومع ذلك لم يأت ذلك الجسر بما كان مرجواً منه، بل حدث عكس ذلك تماماً، فقد ازداد الماء انطراداً عن بر القاهرة ومصر حتى لقد انكشف بعد عمل هذا الجسر شئ كثير من الأراضي التى كانت غامرة بماء النيل، وبعد النيل عن القاهرة بعدما لم يعهد فى الإسلام مثله قط^(١).

أما فى العصر العثماني (٩٢٣ - ١٢١٣هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨م) فلم يرد لنا ذكر لأعمال جسور وسدود لضبط النيل تجاه القاهرة، وإنما اهتمت تلك الأعمال اهمالاً كبيراً فقد قال المنوفى (ت ٩٣١هـ / ١٥٢٤م) عن سوء الحال الذى وصل إليه أمر الجسور فى آخر العصر المملوكى وأول العصر العثماني . . . تهدم فى زماننا الجسور وتحكم الفساد وخربت البلاد ووسد الأمر إلى غير أهله ووضع الشئ فى غير محله ولا جرم أن حل بالناس ما حل وانفرط نظام المملكة وانحل^(٢).

ثالثاً : الخطط التى عمرت فى العصرين المملوكى والعثمانى على أرض طرح النيل بالقاهرة

نتيجة لظاهرة طرح النيل تكونت أراضي جديدة على طول ساحل النيل الشرقى بمواجهة الفسطاط والقاهرة، ومن هذه الأراضي التى ظهرت بفعل طرح النيل الأرض التى كونت منطقة مصر القديمة التى تكونت تماماً خلال الخمسة طروح الأولى النيل فى المسافة المحصورة الآن فيما بين أثر النبى جنوباً حتى فم الخليج شمالاً.

وفى العصر المملوكى طرح النيل أراضي جديدة على طول ساحل النيل وسرعان ما امتدت إليها يد التعمير إلى جانب زراعتها وغرس البساتين المثمرة بها، وكانت هذه المناطق والخطط

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٦٩ - ١٧٠، السلوك، ج٢، ص ٤٦٩ - ٤٧٠، ابن حجر، انباء النعم، ج٣، ص ٢٥٣ - ٢٥٤، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٢١٣ - ٢١٤، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق محمد أمين، (ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م) ج٤، ص ٢٠٦. السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٠٦، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٣٠٤ - ٣٠٥.

(٢) الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، (مخطوط بدار الكتب المصرية)، ص ٤٨ - ٤٩.

الجديدة من متنزعات القاهرة الحسنة لوقوعها على ساحل النيل وغرسها بالبساتين والحدائق والحقول .

وهذه الخطط والمناطق والسواحل الجديدة هي بالترتيب من الجنوب إلى الشمال :

- | | |
|---------------------|---------------------------------------|
| (١) خط موردة الحلفا | (٢) منشأة المهراني |
| (٣) خط منشأة الكتبة | (٤) خط موردة البلاط والميدان السلطاني |
| (٥) خط زربية قوصون | (٦) خط فم الخور وحكر ابن الأثير |
| (٧) بولاق | (٨) جزيرة الفيل (شكل ٧) |

(١) خط موردة الحلفا^(١) :

انحسر النيل عدة مرات أمام مدينة الفسطاط حتى استقرت الأرض تماما بعد الطرح الخامس له . وقد كان ساحل النيل بعد انحساره الأول يعرف باسم موردة سوق السمك أمام سيالة الروضة^(٢) ثم عرف بعد ذلك باسم موردة الحلفا وربما لنمو نبات الحلفا به .

وكان الاهتمام بتلك المنطقة يرجع إلى آخر الدولة الأيوبية إذ كان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧هـ - ٦٤٧هـ / ١٢٣٩ - ١٢٤٩م) يحفر في كل عام سيالة الروضة ويرمي ناتج الحفر على الأرض أمامها في تلك المنطقة حتى تكونت الأرض وتماسكت واشتدت فبدأ العمران يزحف إليها فبنى الأمراء بها الدور والمناظر والقصور وأنشأوا حولها البساتين^(٣) .

وفى زمن الدولة المملوكية ازداد العمران بها وخصوصا أيام الناصر محمد بن قلاوون وصار ساحل النيل أمام موردة الحلفا ميناء تقف بها المراكب المحملة بالغلال ويملا الناس منها الروايا^(٤) .

وقد عمر الملك الناصر محمد قلاوون جامعا كبيرا حسنا بموردة الحلفا وصفه المؤرخون بأنه من أحسن متنزعات مصر ، وقد تم بناؤه في سنة ٧١٢هـ / ١٣١٢م وكان يسمى الجامع الناصري الجديد وربما جاء هذا الاسم من التعمير الجديد لتلك الخططة في ذلك الوقت ، وكان

(١) من معاني الموردة في اللغة «مأناه الماء» ، «الطريق إلى الماء» ، وكانت تنتشر على نهر النيل والخلجان كثير من هذه الموردة التي يستقي الناس من عندها . انظر مادة «موردة» في القاموس المحيط للفيروزابادي ، وفي المعجم الوجيز لمجمع اللغة العربية .

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٧٧ ، المقرئ ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٤٥ ، ج٢ ، ص ٣٠٤ .

(٣) ابن دقماق ، نفس المصدر والصفحة . المقرئ ، نفس المصدر والصفحات .

(٤) المقرئ ، نفس المصدر ، ج١ ، ص ٣٤٥ .

هذا الجامع مبنى على نسق المساجد الجامعة فكان يتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به الأروقة ، وقد ألحق بهذا الجامع جماعة كبيرة من المتصوفة ، وقد عمر حول الجامع الدور والبساتين ، وظل الجامع عامرا فترة من الزمن حتى خرب ما حوله ، وكان فيه بقية حتى أيام المقرئى (ت ٨٤٥هـ)^(١) وقد اندثر هذا الجامع الآن وكان موقعه المنطقة التى يخترقها اليوم شارع السكر والليمون جنوبى فم الخليج بمصر القديمة .

وتشغل موردة الحلفا الآن المنطقة التى تحد من الجنوب بمنطقة دير النحاس بجوار نفق الملك الصالح وتمتد شمالا حتى سور مجرى العيون فم الخليج (شكل ٨) .

وكان يتعاقب على موردة الحلفا فى العصرين المملوكى والعثمانى فترات تتراوح ما بين العمران أحيانا والخراب أحيانا أخرى ، الذى كان يأتيها نتيجة طغيان فيضان النيل على مبانيها فيدمرها ويغرق بساتينها وزروعها ، وبالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية نجد صفًا من المباني المتصلة على النيل بموردة الحلفا وخلفها بساتين وحقول .

(٢) منشأة المهرانى :

تلى منشأة المهرانى^(٢) موردة الحلفا وكانت من أهم متنزهات مصر فى العصرين المملوكى والعثمانى وذلك لوقوع الاحتفال بمهرجان وفاء النيل وكسر سد الخليج بها .

ظهرت أرض منشأة (منشأة) المهرانى أول مرة نتيجة انحسار النيل بعد سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م ، وقد عمرت فى زمن الدولة الأيوبية حيث أقام القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى^(٣) جامعا وبستانا عظيما بها ، وعمرت الدور حينئذ بجوار الجامع فقبل لها منشأة

(١) عن هذا الجامع بالتفصيل ، انظر : بيبس المنصورى (ركن الدين بيبس عبد الله المنصورى الدوادار ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م) ، التحفة المملوكية فى الدولة التركية ، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان (نشر الدار المصرية اللبنانية ، القاهرة ، ١٩٨٧) ص ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠٤ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ١٠٢ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ٦٥ ، ابن دقماق ، الانتصار ج ٤ ، ص ٧٦-٧٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٣٣ .

(٢) المنشأة تعبير يطلق على حى جديد بجانب مدينة بتخطيط جديد ، ويسمى الناس المنشية ، واسم المنشية منتشر فى كثير من مدن وقرى مصر . انظر : محمد كمال السيد ، أسماء ومسميات من مصر القاهرة ، (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٦م) ، ص ٢١١ .

(٣) هو القاضى الكاتب الأديب عبد الرحيم بن على البيسانى ، من أسرة أدبية كبيرة ، وقد تولى فى آخر الدولة الفاطمية وأول الدولة الأيوبية عدة وظائف هامة وكان أهمها ديوان الانشاء وقد توفى سنة ٥٩٦هـ / ١٢٠٠م . انظر بالتفصيل : المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦٦-٣٦٧ .

ومن الجدير بالذكر أن مصلحة التنظيم أطلقت على شارعين متوازيين بالنيرة متفرعين من شارع القصر العينى ، أمام دار الحكمة اسمى شارع بستان الفاضل نسبة لبستانه الذى كان بتلك المنطقة والشارع الثانى =

الفاضل ، وكان بستان الفاضل يغذى القاهرة بالعنب والثمار ، وظلت المنشأة عامرة حتى طغى النيل عليها فخبث سنة ٦٦٠هـ / ١٢٦٢م^(١).

وقد عين «المقريزى» موقع منشأة المهرانى وتحدث عن تعميرها فى العصر المملوكى فقال : «أن موضعها فيما بين النيل والخليج وفيها من الحمراء القصى فوهة الخليج ، انحسر عنها ماء النيل قديما وعرف موضعها بالكوم الأحمر من أجل انه كان يعمل فيها أقمنة الطوب ، فلما سأل الصاحب بهاء الدين بن حنّا الملك الظاهر بيبرس فى عمارة جامع بهذا المكان ليقوم مكان الجامع الذى كان بمنشأة الفاضل أجابه إلى ذلك وأنشأ الجامع بخط الكوم الأحمر ، وأنشأ هناك الأمير سيف الدين بلبان المهرانى دارا وسكنها وبنى مسجدا فعرفت هذه الخطة به وقيل لها منشأة المهرانى ، فإن المهرانى المذكور أول من ابتنى فيها بعد بناء الجامع ، وتتابع الناس فى البناء بمنشأة المهرانى وأكثروا من العمارة حتى يقال أنه كان بها فوق الأربعين من أمراء الدولة سوى من كان هناك من الوزراء وأمائل الكتاب وأعيان القضاة ووجوه الناس ، ولم تزل على ذلك حتى انحسر الماء من الجهة الشرقية فخربت وبها الآن بقية يسيرة من الدور^(٢).

وذكر «المقريزى» المنشية وعين حدودها وما يجاورها فى مواضع أخرى من الخطط^(٣).

وذكر «ابن دقماق» منشية المهرانى ففى كلامه عن الروضة قال «أن جامع الفخر (جامع قايتباى حاليا) بآخر الروضة عند المنيل تجاه طرف منشية المهرانى»^(٤) وكذلك ذكر «ابن دقماق» أسماء العديد من المساجد والمدارس التى بنيت فى منشية المهرانى^(٥)، وذكر أيضا أن الملك الظاهر بيبرس أمر بعمل جامع بها سنة ٦٧١هـ / ١٢٧٢م^(٦) ولكن المؤرخ «ابن تغرى بردى» ذكر أنه قد أقيمت الخطبة بجامع الظاهر هذا يوم الجمعة ثامن عشر من شهر ربيع الآخر سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م^(٧).

= اسم شارع عبد الرحيم اليسانى أى اسم القاضى الفاضل نفسه .

بالإضافة لذلك أطلقت مصلحة التنظيم على شارع ثالث اسم شارع منشأة الفاضل يصل بين شارعى يوسف الجندى وقدادار شرقى ميدان التحرير ، وهذا الموقع بعيد عن منشأة الفاضل التى كانت بأول القصر العينى .

(١) ابن دقماق، الانتصار، ج٤ ، ص ١١٩ ، المقريزى، الخطط، ج١ ، ص ٣٤٥-٣٤٦.

(٢) الخطط، ج١ ، ص ٣٤٦ . (٣) ج١ ، ص ٣٤٣، ج٢ ، ص ١٠٩، ١١٤، ١٤٦.

(٤) الانتصار، ج٤ ، ص ١١٦ . (٥) نفسه، ص ١١٩-١٢٠ . (٦) نفسه ، ص ١١٩.

(٧) النجوم القاهرة، ج٧ ، ص ١٥٠ ، يحدث دائما أن يتم انشاء إيوان القبلة فى أى مسجد أو جامع أولا فيفتتح ويصلى به الجمعة ثم تستكمل باقى الأعمال بعد ذلك ، وعلى ذلك نقول أن افتتاح مسجد الظاهر هذا تم فى ربيع الآخر سنة ٦٦٩هـ حسبما ذكر ابن تغرى بردى ، وإن استكمال المسجد كله تم سنة ٦٧١هـ حسبما ذكر ابن دقماق .

هذا الجامع كان واقعا على الأرض الواقعة على شارع القصر العينى تجاه معهد ومستشفى الكلب من الجهة الشرقية قرب فم الخليج ، وقد اندثر حاليا ، انظر : محمد رمزى ، تعليقه على النجوم ، ج٧ ، ص ١٥٠ .

وقال «القلقشندي» عن منشأة المهراني أيضا «ويبدو في آخر القسقاط وهذه الجزيرة (يقصد الروضة) على فوهة خليج القاهرة حيث السد الذي يفتح عند وفاء النيل مكان كالجزيرة يعرف بمنشأة المهراني، وكان كروما يحرق فيه الآجر يعرف بالكوم الأحمر عده القضاء في جملة كيما القسقاط، وقال صاحب ايقاظ المتغفل وأول من ابتدأ العمارة يلبان المهراني في الدولة الظاهرية ببيرس فنسبت المنشأة هذه إليه» (١).

ومن خلال ما ذكر نقول أن منشأة المهراني تشغل اليوم المنطقة التي تحد اليوم من الغرب بسيالة الروضة ومن الجنوب بميدان ومنتزه فم الخليج اللذين حلا محل فم الخليج المصري، والحد الشرقي يتمثل في خط يصل بين شارع العيون جنوبا حتى أول شارع المنيرة شمالا، والحد الجنوبي يتمثل في شارع بستان الفاضل وما في امتداده أي شارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادي كرومر سابقا) حتى كوبري القصر العيني (٢) (كوبرى محمد علي سابقا) (شكل ٩).

وكانت منشية المهراني عامرة عمارة كبيرة في العصر المملوكي، وكانت تحوى مساجد ومدارس كثيرة (٣)، وحمامات عامرة مثل حمام ابن أبي الخوافر المتوفى ٦٥٧هـ (٤)، وخانقوات مثل خانقاة ارسلان الدوادار المتوفى ٧١٧هـ / ١٣١٧م (٥)، وكان للسلطان الملك المؤيد شيخ معصرة في منشأة المهراني لاستخلاص السكر والعسل (٦).

وكانت منشية المهراني تتعرض أحيانا للخراب في المحن والأزمات التي حلت بمصر نتيجة نقص النيل وطغيان الرمال على السواحل بالإضافة للفتن والقلقل التي قامت بها طوائف المماليك، ومن أكبر هذه الأزمات الأزمة التي حدثت سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م وما تلاها، ولكن

(١) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد، ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)، جح الاعشى في صناعة الانشاء، (ط دار الكتب المصرية، ١٩١٤م) ج٣، ص ٣٤٠.

(٢) أطلقت مصلحة التنظيم اسم منشأة المهراني على شارع متعامد على شارع قدادار شرقي ميدان التحرير وهذا الموقع بعيد عن الموقع الأصلي لمنشأة المهراني. ولكننا نجد شوارع باسم سكة المنشأة متفرع من شارع القصر العيني يتفق وموقع منشأة المهراني. انظر أيضا: محمد رمزي، تعليقه على النجوم، ج٩، ص ١٨٤.

(٣) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٩٠، ١١٩، ١٢٠.

(٤) نفسه ص ١٠٤، ١٠٥، المقرئ، الخطط، ج٢، ص ٨٥، ابن الصيرفي (الخطيب الجوهري على بن داود الصيرفي ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م)، نزهة النفوس والأبدان، تحقيق حسن حبشي، ج٢، (ط دار الكتب المصرية، ١٩٧١م)، ص ٤٧٩.

(٥) المقرئ، الخطط، ج٢، ص ٤٢٣، ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص ٣٠١.

(٦) وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ المحفوظة بالأوقاف، نشر فهمي عبد العليم، العمارة الإسلامية بمصر في عصر السلطان المؤيد شيخ، دكتوراة «مخطوطة»، (كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٨) ص ٢٠٤-٢٠٥ سطور ٢٣٦-٢٤٠.

سرعان ما عاد العمران إليها مرة أخرى وخاصة لما قام الملك المؤيد شيخ بحفر النيل ، ومن أجل حماية المنشية عمل المؤيد جسراً بطولها عند الحفر^(١) .

ومن الأعمال العظيمة بالمنشأة ما قام به الأمير جاني بك نائب جده الدوادار^(٢) ، فقد أنشأ بستاناً عظيماً كان محله كوم وبركة ، وقد انتهى منه بعد شهرين فقط وكان ذلك في شهر ربيع الأول ٨٦٣هـ ، وقد كان كوما خبيثاً تتم به بعض الأمراض الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك الوقت من استعماله لأموال الفساد وشرب المسكرات فصار بستاناً نزهاً^(٣) ، وفي سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢ أكمل زراعة البستان وجعل به بحيرة ، وكان هذا البستان يقع شمال منشأة المهراني وكانت مساحته ١٥٠ فداناً^(٤) ، وكان له باب قريب من خط قناطر السباع (السيدة زينب حالياً) وباب آخر على النيل تجاه الروضة ، وعمل جاني بك بطرف بستانه على النيل قبتين واحدة كبيرة والأخرى صغيرة ، وعمل رصيغا على النيل ، وانزل بالقبتين جماعة من صوفية الأعاجم وأجرى عليهم الرواتب الهائلة وأوقف عليهم أوقافاً كثيرة ، وقد أقام جاني بك احتفالات كبيرة ببستانه وقبته^(٥) ، وقد استخدمت تلك القبتان كمتنزه عظيم بقية العصر المملوكي وطوال العصر العثماني^(٦) .

وعمرت المنشأة عمارة عظيمة وهوت إليها القلوب والأفئدة للتنزه والاستمتاع بأوقات حسنة خصوصاً بعد أن أنشأ بها الأمير شهاب الدين أحمد بن العيني^(٧) قصراً عظيماً يطل

(١) السخاوي (محمد بن عبد الرحمن ، ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٧م) ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (نشر مكتبة القدسي بمصر ، ١٩٥٣) ، ج٣ ، ص ٣١ .

(٢) هذا الأمير من كبار أمراء دولة المماليك الجراكسة ، وقد تولى وظائف هامة في الدولة ، وقد قتل سنة ٨٦٧هـ / ١٤٦٢ . انظر ترجمته في : ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص ٢٧٧ ، ٣٢٠-٣٢٣ ، المنهل الصافي ، ج٤ ، ص ٢٤٣-٢٤٨ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج٤ ، ص ٥٧ .

(٣) ابن تغري بردي ، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، (نشر وليم بيبر ، ط كاليفرنيا ، ١٩٣٠) ، ج٢ ، ص ٣٢١ .

(٤) يساوي الفدان الآن ٤٢٠٠ متر مربع .

(٥) ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٢٧٧ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، حوادث الدهور ، ج٣ ، ص ٥٦٦-٥٦٩ ، ص ٧٦٦-٧٦٨ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٤٠٦ ، ٤٤٩ .

(٦) Abouseif, (D), The Coppas, An Aristocratic Type of Zawiya An Isl XIX IFAO (1983) p. 2 - 3.

(٧) هو أحمد بن عبد الرحيم بن فاضل القضاة بدر الدين محمود العيني الحنفي ، تولى عدة وظائف هامة في الدولة ، ورقى لمنصب أمير مائة مقدم ألف ، وكان له شأن كبير أيام السلطان خشقدم ولكنه تعرض لمحن وشدائد أيام قايتباي وقانصوه أبو سعيد ، وقد توفى بالمدينة المنورة ودفن بالبقيع ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م . انظر ترجمة كاملة في : ابن تغري بردي ، النجوم ، ج١٦ ، ص ٢٧١ ، ٢٨٣ ، ٢٩٥ ، ٣٧٩ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٣٤٥-٣٤٦ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٥٧-٥٨ .

على النيل بجوار بستان چانى بك بجوار القبتين فى سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م^(١)، وكان هذا القصر والبساتين حوله وقتنا چانى بك متنزهات عظيمة للسلطين والولاة والأمراء والناس جميعا فى العصرين المملوكى والعثمانى^(٢).

وقد غلب اسم قصر العينى على المنطقة منذ ذلك الوقت وحتى الآن، وكان السلطان قايتباى (٨٧٢-٩٠١هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦م) كثير التنزه بالمنطقة وقد أمر باصلاح جامع يسمى جامع الرحمة ببستان نائب جدة^(٣).

وفى العصر العثمانى كان القصر العينى محطة استقبال لولاة مصر العثمانية، وعمرت قبتا چانى بك طول العصر، واستخدمت كتكية عظيمة لطائفة المتصوفة البكتاشية^(٤)، وكانت منطقة القصر العينى من المناطق المفضلة لسكنى العديد من الأمراء ذوى النفوذ فى القرن ١١هـ / ١٧م وكانوا يدعون الباشا إلى هناك لحضور حفلات باذخة، وقرب نهاية القرن كان يأتى للإقامة هناك الباشوات المعزلون أو الحديثو التعيين بدلا من الإقامة داخل القاهرة^(٥).

وقد أجريت على القصر العينى عدة عمارات ففى سنة ١٠٨٣هـ / ١٦٧٢م أنشأ والى مصر إبراهيم باشا كتبخدا الوزير^(٦) قصرا فى الركن الجنوبى، كما ضم إليه والى عبد الرحمن باشا^(٧) قصرا آخر فى سنة ١٠٨٨هـ / ١٦٧٧م^(٨).

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٥٤١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٤٩.
(٢) انظر ما يلى ص ٤٥٩. (٣) السخاوى، الضوء اللامع، ج٦، ص ٢٠٨.
(٤) التكية مكان لخلوة الصوفية الاعجام ويسمون الدراويش المتفرغين للعبادة، وكانت تجرى عليهم الأرزاق بما يلزمهم من مأكول ومشرب وملبس من أوقاف خاصة، وقد حلت التكايا فى العصر العثمانى محل الخانقاوات المملوكية، وفقدت التكايا فى العصر العثمانى الغرض الدراسى الذى كانت تقوم به الخانقاوات المملوكية، وتكاد تكون اختصت بالعاطلين فقط. انظر: سعاد ماهر، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية القاهرة، ١٩٨٣، ج٥) ص ٤٩، ٩٦، دولت عبد الله، معاهد تركية النفوس، (القاهرة، سنة ١٩٨٠م).

(٥) اندريه ريمون، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية، ص ٢٠٢-٢٠٣.
(٦) تولى إبراهيم باشا فى الفترة من محرم ١٠٨١هـ حتى آخر جمادى الأولى ١٠٨٣هـ (يونيه ١٦٧٠ - سبتمبر ١٦٧٢م) انظر بالتفصيل: أحمد شلبى (أحمد شلبى بن عبد الغنى الحفنى المصرى، ت ١١٥٠هـ / ١٧٣٧م)، أوضح الاشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشات الملقب بالتاريخ العينى، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن، (نشر مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٧٨م)، ص ١٧٠-١٧٢. ابن الوكيل (يوسف الملوانى الشهير بابن الوكيل)، تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والثواب، (مخطوط بمكتبة رفاعة بسوهاج، تحت رقم ٢٨ تاريخ) ص ٢١١-٢١٤.
(٧) تولى عبد الرحمن باشا من ربيع الثانى ١٠٨٧ حتى عزل فى غاية شعبان سنة ١٠٩١هـ (١٦٧٦-١٦٨٠م). انظر بالتفصيل: أحمد شلبى، أوضح الاشارات، ص ١٧٥-١٧٧، ابن الوكيل، تحفة الاحباب، ص ٢١٦-٢١٧.

(٨) حسن الباشا، القصر العينى تاريخ وأثر، (مذكرة)، ص ٥.

كما كانت المنطقة تحتوى فى النصف الثانى فى القرن ١١هـ / ١٧ على ثلاثة وأربعين مقعدا أو منظرة تطل على النيل كما ذكر الرحالة التركى أوليا شلى^(١).

وقد ذكر على مبارك فى خططه أن تكية القصر العينى فيها قبتان مفروشتان بالرخام والترابيع (وهما قبتا جانى بك)، وقد ألحق حسين قبودان بإحدى القبتين سيلا سنة ١١٩٧هـ / ١٧٨٣م وكان للتكية فدانان فيهما النخيل والأشجار، وفى سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٧م عمر التكية حسن باشا فبنى أسوارها وأسوار الغيطان الموقوفة عليها المحيطة بها وأنشأ بها صهريجاً وأنشأ بجانبها مصلى^(٢).

وفى أثناء الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣-١٢١٦هـ / ١٧٩٨-١٨٠١م) حولوا القصر إلى مستشفى وزودوه بالحصون، ثم أقام محمد على باشا قشلاق للجند فى سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٢م ومبنيين بعد ذلك سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م وجعل كل ذلك مستشفى.

وبالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية للموقع نجد أن منشية المهرانى عبارة عن أراضى زراعية وبساتين يتوسطها القصر العينى وبيوت قليلة حوله مثل بيت مصطفى بك شمالاً وبيت محمد كاشف الأرنؤوط جنوباً.

(٣) خط منشأة الكتبة :

عمر هذا الخط أيام الناصر محمد بن قلاوون، فقد كان الناصر قد أنشأ زريبة^(٣) له قبلى الجامع الطيرسى^(٤) فى أرض بستان

(١) نفسه .

(٢) الخطط التوفيقية (ط ١٩٨٧م)، ج٢، ص ١٦٢-١٦٣، ملحوظة : استعملت هذه الطبعة الجديدة من الخطط التوفيقية من الأجزاء الثمانية الأولى وطبعة بولاق القديمة (٤١٣٠-١٣٠٦هـ) فى باقى الأجزاء .

(٣) عمر الناصر محمد الزريبة قبلى جامع الطيرسى وحفر لأجل هذه الزريبة البركة التى عرفت باسم البركة الناصرية ليستعمل طينها فى بناء الزريبة، وأنشأ فوق هذه الزريبة دار وكالة وربيعين عظيمين جعل أحدهما وقفا على الخانقاه التى أنشأها بناحية سرياقوس، وأنعم بالآخر على الأمير بكتمر الساقى، فأنشأ الأمير بكتمر بجواره حمامين أحدهما يرسم الرجال والآخر يرسم النساء . انظر : المقرئى، الخطط، ج٢- ١٣٢، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٣٢، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٣، ص ٢٢٦، ويمثل موقع الزريبة اليوم المنطقة الواقعة على النيل بجاردن سيتى المحصورة بين شارع ورشة التملك جنوباً حتى شارع عبد القادر حمزة الذى به فندق شبرد شمالاً .

(٤) جامع الطيرسى ذكره المقرئى فقال « عمر هذا الجامع الأمير علاء الدين طيرس الخازندار نقيب الجيوش بشاطئ النيل فى أرض بستان الخشاب وعمر بجواره خانقاة فى جمادى الأولى سنة ٧٠٧هـ، وكان من أحسن متنهات مصر وأعمرها، وقد خرب ما حوله من الحوادث والمحن بعد سنة ٨٠٦هـ بعد ما كانت العمارة متصلة إلى الجامع الجديد بمصر ومنه إلى جامع الخطيرى ببولاق، ويركب الناس المراكب للفرجة =

الخشب^(١)، فعمر الأمراء والكتاب الدور الجلييلة هناك فقد عمر المكين إبراهيم بن قزوينه ناظر الجيش جنوب زريبة الناصر محمد دار جلييلة وعمر أيضا صلاح الدين الكمال والصاحب أمين الدين عبدالله بن الغنام وعدة من الكتاب فليل لهذه الخطة منشأة الكتاب^(٢).

وظلت منشأة الكتبة عامرة حتى خربت ضيمن ما خرب من خطط القاهرة في الأزمات والمحن التي حدثت ابتداء من سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م^(٣)، إلا أن تلك المحن لم تستمر طويلا فسرعان ما عاد للقاهرة رونقها بعد ذلك وشمل التعمير أرجاءها وعمر خط منشأة الكتبة من ضمن الخطط التي كانت على النيل عندما حفره المؤيد شيخ ما بين الجامع الناصري وبين جامع الخطيرى سنة ٨١٨هـ^(٤).

وفي العصر العثماني تحولت منشأة الكتبة للنشاط الزراعى فحفلت بالحقول والبساتين، وكانت من متنزهات القاهرة^(٥).

= من هذا الجامع إلى الجامعين المذكورين مصعدين ومنحدرين في النيل، ويجتمع بهذا الجامع الناس للترهة فتمر به أوقات ومسررات لا يمكن وصفها، وقد خرب هذا الجامع وأقفر من المساكن وصار مخوفا بعد ما كان ملهى وملعبا، الخطط، ج٢، ص ٣٠٤. وقد حقق المرحوم الأستاذ محمد رمزي موقع هذا الجامع وقال أنه شاهد بنفسه الخانقة التي كانت بجواره والتي كانت معروفة باسم جامع الأربعين، وهذا الموقع تشغله الآن عمارة سكنية تقع بين فندق سميراميس وجامع عمر مكرم، في شارع كمال الدين صلاح (الشيخ بركات سابقا)، وهذا الموقع موقع على خريطة القاهرة للآثار الإسلامية (لوحة ١) قبل هدمه باسم جامع الشيخ منصور وبركات. انظر: تعليق محمد رمزي على النجوم الزاهرة، ج٧، ص ١٩٨.

(١) عن بستان الخشاب، انظر مايلى، ص ٥١.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٣٢.

(٣) هذه المحن والحوادث التي مرت بها مصر ابتداء من سنة ٨٠٦هـ، وكان لها تأثير كبير على القاهرة وأدت إلى خراب بعض أحيائها وخططها، كان مردها إلى انخفاض النيل بدرجة كبيرة في ذلك الوقت مما أدى إلى حدوث أزمات اقتصادية كبيرة وحدوث غلاء في الأسعار، وصاحب ذلك أوبئة أثرت على خفض ثلث سكان القاهرة، كما أن النيل انحسر وتقلص نحو الغرب فأنكشفت أراضي كثيرة وعلا الرمل على شاطئه الشرقى وبعد الماء عن القاهرة فتأثرت الخطط التي كانت واقعة على النيل، من الأسباب الهامة لتلك الأزمات أيضا ازدياد الفتن والاضطرابات والصراعات الداخلية بين طوائف الممالك، إلى جانب الفساد السياسى والأخلاقى الذى تمثل بصفة كبيرة فى اغتصاب الأملاك والأوقاف وكان المغتصبون يهدمون تلك المباني والدور ويبيعون انقاضها مثلما حدث للرباع والدور والوكائل التي كانت بجوار جامع الطيرسى بخطط زريبة قوصون وامتد إلى جميع الدور والمناظر الممتدة على النيل وصار الساحل من منشأة المهرانى إلى قرب بولاق كيمانا موحشة وخرائب مقفرة، بالإضافة لذلك كانت الدولة التيمورية تهدد الممالك، وعانت الشام منهم معاناة كبيرة، وكانت هذه المحن والأزمات هي التي دفعت المقرئى لكتابة كتابه «اغاثة الأمة في كشف الغمة». انظر: المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٣١، السلوك، ج٣، ص ١١٢٧، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص ١٥٢.

(٤) انظر ما سبق، ص ٢٥.

(٥) انظر خريطة نيور للقاهرة، وكذلك خريطة الحملة الفرنسية.

وعن موقع منشأة الكتبة الآن أرى أنها كانت واقعة خلف زريبة الناصر محمد التي كانت تقع خلف جامع الطيرسى الذى كان يقع بجوار جامع عمر مكرم الآن، كما كانت منشأة الكتبة متصلة بمنشأة المهرانى من جانبها الجنوبى .

فعلى ذلك فموقعها يشغله اليوم الجزء الجنوبى الشرقى من حى جاردن سيتى وجزء من حى المنيرة فى المنطقة المحصورة فيما بين شارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادى كرومر سابقا) وشارع بستان الفاضل الذى فى امتداده جنوبا، وبين شارع عائشة التيمورية (شارع الوالدة باشا سابقا) وما فى امتداده شمالا (شكل ١٠) .

(٤) خط موردة البلاط والميدان السلطانى :

يلى هذا الخط خط منشأة المهرانى ومنشأة الكتبة ، وقد ذكره المقرئى فى عدة مواضع (١) ، وأن أرض هذا الخط كانت جزءا من بستان الخشاب (٢) ، وكان فم الخليج الناصرى الذى حفره الناصر محمد سنة ٧٢٥هـ يقع فى موردة البلاط (٣) كما كان الميدان الناصرى السلطانى الذى أنشأه أيضا الناصر محمد سنة ٧١٨هـ من جملة خط موردة البلاط (٤) .

(١) الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٥ ، ١٤٨ ، ٤٣٢ .

(٢) بستان الخشاب كان بستانا كبيرا من الدولة الأيوبية ، ثم قسم لعدة خطط وبساتين فى العصر المملوكى ، وكان يشغل مساحة كبيرة من الأرض يمكن تحديدها بالحدود الآتية : كان الحد الغربى متمثلا فى نهر النيل والحد الجنوبى يبدأ من كوبرى القصر العينى (محمد على سابقا) وشارع الدكتور حندوسة (شارع مستشفى اللادى كرومر سابقا) وشارع بستان الفاضل وما فى امتداده حتى مقام الماردى بشارع الخليج المصرى حيث كانت هناك قنطرة السد ، وكان الحد الشرقى يسير بعضه مع الخليج وبعضه الآخر فى اتجاه مستقيم إلى موضع قصر عابدين حاليا ، والحد الشمالى يتمثل فى أحد الشوارع التى تصل بين ميدان عابدين وميدان التحرير .

وكانت أرض بستان الخشاب مقسمة فى العصر المملوكى إلى قسمين ، القسم الشرقى منهما هو الواقع بين شارع المنيرة وشارع الخليج المصرى (بورسعيد) وكان يعرف بالمريس نسبة إلى أن كثيرا من السودان المريس والثوبة كانوا يسكنون هذا المكان فعرف بهم وكانوا يصنعون به المزر وهو نوع من البوظة يسمى المريسى ، وكان المريس فى غاية العمارة وكان يرتاده أهل الخلاعة وطالبي المتعة والمتنزهين . أما القسم الغربى الذى بين شارع المنيرة والنيل فكان يضم خط موردة البلاط والميدان السلطانى وأول الخليج الناصرى . انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٠٩ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١٣١ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٣٠٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٤٤ ، ج٧ ، ٣٨٨ ، ٣٨٩ ، ج٩ ، ص ٨١ ، ١٩٦ ، حاشية (١) .

(٣) الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٥ ، كان فم الخليج الناصرى يقع فى النقطة التى يتقابل فيها اليوم عائشة التيمورية بشارع كورنيش النيل بجاردن سيتى بالقاهرة .

(٤) عن الميدان السلطانى انظر ما يلى ، ص ٢٦٤ .

ومما ذكره «المقريزى» يتبين لى أن خط موردة البلاط على النيل كان مقسما عدة أرصفة متجاورة يختص كل منها بنوع معين من البضاعة وهى موردة البلاط وموردة الملح^(١) وموردة الجبس^(٢) وغير ذلك .

وموقع خط موردة البلاط والميدان السلطاني يشغله الآن جزء من حى جاردن سيتى على امتداد النيل من شارع عائشة التيمورية (الوالدة باشا سابقا) جنوبا حتى شارع عبد القادر حمزة شمالا (شكل ١١) .

وقد عمر هذا الخط عمارة كبيرة فى العصر المملوكى ولا سيما فى فترة حكم الناصر محمد حيث كثر العمران والبناء على النيل فاتصلت المباني من أثر النبل جنوبا حتى بولاق شمالا . وبالرغم من بعض المحن التى حلت بتلك الخطط التى على النيل فى بعض فترات فى العصر المملوكى ، إلا أن العمران سرعان ما يعود إليها مثلما حدث أيام الملك المؤيد شيخ وما تلاه .

وقد غلب على خط موردة البلاط والميدان السلطاني النشاط الزراعى فى العصر العثماني حيث وقعت تلك المنطقة على خريطة نيپور الذى زار مصر سنة ١١٧٦هـ / ١٧٦٢م ، وكذلك فى خريطة الحملة الفرنسية وكانت عبارة عن حقول وبساتين وقد تحول جزء منها إلى ميدان يسمى ميدان النشاب^(٣) الذى أنشئ فى العصر العثماني بدلا من الميدان السلطاني الذى كان يقع غربيه والذى كان قد تحول للزراعة لأن أرضه كانت معرضة لطغيان النيل عليها ، وقد تعرضت الجنانين والبساتين بتلك المنطقة ، وكذلك بساتين مصر القديمة وغيرها التخريب على يد الحملة الفرنسية حيث قطعوا أشجارها ونخلها^(٤) .

(٥) خط زربية قوصون :

يلى هذا الخط خط موردة البلاط والميدان السلطاني ، وأرضه نتجت عن طرح البحر الخامس سنة ٦٧٠هـ / ١٢٧١م ، وقد اتصلت تلك الأرض بأرض اللوق ، وكان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد خرب ميدان الملك الظاهر بيبرس باللوق^(٥) وجعله بستانا ثم وهب

(١) ذكر المقريزى أن موقع الميدان السلطاني بموردة الملح . الخطط ، ج٢ ، ص ١٣١ .

(٢) ذكر المقريزى أن الميدان السلطاني على النيل ويعرف ساحل النيل هناك بموردة الجبس . الخطط ، ج٢ ، ص ١١٤ .

كما ذكر أن موردة البلاط تجاور موردة الجبس . الخطط ، ج٢ ، ص ١١٧ .

(٣) سمي بهذا الاسم لاستخدامه فى تدريب الفرق العسكرية للرعى بالنشاب (السهم) .

(٤) الجبرتي (عبد الرحمن بن حسن ، ت ١٢٤١هـ / ١٨٢٥م) ، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، (ط دار

الجيل ، بيروت ، بدون تاريخ) ، ج٢ ، ص ٤٣٨ .

(٥) عن الميدان الظاهري انظر ما يلى ، ص ٣٧٨ .

البستان للأمير قوصون^(١) فأنشأ قدامه على النيل زريبة^(٢)، فعمر الناس هناك حول الزريبة حتى اتصلت العمارة بموردة البلاط والميدان السلطاني من الجهة الجنوبية، واتصلت بحكر ابن الأثير وخط فم الخور وبولاقي من الجهة الشمالية وبأرض اللوق من الشرق، وعمّر هناك حمام وسوق كبير وطواحين وعدة مساكن اتصلت باللوق، وأصبحت الخطط التي على طول النيل متصلة بالعمارة بدورها ومناظرها ومساجدها وخانقاواتها ومن وراءها الأزقة والشوارع والدروب حتى قاربت الخليج^(٣).

وفي العصر العثماني تحول هذا الخط إلى بساتين متجاورة كما ورد في خريطة نيبور والحملة الفرنسية.

وعن موقع خط زريبة قوصون نجده مشغولا اليوم بالمنطقة المحصورة بين ميدان سيمون بوليفار (قصر الدوبارة سابقا) بجاردن سيتي وبين ميدان عبد المنعم رياض، وكانت الزريبة نفسها تقع في موقع المتحف المصري بميدان التحرير (شكل ١٢).

(٦) خط فم الخور وحكر ابن الأثير:

يلى هذا الخط خط زريبة قوصون، وأرضه ناتج طرح البحر السادس والسابع، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى خليج فم الخور الذي أمر بحفره الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ^(٤)، وكان فمه على النيل بميدان عبد المنعم رياض الآن، وكان مساره بأول شارع رمسيس، ونتيجة لذلك امتد العمران على جانبيه وبنيت فيه الدور والمناظر الجميلة الوصف التي تشرف على النيل ومن وراءها البساتين ويفصل بينهما شارع مسلك يؤدي إلى بولاقي،

(١) الأمير قوصون، كان من أعظم أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون وأقرب الأمراء المقربين إليه، كان ساقيه ثم ترقى بسرعة كبيرة حتى بلغ أعلى رتبة من رتبة الممالك وهي أمير مائة مقدم ألف، وكان له نفوذ كبير وتحكم في الدولة، وعقب وفاة الناصر محمد في ذي الحجة ٧٤١هـ دخل قوصون في صراع مع بعض الأمراء فكانت نهايته القتل سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م وكان محبا للعمارة وله من الآثار بالقاهرة جامعة الذي يعرف اليوم بجامعة قيسون (أثر رقم ٢٠٢) بشارع محمد علي ووكالة بالجمالية (أثر رقم ١١) وكان له خانقاة وجامع باق منه مئذنته (أثر رقم ٢٩٠) بقرافة السيوطي وكان له دار واصطبل كبير بالرميلة بجوار مدرسة السلطان حسن، وكان له حكر بجوار قناطر السباع بالسيدة زينب حاليا. عنه بالتفصيل انظر: المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٧٢، ٩٣، ١١٥، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٢٥، ٤٢٥، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٩٥، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٧، ج٢، ص ٤٥، ٤٨، على مبارك، الخطط التوفيقية، (ط ١٩٨٦)، ج٥، ص ١٩٨-١٩٩.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ١٩٨. على مبارك، الخطط التوفيقية، ج٣، ص ٢٢٥، ٢٥٤.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ١٣١-١٣٢.

(٤) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ١٤٤. وعنه بالتفصيل انظر ما يلي، ص ٣١٠.

وقد انشئ هناك حمام وجامع وسوق وسكن ذلك الخط الأكابر من الوزراء والأعيان وكان به من الدور العظيمة ما يفوق الوصف (١). وكان للسلاطين والأمراء في العصر المملوكى هناك بساتين مثمرة بكافة أنواع الفواكه والثمار مثل بستان السلطان برسباى (٢) وغيره.

أما حكر ابن الأثير فينسب إلى القاضي علاء الدين بن الأثير الذى كان يشغل وظيفة كاتب السر فى زمن السلطان محمد بن قلاوون، وكان قد بنى دارا له على النيل وبنى الناس بجواره فعرف ذلك الخط بحكر ابن الأثير (٣).

وكان هذا الحكر يشغل الجزء الجنوبي من خط فم الخور وقد اتصلت العمارة من حكر ابن الأثير إلى خط فم الخور ومن خط فم الخور إلى بولاق (٤)، وفى العصر العثمانى حفلت المنطقة ببساتين الأمراء الكبار ومناظرهم الجميلة (٥).

ويشغل خط فم الخور الآن المنطقة الواقعة بين ميدان عبد المنعم رياض جنوبا حتى اتصالها ببولاق بالقرب من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) شمالا، وكان النيل يحدها غربا ويمثل شارع رمسيس حدها الشرقى، ويشغل مكان حكر ابن الأثير الآن المنطقة التى تحد غربا بشارع ساحل الغلال الموصل الآن بين شرق فندق هيلتون رمسيس وبين مبنى الإذاعة والتليفزيون حيث كان النيل يجرى فى ذلك المسار أيام الناصر محمد (٦)، وكان يحده جنوبا وشرقا شارع الجلاء (الترعة البولاقية سابقا) (شكل ١٣).

(٧) بولاق:

تلى بولاق خط فم الخور وحكر ابن الأثير، وقد تكونت نتيجة طروحات النيل المتوالية وبصفة خاصة الطرخ الخامس سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨١م، وكانت مثل تلك الأراضي فى مبدأها تكون لينة وغير متماسكة، وكانت عبارة عن هيئة جزر صغيرة تغطيها الرمال وتحيط بها البرك وتنمو بها الخلفاء والبوص ومع الزمن تتصل ببعض حتى تتكون كأرض متصلة تجف بعد ذلك وتصلب وتكون صالحة للبناء عليها أو الزراعة بها، وهكذا تكونت أرض بولاق واتصلت من

(١) نفسه، ص ١٣١.

(٢) كتاب وقف السلطان برسباى رقم ٨٨١ أوقاف، ص ١٣٥ - ١٣٦، أحمد دراج، حجة وقف الأشراف برسباى، نشر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، (القاهرة، سنة ١٩٦٣)، ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) المقرئى، الخطوط، ج٢، ص ١٣١.

(٤) المقرئى، الخطوط، ج٢، ص ١٣١. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٩، ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٥) انظر على سبيل المثال كتاب وقف الأمير عثمان كئخدا رقم ٢٢١٥ أوقاف، ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٦) محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٩، ص ١٨٤.

جنوبها وجنوبها الشرقى بأرض اللوق، ومن شمالها بجزيرة الفيل (أرض شبرا وروض الفرح الآن) ومن شرقيها المقس (الأزبكية الآن) (١). ومع الزمن كانت تظهر أمام بولاق جزر أخرى أما تتصل بها أو تتصل بالجزيرة الوسطى أمامها، أو تختفى بعد ذلك، ومن أمثلة ذلك الجزيرة التي ظهرت سنة ٩١٢هـ / ١٥٠٨م وأغلب الظن كما يفهم من نص «ابن إياس» أنها اتصلت ببولاق بعد ذلك (٢).

استغلت الأرض بولاق بعد تكوينها مباشرة كملاعب وميادين لتدريب المماليك السلطانية للرعى بالنشاب فى تلال الرمال هناك، ثم بدأ العمران فيها من سنة ٧١٣هـ / ١٣١٣م فى النهضة العمرانية العظيمة بمصر التي قادها الناصر محمد بن قلاوون، وتسبق الأمراء والجند والكتاب والتجار والعامه فى البناء عليها بالإضافة إلى الزراعة وغرس البساتين المثمرة بها (٣). وتردد الناس عليها للنزهة وصارت من أجمل وأعظم متنزهات مصر واعتبرها المؤرخ «ابن ظهيرة» من محاسن وفضائل مصر التي اختصت بها مصر والقاهرة، وما شاركها فيها غيرها بما تضم من قصور ومناظر ومساكن جلية ممتدة على شاطئ النيل (٤)، وقد كانت قد شهدت نهضة عمرانية كبيرة بها منذ فترة حكم المؤيد شيخ بعد الأزمات والمحن التي حلت بالقاهرة منذ سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م.

وتبدو بولاق كما وردت فى خريطة الحملة الفرنسية (شكل ١٤) كمدينة صغيرة (ضاحية) منفصلة عن القاهرة، وتبدو على هيئة مثلث ذو قاعدة دائرية على النيل ويمتد لمسافة ٢١٠٠ متر ارتفاع المثلث ٦٠٠ متر، ويفصلها عن القاهرة سهل عرضه ١٢٠٠ متر، وعدد من البساتين، وقد قدر عدد سكانها بأربع وعشرين ألف نسمة، وكانت ميناء بولاق من أعظم موانئ مصر لما لها من أهمية كبيرة فى انتعاش تجارة مصر الداخلية والخارجية، وقد سجل الفرنسيون بها ٢٤ مسجدا وعددا كبيرا من الوكالات من بينها ٣٠ وكالة رئيسية أغلبها أكثر اتساعا وأجمل من وكالات القاهرة (٥).

وقد اتصلت بولاق بأحياء القاهرة بواسطة طريقين أحدهما يربطها بالمقس وكانت تظلمه الأشجار (شارع السبتية الآن) والآخر يصلها بالأزبكية وهو الذى قام المسيو لوبير أحد مهندسى الطرق بالحملة الفرنسية باصلاحه وغرس الأشجار على جانبيه وهو الذى يمثل الآن شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا).

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٠٧. (٢) بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٠ - ١١١.

(٣) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٣١.

(٤) الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة، ص ٢٠٢.

(٥) جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة القاهرة، ترجمة وتحقيق أيمن فؤاد سيد، (نشر مكتبة الخانجي بالقاهرة،

١٩٨٨م)، ص ٣٤٢.

وذكر المرحوم «محمد رمزي» أيضا أن بولاق قد وقعت على خرائط القاهرة المرسومة حتى سنة ١٨٥٨ م كبلدة صغيرة واقعة على النيل كانت مبانيها محصورة بين شارع السبتية من الشمال ومن الجنوب بشارع اصطبلات الطرق ومن الشرق شوارع العليمي وعلوة الحجاج وتل نصر ووابور النور، وكانت الأرض التي بين بولاق القديمة وبين شارع رمسيس كلها أرضا زراعية وبساتين ولم تحدث فيها المباني إلا في زمن الخديوي إسماعيل (١٢٨٠ - ١٢٩٦ هـ/ ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) ففي ذلك الوقت أخذت بولاق تتسع في العمارة حتى اتصلت مبانيها بالقاهرة وأصبحت بولاق قسما إداريا من أقسامها^(١).

(٨) جزيرة الفيل :

جزيرة الفيل ظهرت في زمن الدولة الأيوبية نتيجة غرق مركب كبير يسمى الفيل في نهر النيل، فترك في مكانه، فربا عليه الرمل، وأخذ النيل ينحسر حوله فصارت جزيرة يحيط بها الماء من كل جانب فيما بين منية السرج وأرض الطبالة (الفجالة حاليا) سماها الناس جزيرة الفيل، وظلت تنمو وتتسع كل عام بما يضاف إليها من الطمي الذي حمله ماء النيل، وقد زرعت في أيام الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي (٥٦٧ - ٥٨٩ هـ/ ١١٧٢ - ١١٩٣ م) فوقها على المدرسة التي أنشأها بالقراقة بجوار قبر الشافعي رضى الله عنه، وكثرت اطيائها بانحسار النيل عنها في كل عام^(٢).

وفي سنة ٦٨٠ هـ/ ١٢٨١ في أثناء سلطنة الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ/ ١٢٧٦ - ١٢٨٧ م) ازداد انحسار النيل لأرض اتصلت بأرض الجزيرة شمالا بمنية السرج وجنوبا بالمقس (الأزبكية) فأوقفت تلك الأراض الزائدة على المارستان المنصوري، وغرس الناس بها الغروس وصارت بساتين وسكن كثير من المزارعين بها^(٣).

وفي مدة سلطنة الناصر محمد بن قلاوون انحسر النيل من جانب المقس الغربي وصار ما هنالك رمالا متصلة من بحريها بجزيرة الفيل ومن قبلها بأراضي اللوق، وحينئذ عمرت بولاق خارج المقس، وأنشأوا بجزيرة الفيل ابساتين والقصور والدور حتى لم يبق بها مكان بغير عمارة وحكر على ما كان فيها وقفا على مدرسة صلاح الدين وما كان من وقف المارستان وغرس ذلك كله بساتين فزادت عن مائة وخمسين بستانا إلى سنة وفاة الملك الناصر محمد

(١) محمد رمزي، تعليقه على النجوم، ج٧، ص ٣٠٨، وعن بولاق بالتفصيل، انظر: Hanna, (N), An Urban History of Bulaq in the Mamlak and Ottoman Periods, Supp. Aux Annales Islamologiques - Chier N.3, Le Cairo IFAO, 1983.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ١٨٥.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ١٨٥.

(١٧٤١هـ / ١٣٤٠م) بعدما كانت عشرين، ونصب فيها سوق كبير وبنى فيها الناس الدور الكثيرة الفخمة وجامعاً فبقيت قرية كبيرة وما زالت تنمو حتى اتصلت عمارتها بمنية السبرج^(١).

وكان الجامع الرئيسى لجزيرة الفيل هو جامع الفخر^(٢) ناظر الجيش فى زمن الناصر محمد بن قلاوون.

وقد تعرضت جزيرة الفيل فترة للمحن والأزمات التى مرت بمصر فترة وعبر عنها «المقريزى» بقوله «وأما بساتين الجزيرة فلم تزل عجبا من عجائب الدنيا من حسن المنظر وكثرة المتحصل إلى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فتلاشت وخرّب كثير منها لغلو العلوفات من الفول والتبن وشدة ظلم الدولة، وتعطل معظم سوقها وفيها إلى الآن بقية صالحة»^(٣).

ولكن جزيرة الفيل حظيت بالعناية والرعاية بعد تلك المحن وانتشرت البساتين بها مرة أخرى، وصارت من أعظم متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى، وفى العصر المملوكى كانت تقام ببساتينها الأمسيات والاحتفالات وجلسات الطرب والأدب^(٤)، وكان

(١) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٨٥-١٨٦، السلوك، ج٢، ص ٥٣٩، ابن دقماق، الانتصار، ج٥، ص ٤٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٤٧، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٧.

(٢) الفخر هو أحد المسألة واسمة فخر الدين محمد بن فضل الله القاضى ناظر الجيش المعروف بالفخر، كان نصرانيا فأسلم وحسن اسلامه، وقد تولى أعلى الوظائف الكتابية فى زمن الناصر محمد بن قلاوون، وكان حسن السيرة محبا لأعمال الخير فقد بنى الكثير من المنشآت الاجتماعية، فقد بنى بمصر عدة أحواض ماء للسيل وبنى مارستانا بالرملة بالشام ومارستانا ببلييس، بالإضافة لبناء قنطرة على فم الخليج الناصرى المجاور لل ميدان السلطانى بموردة الجبس وقنطرة أخرى على خليج مجاور له.

بالإضافة لذلك فقد بنى ثلاثة جوامع عظيمة هى جامعة هذا بجزيرة الفيل والثانى ببولاق والثالث بجزيرة الروضة (جامع قايتباى حاليا). وقد توفى الفخر فى رابع عشر من رجب ٧٣٢هـ وله من العمر ما يتيف على سبعين عاما. انظر: المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٣١١.

و جامع الفخر بجزيرة الفيل هو الآن المعروف بجامع سيدى فرج المجذوب، وقد جدده محمد بك طاهر ابن أحمد باشا طاهر فى سنة ١٢١٨هـ بشارع جزيرة بدران وتطل واجهته الرئيسية على شارع جنبية المناخ بينما تطل واجهته الجانبية على عطفة سيدى فرج المجذوب. انظر: محمد رمزى، تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٩، ص ٢٠١.

شاهنده فهمى، جوامع ومساجد أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون، دكتوراة «مخطوطة»، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٢٨٧.

(٣) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٨٦.

(٤) على سبيل المثال كان لابن باباى العواد أحد ندماء الملك المؤيد شيخ ومغنيه بستان بجزيرة الفيل، وقد وصف المؤرخون ابن باباى بأنه كان اعجوبة زمانه فى ضرب العود والغناء. انظر: المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٤٧٦، ابن تغرى بردى، المنهل الصافى، ج١، ص ٥٨.

يتردد عليها على القوم كالقضاة والعلماء^(١) والجدير بالذكر أنه كان للسلطان المؤيد شيخ بستان بخط جزيرة الفيل به مختلف الأشجار من بلح وجميز ونارنج وتين وغير ذلك بالإضافة إلى منظره وسواقي^(٢)، وكان الأمير أزيك بن ططغ الاتابكي يملك بستانا بجزيرة الفيل غرس به النخل والمشمش والتوت والليمون والنارنج والأترج والسنت وغير ذلك مما دار عليه من السياج وما به من الآلات والسواقي^(٣).

وكانت الدور بجزيرة الفيل على درجة عظيمة من العمارة والزخرفة، وكانت مسكنا للأمرء الكبار والوزراء^(٤).

وظلت الجزيرة الفيل حافلة بالبساتين طوال العصر العثماني وظلت محتفظة بأسمها كما يتضح لنا من كتاب وقف الأمير عثمان كتحدا القاردوغلى المؤرخ بسنة ١١٤٩هـ / ١٧٣٦م والذي كان يملك قطعتي أرض كبيرتين مزروعتين بها^(٥).

وجزيرة الفيل تمثل الآن قسم شبرا من القاهرة والجزء الجنوبي منها يعرف بجزيرة بدران، وكانت جزيرة الفيل تشغل المنطقة التي يتوسطها الآن شارع شبرا من الجنوب للشمال ويحدها من الغرب النيل حيث شارع أبو الفرج وشارع جسر طراد النيل حاليا ويحدها من الجنوب شارع جزيرة بدران وشارع بركات، ومن الشرق خط السكة الحديد التي حلت محل سيالة المياه التي كانت فاصلة بين هذه الجزيرة والشراية ومنية السراج ثم طمت في سنة ١٢٨٠هـ / ١٢٨١م (شكل ١٦).

وبالاطلاع على خريطة الحملة الفرنسية يتبين أن أرض قسم شبرا كانت أرضا زراعية وبها الكثير من البساتين ومجموعة قليلة من المساكن بجزيرة بدران، ولم تستجد بها المباني إلا في عهد الخديو إسماعيل حيث أنشأ بها قصر التزهة (المدرسة التوفيقية الآن)، ثم تبعه الأعيان وكبار التجار فأنشأوا فيها القصور والبساتين على جانبي شارع شبرا ثم أخذت العمارة في الازدياد والاتساع إلى أن امتدت المباني إلى شاطئ النيل والسكة الحديدية وترعة الإسماعيلية^(٦).

(١) انظر على سبيل المثال تزجمة القاضي جمال الدين بن عمر على الطنبدي المعروف بابن عرب الشافعي المتوفى سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢ق: ابن العماد الحنبلي (أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي، ت ١٠٨٩هـ / ١٦٧٨م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (نشر مكتبة القدسي سنة ١٣٥١) ج٢، ص ٢٦٠.

(٢) وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف سطور ١٩٨ - ٢٠٢، نشر فهمي عبد العليم، العمارة الإسلامية بمصر في عصر السلطان المؤيد شيخ.

(٣) وثيقة الأمير أزيك بن ططغ رقم ١٩٨ المحفوظة بدار الوثائق القومية.

(٤) ذكر ابن حجر على سبيل المثال أن ناصر الدين محمد بن محمد الاسكندراني المتوفى سنة ٨١٦هـ / ١٤١٣م كان واسع الثراء وقد عمر دارا عظيما بجزيرة الفيل استأجرها منه القاضي ناصر الدين البارزي كاتب السر في دولة المؤيد فشيدها و اضاف عليها مباني عظيمة إلى أن صارت دار مملكة أقام بها المؤيد مدة. انظر: انباء الغمر، ج٣، ص ٣٢.

(٥) كتاب وقف الأمير عثمان كتحدا القازدوغلى رقم ٢٢١٥ المحفوظ بوزارة الأوقاف، ص ١٥٨ - ١٥٩.

(٦) محمد رمزي، تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

الفصل الثانى

الجزر

الجزر النيلية بحدود مدينة القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى :

الجزر^(١) النيلية التى بنيل القاهرة أربع جزر هى جزيرة الذهب وجزيرة الروضة وجزيرة الزمالك وجزيرة الوراق . وكانت هذه الجزر من أجمل وأحسن المنتزهات فى مصر الإسلامية وخصوصا جزيرة الروضة التى كانت عروس المنتزهات على مر التاريخ .

ويرجع تكوين الجزر النيلية إلى عاملين رئيسيين هما النحت والأرساب اللذين يعرفان باسم الأكل والطرح ، وتعنى ظاهرة طرح النهر ظهور مساحات من الأراضي الجديدة التى تكونت نتيجة ترسب وتراكم الطمي وغرين النهر عاما بعد عام فى أماكن يضعف فيها قوة تيار النهر ، وهى تعرف باسم السواحل إذا كانت على شاطئ النهر أما التى تتكون فى وسط النهر فتسمى الجزر^(٢) .

أولا جزيرة الذهب :

توصلت إلى أصل جزيرة الذهب برجوعى إلى كتاب وقف السلطان الغورى الجامع لأوقافه^(٣) ، فقد تبين لى أنه كان يوجد حتى سلطنة الغورى (أى حتى نهاية دولة المماليك وبداية الدولة العثمانية بمصر) ، كان يوجد جزيرتان طوليتان متوازيتان بينهما سيالة ماء تعرف الأولى باسم جزيرة الصابونى والأخرى باسم جزيرة الذهب ، وكانتا تقعان جنوبى جزيرة

(١) الجزيرة كما ذكرت فى قواميس اللغة «هى كل بقعة فى وسط البحر لا يعلوها البحر ، وسميت بذلك لأنها جزرت أى قطعت عن تخوم الأرض فصارت منقطعة ، والجزيرة أيضا هى أرض ينحدر عنها الماء ويقال جزر الماء أن نضب وجف ، والجزر هو رجوع الماء إلى الخلف ، والجزيرة هى واحدة جزائر البحر سميت بذلك لانقطاعها عن معظم الأرض ، والجزيرة هى اسم لعدة أماكن منها محلة بالفسطاط إذا زاد الماء وطاف بها فاستقلت بنفسها» . انظر : مختار الصحاح للرازى ، القاموس المحيط للفيروزابادى ، المعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية . السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٧٧ ، كوكب الروضة ، ورقة ١١ .

(٢) محمد رمزى ، شاطئ النيل تجاه مصر القديمة والقاهرة ، ص ٤٩٨ ، سعاد هانى محمد جمال الدين ، الجزر النيلية ، دكتوراة «مخطوط» (كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٦٩م) ، المقدمة ص ب .

(٣) كتاب وقف السلطان الغورى الجامع لأوقافه رقم ٨٨٢ للمحفوظ بوزارة الأوقاف .

الروضة فى وسط النيل بين ساحل النيل الشرقى الذى كان به تاحية أثر النبى التى بها رباط الآثار الذى ما زال فى موقعه جامع أثر النبى (أثر رقم ٣٢٠) وبين شاطئ النيل الغربى تجاه الجزيرة، وكانت جزيرة الصابونى تقع شرق جزيرة الذهب، ثم اندمجت الجزيرتان فيما بعد وأصبحتا جزيرة واحدة تعرف الآن باسم جزيرة الذهب^(١) (شكل ١٧).

وقد حدث مثل ذلك من قبل بشأن جزيرة الزمالك التى نتجت عن اندماج جزيرتى أروى وحليمة.

وجزيرة الذهب المندمجة بجزيرة الصابونى لا تزال تمثل موقعها القديم وإن اختلفت مساحتها مع الزمن، وهى طولية الشكل وتبلغ مساحتها ٣٤٢ فدان وهى تتبع مركز الجزيرة من الناحية الإدارية^(٢).

أما عن تاريخ جزيرة الذهب قبل اندماجها نرى أن «ياقوت الحموى» قد ذكرها بقوله أنه يوجد بمصر موضعان يحملان اسم جزيرة الذهب الأول بكورة فوه والثانى بكورة الجزيرة^(٣)، كما ذكرها أيضا «الفيروزابادى»^(١) وذكرها أيضا «ابن مباتى» وقال أنها تتبع الأعمال الجزيرة^(٢)، وقد عرفت جزيرة الذهب فى وثائق ومصادر العصر المملوكى باسم جزيرة الطائر وأنها كانت جارية فى وقف الأمير عمر بن بهادر^(٣).

(١) توصلت لهذا الاستنتاج بما ورد فى كتاب الوقف السابق صفحات ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧ حيث جاء به عن أوقاف الغورى «... وجميع الحصة السابقة فيما يذكر فيه وقدر هذه الحصة ثلاثة أسهم كوامل وتسع سهم من أصل أربعة وعشرين سهماً شائعاً ذلك فى جميع الجزيرتين المتجاورتين وهما جزيرة الطائر المعروفة بجزيرة (ص ١٤٥) الذهب وجزيرة الطمية المعروفة بجزيرة الصابونى من أعمال الجزيرة بالقرب من روضة مصر وجامع المقياس، ولكامل أراضى جزيرة الذهب حدود أربعة يعم جميعها ماء النيل المبارك فى زمن زيادته الحد الأولى وهو القبلى ينتهى إلى بحر النيل المبارك فى أراضى الناحية المعروفة بدموه الجزيرة وحديثا والحد البحرى ينتهى إلى المقياس الذى بطرف روضة مصر والحد الثالث من حدود هذه الجزيرة وهو الشرقى ينتهى إلى بحر لطيف ينجز عنه الماء أحيانا فاصل بين هذه الجزيرة وبين الجزيرة المعروفة بالصابونى الآتى ذكرها فيه والحد الرابع وهو الغربى ينتهى بعضه إلى البحر الأعظم المذكور اعلاه وأما بعضه الباقى وهو نهاية القطعة الأراضى التى فى البر الغربى من جملة حقوق هذه الجزيرة التى يفصل بينهما وبين هذه الجزيرة البحر الأصلى ينتهى إلى أراضى ناحية ترسة وساقية مكة والجزيرة وفى كل هذه الحدود انحراف تشفير يسير ص ١٤٦ ولكامل جزيرة الصابونى المذكورة حدود أربعة أيضا فالحد الأول منها وهو القبلى ينتهى إلى البحر المذكور الذى كان ناحية دموه المذكورة والحد الثانى منها وهو البحرى ينتهى إلى مكان تجاه المقياس الشريف المذكور فيه والحد الثالث منها وهو الشرقى ينتهى إلى بحر لطيف تجاه الآثار الشريفة وجامع ابن اللبان وهذا البحر ينشف غالبا والحد الرابع منها وهو الغربى ينتهى إلى البحر اللطيف الذى ما بين حدها وحد جزيرة الذهب.

(٢) تقرير وزارة الأشغال.

(٣) المشترك وصفا والمفترق صقعا، طبعة جوتنجن، ألمانيا، ١٨٤٦م، ص ١٠٣.

أما عن تاريخ جزيرة الصابونى قبل اندماجها فقد كانت معروفة فى وثائق ومصادر العصر المملوكى باسم جزيرة الطمية^(٤)، وقد قال عنها المقرئى : «هذه الجزيرة تجاه رباط الآثار والرباط من جملتها، وقفها أبو الملوك نجم الدين أيوب بن شادى وقطعة من بركة الحبش فجعل نصف ذلك على الشيخ الصابونى وأولاده والنصف الآخر على صوفية بمكان بجوار قبة الإمام الشافعى رضى الله عنه يعرف اليوم بالصابونى»^(٥). وقد ظلت جزيرة الصابونى عامرة بموقعها هذا الذى حدده المقرئى حتى وقتنا هذا^(٦).

وكانت جزيرة الصابونى بيد الأمراء من الاسرة الأيوبية حتى أيام السلطان العزيز يوسف بن السلطان برسباى (تولى ٣ شهور بين سنتى ٨٤١، ٨٤٢هـ) حيث أنعم بها على الخليفة العباسى المعتضد بالله داود (٨١٦ - ٨٤٥هـ / ١٤١٣ - ١٤٤١م) فى يوم الأحد ١٤ ذى الحجة سنة ٨٤١هـ / ١٤٣٨م^(٧) إلا أن السلطان الأشرف قايتباى قد أخرجها من أخيه الخليفة المستنجد بالله يوسف (٨٥٩ - ٨٨٤هـ / ١٤٥٤ - ١٤٧٩م) فى شهر ذى الحجة سنة ٨٧٢هـ / ١٤٧٦م واقطعها بعض مماليكه وعد ذلك من مساوئه^(٨).

وفى وقت ما فى العصر العثمانى اندمجت جزيرة الذهب مع جزيرة الصابونى وعرفتا معا بجزيرة الذهب وظلت منتزها كبيرا والغالب عليها النشاط الزراعى حتى وقت قريب من زماننا هذا حيث بدأت أراضيها تتحول إلى مبان وعن قريب تصبح كلها مبان.

(١) القاموس المحيط، ج١، ص ٣٨٩. (٢) قوانين الدواوين، ص ١٢٦.

(٣) ابن الجيعان (شرف الدين يحيى، ت ٨٨٥هـ / ١٤٨٠م)، التحفة السنية بأسماء البلاط المصرية، (نشر مكتبة الكليات الأزهرية ١٩٧٤)، ص ١٣٧، ١٤٣.

(٤) كتاب وقف الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف، ص ١٤٦، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٦.

(٥) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٥.

(٦) ذكر المرحوم الأستاذ محمد رمزى أن «جزيرة الصابونى كانت تقع بين دير الطين (دار السلام حالياً) وبين معادى الخبيرى (المعادى حالياً) وأنها اندثرت بفعل مياه النيل عليها، ثم ظهرت فى أيامه (أيام محمد رمزى) جزيرة جديدة عرفت باسم جزيرة دير الطين». انظر كتاب «محمد رمزى»، القاموس الجغرافى للبلاد المصرية (قسمان فى ٤ أجزاء)، (ط دار الكتب، ١٩٥٣ - ١٩٦٣)، القسم الأول، ص ٧٧.

«ولكن هذا الموقع الذى حدده «محمد رمزى» بعيد عن موقع الجزيرة، فهى مواجهة لأثر النبى كما ذكر المقرئى وكما وردت فى كتاب وقف الغورى فى ص ١٤٧، أنها «تقع بالقرب من روضة مصر وجامع المقياس وأن حدها الشرقى ينتهى إلى بحر لطيف تجاه الآثار الشريفة وجامع ابن اللبان وحدها الغربى يتبى إلى البحر اللطيف الذى بينها وبين جزيرة الذهب».

«ومن ذلك يتبين أن موقع جزيرة الصابونى أمام ساحل مصر القديمة أمام رباط الآثار وأنها لم تختف وإنما اندمجت مع جزيرة الذهب كما ذكرت آنفا وهى باقية فى مكانها للآن.

(٧) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٥، ص ٢٢٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٩٢.

وقد كان للأمير مراد بك^(١) الذى شارك إبراهيم بك حكم ومملك مصر قبيل وأثناء الحملة الفرنسية على مصر بستانا وقصرا كبيرا بالجزيرة كان كثير التردد إليه هو واتباعه^(٢).
وبالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية نجدهم قد وقعوا جزيرة الذهب تحت اسم جزيرة ترسا نسبة لقرية ترسا المواجهة بالجيزة، وكانت جزيرة الذهب مدمجة فى ذلك الوقت مع جزيرة الصابونى.

ثانيا : جزيرة الروضة

كانت جزيرة الروضة عروس المنتزهات على مر تاريخ مصر الإسلامى، تنزه بها الخلفاء والملوك والسلاطين ورعاياهم، بل استعملت كمقر للحكم فترة من الزمن، وكانت طيبة المسكن وموطنا لأفراح الناس واحتفالاتهم وأعيادهم، وجعلت مكان للاستشفاء، وقد بلغت شأنًا عظيمًا فى القلوب حتى أن الأمام «السيوطى» قد أفتى فى شهر رجب ٨٩٦هـ / ١٤٩١م بأنه لا يجوز البناء على بر الروضة^(٣) لأن الإجماع منعقد على منع البناء على شطوط الأنهار الجارية، وكى تظل جزيرة الروضة بصفة خاصة مسرة للناظرين وكعبة المنتزهين.

نشأتها وموقعها:

جزيرة الروضة هى أقدم الجزر النيلية بحدود القاهرة، كانت موجودة قبل الفتح الإسلامى لمصر بخلاف الجزر الأخرى التى تكونت فى ظل الإسلام^(٤).

(١) مراد بك، كان أصله من ممالك محمد بك أبو الذهب الذى اشتراه سنة ١١٨٢هـ / ١٧٦٨م وذلك فى اليوم الذى قتل فيه صالح بك الكبير، فأقام فى الرق أياما قليلة واعتقه وأمره وأنعم عليه بالاقطاعات الجبلية وقدمه على أقرانه، وتزوج بالسيدة فاطمة زوجة الأمير صالح بك وسكن داره العظيمة بخط الكيش، ولما مات على بك الكبير تزوج بسرته أيضا الست نفيسة، ولما مات أبو الذهب اختار الممالك مكانه إبراهيم بك لحكم مصر فشاركه مراد بك فى المناصب والمشورة فى الحكم، وكان مراد بك غير محمود السيرة أحدث كثيرا من المظالم حتى أنه كان من أعظم الأسباب فى خراب مصر كما يقول الجبرتى، وكان منصرفا إلى الصيد والتنزه والتنقل بين القصور والبساتين التى أقامها أو آلت إليه بالروضة وجزيرة الذهب وقصر قايمز بالعادلية وقصر الجيزة وغير ذلك، وقد كان قد قام بعمارة جامع عمرو سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م فى الصورة التى عليها الآن. وقد توفى مراد بك بسوهاج وهو قادم إلى مصر باستدعاء الفرنسيين له فدفن عند الشيخ العارف فى ٤ ذى الحجة ١٢١٥هـ / ١٨٠١م. انظر : الجبرتى، عجائب الآثار، ج٢، ص ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٢) الجبرتى، نفس المصدر والجزء، ص ٤٤٦. (٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٨٣.

(٤) عن الوقت الذى تكونت فيه الجزيرة وأسباب تكوينها، انظر : Discription de L'Egypte, Vol. 18, P.467, Casanova (p)., Essai de Reconstitution Topographique de la Ville, d'al Fostat ou Misr, MIFAÖ XXXV (1913) P. 25. وصف مدينة القاهرة، ص

Clerget (M)., Le Caire, I PP. 24 - 27. ٣٣٤ - ٣٣٣

وهي تقع الآن فى القطاع الشرقى من مجرى النيل بين مصر القديمة ومدينة الجزيرة وكانت تبدو فى بداية الحكم الإسلامى لمصر كأنها تتوسط نهر النيل أو كأنها للغرب أقرب حيث كان الفرع الشرقى للنيل كبيرا وانحسر بعد ذلك، وصارت الجزيرة فى العصر الفاطمى فى القطاع الشرقى للنيل وسيالة الروضة وصارت ضيقة جدا، وحافظت على ذلك الشكل حتى وقتنا الحاضر^(١).

شكلها ومساحتها:

لم يحدث تغيير كبير فى شكل الجزيرة واطارها الخارجى كما حدث فى جزر القاهرة الأخرى، ولكن كانت هناك تغييرات طفيفة وذلك لأن مياه النيل كانت تنحدر من طرفها الجنوبى لترسب فى طرفها الشمالى وتنحدر من طرفها الشرقى لترسب فى الجانب الغربى، كما كان هناك أجزاء من الجزيرة فى الجنوب والشرق تبلغ الربع تقريبا تغطى عليها المياه وقت الفيضان، وتنحسر عنها وقت التحريق، وظلت على هذا النحو حتى امتدت إليها يد الإنسان واستطاعت أن تبنى الحواجز الحجرية على سواحلها للتحكم فى عدم طغيان النهر عليها^(٢).

ويصف «الإدريسى» الجزيرة فى زمنه (ت ٥٦٠هـ / ١١٦٥م) بأن طرفها الأعلى - حيث المقياس - ووسطها أعرض من رأسها والطرف الثانى محدود، ويذكر أيضا الجزيرة فيقول «أن طولها من رأس إلى رأس ميلان وعرضها مقدار رمية سهم»^(٣).

وتبلغ مساحة الجزيرة الآن ٣١٨ فداناً وهى مستطيلة الشكل تقريبا وطرفاها مديان، ويبلغ متوسط طول الجزيرة من طرفها الشمالى (عند فندق ميريديان الآن) وبين طرفها الجنوبى عند المقياس ٣٢٠٠ متر تقريبا، كما أن عرضها فى وسط هذه المساحة من فرع النيل الشرقى إلى

(١) ذكر الباحث «عبد القادر عبد العزيز» فى ص ٢٨ من رسالته «استخدام الأرض فى الجزر النيلية بمحافظة القاهرة»: أن جزيرة الروضة كانت حتى أوائل حكم دولة المماليك تتوسط مجرى النيل.

«ولكن ذلك رأى مناقض كلام الرحالة الذين زاروا مصر زمن الدولة الفاطمية والدولة الأيوبية فعلى سبيل المثال ذكر «الإدريسى» المتوفى ٥٦٠هـ أى قبل إنتهاء الدولة الفاطمية «أن الفرع الغربى للنيل كان أكبر بكثير وأن عدد المراكب بالجسر عليه أضعاف مضاعفة لمراكب الجسر الشرقى». انظر: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ط ليدن، ١٨٦٤، ص ٣٢٣.

(٢) عبد القادر عبد العزيز، استخدام الأرض فى الجزر النيلية أمام القاهرة، ماجستير «غير منشورة»، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٣ (ص ٢٨). Nordon. Iravels in Egypt and Nubia, Vol. I, P. 47.

(٣) نزهة المشتاق، ص ٣٢٥.

«والميل العربى يعرف أيضا بالهاشمى ويقدر بـ ١٨٤٨ مترا. انظر: محمد كمال السيد، أسماء ومسيمات، ص ٣٧، حاشية (١).

فرعه الغربى ٦٠٠ متر فى المتوسط (١).

الاسماء التى أطلقت على جزيرة الروضة:

عرفت هذه الجزيرة فى أول الاسلام باسم الجزيرة، وبيجزيرة مصر (٢)، كما عرفت بجزيرة بابليون حيث ورد ذلك الاسم فى أوراق البردى التى ترجع إلى ولاية قره بن شريك (٩٠ - ٩٦ هـ / ٧٠٨ - ٧١٤ م) والتى اكتشفت فى كوم اشقوه بأسسوط (٣)، وعرفت أيضا باسم جزيرة الصناعة لما أنشئ بها دار لصناعة السفن سنة ٥٤ هـ / ٦٧٤ م (٤) كما عرفت باسم جزيرة المقياس أو دار المقياس (٥) نسبة لمقياس النيل الذى بنى بها أولا سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ م كما قيل لها جزيرة الحصن (٦) نسبة للحصن الذى اقامه بها أحمد بن طولون سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٦ م، كما عرفت أيضا باسم جزيرة الفسطاط (٧) لمواجهتها لمدينة الفسطاط.

وأخيرا عرفت باسم جزيرة الروضة نسبة للبلستان الذى أنشأه الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م فى شمال الجزيرة، وقد سماه الروضة (٨) فعمت التسمية على الجزيرة كلها بعد ذلك حتى وقتنا الحاضر.

وقد ذكر المؤرخون نقلاً عن ابن المتوج فى كتابه ايقاظ المتغفل واتعاط المتأمل إنما سميت جزيرة مصر بالروضة لأنه لم يكن بالديار المصرية مثلها، وبحر النيل حائز ودائر عليها، وكانت حصينة وفيها من البساتين والثمار ما لم يكن فى غيرها (٩).

(١) تقرير وزارة الاشغال والموارد المائية، وأبعاد الجزيرة تقريبا ثابتة على مر الفترات فقد قدر «جومار» طولها بـ ٣١٥٠ متر وعرضها بـ ٧٥٠ متر. انظر: وصف مدينة القاهرة، ص ٣٣٤. أما «كريزول» فقد طولها بـ ٣٠٠٠ متر وعرضها بـ ٥٠٠ متر. Creswell, The Muslim Architecture of Egypt, 2 Vol. I, p. 85 (58 - 1952) Oxford ويذكر «محمد كمال السيد» أن مساحة الجزيرة تقرب من ٤٣٤ فداناً، انظر: أسماء ومسميات ص ٤٢٦.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٨.

(٣) أنور عبد العليم، البحرية الإسلامية فى شرق البحر المتوسط، مقالة بكتاب «تاريخ البحرية المصرية»، نشر جامعة الاسكندرية، ١٩٧٤، ص ٣٤٧، إبراهيم العدوى، ولاية قره بن شريك على مصر فى ضوء أوراق البردى، بحث فى المجلة التاريخية المصرية، المجلد ١١، سنة ١٩٦١ م، ص ٦٣.

(٤) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٣، ص ٣٣٩.

(٥) ابن عبد الحكم، فتوح مصر، ص ٢٣، الادريسي، نزهة المشتاق، ص ٣٢٣.

(٦) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٨.

(٧) الكندى (أبو عمر محمد يوسف، ت ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م)، الولاة والقضاة، (طبعة رفن كست، بيروت، ١٩٠٨)، ص ٧٨.

(٨) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨١.

(٩) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨١، القلقشندى، صبح الاعشى، ج٣، ص ٣٣٩، السيوطى، حسن =

التطور العمراني للجزيرة قبل العصر المملوكي:

بالرغم من النشاط الزراعي وانتشار البساتين بجزيرة الروضة منذ القدم إلا أنها كانت بحكم موقعها أمام مدينة الفسطاط عاصمة مصر عامرة بالسكان والعمران، بخلاف الجزر النيلية الأخرى التي كانت تستخدم للزراعة على وجه العموم، بالإضافة لكونها متتزه العاصمة حيثئذ والمتنزهين والمتفرجين بها لا ينقطعون عنها لذلك فقد عمرت عمارة عظيمة منذ الفتح الإسلامي حتى وقتنا هذا.

وكان الجزء الجنوبي من الروضة أكثر تعميراً بحكم الموقع ومواجهته لمصر القديمة حتى قبل الفتح الإسلامي، كما أنه كان عريضاً حيث أن الطرف الشمالي للجزيرة كان ضيقاً وأحدث نشأة كما هو ثابت جغرافياً أن الأطراف الشمالية من الجزر هي الأطراف النامية والمنخفضة في نفس الوقت لذا تركز العمران في الجزء الجنوبي من الجزيرة في حين أن الطرف الشمالي للجزيرة كان هو المستغل في الزراعة والبساتين، بالإضافة لوجود الجسور الرابطة بين الجزيرة وكل من الفسطاط والجزيرة بالجزء الجنوبي منها^(١).

وقد كان لجزيرة الروضة دور في الأحداث التي صاحبت الفتح الإسلامي لمصر فقد كان بها القلعة تحصن بها الروم بقيادة المقوقس حاكم مصر حيثئذ بعد أن قطعوا الجسر الواصل بينهم وبين الشاطئ الشرقي للنيل، ولما انتصر جيش المسلمين بقيادة عمر بن العاص خرب أبراجها وأسوارها، وقد كانت هذه الأسوار مستديرة عليها^(٢).

الجزيرة في زمن الدولة الأموية (٤١هـ - ١٣٢هـ / ٦٦١ - ٧٥٠م) :

صار للجزيرة دور هام منذ بداية الدولة الأموية وذلك لأن والي مسلمة بن مخلد الأنصاري (٤٧ - ٦٢هـ / ٦٦٧ - ٦٨١م) أنشأ بها سنة ٥٤هـ / ٦٧٤م دار الصناعة^(٣) التي

= المحاضرة، ج٢، ص ٣٧٧، كوكب الروضة (مخطوط) ورقة ٣، ٤، ١١.

* وقد وردت كلمة الروضة في القرآن الكريم في الآية ١٥ من سورة الروم، وفي الآية ٢٢ من سورة الشورى.

* ومن معاني الروضة هي البقعة التي يصبى فيها الماء فينبت فيها البقل والعشب. انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٣، ص ٨٣-٩٦، السيوطي، كوكب الروضة، ورقة ٣، ٤.

(١) محمد عبد العزيز، جزيرة الروضة وأثارها الدراسة حتى نهاية العصر المملوكي، ماجستير «مخطوطة»، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٧٧) ص ٤.

(٢) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١٠٩، المقرئ، الخطط، ج٢، ص ١٧٨، السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٧٧، ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٩٧.

(٣) الصناعة ويقال لها دار الصناعة هي المكان المخصص لإنشاء وتعمير جميع السفن والمراكب الخاصة بأعمال الدولة سواء كانت حربية أو خاصة بركوب الخليفة أو الملك أو من المراكب التي تنقل الغلات السلطانية =

كانت تصنع بها السفن البحرية بنوعيهما الحربية والتجارية، وكذلك ازداد العمران بالجزيرة فبنيت بها الدور والقصور المشرفة على النيل في فترة حكم الوالي عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٤ م) الذي عين للجزيرة والى يتولى الحكم^(١) بها نتيجة ذلك العمران، كما كان يوجد بالجزيرة في أيامه فرقة من ٥٠٠ فاعل معدة لمقاومة أى حريق أو هدم يكون في البلاد^(٢).

وكان بالجزيرة عدد كبير من الحوانيت ملكا للخليفة الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ / ٧٠٥ - ٧١٤ م) لا سيما في جزئها الجنوبي^(٣)، وهذه الحوانيت دليل آخر على العمران الكبير الذي كانت عليه الجزيرة في زمن الدولة الأموية.

= والأخشاب وغيرها، واطلاق لفظ الصناعة دون تخصيص على صناعة السفن منذ أوائل العصر الإسلامي يدل دلالة واضحة كما تقول د. سعاد ماهر على مبلغ اهتمام الدولة الإسلامية بالقوى البحرية ولذا فقد أصبحت الصناعة لديها تعنى في المقام الأول صناعة السفن والاساطيل، وقد نقل الفرنج دار الصناعة عن طريق الاسبان إلى لغاتهم فقال الاسبان Darcinah وأخذتها عنهم سائر اللغات الأوربية وصارت الكلمة Arsenal، ثم عاد العرب فأخذوها عن الاسبان Iarsanah وظنوها تركية فعرّبوها إلى ترس خانة أو ترسانة. وأنشئت أول دار للصناعة السفن في مصر في العصر الإسلامي سنة ٥٤٤ هـ / ٦٧٤ م في عهد واليها مسلمة بن مخلد أثناء خلافة معاوية بن أبى سفيان وكان مقرها جزيرة الروضة على ساحلها الجنوبي الشرقى، وأحيانا كانت الصناعة على الساحل الغربى للجزيرة، في ولاية محمد بن طنجج الاخشيد (٣٢٣ - ٣٣٤ هـ / ٩٣٤ - ٩٤٥ م) نقل جزء من دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى ساحل نسطاط مصر، وكان الساحل في ذلك الوقت ينتهى إلى الطريق التى يمر بها اليوم شارع الديورة شرق فم الخليج حيث كان يجرى في زمن الدولة الاخشيدية تحت ذلك الشارع وفي أول حكم الدولة الفاطمية نقلت دار الصناعة إلى المقس حيث كان النيل يجرى في المنطقة التى يشغلها اليوم ميدان رمسيس بجوار جامع أولاد عنان (الفتح حاليا)، ثم اعيدت الصناعة أيام الخليفة الأمر بأحكام الله الفاطمى (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٢٩ م) إلى محلها السابق بساحل مصر حيث شارع الديورة الآن، ولما طرح البحر وتكونت أرض جديدة بين شارع الديورة وساحل أثر النبى الخالى بفم الخليج نقلت الصناعة إلى ساحل مصر تجاه دار النحاس (دير النحاس بجوار كوبرى الملك الصالح حاليا)، واستقرت مدة طويلة إلى أن نقلت إلى ساحل بولاق في عهد محمد على باشا وعرفت باسم الترسانة.

المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٨٩ - ١٩٧، محمد رمزى، تعليقه على النجوم، ج٤، ص ٩٩ - ١٠٠، انور عبد العليم، البحرية الإسلامية في شرق البحر المتوسط، ص ٣٤٦ - ٣٥٥ سعاد ماهر، البحرية في مصر الإسلامية، (نشر الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧)، ص ٣١١ - ٣١٨.

Wiet, (G) *Materiaux Pour un Corpus Inscriptionum*, PP. 165 - 169.

(١) ابن عبد الحكم (عبد الرحمن بن عبد الله، ت ٢٥٧ هـ / ٨٧١ م)، فتوح مصر وأخبارها تحقيق محمد صبيح، (القاهرة، ١٩٧٤)، ص ٧٦، المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٦١، السيوطى كوكب الروضة، مخطوط، ورقة ٢٠.

(٢) المقريزى الخطط، ج٢، ص ١٧٨، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٧٨.

(٣) ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص ٩٦.

وفي فترة خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م) بنى أسامة بن زيد التتوخى عامل الخراج بمصر مقياس بها سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م، وهو أول مقياس يبنى في الإسلام^(١).

الجزيرة في زمن الدولة العباسية (١٣٢ - ٦٥٦ هـ / ٧٥٠ - ١٢٥٨ م) :

بالرغم من خلو المصادر من الأخبار عن جزيرة الروضة أيام ولاتها من قبل الدولة العباسية إلا أن ذلك لا يعنى عدم الاهتمام بها، إلا أن أهم الأعمال التي خلدت جزيرة الروضة بناء مقياس النيل الحالي سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦٢ م في فترة خلافة الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢ - ٢٤٧ هـ / ٨٤٦ - ٨٦٢ م) على يد واليه على مصر يزيد بن عبد الله التركي (٢٤٢ - ٢٥٣ هـ / ٨٥٦ - ٨٦٧ م)، وقد عرف هذا المقياس باسم المقياس الجديد تميزا له عن مقياس أسامة^(٢).

وعندما استقل أحمد بن طولون بحكم مصر وأسس دولة مستقلة عن الخلافة العباسية استمرت ثمانية وثلاثين عام (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م) وتوترت العلاقات بينه وبين الخلافة، وتحرك القائد العباسي موسى بن بغا سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٧ م في زمن الخليفة المعتمد على الله ليحل محل ابن طولون ويكون واليا على مصر وجميع أعمال ابن طولون، لذا فقد أقام أحمد بن طولون حصنا منيعا بالجزيرة^(٣) على انقاض وبقايا أبراج وأساسات الحصن الروماني القديم^(٤)، ليتخذ للدفاع ضد الجيش الذي يقوده ابن بغا وخصوصا وأن العاصمة آنذاك (مصر والفسطاط والقطائع) كانت بدون قلاع أو أسوار تحميها، وكان ذلك الحصن في مأمن استراتيجي إذ يحيط بها الماء من كل ناحية، وقد اجتهد ابن طولون في بنائه وانفق عليه ثمانين ألف دينار ليكون معقلا له ولحريمه وذخائره^(٥)، كما اجتهد ابن طولون في بناء المراكب الحربية وأحاطها بالجزيرة حرصا منه في الدفاع عن الفسطاط التي أدرك أنها عرضة للهجوم

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٤، المقریزی، الخطط، ج١، ص ٥٨، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٢، ص ٣١٠.

(٢) المقریزی، الخطط، ج١، ص ٥٨.

(٣) المقریزی، الخطط، ج٢، ص ٣٨٠، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٢، ص ٣٣٩، السيوطي، حسن المحاضرة، ج٣، ص ٣٧٨.

(٤) كان «القلقشندي» دقيقا في كلامه على بناء حصن ابن طولون حيث ذكر نقلا عن القضاء أن أحمد بن طولون «جدد» الحصن الروماني. انظر: صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٣٩.

* أى أنه استغل أساساته وأبراجه وأجزاء من أسواره كانت باقية أيامه، ويؤكد ذلك أقوال المؤرخين الذين أجمعوا على أن الحصن لم يستغرق بناؤه زمنا طويلا وإنما ستة أشهر فقط.

* بالإضافة إلى ذلك نقول أن الحصون الرومانية بأسوارها وأبراجها كانت قوية ومتينة البنيان وكان من العناية محوها، وليس أدل على ذلك من وجود بعض الأبراج وأساسات الأسوار الخاصة بالحصن الروماني المعروف بحصن بابليون بمارجرس بمصر القديمة والذي كان على سمت واحد مع حصن الروضة.

(٥) المقریزی، الخطط، ج٢، ص ١٨٠.

والاستيلاء عليها بسهولة من ناحية النيل فاتخذ ابن طولون مائة مركب حربية سوى ما أضيف إليها من المراكب الصغيرة الحجم وعمد إلى سد مداخل البحر المترسّط بهذه المراكب خشية الهجوم عليه بحرا عن طريق فرعى دمياط ورشيد^(١).

وفى تلك الأثناء كان موسى بن بغا متباطئا ومتثاقلا فى حملته على مصر لعظم شأن ابن طولون وقوته ، فلم يلبث ابن بغا أن مات سنة ٦٢٤ هـ / ٨٧٨ م فكفى الله ابن طولون شره^(٢).

وقد ظل حصن ابن طولون عامرا أيامه وعملت فيه صناعة مصر التى تنشأ فيها المراكب الحربية واستمرت إلى أيام محمد طنجج الأخشيد فنقلها منها^(٣) وظل الحصن قائما حتى أخذه النيل شيئا بعد شيء^(٤) وهدمه إلى بنى مكانه الصالح نجم الدين أيوب قلعته .

ومثلما استقل ابن طولون بحكم مصر ، فعل نفس الشيء محمد بن طنجج الأخشيد وأسس دولة استمرت أربع وثلاثين سنة (٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م) ، وفى سنة ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م أمر محمد بن طنجج الأخشيد بنقل دار صناعة السفن من جزيرة الروضة إلى دار خديجة بنت الفتح بن خاقان زوجة أحمد بن طولون بساحل القسقاط وأطلق عليها الصناعة الكبرى^(٥) ،
(١) نفسه .

(٢) سجل الشعراء أعمال ابن طولون هذه من بناءه للحصن والمراكب فى قصائد بمناسبة حملة موسى بغا عليه ، فقال الشاعر محمد بن داود وهو موال ومؤيد للخلافة العباسية ومتحاملا فى أشعاره على ابن طولون :

ولما تولى بن بغا بالرقتين بلا	ساقيه زرقا إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصنا يستجن به	بالعسف والضرب والصناع فى تعب
وراقب الجزيرة القصوى فخذقها	وكاد يصعق من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راکدة	فما سوى القمار للنظار والخشب
ترى عليها لباس الذل مذ بنيت	بالشط بمنوعة من عزة الطلب
فما بناها الغزو الروم محتسبا	ولكن بناها غداة الروع والعطب
وقال أيضا سعيد بن القاضى من أبيات له :	
وإن جئت رأس الجسر فانظر تأملا	إلى الحصن أو فاعبر إليه على الجسر
ترى أثر الم يبق من يستطيعه	من الناس فى بدو البلاد ولا حضر
مآثر تبلى وإن باد أهلها	ومجد يؤدى واثبه إلى الفخر

انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٨٠ - ١٨١ ، السيوطى حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٧٨ - ٣٧٩ .
على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج١٨ ، ص ٧ - ٨ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٨١ .

(٤) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ١٠٩ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٣٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٣ ، ص ١٢ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٧٩ ، كوكب الروضة ، ورقة ١٦ .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٨١ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ، ص ٣٧٨ ، والجدير بالذكر هنا أن الساحل فى زمن دولة الأخشيد كان ينتهى إلى الطريق التى يمر فيها اليوم شارع الديورة شرقى فم الخليج حيث كان مجرى النيل يمر فى ذلك المكان حيثئذ . انظر : محمد رمزى ، تعليقه على النجوم ، ج٤ ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

وكان نقل الصناعة بسبب استراتيجى أمنى فقد أراد الأخشيد أن لا يحول بينه وبين الصناعة نهر النيل وذلك لنجدتها إذا هاجمها مهاجم، وذلك لأن صناعة الجزيرة تعرضت لهجوم كبير من قبل الثوار الخارجين على الأخشيد واستيلائهم على الجزيرة وإحراقها سنة ٣٢٣هـ / ٩٣٥م^(١)، وقد أقام الأخشيد مكان الصناعة بستانا نزاها سماه المختار وعمر به قصرا مرتفعا^(٢).

وقد ذكر هذا البستان والقصر «المسعودى» كشاهد عيان فى حديثه عن الاحتفال بليلة الغطاس فى زمن الأخشيد فى سنة ٣٣٠هـ / ٩٤٢م^(٣)، وصار الأخشيد ببستانه هذا وقصره يفاخر به أهل العراق، وكان يتنزه به هو وأسرته من بعده، وظل هذا البستان متنزها ملوكيا حتى أن الخليفة الفاطمى المعز لدين الله قد اتخذته متنزها له وكذلك فعل ابنه العزيز بالله^(٤).

الجزيرة فى زمن الدولة الفاطمية (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١م):

فى زمن الخلافة الفاطمية تمتعت جزيرة الروضة بأهمية كبرى إذ أن الخليفة المعز لدين الله لما قدم إلى مصر سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٤م اتخذها متنزها له ولأولاده وخلفاءه من بعده وصارت الجزيرة مدينة عامرة بالناس لها وال وقاض حتى ذكرها المؤرخون المعاصرون كمدينة كبيرة

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨١.

(٢) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٦، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨١، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٧٩.

* وموضع بستان المختار الآن الجزء الجنوبي من جزيرة الروضة، فقد ذكر المقدسى «أن متنزه أمير المؤمنين عند الخليج (يقصد سيالة الروضة) بموضع يسمى المختارة... ويلقى الخليج العمود (يقصد عمود المقياس) تحت الجزيرة عند المختارة. انظر: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط ليدن، ١٩٠٦، ص ٢٠٠.

* وقد اعتقد المقدسى أن فرع سيالة الروضة خليج شقه بعض الخلفاء من ولد العباس فسميت تلك القطعة بالجزيرة. انظر: نفس المصدر، ص ١٩٨.

* والمختارة هى كنيسة تسمت بهذا الاسم نسبة إلى بستان المختار بجوارها.

* وقد ذكر المؤرخون أن الملك الصالح نجم الدين أيوب خرب اليهودج والبستان المختار عندما شرع فى بناء قلعة الصالحية بالروضة والتي كانت تمتد من المقياس جنوبا إلى زاوية البسطامى شمالا.

* وبناء على ذلك فإن موضع حصن بن طولون وموضع بستان المختار والقصر اللذين حلا محل الحصن يمتد الآن من زاوية البسطامى التى لا تزال تقع جنوب كوبرى الملك الصالح بحوالى ١٢٠ متر حتى المقياس.

* هذا وقد أطلقت مصلحة التنظيم على أحد شوارع هذه المنطقة اسم شارع المختار.

(٣) المسعودى (أبو الحسن على بن الحسين، ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م)، مروج الذهب ومعادن الجوهر، (ط بيروت، ١٩٨٧)، ج١، ص ٣٤٤.

(٤) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨١، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٧٩.

تقترب بالقاهرة ومصر فكان يقال «القاهرة ومصر والجزيرة»^(١) كما كان للجزيرة سوق^(٢) مما يدل على عمرانها الكبير في زمن الفاطميين، وقال عنها الرحالة «الإدريسى» المتوفى سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م «في هذه الجزيرة مساكن جليلة ومباني متصلة على ضفة النيل وهذه الجزيرة تسمى دار المقياس»^(٣).

وعن العمران بالجزيرة نجد في فترة حكم الخليفة الحاكم بأمر الله (٣٨٦-٤١١هـ/ ٩٩٦-١٠٢٠م) أن الأمير غين^(٤) قد عمر جامعاً بالروضة به خطبة^(٥) وهو أول المساجد الجامعة

(١) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٣٣٩، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٧٩.

(٢) ابن ميسر (تاج الدين محمد بن على، ت ٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، المنتقى من أخبار مصر تحقيق أمين فؤاد سيد، (نشر المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨١)، ص ١١٠.

(٣) نزهة المشتاق، ص ٣٢٣.

(٤) غين هذا كان أحد خدام الحاكم بأمر الله، وفي سنة ٤٠٢هـ رقاها إلى منصب قائد القواد وقلده الشرطتين والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة، ثم نكبه الحاكم سنة ٤٠٤هـ بقطع يده ولسانه، وحملت يده في طبق إلى الحاكم، ثم أمر الحاكم بقتله سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م انظر: ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٥، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٣٩٧-٣٩٨.

* ومن الطريف أنه قد عثر في حفائر مدينة الفسطاط على جزء كبير من طبق خزفى كبير يحمل اسم غين والقباه، وصار لهذا الطبق شأن كبير في تاريخ القاهرة الأثرى والفنى كما كان لغين شأن في تاريخها السياسى. وعن هذا الموضوع بالتفصيل انظر: حسن الباشا بحث بعنوان «طبق غين» فى كتاب القاهرة تاريخها وفنونها وآثارها، نشر مؤسسة الأهرام، ١٩٧٠، ص ٥٢١.

(٥) ظلت الخطبة بهذا الجامع إلى أن عمر جامع المقياس سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م فيطلت منه، فلما أنشأ صاحب محبى الدين من صاحب بهاء الدين بن حنا داره قبالة هذا الجامع بالكوم الأحمر بمنشئة المهرانى (بالقرب من فم الخليج الآن) طلب من والده أن يكلم السلطان الظاهر بيبرس (٦٥٨-٦٧٦هـ/ ١٢٦٠-١٢٧٧م) فى إعادة الخطبة إليه ففعل ذلك، وصادف ذلك الطلب قبولا فى نفس الظاهر وذلك لأنه كان كثير التردد والتنزه بالجزيرة وإقامة الاستعراضات البحرية واللعب بالشوانى والمراكب فى النيل، بالإضافة لكثرة الخلق بالجزيرة ومشقتهم فى الذهاب إلى جامع المقياس بآخر الجزيرة، فأعيدت إليه الخطبة سنة ٦٦٠هـ مع استمرارها فى جامع المقياس، وكانت المباني قد كثرت من حوله حينئذ. انظر: ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٥، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٢٩٧، السيوطى كوكب الروضة، ورقة ٤٠.

* وقد حل محل جامع غين زاوية صغيرة بشارع محمد ذو الفقار بالمنيل شمال غرب كوبرى الملك الصالح بحوالى ١٥٠ مترا، وتعرف تلك الزاوية الآن باسم جامع الباريقى لأن الشيخ أحمد الأباريقى (من أهل القرن السابع الهجرى) قد اتخذ من جامع غين بالروضة خلوة له فدفن به فعرف بزاوية الأباريقى، وفى سنة ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م بنى الأمير على باشا شريف أحد أمراء أسرة محمد على زاوية صغيرة بها ضريح الأباريقى وقد ذكر «على مبارك» أنه حين حفرت الأرض بقرب الزاوية لأخذ التراب منها ليرفع به أرض بستانه وجد كثيرا من قطع الرخام وأحواضا ومجارى وغير ذلك من الأشياء القديمة لجامع غين. انظر الخطط التوفيقية، ج١٨، ص ١٢، سعاد ماهر، مساجد مصر، ٢٥٠، ص ٩٧-١٠١.

* ويتكون جامع أو زاوية الأباريقى حاليا من مسجد بسيط مستطيل يتوسط جداره الجنوبي الشرقي محراب وفى الجانب الشمالى الغربى منه باب يدخل منه إلى حجرة مستطيلة المساحة اقتطع منها جزء مربع على =

بالروضة، وقد كثرت العمائر حوله حيثند، وهذا الجامع هو الذى أشار إليه الرحالة الفارسى «ناصر خسرو» عند زيارته مصر فى سنة ٤٣٧هـ / ١٠٤٥م فعند كلامه عن الجزيرة قال «والجزيرة غربى النيل وبها مسجد جمعة وحدائق وهى صخرة وسط النهر تقسمه قسمين»^(١).

وقد شهدت الجزيرة فى سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م أحداثا سياسية خطيرة تأثرت مبانيها فيها مثلما حدث بالفسطاط والقاهرة فى الشدة المستنصرية، إذ حدثت فيها فتنة عظيمة بين طائفتى العبيد والترك المتصارعتين أيام الخليفة المستنصر بالله (٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م) عقب الشدة العظمى واستولى العبيد فى تلك الأيام على الجزيرة واستمرت الحرب بينهما مدة^(٢).

ثم هدأت الأحوال بعد ذلك وعاد العمران للجزيرة لذا ففى سنة ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م تم بناء جامع فى النهاية الجنوبية للجزيرة بجوار المقياس من جهة الغرب سمى جامع المقياس على يد الوزير بدر الجمالى بعد ترميمه للمقياس^(٣).

= المستوى العلوى بأركانها أربع حنايا ركنية بسيطة أقيمت فوقها قبة، ويتوسط الحجرة مقام الشيخ الأبارقى، وكان الجامع والقبة مزخرفين بالزخارف النباتية بالألوان الزيتية إلا أنها حُجبت الآن بفعل طلاء حديث.

(١) ناصر خسرو علوى (ت ٤٥٣هـ / ١٠٦١م)، سفرنامه، ترجمة يحيى الخشاب، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٤٥، ص ٦١.

(٢) المقرئى، الخط، ج ١، ص ٣٣٧، السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ١٨.

(٣) جدد هذا الجامع الملك الصالح نجم الدين أيوب، وقد زاد فى مساحته وجعل حوله سوراً وفى ١١ رجب سنة ٨٢٣هـ أمر السلطان المؤيد شيخ بهدم هذا الجامع وتوسيعه وتعميره على أحسن ما يكون ولكنه مات قبل إتمامه فأنعم من بعده السلطان الظاهر جقمق وأوقف عليه أوقافاً كثيرة، كما عمره الأشرف قانصوه الغورى وأوقف عليه أوقافاً كثيرة. وقد قام علماء الحملة الفرنسية برفع الجامع هندسياً فكان مسقطه الأفقى مستطيل الشكل ويتكون من صحن أوسط مكشوف تحيط به ٤ ظللات، الظلة الجنوبية الشرقية تتكون من ثلاث بلاطات والمقابلة من بلاطتين، والظلة الجنوبية الغربية من بلاطة واحدة والمقابلة مثلها، وتلك الظلات مقامة على أربع وثلاثين عموداً وأربعة أكتاف بأركان الصحن، ومدخل الجامع بالجانب الشمالى الشرقى، وله شبابيك مطلة على النيل، وكان له مثذنة ارتفاعها وقت الحملة أربعة وعشرين متراً، وكان يتصل بالجامع سلالم موصلة إلى النيل عددها ثمانية عشر درجة وربما كانت تستخدم مقياساً للنيل وقد سجلت الحملة بعض النصوص الكتابية التى كانت بالجامع وكانت تحمل دعاء للخليفة المستنصر والوزير بدر الجمالى وتاريخ سنة ٤٨٥هـ، وفى زمن محمد على أقام المهندس الفرنسى باسكال كوست فى عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م مصنعا للبارود بالقرب من المقياس وأقد أدى انفجار المصنع فى عام ١٢٤٥هـ / ١٨٣٠م إلى تدمير الجامع، وفى سنة ١٨٥٠م أزال حسن باشا المناستلى محافظ القاهرة آنذاك بقايا الجامع لقيم مكانه السلامك (الكوشك) الخاص بجلوس رجال السراية المسمى الآن قصر المناستلى، وبني بدلاً منه مسجداً صغيراً شمال شرق المقياس. انظر: ابن دقماق، الانتصار، ج ١، ص ١١٥ - ١١٦، على مبارك، الخطط التوفيقية، ط ١٩٨٦ ج ٢، ص ٢٧٨ - ٢٨٠، ج ١٨، ص ١٣. محمد عبد العزيز، جزيرة =

ومن المتزهات الكبيرة التي أقيمت بجزيرة الروضة فى الدولة الفاطمية البستان الذى أقامه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى بحرى (شمال) الجزيرة وقد سماه الروضة ، وكان ذلك الوقت صارت الجزيرة كلها تعرف بالروضة ^(١) ، وكان الأفضل كثير التردد على الجزيرة ويمضى إليها كل يوم فى مراكب النزهة المسماة العشاريات الموكبية إلى قتل سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ^(٢) وكانت جزيرة الروضة فى ذلك الوقت أنزه بقع مصر ولم يكن فيها فى الديار المصرية بقعة تشاكلها لما كان فيها من البساتين والمناظر ^(٣) . وموقع بستان الروضة يحتله الآن مستشفى وكلية طب القصر العينى وكلية طب الأسنان .

كما أنشأ الخليفة الفاطمى الأمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٢٩م) ، مكانا (متنزا) بجوار البستان المختار سماه اليهودج ^(٤) ، لمحبيته (زوجته) البدوية التى هام بها حبا وذلك لأنها كما ذكر المؤرخون «صعب عليها مفارقة ما اعتادت ، وأحبت أن تسرح طرفها فى الفضاء ولا تقبض نفسها تحت حيطان المدينة فبنى لها البناء المشهور فى جزيرة الفسطاط المعروف باليهودج على شاطئ النيل فى شكل غريب» ^(٥) .

وقد أراد الأمر ببناء اليهودج هذا أن يقربها لبيتها التى اعتادتها ، وظل الأمر يتردد على اليهودج للتنزه إلى أن قتل برأس الجسر الذى بين الفسطاط والروضة فى ذى القعدة سنة ٥٢٤هـ / ١١٣٠م ^(٦) .

= الروضة، ص ٤٨ - ٥٠ ، عبداللطيف إبراهيم، دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى، دكتوراة «غير منشورة» ، (كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٥٦م) ج ٢، ص ٥٠٦. Discription De. L'Egypte Vol XV, PP. 459 - 463. Wiet (G) Combe (E). Sauvaiget (J), " Repertoire Chronologique D'epigraphie Arabe I XVI Le Caire IFAO 1931 - 1964 VII 265 - 9 , No. 2794 - 6 Creswell, MAE I 219.

(١) السيوطى، كوكب الروضة ، ورقة ٢٧ .
(٢) ابن ميسر، المتقى من أخبار مصر، ص ٨٧، المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ١٨١ .
(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٧٠ .
(٤) يمثل اليهودج الآن المنطقة التى تقع مواجهة لكوبرى الملك الصالح وإلى الجنوب منه بقليل لأنه كان مجاورا لبستان المختار وكان بستان المختار يقع بأخر الجزيرة، وقد خربهما الملك الصالح نجم الدين أيوب عند بناء قلعة التى كانت تمتد من زاوية البسطامى شمالا حتى المقياس جنوبا . هذا ولا تزال زاوية البسطامى قائمة إلى اليوم بعد إعادة بنائها بشارع البسطامى وتقع على بعد ١٢٠ متر جنوب كوبرى الملك الصالح . وقد أخطأت مصلحة التنظيم حين أطلقت اسم اليهودج على أحد شوارع مصر القديمة انظر: محمد رمزى، مذكرة بيان الأغلاط التى وقعت من مصلحة التنظيم ، ص ١٣ .

(٥) المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ١٨٢ ، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٢١ ، ٢٧١ .
(٦) ابن ميسر، المتقى من أخبار مصر، ص ١١٠ ، ابن سعيد، المغرب، ص ٨٩، المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٤٨٤ ، ج ٢، ص ٣٨٠ ، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٢٣ . وعن قصة الخليفة الأمر مع البدوية ذكر المؤرخون أن الخليفة الأمر كان صغير السن متجاهرا بالمسكرات ومشتغلا بسماع الزمور =

= وشرب الخمر وانشغل عن أحوال المملكة وصار الناس في زمانه مثل الغنم بلا راع فاضطربت أحوال مصر كما ذكر «ابن إياس». وكان الخليفة الأمر متيما بحب البدويات، وكانت قصة تلك البدوية تشبه القصص الخالدة وقصص ألف ليلة وليلة، فقد ذكر المقرئ نقيلا عن القرطبي أن الخليفة الأمر قد ابتلى بعشقه الجوارى العربيات فكان يجتهد في طلبهن، ولما سمع عن تلك البدوية التي بالصعيد وأنها شاعرة بليغة رائعة الجمال والحسن تحيل لرؤياها بأن ذهب لحيها متخفيا بزى الأعراب ونزل ضيفا على أهلها وتحايل حتى رآها فعشقها فرجع إلى قصره بالقاهرة وأرسل يخطبها من أهلها فوافقوه فتزوجها وحظيت عنده بأسمى منزلة، وكانت هذه البدوية قد ألقت طلق الهواء وتسريح النظر في الفضاء والسماء فضاقت نفسها أن تكون حبيسة الجدران بالقصور فشكت للأمر فأنشأ لها بجوار البستان المختار مكانا يتفق مع طلبها اسماء الهودج، وكانت تلك البدوية متعلقة بابن عم لها يسمى ابن مياح فكتبت إليه وهي بقصر الخليفة الأمر:

يا ابن مياح إليك المشتكى	مالك من بعدكم قد ملكا
كنت في حبي مرأ مطلقا	نائلا ما شئت منكم مدركا
فأنا الآن بقصر مژم	لا أرى إلا حبيسا ممككا
كم تشنينا بأغصان اللوا	حيث لا نخشى علينا دركا
وتلاعبنا برملات الحمى	حيثما شاء طليق سلكا
فأجابها ابن مياح:	
بنت عمى والتي غذبتها	بالهوى حتى علا واحتنكا
بحث بالشكوى وعندى ضعفها	لو غدا ينفع منها المشتكى
مالك الأمر إليه يشتكى	مالك وهو الذي قد هلكا
شأن داود غدا في عصرنا	مبديا بالتيه ما قد ملكا

فبلغت الأمر فقال: لولا أنه ساء الأدب في البيت الرابع لرددتها إلى حيه وزوجتها به وغضب الأمر على ابن مياح فهرب واختفى وطلبه الأمر فلم يصل إليه، وكان هناك شاعرا من بنى طى اسمه طراد بن مهلهل فلما بلغه قضية الأمر مع العالمة البدوية قال:

ألا أبلغوا الأمر المصطفى	مقال طراد ونعم المقال
قطعت الأليفين عن ألفة	بها سمر الحى بين الرجال
كذا كان أبواك الأقدمون	سألت فقل لى جواب السؤال

فلما بلغ الأمر شعره قال جواب السؤال قطع لسانه على فضوله، وأمر بطلبه في أحياء العرب ففر ولم يقدر عليه، فقالت العرب: ما أخسر صفقة طراد باع أبيات الحى بثلاثة أبيات من الشعر، وتناقل الناس الأشعار وأخبار الأمر مع البدوية، المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ١٨٢، السيوطى كوكب الروضة، ورقة ١٦. وهذه القصة لها أصل مشابه من قبل حيث تزوجت ميسون بنت هجذل الكلية معاوية بن أبى سفيان التي أنجبت له ابنه يزيد، وكانت قد برمت بحياة الترف وسكن القصور وحثت إلى حياة البادية التي نشأت فيها فقالت الأبيات المشهورة منها:

لبيت تخفق الأرياح فيه	أحب إلى من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني	أحب إلى من لبس الشفوف
وأكل كسيرة فى عقر بيتى	أحب إلى من أكل الرغيف =

ك

وكان للفاطميين منظر (١) أعدت للنزهة تسمى المشتى ذكرها المقرئى (٢) لكنه لم يحدد مكانها ولا تاريخها ، ولكن «ابن دقماق» عين موضعها فذكر أنها فى طرف الروضة تجاه الجامع الناصرى ولكن لا يوجد فى نص «ابن دقماق» من قام بإنشائها وفى أى سنة بنيت (٣) ، ولكن بالرجوع إلى «ابن ميسر» فى كتابه المتقى من أخبار مصر نرى أن المشتى تعود إلى ما قبل سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م ذكر فى حوادث شهرى صفر وجمادى الأولى سنة ٤١٥هـ ، أن الخليفة الظاهر (٤١١ - ٤٢٧هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٥م) ركب إلى المشتى بجزيرة الروضة (٤) .

ومنظر المشتى حل محلها فى العصر المملوكى رباط (٥) سعى رباط المشتى أقام به أحد اعلام الصوفية فى زمنه وهو الشيخ الكازرونى (٦) وقد دفن به وعرف قبره فى العصر العثمانى باسم زاوية الشيخ الكازرونى ، وحتى الأربعينات من هذا القرن كانت الزاوية موجودة على خريطة القاهرة للآثار الإسلامية بأول شارع جامع قايتباى إلا أنها أزيلت بعد ذلك .

وكلب ينبج الطراق دونى
وخرق من بنى عمى نحيف
أحب إلى من قط ألوف
أحب إلى من عالج عنوف

- وسمى معاوية تقول هذه الأبيات أو نقلت إليه فقال : ما رضيت بنت بجدل حتى جعلتنى علبا عنوفا ، هى طالق ثلاثا ، دعوها تأخذ ما فى القصر فهو لها ، ثم سيرها إلى أهلها بنجد وكانت حاملا بيزيد فولدته وأرضعته ستين ثم أخذه معاوية . انظر : محمد كمال السيد ، أسماء ومسميات ، ص ٤٣٥ .
- (١) المنظر ما هى إلا قصر كامل المرافق والمشمولات كان الخلفاء الفاطميون يتنزهون به يومى السبت والثلاثاء من كل أسبوع ويقومون بتوزيع الصدقات والمأكلى على الفقراء . السيوطى ، كوكب الروضة ، ورقة ٢٧ .
- (٢) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٤٩٠ ، السيوطى ، كوكب الروضة ، ورقة ٢٦ .
- (٣) ورد النص كالتالى «زاوية المشتى عمرها . . فى سنة . . وهى فى طرف جزيرة الروضة تجاه الجامع الناصرى» . الانتصار ، ج٤ ، ص ١١٦ . الجامع الناصرى كان يقع على النيل فى المنطقة التى بها أول شارع السكر والليمون جنوب قناطر مجرى العيون بقم الخليج بمصر القديمة بالقاهرة .
- (٤) ابن ميسر ، المتقى من أخبار مصر ، ص ٢٣ ، ٤١ ، ٤٥ .
- (٥) الرباط هو نوع من الأبنية العسكرية كان يسكنه المجاهدون الذين يدافعون عن حدود الإسلام بحد السيف ، وكانت الأربطة منتشرة فى صدر الإسلام قبل أن ينتشر الدين ويستتب الأمن وتأمين الدولة الإسلامية على حدودها ، وقد كانت فى تصميمها تشبه التحصينات الحربية فمعظمها عبارة عن أبنية مستطيلة الشكل وفى أركانها أبراج للمراقبة ، ولما زالت عن تلك الأربطة صفتها الحربية أصبحت بيوتا للتقشف والعبادة تسكنها الصوفية . انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٤٢٧ ، سعاد ماهر ، مساجد مصر ، ج١ ، ص ٤١٣ .
- (٦) الكازرونى هو بهاء الدين محمد بن عبدالله الكازرونى الذى قدم إلى مصر فصاحب الشيخ أحمد الجزرى صاحب الشيخ ياقوت تلميذ أبى العباس المرسى وزوج ابنته ، وانقطع بعده فى المشتى من الروضة وكان الناس يترددون إليه ويعتقدونه ، وكان أعجوبة فى جذب الناس إليه ، وقد توفى ليلة الأحد ٥ ذى الحجة ٧٧٤هـ / ١٢٧٣م ودفن بزاويته بالروضة انظر : المقرئى ، السلوك ، ج٣ ، ص ٢٠٩ ، ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، (ط حيدرآباد ، ١٣٤٨هـ / ١٣٥٠هـ ، ج١ ، ص ٤٩ .

وذكر ابن دقماق أيضا زاوية تعرف بزاوية المنتهى ولكنه لم يذكر القائم على تعميرها وزمن بنائها^(١)، ويبدو أنها قد اقيمت في العصر المملوكي محل إحدى المناظر الفاطمية.

ومن أخبار الجزيرة أيضا في العصر الفاطمي أنه في سنة ٥١٦هـ / ١١٢٢م نقل الوزير المأمون البطائحي إنشاء الشوانى وغيرها من المراكب النيلية من صناعة الجزيرة إلى الصناعة التي بساحل مصر^(٢).

=ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١، ص ١١٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ١١٤ وقال المقرئى عن الرباط «ولله در شيخنا العارف بالله الأديب شهاب الدين أحمد بن أبي العباس الدمههورى حيث يقول:

بروضة المقياس صوفية	هم منية الخاطر والمشتهى
لهم على البحر أباد علت	وشيخهم ذاك له المنتهى

وقال العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الصائغ الخثني:

ياليلة مرت بنا حلوة	أن رمت تشبينها لها عبتها
لا يبلغ الواصف فيوصفها	حدا ولا يلقي له منتهى
بت مع المعشوق فى روضة	ونلت من خرطوم المتهنى

الخطوط، ج٢، ص ٤٢٩. وقد ذكر السيوطى أنه قد سكن بالقرب من المتهنى من الصوفية سيدنا محمد وفا الأكبر والد أهل البيت الوفائي واستمر أبناءه من بعده. السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ١٦. أما الرحالة النابلسى الذى زار مصر سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م فقال: «وزرنا قبر الشيخ الكازرونى صاحب الحاشية المشهورة فى تفسير اليبضاوى فى قبة هناك على الطريق. الحقيقة والمجاز، ص ٢٣٦. وتقول د. سعاد ماهر أن المقرئى سمى الزاوية باسم الرباط مما يدل على أنها كانت بناء كبيراً يشتمل على مجموعة من الغرف للمريدين والمنقطعين للعبادة من الصوفية للتلمذ على يدى شيخنا الكازرونى». مساجد مصر، ج٣، ص ٣١٠.

أما على مبارك فيذكر «أنه فى زمنه (سنة ١٢٩١هـ / ١٨٧٤م) أن الزاوية المشهورة بزاوية الكازرونى موقعها غربى سراى الخديو إسماعيل، وبنتها سعادة والدة الخديو المذكور وأقام بها الشيخ على القشلاق أحد رجال الطريقة القادرية ومعه سبعة دراويش ورتبت بها مولدا سنويا». الخطط التوفيقية، ج١٨، ص ١٤. وذكر المرحوم محمد رمزى، أن زاوية الكازرونى باقية أيامه (ت ١٩٤٥م) وهى مقامة الشعائر بشارع الكازرونى بجزيرة الروضة. تعليقه على النجوم، ج١١، ص ١٢٥.

أما عن مصير هذه الزاوية فقد أزيلت فى الأربعينات من هذا القرن لأنفاذ شارع جامع قايتباى وكان موضعها فى نهاية شارع عبده بدران المتفرع من شارع النيل بالقرب من محطة أتوبيس الباشا حاليا. هذا ويوجد بالروضة الآن شارع متفرع من شارع النيل يتجه غربا على ناصية سينما جرين واسمه شارع قصر المتهنى، وهذا الموقع بعيد عن موقع زاوية المتهنى (الكازرونى).

(١) الانتصار، ج٢، ص ١١٦.

(٢) ابن ميسر، المتنفى من أخبار مصر، ص ٩٣، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٤٨٢.

وفى شهر شعبان ٥٦٦هـ / ١١٧٠م اشترى الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب جزيرة الروضة وظلت فى ملكه إلى أن أمره السلطان صلاح الدين الأيوبي بالقدوم إلى الشام فلما تحقق للمظفر أنه لم تكتب له العودة إلى مصر أوقف الجزيرة بكاملها على مدرسته المعروفة بالمدرسة التقوية التى كانت تعرف قديماً بمنازل العز، وعلى مدرسة أخرى بالفيوم ثم سار إلى مملكة حماه حيث تولى الحكم بها (١).

جزيرة الروضة فى زمن الدولة الأيوبية (٥٦٧-٦٤٨هـ / ١١٧١-١٢٥٠م):

ظلت الجزيرة منتزها كبيراً فى زمن الدولة الأيوبية (٢)، كما ظلت وفقاً على المدرسة التقوية بمصر حتى ولى الحكم الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ / ١٢٣٩-١٢٤٩م) فاستأجر الجزيرة من القاضى المعروف بابن السكرى مدرس المدرسة التقوية ومباشر أوقافها وذلك لمدة ستين سنة (٣).

وأقام الملك الصالح بالجزء الجنوبي من الجزيرة بجوار المقياس قلعتة التى عرفت باسم قلعة المقياس أو قلعة الروضة أو قلعة الجزيرة أو القلعة الصالحية، أو قلعة جزيرة الفسطاط (٤) وقد

(١) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١٠٩-١١٠، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٤-١٨٥، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٠، كوكب الروضة، ورقة ١١.

وعن منازل العز ذكر كل من المقرئى وابن دقماق «أن منازل العز قد بنتها السيدة تغريد أم الخليفة العزيز بالله بن المعز، ولم يكن بمصر أحسن منها وكانت مطلة على النيل ولا يحجبها شيء عن منظره، ثم صارت معدة لنزهة الخلفاء، فلما زالت الدولة الفاطمية نزلها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب مدة ثم اشتراها والحمام والاصطبل المجاور لها من بيت المال فى سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م كما اشترى جزيرة الروضة فلما أراد الخروج من مصر أوقف منازل العز على فقهاء الشافعية ووقف عليها الحمام وما حولها، وعرفت منازل العز حيثئذ بالمدرسة التقوية نسبة إلى تقي الدين عمر، وكانت عامرة أيام المقرئى». انظر: الخطط، ج١. المقرئى، الخطط، ج١، ص ٤٨٤، ج٢، ص ٣٦٤، ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٩٣ وموقع منازل العز الآن منطقة واقعة على شاطئ النيل بمصر القديمة ومحلها الآن مجموعة المباني التى تحدها من الغرب بشارع كورنيش النيل ومن الجنوب والشرق شارع المرحومى ومن الشمال شارع القبوة. أما المدرسة التقوية فقد أقيم موضعها اليوم جامع شهاب الدين أحمد المرحومى الذى يتوسط هذه المنطقة بشارع المرحومى بمصر القديمة انظر: على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص ٧١، ٧٢، محمد رمزي، تعليقه على النجوم، ج٥، ص ٣٨٦، عبد الرحمن زكى، موسوعة مدينة القاهرة، ص ٣٧٠، Casanova, Op. Cit. P. 105.

(٢) انظر: ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم)، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق حسين ربيع، (القاهرة، ١٩٧٢، ١٩٧٧، ج٥، ص ٢٧٨، السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ١٢-١٣، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٦، ص ٣٢٠.

(٣) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٠، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٥.

(٤) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٣، ٢٩٧، السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٣١، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨١.

بناها لتكون قصرا ومقرا للحكم وحصنا له وللماليكه الذين أكثر من شرائهم حتى ضاقت بهم القاهرة وصاروا يشوشرون على الناس وينهبون الأسواق^(١) فكثرت شكوى الناس منهم فاضطر الملك الصالح لبناء القلعة لهم على بحر الروضة فسموا البحرية نسبة لذلك، ومالبثوا غير شهر قليل من نهاية حكم الصالح إلا وقد أزالوا دولة الأيوبيين وكونوا دولتهم المملوكية، كما ذكر المؤرخون سببا آخر لبناء القلعة وهو حب الصالح للعمارة وإنشائه لعمارات عظيمة كان يشرف عليها بنفسه لذا فقد بنى هذه القلعة لتخلد اسمه فى التاريخ^(٢).

وكانت القلعة تقع فى الجزء الجنوبى من جزيرة الروضة^(٣)، وكان موقعها هذا موفقا من الناحية الاستراتيجية لكونها تقع بجزيرة يحيط بها نهر النيل من جميع النواحي مما جعلها فى وضع أفضل من الناحية الدفاعية، وقد شرع فى حفر أساسات القلعة فى ٥ شعبان سنة ٦٣٨ هـ وابتدأ البناء يوم ١٦ من هذا الشهر^(٤)، وفى العاشر من ذى القعدة بدأ الهدم فى الدور والقصور والمساجد التى بموضعها، كما هدمت كنيسة اليعاقبة^(٥) كانت بجوار المقياس

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٢٦٩.

(٢) المقرئى، السلوك، ج١، ص ٣٠١، ٣٤١.

(٣) كانت هذه القلعة تقع بنهاية جزيرة الروضة فيما بين زاوية البسطامى شمالا حتى المقياس جنوبا، ويتضح ذلك من وصف المؤرخين وكتاب وصف مصر، فقد ذكر «السيوطى» عن زاوية البسطامى أنها بنيت فى مكان برج الطراز أول أبراج القلعة من جهتها الشمالية، وعلى ذلك يتضح أن القلعة كانت تشغل من الأرض مساحة حوالى ٦٥ فدانا واقعة فى الجزء الجنوبى من جزيرة الروضة، ومكانها المنطقة التى تحد من الشمال بشوارع الملك المظفر وشارع البسطامى ومن الغرب نهر النيل ومن الجنوب قصر المنسترلى ومقياس النيل ومن الشرق سيالة الروضة. انظر: محمد رمزى، تعليقه على النجوم، ج٦، ص ٣٢٠.

(٤) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٣، السلوك، ج١، ص ٣٠١.

(٥) اليعاقبة نسبة لمن يتبعون المذهب اليعقوبى أحد المذاهب الدينية المسيحية، فقد كانت الامبراطورية البيزنطية قد عقدت عدة مجمعات دينية لمناقشة أمور الدين المسيحى والتى من أهمها طبيعة المسيح عليه السلام، ومن أهم المجمعات مجمع خلقدونيا الرابع سنة ٤٥١ م والذى تمخض عن خلاف كبير بين كنيسة الاسكندرية المصرية والكنيسة البيزنطية حول طبيعة المسيح إذ أن الكنيسة المصرية اعتقدت بأن السيد المسيح جوهر من جوهرين وكنوم من كنومين وطبيعة من طبيعتين ومشينة من مشيتين وقد سمي اتباع هذا المذهب اليعاقبة نسبة إلى يعقوب وهو أما ديسقورس بطرق الاسكندرية صاحب هذا المذهب حيث كان يسمى يعقوب من قبل، أو هو يعقوب أحد تلاميذه، أو يعقوب البرادعى تلميذ ساويرس بطرك انطاكية وكان أهم الزهاد المتسكين بهذا المذهب.

أما الكنيسة البيزنطية فاعتقدت أن المسيح جوهران وطبيعتان ومشيتان وكنوم واحد، وقد سمي اتباع هذا المذهب بالمكائين نسبة إلى ملك بيزنطة الذى اعتقد به وقد اتخذ المصريون من هذا الخلاف العقائدى متنفسا لهم لإعلان سخطهم واستيائهم من الحكم البيزنطى فتأجج الصراع بينهما. انظر: المقرئى، الخطط، ج٢، ص ٤٨٨ - ٤٨٩. وعن هذا الموضوع انظر: حسنين ربيع، دراسات فى الدولة البيزنطية.

أما عن كنيسة اليعاقبة هذه التى كانت بجزيرة الروضة وكان بابها أمام باب مسجد المستنصر بالله الفاطمى بجوار المقياس فهى قديمة وترجع إلى ما قبل الاسلام، وقد ذكر المؤرخون أنها تنسب إلى ابن لقلق بطرك اليعاقبة وكان بها بئر مألحة وقد كان من عجائب مصر أن فى وسط النيل جزيرة يتوسطها بئر مألحة، وقد=

وأدخلت أرضها فى أرض القلعة، كما خرب اليهودج والبستان المختار وذكر المؤرخون أنه كان بموضع القلعة أشجار ونخل وجميز فقطع منها نحو ألف نخلة مثمرة كان رطبها يهدى إلى ملوك مصر لحسن منظرة وطيب طعمه وكذلك قطع أربعمئة جميزة، كما ذكروا أنه هدم ثلاثة وثلاثين مسجدا عمرها خلفاء مصر وسراة المصريين^(١)، وإن كان يبدو على هذا العدد المبالغة إلا أنه يعبر عن مدى عمران الجزيرة آنذاك.

وقد بالغ الصالح فى اتقان بناء القلعة وزخرفتها، وقد بناها بالجص والآجر والنورة وأنفق عليها أموالا طائلة وكان الملك الصالح يشرف بنفسه عليها «فصارت تدهش من كثرة زخرفتها وتحير الناظرين إليها من حسن سقفها المزينة وبديع رخامها»^(٢).

وكانت مساحة القلعة خمسة وستين فدانا وقد استغرق بنائها ثلاث سنوات أى تمت سنة ٦٤١هـ / ١٢٤٣م^(٣) وظلت عامرة أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب وأقام بها هو وأسرته وماليكه الألف وقيل الثمانمئة، وقد اهتم بتحسينها، وأثناء ذلك جدد جامع المستنصر، وقد غرس فيها من جميع الأشجار ونقل إليها الأعمدة من المعابد المصرية القديمة وشحنها بالأسلحة والآت الحرب وكل ما يحتاج إليها من الغلال والمؤن^(٤) فى ذلك الوقت الذى شهد صراعا كبيرا مع الصليبيين، وقد جعل حول القلعة شوانى (مراكب) حربية مشحونة بالسلاح ومعدة لقتال الفرنج واقفة عند الصنائة التى اختطها بالجزيرة وجعل بها عمائر المراكب الحربية والنيلية^(٥).

= كان الرهبان المقيمين بالكنيسة يتولون أمر قياس النيل حتى بنى المتوكل المقياس الحالى فأمر بأن يكون مقياس النيل بأيدي المسلمين وأسند تلك المهمة لابن أبى الرداد ثم توارثها أبناءه من بعده وقد تعرضت الكنيسة للهدم أثر زلزال عنيف أيام البطرك مقل الذى عين بطريكاً على اليعاقبة فى سنة ٤٩٢هـ / ١٠٩٩م، ثم رمت الكنيسة بعد ذلك، وقد جعل البطريك كيرلس الثانى مقر البطريكية فى هذه الكنيسة فترة من الزمن، وكان لهذه الكنيسة بستان وقاعات وجواسق مطلة على النيل، وقد عرفت الكنيسة بأسم كنيسة ميخائيل المختارة أو كنيسة المختار نسبة لبستان المختار، وكانت متزهة كبيراً فى زمن الدولتين الفاطمية والأيوبية، وكان الاهتمام بها كبيراً، وقد ظلت قائمة حتى هدمها الملك الصالح وأدخل أرضها فى داخل القلعة.

موقع هذه الكنيسة الآن المنطقة التى تقع أمام مدخل قصر المنسترلى بجوار المقياس انظر: ابن المقفع، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ج٢، ص ٢١٠، ٢٢٠، ج٣، ص ٥، ٦، ج٤، ص ٧٧. ابن فضل الله العمري، الفيض المديد فى أخبار النيل السعيد، مخطوط، ص ٤٧، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٣، ٤٩٦، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢٧٠.

(١) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٠، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٣، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٢.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٣، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٢.

(٣) المقرئى، نفس المصدر والصفحة، السيوطى، نفس المصدر والصفحة.

(٤) المقرئى، نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن المقفع، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ج٤، ص ١١٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢٧٠.

ولما أتم الملك الصالح عمارة القلعة انشد الشعراء أشعارا تخلد تلك الأعمال منهم الشاعر علم الدين أيدمر الحموى الذى نظم قصيدة طويلة يمدح فيها السلطان ويذكر فيها القلعة ويصف الاحتفالات بالمقياس وهى قصيدة طويلة نقلها «ابن دقماق» (١).

أما الرحالة الأديب الأندلسى «ابن سعيد» فقد ذكر الروضة وخص منها قلعة وأعمال الصالح بها بالوصف والمدح فقال «هى أمام الفسطاط فيما بينها وبين مناظر الجزيرة، وبها مقياس النيل وكانت متنزها لأهل مصر فاختارها الصالح بن الكامل سرير السلطنة وبني فيها قلعة مسورة بسور ساطع اللون محكم البناء على السمك لم ترعنى أحسن منه» (٢).

وقال أيضا «وكننت أشق فى بعض الليالى بالفسطاط على ساحلها فيزدهنى ضحك البدر فى وجه النيل أمام سور هذه الجزيرة الدرى اللون، ولم انفصل عن مصر حتى كمل سور هذه القلعة وفى داخله من الدور السلطانية ما ارتفعت إليه همة بانيها وهو من أعظم السلاطين همة فى البناء، وأبصرت فى هذه الجزيرة إيوانا لجلوسه لم ترعنى مثاله ولا أقدر ما أنفق عليه وفيه من صفائح الذهب والرخام والأبنوس والكافورى والمجزع ما يذهل الأفكار ويستوقف الأبصار، ويفصل عما أحاط به السور أرض طويلة وفى بعضها حاطر حطر به على أصناف الوحوش التى يتفرج عليها السلطان وبعدها مروج ينقطع فيها مياه النيل فينظر بها أحسن منظر» (٣).

وفى هذه السطور رسم لنا ابن سعيد صورة جميلة لجزيرة الروضة والقلعة الصالحية فعلى الرغم من اتجاه الصالح لجعلها حصنا منيعا إلا أنه أضاف إليها السمات الجمالية وجعلها متنزها حسنا عظيما وألحق بها حديقة للحيوان ومروجا خضراء تسر الناظرين.

هذا وقد كان لبناء القلعة فى القسم الجنوبى من الروضة أثر كبير فى اتساع عمران الروضة فى جزئها الشمالى إذ تحول ساكنوا الجزء الجنوبى إليه، وكذلك عمر الشاطئ الشرقى للنيل فى الجزء المواجه للقلعة عمارة كبيرة آنذاك حيث بنى الأمراء منازلهم ليكونوا على مقربة من قلعة السلطان فعظمت عمارة الفسطاط على النيل (مصر القديمة) وانتقل إليها كثير من الأمراء وضخمت أسواقها واستجدت أسواق أخرى لمجاورتها للجزيرة وقلعتها الصالحية ولخدمة الأجناد بها (٤).

وقد بقيت من القلعة الصالحية بقايا القاعات والعمائر التى قام بها الملك الصالح نجم الدين

(١) الانتصار، ج٤، ص ١١٠-١١٤.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٣.

(٣) نفسه، ص ١٨٣، ١٨٤.

(٤) ابن سعيد، المغرب فى حلى المغرب، ص ٢٧.

أيوب سجلتها الحملة الفرنسية منها قاعة رئيسية أبعادها ١٤٦٠ × ١٢٧٠ متر يتوسطها قبة كانت مقامة على أربعة أكتاف وحول القاعة أبنية مختلفة الأحجام أغلبها كان متخربا^(١).

وكذلك رأى الرحالة بوكوك الذى زار مصر فى القرن الثامن عشر بقايا جدران من الطوب الأحمر ارتفاعها عشرة أقدام عبارة عن أبراج غير كاملة الاستدارة من بقايا القلعة^(٢).

وقد قامت لجنة حفظ الآثار العربية بعمل حفائر بجوار المقياس سنة ١٩٣٥ م اكتشف «كامل غالب» فيها بقايا جدران وأرضيات حجرية كبيرة الحجم كانت تخص القلعة^(٣).

تاريخ الجزيرة وتطورها العمرانى فى العصر المملوكى،

حظيت جزيرة الروضة فى عصر سلاطين المماليك بعناية فائقة، وظلت مدة حكمهم موضع نزهمهم هم ورعاياهم، ومكان احتفالاتهم وأعيادهم، وبجانب المنشآت المعمارية بالجزيرة فقد ضمت أيضا الحقول المزروعة والبساتين ذات الأشجار المثمرة والأزهار^(٤) ما يبهج النفس ويسر العين ويجعل أفئدة الناس تهوى إليها فكان ينطبق عليها المثل: «ثلاثة يذهبن الحزن، الخضرة والماء والوجه الحسن»، وقد اجتمعت هذه المزايا وغيرها فى جزيرة الروضة.

ومن الجدير بالذكر أن صناعة السفن ازدهرت بدار الصناعة بالجزيرة فى العصر المملوكى ازدهارا كبيرا وشهدت الروضة منتزهات بحرية كبيرة.

أما عن العمارة بها فى العصر المملوكى فكان لها شأن كبير حتى أن ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦ م يذكر أنه كان يوجد بها نحو العشرين مسجدا^(٥).

Discription de L'Egypte, Vol XV, P. 465, Omar Toussoun, Memoire Sur (١)
L'histoire du Nil, L'Institut D'Egypte le Caire, Tome 2, P. 340, Creswell,
The Muslim Architecture of Egypt, Vol. 2. P. 86. على مبارك، الخطط التوفيقية،

ج ١٨، ص ٢٥.

Pococke, A Discription of the East and Other Countries, 2 Vol, London, (٢)
1754, P. 29.

(٣) محاضر لجنة الآثار العربية، ملحق تقرير ٧٠٤ فى نوفمبر ١٩٣٥.

(٤) ذكر السيوطى أنه كان يزرع بها من الزهور البنفسج والورد والرنجس والمنتور والسوسن وشقائق النعمان والبهار والياسمين والنبيلوفر والمزرحوش والريحان والرنج، ومن الفواكه الليمون والكمثرى والعنب والتين واللوز والسفرجل والرمان والنبق والقناء والخيار والبلح والرطب، ومن الخضروات القرنبيط والسبانخ والقرع والباذنجان والجزر، وكان يزرع بها أيضا أشجار الزيتون والعنب والخروب والبرقوق والتوت وقصب السكر والبطيخ والخشاش. انظر: كوكب الروضة، ورقة ١٣٤.

(٥) الانتصار، ج ٤، ص ١١٦.

وعن أحوال الجزيرة فى أول العصر المملوكى نجد أن السلطان المعز عز الدين أيلك (٦٤٨ - ٦٥٥ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧ م) قد أمر فى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م بإخلاء قلعة الروضة وتحول من كان فيها من الممالك والحراس، وهدم منها جانباً وأخذ أعمدة رخامية منها وشبابيك حديد وأخشاب وغير ذلك وعمر به مدرسته التى برحبة الحناء فى فسطاط مصر^(١)، وطمع فى القلعة كل من له جاه فأخذ جماعة منها عدة سقوف وشبابيك كثيرة وغير ذلك وبيع من أخشابها ورخامها أشياء جليلة^(٢).

إلا أن الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) أمر بعمارة القلعة الصالحة واصلاحها فتم اصلاح بعضها على يد الأمير جمال الدين موسى بن يغمور الذى وزع أبراجها على كبار الأمراء، وقد أمر الملك الظاهر بأن تكون بيوت جميع الأمراء واصطبلاتهم فيها وسلم المفتاح لهم^(٣).

وقد اضطر الظاهر بيبرس لقطع صف يتكون من أربعين شجرة جميز كانت بالروضة على شاطئ النيل ليعمر بها شوانى بدلا من الشوانى التى كانت قد سيرها إلى قبرص وتكرست هناك^(٤).

وقد كان الظاهر كثير التنزه بالروضة وعمل الاستعراضات البحرية بها، كان نتيجة اصلاحاته بقلعة الروضة أن زاد الاهتمام بالجزيرة والسكنى بها والتنزه فى ربوعها فعددت فرجا ومتنزهات وقصورا ودورا ويساتين وجوامع وحمامات^(٥) وقد ازداد العمران فى شمال الجزيرة فى ذلك الوقت فبنيت المساجد والدور وغيرها وبصفة خاصة حول جامع غين^(٦) الذى رُم واعيدت إليه الخطبة سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦٠ م^(٧).

ولكن ذلك التعمير للقلعة لم يستمر إذ أنه لما تولى السلطنة الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ / ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) امتدت يده إلى القلعة وأخذ من عمدتها ورخامها واعتابها شيئا كثيرا استخدمه فى بناء بيمارستانه وقبته ومدرسته بالقاهرة التى أنشأها سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨١ م^(٨).

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٤، السلوك، ج١، ص ٣٨١، السيوطى، كوكب الروضة ورقة ٣٤. ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢٧٢.

(٢) أثناء تجوالى بأثار منطقة مصر القديمة وجدت بجامع المرحومى الواقع بشارع المرحومى المواجه للمقباس عمودين رخامين مجزعين غاية فى الروعة ينطبق وصفهما مع ما ذكره المؤرخون عن الأعمدة التى كانت بالقلعة بالروضة ونهيت منها.

(٣) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٤، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ص ٩٢، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢٧٢.

(٤) السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٢٩، ٣٠، ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٠.

(٥) ابن دقماق، نفس المصدر والصفحة. (٦) محمد عبد العزيز، جزيرة الروضة، ص ١٨.

(٧) انظر ما سبق، ص ٧٩.

(٨) ابن دقماق، نفسه، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٤، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٢٧٢.

وفى سلطنة حسام الدين لاجين (٦٩٦ - ٦٩٨ هـ / ١٢٩٦ - ١٢٩٨ م) أخذ محمد بن أصيل من محمد الهمداني وهو من ذرية المتوصف أبي اليزيد البسطامي (المتوفى سنة ٢٦١ هـ / ٦٧٥ م) توقيعا من السلطان لاجين بإقامة زاوية له فى سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م، وقد جدد هذا التوقيع من السلطان المظفر بيبرس الجاشنكير فى سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م^(١) وينص التوقيع على وقف الزاوية وقطعة أرض بجوارها مزروعة بقول وخضر وغيرها من الأشجار لينتفع بها الفقراء^(٢) وقد بنيت هذه الزاوية على برج الطراز وهو أول برج من أبراج القلعة من السور الشمالى لها^(٣).

وفى أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون (٧٠٩ - ٧٤١ هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤٠ م) فعل ما فعله من قبل أبوه السلطان المنصور قلاوون، فأخذ من انقاض القلعة ما بنى به الإيوان المعروف بدار العدل بقلعة الجبل، والجامع الناصرى الجديد بظاهر مدينة مصر على النيل، وأخذ منها ما بقى من أعمدة ورخام وغير ذلك^(٤)، ومن يومئذ دثرت معالم قلعة الروضة وخربت وصارت كأنها لم تكن ولم يبق منها سوى عقد تسمية العامة القوس وكانت تنتزه به وكان فيما يلى جانبها الغربى أدركه المقرئ سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م^(٥) وفيه يقول الشاعر النواجى:

مصر قالت دمشق لا تفتخر قط باسمها
لورأت قوس روضتى منه راحت بسهمها^(٦)

وهذا يدل على عظمة ما كانت عليه القلعة وعلى أهمية الجزيرة كمتنزه عام، وبقي كذلك من آثار القلعة بقايا أبراج كثيرة بنى عليه الناس الدور الجلييلة المطلة على النيل^(٧) وهى باقية إلى أيام «ابن إياس» المتوفى عام ٩٣٠ هـ / ١٥٢٣ م^(٨).

(١) السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٢٥ ب.

(٢) انظر التوقيع فى السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٢٥ ب، على مبارك الخطط التوفيقية، ج١٨، ص ١٣ - ١٤.

(٣) فى سنة ٧٧٠ هـ: ١٣٦٩ م حولت زاوية البسطامى إلى جامع عرف بجامع الرئيس نسبة إلى رئيس الخلافة فتح الدين صدقة بن ناصر الدين بن زين الدين بن زيلع فى سلطنة الأشرف شعبان (٧٦٤ - ٧٧٨ هـ / ١٣٦٣ - ١٣٧٧ م) وقد ذكر السيوطى أنه رابع جامع اقيم بالروضة انظر: ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٦، السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٢٥.

ثم هدم هذا الجامع مع الزمن وعاد زاوية تعرف باسم صاحبها الأول البسطامى، وهى لا تزال موجودة حتى الآن وبها ضريح البسطامى بشارع صغير يسمى شارع البسطامى متفرع من شارع الملك الصالح على بعد حوالى ١٢٠ متر جنوب كوبرى الملك الصالح، وهى عبارة عن مسجد صغير بنى حديثا مساحته ٦×١٢ متر وبالركن الغربى منه مقام البسطامى.

(٤) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٨٤.

(٥) نفسه.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢٧٢.

(٧) الخطط، ج٢، ص ١٨٤.

(٨) بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢٧٢.

وباندثار القلعة الصالحية عادت الجزيرة مكانا للتزهر والتفرج ، وبها البساتين الكثيرة الحسنة والجوامع التى تقام فيها الجمع والأعياد والمساجد والأربطة^(١) .

ومن الجوامع العظيمة التى بنيت فى سلطنة الناصر محمد هو الجامع الذى بناه القاضى المعروف بالفخر الذى كان يشغل منصب ناظر الجيش فى سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م وعرف حينئذ بجامع الفخر^(٢) ثم جدده الصاحب شمس الدين الشهير بالمقس ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م^(٣) .

وفى سنة ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م لم تسلم جزيرة الروضة مثل غيرها من الأوقاف والرزق الاحباسية التى أوقفت على أولاد الملوك والأمراء السابقين من المصادرة والحل الذى ساد فى العصر المملوكى ، فقد قام النشو ناظر الخاص^(٤) الذى كثرت مظالمه فى دولة الناصر محمد بضم أراضى جزيرة الروضة إلى جملة أراضى الناصر محمد بعد أن كانت بيد أولاد الملوك ، كما فرض الغرامات على أصحاب الدور بها وقطع جوامك ومرتبات القضاة وشيوخ العلم وغيرهم مما يخص الجزيرة^(٥) .

وقد عرفت جزيرة الروضة المتنزهات والمفترجات الخاصة ذلك انه فى شعبان سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م عمل الأمير حركس الخليلى طاحونا فى مركب تدور بالماء مثل الرحى وأوقفها عند رأس روضة المقياس من جهة بر الجزيرة بحال ثابتة فى البر والبحر وأكرها لبعض الطحانين ، وقد صارت متنزهات خاصا يأتى الناس إليها أفواجا من كل جهة يتفرجون عليها ، وقد قال فيها أدباء الزمان اشعارا كثيرة منها قول الشهاب بن العطار :

(١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٨٥ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج٢ ص ٣٨٦ ، كوكب الروضة ، ورقة ٣٣ . ابن بطوطة ، الرحة ، (نشر دار الكتاب اللبنانى) ، ص ٣٢ .

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ١١٦ ، المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣١١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٢٠٢ .

وقد بنى الفخر ثلاثة جوامع ، واحد ببولاق والثانى فى جزيرة الفيل والثالث هذا الذى فى الروضة وهو حسبما ذكر المؤرخون ثالث جامع أقيم بالروضة .

(٣) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج١٨ ، ص ١٣ .

(٤) لعب النشو دورا كبيرا فى دولة الملك الناصر محمد بن قلاوون . وعنه بالتفصيل انظر : المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٤٧٣ - ٤٨٦ .

أما عن وظيفة ناظر الخاص التى كان يشغلها النشو فهى من الوظائف المدنية الهامة وقد أحدثها الناصر محمد بن قلاوون ، وكان أصل موضوعها التحدث فيما هو خاص ببال السلطان من أقطاعه أو نصيبه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس من الأموال العامة ، وفى زمن تعطل الوزارة كان لناظر الخاص تدبير جملة الأمور . عن هذه الوظيفة بالتفصيل انظر : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ٣ أجزاء ، (نشر مكتبة دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٦) ، ج٣ ص ١٢٠٧ - ١٢١٠ .

(٥) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ٦٠ ، المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٣٢ .

سر لطاحون الخليلي التي
قد شنت من وصفها مسمى
تدور بالماء بمصر حقيق
لأنه من كل وجه دقيق^(١)

وفى سلطنة المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢١ م) أمر المؤيد في ١١ رجب ٨٢٣ هـ / ١٤٢٠ بتوسيع الجامع المجاور للمقياس بدور كانت بجانبه ولكنه مات قبل الفراغ منه فأكماله من بعده السلطان الظاهر جقمق^(٢).

ومن الأعمال العظيمة للسلطان قايتباي (٨٧٢ - ٩٠١ هـ / ١٤٦٧ - ١٤٩٥ م) الأمر بتجديد جامع الفخر في ربيع الآخر سنة ٨٨٦ هـ / ١٤٨١ م الذي جده من قبل المقياس، وكان الشاد علي عمارته البدرى حسن بن الطولوني، وقد ذكر «ابن إياس» أن قايتباي ظل يتردد إلى الروضة ويكشف عن بناء الجامع حتى انتهى منه في سنة ٨٨٨ هـ / ١٤٨٣ م وقد جاء في غاية الحسن والتزخرف وعرف باسم السلطان قايتباي^(٣)، ولكن «السيوطي» ذكر أنه أمر بأن يزداد في هذا الجامع زيادة أخرى في سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٦ م وأنشأ حول هذا الجامع الغراس والعمائر الحسنة فعمرت تلك البقعة وأحييت الروضة بعد أن كادت أن تدرس محاسنها^(٤)، ولعل هذه الزيادة هي القاعة التي صيرت مسجدا وتقع في ظهر الجامع أي في الجانب الشمالي الغربي، وقد ذكرها «السخاوي» ضمن ترجمته لقايتباي فقال «... وبالروضة جامعة هائلة كان من قديم مع صخره ساقطا مائلا فهدمه وعمل بجانبه ربعا وأنشأ خلفه قاعة صيرها مسجدا جليلا تزينا ووضعها، وبني هناك عدة دكاكين وطاحون وغيرها محكم التمكين...»^(٥) وقد تمت أعمال الزيادات والعمارات الأخرى بجوار الجامع في رجب ٨٩٦ هـ / ١٤٩١ م^(٦).

ومن الطرائف التي ارتبطت بتلك الأعمال أن البدرى حسن بن الطولوني معلم المعلمين المشرف على العمارة قد وضع ناعورة (ساقية) في وضع غريب بحيث تدور بحمار ينقل قدمه وهو واقف من غير أن يمشی أو يدور ويركب عليها طاحونه تدور بدورانها وكانت الناس تتوجه للفرجة عليها، كما كان البدرى حسن ابن الطولوني يصنع في كل ليلة رابع عشر من كل شهر عربي ليلة حافلة بالجامع ويسمون بها البدرية، وينصب على شاطئ البحر قدام الجامع من الخيام ما لا يحصى وتتجمع المراكب هناك حتى تسد النيل ويجتمع الجمل الغفير من العالم، ويوقد بالجامع وقلة حافلة ويحضرها قراء البلد قاطبة والوعاظ، وتكون ليلة حافلة لم يسمع^(١) ابن قاضي شعبة، تاريخ ابن قاضي شعبة، ص ٨٥، المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ٤٧٢، السيوطي، كوكب الروضة، ورقة ٧٨، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٧.

^(٢) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٣٩٧، السلوك، ج ٤، ص ٥٣٤، ٥٣٧، العيني، عقد الجمان، (نشر الزهراء)، ص ١٠٨، ابن حجر العسقلاني، انباء الغمر، ج ٣، ص ٢٢١، ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٤٩١.

^(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨٣.

^(٤) السيوطي، كوكب الروضة، ورقة ٢٥.

^(٥) الضوء اللامع، ج ٦، ص ٢٠٨.

^(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨٣.

بمثليها فيما تقدم واستمر الحال على ذلك مدة ثم بطل» (١).

وما زال جامع قايتباى عامرا للآن بذكر الله تعالى ، وهو مسجل أثر رقم ٥١٩ بشارع جامع قايتباى بالروضة ، وهو مصمم على نسق النظام المدرسى الذى يتكون من دور قاعة وسطى وإيوانين وسدلتين وكان ملحق به إضافات معمارية مثل القاعة التى اندثرت وغيرها (٢). وقد كان للجامع أوقاف كثيرة وملاحق اغتصبت فى النصف الأخير من هذا القرن ، وقد عرف الحى حول جامع قايتباى فى العصرين المملوكى والعثمانى باسم كفر قايتباى أو عزبة قايتباى وقد عرف جامع قايتباى فى وقت ما باسم جامع السيوطى لأن الأمام جلال الدين السيوطى أقام به أو سكن قريبا منه (٣).

وقد أراد السلطان قايتباى أن يبنى قصرا فى خرطوم الروضة (أى أقصى الطرف الشمالى لها) يكون له أربع واجهات خالية ولكن لم يتم له ذلك (٤).

أما السلطان الأشرف قانصوه الغورى (٩٠٦ - ٩٢٢ هـ / ١٥٠٠ - ١٥١٦ م) فقد كان أكثر السلاطين تنزها بالجزيرة على الاطلاق ، وحظى المقياس منه برعاية فائقة ، وأقام من الاحتفالات ما يفوق الوصف ، وفى سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م أمر ببناء عدة منشآت معمارية بالروضة وجدد جامع المقياس ، كما أنشأ قصرا على بسطة المقياس ومقعدا مطلا على النيل واهتم بإنشاء الحدائق والمتنزهات (٥) ، وقد بنى الغورى هذا القصر ليكون بمثابة استراحة جمهورية أو ملكية بتعبير اليوم ، فقد ورد بكتاب وقف الغورى أنه قد «بناه متنزها لنفسه ولمن يلى ملك مصر من بعده من ملوك الإسلام» (٦). وقد أوقف الغورى على المقياس والجامع والقصر وعلى أرباب الوظائف بهم أوقافا عديدة منها أراضى بجزيرة الروضة نفسها كانت تعرف بالميدان والبرك بالقرب من زاوية البسطامى (جامع الرئيس) مساحتها عشرين فدانا ، وكذلك حصته من أراضى جزيرتى الصابونى والذهب ، وأرض جزيرة بكاملها هى جزيرة النشوة التى كانت مستجده حيثئذ بين جزيرتى الصابونى ودير الطين (دار السلام حاليا) ، وكذلك أوقف عدة عقارات بمصر القديمة وساحلها وغير ذلك (٧).

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٨٣ ، السيوطى ، كوكب الروضة ، ورقة ٢٥.

(٢) عن جامع قايتباى بالتفصيل ، انظر : حسنى نوبصر ، عمائر قايتباى الدينية بمدينة القاهرة ، دكتوراة «مخطوطة» ، (كلية الآداب جامعة القاهرة ، ١٩٧٥).

(٣) حسن عبد الوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، ص ٢٧٤.

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٢٤.

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٥٤ ، ٢٧٦.

(٦) كتاب وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف ، ص ٥٠٢ ، ٥١٠.

(٧) كتاب وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف ، ص ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ولزيد من التفاصيل ، انظر : عبد اللطيف إبراهيم ، دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر الغورى ، دكتوراه ، «مخطوطة» (كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٥٦ م).

هذا وقد أراد السلطان الغورى كما أراد السلطان قايتباى من قبل بناء قصر ذات أربع واجهات خالية فى ستى ٩١٨هـ / ٩١٩هـ بخرطوم الروضة ولكن ذلك لم يتم (١).

وكان يوجد بالروضة قرية كانت تعرف فى العصر المملوكى باسم منيل الممالك كانت مساحتها ٢٧٠ فداناً وكان يملكها الديوان السلطانى وهى التى عرفت فى العصر العثمانى باسم منيل الروضة وكانت تقع شمال جزيرة الروضة (٢).

تاريخ الجزيرة وتطورها العمرانى فى العصر العثمانى:

ظلت جزيرة الروضة فى العصر العثمانى (٩٢٣ - ١٢١٦هـ / ١٥١٧ - ١٧٩٨م) تحظى بنفس العناية والرعاية التى كانت عليها أيام الدولة المملوكية ، وكانت مقاما لطبقة متميزة من المجتمع مثل الأمراء الذين اقاموا بها القصور الفخمة والحدايق الجميلة (٣) ، فضلا عن اتخاذها متنزها عظيما ومحفلا رائعا .

ومنذ الفتح العثمانى لمصر نجد ذلك الاهتمام متمثلا فى كون السلطان المظفر سليم الأول فاتح مصر قد فضل اقامته بالروضة كما أنه أقام كوشكا فوق قصر الغورى (٤) فى شهر ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ ، وقد فرغ من بنائه فى مدة يسيرة وقد قال «ابن إياس» فى هذه المناسبة :

لو علم الغورى أن قصره يسكن للمظفر المؤيد
اضرم فيه النار من يومه ولم يدع من جدره جلمد (٥)

وقد زار مصر فى أول العصر العثمانى الرحالة المغربى ابن الوزان المعروف بليو الأفريقى وأشاد بجزيرة الروضة وذكر أنها عامرة جدا بالسكان وقدر عدد سكانها بألف وخمسمائة ، كما أشاد بقصر الغورى والمقياس (٦) .

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٨٣ ، ٣٣٩ . (٢) ابن الجيعان ، التحفة السنية ، ص ١٤٦ .
(٣) اندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى ، ص ٢٠٢ .
(٤) ذكر المؤرخ «يوسف الملوانى» أن هذا الكوشك (القصر) الذى أقامه السلطان سليم «مخروط الشكل» وهو بذلك يعد من التأثيرات العثمانية التى دخلت على أشكال العمائر بمصر ، كما ذكر أن انه لما عاد السلطان من بلاد الروم (تركيا) وجد مكتوبا بخطه على حائط القصر داخله هذان البيتان ، وهما :

الحمد لله من يظفر بنيل منى يردده قهرا ويلزم نفسه الدركا
لو كان لى أو لغيرى قدر اغلة من الأمور لكان الأمر مشتركا

انظر : تحفة الأحباب بمن ملك مصر من الملوك والنواب ، (مخطوط برقم ٢٨ تاريخ فى مكتبة رفاعة الطهطاوى بسوهاج) ، ص ١٢٢ .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ١٩٣ .

(٦) ابن الوزان (الحسن بن محمد الوزان المعروف بليو الأفريقى ، ت بعد سنة ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، ط ٢ ، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة ، سنة ١٩٨٣ ، ص ٢١٣ .

وفى جمادى الأول ١٠٣١هـ / ١٦٢١م قام السلطان العثماني عثمان الثاني بن أحمد الأول (١٠٢٦ - ١٠٣١هـ / ١٦١٦ - ١٦٢١م) بتجديد ما انهدم من الكوشك الذي أقامه السلطان سليم كما قام بزخرفته (١).

واستمر العمران قائما بالجزيرة طوال العصر العثماني، ونرى فى حجة وقف الأمير عابدى بك المؤرخة فى يوم ١٠ جمادى الأول سنة ١٠٤١هـ / ١٦٣١م قيامه ببناء قاعات ومرافق خاصة بها وساقية وحوض دواب وطاحون وجنيئة بالإضافة لبناء جامع وذلك فى جنوب الروضة تجاه مصر القديمة كما أوقف أوقافا وأمولا على زاوية البسطامى بالجزيرة أيضا (٢).

وقد أثنى على جزيرة الروضة الرحالة «النابلسى» الذى زار مصر سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م فقال: «... مررنا على الروضة وهى جزيرة ذات الحسن المشهورة والمشملة على الخضرة وألوان الزهور» (٣). وعن قصور الروضة وبساتينها ومتنزهاتها قال أيضا: «... ثم سرنا إلى أن وصلنا إلى الروضة بمصر فدخلنا إلى مكان يشرح صدر المشتاق ويلذ لعيون العشاق وهو فى غاية الحسن والإشراق وفيه بركة من الماء فى وسطها مكان لطيف ومقعد ظريف فجلسنا هناك حصاة من الزمان نحن والاخوان وهناك قصر تقصر عن وصف محاسنه ألسنة الرقوم ويقعد فى فضاء المشرف سمير الصباية ويقوم» (٤).

وحفلت الجزيرة فى القرن ١٢هـ / ١٨م بالعديد من القصور الفخمة والبساتين الكبيرة التى أقامها كبار الأمراء بمصر، ومن هؤلاء الأمير أحمد كتخدا المعروف بالمجنون (٥) (ت ١٢٠١هـ / ١٧٨٦م) الذى أنشأ بستانا غاية فى الحسن وبني بجانبه قصرا يذهب إليه فى بعض الأحيان، ولما حضر حسن باشا (ربما حسن باشا طاهر الذى قتل سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م) إلى مصر ورأى هذا البستان أعجبه فأخذ لنفسه وأضافه إلى أوقافه (٦).

(١) الاسحاقى (محمد عبد المعطى)، لطائف أخبار الأول فىمن تصرف فى مصر من أبواب الدول، (ط المطبعة الأزهرية، سنة ١٣٠٠هـ)، ص ١٤٩.

(٢) الوثيقة رقم ٩٩٢ أوقاف.

(٣) النابلسى (عبد الغنى بن إسماعيل، ت ١١٤٣هـ / ١٦٣٣م)، الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز، (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٨٦)، ص ٢٣٦.

(٤) نفس المصدر، ص ٢٥٦.

(٥) الأمير أحمد كتخدا المعروف بالمجنون، كان من ممالك سليمان جاويش القاردوغلى ثم انضم إلى عبد الرحمن كتخدا فانتسب إليه، وتعرض للنفى بالحجاز مدة ١٢ سنة ثم استدعاه محمد بك أبو الذهب فى أمارته، وقربه إليه ورد إليه التزامه، وكان قد أنشأ بترسا التى تجرى فى التزامه قصرا وبستانا كبيرا زرع فيه أصناف الأشجار والنخيل والرياحين، وبني أيضا داره بدرب سعادة، ودارا على الخليج المرحم، وقد توفى فى خامس من شعبان سنة ١٢٠١هـ / ١٧٨٧م. انظر: الجبرتى، عجائب الآثار، ج٢، ص ٣٩-٤٠.

(٦) نفسه.

وكان للأمر مراد بك^(١) قصر كبير بالروضة، كان يتردد عليه، أحيانا كثيرة^(٢) وهذا القصر موقع على خريطة الحملة الفرنسية باسم قصر الروضة، وموضعه الآن المنطقة المواجهة لكوبرى الملك الصالح تماماً.

وبدراسة خريطة الحملة الفرنسية نجد بعض التجمعات البنائية القليلة الصغيرة المساحة تتمثل فى بعض الكفور يسكن بها فلاحو الجزيرة تتمثل فى كفر عبد العزيز فى شمال غرب الجزيرة، وكذلك كفر قايتباى حول جامع قايتباى، وكذلك تجمع بنائى مجاور للمقياس بالإضافة لبعض القصور والجوامع المتفرقة بها، وقد حول الفرنسيون أحد المساجد إلى طاحونة هواء وكان برأس الجزيرة^(٣) (لوحة ٦).

وكانت الجزيرة كلها مزروعة وتمثل البساتين ذات الأشجار المثمرة نسبة ٢٠٪ منها والباقي مزروعة بالحبوب بالبقول والخضر من كل الأنواع.

وكانت الجزيرة موضع عناية من الحملة الفرنسية حتى أن المهندس كفرلى صمم مشروعاً لتحويلها إلى مدينة فرنسية لما تتمتع به من موقع دفاعى فريد ويسهل الدفاع عنها وتقويتها ويمكن توصيلها بجزيرة بولاق، بالإضافة لمتنزهاتها وحدائقها وجوها البديع^(٤) وقد قام الفرنسيون أثناء وجودهم بمصر بإصلاح المقياس^(٥).

وقد وصف «جومار» أحد علماء الحملة الفرنسية الجزيرة بما تضمنه من حقول وبساتين رائعة وخصوصاً حول المقياس واستخدامها للتنزه فذكر كثرة أشجار البرتقال والليمون المورقة والمزهرة دائماً مما جعل المكان نزهاً ومعطر الهواء بأذكى العطور فى الوقت الذى يغرد فيه الآلاف من العصافير، وقد قارن جومار بين هذه البساتين وبين البساتين الأوربية، كما أشاد بطريق الجميز الذى كان يؤدى إلى المقياس على النيل ووصف أشجار الجميز بأنها أجمل الأشجار الموجودة بمصر وأن الحيز الذى يغطيه ظلها السميك يبلغ عرضه مائة قدم، ويبلغ قطر

(١) انظر ترجمة فيما سبق، ص ٦٧.

(٢) الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص ٤٤٥، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين، (القاهرة، ١٩٦٩م)، ص ٣١٥.

(٣) جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ص ٣٣٧.

(٤) جومار، وصف مدينة القاهرة، ص ٣٣٧.

(٥) ذكر «الجبرتي» عمارة الفرنسيين للمقياس فقال: «انهم غيروا معالم المقياس وبدلوا أوضاعه وهدموا قوته العالية والقصر البديع الشاهق والقاعة التى بها عمود المقياس وبنوها على شكل آخر لا بأس به ولكنه لم يتم وهى على ذلك باقية إلى الآن، ورفعوا قاعدة العمود العليا ذراعاً وجعلوا تلك الزيادة من قطعة رخام مربعة ورسموا عليها من جهاتها الأربع قراريط الذراع». عجائب الآثار، ج٢، ص ٤٣٥. وعن عمارة الفرنسيين المقياس بالتفصيل أنظر، Marcel JJ, "Mémoire Sur Le Mekyas de L'île de Rou-dah" Description de L'Egypte Etat Moderne XV, Paris, 1826.

جذع أكبرها ما بين ثمانية وعشرة أقدام وعلوها مائة وعشرين قدما، وكان طول طريق الجميز ١٢٠٠ مترا^(١).

إلا إن الفرنسيين قد قطعوا الكثير من الأشجار والنخيل من جزيرة الروضة، مثلما فعلوا بالبساتين والجنانين بمصر وبولاق وغيرها عقب الثورة ضدّهم لاحتياجهم لأخشابها لعمل القلاع وتحصين الأسوار وعمل العجلات والعربات والمتاريس والوقود وكذلك المراكب والسفن^(٢).

الجزيرة في عصر أسرة محمد علي :

شهدت جزيرة الروضة في زمن أسرة محمد علي نشاطا كبيرا فقد حفلت بقصور وبساتين عديد من الباشوات والبكوات، ومن أهمها بستان إبراهيم باشا بن محمد علي، بالجزء الشمالي من الجزيرة، وقد أنشأه على طراز أوروبي وجمع فيه النادر من الأشجار والزهور التي أدخلت إلى مصر من أوروبا وأمريكا والهند^(٣).

وقال عنه على مبارك « والناس يترددون على اختلاف طبقاتهم إلى البستان المذكور في أيام شمس النسيم وهو من أعظم البساتين لأحتوائه على الأشجار المتنوعة الغربية المجلوبة إليه من البلاد البعيدة وأحتوائه أيضا على أصناف الحيوانات والطيور وبه خلجان من البناء تجري فيها الماء، ومغارة معمولة من الودع وجبلية مصنوعة مغروسة بالأشجار والأزهار ويحيط بالبستان المذكور رصيف من الثلاث جهات^(٤) ». ويمثل موقع البستان الآن القصر العيني الجديد.

أما في جنوب الجزيرة فقد أقام حسن باشا المناسترلي^(٥) قصرا كبيرا وكوشكا في سنة ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م، وهذا الكوشك (السراي) قد حل محل جامع المقياس الذي ترجع أصوله إلى زمن الخليفة المستنصر الفاطمي، وقد كان قد تعرض للتدمير من جراء انفجار مصنع البارود الذي كان بالقرب من المقياس والذي صمم بمعرفة المهندس الفرنسي باسكال كوست في عام ١٢٣٥هـ / ١٨٢٠م^(٦).

(١) وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ص ٣٣٦، ومن الجدير بالذكر أنه يوجد حتى الآن بعض أشجار الجميز بجوار قصر المناسترلي وبشارع عمرو بن العاص على كورنيش الروضة.

(٢) الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص ٤٣٧-٤٣٨.

(٣) كلوت بك، لمحة عامة إلى مصر، ترجمة محمد مسعود، ط٢، ج١، (نشر دار الموقف العربي، القاهرة، ١٩٨١م)، ص ١٥٠.

(٤) الخطط التوفيقية، ج١٨، ص ١١.

(٥) كان حسن باشا المناسترلي يشغل منصب محافظ القاهرة، وقد توفي سنة ١٢٧٦هـ / ١٨٥٩م.

(٦) Creswell, The Muslem Architecture of Egypt, I, P. 219.

وهذا الكوشك مبنى على الطراز الأوربي المسمى الباروك والروكوكو ، وهذا الطراز انتشر بمصر من عصر محمد على ، والكوشك عبارة عن صالة كبيرة تحفها الحجرات ، وهذا الطراز من المباني كان يبنى من الخشب وتكسى حوائطه بالحلفا والجبس وتنقش عليه الزخارف ويكون من دور واحد .

أما القصر الكبير الذى كان أمام الكوشك فقد اندثر الآن ومحلّه الآن محطة المياه الموجودة شمال الكوشك ، وقد تخلف من هذا القصر سلسبيل معروض حاليا بالحديقة المتحفية بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة .

وكانت جزيرة الروضة أيام « على باشا مبارك » يشغلها من الجنوب المقياس وسراى المناسترلى وشمالها بقليل تقع سراى ويستان سليم باشا الجزائرى مطلة على سيالة الروضة وشمالا منه بستان السادات الوفائية ثم أرض الست البارودية وبها زاوية أبى يزيد البسطامى ثم أرض حسن باشا يجن وبستان شاكر بك ثم بستان وقصر على باشا شريف ثم بستان وقصر على باشا ذو الفقار ثم بستان وسراى للخديوى إسماعيل ، ويفصل هذا القصر عن قصر والده عباس باشا الأول الطريق الموصل لجامع قايتباى ، وفى شمال الجزيرة بستان إبراهيم باشا ابن محمد على .

أما الجانب الغربى من الجزيرة فيذكر على مبارك أنه كان يوجد من الجنوب سراى أمين باشا ثم أرض حسين باشا يجن ثم أرض على باشا شريف ثم أرض تعلق الخديوى إسماعيل ثم أرض أحمد باشا المنكلى ومنزل ويستان ورثة خليل بك ، ثم القرية المعروفة بالمنيل ثم ثانية أرض ورثة أحمد باشا المنكلى ثم قصر ويستان قاسم باشا ، ويتوصل منه إلى الفرع الشرقى بطريق مظلل بالأشجار (١) .

هذا ويوجد حاليا مسجد يسمى مسجد الدرينى يقع شمال شرق جامع صلاح الدين داخل حرم كلية طب الأسنان ، وكان يقع أيام على مبارك غرب بستان إبراهيم باشا ، وهو مسجد قديم غير معروف تاريخ إنشائه لأول مرة ، وقد جدده زوجى الهامى باشا ابن عباس حلمى الأول (٢) وهى والدته السيدة أمينة زوجة الخديوى توفيق التى عرفت بأم المحسنين ، وبالمسجد المذكور ضريح الشيخ الدرينى الذى توفى فى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م (٣) ويذكر على مبارك أنه لم يدفن به وإنما دفن فى بلدته درين (٤) .

(١) انظر بالتفصيل : على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ١٨ ، ص ١١ ، محمد كمال السيد ، أسماء ومسميات ، ص ٤٥٢ - ٤٦١ . (٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ١٨ ، ص ١٤ .

(٣) الشعرانى ، الطبقات الكبرى (لواقع الأنوار فى طبقات الأخيار) ، (طبعة بولاق ، ١٢٨٦هـ) ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

(٤) الخطط التوفيقية ، ج ١١ ، ص ٧٣ .

وفى منتصف هذا القرن قسمت أرض النيل إلى شوارع وتحولت أراضيها إلى مباني، وأطول شوارعها حاليا شارع النيل الذى يخترقها من الجنوب إلى الشمال، بينما يقطعها من الشرق للغرب شارع الروضة الذى يمتد عند كوبرى الملك الصالح إلى كوبرى الجيزة (كوبرى عباس سابقا).

جسور الروضة:

نظرا لما كانت عليه جزيرة الروضة من مكانة بصفتها عروس متنزهات مصر، ونظرا لل عمران الدائم لها وكثرة الواردين إليها للتفرج والتنزه، ولما كانت تقع فى وسط النيل وتقابل مدينتى القسطة والجيزة لذا فقد حرص الملوك والسلطين والأمرء على أن ييسروا الطرق إليها واتصالها بالمدينتين المذكورتين، فأقيم بها العديد من الجسور على مر الزمن (لوحه ٧).

وكان يوجد بمصر نوعان من الجسور أولهما الجسور المبنية والأخرى هى الجسور الخشبية، فأما الجسور المبنية فهى قديمة جدا بمصر، وكانت تستخدم على المجارى المائية الضيقة مثل خلجان القاهرة. أما الجسور الخشبية فهى التى أقيمت لربط جزيرة الروضة بضمفتى النهر، وأحيانا تربطها بالجزر الأخرى، والجسور الخشبية عبارة عن قوارب مرصوة بجوار بعضها البعض وموثقة معا بالحبال فيمكن المسير عليها، ويتدفق الماء من تحتها، وكانت أغلب جسور الروضة بتلك الصفة، وأحيانا كان الجسر يفتح ويقفل لعبور المراكب كما كان لها درابزين^(١).

وجسر الروضة الذى يربطها بساحل مصر القديمة كان موجودا قبل الفتح الإسلامى لمصر، وقد عبر عليه المقوقس وتبعه عدد من الرومان وكبار القبط ليحتموا بقلعة الروضة أبان الفتح وقطعوه بعد عبورهم، وكان هذا الجسر من المراكب يربط ساحل مصر أمام حصن بابليون بجزيرة الروضة، كما كان يوجد جسر آخر بين الروضة والجيزة وكان عرض كل جسر منهما ثلاث قصبات^(٢).

ثم أعيد عمل الجسر مرة أخرى نظرا لما كانت عليه جزيرة الروضة من أهمية، ولما قدم الخليفة العباسى المأمون (١٩٨ - ٢١٨ هـ / ٨١٣ - ٨٣٣ م) إلى مصر سنة ٢١٧ هـ / ٨٣٢ م، أصلح الجسر كما تم عمل جسر آخر جديد يمر الناس فى ذهابهم عليه ويرجعون من على الجسر القديم، ولكن هبت ريج عاصفة بعد ذلك فقطعت الجسر القديم فصدمت سفنه الجسر المحدث فبطل الجسر القديم وأثبت الجديد واستخدم^(٣).

(١) ابن المقفع، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ج٤، ص ١٨ - ١٩.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٠، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٣.

(٣) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٠، القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٣٣٩، السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٣٦، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٣.

واستمر جسر المأمون قائما يستخدمه الناس في العبور وعن طريقه عبرت الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر الصقلي في يوم الثلاثاء ١١ شعبان سنة ٣٥٨هـ / ٩٦٩م، بعد أن عبروا جسر الجزيرة^(١)، ويبدو أن الجسرين أهملتا عقب ذلك لذا ففي أول رجب ٣٦٤هـ / ٩٧٥م أمر الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بإصلاح جسر الروضة بعد أن ظل معطلا لعدة سنوات، ولكن يبدو أنه خصص للخليفة فقط إذا أن المعز منع الناس من العبور عليه^(٢).

وهذا الجسر ذكره «ابن حوقل» المتوفى سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٧م وقال أنه كان يتكون من ثلاثين سفينة^(٣).

أما «ناصر خسرو» الذي زار مصر سنة ٤٤١هـ / ١٠٤٩م فقال «وثبت بين الجزيرة والمدينة (الفسطاط) جسر من ست وثلاثين سفينة»^(٤).

أما الرحالة «الأدرسي» المتوفى سنة ٥٦٠هـ / ١١٦٤م فيذكر أنه كان يجاز إلى جزيرة الروضة على جسر فيه نحو ثلاثين سفينة ويجاز القسم الثاني وهو أوسع من الأول على جسر آخر وسفنه أكثر من الأول أضعافا مضاعفة وطرف هذا الجسر يتصل بالشط المعروف بالجزيرة^(٥).

مما ذكر يتضح لنا أن جسر الروضة ظل موجودا طول العصر الفاطمي بين الفسطاط والروضة أما الجسر الذي كان بين الروضة والجزيرة فأحيانا يقام وأحيانا يستعاض عنه بالعبور في المراكب.

وفي سلطنة الكامل محمد الأيوبي (٦١٥ - ٦٣٥هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٧م) عمل جسر بين جزيرة الروضة إلى الجزيرة، وكان مبتدأه من قدام الصناعة المستجدة^(٦) وعدة المراكب التي فيه ٥٣ مركبا وتم عمله سنة ٦١٥هـ / ١٢١٨م، وقد أباحه السلطان لعبور الناس عليه، وقد أمر السلطان بعمل صيانة دائمة له، وكان في هذا الجسر مواضع تفتح للمراكب العابرة منه وتعاد إلى حالها بعد عبورها، وقد سر الناس بذلك الجسر سرورا عظيما وساعد على الحركة والتنقل بين الفسطاط والروضة إلى الجزيرة، وقد تميز هذا الجسر بعمل درابزين خشبي من الجانبين خشية سقوط أحد في النيل^(٧).

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٠.

(٢) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٠، اتعاط الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، ٣ أجزاء، تحقيق جمال الشيال ومحمد حلمي، (نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٧ - ١٩٧٣) ج١، ص ٢١٨.

(٣) صورة الأرض، ط ليدن ١٩٣٨م، ص ١٤٦. (٤) سفرنامه، ص ٦١.

(٥) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (ط ليدن، ١٨٦٤م)، ص ٣٢٣.

(٦) معنى ذلك أن الكامل أقام دار صناعة جديدة غربى جزيرة الروضة.

(٧) ابن المقفع، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ج٤، ص ١٨، ١٩، ١٣٧.

ولما ابتدأ السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب فى بناء قلعته بالجزيرة سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠م وحفره لسيالة الروضة أنشأ فى العالم التالى جسرا ممتدا من بر مصر إلى الروضة وكان رأس هذا الجسر قبلى خط دار النحاس أمام المدرسة الخروبية (١)، وكان هذا الجسر يتكون من واحد وعشرين مركبا وعرضه يسع جملين محملين متقابلين ولا يزدحمان، وكان الأمراء إذا ركبوا من منازلهم يريدون الخدمة السلطانية بقلعة الروضة يترجلون عن خيولهم عند البر ويمشون فى طول هذا الجسر إلى القلعة ولا يمكن لأحد من العبور عليه راكبا سوى السلطان فقط، ولم يكن مسموحا فى ذلك الوقت لمرور الناس عليه لوقوعه فى حيز قلعة السلطان ولذلك كان الناس يعبرون النيل بأنفسهم ودوابهم فى المراكب (٢).

جسور الروضة فى العصرين المملوكى والعثمانى :

لما تولى السلطان عز الدين أيبك حكم مصر (٦٤٨ - ٦٥٥هـ / ١٢٥٠ - ١٢٥٧م)، خرب القلعة الصالحية فأهمل الجسر عند ذلك إلى أن عمره الظاهر بيبرس فى ذى الحجة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م وجدد مراكبه من ساحل مصر إلى الروضة وكذلك جدد الجسر الآخر بين الروضة وبين الجيزة وذلك لعبور جيوشه لقتال الفرنج (٣).

ويبدو أن جسر الروضة أهمل بعد ذلك وبطل أمرهما من جملة ما بطل فى مصر من الشعائر القديمة واستعيز عنهما فى العبور بالمراكب (٤).

ولم يصلنا أخبار عن اقامة الجسور فى العصر العثماني فقد ذكر المؤرخ «ابن أبى السرور البكرى» المتوفى سنة ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م أن الجسرين قد دثروا ولم يعمل بدلها (٥).

(١) المدرسة الخروبية أنشأها كبير أسرة الخرابية بدر الدين محمد بن محمد التاجر بعد سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م على ساحل مصر قبلى خط دار النحاس . انظر: ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٩٩، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٠، ٣٦٩. وقد ذكر المرحوم محمد رمزي أن هذه المدرسة عرفت باسم جامع القبوة لأنه كان معلقا على قبو فى مدخل شارع القبوة الخالى بمصر القديمة، وقد زال هذا الجامع ولم يبق من آثاره إلا أحد حائطى القبو على يمين الداخل فى شارع القبو . انظر: تعليقه على النجوم الزاهرة، ج٥، ص ١٧٢. وأقول أنه الآن زالت هذه البقايا وقد كانت موقعة برقم ٥٣٢ على خريطة القاهرة للآثار الإسلامية (لوحة ٢ مربع ١٣ أ) برأس شارع القبوة بمصر القديمة.

(٢) ابن المقفع، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية، ج٤، ص ١١١، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٠، السلوك، ج١، ص ٣٤١، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٣، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢٧١.

(٣) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٧٠، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٧، ١٤٩، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٨٣.

(٤) ابن ظهير، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٢.

(٥) قطف الأزهار فى الخطط والآثار، مخطوط بدار الكتب، رقم ٤٥٧ جغرافيا، ورقة ١٦٠.

وفى زمن الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣ - ١٢١٦ هـ / ١٧٩٨ - ١٨٠١ م) أقام الفرنسيون جسرا فى شوال سنة ١٢١٣ هـ / ١٢٩٨ م من مراكب مصطفة من بر مصر يقع شمالى القصر العينى بقليل إلى الروضة تسير عليه الناس بدوابهم وأنفسهم ، (لوحه ٧) كما عملوا جسرا ثانيا كبيرا من الروضة إلى الجيزة فى موضع الجسر القديم ، ولكنهم لم يقيموا جسرا مواجها له فى موضع الجسر القديم بين ساحل مصر من أمام المدرسة الخروبية إلى الروضة (١).

ولكن ذلك الجسر الذى بين الروضة والجيزة لم يستمر سوى ثلاث سنوات ، إذ ذكر «الجبرتي» أنه فى جمادى الآخرة سنة ١٢١٦ / ١٨٠١ م قد تفكك الجسر المنصوب بين الروضة والجيزة وذلك من شدة الماء وتحملت رباطاته وانتزعت مراسيه وانتشرت أخشابه وتفرقت سفنه واتحدرت إلى بحرى (٢).

ويتأكد لنا من خلال ما يذكره «الجبرتي» عن عدم وجود الجسر الذى كان دائما موجودا بجنوب جزيرة الروضة بينها وبين مصر بجوار موقع المدرسة الخروبية إذ يذكر أن إبراهيم باشا بن محمد على عندما وصل إلى مصر فى شهر صفر سنة ١٢٣٥ هـ / ١٨١٩ م بعد انتصاراته على الوهابيين أقام بقصر شريف بك بالروضة بشاطئ النيل تجاه الجيزة وعند وصوله عملوا له جسرا من الروضة إلى ساحل مصر القديمة على مراكب من البر إلى البر وزدموه بالأتربة من فوق الأخشاب (٣).

أما الكبارى الحديثة على نيل القاهرة فقد عرفت أيام الخديو إسماعيل باشا (١٢٨٠ - ١٢٩٧ هـ / ١٨٦٣ - ١٨٧٩ م) الذى أنشأ (كوبرى) قصر النيل وهو أقدم كوبرى أنشئ فى العصر الحديث ليصل البر الشرقى بجزيرة الزمالك ، وقد نفذته شركة فرنسية ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م ، أما كوبرى الجلاء (كوبرى الإنجليز سابقا) المواجه له الذى يصل بين الجزيرة والدقى فقد أقامته شركة إنجليزية سنة ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م.

أما كبارى الروضة وهما كوبرى الملك الصالح وكوبرى الجيزة فقد أنشأهما الخديو عباس حلمى الثانى (١٣١٠ - ١٣٣٣ هـ / ١٨٩٢ - ١٩١٤ م) وذلك فى سنة ١٣٢٦ هـ / ١٩٠٨ م (٤).

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٢٦٧ ، جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٣٣٤ .

(٢) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٤٩٩ .

(٣) نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٦٠٦ .

(٤) لمزيد من التفاصيل عن الكبارى الحديثة ، انظر : عبد الرحمن زكى ، موسوعة مدينة القاهرة ، ص ٢٣٦ ، فؤاد فرج ، القاهرة (٣ أجزاء) ط دار المعارف ، ١٩٤٦ ج٢ ، ص ٣٨٨ ، محمد كمال السيد ، أسماء ولسميات ، ص ٤٩٩ - ٥٠٠ .

ثالثاً : الجزيرة الوسطى (جزيرة الزمالك)

كانت الجزيرة الوسطى من أجمل متزهات مصر فى العصرين المملوكى والعثمانى وقد تكونت هذه الجزيرة وظهرت للوجود نتيجة اتصال جزيرتين هما جزيرة أروى جنوباً وجزيرة حليلة شمالاً (شكل ٢٠).

وقد قال «المقرىزى» عن موقع جزيرة أروى واسمها «هذه الجزيرة تعرف بالجزيرة الوسطى لأنها فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجزيرة لم ينحسر عنها الماء إلا بعد سنة سبعمائة» (١).

وعن تعميرها قال «... وبنى الناس فيها الدور الجلييلة والأسواق والجامع والطاحون والفرن، وغرسوا فيها البساتين وحفروا الآبار وصارت من أحسن متزهات مصر، يجف بها الماء ثم ينكشف ما بينها وبين بر القاهرة فإذا كانت زيادة النيل أحاط الماء بها وفى بعض السنين يركبها الماء فتمر المراكب بين دورها وفى أزقتها» (٢).

وقد تأثرت مساكن هذه الجزيرة بالأحداث التى بدأت سنة ٨٠٦هـ والتى نتجت عن نقص النيل، وأعقبها فتن كثيرة، ولكن المقرىزى قال «... وفيها إلى اليوم بقايا حسنة» (٣).

أما عن جزيرة حليلة فقال «المقرىزى» عن موقعها وتاريخها «هذه الجزيرة خرجت فى سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م ما بين بولاق والجزيرة الوسطى سميتها العامة حليلة» (٤). وقد صارت الجزيرة متنزهاً عظيماً نصب فيها الناس الأخصاص (العشش) وزرعوا ما حول هذه الأخصاص بالزهور والرياحين والمقائى (البطيخ والشمام والخيار والقثاء... الخ) واتجه أرباب الخلاعة والمجون إليها وتهتكوا بأنواع المحرمات فارتفعت قيمة الأرض بها (٥).

وذكر «المقرىزى» كثرة المتنزهين بالجزيرة فقال «... وتردد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة أن لا يثبت بها أحد» (٦).

وقد اتصلت الجزيرتان «أروى وحليلة» بواسطة طرح النيل وصارتا جزيرة واحدة هى الجزيرة الوسطى التى يعرف الجزء الجنوبى منها الآن باسم الجزيرة، والجزء الشمالى باسم

(١) الخطط، ج٢، ص ١٨٦. (٢) نفسه. (٣) نفسه.

(٤) نفسه. ذكر الباحث «سامى نوار» أن جزيرة حليلة نشأت سنة ٧٤٩هـ نتيجة حفر منجك خليج موردة الحلفا من رأس موردة الحلفا تحت الدور إلى بولاق انظر: المنشآت المائية، ص ١٧٧، ولكن هذا يناقض كلام المقرىزى وغيره من المؤرخين الذين ذكروا أن جزيرة حليلة ظهرت سنة ٧٤٧هـ أى قبل حفر منجك لخليج موردة الحلفا بستين، ثانياً كان موقع جزيرة حليلة شمال الجزيرة الوسطى أى ما بين بولاق والجزيرة الوسطى بينما خليج موردة الحلفا كان يبدأ من مصر القديمة أمام جزيرة الروضة وتسير بقيته موازية للجزيرة الوسطى.

(٥) المقرىزى، الخطط، ج٢، ص ١٨٦، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص ١٢٩.

(٦) الخطط، ج٢، ص ١٨٦.

الزمالك ، ويبدو أن هذا الاندماج قد حدث فى العصر العثمانى فى نفس الوقت الذى اندمجت فيه جزيرتا الذهب والصابونى (١) .

وهذه الجزيرة طولية الشكل وهى من جزر غرب المجرى وتتبع من الناحية الادارية قسم قصر النيل بمحافظة القاهرة وتبلغ مساحتها خمسمائة وخمسة عشر فدانا (٢) .

ويتضح من خريطة الحملة الفرنسية أن الجزيرة وقعت عليها باسم جزيرة بولاق الكبيرة أو جزيرة القرطية (نسبة إلى القرط وهو البرسيم الذى كان يزرع لها) . وبالشمال منها جزيرة صغيرة تسمى جزيرة عازر ، أما فى الجنوب منها فتقع فى جزيرة صغيرة أيضا تسمى جزيرة مصطفى أغا ، ثم اتصلت تلك الجزر بعضها ببعض فيما بعد وعرفت باسم الجزيرة الكبيرة أو جزيرة بولاق لمواجهتها لبولاق أو الجزيرة الوسطى ثم عم عليها أخيرا اسم جزيرة الزمالك .

وقد تعرضت مساحة وشكل الجزيرة للتغيير الذى ترتب على تحويل مجرى النيل سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م ليكون الفرع الرئيسى له هو الفرع الشرقى بدلا من الغربى وذلك لأن النيل تسلط حينئذ على الجزء الجنوبى من الجزيرة الذى كان قريب الاتصال بجزيرة الروضة أيام التحريق وكذلك على الساحل الشرقى منها تجاه بولاق وأخذ منها جزءا ، ونتج عن تحويل المجرى اتساع النيل تحت بولاق واستمرار وجود الماء تحتها طول أيام السنة ، والأرض التى أكلها البحر من الجزيرة نقلها إلى الجهة الشمالية منها (٣) وقد كانت الجزيرة قبل ذلك المشروع تبدو وكأنها متصلة بالصفة الغربية للنيل ، ومنذ ذلك الإصلاح أصبح الساحل الغربى للجزيرة أكثر استقامة نتيجة إقامة التكسيات الحجرية التى تحميه (٤) .

العمران بالجزيرة :

بالرغم من أن الجزيرة غلب عليها النشاط الزراعى فى أغلب تاريخها إلا أنها حفلت فى بعض فترات العصر المملوكى بالنشاط المعمارى ، ويتضح الحرص على العمران بها منذ ظهورها أن الطواشى مثقال خادم تذكرا ابنة الملك الظاهر بيبرس أنشأ جامعاً بها ذكر المقرئى أنه عامر إلى أيامه (توفى المقرئى سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) (٥) .

(١) انظر ما سبق ، ص ٦٤ .

(٢) تقرير من وزارة الأشغال ، سعد جمال الدين ، الجزر النيلية ، ص ٧١ ، ٣٨٢ ، بينما ذكر الباحث عبد القادر عبد العزيز فى رسالته «استخدام الأرض فى الجزر النيلية» ص ٢٨ أن مساحة الجزيرة ٦٠٧ فدان .

(٣) محمد رمزى ، الجغرافيا التاريخية لمدينة القاهرة ، ص ٥٢٢ .

(٤) سعد جمال الدين ، الجزر النيلية ، ص ٣٨٦ .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٢٥ ، ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٤٥ ، وقد حقق المرحوم الأستاذ محمد رمزى موقع هذا الجامع فذكر أنه هو المجدد حتى الآن والذى يعرف حالياً بجامع الجزيرة فى حديقة النهر «أسفل كوبرى ٦ أكتوبر حالياً» . انظر : تعليقه على النجوم ، ج ٩ ، ص ٢٠٦ .

ومما يدل على كثرة العمارة بالجزيرة فى العصر المملوكى أن السلطان إينال (٨٥٧-٨٦٥ هـ/ ١٤٥٣-١٤٦١ م) أمر فى يوم ١٣ جمادى الأولى سنة ٨٦٢ هـ/ ١٤٥٨ م، بالمنادة بأن أحدا من الناس لا يعمر عمارة بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى ولا بساحل بولاق لما رأى من ضيق الطريق من كثرة العمائر والأخصاص وأمر أيضا بهدم أماكن كثيرة فهدمت فى اليوم المذكور^(١).

ولكن التعبير ظل قائما بالجزيرة بقية العصر المملوكى^(٢)، وكان للسلطان الملك الأشرف قانسوه الغورى حمام كبير بالجزيرة^(٣).

وكانت الجزيرة على أحسن ما تكون من الحركة والنشاط بها فى أيام فيضان النيل، ولكن أحيانا ما يطغى الفيضان عليها فتغرق بيوتها وأخصاصها وزراعتها فتهدج حيثئذ، بالإضافة إلى عوامل أخرى تؤثر سلبيا على الجزيرة مثل الاضطرابات والصراعات السياسية والعسكرية التى تكون الجزيرة مسرحا لها، فعلى سبيل المثال ذكر «ابن إياس» أن من العجائب أنه فى شعبان ٩٢١ هـ أن مع وجود علو النيل وثباته لم يسكن فى الجزيرة الوسطى ولا بيت واحد ولم يفتح فيها دكان ولم يعمل بها مقصف للمتفرجين، ولم يعلم ما سبب ذلك ولكن أشاعوا أنه سكن الجزيرة عدة مناخات لابن السلطان (الغورى) والأمراء فخشى الناس أن يسكنوا الجزيرة من نفر الذى هناك، فهذا كان السبب فى منع الناس من سكن الجزيرة^(٤).

ويبدو أن سنة ٩٢١ هـ/ ١٥١٥ م كانت بداية النهاية للتطور العمرانى للجزيرة ذلك أن السلطان الغورى أمر بسد خليج الزريبة بجسر عند قنطرة موردة الجبس^(٥) مما أثر على الحركة إلى الجزيرة.

وكانت الطامة الكبرى للجزيرة فى أثناء الغزو العثمانى لمصر سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧ م فقد تعرضت للخراب التام وتلاشى أمرها يومئذ وخلت بيوتها من السكان وقد كانت من أجل مقترحات مصر فقد نزلت العساكر العثمانية فى بر الجزيرة على رملة البحر وصاروا يخربون بيوتها حتى لم يبق بها إلا الجدر وقد نقل أصحاب الأملاك السقوف والأبواب والطيقان فخربت بالكلية من يومئذ وانقطع الرجاء من عمارتها ثانيا^(٦).

وكان من جراء ما سبق أن ساد النشاط الزراعى فى الجزيرة فى العصر العثمانى فعمرت بالبساتين والحقول.

(١) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١٦، ص ١١٨.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٧٠.

(٣) كتاب وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف، ص ١٣٢-١٣٣.

(٤) بدائع الزهور، ج٤، ص ٤٧٣، ٤٧٨. (٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٦٩-٢٧٠.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٩٦، ٢٧٠.

وفى القرن ١٢هـ / ١٨م أقام العديد من الأمراء البساتين والقصور مثل الأمير عثمان كتخدا القاردوغلى^(١) والأمير عبدالرحمن كتخدا الذى أقام بستانا على مساحة سبعة أفدنة وقصرا على مساحة فدانين ونصف^(٢).

وقد رسمت الجزيرة فى خرائط الحملة الفرنسية كحقول وبساتين ، وقد اهتم الفرنسيون بها وجعلوا الجزيرة الصغيرة المسماة جزيرة عازر المواجهة لامبابة محجرا صحيا إلا أنه لم يستمر بعد ذلك^(٣).

وقد بدأت العمارة تعود مرة أخرى للجزيرة أيام محمد على الذى أنشأ بها فى سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م قصرا بين المزارع فى الجهة الشمالية منها وقد اتخذها للنزهة ، وكان بالقرب من هذا القصر زمالك (عشش) يصطاف فيها رجال حاشيته وعساكر حرسه فعرفت المنطقة منذ ذلك الوقت باسم الزمالك ، كما بدأت القصور الفخمة تعرف طريقها للجزيرة وأصبحت من أرقى الأحياء بمصر بما أنشئ بها من القصور ذات البساتين والعمارات الفاخرة والحدائق الكبيرة والأندية الرياضية والاجتماعية والفنادق والمعارض والقصور الثقافية ، وصارت الجزيرة مقر السكنى الأول للطبقة الارستقراطية فى مصر فى عصرها الحديث .

صناعة السفن بالجزيرة؛

نظرا لاهتمام دولة المماليك فى بعض فتراتهما بالبحرية والأسطول لذا فقد شهدت الجزيرة الوسطى نشاطا بحريا كبيرا فازدهرت بها صناعة السفن والمراكب وخصوصا الحربية منها مثل مراكب الأغربة والشوانى والطرايد^(٤)، وكانت أيام صناعتها وتدشينها من أبهج وأنزه أيام مصر ، وكان الناس يأتون إلى الجزيرة من جميع أنحاء القاهرة للفرجة عليها وهى ذاهبة للغزو أو لعمل المناورات والتدريبات البحرية .

ومن أمثلة ذلك تلك الشوانى الحربية وعدتها مائة مركب ما بين غريان وطرايد والتي صنعت سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م لتقوم بحملة على جزيرة قبرص وغيرها من البلاد الأوربية ردا على الغزو البحرى من الفرنج الذى تعرضت له مدينة الاسكندرية فى السنة السابقة^(٥).

(١) كتاب وقف عثمان كتخدا رقم ٢٢١٥ أوقاف ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) كتاب وقف عبد الرحمن كتخدا رقم ٩٤٠ أوقاف . وقد ورد فى وثائق وكتب وقف الأمير عبد الرحمن كتخدا أن الأرض التى أقام عليها البستان والقصر كانت جارية فى وقف الأمير يشبك بن مهدى الدوادار . وحتى تاريخ كتاب الوقف أى سنة ١١٥٧هـ كان يجاور بستان وقصر عبد الرحمن كتخدا أرض جارية فى أوقاف أولاد السلطان بيبس وكذلك أرض فى وقف الأمير أزيك الاتابكى ، وكان يجاور بستان عبد الرحمن كتخدا أرض زراعية جارية فى وقف السلطان مراد خان والأمير إسماعيل بك وغير ذلك .

(٣) جومار ، وصف مدينة القاهرة . ص ٣٤٢ .

(٤) عن هذه السفن ، انظر : سعاد ماهر ، البحرية فى مصر الإسلامية ، ص ٣٥٢ - ٣٥٩ .

(٥) المقرئى ، السلوك ، ج٣ ، ص ١١٣ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٢٧ ، ٢٨ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ .

وكذلك تم فى أيام السلطان اينال (٨٥٧ - ٨٦٥هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١م) عمارة مراكب أغرية بالجزيرة الوسطى وذلك القيام بحملة على جزيرة قبرص ، وقد أقيمت إحتفالات كبيرة بتلك المناسبة (١) .

وظلت السفن تعمل بالجزيرة بعد سقوط دولة المماليك وتبعية مصر لسيادة الدولة العثمانية فقد ذكر « ابن إياس » أنه فى رجب سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م توجه ملك الأمراء (خاير بك) إلى الجزيرة الوسطى وسبب ذلك أن الأمير تنم الناظر على وقف الدشيشة (٢) التى ترسل إلى الحرمين الشريفين كان قد صنع هناك مركبا كبيرا لحمل الدشيشة وكان طولها مائة وعشرين ذراعا وبها فرن وطاحون وصهريج للماء الحلو ومقعدو مبيت واسطبل للخيول فعرضها على ملك الأمراء ثم فك أخشابها وأرسلها على ظهور الجمال إلى الطور ومن هناك يرسلها إلى البحر المالح (٣) .

رابعاً : جزيرة الوراق

كانت جزيرة الوراق منتزهاً كبيراً فى بداية العصر المملوكى لأنه كان يحتفل بربوعها إلى جانب النيل وشبرا المواجهة لها بعيد الشهيد الذى كان يمثل مهرجانا شعبيا آنذاك (٤) .

وجزيرة الوراق ذات شكل بيضاوى تقع فى وسط مجرى النيل وتتبع من الناحية الإدارية مركز امبابية محافظة الجيزة .

وهذه الجزيرة من أكبر الجزر النيلية إذ تبلغ مساحتها ١٥٤٠ فداناً (٥) ، وتدل حالتها على أنها مقتطعة من رأس الدلتا (٦) .

وجزيرة الوراق من النواحي القديمة واسمها الأصلي جزيرة الأسل وكانت من الأعمال الجيزية (٧) : وقد عرفت بجزيرة الوراق نسبة لمواجهتها لناحية الوراق التى بالبر الغربى للنيل . والنشاط الغالب على هذه الجزيرة الآن النشاط الزراعى فقط .

(١) ابن إياس ، نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٣٦٢ .

(٢) الدشيشة هى القمح المجروس أى الذى يطحن غليظا .

(٣) بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٣٩٩ .

(٤) عن هذا العيد بالتفصيل انظر ما يلى ، ص ٥١٥ .

(٥) عبد القادر عبد العزيز ، استخدام الأرض فى الجزر النيلية ، ص ٢٩ .

(٦) نفسه ، إبراهيم زرقانه ، قمة دلتا النيل وتغير مواضعها منذ أقدم العصور البشرية حتى الوقت الحاضر ، مجلة

آداب الاسكندرية ، المجلد الرابع ، ١٩٤٨م ، ص ٢٩ .

(٧) ابن الجيصال ، التحفة السنية ، ص ١٤٣ .

الفصل الثالث

البرك

تعتبر برك القاهرة من أعظم متزهات مصر طوال تاريخها الإسلامى حتى منتصف القرن الماضى ، وقد تمتعت بأهمية كبيرة فى العصرين المملوكى والعثمانى على وجه الخصوص .

والبرك فى اللغة لها نفس مدلولها الحالى فهى «مستنقع الماء وهى شبه حوض يحفر فى الأرض ، وقد سميت بذلك لإقامة الماء بها» . (١)

ومن البرك ما هى طبيعية مثل بركة الرطلى وبركة الفيل حيث كان منسوب أرضها منخفضاً عن منسوب باقى أراضي القاهرة فتمد بالماء زمن الفيضان فتصير بركاً ، ومنها ما هى صناعية مثل بركة بطن البقرة (الأريكية) التى استنبطها الخليفة الفاطمى الظاهر وبركة الناصرية التى استنبطها الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كما امتدت الأيدى البشرية للبرك الطبيعية فى العصر المملوكى بالاعتناء بها والاهتمام بحفرها وبناء الجسور عليها وغير ذلك ، وقد ترتب على ذلك أرواد العمران حولها لذا فقد نمت القاهرة حينئذ نمواً عظيماً ، وظلت بالكاد على مساحتها فى العصر العثمانى .

وكان مجتمع أحياء القاهرة مجتمعاً متميزاً ، تميز سكانه بمكانتهم الرفيعة فى المجتمع إلا أن البرك كانت موضع تنزه القاهريين جميعاً باختلاف طبقاتهم وأجناسهم وعقائدهم ، وكانت موضعاً متميزاً لاحتفالاتهم ومواسمهم .

وكانت لبرك القاهرة أهمية اقتصادية كذلك ، فقد كانت عبارة عن أراضى زراعية منخفضة المستوى تملأ بماء النيل وقت الفيضان ، وبعد ذلك تزرع بمحاصيل شتوية ، وكانت تلك الأراضى من أخصب الأراضى ولا تحتاج لمجهود كبير لحراثتها وزرعها ، بالإضافة للنشاط التجارى والسياحى الكبير الذى تكون عليه زمن الفيضان .

وكانت البرك تجرى فى أوقاف السلاطين والأمراء وغيرهم من ذوى المكانة الرفيعة فى المجتمع ، مثل بركة الفيل التى كانت ضمن أوقاف الظاهر بيبرس ، وكذلك كانت بركة الحيش وقفاً على السادة الأشراف أبناء الحسن والحسين ابنى على بن أبى طالب كرم الله وجهه .

(١) انظر مادة بركة فى : لسان العرب لابن منظور ، مختار الصالح للراى ، والمخصص لابن سيده .

وقد أمكننى حصر عشرين بركة بالقاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى ، ذكر «المقرئى» اربع عشرة بركة فقط ، وعملت دراسة طبوغرافية لهم ، وكذلك تسبعت تاريخها وتطورها ودورها فى عمران القاهرة . وهذه البرك مرتبة من الجنوب إلى الشمال كالتالى :

بركة الحبش

تعتبر بركة الحبش أقدم بركة بالقاهرة ذكراً بالتاريخ ، وظلت على مدى التاريخ الإسلامى من أهم متنزهات مصر .

أسماءها :

عرفت هذه البركة بعدة أسماء ففى صدر الإسلام عرفت ببركة المعافر ، كما عرفت أيضاً ببركة حمير نسبة لقبيلتين عربيتين نزلتا حولها زمن الفتح الإسلامى لمصر .^(١) ، كما عرفت أيضاً باصطبل قره^(٢) نسبة إلى قره بن شريك العيسى الذى ولى مصر من سنة ٩٠ هـ إلى سنة ٩٦ هـ الذى أهتم بها وغرسها قصباً ، كما عرفت أيضاً باصطبل القامش أى القصب الذى كان يزرع بها .^(٣)

أما عن اسم بركة الحبش فهناك رأى ينسبها إلى الجنان الواقعة قبلى البركة وهى منسوبة إلى قتادة بن قيس بن حبشى الصدفى الذى شهد فتح مصر ، والجنان تعرف بالحبش وبه تعرف بركة الحبش^(٤) . أما الرأى الآخر فيذكر أن البركة عرفت بالحبش لأنها من ضمن أملاك طائفة من الرهبان الحبش ، وقد حدث أن صادر أحمد بن طولون البطريق ميخائيل بطرك اليعاقبة على عشرين ألف دينار لذلك باع النصرارى بعض أملاكهم ومنها أرض الحبش بظاهر مصر ، وكذلك الكنيسة المجاورة للمعلقة بقصر الشمع بمصر التى باعوها لليهود .^(٥)

كما عرفت البركة فى العصر الفاطمى وما يليه باسم بركة الأشراف نسبة إلى الأشراف من نسل على بن أبى طالب الذين جرت البركة فى أوقافهم .^(٦)

(١) ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٥٥ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٢) نفس المصدرين والصفحتين .

(٣) نفسها .

(٤) نفسها .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، أبو صالح الأرمنى ، كنائس وأديرة مصر ، ص ٥٤ - ٥٥ . وهذه الكنيسة المذكورة أعلاه هى المعروفة الآن بالمعبد اليهودى المجاور لكنيسة الست بربارة بمصر بابليون .

(٦) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ، ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

موقعها وحدودها ومساحتها :

ذكر «المقريزي» أن «بركة الحبش تقع ظاهر مدينة الفسطاط من قبلها فيما بين الجبل والنيل»^(١) . كما ذكر أيضاً عن ابن يونس في تاريخه «... أن قبلى بركة الحبش جنان تعرف بقتادة بن قيس بن حبش الصدفى وأن الحد البحرى ينتهى إلى البئر الطولونية وإلى البئر المعروفة بموسى بن أبى خلود ، وهذه البئر هى المعروفة بالنعش»^(٢) ، كما ذكر أيضاً نقلاً عن ابن المتوج «... أن البركة وقف الاشراف الطالبيين وهذه البركة حدودها أربعة ، الحد القبلى ينتهى بعضه إلى أرض العدوية يفصل بينهما جسر هناك وباقية إلى غيطان الوزير والحد البحرى ينتهى بعضه إلى أبنيه الأدر التى هناك المطة عليها وإلى الطريق وإلى الجسر الفاصل بينها وبين بركة الشيعية ، والحد الشرقى إلى حد بساتين الوزير المذكورة ، والحد الغربى ينتهى بعضه إلى بحر النيل وإلى أراضى دير الطين وإلى بعض حقوق جزيرة ابن الصابونى وجسر بستان المعشوق الذى هو من حقوق الجزيرة المذكورة»^(٣) .

بتحليل تلك النصوص يتبين من النص الأول أن بركة الحبش كانت تقع جنوبى مدينة الفسطاط فيما بين الجبل والنيل ، وهذا الجبل المقصود به جبل المقطم الذى كان يحيط بالبركة من الجهتين الشرقية والشمالية ، فأما الجهة الشرقية فعلى شكل هضبة أقيم على بعضها قرية البساتين القديمة ، وأما الجهة الشمالية فتتمثل هضبة اسطبل عتر حالياً وكان الجزء الغربى منها يمثل هيئة جبل كان يسمى قديماً الرصد .

ومن تحليل النص الثانى نجد أن الحد القبلى أى الجنوبي للبركة كانت حدائق وبساتين ، وأن الحد البحرى (الشمالى الشرقى) ينتهى إلى البئر الطولونية ، وإلى بئر النعش ومن حسن الحظ أن البئر الطولونية لا تزال موجودة حتى الآن بحى البساتين جنوب القاهرة وتسمى الآن بير أم سلطان ، وهى تمثل مأخذ مياه للقناطر التى أنشأها أحمد بن طولون والتى لا يزال الجزء الجنوبي منها باقياً بالبساتين الآن . أما البئر المعروفة بالنعش فقد ذكر «على باشا مبارك» أنها كانت موجودة أيامه فى حوض عفصه من أراضى البساتين^(٤) ، وهذا الحد البحرى يمثل من الجهات الأصلية الجهة الشمالية الشرقية .

ومن تحليل النص الثالث يتبين أن الحد القبلى أى الجنوبي للبركة ينتهى بعضه إلى أرض العدوية أى أرض المعادى حالياً^(٥) ، والبعض الآخر ينتهى إلى أراضى وغيطان تابعة

(١) الخطط ، ج ٢ ص ١٥٢ . (٢) نفسه ، ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٥٥ .

(٣) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٣ . (٤) الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ .

* وهذه البئر كانت تقع غربى البئر الطولونية ، وقد وضع عليها ساقية لرى أراضى البساتين وقد رأيتها وقد تحولت الاراضى الزراعية لمبانى سكنية الآن .

(٥) المعادى : كانت قرية قديمة تعرف باسم منية السودان كانت بين بركة الحبش وطرا ، وبها دير على النيل يسمى دير العدوية ، نسبة إلى سيده مغربية تسمى العدوية فسميت الناحية حيثل بناحية العدوية . ولا يزال هذا الدير مجدداً فى موقعه حتى الآن على كورنيش النيل بالمعادى ويسمى الآن كنيسة العذراء . انظر : ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٤٣ . محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ج ٣ ، ص ١٧ . سعاد ماهر ، القاهرة القديمة واحياتها (سلسلة المكتبة الثقافية ، رقم ٧٠) ص ١٢٢ - ١٢٤ .

للبياتين^(١) ، والحد البحرى أى الشمالى ينتهى بعضه إلى بيوت كانت هناك والبعض الآخر إلى بركة الشيعية التى كانت تقع شمال بركة الحبش ، والحد الشرقى كانت به بساتين الوزير ، والحد الغربى ينتهى بعضه إلى نهر النيل والبعض الآخر إلى أراضى دير الطين^(٢) ، أى دار السلام حالياً وإلى بعض حقوق جزيرة الصابونى^(٣) وجسر بستان المعشوق ويمثله الآن الطريق الزراعى بين أثر النبى والمعادى .

- ونخلص مما سبق أن موقع بركة الحبش حتى منتصف هذا القرن كان يمثله أراضى زراعية كانت تقع فى زمام قرية دير الطن (حى دار السلام حالياً) ، وزمام قرية البساتين (حى البساتين حالياً) ، وكانت تقدر بألفين ومائتى فدان منها مائتين وثلاثة عشر فداناً كانت تتبع قرية دير الطين ، والباقى فى زمام البساتين ، وكانت هذه المنطقة تحد من الجنوب بأراضى ناحية البساتين ومن الشرق قرية البساتين ومن الشمال جبانة مصر التى كانت تسمى بالقرافة الكبرى ، وجبل الرصد وتعرف حالياً باسطبل عنتر وأرض قرية أثر النبى فى الحد الفاصل بينها وبين دير الطين (دار السلام) ومن الغرب كان يحدها جسر النيل الواصل بين دير الطين (دار السلام) وبين المعادى ويمثله اليوم الطريق الزراعى .^(٤) (شكل ٢٣) .

وقد قدر «ياقوت الحموى» طول بركة الحبش بنحو ميل^(٥) ، بينما ذكر «ابن دقماق» أن البعض

(١) البساتين : كانت قرية قديمة تعرف ببساتين الوزير ، وقد نسبت إلى عدة وزراء ، فقد ذكر «ابن دقماق» (أنها تنسب إلى الوزير ابى الفرج يعقوب بن كلس وزير الخليفة الفاطمى العزيز ، ويقال أنها منسوبة إلى الوزير محمد بن على المادرائى وقيل أنها منسوبة إلى الوزير أبى الفضل ابن الفرات المعروف بابن خنزابه وزير كافور ، وهى سبعة بساتين). انظر : الانتصار ، ج ٤ ص ٥٧ .

وقد ذكر «المقريزى» «أنها تنسب إلى الوزير ابى الفرج محمد بن جعفر المغرى وزير المستنصر الذى مات سنة ٤٧٨هـ وأنها تقع قبلى بركة الحبش ، وفيها مساكن وبساتين كثيرة وبها جامع تقام فيه الجمعة» . الخطوط ، ج ٢ ، ص ١٥٧ .

وأقول أن القرية القديمة لا تزال واقعة على تل مرتفع يتوسط الآن حى البساتين جنوبى القاهرة .
(٢) دير الطين : من القرى القديمة على شاطئ النيل وكانت تقع غربى بركة الحبش ، ودير الطين نفسه كان لرهبان الحبش الذى تنسب إليهم بركة الحبش ، وقد ذكر محمد رمزى «أن الأراضى الزراعية التابعة لها كانت مقدرة فى دفاتر المكلفات والأموال باسم بركة الحبش التى كانت من الضواحي القديمة من عهد الفتح العربى . انظر : القاموس الجغرافى فى ج ٢ ق ٣ ص ١٤ وقد عرفت دير الطين منذ حوالى منتصف هذا القرن باسم دار السلام ونحولت أراضىها إلى مبانى .

(٣) عن جزيرة الصابونى ، انظر ما سبق ، ص ٦٥ .

(٤) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق ١ ، ص ١٥٠ . وأقول أن هذه الأراضى التى حددها محمد رمزى قد بنيت الآن عن آخرها بطريقة عشوائية .

(٥) معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٩١ . يقدر الميل بـ ١٨٤٨ متر حالياً . انظر : محمد كمال السيد ، أسماء ومسميات ، ص ٣٧ ، حاشية ١ .

قدر مساحتها بألف فدان^(١) ، ويرجع الاختلاف فى مساحتها لتذبذب مستوى الماء فيها من وقت لآخر تبعاً لحالة الفيضان .

تاريخ البركة وإيقافها :

أما عن تاريخ البركة فنقول أن أول من أهتم بها هو الأمير قرة بن شريك العيسى الذى غرس بها قصباً ، ثم دخلت فى ملك أبى بكر المادرائى^(٢) الذى كان وزيراً للطولونيين الذى ربما اشتراها من الرهبان الحبش ، وقد قام بوقفها فى سنة ٣٠٧ هـ / ٩١٩ م على بعض المنشآت المائية هى بترين وقطرتين وسرب ماء وقناطر ومجارى مائية قام بإنشائها سنة ٣٠٣ هـ أو ٣٠٤ هـ بالقرافة لخدمة القبائل القاطنة بها بالإضافة إلى بعض الأمور الخيرية الأخرى مثل المصرف على فقراء سكان القرافة من المعافى وغيرهم .^(٣)

ثم استولى عليها الوزير الفاطمى الصالح طلائع بن رزيك (٥٤٩ هـ - ٥٥٦ هـ / ١١٥٤ - ١١٦١) وأوقفها على السادة الأشراف الحسينيين أحفاد الحسين بن على كرم الله وجهه .^(٤)

وفى زمن الدولة الأيوبية شاركهم فيها أقاربهم الطالبين ، وفى زمن الدولة المملوكية ثبت الوقف عليهم عدة مرات^(٥) ، ثم استولى عليها النشواناظر الخاص للسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وعوض الأشراف عنها مالاً من بيت المال يصرف لهم سنوياً ، فلما مات الناصر محمد وتسلطن بعده ولده الملك المنصور أبو بكر فى ٢١ ذى الحجة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م بادر باعادة البركة إلى الأشراف وظلت وفقاً عليهم بعد ذلك^(٦) ، وقد أراد السلطان الغورى أن يخرجها من أوقافهم^(٧) إلا أن

(١) الانتصار، ج ٥ ص ٥٦ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن على المادرائى ، ولد بنصيبين سنة ٢٥٨ هـ ، وقدم إلى مصر سنة ٢٧٢ هـ ، وفى السنة التالية خلف أباه فى نظره أمور خمارويه بن أحمد بن طولون ، ثم استورده هارون بن خمارويه (٢٨٣ هـ - ٢٩٢ هـ) إلى أن قدم محمد بن سليمان الكاتب من بندگان وأزال الدولة الطولونية سنة ٢٩٢ هـ وحمل رجالهم إلى العراق فكان منهم أبو بكر المادرائى ، ثم عاد مرة أخرى إلى مصر ودبر امرها وأمر ونهى ، وقد كان واسع الثراء محباً لأمور الخير وقد بنى العديد من المباني السنية والخيرية ، وقد صودر عدة مرات وكان قد حج ٢٧ حجة ، وقد توفى فى شوال سنة ٣٤٥ هـ . أنظر :

المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٥٥ - ٥٦ ، المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٢ .

(٤) نفس المصدرين والصفحتين .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٣ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٩٠ .

(٦) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٥٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٥٢ ، بن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١٠ ، ص ٤ .

(٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٦ .

ذلك لم يتم حسبما يتضح لنا من إحدى الوثائق العثمانية التي تبين استمرار وقف البركة على الأشراف^(١).

وكانت البركة في العصرين المملوكي والعثماني تعتبر من أعمال مصر من جانبها القبلي^(٢) أي تتبع فسطاط مصر من الناحية الإدارية .

تغذية البركة بالماء والزراعة بها :

كانت بركة الحبش تغذى بالماء عن طريق خليج بنى وائل^(٣) الذى يخرج من النيل جنوبى مصر القديمة مما يلى باب مصر الذى كان يعرف أيام المقيزيى بباب القنطرة^(٤) من أجل قنطرة بنيت هناك . (شكل ٢٣) .

وكانت الأرض وقت أن يغمرها النيل تشبه البرك ولهذا سميت بركة كما ذكر ياقوت

(١) ورد في الوثيقة المحفوظة بالباب العالي سجل ٦٣ ص ٣١١ و F ١٣٣٤ والمؤرخة بسنة ١٠٠٣ هـ «وقف أواضى بركة الجيش وفدان الشعبية وغيظ التجار بجوار البركة المذكورة ورزقه قلوب والتريعة الكاينة بسوق أمير الجيوش والخانوت خارج السوق وهى من أوقاف أبو بكر المرداني على السادة الأشراف وجميع الطين الكاين بأراضى بلقس وكفوروا الزاوية وكوم البحرى وهى من أوقاف السلطان طلائع بن رزيك الفايزى على السادة الأشراف وكانت تؤجر منه السنة ٣٥٠٠ نصف» .

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٥٥ .

(٣) المقيزي ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٥ .

* ذكر سامى نوار فى رسالته المنشأت المائية ص ١٧٥ ما نصه «أن خليج بنى وائل يمد بركة الشعبية بالماء من حدها الشمالى وكانت البركة تقع شمال بركة الحبش فعلى هذا لا يمكن أن يمد بركة الحبش بالماء لأنه يصب ببركة الشعبية ويؤكد ذلك أن بركة الحبش كانت تصل لنهر النيل مباشرة بحدها الغربى ويفسر ذلك تحرك نهر النيل غرباً مع ردم بركة الشعبية بحيث أصبح من الأسهل توصيل خليج بنى وائل بخليج الأشراف الخارج من بركة الحبش وبذلك أصبح خليج بنى وائل يخرج من نهر النيل ليصب فى بركة الحبش» .

* وهذا الرأى مناقض للواقع الذى يقول أن خليج بنى وائل هو نفسه خليج الأشراف ، كما أن بركة الحبش كانت تشرف على النيل بجزء من أراضيها ويفصلها عنه نى أغلب حدها قرية دير الطين والأراضى الزراعية التابعة لها مما يجعلها تحتاج إلى خليج بنى وائل ليغذيها بالماء ، كما أنه ليس من المعقول أن يصب خليج بنى وائل فى بركة الشعبية المحدودة المساحة (٥٤ فداناً فقط) فلو كان هذا لغرقت المنطقة كلها وإنما حفر الخليج ليندى بركة الحبش ذات المساحة الكبيرة (أكثر من ١٠٠٠ فدان) .

(٤) باب القنطرة كان يقع بسور مصر (الفسطاط) الذى بناه قراقوش وزير الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وكان واقعاً بالقرب من النيل ، وقد عرف بهذا الاسم نسبة للقنطرة التى تقع على يمينه والتى أقيمت على خليج بنى وائل والى يرجع بناءها إلى زمن الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، ويرى المرجوم «محمد رمزي» أنه كان واقعاً فى مدخل شارع الصنير عند تلاقيه بشوارع أثر النبى فى الجهة الجنوبية من مصر القديمة . انظر : المقيزي ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٤٧ ، ج٢ ، ص ١٦١ . محمد رمزي ، الجغرافيا التاريخية لمدينة القاهرة (عواصم مصر الاسلامية) ، مقالة بمجلة العلوم ، المجلد الخامس ، السنة التاسعة ، عدد نوفمبر / ديسمبر ١٩٤٢ ، ص ٦٥٨ .

الحموى^(١)، ويعد أن ينتهى فيضان النيل ويصرف الماء عنها تنكشف أراضيها ولا تحتاج إلى الحرث
المنها بل تلاق لوقاً وتزرع أصنافاً شتوية أسوة بأرض الملقى أى الأرض اللينة ، وقد كانت تزرع بالكتان
والبرسيم والقصب وأصناف الورود وكانت تحف بها أشجار النخيل والرطب والأعناب وأشجار الحمير
والأشجار الأخرى ، وكانت تزدهى بالحسن والنضارة .^(٢)

العمائر حول بركة الحبش :

بنيت حول بركة الحبش الدور والقصور والمناظر والجواسق والجوامع والأديرة والكنائس منذ الفتح
العربى لمصر ، وكان العمران على أحسن ما يكون فى العصر الفاطمى وقد عاش المسلمون وأهل
الذمة فى وحدة واحدة فى الأحياء حول البركة حيث^(٣) . واستمرت البركة عامرة بعد ذلك فى زمن
الدولة الأيوبية .

وفى بداية العصر المملوكى وقع الاهتمام بعض الشئ بأقامة منشآت دينية مثل الجوامع والأربطة
على حدود البركة ، ومن أمثلة ذلك قيام الوزير صاحب تاج الدين بن حنا^(٤) ببناء جامع سنة ٦٧٢
هـ / ١٢٧٣ م على حافة البركة فى شاطئها الغربى بناحية دير الطين وقد جعل له خطبة وأوقف
عليها أوقافاً^(٥) وذلك عند تعميره بستان المشوق^(٦) بجواره واقامة المناظر هناك ، وفى
هذا الجامع يقول الشاعر السراج الوراق :

ينتم على تقوى من الله مسجداً وخير مبانى العابدين المساجد
فقل فى طراز معلم فوق بركة على حسنها الزاهى لها البحر حاسد^(٧)

كما سبق للصاحب تاج الدين أن انشأ أيضاً رباطاً على بركة الحبش سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م^(٨) .

(١) معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٥٩٢ .

(٢) ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ، ص ٦٨ ، محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٤ ، ج ٦ ،
٢٨١ - ٢٨٣ .

(٣) عن العمران حول بركة الحبش فى العصر الفاطمى ، انظر : محمود الحسنى ، التطور العمرانى لعواصم مصر
الاسلامية - القسطنطينية ، ص ١٦٨ - ١٧٧ .
جامعة القاهرة ، ١٩٨٧ .

(٤) هو الوزير صاحب تاج الدين محمد بن صاحب فخر الدين بن الوزير صاحب بهاء الدين على بن سليم بن
حنا ، من أسرة عريقة تولت أرفع المناصب فخر الدين بن الوزير صاحب بهاء الدين على بن سليم بن حنا ، من
أسرة عريقة تولت أرفع المناصب فى الدولة المملوكية وكانوا أهل علم ودين وأدب ، وقد ولد للصاحب تاج الدين
سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م وتوفى سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م ودفن بالقرافة بمصر ، وهو الذى بنى رباط الأتارب .
انظر: المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٢٩ .

(٥) ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٤ ، ص ٧٨ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٦) عن بستان المشوق ، انظر ص من هذا البحث .

(٧) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ . (٨) نفسه ، ص ٤٢٧ .

كما أقيم حول البركة فى العصر المملوكى بعض المنشآت التى أرتبطت بالتزهر فقد بنى الملك الناصر محمد بن قلاوون مسطبة لإطعام الطير بغرض الصيد هناك ، كما بنى ابنه أنوك منظره وحوشاً لتربية الطيور كان يقضى أغلب أوقاته بها مع مغنيه قد شغف بها حباً (١) .

ويبدو أن العمران حول البركة بغرض السكنى قد توقف بعد فترة الازدهار الكبيرة التى عمت البلاد كلها زمن الناصر محمد بن قلاوون ، وخصوصاً أن مصر تعرضت لمحن وشدائد عظيمة منذ مطلع القرن التاسع فهجرت الإقامة حول البركة ، وهناك سبب آخر هو وقوع الاهتمام بعمارة القاهرة نفسها وبعد بركة الحبش عنها لذا فقد ظلت البركة موضع تزهر فقط بقية العصر المملوكى وفى العصر العثمانى .

بركة الشعبية

تسميتها :

سميت بركة الشعبية بهذا الاسم نسبة إلى بنى الشعبية الذين بنو حولها فى زمن الدولة الايوبية والدولة المملوكية . (٢)

موقعها :

تلى هذه البركة بركة الحبش فى موقعها من الجنوب الشمال فهى تقع شمال بركة الحبش فيما بين الهضبة المسماة الرصد (اسطبل عتتر حالياً) وبين جسر الأفرم (٣) (الطريق الزراعى أمام أثر النبى حالياً) . وكان ماء النيل يأتيا من خليجين احدهما يقع قبلها (جنوبها) كان بجوار منظره الصاحب تاج بن حنا المعروفة بمنظره المعشوق (٤) والخليج الآخر هو خليج بنى وائل (٥) من شمالها والذى يغذى بركة الحبش .

= يرجع بناء الاربطة على البركة لأنها امتداد للقرافة الكبرى التى كانت متزهة كبيراً فى العصر المملوكى ، وعن هذا الموضوع أنظر : محمد حمزة ، قرافة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ، ماجستير مخطوط ، (كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٦) (١) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٤٩٢ .

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٥٥ ، المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٩

(٣) ابن دقمان ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٥٥ ، المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٨ وجسر الأفرم كان بظاهر مصر فيما بين المدرسة المعزية برجة الحناء (محلها الآن جامع عابدى بك على كورنيش النيل بمصر القديمة) وبين رباط الآثار . المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ ، والأفرم هو الأمير عز الدين إيبك بن عبد الله الصالحى المعروف بالأفرم الكبير ، كان من كبار امراء دولة المماليك البحرية ، ومن أعماله جسر الأفرم هذا ، كما بنى جامعاً ورباطاً على سفح هضبة الرصد (اسطبل عتتر حالياً) مطلين على بركة الحبش ، بناهما سنة ١٦٦٣هـ / ١٢٦٥م إلى جانب أعماله على بركة الشعبية . وقد توفى سنة ١٢٩٥هـ / ١٢٩٦م . وعنه بالتفصيل انظر : ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ١٣٠ - ١٣٢

(٤) المعشوق هو بستان كبير كان مزروعاً بالأشجار جنوبى الفسطاط من جملة خطة راشدة ، وقد آلت ملكيته عبر =

ويمثل موقع البركة الآن منطقة الزهراء بمصر القديمة (١)

مساحتها وحدودها :

تبلغ مساحة بركة الشيعية أربعة وخمسين فدانا (٢) ، أما حدودها فان الحد القبلى (الجنوبى) كان ينتهى بعضه إلى الجسر الفاصل بين هذه البركة وبين بركة الحبش ، وكان يوجد بهذا الجسر قنطرة يدخل الماء منها إلى بركة الشيعية وباقى هذا الحد أرض ومبانى تخص مناظر المعشوق التى بناها ابن حنا (٣) ، أما الحد البحرى (الشمالى) فكان بعضه جسر يصل بين هذه البركة وبين بركة شطا التى تقع شمالها ، وكان هذا الجسر يعرف بجسر الحيات وكان فى هذا الجسر قنطرة تصل الماء بين البركتين (٤) وقد عرف هذا الجسر باسم جسر السنجارى (٥) عندما بنى منظره عليه ، أما الحد الشرقى للبركة فكان ينتهى إلى الدور والأبنية التى بناها أعيان القضاة والكتاب على حافتها ، أما الحد الغربى فكان ينتهى إلى جرف النيل . (٦)

تاريخ وقف البركة والعمارة عليها :

كانت هذه البركة وقفا للمؤرخ ابن عماتى (٧) سنة ٦٠٦ هـ / ١٢٠٩ م ثم استأجر البركة الأمير عز

=الزمن إلى عدد من الوزراء والأمراء منذ زمن الدولة الطولونية حتى دولة المماليك ، ففى زمن الطولونيين عرف بجنان كهمس بن معمر التوفى ٣١١ هـ ثم عرف بجنان المادرائى المتوفى ٣٤٥ هـ ثم عرف باسم الأمير تميم بن المعز (آخر الخليفة المعز بالله المتوفى ٣٧٤ هـ) ، ثم جده الوزير الفاطمى الأفضل بن أمير الجيوش فعرف به ، وفى زمن الدولة الأيوبية صار من وقف الشيخ الصابونى على بنية وعلى رباطه الذى كان مجاوراً لقبة الامام الشافعى ، ثم فى زمن الدولة المملوكية حكر أرضه صاحب تاج الدين محمد بن حنا وعمر به مناظر ووقفه على رباط الآثار . انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٩ - ١٦٠

= (٥) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٨ - ١٥٩

(١) ذكر سامى نوار فى رسالته "المنشآت المائية" ، ص ١٧٣ " أن بركة الشيعية مكانها اليوم عين الصيرة : ولكن هذا الموقع ليس له أى علاقة بموقع بركة الشيعية التى كانت تقع بمنطقة الزهراء

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٥٥ ، المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٩

(٣) كان فى هذا الحد قديماً ترعة ردمها Rصاحب تاج الدين بن حنا وأقام منشأته هناك .

(٤) كان فى هذا الحد أيضاً ترعة أخرى يجرى ماء النيل فيها إلى هذه البركة ثم ردمها الأمير عز الدين أيبك الأفرم بعد ذلك . المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٩ .

(٥) هو بلد الدين يوسف بن الحسين بن على السنجارى نسبة إلى بلدة سنجان بأقليم الجزيرة ، تولى قضاء المذهب الشافعى بالقاهرة سنة ٦٥٥ هـ فى أثناء سلطنة الملك المنصور على ابن الملك المعز أيبك ، ثم تولى بعد ذلك منصب قاضى القضاة الشافعية ، وقد توفى فى رجب ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م . انظر . ابن تغرى بردى ، السجود الزاهرة ، ج٧ ، ص ٤٢ ، ٢١٩ .

(٦) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٩ ، وقد ذكر المقرئى هذه الحدود القائمة أول العصر المملوكى نقلاً عن نصين لأبن المتوج بينهما فاصل زمنى . وقد وفقت بين النصين فى تعيين تلك الحدود .

(٧) انظر ترجمته فى : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٠

الدين أليك الأفرم فحازها بالجسور والأسوار عن الماء وجعلها بستاناً غرس به الأشجار والكروم وحفر الآبار وزرع بها الشتول والخضروات ، وقد خصص من مساحتها خمسة أفدنة العمارة حولها ، وقد بنى أعيان المصريين من القضاة والكتاب الدور والمناظر حولها (١) ، وكان نتيجة لإقامة الأفرم لجسره الذى عرف أيضاً بجسر الشعبية أن كثر السكان فى المنطقة حينئذ مما حدا بالأفرم أن يبنى مسجداً جامعاً على الجسر لخدمة سكان المنطقة فى سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٤م . (٢)

وقد تخرت الدور والمناظر حول البركة وعلى طول جسر الأفرم نتيجة للمحن التى ألمت بمصر فى بداية القرن ٩هـ / ١٥ م وقد ذكر المقرئى "أن البركة فى أيامه كانت مزارع وبساتين وغير ذلك" (٣).

وقد كانت البركة متزهة لاهالى مصر قبل تحويلها لبستان ، وكانت الشخاتير (٤) (مراكب التزهة) تدخلها ، وظلت موضع تنزه بعد تحويلها لبستان حتى تعرضت للتخريب والدمار ، وتحولت إلى كيانات فى بداية القرن ٩هـ / ١٥ م . (٥)

بركة شطا

الموقع :

كانت بركة شطا تقع شمال بركة الشعبية ، وحدد "المقرئى" موضعها بقوله "هذه البركة موضعها الآن كيمان على يسرة من يخرج من باب القنطرة بمدينة مصر طالباً جسر الأفرم ورباط الآثار" . (٦)

(١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٩ .

(٢) عرف هذا المسجد الجامع زمن المقرئى باسم جامع اللبان نسبة لإقامة الشيخ محمد اللبان الشافعى به ، وقد تخرت وما تحوله عقب المحن التى حلت بمصر سنة ٨٠٦هـ وكذلك لانحسار النيل عنه فبطلت منه الصلاة يوم الجمعة ، ولكن الجامع ظل قائماً بعد ذلك حيث ورد فى وثائق السلطان الغورى . انظر : ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٧٨ ، المقرئى ، ج٢ ، ص ٣٠٣ ، كتاب وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف ص ١٤٦ .

(٣) الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٨ .

(٤) الشخاتير جمع شختور أو شختورة وهى مركب نيلى كان يستعمل للتزهة ، ويبدو مما ذكره المؤرخون عن استعماله فى النيل والبرك والخلجان بالقاهرة ومن صور الرحالة له أنه كان مسلوب الشكل مدبب الطرفين ، وكان طوله يتراوح بين خمسة وعشرة أمتار وعرضه من متر إلى مترين وكان له سار واحد وله من ستة إلى عشرة مجاديف وكان شخص يقف فى مؤخرته بقائم طويل معه يحركه يميناً أو يساراً ، وكان بالجزء الخلفى منه كابينة خشبية (حجرة صغيرة) لها سقف مدبب فتح بكل جانب من جانبيها طاقات (نوافذ) عددها بين اثنين إلى اربعة لها ستائر تغطيها .

(٥) الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٩ .

(٦) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦١ .

وبناءً على ذلك يمكن تحديد موقع هذه البركة الآن بأنها تمثل الجزء الجنوبي من خرطة الشيخ مبارك شمال محطة الزهراء حالياً بمصر القديمة .

وكان الماء يدخل إلى هذه البركة عن طريقين ، الأول من خليج بنى وائل بواسطة بوابخ (أنابيب) والآخر عن طريق قنطرة تتوسط جسر الحيات (١) الفاصل بينها وبين بركة الشعبية جنوبها (٢) .

العمارة حول البركة فى العصر المملوكى :

كانت الدور تحيط بالبركة وكان بجوارها بستان فيه منظره ودراية (٣) . وطاحون وحمام وبظاهر بابه حوض سبيل كان القاضى مخلص الدين الموقع المعروف بالمخلص قد عمرهم ، وكذلك كان يتوسط البركة مسجد يعرف بمسجد الجلالة يتوصل إليه من خلال قناطر . (٤)

وقد تخربت الدور والبساتين حول البركة فى القرن ٩هـ / ١٥م نظراً لأنقطاع الماء عنها وأصبح موضع البركة كيمناً (٥) .

بركة قارون

الموقع والمساحة والحدود :

حدد 'المقريزى' موقع هذه البركة بقوله ' هذه البركة موضعها الآن فيما بين حدرة ابن قميحة خلف جامع بن طولون وبين الجسر الأعظم الفاصل بين هذه البركة وبركة الفيل ' . (٦)

وحدره ابن قميحة ذكرها كلاً من ابن دقماق والمقريزى (٧) ونستدل من كلامهما ومن مسحنا

(١) ورد جسر الحيات باسم جسر الجنات فى كتاب الانتصار لابن دقماق ، ج٤ ، ص ٥٥ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦١ ، ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٥٥ .

(٣) الدراية نوع من الابواب الحشبية . انظر :

عبداللطيف ابراهيم ، الوثائق فى خدمة الآثار ، 'بحث فى كتاب دراسات فى الآثار الاسلامية' ، (القاهرة ، ١٩٧٩) ، ص ٤٠٧ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦١ ، ابن دقماق ، الانتصار ، ج٤ ، ص ٥٥ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦١ .

* كان لانحسار الماء عن الضفة الشرقية للنيل فى بداية القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى عظيم الأثر فى خراب الخطط والمنشآت الواقعة على الضفة الشرقية ، وبالتالي تأثرت البرك الثلاث المذكورة بذلك لصعوبة مدها بالماء عن طريق خليج بنى وائل الذى لم يهتم أحد بمده وتنظيفه من أوله حيث طغى الرمل عليه ، بالإضافة للمحزن الأخرى التى ذكرها المقريزى والتى بدأت سنة ٨٠٦هـ ، وإذا كنا قد رأينا عودة العمران مرة أخرى أيام المؤيد شيخ للخطط المواجهة لجزيرة الروضة والجزيرة الوسطى فإن المنطقة جنوب القساطل والتى تشمل البرك الثلاث المذكورة أنفاً لم تأخذ حظها من التعمير مرة أخرى . وانظر بالتفصيل الفصل الاول .

(٦) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦١

(٧) نفس المصدر ، ج١ ، ص ٢٩٩ ، ٣٠٤ . الانتصار ، ج٤ ، ص ١٢٤ ، ج٥ ، ص ٤٥ .

للمنطقة أن حدرة ابن قميحة لا تزال على حالها حتى الآن ، وهى أرض منحدره من تلال زينهم وينزل منها إلى شارع زينهم المتعامد على أول شارع زين العابدين (١) .

أما الجسر الأعظم (٢) فيقع مكانه الآن شارع مراسينا الذى يمتد من ميدان السيدة زينب حتى جامع سلار وسنجر الجاولى .

وعلى ذلك تبدو البركة فى زمن المماليك تشغل مساحة كبيرة تقدر بحوالى خمسة عشرة فدانا يحدها شرقاً حافة جبل يشكر وحدرة ابن قميحة وغرباً كان يحدها بساتين وأرض حكرت فى زمن الناصر محمد بن قلاوون وبني عليها ، وشمالاً كان يحدها الجسر الأعظم .

ويمثل موضع البركة اليوم المنقطة الممتدة بين شارع زينهم الحديد جنوباً وشارع سلامة شمالاً وشارع الوابور شرقاً وحارة الشيخ البغال وسيدى زينهم غرباً .

أسماء البركة :

كانت بركة قارون تعرف أيضاً أيام المماليك باسم بركة الفيل الصغرى ، كما كانت تعرف أيضاً بأسم بركة قراجا (٣) ، وقد وقعها الرحالة نيبور الذى زار مصر سنة ١١٧٥ - ١١٧٦ هـ / ١٧٦١ م فى خريطته بأسم بركة أيوب بك ورمز لها بالحرف (y) نسبة لأيوب بك (٤) الذى كان يملك

(١) ذكر المرحوم "محمد رمزى" أن حدرة ابن قميحة كانت واقعة على الحافة الغربية من جبل يشكر فى الجهة الجنوبية الغربية من قلعة الكباش ، ومكانها الآن الموضع المنحدر من تلولى زين العابدين حيث ينزلون منها إلى خطى البغالة والمذبح فى نقطة تلاقى شارع العسكر بشارع أمير الجيوش فى منطقة التلولى المذكورة بقسم السيدة زينب بالقاهرة . انظر : تعلية على النجوم ، ج٧ ، ص ١٩٧ .

* وإنى وإن كنت اتفق مع ما ذكره المرحوم رمزى عن موقع حدرة قميحة بشكل عام إلا أنى أرى أن التحديد الذى ذكرته أعلاه هو الذى قصده المقرئى عنها .

* كما لم يتوصل الباحث فهمى عبدالعليم إلى موضع الحدرة بالضبط حيث اعتقد أنها تمثل أول طريق بيرم التونسى (سكة المذبح سابقاً) بمنطقة زينهم . انظر : العمارة الإسلامية ، (دكتوراه) ، ٧١ .

* والجدير بالذكر هنا أن "على باشا مبارك" اعتقد خطأ أن حدرة ابن قميحة هذه هى الحدرة الواقعة فى أول شارع قلعة الكباش بجوار جامع صرغتمش من الجهة الغربية (شارع الدحديرة الآن) . انظر : الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ٣١٨ .

* كما أن مصلحة التنظيم أطلقت اسم الحدرة على رفاق فى منطقة النمامية بشارع السيدة عائشة جنوبى جامع البردبنى بقسم الخليفة وهذا خطأ أيضاً .

(٢) قال المقرئى عن الجسر الأعظم "أن هذا الجسر فى زماننا هذا قد صار شارعاً مملوكاً يشى فيه من الكباش إلى قناطر الباع وأصله جسر يفصل بين بركة قارون وبركة الفيل وبينهما سرب يدخل منه الماء وعليه أحجار يراها من يمر هناك" . الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦١ .

(٤) كان أيوب بك من مماليك محمد بك أبوالذهب ، وقد وصفه الجبرتنى بأنه كان خيراً ، وقد تسرى أمرة الحج =

داراً وحوشاً على الشاطئ الشرقى للبركة ، ولاتزال المنطقة تعرف للآن بحوش أيوب بك أمام الساقية الأثرية .

وقد عرفت البركة فى العصر العثمانى بأسم بركة الملا ، وقد وقعت بهذا الاسم على خريطة الحملة الفرنسية ^(١) ، ثم عرفت بعد ذلك باسم بركة البغالة ^(٢) ، نسبة لضريح ومسجد الشيخ البغال .

العمارة حول بركة قارون :

كانت البركة محفوفة بالعمائر والبساتين أيام الطولونيين والأخشيديين لأنها كانت داخلة ضمن نطاق وحدود مديتى العسكر والقطائع ^(٣) ، ثم خربت بخرابهما .

وفى بداية دولة المماليك البحرية كان ماحول البركة خالياً من المباني وكان يقع غربها بستان كبير ، وابتدأ البناء حولها من سنة ٧٢١هـ / ١٣٢١م فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون حيث عمت القاهرة الكبرى نهضة عمرانية كبيرة أيامه ، وأول من عمر حول البركة هو الأمير أقبغا عبدالواحد ^(٤) الذى أتاح له الناصر محمد حكر أرض البستان الذى يقع غربى البركة فعمره وعرف بحكر أقبغا وأذن للناس بالنباء فيه فبنى فيه الأمراء والجند الدور والمساكن ، وسكن هناك عدد كبير من التتر والوافدين من أواسط آسيا فى ذلك الوقت وانتشأ بعمارة هذا الحكر سوق وجامع ^(٥) واتصلت عمارة الحكر بعمارة خط قناطر السباع وخط السبع سقايات المجاورين له ^(٦) . وكانت البركة وما حولها عامرة فى زمن المقرئى ^(٧) (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٠م)

فترة ، وكان مهتما بالعلم والعلماء وقد توفى سنة ١٢١٥هـ . انظر : عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٤٥٣ - ٤٥٤ ، مظهر التقديس ، ص ٢٢٥ .

(١) انظر الخريطة تحت رقم ١٥٢ فى المربع 12 - X . (٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ٣١٩ .
(٣) عن بركة قارون ومن الطولونيين والأخشيديين ، انظر : Salmon G., Etudes Sur La Topographie du : Caire- La Kal'at al- Kabchet la Birkat al Fil, IFAO le Cairo, 1902.
العمرائى لعواصم مصر الإسلامية .

(٤) هو الأمير علاء الدين أقبغا عبدالواحد استدار السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وقد وصف بالظلم ، واليه تنسب المدرسة الأقبغوية التى على يسرة الداخل من باب الجامع الأزهر المعروف بباب الزينين ، وقد قُتل سنة ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م . انظر بالتفصيل المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٦ .

(٥) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ١١٦ .

(٦) خط قناطر السباع يمثل موضحة الآن منطقة ميدان السيدة زينب بالقاهرة ، اما خط السبع سقايات فكان يقع غرب خط قناطر السباع ومكانه الآن حارة السيدة زينب وفروعها وكان يمتد جنوباً حتى يصل إلى قرب قنطرة السد التى كانت تقع أمام جامع المواردى الآن بشارع الخليج المصرى (شارع بورسعيد) . وكان حكر أقبغا يمتد شمال غرب خطى قناطر السباع والسبع سقايات . ومن الأخطاء التى وقعت فيها مصلحة التنظيم أنها أطلقت اسم شارع السبع سقايات على شارع يصل بين شارع القصر العينى وسكة حديد حلوان غربى الخليج بينما كان خط السبع سقايات شرقى الخليج . انظر : محمد رمزى ، مذكر ببيان الأغلاط التى وقعت من مصلحة التنظيم فى تسمية الشوارع والطرق بمدينة القاهرة وضواحيها ، (ط دار الكتب ، ١٩٢٥) ، ص ١٢-١٣ .

(٧) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ص ١٦١ .

وكان لسلطين المالك عمائر ومنشآت تطل على البركة مباشرة كمنشأة المؤيد شيخ^(١) وكذلك في المنطقة المحيطة بالبركة مثل منشآت قانصوه الغورى^(٢) .

وفى العصر العثماني استمر العمران قائماً حول البركة ، وكانت مساحتها تتناقص مع الزمن حيث كان الناس يقتطعون أجزاء منها ويبنون عليها منازلهم ، بالإضافة لتحويل مساحات منها لبساتين .^(٣) وقد بقيت من البركة مساحة صغيرة أيام "على باشا مبارك" بغير بناء^(٤) إلا أنها ردمت بعد ذلك وبنى عليها وبذلك زالت آثار البركة كلية .

بركة الحمصاني

هذه البركة لم يذكرها المقرئى وإنما ذكرت ببعض الوثائق ، ففى وثيقة المؤيد شيخ ورد أنه كان له بناء^(٥) بخط الجسر الأعظم بظاهر القاهرة ، وعن حدوده ذكر "أن الحد القبلى ينتهى إلى الطريق تجاه الكبش والمصلاة والحد البحرى ينتهى إلى بركة الحمصانيين والحد الشرقى ينتهى إلى الطريق السالكة إلى قناطر السباع والقلعة ، وفى هذا الحد خمسة عشر مقعداً واثنى عشر مخزناً بأبواب مقنطرة كاملة الابواب والحد الغربى ينتهى إلى البركة"^(٦) .

وبناء على ماورد بهذه الوثيقة نقول أن بركة الحمصانيين هذه تقع الآن بمنطقة حوش أيوب بك^(٧) بالسيدة زينب المظل على قلعة الكبش أمام الساقية الأثرية (أثر رقم ٤٣٢) مباشرة .^(٨)

(١) كان بناء المؤيد شيخ عبارة عن مصبغة ورد ذكر حدودها كالتالى : الحد القبلى ينتهى إلى حدود وقف ابن صورة ، والحد البحرى ينتهى إلى مكان يعرف بوقف تاج الدين السنسى والحد الشرقى ينتهى إلى الطريق السالكة إلى مصر وغيرها وفيه الباب وحانوتان والحد الغربى ينتهى إلى البركة المعروفة ببركة قارون . وثيقة المؤيد رقم ٩٣٨ أوقاف سطور ١٨٦-١٨٨ ، نشر فهمى عبدالعليم ، المرجع السابق ، ص ١٩٨ . ويبدو مما سبق أن هذه المصبغة وبما كانت تقع بالمنطقة التى بها جامع السيدة زينب .

(٢) كتاب وقف السلطان الغورى ، رقم ٨٨٢ أوقاف .

(٣) انظر خريطة الحملة الفرنسية .

(٤) الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ٣١٩ .

(٥) هذا البناء عبارة عن مخزن للسلاح والعتاد العسكرية خاص بالسلطان المؤيد فهو يحوى طبلخانة ومخازن للسلاح وبيت الزردخانه وأماكن المخاوندار وغير ذلك ، انظر الوصف الوثائقى للبناء فى :

وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف سطور ١٨٩ - ١٩٥ ، نشر فهمى عبدالعليم ، المرجع السابق ١٩٨ - ١٩٩ .

(٦) نفس الوثيقة سطور ١٩٦ - ١٩٨ ، نفس المرجع ، ص ١٩٩ . ، وانظر أيضاً : على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٥ ، ص ٢٨٨ .

(٧) وقع حوش أيوب بك على خريطة الحملة الفرنسية برقم ٢٠٧ فى المرجع V-11

(٨) يشغل معظم مساحة البركة الآن بمدرسة أم المؤمنين الاعدادية بنات وكذلك مجموعة العمارات التى حول المتاجر الشعبية بشارع أيوب المتفرع من شارع مراسينا بالسيدة زينب .

ومن تطبيق حدود بناء المؤيد شيخ الآن نرى أن الحد القبلى له ينتهى إلى شارع أيوب بك تجاه الكيش أما الساقية وأن المصلاة المذكورة بهذا الحد المقصود بها جامع لاجين السيفى (أثر رقم ٢١٧) لأننا نراه موقع باسم جامع المصلى فى خريطة الحملة الفرنسية تحت رقم ٢٠٤ فى المربع U-11 وان شارع مراسينا (عبدالمجيد اللبان حالياً) الذى تقع واجهة الجامع به قد وقع على خريطة الحملة الفرنسية باسم سكة المصلى تحت رقم ٢٠٦ فى المربع U-11 ، وإن الحد البحرى (الشمالى الغربى) للبناء الذى كان ينتهى للبركة يقع الآن فى فناء مدرسة أم المؤمنين الاعدادية بنات ، وأن الحد الشرقى يمثل الآن شارع مراسينا الذى ورد فى الوثيقة أنه الطريق السالكة إلى قناطر السباع (ميدان السيدة زينب حالياً) والقلعة ، والحد الغربى يقع بفناء المدرسة المذكورة .

وقد ذكرت بركة الحمصانى أيضاً فى كتاب وقف السلطان الغورى الذى أوقف بناءً عبارة عن حوانيت ومخازن وقاعات وزربية مطلة على البركة المعروفة بالحمصانى ^(١) على الأرض المحتكرة ظاهر القاهرة المحروسة بخط الجسر الأعظم قريباً لقناطر السباع وحدود هذا البناء وردت كالتالى : الحد القبلى ينتهى بمكان يعرف بالركنى عمر الاستادار ، والحد البحرى ينتهى بمكان يعرف بعبد الله النشار ، والحد الشرقى ينتهى إلى شارع السلوك وفيه الواجهة الشرقية والحوانيت والبابان والرواشن والحد الغربى ينتهى إلى البركة المذكورة (بركة الحمصانى) ^(٢) ، وبناء على ذلك نرى أن بناء الغورى هذا كان يقع شمال غربى بناء المؤيد ويطل على شارع مراسينا .

وقد اعتقد بعض الباحثين أن بركة الحمصانى هذه هى بركة قارون ^(٣) ، ولكننا نقول أنهما مختلفتان ، وأن بركة الحمصانى كانت تقع شمال شرق بركة قارون وأنهما كانتا موجودتين فى العصر المملوكى الجركسى كل على حده فى وثيقة المؤيد شيخ ووثائق الغورى ، ويبدو أنه قبل ذلك أن بركة الحمصانى هذه كانت جزءاً من بركة قارون واقتطعت فى العصر المملوكى الجركسى وصارت قائمة بذاتها . وقد تحولت أرض هذه البركة إلى بستان بعد ذلك مما نراه بخريطة الحملة الفرنسية . ^(٤)

(١) انظر الوصف الوثائقي للبناء فى كتاب وقف الغورى رقم ٨٨٢ ق أوقاف ، ١٠٥ ، الوثيقة رقم ٤٥٢ ج أوقاف .

(٢) كتاب وقف الغورى رقم ٨٨٢ ق أوقاف ، ص ١٠٥ .

(٣) ذكر الباحث "عوض الامام" فى رسالته "أن المقرئى أخطأ عندما ذكر أن شارع الجسر الأعظم كان يفصل بين بركة الفيل وبركة قارون وأن الصواب أن شارع الجسر الأعظم يفصل بين بركة الفيل وبركة الحمصانى على ضوء ما ورد بوثيقة الغورى . انظر : الأصول الوثائقية الجامعة لأوقاف السلطان الغورى ، دكتوراه "مخطوطة" (كلية الآداب ، جامعة أسيوط ، ١٩٨٨) ص ١٧١ الحاشية .

ولكننا نقول أن المقرئى لم يخطئ لأن الزميل الباحث لم يطلع على وثيقة المؤيد التى ورد بها ذكر لكلتا البركتين أى انهما مختلفتان ، وبغض النظر عن هذا السبب الرئيسى فلطالما ورد أكثر من اسم لمكان واحد .

(٤) بدراستنا لخريطة الحملة الفرنسية نجد بها بركة موقعة باسم بركة طولون برقم ٢٣٨ فى المربع V-10 وتقع بأعلى الكيش ، ولم يذكروا هذه البركة ضمن حصصهم للبرك لأن هذه البركة ليست بركة طبيعية من التى تأخذ مياهها من الخلدجان وإنما كانت عبارة عن منطقة غائرة محاطة بتلال مرتفعة بأعلى الكيش خلف جامع قايى (أثر رقم ٢٢٢) وأنى أرى أنها قد استخدمت كمخزن ومنهل للمياه لياخذ سكان الكيش حاجتهم للماء منها وكان يأتيها عن طريق الساقية الأثرية (أثر رقم ٤٣٢) .

(٦) بركة الفيل

بركة الفيل من أقدم برك القاهرة ذكراً في التاريخ ، وكانت من أعظم متزهاتها حتى نهاية القرن الماضي .

سبب تسميتها :

اختلف فى سبب تسمية البركة ببركة الفيل فهناك رأى ينسبها إلى رجل أسمه الفيل كان أحد أصحاب أحمد بن طولون ^(١) (٢٥٤ - ٢٦٩ هـ / ٨٦٨ - ٨٨٢ م) ، وهناك رأى ثانى للأستاذ المرحوم «محمد رمزى» ينسبها إلى دار الفيلة التى كانت واقعة على حافة البركة ^(٢) وهناك رأى ثالث يذكر أنها قبل لها بركة الفيل لأنه كان يسبح فيها فيل كبير يخرج الناس لرؤيته . ^(٣)
أما اللفظ الوثائقى فى زمن المماليك والعثمانيين فهو إما بركة الفيل أو بركة الافيلة . ^(٤)

موقع البركة ومساحتها وحدودها :

كانت بركة الفيل تقع فيما بين مصر الفسطاط والقاهرة ، وكانت مساحتها فى العصر الفاطمى كبيرة جداً ولم يكن عليها ببيان حتى عام ٦٠٠ هـ وكانت تعتبر من ظواهر مدينة القاهرة ^(٥) ، وفى ^(١) القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص ٣٦٢ .
^(٢) القاموس الجغرافى ، القسم الأول ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

* وقد ذكر الاستاذ محمد رمزى «أن» دار الفيلة هذه كانت واقعة على حافة البركة وتعود إلى زمن خماروية بن أحمد بن طولون (٢٦٩ - ٢٨٢ هـ / ٨٨٢ - ٨٩٥ م) حيث أنه كان مغرمًا باقتناء الحيوانات من السباع والتمور والفيلة والزرافات وغيرها ، وأنشأ لكل منها داراً خاصة له ومنسبها دار الفيل هذه على حافة البركة من الجهة القبلىة (الجنوبية) الشرقية حيث شارع نور الظلام الآن وكان الناس يقصدون البركة للتنزه والفرجة على الفيلة فاشتهرت بينهم ببركة الفيل من وقتئذ إلى اليوم .

* وذكر الاستاذ رمزى أيضاً فى تعليقه على النجوم ، جـ٧ ، ص ٣٦٧ «أن دار الفيلة هذه التى على بركة الفيل غير دار الفيل التى كانت على بركة قارون واشتراها كافور الاخشيدى أمير مصر من حبس بنى مسكين فهذه الدار كانت واقعة على سكة المديح من الجهة الشمالية منها جنوبى خط البغالة بقسم السيدة زينب» .

* ولكننى لا أدرى من أى مصدر استقى الاستاذ رمزى معلوماته عن دار الفيلة وحدد مكانها بشارع نور الظلام ، فقد ذكر «ابن دقماق» فى كتابه الانتصار جـ٤ ، ص ١٢٥ «أن دار الفيل الأولى كانت على بركة قارون فى جنان بنى مسكين ، وفى زمن كافور الاخشيدى نقلت الفيلة إلى الدار التى بالقرب من الجامع الطولونى على جبل يشكر قبلى مناظر الكبش» .

* فعلى ذلك تكون الدار بعيدة عن الموضع الذى حدده الاستاذ رمزى بشارع نور الظلام .

^(٣) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الأول ، ص ١٥٣ .

^(٤) كتاب وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف . ، حجة وقف الأمير حسن كتحدا عزبان رقم ١٧٦ أوقاف .

^(٥) المقرئزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ١٦٢ .

العصر المملوكى كانت حدودها تمتد من بستان الحبانية شمالاً^(١) ، الى بستان سيف الإسلام شرقاً^(٢) إلى تحت الكبش إلى الجسر الأعظم الفاصل بينها وبين بركة قارون جنوباً إلى الخليج المصرى غرباً^(٣) . وكانت مساحتها تقدر بنحو أربعين فداناً فى العصر المملوكى ، وتقلصت مساحتها مع الزمن حتى وصلت إلى الشكل البيضاوى الذى وقعت به فى خريطة الحملة الفرنسية (برقم ١٣٦ فى المربعين T.8, T.9 ، ورقم ١٦ فى المربعين R-9, Q-9 .

وكانت البركة تشغل من القاهرة المساحة التى تحد اليوم من الشمال بسكة الحبانية ومن الغرب بشارع درب الجماميز فشارع اللبودية وشارع الخليج المصرى ثم من الجنوب بشارع عبدالمجيد اللبان (مراسينا سابقاً) ثم يميل الحد إلى الشمال الشرقى حتى مدرسة أربك اليوسفى حتى يتقابل مع أول شارع نور الظلام ويسير فيه إلى أول شارع الألفى فشارع مهذب الدين الحكيم فسكة عبدالرحمن بك وما فى امتدادها إلى الشمال حتى تقابل الحد البحرى (الشمالى الغربى) .^(٤) (شكل ٢٦) .

إيقاف البركة :

وعن تاريخ هذه البركة نجد أنها فى العصر المملوكى كانت وقف أيتام الملك الظاهر بيبرس^(٥) ثم استولى الأمراء على أجزاء من مساحتها بعد ذلك^(٦) واستمر التعدى على أرضها ونسب إيقافها .

تغذية بركة الفيل بالماء :

كانت بركة الفيل تغذى بالماء فى العصر المملوكى من موضعين ، الأول من ناحية الجسر الأعظم تجاه الكبش عن طريق مجرى مائى مغطى بمجاديل حجرية ، وقد ذكر «المقريزى» أنها كانت قديماً

(١) بستان الحبانية كان أحد البساتين الواقعة بظاهر القاهرة الفاطمية خارج باب رويلة وكان واقعاً شمال بركة الفيل ، وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى أحد البطون العربية من طى ، وقد أوقفه السلطان الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي على خاتنة سعيد السعداء ، وفى العصر المملوكى فصل الناس بين بستان الحبانية وبين بركة الفيل بطريق يسلك المارة فيها ، وهذا الطريق يمثل الآن سكة الحبانية . انظر :

المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٣٣ ؟

(٢) بستان سيف الإسلام كان أحد البساتين بظاهر القاهرة الفاطمية وكان يقع شرقى بركة الفيل ، وقد عرف بذلك الاسم نسبة إلى سيف الإسلام هفتكين بن نجم الدين أيوب أخو صلاح الدين . انظر : المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٣٣ ، ٣٩٧ .

(٣) ابن دقماق ، الانتصار ، ج٥ ، ص ٤٥ .

(٤) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق١ ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ، تعليقه على النجوم ، ج٧ ، ص ٣٦٧ - ٣٦٦ .

(٥) ابن الجيعان ، التحفة السنية ، ص ٦ .

(٦) انظر ما يلى ، ص ١٦٦ .

قنطرة كبيرة تهدمت فعمل لها مجاديل حجرية ، وكانت هذه القنطرة أو المجرى تتصل بركة قارون^(١) التي تأخذ مياهها من عند قنطرة السد .^(٢)

أما الموضع الآخر لتغذيتها فمن طريق قبو (سرب) يتصل بالخليج الكبير كان أصله قنطرة تعرف بالجنونة كانت قد تهدمت في زمن المقریزی ، وذكر أنه تبقى منها بقية عقد ناحية الخليج كان قد عقده الأمير الطيرسي وبنى فوقه متزهاً^(٣) .

ومن الطريف أن اسم قنطرة الجنونة هذا يرتبط بإسم بانيها وهو الأمير الطيرسي^(٤) ، فكان الماء يندفع من الخليج ليملا البركة التي كانت منخفضة بشدة وبسرعة مجنونة فسموا القنطرة المجنونة ، وكان الأمير الطيرسي هذا يعتربه الجنون وقد تلقب بالجنون فجاء هذا الارتباط^(٥) ، وقد كان لهذا الأمير محبة زائدة للفقراء والصوفية لذا فقد بنى هذه القنطرة لأجل الشيخ شهاب الدين الحنبلي العابر^(٦) ولفقرائه ، وقد نظم الشعراء في ذلك الموضوع أبياتاً يتفكهون بها منها قول الشاعر علم الدين بن الصاحب^(٧) :

ولقد عجبت من الطيرس وصحبه . . . وعقولهم بعقوده مفتونة
عقدوا عقوداً لا تصح لأنهم . . . عقدوا لجنون على مجنونة^(٨)

وموضع قنطرة المجنونة الآن يقع بشارع الخليج المصري في نقطة بجوار جامع ذو الفقار بك (أثر رقم ٤١٥) الشهير بجامع غيطاس بك من الجهة الجنوبية له^(٩) . وكانت هذه القنطرة موجودة حتى

(١) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) محمد رمزي ، القاموس الجغرافي ، ق١ ، ص ١٥٢ .

(٣) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٢ .

(٤) الطيرس هو الأمير سيف الدين الطيرس بن عبدالله المنصوري (نسبة إلى السلطان المنصور قلاوون) كان يشغل منصب والي القلعة ، وكان من أعيان الأمراء بمصر ، وكان متديناً وله محبة زائدة بالفقراء «الصوفية» إلا أنه كان مشدداً في احكامه وخصوصاً مع النساء ، وقد توفي سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م . انظر : المقریزی ، السلوك ، ج٢ ، ص ٥١ . ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج٣ ، ص ٤٨ ، النجوم الزاهرة ، ج٨ ، ص ٢٣٠ .

(٥) هذا رأى المرحوم محمد رمزي ، انظر القاموس الجغرافي ق١ ، ص ١٥٢ .

(٦) هو شهاب الدين أحمد بن عبدالرحمن عبدالنعم بن نعمة بن سلطان بن سرور التابلي الحنبلي العابر ، وقد سمي بهذا الاسم لأنه يعبر الرويا وصنف فيها . وقد توفي سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م . انظر : المقریزی ، السلوك ، ج١ ، ص ٨٥٠ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافي ، ج٣ ، ص ٤٨ ، النجوم ، ج٨ ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٧) هو علم الدين أحمد بن يوسف عبدالله بن الصاحب ، توفي ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م . انظر : ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج٣ ، ص ٤٩ ، الحاشية .

(٨) المقریزی ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٢ ، ابن تغرى بردى ، المنهل ، ج٣ ، ص ٤٩ ، النجوم ، ج٨ ، ص ٢٣٠ .

(٩) محمد رمزي ، تعليقه على النجوم ، ج٨ ، ص ٢٣٠ .

آخر القرن الماضى حيث ذكر «على باشا مبارك» أن الماء كان يصل منها إلى جنانين المنزل والقصور أمامها وإلى البجمون الباقى من بركة الفيل . (١)

الزراعة ببركة الفيل :

كانت بركة الفيل من ضواحي القاهرة ، واعتبرت من النواحي ذات الوحدة المالية المقرر على أراضيها الخراج سنوياً ، وكانت بركة الفيل منخفضة يغمرها ماء النيل عن طريق الخليج المصرى وقت الفيضان ، وبعد نزول الماء كانت تزرع أصناف شتوية ، وكان أشهر محصولاتها القسوط المعروف بالبرسيم حيث كان يستهلك فى تغذية دواب القاهرة ، وظلت البركة معتبرة فى دفاقر المساحة من النواحي المربوط على أراضيها الخراج ولم يحذف اسمها من جداول اسماء النواحي إلا بعد أن تحول معظم أراضيها إلى مساكن . (٢)

انتهاء بركة الفيل :

كانت بركة الفيل كبيرة المساحة كما ذكرت آنفاً ، وبدأ البناء حولها من بداية القرن ٧ هـ / ١٣ م، ثم اقتطعت منها مساحات وتوالى البناء عليها طوال العصرين المملوكى والعثمانى حتى وصلت الى المساحة التى نراها برخطة الحملة الفرنسية المرسومة سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٠٠ م ، ثم ما لبثت هذه المساحة أن بنى عليها الخديوى عباس حلمى الأول (١٢٦٥ - ١٢٧١ هـ / ١٨٤٨ - ١٨٥٤ م) سراى ذات حديقة كبيرة وهى التى كانت مسماه سراى الخلمية ، وفى سنة ١٣١٢ هـ / ١٨٩٤ م قسمت أرض الحديقة ، وفى سنة ١٣٢٠ هـ / ١٩٠٢ م ، هدمت السراى وقسمت أراضيها أيضاً وبيعت جميع القطع وأقيمت عليها عمارات حديثة تعرف بين أخطاط القاهرة بالخلمية الجديدة (٣) .

العمارة حول بركة الفيل فى العصر المملوكى :

تمتعت بركة الفيل فى العصر المملوكى بأهمية عظيمة ، فبنى حولها السلاطين والأمراء وأعيان الدولة القصور ذات البساتين والمناظر والدور الكبيرة من جميع جهاتها ، وكذلك بنيت حولها المساجد والخانقاوات والمدارس والزوايا والحمامات .

وكان ما حول البركة حتى بداية الدولة الأيوبية بساتين ، ثم بدأ الملوك والأمراء الأيوبيين يحفون شواطئها بمناظر الفرجة ، ثم بدأ البناء بتلك البساتين بدرجة قليلة بعد سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٢ م حتى

(١) الخطط التوفيقية ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ .

(٢) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق ١ ، ص ١٥٢ ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٦٦ .

(٣) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق ١ ، ص ١٥٢ ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، جـ ٧ ، ص ٣٦٦ .

كانت النهضة العمرانية الكبيرة حول البركة فى فترة حكم السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثالثة حيث عمرت القاهرة وظواهرها عمارة كبيرة وامتد العمران إلى بر الخليج العربى الذى كان خالياً من المباني ، وحيث حكرت أراضى البساتين والأرض الفضاء حول البركة واختطت بها الخطط والأحياء والحارات والدروب ، وقد تميزت العمائر بالثراء الشديد والتأنق وعظمة وفخامة العمارة وجمال وروعة الزخرفة فصارت بركة الفيل متنزهاً عظيماً يسكن حولها الطبقة المتميزة العليا فى المجتمع المصرى فى العصر المملوكى ، واستمر ذلك الوضع الطبقي فى العصر العثمانى .

ومن الخطط التى عمرت فى العصر المملوكى حول البركة خط قبر الكرماني بالجانب الغربى منها فيما بينها وبين الخليج وكان من أعمار خطط القاهرة ، وفى الجانب الشرقى لها حكرت أرض بستان سيف الاسلام وعمر به خط درب ابن البابا وحكر الخازن ، وفى الجانب الجنوبى للبركة عمر خط الجسر الاعظم وفى الجانب الشمالى عمرت حارة الحباينة .

أ - العمارة بالجانب الشرقى والجنوبى الشرقى للبركة :

ظل الجانب الشرقى للبركة خالياً من البناء حتى بداية القرن ٨ هـ / ١٤ م ، وفى فترة حكم الناصر محمد حكرت البساتين شرقى البركة وعمرت بكثافة وصارت من أعمار خطط القاهرة ، وقد عمر هناك حكر الخازن فى الجزء الجنوبى الشرقى وخط درب ابن البابا شرقية .

وحكر الخازن هذا ينسب للأمير علم الدين سنجر الخازن^(١) والى القاهرة أيام الناصر محمد ، وقد قال «المقريزى» عن هذا الحكر : «هذا المكان فيما بين بركة الفيل وخط الجامع الطولونى ، كان من جملة البساتين ثم صار اصطبلًا لخيول الممالك السلطانية ، فلما تسلطن العادل كتبغا أخرج منه الخيول وعمله ميداناً يشرف على بركة الفيل سنة ٦٩٥ هـ ، ونزل إليه ولعب بالأكرام أيام سلطنته كلها إلى أن خلعه الملك المنصور لاجين وقام فى الملك من بعده فأهمل أمره وعمر فيه والى القاهرة

(١) هو الأمير علم الدين سنجر بن عبدالله الخازن والى القاهرة ، كان من عماليك الملك المنصور قلاوون ، وفى زمن الملك الأشرف خليل بن قلاوون ترقى وصار خازناً ثم شاد الدواوين ثم ولى الكشف بالهنسا بالوجه القبلى ثم ولى القاهرة وشد الجهات وأقام عدة سنين حتى عزل عن ولاية القاهرة سنة ٧٢٤ هـ ، وقد قاد مع والى قوص حملة لغزو النوبة فى عسكر كبير ، وكان حسن السيرة والسياسة والاختلاق ، واليه ينسب حكر الخازن هذا على بركة الفيل ، وكان له من الآثار مسجد فوق الدرب الذى استجده بالحكر وكان له خاقاه ورياط وتربة دفن بها بالقرب من الامام الشافعى ، وقد توفى عن ٩٠ عاماً فى يوم السبت ٨ جمادى الأولى سنة الأولى سنة ٧٣٥ هـ .
انظر : المقريزى ،

الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٥ ، ٤٢٨ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ . ابن حجر العسقلانى الدرر الكامنة ، ج ٢ ، ص ١٧٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٠٥ - ٣٠٦ .

بيتاً فعرف حيثئذ بحكر الخازن وتبعه الناس فى البناء هناك وأنشئوا فيه الدور الجليلة فصار من أجل
الاحطاط وأعمارها وأكثر من يسكن به الأمراء والماليك» (١)

وذكر «المقرئى» أيضاً حكر الخازن فى كلامه عن ميدان بركة الفيل وذكر أنه كان مجاوراً لاصطبل
قصر بكتمر الساقى (٢) الذى حل محله الآن الخوض المرصود ، كما ذكر أيضاً أن المدرسة البشيرية
(أثر رقم ٢٦٩) تقع بحكر الخازن (٣) .

وبما سبق يتبين أن حكر الخازن يقع بالجانب الجنوبي الشرقى لبركة الفيل ويمثله الآن المنطقة السكنية
المحصورة بين شارع الخضيرى جنوباً حتى مدرسة بشير الجمدار شمالاً . (٤)

أما خط درب بن البابا فقال عنه المقرئى : «هذا الخط يتوصل إليه من تجاه المدرسة البندقدارية
بجوار حمام القارقانى ويسلك فيه إلى خط واسع يشتمل على عدة مساكن جليلة ، ويتوصل منه الى
الجامع الطولونى وقناطر السباع وغير ذلك ، وكان هذا الخط بستاناً يعرف ببستان أبى الحسين بن
مرشد الطائى ، ثم عرف ببستان نامش ، ثم عرف أخيراً ببستان سيف الإسلام طغتكين بن أيوب
وكان يشرف على بركة الفيل وله دهاليز واسعة عليها جواسق تنظر الجهات الأربع ، ويقابله حيث
الدرب الآن المدرسة البندقدارية وما فى صفها الى الصليبية بستان يعرف ببستان الوزير بن المغربى وفيه
حمام مليحة ويتصل ببستان ابن المغربى ببستان غرف أخيراً ببستان شجر الدر وهو حيث الآن سكن
الخلفاء بالقرب من المشهد النقيى ويتصل ببستان شجر الدر بساتين إلى حيث الموضع المعروف اليوم

(١) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٥ .

(٢) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٣) الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

(٤) ذكر «محمد رمزى» فى تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٠٦ «أن الأرض التى كان عليها حكر الخازن
واقعة فى المنطقة التى لمحمد اليوم من الشرق بشوارع أربك وحارة نجم الدين ومن الشمال بحارة نجم الدين أيضاً
ويعطف حمام بابا ومن الغرب شارع محمد قندى باشا ومن الجنوب شارع الخضيرى بالقاهرة» .

* ولكن بالرجوع الى المصادر والوثائق المملوكية لمجد أن أرض حكر الخازن كانت أكبر من تلك المساحة التى حدده
الاستاذ رمزى لأنها كانت تمتد شمالاً حتى مدرسة بشير الجمدار التى كانت واقعة بأرض الحكر .

* وذكر المرحوم «رمزى» أيضاً فى نفس الصفحة «وقد اطلقت مصلحة التنظيم اسم سنجر الخازن على حارة متفرعة
من ميدان مصطفى باشا فاضل شرقى المدرسة الخديوية باعتبار أن حكر الخازن كان بتلك الجهة وهذا غير صحيح
لأن الجهة المذكورة بعيدة عن الموقع الاصلى لهذا الحكر ولا علاقة لها به» .

* وأقول أن هذه الحارة تقع بحى الخلمية الجديدة وقد عدل اسمها بعد ذلك إلى اسم شارع السيد البيلاوى (نقيب
الاشراف سابقاً) لسكنه فى تلك الجهة وهذه الحارة (الشارع الآن) تصل بين شارع مصطفى سرى وميدان مصطفى
فاضل . انظر :

محمد كمال السيد أسماء ومسميات ، ص ٣٩٢ - ٣٩٣ .

بالكسارة من مصر ، ثم أن بستان سيف الإسلام حكره أمير يعرف بعلم الدين الغتمى فبنى فيه الناس الدور فى الدولة التركية وصار يعرف بحكر الغتمى وهو الآن يعرف بدرب ابن البابا» (١).

والأمير ابن البابا الذى ينسب إليه الخط هو جنكلى ابن البابا من كبار أمراء السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون (٢).

وقال «على مبارك» فى تحقيق البساتين التى ذكرها المقرئى «ومن حقوق بستان ابن المغربى الآدم المدرسة البندقارية المعروفة اليوم بزاوية الآبار التى بشارع السيوفية ومدرسة البنات الكائنة بجوارها وما فى صفها الى شارع الصليبية أما بستان سيف الإسلام فكان فى مقابلته على يمينه السالك من الشارع إلى الصليبية ، وكان يمتد إلى بركة القيل وفيه إلى الآن الحمام المعروف بحمام البابا» (٣).

يتضح لنا عما سبق أن خط درب ابن البابا كان فى أصله بستان من البساتين القديمة التى كانت تمتد خارج باب زويلة حتى مشهد السيدة نفيسة ، وفى العصر المملوكى وخاصة أيام الناصر محمد بن قلاوون حكمت أرض هذه البساتين وبنيت عليها الخطوط ، وكان خط ابن البابا هذا يقع شرقى بركة القيل وحكر الخازن .

وفى شمال البركة عمرت حارة كبيرة تسمى حارة حلب ، وأحياناً أطلق عليها فى المصادر والوثائق اسم رقاق حلب واتصلت عمارتها بخط ابن البابا ، وقال «المقرئى» عنها فى كلامه عن الحارات «حارة حلب هى خارج باب زويلة تعرف اليوم بزرقاق حلب كانت قديماً من جملة مساكن الأجناد» (٤) ، كما ذكرها أيضاً فى كلامه عن المدرسة المهدبية (٥) وعن حمام الدود (٦) . وكانت حارة حلب تواجه جامع قوصون (قيسون) .

(١) الخطط ، ج٢ ، ص ١٣٤ .

(٢) هو الأمير علم الدين جنكلى ابن البابا بن خليل بن عبدالله العجلى ، من كبار أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون ، كان قد قدم إلى مصر سنة ٧٠٤ هـ من مقامه بالقرب من آمد وقد روج الناصر محمد ابنه إبراهيم من ابنة الأمير ، وظل معظم أيام الناصر وإيام ابنه الصالح إسماعيل حتى مات يوم الاثنين ١٧ ذى الحجة ٧٤٦ هـ ، وكان حسن الخلق والخلق وعرف عنه حب العلم والعلماء . انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٣٤ - ١٣٥ .

(٣) الخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٢٣٥ .

(٤) الخطط ، ج٢ ، ص ٢٣ .

(٥) قال المقرئى عنها «هذه المدرسة بحارة حلب خارج القاهرة عند حمام قمارى بناها الحكيم مذهب الدين محمد بن أبى الوحش المعروف بابن أبى حليقة تصغير حلقة رئيس الأطباء بديار مصر ولى رئاسة الأطباء فى حادى عشر رمضان ٦٨٤ هـ واستقر مدرس الطب بالمراستان المنصورى» . الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٧ .

* ذكر على مبارك أن هذه المدرسة كانت موجودة أيامه وكانت تعرف بتكية الخلوئية وهى داخل عطفه مراد بك التى بأول شارع الحلمية . الخطط التوفيقية ، ج٦ ، ص ٤١ .

(٦) أنشأ هذا الحمام الأمير سيف الدين الدود المتوفى سنة ٦٥٧ هـ / ١٢٥٨ م ، وقد صار هذا الحمام من أوقاف قايتباى هو وحمام للنساء بجواره ، وقد رسم الحمام فى العصر العثمانى وقد وقع فى خريطة الحملة الفرنسية=

وحارة حلب كانت متصلة العمران في العصرين المملوكي والعثماني ، وقد ذكر «على مبارك» أن حارة أو رقاق حلب تمثلت في عطفة مراد بك التي تقع على اليمين للسالك من شارع محمد على متفرعة من شارع السوفية ، وبها رقاقان أحدهما ليس بنافذ والآخر يتصل بشارع محمد على (١) ، كما ذكر أيضاً أن وقت دخول الفرنسيين كان رقاق حلب المذكور درياً نافذاً متصلاً بشارع الداودية والحبابية ، وكان فيه عدة بيوت شهيرة بينها بيت مراد بك الذي سمي به الرقاق (٢) . هذا وقد ضاع جزء كبير من حارة حلب في شارع محمد على عند فتحه في عهد الخديو اسماعيل (٣) .

وبجوار حارة حلب استجد خط عرف باسم خط حوض ابن هنس ، وحوض ابن هنس هذا الذي نسبت إليه الخطة هو حوض ترده الدواب وينقل إليه الماء من بئر ، وهو من أوقاف ابن هنس على أعمال الخير ، وعمل باعلاؤه مسجداً مرتفعاً وساقية ماء على بئر معين (٤) .

وكان حوض ابن هنس (٥) واقعاً في محور شارع محمد على وفي اتجاه مدخل شارع على باشا إبراهيم (٦) .

وقد ذكر «على مبارك» أن موضع خطة ابن هنس في زمنه يمتد من عطفة مراد بك إلى عطفة الغسالة التي بآخر ميدان الحلمية (٧) .

= برقم ٩٣ في المربع 7 - Q ، وقد اندثر الحمام الآن وكان مكانه عند تقابل شارع محمد على بشارع السروجية .
انظر :

المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ص ٨٥ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٦ ، ص ١٩٥ ، محمد رمزي ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٣١ ، اندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعي ، ص ١٢٤ ، Pauty, ED, Les Hammams Du Cairo, MIFAO LXIV, La Cairo, 1933, no. 30.

وكتاب وقف قاييبي رقم ٨٨٦ أوقاف ، ص ٦٩ - ٧٥ .

(١) الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٢) نفسه ، ص ١٤٨ .

(٣) محمد كمال السيد ، أسماء ومسميات ، ص ٣٨٣ .

(٤) المقريزي ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٢٣ .

(٥) ذكر «المقريزي» عن ابن هنس أنه الأمير سعد الدين مسعود بن الأمير بدر الدين هنس ابن عبدالله أحد الحجاب في أيام الصالح نجم الدين أيوب ، وقد مات يوم السبت عاشر من شوال سنة ٦٤٧ هـ ودفن بجوار الحوض ، وكان هذا الحوض قد تعطل في زمن المقريزي فجده الأمير تتر أحد الأمراء الكبار في مدة سلطنة المؤيد شيخ سنة ٨٢١ هـ ، وقرر هذا تسليط عدة شهور سنة ٨٢٤ هـ .

الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٣ .

(٦) محمد رمزي ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٣٠ - ٣٣١ .

(٧) الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

* وقد ذكر على مبارك أيضاً أنه يوجد بول عطفة مراد بك قبر تسمية العامة بالشيخ الاربين ، وهو على غالب الظن قبر ابن هنس المذكور وأما الحوض فقد زال من زمن مديد وأما البئر المين فغالباً هي الموجودة بمنزل الأمير يعقوب . انظر : الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

أما عن المنشآت الدينية التى بنيت على الحافة الشرقية لبركة الفيل بحكر الخازن ولاتزال موجودة اليوم فهى المدرسة البشيرية ومسجد مغلباى طاز وجامع أريك البوسفى .

فأما المدرسة البشيرية فقد بناها الأمير سعد الدين بشير الجهمدار الناصرى سنة ٧٦١هـ / ١٣٦٠م وكان موضعها مسجداً يعرف بمسجد سنقر السعدى الذى بنى المدرسة السعدية (التكية المولودية أو مسرح الدراويش حالياً أثر ٢٦٣) فهدمه بشير الجهمدار وبنى المدرسة الصغيرة التى تتكون حالياً من قاعة واحدة ، وقد ذكر "المقريزى" أنه جعل بها خزانة كتب وأنها من المدارس اللطيفة (١) (الصغيرة)، وقد عرفت فى العصر العثمانى باسم زاوية الشيخ طلام ، وكانت قد جرت لها عمارة سنة ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م على يد الأمير عمر أغادار السعادة (٢) ، وهى تشرف الآن على شارع نور الظلام وتحمل رقم ٢٦٩ فى فهرس الآثار الإسلامية بالقاهرة .

وكذلك كان يوجد بحكر الخازن مسجد مغلباى طاز (٣) الذى بنى سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م واعتقد ان هذا المسجد بنى فى محل مسجد الخازن (٤) ويتضح ذلك من وثيقة السلطان طومان باى (٥) ، والمسجد موجود بحارة بنت المعمار المتفرعة من شارع نور الظلام ، ويحمل رقم ٢٠٧ فى فهرس الآثار الإسلامية .

= هذا ويوجد بحى الخلمية شارع اسمه شارع ابن هنس ثم عدل اسمه الى شارع أحمد باشا تيمور (١٨٧١ - ١٩٣٠ م) تخليداً للزمراء .

محمد كمال السيد ، اسماء ومسميات ، ص ٣٨٤ .

(١) الخطط ، ج٢ ، ص ٣٩٩ .

(٢) على مبارك ، الخطط التوقفية ، ج٦ ، ص ٨-٩ .

* أغادار السعادة لقب تركى المقصود به أكبر موظفى القصر الهمايونى ، وكان أغادار السعادة هو المشرف على أوقاف الحرمين الشريفين ، انظر بالتفصيل :

أحمد السعيد سليمان ، تاصيل ما ورد فى تاريخ الجيرتى من الدخيل ، (ط دار المعارف القاهرة) ، ص ١٨ - ١٩ ، (٣) هو الأمير مغلباى طاز الابويكرى ، كان من عماليك المؤيد شيخ ، وترقى فى عهد ابنال إلى أمير عنبره ثم إلى أمير طبلخاناه ، وفى سلطنة خشقدم ترقى إلى أمير مائة مقدم ألف ، وكان قد تولى عدة وظائف هامة منها نيابة صفد وحسبة القاهرة وامرة الحج ، وقد تزوج من آسية بنت السلطان بلباى ، وعندما خلع بلباى من السلطة نفى مغلباى إلى دمسباط بطلا ، وقد توفى بها فى صفر ٧٨٣هـ / ١٤٦٨م من عمر ينيف على ٨٠ عاماً ودفن بترسته بالصحره . انظر : ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص ١٥٠ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ ، ٣٨٥ ، الساخاوى ، الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص ١٦٤ ، ابن اباس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٠ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ١٥٢ حاشية

(٥) ورد بوثيقة طومان باى رقم ٢١٨ بدار الوثائق القومية فى سطور ٢٨-٣٠ أنه آل إليه بيت كان من أوقاف مغلباى طاز الابويكرى وكانت حدوده وقت انشائه كالتالى "الحلد القبلى ينتهى إلى الطريق السلوك وفيه الواجبة والحلد البحرى ينتهى إلى البركة والحلد الشرقى ينتهى الى مكان يعرف قديماً بالخازن والحلد الغربى الى دار تعرف قديماً بالحلبى .

كما يوجد أيضاً بحسب الخازن جامع أربك اليوسفى (أثر ٢١١) الذى بنى سنة ٩٠٠ هـ/ ١٤٩٣ م^(١) ، وهو مبنى على غط النظام المدرسى الذى ساد فى النصف الثانى من حكم دولة المماليك الجراكسة ، والذى يتكون من درقاعة وسطى مغطاة يحيط بها ايوانان وسدلتان^(٢) ، وهو يقع الان بشارع أربك الذى يتفرع من شارع الصليبية بالسيدة زينب .

أما عن الدور والقصور التى كانت تحيط بالحافة الشرقية للبركة فكانت تنتمى إلى السلاطين وكبار الأمراء شأنها فى ذلك شأن الدور الأخرى التى على جميع جوانب البركة ، وكانت تتميز بالثراء العمارى والزخرفى والتوافق الجمالى الكبير .

ومن السلاطين الذين كان لهم دور تطل وتشرف على البركة مباشرة السلطان برسباى فقد كان له دار كبيرة يزقاق حلب تطل من جهتها البحرية على بركة الفيل^(٣) .

وكان للسلطان قايتباى حوالى خمسة بيوت بالجانب الشرقى للبركة موزعة مابين حكر الخازن ودرب ابن البابا وزقاق حلب .^(٤)

(١) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج١ ، ص ٢٧٢ ، على مبارك ، الخطط الترفيقية ، ج ٤ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

(٢) عن الجامع بالتفصيل ، انظر : سعاد ماهر ، مساجد مصر ، ج ٤ ، ص ٢٨٢ - ٢٩٢ .

(٣) ورد بكتاب وقف السلطان برسباى رقم ٨٨٠ أوقاف ص ١٠٥ ، ١٠٧ ، انه امتلك داراً كانت معروفة قديماً بالعمادى بن الشرف بخط رقاق حلب وهى مطلة على بركة الفيل ، وكان حدها القبلى ينتهى الى دار تعرف بالسيفى جركس الخليلى والى الطريق والحد البحرى ينتهى الى بركة الفيل والحد الشرقى ينتهى الى راوية والى الطريق والحد الغربى ينتهى الى الدار المعروفة قديماً بايدعى ثم عرفت بالمقر السيفى جركس الخليلى ، وفى ص ١٠٨ ورد انه كان له مكان آخر تجاه داره عبارة عن اصطبل ذكر أن حده القبلى ينتهى إلى مكان يعرف بسكن الطنبغا والحد البحرى إلى رقاق والحد الشرقى إلى الطريق وفيه الواجهة والحد الغربى إلى مكان يعرف بسكن الطنبغا . انظر أيضاً :

على مبارك ، الخطط الترفيقية ، ج ٤ ، ص ١٢١ .

* ملحوظة : وقعت جميع المنشآت والدور والقصور التى وردت بالوثائق والمصادر على بركة الفيل فى العصر المملوكى .

(٤) ذكر السخاوى فى ترجمة لقائباى أنه كان له بيت بدرب الخازن كان يعرف ببربك المعمار بناء بمشارفة شاذ بك مطل على بركة الفيل مجاور بيت امامه البرهان الكركى ، وذكر أيضاً أنه ابتنى عمارة عظيمة على البركة أيضاً مضافة لبيت خاير بك من جديد وبيت تجاهه بمشارفة الحاج رمضان المهتار وآخر بباب سر جامع قوصون مطل عليها أيضاً بمشارفة جاثم دودار يشبك الدودار كما شارف جاثم أيضاً لقائباى عمارة بيت اركماس الظاهرى المطل على بركة الفيل أيضاً . انظر : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٢١٠ . وبيت خاير بك من حديد الذى ذكره السخاوى تذكر عن احدى الوثائق السلطان قايتباى (محكمة بدون تاريخ) انه كان يقع بزقاق حلب . انظر : عبد اللطيف ابراهيم ، الوثائق فى خدمة الآثار بحث فى كتاب دراسات فى الاسلامية ، ص ٣٩٩ - ٤٠٠ .

* وفى كتاب وقف السلطان قايتباى وصف لعدة اماكن بدرب البابا ، وكذلك بدرب الماس بجوار حمام حلقة بحكر الغنمى المطل على بركة الفيل وقد ذكر حدوده كالاتى : الحد القبلى ينتهى الى الاصطبل الذى هناك والى الزقاق وفيه الابواب والحد البحرى ينتهى الى بركة الفيل المذكورة والحد الشرقى ينتهى الى الاصطبل الذى هناك =

وكان للامام البرهان الكركى ^(١) قاضى قضاء الحنفية فى سلطنة الأشرف قايتباى دار مجاوره لدار قايتباى بحكر الخازن مطلقاً على بركة الفيل ^(٢) ، وفى وثائق السلطان طومان باى آخر سلاطين المماليك الجراكسة ورد بها أن بيت الكركى يقع بالحد الشرقى لبيت طومان باى مطلقاً على بركة الفيل ^(٣) .

وكان السلطان الأشرف طومان باى آخر سلاطين المماليك (٩٢٢-٩٢٣هـ / ١٥١٦-١٥١٧م) يملك عدة دور وهو أمير بالجانب الشرقى للبركة بحكر الخازن ودرب ابن البابا وزقاق حلب ، وهذه الدور كبيرة وكاملة المرافق والملاحق والحدائق .

فى الوثيقة رقم ٢١٨ أنه آل إليه ملكية بيت خرب كان من أوقاف مغلباى الأبو بكرى ^(٤) وقد تصرفت فيه زوجته اسية بنت يلباى ^(٥) وكانت حدود هذا البيت وقت انشائه كالتالى "الحد القبلى ينتهى إلى الطريق المسلك وفيه الواجحة ، والحد البحرى ينتهى إلى البركة والحد الشرقى ينتهى إلى مكان يعرف قديماً بالخازن ^(٦) والحد الغربى إلى دار تعرف قديماً بالحلبى ^(٧) .

= والى الساقية وحمام حليقة والحد الغربى ينتهى الى ملك يعرف بطوغان قديماً والآن بغيره . انظر ص ٢٢٢ - ٢٢٤ ، وهذا الدار كان قايتباى قد وقفه قديماً على الأمير جاسم البهلوان .

* كذلك ذكر على مبارك: عدة وقفيات للسلطان قايتباى لأماكن له بزقاق حلب مطلة على بركة الفيل . انظر الخطط التوفيقية ، ج٥ ، ص ١٦٤ - ١٦٧ ؛ كما ذكر "ابن اياس" أن السلطان سليم شاه العثمانى فاتح مصر تحول لسكن بيت قايتباى المظل على بركة الفيل والذى يقع خلف حمام الفارقانى فى يوم الثلاثاء ١٦ رجب ٩٢٣هـ ، وأنه كذلك أمر بسد الخليج من عند قنطرة عمر شاه فترة حتى تملىء بركة الفيل بالماء . انظر : بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ١٩٤ - ١٩٥ ، ٢٠٢ .

* ونفس الشئ ذكره المؤرخ بن "ابى السرور البكرى" . انظر :

تاريخ ملوك مصر ، "النزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية" ، (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٢١٦ تاريخ)، ورقة ٢١ ، ٤٢ .

(١) الكركى هو قاضى الحنفية برهان الدين ابراهيم بن زين الدين عبدالرحمن بن اسماعيل الكركى الحنفى ، كان عالماً رئيساً من أعيان الحنفية ، وقد تولى وظيفة قاضى قضاء الحنفية مرتين ، وكان إماماً للأشرف قايتباى ، كما تولى عدة وظائف حامه منها مشيخة مدرسة أم السلطان شعبان ، واستيفاء الصحة وهى وظيفة جليلية يشرف صاحبها على كتابة مراسيم السلطان المتعلقة بالشئون المالية ، كما ولى مشيخة المدرسة الحسامية التى بناها الأمير حسام الدين طرنطاي نائب السلطنة زمن السلطان المنصور قلاوون وهى تقع بخط المسطاح قريباً من حارة السوريرية بالقاهرة ، وتولى أيضاً مشيخة المدرسة الأشرفية، وقد تعرض لمحنة كثيرة فى حياته . وقد مات فى شعبان ٩٢٢هـ . وسبب موته أنه نزل بتوضاً على سلم القبطون الذى بيته على بركة الفيل وفى رجله قباقب فزلت رجله بالقباقب فوقع فى البركة وكان فى قوة ملئها أيام النيل ، فلما وقع ثقلت عليه الثياب فمات من وقته . انظر :

ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٦٦ ، ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٦ ، ص ١٤ .

(٢) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج٦ ، ص ٢١٠ . (٣) انظر ما يلى ص ١٦٢ .

(٤) انظر ما سبق ، ص ١٥٨ .

(٥) هى اسية ابنة السلطان الظاهر سيف الدين يلباى الذى تولى السلطنة سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م لمدة شهرين فقط .

(٦) انظر ما سبق ، ص ١٥٢ . (٧) الوثيقة رقم ٢١٨ المحفوظ بدار الوثائق القومية سطور ٢٨ - ٣٠ .

وقد ابدلت آسية هذا البيت إلى الأمير برسباى بن عبد الله العلاني^(١) الذى هدمه هو بنائين بجواره وبنى مكان كل ذلك داراً كبيرة ذكرت حدودها كالتالى "الحـد القبلى ينتهى إلى الطريق وفيه الباب والواجهة ، والحـد البحرى ينتهى إلى بركة الفيل ، والحـد الشرقى إلى مكان يعرف بالمقر المرحوم مغلباى طار ، والحـد الغربى ينتهى إلى سكن سيدنا برهان الدين الامام (الكركى)^(٢) .

من خلال ما ذكر عن حدود البيت كما ورد بالموضعين السابقين يتبين لى أن واجهته القبلىة (الجنوبية) كان ينتهى إلى الطريق الذى ربما يمثل اليوم حارة بنت المعمار وأن الحـد البحرى (الشمالى) كان يطل مباشرة على البركة والحـد الشرقى كان ينتهى إلى مسجد مغلباى طار الذى حل محل المسجد الذى كان قد أنشأ من قبل سنجر الخازن^(٣) وأن الحـد الغربى كان ينتهى إلى بيت الشيخ برهان الدين الكركى الذى حل محل الدار القديمة التى كانت تعرف باسم الحلبى .

وفى كتاب وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٢ق أوقاف ملحق به أوقاف طومان باى ذكر فيه بناءان لطومان باى بخط درب الخازن ذكر حدودها كالتالى : الأول حـده القبلى ينتهى إلى الطريق وفيه الواجهة والحـد البحرى ينتهى إلى بركة الفيل والحـد الشرقى ينتهى إلى بيت الكركى والحـد الغربى ينتهى إلى المجاز المشترك بينه وبين البناء الثانى^(٤) .

أما البناء الثانى فحده القبلى ينتهى إلى الطريق وفيه الباب والحـد البحرى ينتهى إلى البركة والحـد الشرقى ينتهى إلى البناء الأول والحـد الغربى إلى بناء يعرف بوقف السيفى اسنبغا الطيارى ثم عرف بالأمير ازدمر الدوادار^(٥) ثم عرف بالأمير ايدكى^(٦) .

وقد ذكر حدود البنائين معاً كالتالى : الحـد القبلى ينتهى إلى الطريق والحـد البحرى ينتهى إلى بركة الفيل والحـد الشرقى ينتهى إلى بيت الكركى والحـد الغربى ينتهى إلى بيت الجنباب السيفى ايدكى^(٧) .

وكان لطومان باى بناءان بخط درب ابن البابا مظلة على بركة النيل استبدلتهما مع الأمير ايدكى بينائين آخرين بحكر الخازن مظلة على بركة السيفى أيضاً ، البناء الأول الذى بخط ابن البابا كانت حدوده كالتالى : الحـد القبلى كان ينتهى إلى رقاق وفيه الواجهة والباب ، والحـد البحرى ينتهى إلى

(١) هو الأمير برسباى العلاني الأشرفى من مماليك الأشرف قايتباى الذى انعم عليه بأمره عشرة فى محرم ٨٩٩ هـ وأصبح أمير طبلخاناه فى سنة ٩٠٨ فى أيام الغورى . انظر :

ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص٢٩٧ ، ج٤ ، ص٣١

(٢) ملخص الوثيقة والانتقال بالبيع الذى بالهامش الامين بظاهر الوثيقة بتاريخ ٥ ربيع آخر ٩٠٠ هـ .

(٣) انظر ما سبق ، ص١٥٢ ، ص١٥٧ .

(٤) كتاب الوقف ٨٨٢ أوقاف ، ص٥٤٨ ، سطور ٣ - ٦ .

(٥) فى وثيقة الأمير ازدمر من على باى رقم ٢٤٠ المحفوظة بدار الوثائق القومية وصفاً لهذه الدار .

(٦) كتاب وقف الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف ، ص٥٤٨ سطور ٣ - ٦ .

(٧) نفس الصفحة ، سطور ٧ - ٩ .

بركة الأفيلة والحد الشرقى ينتهى إلى مسكن تمرباى والحد الغربى ينتهى إلى بيت الأمير اربك ^(١) نائب القلعة الشريفة ^(٢) .

أما البناء الثانى المجاور له فحده القبلى كان ينتهى إلى الزقاق ، والحد البحرى إلى البركة والحد الشرقى ينتهى إلى بيت المرحوم اصباى ، والحد الغربى ينتهى إلى ملك يجرى فى أملاكه . ^(٣)

أما البنائين اللذين بحكر الخازن وكانا فى ملك ايدكى وصارا فى ملك طومان باى فذكر حدودهما كالتالى : الأول حده القبلى ينتهى إلى الطريق السلوك وفيه الباب والحد البحرى ينتهى إلى بركة الفيل ، والحد الشرقى ينتهى إلى دار تعرف قديماً بالسيفى قراغر والحد الغربى ينتهى إلى مكان يعرف بالأمير تنمر رأس نوبه كبير . ^(٤)

والبناء الثانى المجاور له فحده القبلى ينتهى إلى الطريق وفيه الواجهة والحد البحرى ينتهى إلى بركة الفيل والحد الشرقى ينتهى إلى بيت السيفى أقباب الأيتمشى والحد الغربى ينتهى إلى بيت الست وغيره . ^(٥)

وقد ذكر 'على باشا مبارك' أنه كان يوجد فى زمنه دار كبيرة متخرية كانت للسلطان طومان باى وكانت تقع بزقاق حلب مشرفه على بركة الفيل وكانت تقع على يمين شارع السيوفيه مواجهة للكتبة المولوية ^(٦) . ولكننى أرى أن هذه الدار كانت ملك السلطان قايتباى وآلت إلى طومان باى الذى كان ناظراً على أوقاف السلطان قايتباى ، فقد ذكر 'البكرى' أن السلطان سليم سكن فى الدار التى عرفت فيما بعد بأسم دار عجم زاده المظلة على بركة الفيل بعد فتح مصر ورجوعه من الاسكندرية وبقي ساكناً بها إلى أن خرج متوجهاً إلى بلاده فى ثلاثة وعشرين من شعبان سنة ٩٢٣هـ ^(٧) ، وقد سبق 'لابن اياس' أن ذكر أن السلطان سليم سكن بدار قايتباى التى تقع خلف حمام الفارقانى المطل على بركة الفيل ^(٨) وهذه الدار آلت ملكيتها بعد ذلك إلى سنان باشا الدفتردار ثم إلى محمد بك عجم زاده ^(٩) .

(١) هو اربك الناشف الذى تولى نيابة القلعة فى ٥ ذى الحجة ٩٠٥ هـ بدلاً من جان بلاط الابيج فى زمن السلطان جان بلاط ، وقد تولى هذا المنصب لشهور قليلة ثم استبدله الملك العادل طومان باى بعد ذلك بشخص يدعى طوخ المحمدى فى ٢٦ رجب ٩٠٦ هـ . بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٤٤٠ ، ٤٧٠ .

(٢) كتاب وقف الغورى ٨٨٢ ، ص ٥٣٨ سطور ١٤ - ١٦ .

(٣) كتاب وقف الغورى ٨٨٢ ، ص ٥٤٠ ، سطور ٣ - ٦ .

(٤) نفسه ، ص ٥٧٣ ، سطور ٢ - ٦ . (٥) نفسه ، ص ٥٧٤ ، سطور ١٣ - ١٦ .

(٦) الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ١٨٠ .

(٧) قطف الأزهار ، مخطوط ورقة ٦٥ . التزمية الزهية ، مخطوط ، ورقة ٢١ .

(٨) بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٢٠٢ .

(٩) الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ١٨٠ .

ب - العمارة بالجانب الجنوبي لبركة الفيل :

عمر جنوب بركة الفيل في العصر المملوكي خط الجسر الأعظم الذي يمثله الآن شارع مراسينا (عبدالمجيد اللبان حالياً) ، وتمت في هذا الخط عمارة القصور العظيمة التي تطل من جهة على بركة الفيل ومن الجهة الأخرى على الجسر الأعظم ، وحتى زمن الناصر محمد بن قلاوون لم يكن على بركة الفيل من جهة الجسر الأعظم مبان وإنما كانت البركة ظاهرة يراها المار ، ثم أمر الناصر محمد بعمل حائط قصير بطولها فأقيم الحائط وصفر بالطين الأصفر ثم حدثت الدور هناك ^(١) .

وفي زمن "على باشا مبارك" كانت أرض البركة المجاورة لهذا الشارع مزراع وبساتين مملوكة لبعض الأمراء ^(٢) ثم بنى على تلك المزارع والبساتين بعد ذلك حتى صارت إلى ماهو عليه الآن .

ومن العماائر الدينية التي بنيت في العصر المملوكي وكانت تطل على جنوب بركة الفيل زاوية عرفت باسم زاوية إبراهيم الصائغ ، وقد قال المقرئى أن موضعها بوسط الجسر الأعظم تطل على بركة الفيل عمرها الأمير سيف الدين طغاي بعد سنة ٧٢٠ هـ وأنزل بها فقيراً أعجمياً من فقراء الشيخ تقي الدين رجب الشيرازي ^(٣) يعرف بالشيخ عز الدين المعجمي كان يعرف صناعة الموسيقى وله نغمة للذيدة وصوت مطرب وغناء جيد فأقام بها إلى أن مات في سنة ٧٢٣ هـ فتغلب عليها الشيخ إبراهيم الصائغ إلى أن مات يوم الاثنين ١٤ رجب ٧٥٤ هـ فعرفت به ^(٤) .

وقد ذكرت هذه الزاوية في وثائق السلطان برسباي لأنها كانت مجاورة لأملاكه ^(٥) .

وهذه الزاوية كانت موجودة إلى نهاية القرن الماضي حيث ذكرها "على باشا مبارك" ^(٦) .

ومن أهم العماائر الدينية أيضا بخط الجسر الأعظم وكانت تطل من الجهة الأخرى على بركة الفيل جامع لاجين السيفي الذي أقيم سنة ٨٥٤ هـ / ١٤٥٠ م ^(٧) ولا يزال عامراً بذكر الله تعالى للآن (أثر رقم ٢١٧) .

(١) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ص ١٦٥ .

(٢) الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ٣٣٣ .

(٣) كان الشيخ تقي الدين رجب ابن اشيرك من أعلام الصوفية وكان مسجلاً من سلاطين وامراء المماليك ، أنشأ له الناصر محمد زاوية تحت قلعة الجبل بعد سنة ٧٢٠ هـ ، وجددت سنة ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م ، وهي مسجلة أثر رقم

٤٧٦ . المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٤٣٢ .

(٤) الخطط ، ج٢ ، ص ٤٣٣ - ٤٣٤ .

(٥) انظر مايلى ، ص ١٧١ .

(٦) قال " وأظن هذه الزاوية هي الموجودة لصق حوش إبراهيم جركس في مقابلة منزل حسن باشا ناظر المطبعة الكبرى سابقاً . انظر : الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ٤٥ .

* واعتقد المرحوم محمد رمزي أن هذه الزاوية هي أصل جامع لاجين ، النجوم ، ص ٩ ، ص ٨٩ . ولكن يتضح لنا عما سبق أن هذه الزاوية غير جامع لاجين ، وإنما قد اندثرت الآن وكان موقعها غرب جامع لاجين .

(٧) البسغاري ، الضوء اللامع ، ج٢ ، ص ٢٣٢ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٥ ، ص ٢٢٤ .

وحفل خط الجسر الأعظم المطل على جنوب بركة الفيل بالقصور العظيمة التي قل أن يوجد لها نظير ، والتي بنيت أثناء سلطنة أعظم سلطان بناء وهو الناصر محمد بن قلاوون ، وتحاورت تلك القصور بجانب بعضها البعض وأمامها أبنية الكبش ، وكان شارع الجسر الأعظم حينئذ هو الطريق الذي تسلكه الموكب السلطانية لذلك صار له أهمية كبيرة في الحياة الاجتماعية للقاهرة زمن المماليك .

ومن تلك القصور العظيمة قصر الأمير بكتمر الساقى ^(١) ، وقد أنشأه له السلطان الناصر محمد سنة ٧١٧هـ ، وكان يقع في الحد الجنوبي للبركة على الجسر الأعظم مطلقاً على الكبش عند مدرسة سلاو وسنجر الجاولى ^(٢) (اثر ٢٢١) ، وقيل أن موضعه كان دار الأمير سلاو ودور أخوته وقطعة من الميدان ^(٣) .

وقد كان هذا القصر من أعظم مساكن مصر وأجلها قدراً وأحسنها بنياناً وقيل أنه عمل أساسه أربعين ذراعاً ^(٤) ، وقد أدخل في أرضه الميدان الذي أنشأه العادل كتبغا وأخذ قطعة من بركة الفيل بخلاف شرط الواقف عليها ^(٥) ليتسع بها الاسطبل الذي للأمير بكتمر بجوار القصر ، وقد ذكر المؤرخون أن القصر والاسطبل اكتملا على هيئة قل ما رأت العين مثلها ، وقد حفل القصر بالزخارف الرائعة واستعمل فيها الرخام واللازورد والذهب وعرق اللؤلؤ ^(٦) .

= حسن القصاص ، مساجد الأمراء في عصر السلطان جقمق (قراقجا الحسنى - الجمالى يوسف - لاجين السيفي) ، دكتوراه "مخطوطة" ، (كلية الآثار جامعة القاهرة ، ١٩٨٥) .

(١) هو الأمير بكتمر بن عبدالله الركنى الساقى ، كان من مماليك المظفر بيبرس الجاشنكير ثم انتقل إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون فعظمى عنده بالرعاية وجعله ساقياً له ، وصار يترقى في الوظائف حتى بلغ منصب أتابك السكر وهو من المناصب الأولى في دولة المماليك ، وكان له شأن عظيم وكان صاحب الحل والعقد بالدولة ، وكان قد جمع أموالاً طائلة ، وكان جيد الطباع حسن الأخلاق ، وكان الملك الناصر قد روجة أخته وروى منها بولد اسمه احمد ، وكان له إنشاءات عظيمة بمصر منها قصور برياقيوس وخانقاة وترية له بالقاهرة ، وفي سنة ٧٣٣هـ أثناء عودته ومعه ابنه من الحجاز مصاحبين للملك الناصر محمد تحرر كل منهما من الأخر وخاف الناصر منه فدمس له ولأبيه السم فماتا بالطريق . انظر : ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ٣٩٠ - ٣٩٧ ، ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٤٨٧ . ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ص ٤٦٤ .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٦٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٦٤٤ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ١٧٣ . وعن هذا الميدان ، انظر مايلي ، ص ٣٨٠ .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ١٨٨ .

(٥) كانت بركة الفيل جارية في اوقاف اولاد الملك الظاهر بيبرس ، وطلب السلطان الناصر محمد استبدال جزء من أرضها لأجل القصر بموقع آخر إلا أن قاضى القضاة شمس الدين الحريرى الحنفى رفض طلب السلطان لأنه يخالف مذهبه ولذلك اعتزل القضاء ، وعين السلطان بدله القاضى سراج الدين الحنفى الذى أذعن لرأى السلطان فحكم باستبدال الأرض في غرة رجب ٧١٧هـ فلم يلبث هذا القاضى سوى مدة شهرين إلا وقد مات ، فاستدعى السلطان القاضى الحريرى مرة أخرى إلى منصبه . انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٦٨ ، السلوك ، ج٢ ، ص ١٧٣ - ١٧٤ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٤ ، ص ٤٠ .

(٦) ذكر المقرئى أن النشقة على العمارة كل يوم بلغت مبلغ ألف وخمسمائة درهم غير محسوباً فيه ثمن الأحجار =

ولما تمت عمارة هذا القصر فى عشرة أشهر سنة ٧١٧هـ سكنه بكتمر ، وكان الناصر محمد دائم النزول والمبيت به ^(١) ، ومن هذا القصر خرج شوار (جهاز) ابنه الأمير بكتمر لما تزوجها الأمير أنوك ابن السلطان الناصر محمد سنة ٧٣٢هـ ، وهذا الشوار ندر ان يكون له مثيل فى تاريخ مصر ^(٢) .

ولما مات بكتمر صارت أوقافه بيد أولاده وأولادهم وصارت فى النهاية بيد ابن ابنته أحمد بن قرطاي المعروف بـ أحمد بن بنت بكتمر ، وكان القصر فى غاية من الحسن ولا ينزله إلا اعيان الأمراء إلى أن كانت سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م فتصرف ابن بنت بكتمر هذا فى محتويات القصر فباع رخامه وشبابيكه وكثيراً من سقفه وأبوابه وغير ذلك وعمل بدل الرخام بلاطاً واستبدل بالشبابيك الحديد شبابيك خشب ^(٣) ، وقد قام بهذا التصرف متزهراً فرصة غياب السلطان المؤيد شيخ وذهابه إلى دمشق لمحاربة نوروز الحافظي مما يدل على أهمية دور وقصور القاهرة الخاصة بأمراء الدولة الكبار باعتبارها من الأماكن الاستراتيجية الهامة التي تمثل رموزاً للدولة .

وفى حدود سنة ٨٢٠هـ / ١٤١٧م تملك هذا القصر عائلة المؤرخ بن تغرى بردى ثم ابتاعه منهم غصباً الأمير ترمباي رأس نويه النوب فى سنة ٨٤٦هـ / ١٤٤٢م بنحو ألف دينار ^(٤) وتوارث ملكية هذا القصر الأمراء بقية العصر المملوكي ، واستمر عامراً فترة فى العصر العثماني ^(٥) . وموضع هذا القصر الآن منطقة الخوض المرصود بالسيدة زينب .

ومن القصور التى بناها الناصر محمد لأمرائه على بركة القيل بخط الجسر الأعظم قصر الأمير بهادر الجوانى بجوار زاوية البرهان الصائغ تجاه الكبش ^(٦) ، وقد اندثر هذا القصر الآن وكان موقعة غربى جامع لاجين .

-
- « والمجل التي تحملها لأنها كانت تخص السلطان وكذلك غير محسوب فى المصاريف والسفقة أجرة الفعلة لأنهم استخدموا فى البناء أهل السجون المحبوسين ولو حسب ذلك لبلغت النفقة اليومية الضعف ، واستمرت العمارة عشرة أشهر وقدرت النفقة ألف ألف (مليون) درهم زيادة على خمسين ألف دينار سوى ما حمل وسوى من سخر فى العمل . انظر الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٨ .
- (١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٦٤ .
- (٢) انظر بالتفصيل : المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٨ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ١١٠ .
- (٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٦٨ .
- (٤) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٣٩٢ .
- (٥) ظل قصر بكتمر قائماً حتى بنى مكانه الأمير صالح بك القاسمى أمير الحج داره العظيمة سنة ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م ، ثم صارت هذه الدار تنقلب مع تقلب حوادث الأيام إلى أن أصبحت من أملاك الحكومة فجعلت فى عهد محمد على باشا الكبير ورشة لعمل الاسلحة والدخائر وعرفت باسم ورشة الخوض المرصود بشارع مراسينا بالقاهرة ، ثم هدمتها الحكومة بعد ذلك وشقت فيها شارع محمد قبرى باشا فقسمها قسمين الغربى منها وهو معظم مساحتها جعلته متزهراً عاماً باسم منتزه الخوض المرصود ، والقسم الآخر لا يزال قائماً شرقه وهو مجعول مستشفى يسمى مستشفى الخوض المرصود للأمراض الجلدية . انظر : على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ٣٢٨ - ٣٣٠ . محمد رمزي ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ١٨٨ .
- (٦) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٤٠ ، عبدالرحمن زكى ، القاهرة ، تاريخها وآثارها (ط القاهرة ، ١٩٦٦) ، ص ١١٧ .

ومن القصور التي بنيت على البركة بخط الجسر الأعظم قصر الأمير أرغون الكاملى ^(١) ففى سنة ٧٤٦ هـ / ١٣٤٥ م رسم السلطان الكامل شعبان للأمير أرغون الكاملى بدار أحمد شاد الشرايخانة ^(٢) وأمر بأن يعمر له بجوار هذه الدار قصرأ من مال السلطان يطل على بركة الفيل من جهة وعلى الجسر الأعظم مقابل الكبش من الجهة الأخرى، وأدخل فى ذلك القصر ٢٠ ذراعاً من أرض البركة ، وانتهى من عمارة القصر فى صفر ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م وكان ملاصقاً لقصر بكتمر الساقى الذى يقع شرقية ^(٣) وذكر "على مبارك" أن محله فى رمنه الحوش المقابل لجامع الجاولى المعروف بحوش ابراهيم شركس وما يجاوره إلى الحوض المرصود ^(٤) . أما موضعه اليوم فعمارات حديثة .

وذكر المؤرخون أنه كان يوجد بخط الجسر الأعظم مقابل الكبش دار مطلة على بركة الفيل ، كانت أول أمرها ملكاً للأمير أوجاى اليوسفى ^(٥) زوج خوند بركة أم السلطان الأشرف شعبان ، ثم آلت إلى الأمير على باى رأس نوبة كبير ^(٦) وكان يسكن بجوار على باى الأمير أقبای الطرنتاى ^(٧)

-
- (١) الأمير أرغون الكاملى هو سيف الدين بن عبدالله الكاملى الصغير نائب حلب ثم نائب دمشق ، تبناه الملك الصالح اسماعيل بن محمد بن قلاوون وزوجه أخته من أمه بنت الأمير أرغون العلانى فى سنة ٧٤٥ هـ ، وكان يعرف بأرغون الصغير ، فلما مات الملك الصالح وتولى الملك من بعده أخوه الملك الكامل شعبان أعطاه إمرة مائة وتقدمه ألف وسماء أرغون الكاملى فى جمادى الأول ٧٤٦ هـ . وقد وتولى نيابة حلب سنة ٧٥٠ هـ ونيابة دمشق ٧٥٢ هـ ، وعاد إلى نيابة حلب مره أخرى سنة ٧٥٤ هـ ، ولما تسلطن الملك الناصر حسن للمرة الثانية سنة ٧٥٥ هـ عزله ، وفى سنة ٧٥٦ هـ اعتقله الناصر حسن بالقاهرة ثم بالاسكندرية ثم نفاه إلى القدس بطلاً ، وبني هناك تربة له دفن بها لما مات يوم الخميس ٢٦ شوال سنة ٧٥٨ هـ / ١٣٥٧ م وعمره نحو ٣٠ سنة . انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٧٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٠ ، ص ٣٢٦ - ٣٢٧ ، المنهل ، ج٢ ، ص ٣٢٣ .
- (٢) هذه الدار سكنها الملك الظاهر جقمق وهو أمير ومنها تسلطن سنة ٨٤٢ هـ ، ثم سكنها الملك الأشرف إيتاك وهو أمير كذلك ، ومنها تسلطن أيضاً سنة ٨٥٧ هـ ، انظر : المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ١٠٧٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٢٠ - ١٢١ ، ج١٥ ، ص ٤٣٨ ، . وانظر ما يلى ، ص ١٧١ .
- (٣) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٧٢ ، السلوك ، ج٢ ، ص ٧٠٢ . ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١٠ ، ص ١٢٧ . المنهل ، ج٢ ، ص ٢٧٩ .
- (٤) الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ٣٢١ .

(٥) هو الأمير سيف الدين الجاى بن عبدالله اليوسفى الناصرى ، كان من ممالك الناصر حسن والذي رفاه إلى أمير مائة مقدم ألف ، وقد تولى عدة وظائف هامة فى الدولة ، وتزوج بخوند بركة أم السلطان الملك الأشرف شعبان ، ولما توفيت خوند بركة توترت العلاقة بين الجاى والسلطان وخرج الجاى عليه فى محرم ٧٧٥ هـ إلا أنه انهزم ومات غريقاً فى النيل فى ٨ محرم سنة ٧٧٥ هـ / ١٢٧٣ م ودفن بقبة مدسته بخط سويقة العزى بسوق السلاح (اثر رقم ١٣١) . انظر : ابن تغرى بردى المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٦) فى هذه الدار أراد على باى أن يقتل الظاهر برقوق ، وذلك بأنه ادعى المرض ليعوده الظاهر برقوق عند عودته من فتح الخليج فى ١٩ ذى الحجة سنة ٨٠٠ هـ ، ولكن تلك المؤامرة فشلت وأدت إلى القبض على على باى وخنقه . انظر : ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج١ ، ص ٤٦٦ - ٤٦٩ ، ابن ياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق ٢ ، ص ٥٠٥ - ٥٠٧ .

(٧) هو الأمير سيف الدين اقبای بن عبدالله بن حسين شاه الطرنتاى المعروف بالحاجب ، كان من ممالك الظاهر =

وبسبب هذا الجوار كانت الفتنة التى أدت إلى خروج على باى على السلطان الملك الظاهر بركات وأدت إلى موته (١) .

وقد امتلك السلطان برسباى بناءً يطل على بركة الفيل تجاه الكيش بالقرب من قناطر السباع كان يعرف قديماً بالمقر اليوسفى سودون بقجة (٢) ثم عرف بعد ذلك باسم السلطان برسباى ، وهذا البناء كان يتكون من قاعة (قصر) مطلة على البركة واصطبل ومرافق وغير ذلك ، وقد ذكر حدوده بأن الحد القبلى كان يتهى إلى مكان كان يعرف قديماً بوقف بكتمر الساقى ، والحد البحرى إلى مكان يعرف بالمرودة فاصل بين ذلك وبين زاوية الشيخ إبراهيم الصانع وإلى بركة الفيل والحد الشرقى يتهى إلى بركة الفيل ، والحد الغربى يتهى إلى الطريق العظمى (٣) .

وقد ذكر المؤرخون أنه فى يوم الاثنين ٢٦ صفر ٨٢٦ هـ قد قدم إلى القاهرة الأمير إينال النوروزى (٤) واستقر بها "أمير مجلس" ونزل فى الدار التى تقابل الكيش على بركة الفيل (٥) .

ويبدو لى أن هذه الدار هى دار أحمد شاد الشرايخانة التى سكنها كل من جقمق وإينال قبل أن يتسلطنا ، وكانت هذه الدار مخصصة لمن يلى وظيفة كبرى فى دولة المماليك مثل وظيفة أمير المجلس وهو المشرف على ترتيب مجلس السلطان وتغيير أمر حراسته وغير ذلك من المهام (٦) ولذلك

= بركات ومن خواصه وأعيان دولته ، وتولى فى زمنه وفى زمن الناصر فرج عدة وظائف هامة حتى مات ليلة الأربعاء ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٨١٢ هـ . انظر: ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٢ ، ص ٤٦٥ - ٤٦٦ .

(١) هذه الفتنة كما رواها "ابن اياس" سببها أن مملوكاً من ممالك على باى تعرض لجارية من جوارى الأمير أقباقى الطرنتاى الذى كان ساكناً بجواره فقبض أقباقى على هذا المملوك وضربه أربع مائة عصاة ، فاشتكى على باى للسلطان بركات عساه أن يثار لمملوكه من الأمير أقباقى ، ولكن السلطان لم يفعل شيئاً ، فأضمر فى نفسه الغل والانتقام ودبر المؤامرة التى قُتلت وأدت إلى موته . انظر : بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص ٥٠٥ - ٥٠٦ .

(٢) ذكر "ابن اياس" أنه فى صفر سنة ٨٠١ هـ قامت فتنة بين الأمراء وأراد بعضهم القبض على سودون بقجة وكان ساكناً على بركة الفيل ، ولما أرادوا مسكه رمى نفسه من الطاقة إلى البركة وهرب واختفى . بدائع الزهور ، ج١ ، ق٢ ، ص ٦٤٠ - ٦٤١ .

(٣) كتاب وقف السلطان برسباى رقم ٨٨٠ أوقاف ، ص ١٢٥ ، سطور ٥ - ١ . أحمد دراج ، حجة وقف السلطان برسباى ، نشر المعهد العلمى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ٢٤ .

(٤) هو الأمير سيف الدين إينال بن عبد الله النوروزى ، أصله من ممالك الأمير نوروز الحانظلى المتغلب على دمشق ودواوارة ، ثم انتقل بعد قتل استاذة لخدمة السلطان المؤيد شيخ وترقى إلى ولى نيابة غزة ثم انتقل إلى نيابة حماه ، وفى أوائل سلطنة الأشرف برسباى تولى نيابة طرابلس ، ثم استدعى إلى القاهرة وانعم برسباى عليه بأمرة مائة وتقدمه ألف ثم استقر أمير مجلس ثم أمير سلاح واستمر بها إلى أن توفى فى أول ربيع آخر سنة ٨٢٩ هـ ومن المعروف أنه كان زوج أخت المؤرخ ابن تغرى بردى . انظر : ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٢ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج٣ ، ص ١١١ .

(٥) ابن الصيرفى نفسه ص ٢٤ ، العبنى ، عقد الجمان ، (نشر الزهراء) ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ .

(٦) عن هذه الوظيفة بالتفصيل انظر : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، ج١ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٤ .

كانت هذه الدار قريبة من القلعة . وقد رأينا مثل ذلك الأمر في سكن من يتولى وظيفة الأمير اخور بغربى البركة . (١)

ويبدو أن هذه الدار قد سكن بها أيضاً الأمير يونس الدوادار المتوفى في رمضان ٨٦٥ هـ (٢١) حيث ذكر ابن تغرى بردى أنه في يوم الأحد ٢٥ جماد الآخرة سنة ٨٦٠ هـ ركب الدوادار يونس من قاعة ابن قطينة بساحل بولاق بعد أن أقام بها مدة توعدك كان به وتوجه الى بيته تجاه الكبش على بركة الفيل . (٣)

ج - العمارة بالجانب الغربى للبركة :

عمر الجانب الغربى للبركة فيما بينها وبين الخليج المصرى وقد كثنت تلك المنطقة بالعمائر نظراً لموقعها المتميز فحفلت بالخطط والدروب في العصر المملوكى وأهمها خط قبو الكرمانى (٤) الذى عمر زمن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون .

وقد ذكر «المقريزى» هذا الخط لما تكلم على قنطرة آق سنقر فقال : «أن هذه القنطرة على الخليج الكبير يتوصل إليها من خط قبو الكرمانى ومن حارة البدعيين التى تعرف اليوم بالحبانية» (٥) .

ولما تكلم على جامع بشتاك قال «هذا الجامع خارج القاهرة بخط قبو الكرمانى على بركة الفيل» (٦) .

(١) انظر ما يلى ، ص ١٧٧ ، حاشية (١) .

وما يذكر في هذا الشأن أيضاً ارتباط السكن بالوظيفة نقول أن قصر واسطبل الأمير قوصون الذى كان مجاوراً لمدرسة السلطان حسن والذى جدد عدة مرات والباقي منه الآن الأثر رقم ٢٦٦ ، كان مخصصاً لكل من يلى وظيفة الأتابك وذلك لقربه من القلعة ، وظل على ذلك حتى انتقل سكن الأتابكى إلى الأريكية حين خصص قصر أريك لهذا المنصب . كما أن دار منجك بسوق السلاح خصص لمن يلى وظيفة أمير السلاح . انظر : ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٩ ، ص ١٢١ ، محمد رمزى ، تعليقه على نفس الجزء ، ص ١١٠ - ١١١ ، محمد حسام ، أربعة بيوت عمليكية من الوثائق العثمانية ، بحث في مجلة حوليات اسلامية ، المجلد ٢٤ سنة ١٩٨٨ ، ص ٨٨ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٤٧٢ .

(٣) حوادث الدهور ، ج٢ ، ص ٤٧٢ .

(٤) الكرمانى هو الأمير طغز دمر الحموى الكرمانى نائب السلطنة بديار مصر ودمشق في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون ، وقد عاصر أيضاً أربعة من أبنائه ، وكان له حكر بالجانب الغربى للخليج فبنى قنطرة ليتوصل اليه ، وكان لطغز دمر دار مطلة على بركة الفيل محلها الآن المدرسة الخديوية ، وقد مات طغز دمر في ليلة الخميس مستهل شهر جمادى الآخرة سنة ٧٤٦ هـ . انظر .

المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١١٦ ، ١٤٧ .

(٥) الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٧ .

(٦) الخطط ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

وبما أن حارة الحبابية وجامع بشتاك المعروف بجامع مصطفى باشا فاضل لا يزال موجودين بشارع درب الجماميز ، يتبين من ذلك أن خط قبو الكرمانى كان واقعاً شرقى الخليج ومكانه اليوم شارع درب الجماميز فى المسافة بين سكة الحبابية وبين حارة السادات .^(١)

ومن أهم العماير الدينية التى بنيت على الشاطىء الغربى لبركة الفيل خانقاة وجامع الأمير بشتاك الناصرى^(٢) بخط قبو الكرمانى محصورين بين الشاطىء الغربى للبركة والشاطىء الشرقى للخليج ، فقد أنشأ الخانقاه على شاطىء الخليج الشرقى واحتفل بافتتاحها فى أول شهر ذى الحجة سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م ، وقرر فيها عدد من الصوفية وأجرى لهم الخبز والطعام فى كل يوم واستمر ذلك مدة^(٣) ، وقبلتها بدأ فى بناء جامعة على شاطىء البركة فى رمضان ٧٣٦ هـ / ١٣٣٦ م ، وفرغ من بنائها فى شهر شعبان سنة ٧٣٧ هـ أو فى شهر ذى الحجة فى رواية أخرى^(٤) .

وبما لا شك فيه أن ذلك الجامع وتلك الخانقاة كانا من أعظم العماير روعة وجمالاً وبدل على

(١) أطلقت مصلحة التنظيم اسم قبو الكرمانى على حارة بشارع سوق السباعين فى بر الخليج الغربى فى حين أن خط قبو الكرمانى كان واقعاً فى بر الخليج الشرقى . انظر : محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ٢٧٤ .

(٢) هو الأمير سيف الدين بشتاك أحد أمراء الملك الناصر محمد بن قلاوون وعظيم دولته ، وقد رقاها الناصر إلى أعلى رتبة فى رتب الماليك وهى أمير مائة مقدم ألف ، وولاه عدة وظائف هامة بالدولة ، وفى سنة ٧٣٣ هـ أضيف إلى أملاكه وثروته اقطاع وأملاك الأمير بكتنمر الساقى حتى أنه تزوج امرأته ، ومن الطريف أنه كان بين الأمير بشتاك وبين الأمير الاتابكى قوصون منافسة شديدة فى كل شيء حتى فى العماير ، فقد كان قوصون قد اشترى قصر ييسرى بالشارع الأعظم على يسار المتجه إلى باب الفتوح فبنى بشتاك مقابله قصراً عظيماً فاحياً اسم بين القصرين من جديد ، وعقب وفاة السلطان الناصر محمد احتدم الصراع والتنافس بين الأميرين وانتهى بالقبض على بشتاك واعتقل بالاسكندرية وقتل هناك فى ربيع آخر ٧٤٢ هـ وقد كان واسع الثراء حتى أن اقطاعه كانت عبرته مائتى ألف دينار فى السنة ، وكان له منشآت معمارية عديدة أهمها قصره الذى لا يزال موجوداً بين القصرين (أثر رقم ٣٤) ، والجامع والخانقاة ببركة الفيل (أثر ٢٠٥) والحمام بسوق السلاح (أثر رقم ٢٤٤) . انظر : المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٤ - ٣٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٦١٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٢٠ ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ص ٣٦٧ - ٣٧٢ ، ابن حجر العسقلانى ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٤٧٧ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤١٩ .

(٤) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٢ - ١٣ ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٠٩ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٤٢٣ .

* ومن الملاحظ أن المؤرخ «ابن اياس» قد أخطأ فى نسبة الجامع فنسبه إلى الأمير بشتاك العمرى وهذا الخطأ لشابه الاسم فقد قال «فى شهر رمضان سنة ٧٧٠ هـ كانت وفاة الأمير بشتاك العمرى رأس نوبة النوب وهو صاحب الجامع المطل على بركة الفيل بالقرب من قنطرة سنقر» ، انظر : بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢ ، ص ٨٦ .

* ومن الملاحظ أن ابن اياس أخطأ كذلك فى تاريخ وفاة بشتاك العمرى فذكر أنه فى رمضان سنة ٧٧٠ هـ ولكن الصحيح أنه توفى فى سنة ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م .

انظر : ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٣٧٢ - ٣٧٣ .

ذلك آثار بشتاك الباقية وهى قصره بين القصرين (اثر رقم ٣٤) وكذلك مدخل حمامه بسوق السلاح (اثر رقم ٢٤٤) ويؤيد ذلك ما يقوله «المقرىزى» عن الجامع بأنه «من أبهج الجوامع وأحسنها رخاماً وانزهها وأدركناه إذا قويت زيادة ماء النيل فاضت بركة الفيل وغرقته فيصير لجة ماء» (١).

ومن العماثر الدينية أيضاً بالجانب الغربى من البركة خانقاة سعد الدين بن غراب (٢) أثر رقم ٣١٢، وقد أنشأها سنة (٨٠٣ هـ - ٨٠٨ هـ / ١٤٠٠ - ١٤٠٦ م)، وهى تطل مباشرة على بر الخليج الشرقى، وهى تقع غربى جامع بشتاك بشارع درب الجماميز (٣)، وكان لابن غراب أيضاً دار بالقرب من خانقائه كانت تطل على بركة الفيل (٤).

ومن العماثر الدينية التى بنيت فى الجانب الغربى للبركة مدرسة (جامع) قراقجا الحسنى (٥) (أثر رقم ٢٠٦) الذى بنى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م وأوقف قراقجا عليه أوقافاً عديدة وقد ذكر فى وثيقة

(١) الخطط، ج ٢، ص ٣٠٩.

* تم تجديد الجامع فى سنة ١٢٧٨ هـ / ١٨٦١ م بامر الأميرة الفت هاتم قادن والدة مصطفى باشا فاضل أخى الخديوى اسماعيل، ولم يبق من الجامع الأصلى سوى مثلثته العالية الرشيدة الحافلة بالنقوش والكتابات، وكذلك تبقى بوابته الأصلية، أما الخانقاة فقد اندثرت وأقامت الأميرة الفت هاتم سيلاً مكانها سنة ١٢٨٠ هـ / ١٨٦٣ م بشارع درب الجماميز انظر بالتفصيل: المقرىزى، الخطط، ج ٢، ص ٣٠٩، ٤١٩. محمد رمزى، تعليقه على النجوم، ج ٩، ص ٢٠٨، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج ٣، ص ٩١ - ٩٢، ج ٤، ص ١٣٧، ج ٦، ص ١٤١. حسن بعد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، ص ١٤٣ - ١٤٦. سعاد ماهر، مساجد مصر، ج ٣، ص ٢٠٦ - ٢١٣.

(٢) هو القاضى سعد الدين إبراهيم بن عبد الرازق بن غراب الاسكندراني، يتيم إلى اسرة قبطية، وقد تولى عدة وظائف هامة منها ناظر الخاص وناظر الجيوش واستادار السلطان وكتائب السر، وكان أحد الأمراء مقدمى الألوف الأكابر فى الدولة، وقد لعب دوراً كبيراً فى دولة المماليك الجراكسة، وقد توفى يوم الخميس ١٩ رمضان ٨٠٨ هـ ولم يبلغ الثلاثين عاماً.

انظر: المقرىزى، ج ٢، ص ٤٢٠ - ٤٢١.

(٣) ذكر «على مبارك» خانقاة ابن غراب أنها كانت كبيرة الحجم ولم يبق منها فى زمنه إلا ايوان واحد وبها سبيل مهجور وقد جعلت راوية مقامة الشعائر. انظر:

الخطط التوفيقية، ج ٢، ص ٩٢، ج ٦، ص ٨٥، ٨٦، ١٣٩. وعنهما انظر: سعاد ماهر، مساجد مصر، ج ٤، ص ٧٧ - ٨١.

(٤) المقرىزى، السلوك، ج ٣، ص ١١٧١، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٧٣٤.

(٥) قراقجا هو سيف الدين قراقجا عبدالله الحسنى الظاهرى امير اخور كبير، من كبار الأمراء الذين لعبوا دوراً كبيراً فى تاريخ دولة المماليك الجراكسة، وقد توفى بالطاعون فى يوم ١٨ صفر ٨٥٣ هـ، وعنه بالتفصيل انظر: السخاوى، الفسوء اللامع، ج ٦، ص ٢١٦. ابن تغرى بردى، النجوم، ج ١٥، ص ٣٩٠. عبد اللطيف إبراهيم، وثيقة الامير اخور كبير قراقجا الحسنى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، المجلد ١٨، الجزء الثانى، ديسمبر ١٩٥٦.

عن المدرسة بالتفصيل، انظر: سعاد ماهر، مساجد مصر، ج ٤، ص ١٣٤ - ١٤٢.

قراقجا أن موقع الجامع بظاهر القاهرة المحروسة خارج بابى زويلة والخرق بخط المسجد المعلق^(١) بدرب الغنامة على يمين السالك من درب النيدى وغيره وعلى يسرة السالك من جامع بشتاك طالباً درب النيدى وغيره^(٢) ، كما ذكر أيضاً أن حد الجامع القبلى كان ينتهى إلى حوش خراب يعرف بالغور والحد البحرى كان ينتهى إلى الطريق السالك والحد الشرقى إلى زقاق والحد الغربى ينتهى إلى الزقاق المتوصل منه إلى درب النيدى^(٣) .

ومما سبق يتبين أن درب النيدى هذا يمثل الآن شارع درب الجماميز وكان يمثل الحد البحرى (الشمالى الغربى) للجامع ، أما الحد القبلى (الجنوبى الشرقى) الذى كان ينتهى إلى حوش يعرف بالغور فيمثل موقعه الآن مدرسة الشيخ صالح ، أما الزقاق الذى بالحد الشرقى فيمثل اليوم حارة السادات ، وكان الحد الغربى ينتهى إلى زقاق غير موجود حالياً .

كما أنشأ قراقجا أيضاً مسجداً صغيراً أشبه بزاوية وكذلك سيلاً وكتاباً على الجانب الآخر من الشارع أمام المدرسة (الجامع) ، كما الحق بتلك المنشآت حوانيت عديدة^(٤) وكان السيل موجوداً حتى نهاية القرن الماضى^(٥) .

كما كان لقراقجا دار كبيرة^(٦) مجاورة لمدرسته كانت تطل على بركة الفيل آلت ملكيتها

(١) المسجد المعلق هو المرتفع مدخله عن مستوى أرضه الطريق ، ولعل هذا المسجد هو المنسوب إلى سيف الدين اسبينا حارس الطير الذى تولى نيابة السلطنة فى أيام الناصر حسن بن قلاوون ، وكان هذا المسجد بدرب الجماميز الذى كان يعرف بدرب قراقجا الحسى (على حد قول وثيقة قانى بساى الرماح رقم ١٠١٩ أوقاف) على رأس درب النيدى، وقد تمجد بعد سنة ٨٠٠ هـ ، انظر : المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ٣٣١ . ، عبداللطيف ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٢) عبداللطيف ابراهيم ، المرجع السابق ، ص ١٩٩ ، سطور ١٠ - ١٣ (٣) نفسه ، ص ٢٠٣ ، سطر ٤٦ - ٤٩ .
(٤) نفسه ، ص ٢٠٣ .

(٥) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٥ ، ص ١٧ .

(٦) فى وثيقة قراقجا رقم ٧٤٨ أوقاف المؤرخة بأول شعبان ٨٤٥ هـ . ذكر لقاعة كبرى ذات ايوانين متقابلين فيما بينهما دور قاعة ، وكانت تطل على بركة الفيل وذكر أن الحد القبلى ينتهى إلى بركة الفيل والحد البحرى كان ينتهى إلى حوش يعرف بابن ارج وغير ذلك ، والحد الشرقى ينتهى إلى مقر السيفى جاتم امير اخور وإلى البركة والحد الغربى ينتهى إلى ملك السيفى مغلباى عبدالله الخاصكى وغير ذلك .

* وهذه الوثيقة التى استشهدت بها غير الوثيقة رقم ٩٢ أوقاف والتى نشرها د . عبداللطيف ابراهيم .

فى نهاية العصر المملوكى إلى الأمير قانى باى الرماح^(١) ، ومحل هذه الدار الآن مدرسة الشيخ صالح^(٢) .

ومن أهم العمائر المدنية التى كانت تحت الشاطيء الغربى لبركة الفيل فى العصر المملوكى دار الأمير طقز دمر والتى نزل بها السلطان غياث الدين أحمد ضيفاً على السلطان الظاهر بركوق هرباً من تيمور لك^(٣) . وكانت هذه الدار تقع بالمنطقة التى تشغلها الآن مدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية (الميرية سابقاً)^(٤) .

ومن القصور الهامة التى كانت تطل على الشاطيء الغربى للبركة قصر فاطمة الخاصبكىة^(٥) زوجة السلطان قايتباى ، وكان قصراً كبيراً كامل المرافق والمشمولات ، وكان ملحق به حمام كبير وحديقة وغير ذلك وذكر برثيقته رقم ٧٠٧ أوقاف أن القصر يقع بخط قنطرة سنقر بدرب البرناق وكان يطل على بركة الفيل مباشرة ، وكان حده البحرى ينتهى إلى الطريق المسلك وهو درب

(١) عبداللطيف ابراهيم ، الوثائق فى خدمة الآثار ، (كتاب دراسات فى الآثار العربية) ص ٤٣٦ . سامى عبدالحليم ، آثار الأمير قانى باى قرا الرماح بالقاهرة ، دكتوراه «غير منشورة» (كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥) ص ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٨ ، ٣٠٤ .

* ومن الجدير بالذكر هنا أن د . عبداللطيف ابراهيم ربط بين سكن الأميرين قراقجا الحسى وقانى باى بتلك المنطقة على بركة الفيل وبين وظيفة كل منهما وهى وظيفة أميرأخو كبير أى المشرف على اصطبلات وخيول السلطان والتى ذكر المؤرخون أنها كانت توجد على بركة الفيل وفى الرملة . انظر : الوثائق فى خدمة الآثار ، ص ٤٠٠ .

(٢) توارث الأمراء سكنى هذه الدار فى العصر العثمانى حتى آلت فى النهاية إلى الوزير وب السيف والقلم محمود سامى البارودى ، ثم أقيمت بها مدرسة الشيخ صالح بعد ذلك انظر : على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٩٥ . عبداللطيف ابراهيم ، الوثائق فى خدمة الآثار ، ص ٤٧٦ .

(٣) كان السلطان غياث الدين أحمد بن أويس يحكم العراق ابتداءً من سنة ٧٨٤ هـ وفر من أمام تيمور لك سنة ٧٩٥ هـ فاستضافه السلطان الظاهر بركوق بمصر وأئزله بدار طقز دمر على بركة الفيل ، وظل فى صراع كبير على حكم العراق وإيران حتى قتل سنة ٨١٣ هـ . انظر :

المقريزى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ١٧١ . ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ص ٢٤٨ - ٢٥٦ . النجوم الزاهرة ، ج ١٣ ، ص ١٨١ . ابن حجر العسقلانى ، انباء الغمر ، ج ٢ ، ص ٤٥٩ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٢٤٤ . ابن دقماق ، الجواهر الثمين ، ج ٢ ، ص ٢٩ . ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٢١١ .

(٤) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ١ ، ص ١١٣ .

(٥) هو خوند فاطمة ابنة العلاء من خاص بك ، كانت زوجة الملك الأشرف قايتباى ، ثم تزوجت بعد وفاته الملك العادل طومان باى ، وكانت من مشاهير النساء فى العصر المملوكى ، وكان لها كلمة مسموعة لمدة ثلاثين سنة ، وقد تعرضت فى أواخر أيامها لبعض الشائعات والمحن ، وقد توفيت يوم الأربعاء ٢٢ ذى الحجة ٩٠٩ هـ . انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦٤ .

الجماميز الآن ، وكان حده الشرقى ينتهى الى سويقة والى بيت يعرف بالأمير محمد نقيب الجيش^(١) ،
والحد الغربى ينتهى الى بيت السلطان قايتباى^(٢) .

ومحل القصر الآن داخل حدود المدرسة الخديوية^(٣) .

ومن الملاحظ أن قصر فاطمة الخاصبكية قد صار من ضمن أوقاف السلطان الغورى^(٤) ، وكذلك
الخوانيت التى تقع شمال القصر والتى كانت من أوقافها أيضاً^(٥) .

أما الأمير قانى باى الرماح^(٦) فقد امتلك كما ذكرت من قبل دار قراقجا الحسنى فبجدها وأضاف

(١) ذكر على مبارك أن هذه الدار صارت فى رمنه بيد ورثة على برهان باشا أخى راتب باشا الكبير ، وقد دخلت فى
حدود المدرسة الخديوية ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٢) ورد فى كتاب وقف السلطان قايتباى رقم ٨٨٦ أوقاف ص ٢٩٤ - ٢٩٥ أنه وقف على زوجته فاطمة الخاصبكية
هذا المكان والأبنية الثلاثة بخط نيطرة آق سنقر داخل درب يعرف بالبرناق المثل على بركة الفيل وذلك فى حياتها
وبعد وفاتها بصرف ريع ذلك على مدرسته وثرته بالصحراء .

(٣) يستفاد مما ذكره الجبرتي وعلى مبارك أن هذا القصر تنقل بين الأيدى إلى أن انتقلت ملكيته إلى الأمير يوسف بك
الجزار فى سنة ١١٢٣ هـ / ١٧١١ م وظل به حتى مات سنة ١١٣٤ هـ / ١٧٢٢ م فسكنه من بعده اسماعيل بك
بن ابواظ بك فبجده وصرف عليه أموالاً طائلة ورخرقة بالرخام وعمره عمارة عظيمة وظل به حتى قتل سنة ١١٣٦ هـ /
١٧٢٣ م فتحرق من بعده ، ثم بعد مدة كبيرة أنشأ فى مساحة القصر الأمير سامى باشا المرلى داراً كبيرة بعد
أن اشترى الأحواش التى بجانبها ووسعه بها ، وبعد مدة اشترى الأمير مصطفى فاضل أخى الخديوى اسماعيل
فبناها بناءً جديداً ورغس فيها بستاناً عظيماً ، ثم دخلت فى أيام على باشا مبارك للمعارف إلى أملاك الدولة
وجعل بها ديوان المعارف ولما تولى نظارة الأوقاف نقل ديوان الأوقاف بها مع ديوان المدارس وجعل بها
كتبخانة قبل انتقالها إلى منهاج الحالى بميدان باب الخلق ، ثم بنى مكانها أبنية المدرسة الخديوية الثانوية الآن .
انظر :

على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٩٧ - ١٠٠ .

(٤) كتاب وقف السلطان قايتباى رقم ٨٨٢ أوقاف .

* وربما أجبر الغورى خوند فاطمة الخاصبكية على التنازل عن أملاكها ومنها هذا القصر ولم تغير حدوده عما دى
قبل ، فقد ورد فى ص ٩٨ أن حده القبلى كان ينتهى إلى بركة الفيل ، والبحرى إلى وفاق غير نافذ داخل درب
البرناق ، والحد الشرقى لبيت المرحوم قانصوه . وكان يعرف بوقف خشقدم ، والحد الغربى ينتهى لمكان يعرف
بكتاب الجراية .

(٥) عن الأصول الوثائقية ووصف تلك الخوانيت انظر : عروض الامام ، الأصول الوثائقية الجامعة لأوقاف السلطان
الغورى ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٦) عن ترجمته بالتفصيل انظر : سامى عبدالحليم ، آثار الأمير قانى باى قرا الرماح بالقاهرة «دكتوراة» .

إليها ^(١) ، كما اشترى عدة أماكن بجوار هذا البيت وأقام مكانها بيتاً نُعت بالبيت الكبير ^(٢) .

د - العمارة بالجانب الشمالي لبركة الفيل :

عرفت العمارة طريقها شمال وشمال شرق بركة الفيل في العصر الفاطمي حيث اختطت حارة المصامدة وحارة الهلالية وحارة البديعين التي عرفت فيما بعد بحارة العيدانية ، إلا أن تلك الحارات تخربت زمن الأيوبيين وجعلت أراضيها بساتين .

وفي العصر المملوكي اختطت حارة الحبانية مكان حارة العيدانية ، وكان يتوصل إليها من تجاه قنطرة سنقر ، وكان بعض دورها يشرف على بستان الحبانية الذي أوقفه صلاح الدين الأيوبي على خانقاه سعيد السعداء وبعضها يطل على بركة الفيل ^(٣) ، وكانت تلك الحارة تصل بين شارع درب الجماميز إلى شارع الداودية ^(٤) .

ويبدو أن شمال بركة الفيل احتفظ لوقت كبير في العصرين المملوكي والعثماني بالبساتين ولم تكتف به العمارة كالجانب الغربي للبركة ^(٥) .

ومن أهم العماائر الدينية التي بنيت بحارة الحبانية وكانت تطل مباشرة على بركة الفيل مدرسة زين الدين الاستادار (أثر رقم ٢٠٤) التي انتهت عمارتها في جمادى الآخرة سنة ٨٥٦ هـ / ١٤٥٢ م وقد قرر بها حضور ومتصوفة ^(٦) .

وكان للسلطان الغوري دار كبيرة شمال شرق البركة بحكر اقوش الموصلى بالقرب من جامع قوصون ^(٧) وكانت هذه الدار تطل مباشرة على البركة وقد ذكر أن حدها القبلى كان ينتهى الى

(١) ذكر في وثيقة قانى باى «أن الحد القبلى ينتهى بعضه إلى قاعات تعرف بالمقر الاشرفى يونس أمير نقيب الجيوش المنصورة ، وبعضه إلى بيت قانى باى الكبير ، وبعضه إلى بركة الفيل ، والحد البحرى ينتهى إلى رفاقى ، والحد الشرقى إلى نسخة بها أصل جميل وبعضه إلى بناء يعرف بالسيفى شاد بك ومطل على البركة أيضاً ، والحد الغربى إلى رفاقى فاصل بينه وبين اسطبل قانى باى أيضاً وإلى أماكن تخص قانى باى وإلى البركة .

أنظر سامى عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٣١٧ - ٣١٨ ، سطور ٥٠٧ - ٥١٤ .

(٢) ذكر أن هذا البيت يقع بدرب أرغون شاه بدرب النيدى وكان حده القبلى ينتهى الى بركة الفيل والحد البحرى ينتهى الى بناء قديم والحد الشرقى كان بعضه ينتهى الى بيت يعرف بسكن قانى بردى وبعضه الى البيت الآخر له ، والحد الغربى إلى مقام سيدى عبدالله وسكن ثمر بغا وسكن فان بردى وتمه الى بركة الفيل . انظر :

سامى عبدالحليم ، المرجع السابق ، ص ٣٠٣ ، سطور ٣٩٨ - ٤٠٢ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦ ، ٢٠ .

(٤) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٢٤٥ .

(٥) نفسه :

(٦) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ١ ، ص ١٢٩ . ، ابن اياس ، بذائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ .

(٧) كانت هذه الدار قديمة اشتراها السيفى ثانى بك بن عبدالله بن يشبك أمير خازندار كبير فى صفر ٩٠٧ هـ / ١٥٠١ م ثم باعها للسلطان الغورى . انظر :

الوثيقة رقم ٥٦١ ج / أوقاف ، عوض الامام ، المرجع السابق ، ص ١٤٥ .

الطريق ، والحد البحرى ينتهى الى بركة الفيل ، والحد الشرقى كان ينتهى إلى مكان يعرف قديماً بالغرسى بخليل والحد الغربى ينتهى إلى مكان يعرف قديماً بورثة الأمير أقوش^(١) ، وموضع الدار الآن مباني تطل على شارع محمد على .

العمارة حول بركة الفيل فى العصر العثمانى :

ازداد العمران على بركة الفيل فى العصر العثمانى ، وتناقصت مساحة البركة مع الزمن بفعل اقامة البيوت مكانها ، وكانت منطقة بركة الفيل هى المكان المفضل لسكنى الطبقة الارستقراطية فى ذلك الوقت (٢) .

وقد ذكر البكرى (ت ١٠٨٧ هـ / ١٦٧٦ م) أن البركة فى زمنه فى غاية العمارة وهى مسكن أمراء الدولة العثمانية وكلما تقدم الزمن ازدادت عمارة^(٣) ، وفى القرن ١٠ هـ / ١٦ م كان يسكن بها ٢٠٪ من عدد أفراد الطبقة الارستقراطية^(٤) ، وحتى منتصف القرن ١١ هـ / ١٧ م كان يوجد بمنطقة بركة الفيل ٣٣٪ من المجموع الكلى للطبقة الارستقراطية^(٥) ، ومن منتصف القرن ١١ هـ / ١٧ م حتى منتصف القرن ١٢ هـ / ١٨ م كان يسكن على شاطئ البركة ٤٠٪ من عدد كبار الشخصيات فى مقابل ١٧٪ ببداية القرن ١٠ هـ / ١٦ م .^(٦)

ومن أوساط القرن ١٢ هـ / ١٨ م بدأ البكوات يتركزون حول كل من بركة الفيل وبركة الأزيكية وهما أوسع برك القاهرة وأكثرها امتلاءً بالماء - مصدر انتعاشهم - فى معظم أوقات السنة ، إذ بلغت نسبتهم هناك ٥٣٪ فيما بين سنتى ١١٦٩ هـ و ١٢١٣ هـ / ١٧٥٥ و ١٧٩٨ م ، وارتفعت الى ٥٨٪ عام ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م^(٧) .

(١) كتاب وقف السلطان الغورى رقم ٨٨٢ فى أوقاف ، ص ٩٠ . الوثيقة رقم ٥٦١ جـ أوقاف ، عوض الامام ، المرجع السابق ، ص ١٥٢ .

(٢) المقصود بكلمة ارستقراطى و ارستقراطية أفراد الطبقة الحاكمة فى مصر وهم كبار الشخصيات المملوكية عند نهاية دولة المماليك الجراكسة ومنهم صفوة المماليك «بكوات وكشاف» وكذلك ضباط الاجاقات فى العصر العثمانى وهى طبقة دخيلة فى مقابل الشعب المصرى الخاضع لهم من برجوازية وطنية (المشايع وكبار التجار والطبقات الشعبية) . اندويه ريون ، فصول من التاريخ الاجتماعى للقاهرة العثمانية ، ص ٢١٣ .

(٣) قطف الأزهار من الخطط والآثار ، مخطوط ، ورقة ١٥٤ .

(٤) اندويه ريون ، المرجع السابق ، ص ١٦٧ ، ١٦٨ .

(٥) نفسه ، هامش ٢١٥ .

(٦) نفسه ، ص ١٧٩ .

(٧) عند نهاية القرن كان كل واحد من البكوات الذين كانت لهم حرية واسعة فى الاختيار بين عدة بيوت يمتلك على الاقل داراً فى ضواحي بركة الفيل وعادة حتى قوصون وأخرى فى الأزيكية وعلى سبيل المثال كان لعلى بك الكبير

ثلاثة بيوت ولمحمد بك أبو الذهب اثنان ولإسماعيل بك اثنان أما مراد بك فكان له ستة بيوت ، وكان لمحمد =

وقد حفل الشاطيء الشرقى للبركة بكثير من دور الأمراء فى العصر العثمانى وهذه الدور تعود أغلبها للعصر المملوكى فكانت تجدد أحياناً أو تبنى من جديد محل دور قديمة ، وقد وقع بخريطة الحملة الفرنسية كثير من هذه الدور ، وكان كثير منها يقع بزقاق حلب الذى كان يمثل درياً نافذاً متصلاً بشوارع الداودية وشوارع الحبانية ، وقد عرف زمن الحملة بعطفة (زقاق) مراد بك ^(١) ، وكانت تسمى الطريق باسمه لوقوع بيته الكبير به ، وكان هذا البيت يشرف على رجة مربعة تقرب مساحتها من ٦٠ × ٦٠ متراً ، وكانت الرجة على بعد خمسين متراً من شارع الخلمية ^(٢) .

وكان بجوار بيت مراد بك بيت منافسه الأمير ابراهيم بك الكبير ^(٣) شيخ البلد وكان هذا البيت كبيراً جداً ^(٤) وكان بجواره بيت ابنه مرزوق بك ^(٥) ، الذى سكنه بعد موت صاحبه الأمير عبدالرحمن بك ^(٦) ، وكان يوجد حمام يعرف بحمام ابراهيم بك فى مقابل بيته وهو الذى كان يعرف زمن المقرئى باسم حمام قمارى ^(٧) ، وكان يوجد بجوار بيت مرزوق بك بيت الأمير سليمان

= بك الألقى العدد نفسه ولمرزوق بك أربعة ولابراهيم بك خمسة . انظر :
ريون ، فصول ، هامش ص ٢٦ ، عبدالرحمن زكى ، خطط القاهرة أيام الجبرتي ، (بحث فى كتاب عبدالرحمن الجبرتي لمجموعة باحثين) ، (نشر الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٦) ص ٤٨١ .
(١) انظر ترجمته بالتفصيل فى ص ٦٧ .
(٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٤٨ - ١٤٩ .
* وقد وقع هذا البيت فى خريطة الحملة برقم ٨٨ ، فى المربع 7 - Q .
(٣) هو ابراهيم بك المحمدى ، كان من عماليك محمد بك ابي الذهب ، وقد تولى بعد موته مشيخة البلد ورياسة مصر فى سنة ١٢٨٩ هـ / ١٧٧٥ م وظل بها مدة طويلة ، وعند مجيء الحملة الفرنسية هرب الى دنقلة بالسودان وبها مات سنة ١٢٣١ هـ / ١٨١٥ م وجرى بجثته الى مصر فدفن بالامام الشافعى .
الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٥٣٧ - ٥٣٨ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٤) وقع بخريطة الحملة الفرنسية برقم ٨٩ ، فى المربع 8 - Q .
(٥) وقع برقم ٩٠ ، فى المربع 8 - Q .
* كانت هذه البيوت قد دخلت فى جنية سراى الخلمية ولما قسمت أرض الحديقة حل محلها الآن عمارات سكنية حول شارع مهذب الدين الحكيم .

(٦) توفى عبدالرحمن بك سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م ، انظر ترجمته فى :
الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٥١ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٥١ .
(٧) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .
* وقد وقع الحمام برقم ٩١ ، فى المربع 8 - Q .

بك الشايبورى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م^(١) ، وكان يليه بيت قاسم بك المتوفى سنة ١٢١٥ هـ / ١٨٠٠ م^(٢) .

ومن البيوت التي كانت ببركة الفيل قرية من شارع نور الظلام بيت اسماعيل بك بن محمد بك الدالي والذي عمل به فرح لولده واستمر خمسة عشر يوماً سنة ١١٤٧ هـ / ١٧٣٤ م^(٣) .

ومن القصور الكبيرة المملوكية الاصل والتي استمر السكنى بها فى العصر العثماني قصر سكنه الأمير حسن كتحدا عزبان كان يقع بجوار مدرسة بشير الجمدار^(٤) ، وكان قصراً كبيراً يحتوى على تكوينات معمارية كثيرة وذكر بالوثيقة أن حدوده كالتالى «الحد القبلى كان ينتهى لأماكن قديمة جارية فى وقف السلطان قايتباى والحد البحرى ينتهى بتمامه إلى بركة الفيل والحد الشرقى ينتهى إلى سكن ابراهيم بك وكنتف باب الجامع القوصونى والحد الغربى الى أماكن قديمة وقف ذو الفقار بك^(٥) .

وذكر الجبرتي أنه فى سنة ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م تقلد كاشفان لاسماعيل بك يسمى كل واحد منهما «عثمان» صنعين وسكن أحدهما بيت مصطفى بك الذى كان سكن محمد بك طبل وهو على بركة الفيل بجوار جامع أربك اليوسفى وهو الذى يسمى بعثمان بك طبل^(٦) .

أما العمارة جنوب البركة حيث خط قناطر السباع بالجسر الأعظم فكان فى غاية العمران ، ومن الأبنية التى ورد ذكرها فى الوثائق العثمانية وكانت تطل على البركة قصر أمين الدين محمد كمال الدين بن زين الدين عرفات ، وكان هذا القصر يجاور مدرسة لاجين السيفى ، وكان حده القبلى ينتهى الى مدرسة لاجين السيفى والحد البحرى ينتهى بعضه الى البركة وبعضه الى مجاز سالك إلى الشارع الأعظم وأما الحد الشرقى فكان بعضه ينتهى إلى مكان يعرف قديماً بالاستادار ثم عرف بعد ذلك بالوزير سنان باشا وباقى الحد كان ينتهى إلى البركة والحد الغربى كان ينتهى إلى ربع مطل على الطريق وقف السيفى لاجين^(٧) .

(١) انظر ترجمته فى : الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، على مبارك ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .
* وقع هذا البيت برقم ١١٠ ، فى المربع P-8 .

(٢) انظر ترجمته فى : الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ ، على مبارك ، الخسطة التوفيقية ج ٢ ، ص ١٥١ . وقع هذا البيت برقم ١١١ فى المربع P-8 ، وقد دخلت بعض مساحة هذا البيت فى شارع محمد على حالياً .

(٣) أحمد شلى ، أوضاع الاشارات ، ص ٥٩٢ .

(٤) ورد فى وثيقة الأمير حسن كتحدا عزبان رقم ١٧٦ أوقاف المؤرخة بـ ٦ رمضان ١١٤٨ هـ أنه توارث سكنى هذه الدار افراد عديدين فقد كان المكان يعرف بسكن السيفى طراباى وبعده بالمرحوم سنان باشا الدفتردار وبعده بسكن رضا باشا بولاية الجيش وبعده بالمرحوم سيدى ابراهيم وبعده بالمرحوم بك وبعده بسكن المرحوم أحمد افندى الرونامجى وبعده بالمرحوم ابو بكر أغادار السعادة ثم عرف أخيراً بسكن الأمير حسن كتحدا عزبان .

(٥) نفس الوثيقة . (٦) عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٥٠٣ .

(٧) سجلات الشهر العقارى سجل ٥٥ م ، ص ٧٦ ، ٧٧ مادة ٢٩٢ محكمة الأحوال الشخصية .

أما الجانب الغربى للبركة فقد عمر خط درب الجماميز عمارة كبيرة مكان خط قبو الكرمانى ، واستمر السكن بالقصور والبيوت المملوكية من قبل أمراء الدولة العثمانية . (١)

وكان درب الجماميز المكان المفضل لسكنى أكابر الأمراء وخصوصاً فى القرن ١٢ هـ / ١٨ م ومن الأمراء الذين سكنوا درب الجماميز الأميران ابراهيم كتخدا القاذوغلى ورضوان كتخدا الجلفى ، وهما الأميران المسيطران على مصر فى منتصف القرن ١٢ هـ / ١٨ م (٢) ، وكذلك من كبار الأمراء الذين سكنوا بدرب الجماميز الأمير أحمد كتخدا عزبان المعروف بأمين البحرين المتوفى سنة ١١٤١ هـ / ١٧٢٨ م (٣) ، وقد سكن فى بيت ابن ابواظ المطل على بركة الفيل بدرب السادات (٤) وقد شهد هذا البيت الكثير من الأحداث فى تاريخ مصر فى العصر العثمانى ، وقد أقام به بعض الباشوات الذين تولوا حكم مصر (٥) .

وكذلك كان للأمير سليمان أغا كتخدا الجاوشية بيت بدرب الجماميز وقد سكنه بعده الأمير على بك الدفتردار المتوفى ١٢١٣ هـ / ١٧٩٨ م (٦) ، وكان بجواره بيت عبداله أغا كتخدا الجاوشية (٧) .

ومن الدور الهامة بالجانب الغربى للبركة بيت السادة البكرية وقد زاره الرحالة النابلسى (٨) وهو البيت الذى استولى عليه الشيخ السادات وعرف به (٩) .

وفى أواخر شهر ذى الحجة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م شرع ابراهيم بك الكبير شيخ البلد زمن الحملة الفرنسية فى زواج ابنته عديلة هانم للأمير ابراهيم بك المعروف بالوالى أمير الحج سابقاً ، وعمر لها بيتاً مخصصاً بجوار بيت الشيخ السادات من قبله . (١٠)

(١) وثيقة الأمير حين كتخدا عزبان رقم ١٧٦ أوقاف .

(٢) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٢٣ . اندريه ريمون ، فصول ، ص ١٨١ .

* وقد وقع بيت رضوان كتخدا تحت رقم ٢ فى المربع 9 - S بخريطة الحملة .

(٣) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٠٣ .

(٤) أحمد شلبى ، أوضح الاشارات ، ص ١٩٧ .

الدمرداش (أحمد الدمرداش كتخدا عزبان) ، الدرة المصانة فى أخبار الكنانة ، تحقيق عبدالرحيم عبدالرحمن ،

(نشر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٨٩) ص ٢٨٠ ، ٢٩٣ .

(٥) الدمرداش ، نفس المصدر ، ص ٥ . الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤٨ .

(٦) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٨٣ .

(٧) الدمرداش ، الدرة المصانة ، ص ٣٤٥ .

(٨) الحقيقة والمجاز ، ص ٢٥٩ .

(٩) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٤٢٧ .

(١٠) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٢ ص ١٣٦ - ١٣٧ . على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٩٥ .

وكذلك كان فى بحرى دار السادات دار على كتحدا الجاوشية (١) .

أما العمارة شمال بركة الفيل فقد نمت نمواً كبيراً فى آخر العصر العثمانى وصارت حارة الحبانية خطأ كبيراً حظى بسكن العديد من أثرياء الأمراء ، ومن الأمراء الذين ملكوا العديد من المنشآت حول المتنزعات ومنها بركة الفيل الأمير عثمان كتحدا (٢) فقد ورد بكتاب وقفة أنه كان له بيت بجوار المدرسة الزينية بالحبانية وكانت تطل على البركة من حدها الغربى (٣) .

ومن الدور التى كانت بحارة الحبانية ومطلة على بركة الفيل بيت الشيخ حسن بن حسين كنانى بن على المنصورى الحنفى (٤) .

وكان حى قوصون شمال شرق البركة المواجه لجامع قوصون أرقى أحياء البركة وتسكنه الطبقة الارستقراطية فى مصر ، وكان البكوات يفضلون الإقامة هناك ، ومن الدور الهامة التى ورد ذكرها بالمصادر العثمانية وحدد المؤرخ * أحمد شلبى ' مكانها بحى قوصون على بركة الفيل دار عرفت بدار شكر بره أو فره (٥) . وقد توارث السكنى بها عدة أمراء منهم الأمير مصطفى بك ثم الأمير شاهين أحمد اغا المتوفى سنة ١٢٠٨هـ (٦) ، وكان تجاه هذا البيت بين الأمير صالح اغا (٧) ، وكذلك دار عمرها الأمير رضوان كتحدا ابراهيم بك المتوفى سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣ م ، وكانت هذه الدار تعرف بدار مكة على بركة الفيل (٨) .

وكذلك من البيوت التى ورد ذكرها أنها كانت ببركة الفيل ولم تحدد مواقعها بالضبط منزل عباس اغا (٩) ، كذلك منزل عبدالرحمن بك (١٠) ، وقاعة خليل افندى (١١) ، ومنزل غيطاس بك (١٢) .

(١) على مبارك ، المخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٩٥ .

(٢) انظر منشأته كذلك على بركة الأريكية ، ص ٢٣٢ .

(٣) كتاب وقف الأمير عثمان كتحدا مستحفظان رقم ٢٢١٥ أوقاف والمؤرخ بيوم ٢٥ ربيع الآخر سنة ١١٤٩ هـ ، ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٩٢ .

(٤) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٣ ، ص ٤٤٩ .

(٥) أوضح الاشارات ، ص ٥٤٧ ، ج٣٠ .

(٦) أحمد شلبى ، أوضح الاشارات ، ص ٥٤٧ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ . الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

(٧) أحمد شلبى ، أوضح الاشارات ، ص ٥٩٤ ، الدمرداش ، الدرر المصانة ، ص ٤٢٠ .

(٨) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٦٤٦ .

(٩) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج١ ، ص ٦٥ .

(١٠) أحمد شلبى ، أوضح الاشارات ، ص ٥٣٥ .

(١١) أحمد شلبى ، أوضح ، ص ٥٢٦ .

(١٢) الدمرداش ، الدرر المصانة ، ص ٢٤٠ .

وقد تعرضت بيوت الأمراء على حافة بركة الفيل للتخريب زمن الحملة الفرنسية أثناء ثورتى القاهرة بها ^(١) ، ولكن سرعان ما رمت واصلحت فى زمن محمد على . ومن الآثار الجلييلة التى بنيت فى عصره جامع حسن باشا طاهر ^(٢) .

واستمرت بركة الفيل متنزهاً فى عصر محمد على ثم ردمت فى عهد عباس حلمى الأول (١٢٦٥-١٢٧١هـ / ١٨٤٨-١٨٥٤م) .

بركة الناصرية الموقع والإنشاء:

لا تعتبر هذه البركة من البرك الطبيعية التى كانت منتشرة بالقاهرة ، ولكنها حفرت واستنبطت أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وكان موقعها قديماً من جملة جنان الزهرى ^(٣) التى كانت تمتد على الضفة الغربية للخليج المصرى من عند موقع السيدة جنوباً حتى الأريكة شمالاً ، ولما خربت تلك الجنان صار موقع البركة كوم تراب ، ولم يكن بموضعها وقت إنشائها من عمائر سوى كنيسة عرفت بكنيسة الزهرى ، وهى واحدة من الكنائس والأديرة التى كانت متوزعة ما بين مصر القسطنطينية والقاهرة . ^(٤)

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٤٣٤ - ٤٣٥ .

(٢) عن هذا الجامع بالتفصيل ، انظر :

سعاد ماهر ، مساجد مصر ، ج٢ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٣ .

(٣) جنان الزهرى هذه تنسب إلى أبى العباس عبد الوهاب بن موسى بن عبدالعزيز بن عمر بن الصحابى عبدالرحمن بن عوف الزهرى أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان أبو العباس هذا قد تولى الشرطة بمصر وقد توفى فى رمضان سنة ٢١٠ هـ .

* وكانت تلك الجنان قد حصبها الزهرى على أولاده وكانت تمتد من موقع قنطرة عبد العزيز بن مروان التى كانت تقع قرب ميدان السيدة زينب وتمتد تلك الجنان شمالاً إلى باب اللوق والأريكة ، وفى زمن الدولة الفاطمية عرف العموان والبناء طريقه الى تلك الجنان والبساتين على يد ابن التبان الذى كان يتولى منصب رئيس المراكب أيام الخليفة الأمر بإحكام الله فعرف البر الغربى للخليج باسم بر ابن التبان ، وشمل جميع جنان الزهرى ، ولكن ذلك التعمير لم يستمر طويلاً ، وعادت المنطقة إلى بساتين حتى زمن سلطنة الناصر محمد بن قلاوون حيث حكوت وقسمت إلى أكثر من ١٥ حكراً غربى الخليج ، وعرف الجزء الجنوبي باسم حكر الزهرى الذى يشغله الآن حى الناصرية بالسيدة زينب بالقاهرة . انظر :

المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١١٤ - ١١٥ .

* ونلاحظ أن بقية من جنان الزهرى ظلت موجودة ومحفوظة بهذا الاسم فى العصر العثمانى وقد ورد ذكرها فى الرثيقة رقم ٢٨١٦ أوقاف والمؤرخة بيوم ٢ ربيع الثانى سنة ١٠٣٧ والخاصة بوقف الأمير حسن افندى بن حسين اغا على التكية المولوية . انظر مايلى ، ص ٣٧٣ .

* وقد خلدت مصلحة التنظيم اسم جنان الزهرى فأطلقته على شارع صغير موارى لشوارع نوبار يصل بين شارع المتبدان وشارع الملك الناصر .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

وقد وقعت البركة بخريطة نييور^(١) ورمز لها بالحرف W ، وكذلك وقعت بخريطة الحملة الفرنسية تحت اسم بركة ستي نصره أو بركة السقاين^(٢) وتبلغ مساحة البركة سبعة أفدنة^(٣) ، ويمثل موقعها الآن جزء من حى الناصرية بالسيدة زينب ، ومكانها اليوم المنطقة التى يخترقها شارع ستي نصره ويحدها من الشرق شارع محمد فريد (جزء من شارع عماد الدين سابقاً) ، ومن الغرب شارع مصطفى كامل (الشيخ عبدالله سابقاً) ، ومن الجنوب شارع درب البندق ، ومن الشمال شارع الشيخ ريحان .

واستنبطت هذه البركة بطريقة غير مباشرة إذ أن الملك الناصر محمد بن قلاوون قد أنشأ ميداناً سنة ٧٢٠هـ يسمى ميدان المهارى بجوار موضع البركة ، وأراد بناء ربيبه بجوار جامع الطيرسى^(٤) على النيل لتربية الخيول وغيرها التى سيستخدمها فى الميدان ، فاحتاج إلى طين يبنى به الزريبة فترأى له أن يستخرج التراب من مكان البركة^(٥) ، وأوكل العمل للأمير بيبرس الحاجب الذى نزل بالمهندسين وقاسوا مساحة البركة وزرعها على الأمراء ليلتزم كل أمير بحفر مساحة منها ، وبدأ العمل بها يوم الثلاثاء ١٩ ربيع الأول ٧٢١هـ^(٦) ولما تم حفر البركة نقل ما خرج منها من الطين إلى الزريبة ،

(١) رحلة إلى مصر ، ج١ ، ص ٢١٠ .

(٢) ذكر "على مبارك" فى الخطط التوفيقية ج٣ ، ص ٣٥٠ " أن البركة الناصرية هى المينة على خريطة الحملة الفرنسية بأسم بركة أبو الشامات أو بركة المعهد أو بركة قاسم بك ومن حقوقها ديوان المالية الذى كان بيتاً لاسماعيل باشا المفتش والمباني المقابلة له

* ولكن هذا رأى يناقش الواقع والحقيقة ، فمن خلال الوثائق وما ذكره المؤرخون عن الآثار التى لا تزال باقية للآن مثل جامع آق سنقر وجامع الاسماعيلى ومدرسة قانى باى بأنها بنيت على الحافة الشرقية لبركة الناصرية فأننا نجدها كذلك فى خريطة الحملة الفرنسية موقعة على الحافة الشرقية لبركة ستي نصره أو السقاين ، لذا نستنتج أن بركة الناصرية هى نفسها بركة ستي نصره أو السقاين وليست بركة أبو الشامات كما اعتقد على باشا مبارك ، انظر أيضاً : محمد رمزى ، تعلية على النجوم الزاهرة ، ج١٢ ، ص ٨٧ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

(٤) عن جامع الطيرسى ، انظر ماسبق ، ص ٤٩ .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

(٦) هذا التاريخ هو ما ذكره المقرئى . انظر الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

* ويتفق "ابن كثير" مع المقرئى فى تاريخ السنة التى حفر فيها البركة ، ولكنه اختلف معه فى الشهر حيث ذكر أنها حفرت ابتداءً من المحرم . انظر : البداية والنهاية ، ج١٤ ، ص ٩٨ .

* أما "ابن ياس" فيذكر أن الناصر محمد شرع فى حفر البركة الناصرية سنة ٧٢٩ هـ ، وأنه أجرى إليها الماء من الخليج الناصرى وبنى قصراً كبيراً بالميدان المجاور لهذه البركة وأنشأ بها بستاناً تحت هذا القصر . انظر : بدائع الزهور ، ج١ ، ق ١ ، ص ٤٦٠ .

* ورأى هنا أن اغلب المؤرخين ذكروا أن حفر البركة كان سنة ٧٢١ هـ ، ولكن نستنتج من نص ابن ياس أنه ربما أعاد حفرها سنة ٧٢٩ هـ وأقام القصر والبستان بجوارها بالميدان ، وأوصل إليها الماء من الخليج الناصرى مباشرة بدلاً من الخليج القديم الخاص بها الذى كان ينبع (يخرج) من جوار مخرج الخليج الناصرى على النيل .

وأجرى إليها الماء من جوار الميدان السلطاني الكائن بأرض بستان الخشاب عند موردة البلاط . (١)

إيقاف البركة :

ربما كانت البركة تجرى فى وقف الناصر محمد لأنه هو الذى استنبطها ، ولكن فى العصر العثماني انتقل وقفها إلى تكية المولوية كما يتضح مما ذكره الجبرتي . (٢)

العمارة حول البركة :

كان حفر البركة سبباً مباشراً فى عمران خط الناصرية ، فقد سمح السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون للناس فى حكر ما حول البركة فبنوا عليه الدور العظيمة وصار خط البركة الناصرية عامراً ومتصل البناء بخط قناطر السباع والسبع سقايات . (٣)

وبالرغم من المحن والحوادث والفوضى السياسية التى آلت بالقاهرة ومصر منذ سنة ٨٠٦هـ واستمرت فترة أيام المقرئى (٤) (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) إلا أن التعمير عاد بعد ذلك مرة أخرى ، وظلت البركة وما حولها من أعمار الخطط بالقاهرة بقية العصر المملوكى .

(١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

* أى أن فم الخليج الذى يغذى البركة كان بجوار فم الخليج الناصرى على النيل الذى حفر بعد البركة بأربع سنوات . انظر الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٥ .

(٢) عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٥٢٣ .

* وما يؤكد قول الجبرتي هو أن ميدان المهارى الذى كان يجاور البركة من الجهة الغربية حول إلى بستان فى العصر العثماني وأوقف على تكية المولوية أيضاً .

انظر بالتفصيل مايلى ، ص ٣٧٢ .

(٣) المقرئى ، ١ الخطط ج٢ ، ص ١٦٥ .

* من الجديدين بالذكر أنه كان بموقع البركة توجد كنيسة فقط تسمى كنيسة الزهرى بالإضافة لبعض الكنائس والأديرة حولها فى منطقة قناطر السباع والسبع سقايات من كنائس الحمراء القديمة ، ولما أراد الناصر محمد حفر البركة ماحول كنيسة الزهرى هذه وصارت وسط الحفر حتى تعلقت وكان القصد أن تسقط من غير تعمد ولكنها بسبب ذلك تعرضت للهدم على يد العامة وكانت هذه هى بداية الحادثة التى عرفت باسم حادثة الكنائس التى بدأت يوم الجمعة ٩ ربيع آخر ٧٢١ هـ وتعرضت فيها الكنائس والأديرة التى بالقاهرة هى ومن فيها للتحريق والتخريب والنهب . انظر بالتفصيل عن هذه الحادثة وما ترتب عليها : المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٢٠٦ - ٢٢٧ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٦٣-٧٢ .

* ويتضح لنا رغبة الناس فى الميل للقديم والحفاظ على ذكراه فى ذكر درب يسمى درب الكنيسة أنشئ بعد إزالته الكنيسة وهذا الدرب مذكور بالوثيقة رقم ٢٨١٦ أوقاف والمؤرخة بتاريخ ربيع ثانى سنة ١٠٣٧ هـ . وهذا الدرب لا يزال قائماً للآن باسمه ويصل بين شارع خيرت وبين شارع الناصرية .

(٤) تأثرت بركة الناصرية بعض الشيء فى تلك الأزمات ، ومن الأزمات السياسية التى تأثرت بها الناصرية الفتنة التى حدثت سنة ٨٠٠هـ ، والتى قام بها على باى وشراكة فيها الأمير يلبغا الأحمدي المجنون ، ولما فشلت مؤامرة =

وفى أثناء الغزو العثماني للقاهرة تعرضت الناصرية للدمار والتخريب أثناء المعارك بين المماليك والعثمانيين فى محرم ٩٣٣هـ^(١) ، ولكن ما أن هدأت الحال حتى بدأ التعمير يعود إلى تلك المنطقة بل أن خط الناصرية صار من أكثر المناطق استقرارية ورفاهية فى العصر العثماني واحتوى على قصور وبيوت العديد من الباشوات والبكوات والكشاف . وبالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية نجد الجانب الشرقى والجانب الشرقى للبركة عامراً بالحارات والدروب أما الجانب الغربى فإنه احتفظ بالبساتين والحقول .

ومن العمارات الدينية الجليلة التى بنيت على حافة البركة فى العصر المملوكى والتى لاتزال قائمة للآن مسجد الأمير شمس الدين آق سنقر بن عبدالله شاد العماثر^(٢) الذى بنى شمال شرق البركة والذى جدد مكانه جامع ومقام سيدى محمد ابو طبل بسوق السباعين بشوارع المذبح المتفرع من حارة السقاين بالناصرية ، وقد وقع الجامع فى خريطة الحملة الفرنسية بأسم زاوية ابو طبل برقم ٢١٤ فى المربع Q-13 ، وقد أقام سنقر بجوار جامعة داراً جليلة وحمامين بخطط البركة الناصرية^(٣) اندثروا الآن .

ومن الآثار أيضاً جامع الأمير أرغون شاه الاسماعيلى^(٤) على شاطئ البركة الشرقى والذى تم بناؤه فى شهر شعبان ٧٤٨هـ ، ولا يزال هذا الجامع عامراً بذكر الله تعالى^(٥) (أثر رقم ٢٥٣) ، وهو موقع بخريطة الحملة برقم ١٩٢ فى المربع R-13 .

= على : باى لقتل السلطان برقوق ، أمر برقوق بنهب بيت يلغسا الذى كان قد بناه جديداً على البركة الناصرية . انظر :

ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج١ ، ص ٤٦٩ .

* وكذلك ما حدث سنة ٨٠٨هـ من خروج بعض الأمراء على الناصر فرج بن برقوق ، فاتخذ فرج من بيت الأمير سودون الحمزاوى على بركة الناصرية مركزاً لتجميع قواته ليصدها الخارجين عليه . انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ق١ ، ص ٧٤٠ .

(١) تعرضت زاوية عماد الدين والبيوت التى حولها بالناصرية للأحداث والدمار فى المعارك فى المحرم سنة ٩٣٣هـ بين المماليك والعثمانيين . انظر :

ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ١٥٤ .

(٢) الأمير آق سنقر تولى عدة وظائف هامة زمن الناصر محمد بن قلاوون ، وكان واسع الشراء ، وقد عمر قنطرة آق سنقر على الخليج الكبير بخطط قبو الكرمانى قبالة الجبائية ، وقد جعل على جامعة بالناصرية أوقافاً عديدة ، وقد عزل وصودر ومات بدمشق ٧٤٠هـ .

انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣٠٩ ، السلوك ، ج٢ ، ص ٥٠٥ . ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ١٢٢ . على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٣٣٠ .

(٣) انظر ترجمته فيما سبق ، ص ١٦٩ .

(٤) عن هذا الجامع انظر : المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣٢٧ .

على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ ، ج٤ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

سماعد ماهر ، مساجد مصر ، ج٣ ، ص ٢٢٩ - ٢٣٤ .

وفى الجزء الجنوبى الشرقى لبركة الناصرية أقام الأمير قانى باى الرماح مدرسته ^(١) سنة ٩١١هـ / ١٥٠٦م (أثر ٢٥٤) بالإضافة إلى منشآت أخرى بجوارها اندثرت الآن ، وكانت تتكون من مبنى كبير يشتمل على ربيع وحوانيت ووكالة وفرن وبعض المرافق الأخرى ، كما امتلك قانى باى أيضاً مبنى آخر كان يشتمل على عدة قاعات وطباق سكنية مقابل مدرسته وقد امتلكه قانى باى عام ٩١٢هـ عن طريق الاستبدال ، بالإضافة لذلك فقد امتلك قانى باى أيضاً أحد الأبنية بالناصرية بخط حوض أرغون شاه تجاه مسجده بشارعى الناصرية وجامع الاسماعيلى ، وكان يسجاور المسجد المذكور حوض لشرب الدواب واصطبل خاصين بالأمير أرغون شاه كما تذكر حجة الوقف ، وقد امتلك قانى باى هذا المبنى عام ٩١٩هـ عن طريق الشراء وكان يشتمل على حديقة بها أشجار يانعة وطاحونين ^(٢) .

أما عن عمران خط بركة الناصرية فى العصر العثمانى فقد أصبح من الأحياء الراقية التى يسكن بها صفوة الطبقة الارستقراطية من باشوات وبكوات واصحاب الوظائف الكبيرة مثل الكشف ^(٣) الذين كاد يكون الحى خاصاً بهم فى نهاية العصر العثمانى ، واستطاع الأستاذ " اندريه ريمون " حصر خمسة بيوت لكشف كانوا بالناصرية سنة ١٢١٣هـ / ١٧٩٨م ، والبيت السادس كان قد شيده قاسم بك أبو سيف ^(٤) قد شيده عندما كان لا يزال كاشفاً ، وقد روده بحديقة واسعة وكان يحاول ان يجعل حى الناصرية حياً حديثاً أو حى الكبراء والوجهاء ^(٥) ، وكان يفتح حديقة قصره للناس وكانت تحيط بالقصر وتشققها قنوات الماء التى تصل إلى البركة أيام فيضان النيل ، واحكم جريان الماء فى قنوات مرتفعة وغرس فيها الزهور والفواكة والأشجار والنخيل ونسق بها

(١) وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية بأسم جامع أمير اخور برقم ٢٦٣ فى المربع S-13 .

(٢) عن مدرسة قانى باى الرماح بالناصرية ومنشآت أخرى وترجمة حياته وأعماله انظر :

سامى عبدالحليم ، أعمال الأمير قانى باى قرا الرماح بمدينة القاهرة ، دكتوراة "غير منشورة" ، (كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥) .

(٣) الكشف جمع كاشف ، والكاشف هو الموظف الذى يتولى ادارة الكاشفة حيث كانت مصر فى العصر العثمانى مقسمة إلى خمسة اقاليم ادارية كبرى كان يطلق على كل منها لفظ ولاية ، كما وجد ٣٤ قسماً أصغر من الأقسام أطلق عليها الكاشفيات .

وعن هذه الوظيفة بالتفصيل ، انظر :

Shaw, S., The Financial and Administrative Organization and Development of Ottoman Egypt 1517- 1798, Princeton, 1962, PP. 13-60 - 63 .

لىلى عبداللطيف ، الادارة فى مصر فى العصر العثمانى ، مطبوعات كلية الآداب ، جامعة عين شمس ، ١٩٧٨ ، ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ، ٤٥٣ .

صلاح هريدى ، دور الصعيد فى مصر العثمانية ، القاهرة ، ١٩٨٤ ، ص ١٠١ ، ١٠٣ .

(٤) توفى سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١م . انظر ترجمته فى ألبيرنى ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٥٢٣- ٥٢٥ .

(٥) اندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى ، ص ١٩٩ .

جلسات مفروشة لخاصته ظللها بالزهور^(١) . ويشغل مكان القصر الآن عمارة الأوقاف بشارع الكوي .

ومن دور الكشاف العظيمة بالناصرية دار حسن الكاشف المتوفى سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م والتي ذكر الجبرتي أنه 'صرف عليها أموالاً عظيمة فما هو إلا أن تم بناءها ولم يكتمل بياضها حتى وصلت الفرنسيين فسكنها الفلكيون والمديرون وأهل الحكمة والمهندسون لذلك صينت من الخراب'^(٢) ، وقد اندثر هذا القصر الآن ويشغل موقعه الآن موقعة الآن مدرسة السنية بالسيدة زينب^(٣) .

ومن الدور الكبيرة التي بنيت بحى الناصرية والتي لا تزال قائمة للآن دار إبراهيم كتحدا السنارى المتوفى ١٢١٦هـ - ١٨٠١م^(٤) والتي بناها سنة ١٢٠٩هـ / ١٧٩٤م وقد استخدم هذه الدار علماء الحملة الفرنسية أثناء احتلالهم مصر ، وتقع الدار بحارة مونج بالسيدة زينب وهى مسجلة رقم ٢٨٣ .^(٥)

وكانت بركة الناصرية طوال العصر العثماني منتزهاً كبيراً وحفلت شواطئها بقصور ومناظر وبساتين كبار الأمراء وليس أدل على ذلك ما رواه الرحالة 'النايلسى' فى رحلته التى زار فيها مصر سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٤م ، وزار فيها البستان الزاهى والقاعة العظيمة والقصر الذى بناه حجي باشا على البركة مباشرة ، وما كانت تتم به من جلسات سماع ومعنى^(٦) .

بركة أبو الشامات (بركة المعهد أو بركة قاسم بك)

هذه البركة نادرة الذكر فى المصادر والوثائق المملوكية^(٧) ، وقد ورد ذكرها باسم بركة ابو شامة

(١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٥٢٣ - ٥٢٤ .

=عبد الرحمن زكى 'بحث خطط القاهرة فى أيام الجبرتي' ، من كتاب عبدالرحمن الجبرتي ، ص ٤٨٣ ، ٤٩٣ .
وانظر وصف الجبرتي الرائع للقصر والحديقة فى الملحق رقم ٧ من الرسالة .

(٢) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ٤٥٦ .

(٣) عبدالرحمن زكى ، المرجع السابق ، ص ٤٩٢ .

(٤) الجبرتي ، المرجع السابق ، ص ٥٢٥ .

(٥) عن هذه الدار ، انظر :

Revault, J & Maury, B., Palais et Maisons du Caire du XIV au XVIII Siecle, le Caire IFAO, PP. 82- 101.

(٦) الحقيقة والمجاز ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٧) ذكرها المقرئ مرة واحدة عرضاً دون أن يسميها فى ذكره لميدان المهارى حيث قال : 'ومن وراء هذا الميدان بركة ماء كان موضعها كرم القاضى الفاضل . . انظر :
الخطط ج٢ ، ص ١٩٩ .

فى احدى الوثائق العثمانية وكانت تحيط بها البساتين ^(١) وقد وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٢٨٧ فى المربع S-15 باسم بركة أبو الشامات حيث كان يحدها شمالاً غيط أبو الشامات الذى وقع بالخريطة برقم ٢٨٩ فى المربعين P,Q-14 . كما عرفت أيضاً ببركة قاسم بك حيث يحدها شرقاً غيط قاسم بك الذى وقع بالخريطة برقم ٢٨٥ فى المربع S-14 . ^(٢)

كما أطلق عليها الفرنسيون بركة المعهد لأنهم اتخذوا من بيت قاسم بك وبيت حسن كاشف وبيت ابراهيم السنارى الواقعة شرقى البركة مقراً لعلماء الحملة . ^(٣)

وكانت هذه البركة تشغل مساحة حوالى ١٠ أفدنه وتشغل ارضها الآن المنطقة المحصورة بين شارع أمين سامى جنوباً وشارع اسماعيل اباطة شمالاً وشارع منصور شرقاً وشارع القصر العينى غرباً . ^(٤)

بركة السباعين (الدمالشة)

قال "المقريزى" عن بركة السباعين " عرفت بذلك لأنه اتخذ عليها دار السباع وهى موجودة هناك إلى يومنا هذا ، وهى من جملة حكر الزهرى وعليها الآن دور ولم تحدث بها العمارة إلا بعد سنة سبعمائة وإنما كان جميع الخط وما حوله من منشأة المهرانى إلى المقس بساتين ثم حكرت " ^(٥)

وقد ذكر هذه البركة على باشا مبارك ولكن جاتبه الصواب فى تحقيق موضعها . ^(٦)

ولكن برجوعى إلى خريطة الحملة الفرنسية وجدت هذه البركة موقعة عليها بركة الدمالشة برقم ٢٢٤ فى المربع P- 12 ومساحتها لا تتعدى اربعة أفدنه ولا يزيد طولها عن ١٥٠ متراً وعرضها عن

(١) كتاب وقف الأمير حسن افندى بن حسين اغا رقم ٢٨١٦ أوقاف والمؤرخ بيوم ٢ ربيع الثانى سنة ١٠٣٧ هـ ، ص ٦ ، ٧ .

(٢) يشغل غيط قاسم بك المنطقة الممتدة بين شارع خيرت وبين شارع نوبار .

(٣) عبدالرحمن زكى ، المرجع السابق ، ص ٤٩١ ، ٤٩٣ .

(٤) هذا التحديد استنبطته من مطابقة خرائط الحملة الفرنسية مع خريطة القاهرة للأثار الاسلامية لوحة ١ . انظر أيضاً :

محمد رمزى ، تعليقه على النجوم ، ج ٩ ص ١٩٤- ١٩٥ .

(٥) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٦) قال عنها على مبارك .. وبركة السباعين محلها الآن عمارة محمد بك الشماشجى ومابجوارها من العمارة من الجهة القبلية وكان يفصلها عن القاهرة مزارع وكان المار من بوابة الناصر إلى جهة الشيخ ريحان يجدها على يساره وترب القاصد بقربها وكانت باقية إلى وقت دخول القرنساية وطولها على الخريطة التى رسموها اربعمائة وخمسون متراً وعرضها المتوسط مائة وخمسون متراً ومساحتها تقرب من ستة عشر فداناً بفداناً وقتنا هذا " . انظر :

الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٣٣١ .

١٢٠ متراً . كما أنها لا تقع على يسار المار من بوابة الناصرية ^(١) إلى جهة الشيخ ريحان ^(٢) كما ذكر على مبارك باشا بل تقع على يمين المار ، وقد خلط المرحوم على مبارك بينها وبين بركة الناصرية فى ذلك الأمر .

ومن خلال خريطة الحملة الفرنسية أيضاً نرى أن البركة كانت محاطة بحارات وآثار لا يزال الكثير منها على حالها للآن ، ومعظمها موقع بخريطة القاهرة للآثار الإسلامية مثل مسجد عابدين بك وجامع مسكه وزاوية الهرموني وجامع عماد الدين والشيخ ريحان وحارة السقاين وحارة الزير المعلق وسوق السباعين وغير ذلك ، ونستخلص من ذلك أن موضع بركة السباعين (الدمالشة) كما وقعت بخريطة الحملة تنطبق الآن على الجزء الجنوبي من قصر وميدان عابدين شمالاً حتى ميدان المبدولى الواقع به جامع محمد المبدول جنوباً .

ويؤيدنا فى هذا رأى ما ورد بوثيقة الأمير عثمان جلى والمؤرخة بتاريخ ٢ شعبان ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م ^(٣) انه من أوقافه " القطعة الأرض المغروزة من الجنيئة الكاين ذلك بمصر المحروسة بخط الزير المعلق فيما بين حارة عابدين وسوق السباعين والمطل على بركة الدمالشة " . كما قام الأمير بعمارة تحوى مقعداً فى الجنيئة التى تطل على البركة ذكر أنها بخط الزير المعلق قرب سوق صفية ، كما أنه أوقف ستة قراريط من أصل أربعة وعشرين قيراطاً فى كامل أرض البركة المعروفة ببركة الدمالشة الكاين ذلك بمصر المحروسة بخط حارة السقاين .

وبدراسة خريطة الحملة الفرنسية نجد ان حدها الشرقى بها جنيئة صغيرة تمثل تلك التى ذكرت بالحجة .

يتضح لنا مما سبق أن بركة السباعين هى نفسها بركة الدمالشة وأنها ظلت عامرة فى العصرين المملوكى والعثمانى .

بركة الشفاف (الضرايين)

قال المقريزى عن هذه البركة " أن هذه البركة فى بر الخليج الغربى بجوار اللوق ^(٤) وعليها الجامع

(١) وقع باب الناصرية فى خريطة الحملة برقم ٢٦٥ فى المربع .

(٢) وقع الشيخ ريحان برقم ٢٧١ فى المربع R-13 .

(٣) وثيقة الأمير عثمان جلى زاده بن يوسف بك دفتر دار مصر المحروسة رقم ٨٥ أوقاف .

(٤) اللوق معناها فى اللغة اللين يقال لاق الشئ يلوقه لوقا ولوقه ليه ، وكانت أرض اللوق هذه أرض لينة فبعد أن ينتهى فيضان النيل ويصرف الماء عنها تنكشف أرضها ولا تحتاج إلى الحرث لينها ورخاوتها فتشر بها البذور حيث تزرع أصنافاً شتوية . =

المعروف بجامع الطباخ^(١) فى خط باب اللوق ، وكانت هذه البركة من جملة أراضي الزهرى^(٢) ، وكان عليها فى القديم عدة مناظر منها منظره الأمير جمال الدين موسى بن يغمور وذلك أيام كانت أراضي اللوق مواضع نزهة قبل أن تحتكر وتبنى دوراً وذلك بعد سنة ستمائة^(٣) .

ومن خلال نص المقرئى هذا نستطيع أن نحدد مكان ومساحة البركة إذ نجد من حسن الحظ أن جامع الطباخ لا يزال موجوداً للآن إلا أنه مجدد ، ويقع فى ميدان باب اللوق فى تقاطع شارع محمد فريد من شارع سامى البارودى (شارع على باشا ذو الفقار سابقاً) ، كما أنه موقع على خريطة

« وكانت أراضي اللوق فى الزمن الماضى مما يغمره ماء النيل ثم انحسر عنها فى سنى ١٣٣٠هـ - ١٣٦٠هـ وأصبحت أرضاً زراعية انشأ بها كثير من البساتين والمنشآت مثل منشأة القاضى الفاضل وبستانه ومنشأة ابن ثعلب وبستانه ومنشأة الكتبة وغيرها مما ذكره المقرئى ، ثم زالت هذه المنشآت وبقيت أرض اللوق أرضاً زراعية ولم يحدث فيها بناء بعد ذلك إلا فى سنة ١٦٦٠هـ حيث قدم على مصر طائفة من السائر مستأمنين فأُنزلهم الملك الظاهر بيبرس البندقدارى فى دوركان قد أمر بعمارته من أجلهم فى أراضي اللوق ، وفى أواخر سنة ١٦٦١هـ قدم طوائف عدة من المغول والبهادرية فأُنزلهم السلطان فى مساكن عمرت لهم باللوق ، ومن ذلك الوقت أصبح بأرض اللوق عدة أحكار عامرة أهلة بالسكان ثم أخذت هذه الأحكار فى الخراب تدريجياً إلى أن اندثرت عن آخرها فى القرن العاشر الهجرى / الخامس عشر الميلادى .

ومن تطبيق الحدود التى ذكرها المقرئى لأرض اللوق يتبين أنها كانت ممتدة على النيل من الجهة الغربية من مدينة القاهرة وتشمل المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع قنطرة الدكة ومن الغرب بأول شارع رمسيس ما فى امتداده بشارع القصر العيني والحد القبلى (الجنوبى) شارع بستان الفاضل والحد الشرقى شارع الخليج المصرى بشارع نوبار إلى أن يتقابل مع شارع الشيخ ريحان فينعطف الحد مائلاً إلى الشرق حتى يتصل بشارع محمد فريد عند تلاقية بشارع التحرير ثم يستقيم الحد متجهاً إلى الشمال فى شارع عماد الدين إلى أن يتقابل مع الحد البحرى (الشمالى) ، وكان الحد الشرقى لأرض اللوق هو مكان الشاطئ الشرقى للنيل تجاه القاهرة لغاية سنة ١٦٩هـ أى أن النيل كان يجرى عند هذا الحد قبل ظهور أرض اللوق .

ومن الاطلاع على خريطة الحملة الفرنسية وعلى خريطة مدينة القاهرة سنة ١٨٥٨م يتبين أن أرض اللوق التى ذكرت حدودها كانت لغاية تلك السنة أطيافاً زراعية وليس فيها من المباني إلا مجموعة من المساكن الواقعة بشارع باب اللوق بين شارع البستان وبين شارع جامع جركس ، وفى زمن الخديوى اسماعيل بدأ الناس فيها بالعمارة والبناء حتى صارت إلى ماهى عليه الآن . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١١٧ ، .

محمد رمزى ، تعلية على النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ص ٣٠٨ ، ج٩ ، ص ١٩٣ .

(١) جامع الطباخ نسبة للحاج على الطباخ ، طباخ الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وهذا الجامع كان أصلاً من إنشاء الأمير جمال الدين أفرش فجدده الحاج على الطباخ فنسب إليه ، وكان الحاج على الطباخ يملك حوالى ٢٢ داراً بالقاهرة إلا أنها صودرت من ضمن ماصودر من أملاك الطباخ عندما تعرض للمصادرة والاضطهاد سنة ٧٤٦هـ فى سلطنة الملك الكامل شعبان ، انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣١٥ . السلوك ج٢ ، ص ٦٨٦ .

(٢) عن حكر وأراضي الزهرى انظر ماسبق ، ص ١٨٨ .

(٣) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٢ .

الحملة الفرنسية برقم ٩٩ فى المربع N - 13 على البركة التى وقعت على الخريطة بأسم بركة الفرايين برقم ١٥٠ وتشغل المربعين N-12, N-13 ، وهى على شكل مستطيل مساحتها حوالى عشرة أفدنة .

نستنتج من ذلك أن بركة الشفاف تغير اسمها إلى بركة الفرايين وقد اطلق عليها هذا الاسم الأخير فى اواخر العصر المملوكى ، ويتضح لنا ذلك مما ذكره المؤرخ "ابن اياس" من أنه فى يوم ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٩١٨هـ قد أقام الأمير قانصوه بن سلطان جركس وقدة وإحراقه نبط ببركة الفرايين حيث كان يقع داره عليها . (١)

كما عرفت البركة أيام على باشا مبارك باسم بركة اليرقان (٢) ، وترجع تلك التسمية لوقوع عطفة عليها تسمى اليرقان التى وقعت بخريطة الحملة برقم ٧٤ فى المربع N - 12

وظلت البركة قائمة حتى ردمت زمن الخديوى اسماعيل ويشغل مكانها الآن جزء من مبنى محافظة القاهرة والجزء الشمالى من قصر وميدان عابدين بالقاهرة .

وباطلاعنا على حجة وقف الأمير عابدى بك رقم ٩٩١ المحفوظة بوزارة الأوقاف والمؤرخة بيوم ١٥ شوال ١٠٣٣ هـ ، ورد بها أنه هدم أماكن قديمة وبنى مكانها قاعة وحمام مستوقد وحوض لشرب الدواب ، وأحد عشر حانوتاً بخط سوقة صفية (٣) بالقرب من الزير المعلق (٤) بمصر المحمية ، وكانت هذه الأماكن مطلّة على بركة تسمى بركة ابن العظمة من الحد القبلى والحد الغربى وكان بقية الحد القبلى ينتهى إلى جنيّة والحد البحرى إلى رقاق والحد الشرقى إلى منزل عابدى بك .

يتضح من ذلك أن بركة الشفاف عرفت فى القرن ١١ هـ / ١٧م باسم بركة ابن العظمة حيث وقعت المنشآت الخاصة بعابدى بك فى خريطة الحملة شرقى بركة الفرايين (الشفاف) . (٥)

(١) بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ٢٨٠ .

(٢) الخطط التوقية ، ج٣ ، ص ٣٢٤ .

(٣) وقع الزير المعلق برقم ٢٣١ فى المربع O-12 فى خريطة الحملة الفرنسية .

(٤) وقعت حارة صفية برقم ٤٣ فى المربع N- 11 فى خريطة الحملة الفرنسية .

(٥) وقع بيت عابدى بك برقم ٩١ فى المربع O - 11 حارة عابدين برقم ١٣٨ فى المربعين O,P - 11 وجامع عابدى بك برقم ١٤٨ فى المربع O - 11 ، وبيت آخر لعابدين برقم ١٤٩ فى المربع O - 11 ، وحمام عابدين برقم ٦٧ فى المربع O - 11 ومسكة عابدين برقم ٦٨ فى المربع N - 11 .

بركة الفهدة (أبو الشوارب)

هذه البركة نادرة الذكر في المصادر والوثائق المملوكية حتى أن المقرئ لم يوردها في ذكر البرك ، وإنما وردت مرة واحدة في نص لابن الصيرفي^(١) وقد وجدتها مذكورة في الوثائق العثمانية ، ففي وثيقة الأمير حسن أغا أنه أوقف أماكن بمصر المحروسة بخط حدة الكماجين المطل على بركة الفهدة المعروفة ببركة أبو الشوارب .^(٢)

يدل هذا على أن بركة أبو الشوارب ما هي إلا بركة الفهدة ويرجع أصلها للعصر المملوكي وليس العصر العثماني كما اعتقد البعض^(٣) .

هذا وقد وردت بركة أبو الشوارب ضمن قائمة نيبور للبرك^(٤) ورمز لها على الخريطة بالحرف U كما وقعت بركة أبو الشوارب برقم ٨٢ في المربع M - 11 في خريطة الحملة الفرنسية تحت اسم بركة أو غيط أبو الشوارب وكان جزء منها مزروعاً حيث

وموقع بركة أبو الشوارب الآن تمثله في خريطة القاهرة للآثار الإسلامية ، بمنطقة فضاء تتوسط المثلث المحصور بين شوارع محمد علي وعبد العزيز وحسن الأكبر ، وفي الركن الجنوبي الغربي جامع رضوان بك أبو الشوارب^(٥) الذي نسبت إليه البركة .

وكان رضوان بك أبو الشوارب قد إهتم بإعادة حفر البركة وبنى عليها داراً كبيرة^(٦) بسجوار جامعة^(٧) بحارة الهدارة ، وقد آلت هذه الدار في النهاية إلى الأمير شريف باشا الكبير فهدمها

(١) ذكرها "ابن الصيرفي" في ترجمة للأمير يشبك الاسحاقى الشهير يشبك جن وبالبهلوان الأشرفى برسباى ، أحد مقدمى الألف ، والذي توفى في جمادى الأولى سنة ٨٧٥ هـ ، وأنه كان ظالماً ، اهلك القاضى فتح الدين السوهاي من كثرة ما يحيط عليه وبسبه فإنه كان جاره بسكنه ببركة الفهدة . انظر : انباء الهجر ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ . لم يستطع المحقق حسن حبشى أن يتوصل إلى تحقيق موضع البركة .

(٢) وثيقة الأمير حسن أغا رقم ١٨٥ المحفوظة بالأوقاف والمؤرخة بيوم ٢٥ رجب سنة ١١٩٩ هـ .

(٣) اعتقد على مبارك ، و د. درويش أبو سيف أن البركة تعود لإنشاء أبو الشوارب . انظر : على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٣٩٦ ،

Abouseif, (D), Azbakiyya and its Environs from Azbak to Ismail (1476 - 1879) Suppl. Aux Annales Islamologiques Cahiers . 6. Le Caire, IFAO, 1985, P.20

(٤) رحلة إلى مصر ، ص ٢١٠ .

(٥) توفى رضوان بك أبو الشوارب سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦٢ م ودفن بجامعة على البركة . انظر : الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ١٤٥ . على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٣٩٣ .

(٦) وقع هذا البيت برقم ١٤٩ في المربع M - 12 في خريطة الحملة .

(٧) وقع الجامع مجاوراً لبيت أبو الشوارب برقم ١٥٠ في المربع M - 12

وأدخل فيها عدة دور كانت بجوارها وبنائها بناءً محكماً وعمل بها بستاناً وبقيت بيده إلى أن توفي بعد سنة ١٢٨٠هـ / ١٨٦٣م ثم انتقلت إلى ابنه على باشا شريف الذى قام بتردم البركة وعمل بها اصطبل لخيوله (١) ، وكان يقابل بيت رضوان بك بيت حسن كتحدا المعروف بالجربان الذى توفي بالشام سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠١م . (٢)

وقد كانت البركة البركة موضع تنزه واحتفالات فى العصر العثماني وما تلاه وحفلت بالأبنية العظيمة الفخمة على شاطئها . (٣)

بركة الدم

بالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية نجد غربى القاهرة ثلاث برك متتابعة هى بركة الدم وبركة والصابر وبركة الفواله .

وبركة الدم هذه أصغرها وطولها مائة متر فى عرض خمسين متر وذكر "على مبارك" أن محلها فى زمنه الأرض التى تجاه بيت محمود خليل ، وأنها كانت مصرفاً لجمع مياه المدابغ والقاذورات والسلخانات (٤) ، وقد سميت بهذا الاسم حيث يجرى بها دم السلخانات (٥) ويمثل موقعها الآن التقاء شارع مظلوم بشارع شريف (المدابغ سابقاً) .

وربما كانت هذه البركة هى التى ذكرها أولياء شلى فى القرن ١١هـ / ١٧م باسم بركة الدباغين بالقرب من باب اللوق . (٦)

وقد وقعت بركة الدم بخريطة الحملة الفرنسية برقم ٣٥٦ فى المربع M-15 وكانت تأخذ مياهها من الخليج الناصرى .

وكانت أمثال هذه البرك تنتشر بالقاهرة وتملأ بالماء وقت فيضان النيل .

(١) على مبارك ، المخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ٣٩٦ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٧ . ، الجبرتي عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٣) من أمثلة ذلك ما ذكره الجبرتي فى حوادث شهر ربيع الأول ١٢٣١هـ / ١٨١٦م عندما أنشأ ولى الفندى المعروف بولى جحا وكان يشغل منصب كاتب الخزينة العامرة وهو من طائفة الأرناؤود، أنشأ داراً عظيمة بخط باب اللوق على البركة المعروفة بأبى الشوارب وأدخل فيها عدة بيوت بجانبها وبنائها على نسق واصطلاح الأبنية الأفرنجية والرومية وتأتى فى زخرفتها واتساعها واستمرت العمارة بها نحو الستين . انظر :

عجائب الآثار ج٢ ، ص ٥٠٧ .

(٤) المخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٢٢٩ .

(٥) جومار ، وصف مدينة القاهرة ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٦) Abouseif (D), Op. Cit., P. 20 .

بركة الصابر

كانت بركة الصابر تلى بركة الدم ، وكان طولها مائة وخمسين متراً وعرضها مائة وعشرين متراً .^(١)

وقد وقعت برقم ٣٤٠ فى المربع 14 - L بخريطة الحملة الفرنسية ، وكانت تأخذ مياهها من الخليج الناصرى .

ويشغل مكانها الآن المنطقة التى بنا شارع بنك مصر بشارع شريف باشا (لدايع سابقاً) بباب اللوق بالقاهرة .

بركة قرموط (الضوالة)

قال ' المقرئى ' عن هذه البركة ' هذه البركة فيما بين اللوق والمقس وكانت من جملة بستان ابن ثعلب^(٢) فلما حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج الناصرى من موردة البلاط روى ما خرج من الطين فى هذه البركة وبنى الناس الدور وعرفت تلك الخطة كلها ببركة قرموط . .^(٣)

كما ذكرها ' المقرئى ' فى مواضع أخرى ففى كلامه على الخليج الناصرى ذكر أن بركة قرموط تقع ما بين الميدان الظاهرى وبين باب البحر^(٤) . وكذلك فى كلامه على قنطرة الكتبة قال أنها على

(١) على مبارك ، الخطط الترفيعة ، ج٣ ص ١٢٩ .

(٢) ابن ثعلب هو الأمير الشريف فخر الدين اسماعيل بن ثعلب ، ويتسمى نسيه إلى عبدالله بن جعفر الطيار بن أبى طالب ، وكان ابن ثعلب أحد أمراء مصر فى عهد العادل الأول الأيوبي أنشأ صلاح الدين ، وكان له مدرسة تسمى المدرسة الشريفة بجوار درب كركامة على رأس حارة الجسودية بحى الفحامين بالقاهرة الفاطمية ، وقد مات فى ١٧ رجب سنة ٦١٢ هـ .

* أما عن بستان ابن ثعلب فقد كان عظيم القدر مساحته ٧٥ فدانا فيه سائر الفواكة وجميع مايزرع من الأشجار والنخيل والكروم والرياحين وغير ذلك ، وكان البستان يمتد من باب اللوق إلى قنطرة الدكة ، وقد آل البستان بعده لإبنة فاشترى منه الملك الصالح نجم الدين أيوب وأنشأ فى جزء منه ميدان باب اللوق . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١١٨ . ، على مبارك ، الخطط الترفيعة ، ج٣ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

* وقد خلدت مصلحة التنظيم اسم ابن ثعلب باطلاقه على شارع صغير خلف البنك الأهلى المركزى بشارع قصر النيل بين شارعى الشريفين والقاضى الفاضل .

(٣) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٤ .

(٤) نفسه ص ١٤٥ .

* والميدان الظاهرى موقعة اليرم بباب اللوق فى المنطقة التى تحد من الشرق بشارع يوسف الجندى وشارع القاضى الفاضل ، ومن الشمال شارع قصر النيل ومن الغرب شارع مريت باشا ومن الجنوب شارع البستان . ولزيد من التفاصيل انظر مايلى ، ص ٣٧٨ .

* وباب البحر كان يقع على مدخل شارع نم باب البحر المنفرع من شارع الجمهورية .

الخليج الناصري بسخط بركة قرموط ^(١) . وفي كلامه على جامع المغربى قال أن هذا الجامع بالقرب من بركة قرموط مظل على الخليج الناصرى . ^(٢)

يتضح مما سبق أن بركة قرموط كانت تتوسط المسافة بين باب اللوق وباب البحر وأنها كانت قرب فنطرة الكتبة التى يمثل موقعها الآن نقطة التقاء شارعى طلعت حرب و٢٦ يوليو وكانت أيضاً بجوار جامع المغربى الذى لا يزال محله الآن زاوية صغيرة بشارع عدلى .

فبناءً على ذلك أرى أن موقع البركة يمثل الآن فى المنطقة التى تحيط بشارع عبدالحالق ثروت (الملكة فريدة سابقاً) شمالاً وشارع قصر النيل جنوباً ، وشارع جواد حسنى (طلعت حرب سابقاً) وشارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقاً) غرباً ^(٣) .

هذا وقد وقعت هذه البركة باسم بركة الفوالة فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٣٤١ فى المربع K - 14 ، وكانت تستمد ماءها من الخليج الناصرى مباشرة ، وكان متوسط طولها حوالى ٣٠٠ متر وعرضها المتوسط مائة متر . ^(٤)

وقد ذكر المقرئى أن هذه البركة تنسب إلى أمين الدين قرموط مستوفى الخزانة السلطانية ولم يذكر ترجمة كاملة له . ^(٥)

أما عن العمران حول البركة فى العصر المملوكى فنرى أنها كانت على أحسن ما يكون ويرجع السبب الرئيسى لذلك إلى حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون للخليج الناصرى سنة ٧٢٥هـ ورمى الطين حول البركة فبنى الأمراء والأعيان وأثرياء الناس الدور عليها وصار خط بركة قرموط من أعمر الخطوط ، وكانت بها السديار الجليلية التى تنهى أصحابها فى إحكام بنائها وتحسين سقوفها وزخرفتها

(١) الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٠ .

(٢) الخطط ، ج٢ ، ص ٣٢٨ .

* موقع هذا الجامع الآن زاوية صغيرة تعرف بزاوية المغربى بها ضريح المغربى وهى تقع من مدخل العمارة رقم ٣٠ بشارع عدلى على يسار المتجه إلى شارع سليمان باشا فيما بينه وبين شارع شريف .

(٣) ذكر المرحوم "محمد رمزى" موقع البركة بأنها كانت واقعة فى المنطقة التى تحد اليوم من الشمال بشارع ٢٦ يوليو (فؤاد الأول سابقاً) ومن الغرب بشارع شامبليون ومن الجنوب بشارع عبدالحالق ثروت (الملكة فريدة سابقاً) ومن الشرق بشارع شريف باشا (المدابغ) .

* إلا أنه بدارسة خريطة الحملة الفرنسية نجدها تقع شرقى الخليج الناصرى أى أنها لا تمتد إلى شارع شامبليون الذى كان يقع غرب الخليج الناصرى وليس شرقية ، كما أن حددها الشمالى لا يمتد إلى شارع ٢٦ يوليو ، وإنما بدارسة خريطة الحملة الفرنسية ومطابقتها بخرائط القاهرة الحالية نجد أن ذلك الحد ينتهى إلى شارع عبدالحالق ثروت أو لمسافة قليلة بالقرب منه .

(٤) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٢٢٩ .

(٥) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٥ .

بالرخام والبياض وألحقوا بها حدائق وأشجار تسقى من آبار حولها فكانت تعد من المساكن البديعة النزهة ^(١) ، وكان سكان هذه الدور طبقة متميزة فى العصر المملوكى معظمهم من الكتاب مسلمين ونصارى . ^(٢)

ثم يذكر المقرئى " أن خط بركة قرموط تعرض للخراب والدمار وهدمت المنازل وبيعت أنقاضها فى الأزمان والمحن التى حلت بمصر ابتداءً من سنة ٨٠٦هـ " فزال الطرق وجهلت الأزقة وانكشفت البركة وبقي حولها بساتين خراب ^(٣) .

لكننا نجد أن تلك الأزمان لم تقض على القاهرة ، بل عاد لها رونقها ونضارتها ، وقد وقعت البركة فى خريطة الحملة وقد أحاطت بها الأرض الفضاء والبساتين وإلى الشرق منها بالقرب من بركة الأزبكية خطط بعض الحارات . وقد ردمت البركة هى والبرك التى حولها عند تنظيم المنطقة المحيطة بها والتى أصبحت تمثل وسط البلد والحي التجارى لها فى عهد الخديوى اسماعيل .

بركة الأزبكية

كانت بركة الأزبكية من أعظم البرك مساحة فى العصرين المملوكى والعثمانى وأكثرها ارتباطاً بالنزاه ومظاهره ، ويمثل موضعها الآن حديقة الأزبكية وما حولها .

وقد ذكر المقرئى هذه البركة وأنها " كانت تعرف أيامه ببركة بطن البقرة وأنها تقع فيما بين أرض الطبالة ^(٤) وأراضى اللوق ^(٥) ويصل إليها ماء النيل من الخور فيعبر فى خليج الذكر إليها ^(٦) ، وكانت

(١) الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ .

(٢) يصف المقرئى " صورة دقيقة تعبر عن هذا الوضع المميز للبيوت وسكانها بالبركة بقوله " فكم حوت تلك الديار من حسن ومستحسن وأنى لأذكرها وما مررت بها قط إلا وتبين لى من كل دار هناك آثار النعم ، أما روائع تقالى المطبخ أو عبير بخور العود والتد أو نفحات الخمر أو صوت غناء أو دق هاون ونحو ذلك مما يبين عن ترف سكان تلك الديار ورفاهة عيشتهم وغضارة نعمهم " . انظر :

الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٦٤ .

(٣) نفسه ، ١٦٤ - ١٦٥ .

(٤) عن أرض الطبالة ، انظر مايلى ، ص ٢٩٨ .

(٥) عن أراضى اللوق ، انظر ماسبق ، ص ١٩٩ .

(٦) على خليجى الخور والذكر ، انظر مايلى ، ص ٣١٠ .

البركة تواجه قصر اللؤلؤة^(١) ودار الذهب^(٢) فى برج الخليج الغربى^(٣) .

وكان موضع البركة فى العصر الفاطمى جزءاً من بستان كبير يسمى بستان المقس يقع بين المقس^(٤)

(١) قصر اللؤلؤة كان أحد المناظر الفاطمية ، وكان يطل على الخليج الشرقى بالقرب من باب القنطرة ، وكان من أحسن القصور وأعظمها زخرفة وهو أحد منتزهات الدنيا المذكورة فإنه كان يشرف من شرقية على البستان الكافورى ويطل من غربية على الخليج ، وكان غرب الخليج بركة بطن البقرة ويساتين عظيمة وراءها النيل ، وهذا القصر بناه الخليفة الفاطمى العزيز بالله وقد أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدمه ونهب ما فيه ثم بناه بعد ذلك ابنه الظاهر لاعزاز دين الله . انظر :

المسبحى ، تاريخ مصر ، ص ١٦٧ ، المقرئى الخطط ج ١ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ . على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٦٠ .

* وحل محل قصر اللؤلؤة الآن الدور والأبنية المجاورة لضريح الشعرانى (أثر رقم ٥٩) ، شارع الخليج المصرى .
(٢) دار الذهب كانت تطل على شاطئ الخليج الشرقى ، بناها الوزير الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وضم إليها داراً كانت تعرف بأسم دار الفلك كان قد بناها فلك الملك أحد الاستاذين بقصر الخليفة الحاكم ، وكان الأفضل ينتقل إلى دار الذهب إذا انتقل الخليفة إلى قصر اللؤلؤة ليكون قريباً منه ، وقد أسهب المقرئى فى وصف ما كان يرتب من أطعمة كل يوم وليلة لإقامة الخليفة الوزير بمنظرى اللؤلؤة والذهب وما يصرف للحرس الخاص وحرس الوزير من أطعمة ووقود وشموع كما أسهب فى وصف مراسم الانتقال والاقامة وقد ذكر المقرئى موقع دار الذهب فقال : أن هذه الدار خارج القاهرة فيما بين باب الخوخة وباب سعادة ، وقد بنى مكان دار الذهب فى العصر المملوكى دار بأسم دار بهادر الأعسر ، ثم عرفت بدار الأمير الوزير المشير عبدالغنى الفخرى ، وكانت تقع بجوار مدرسته (أثر ١٨٠) من شرقها . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٧ ، ج ٢ ، ص ٧٤ ، ٣٢٨ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٧٦ ،

محمد الكحلوى ، مدرسة الأمير عبدالغنى الفخرى ، ماجستير "غير منشورة" (كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨١) ، ص ١١٧ .

(٣) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٤) المقس قرية قديمة قبل الفتح الإسلامى وكان اسمها الرومانى Tandunias وقد أطلق عليها العرب العرب أم دنين ، وكانت تطل على النيل مباشرة قبل أن ينحسر ، وكانت ميناءً للقاهرة فى العصر الفاطمى ، وقد أنشأ الخليفة المسعز لدين الله هناك دار صناعة السفن ، وقد أنشأ بها الخليفة الحاكم بأمر الله جامعاً عرف فى العصر المملوكى باسم جامع المقس وكان يطل على الخليفة الناصرى ، وقد عرف بعد ذلك بجوامع أولاد عنان (جامع الفتح بميدان رمسيس حالياً) .

ويرجع تسمية القرية بالمقس نسبة للمكس وهى الضريبة التى كانت تحصل هناك حتى كانت ميناء القاهرة ، كما عرفت أيضاً باسم المقسم لأن العرب قسموا الغنائم التى حصلوا عليها أثناء الفتح هناك ، وغلب استعمال لفظ المقسم فى المصادر والوثائق العثمانية . وعند جامع المقس كان يتهى السور الذى بناه قراقوش وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي ليحيط بالقاهرة وظواهرها كما بنى قراقوش هناك برجاً يجوار الجامع محل المنطرة الفاطمية القديمة ، وكان الجامع يشرف على النيل مباشرة فى ذلك الوقت ، وقد جدد الجامع قراقوش ثم جدد الوزير الصاحب شمس الدين عبدالله المقس وزير السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون فى سنة ٧٠٠هـ ، وقد ذكر=

وجنان الزهرى^(١) ، وكان يشرف على النيل من غريبه (قبل أن ينحسر) ويشرف على الخليج الكبير من شرقية .^(٢)

وفى أيام الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١ - ٤٢٧هـ / ١٠٢٠ - ١٠٣٦م) أمر بعد سنة ٤١٠هـ / ١٠١٩ بإزالة أنشأب هذا البستان وأن يعمل بركة قدام منظره اللؤلؤة ، وفى أيام الشدة الكبرى التى حدثت من سنة ٤٥٧هـ حتى سنة ٤٦٤هـ^(٣) فى خلافة المستنصر بالله هجرت البركة وبنى موضعها عدة أماكن عرفت بحارة اللصوص إذ ذاك^(٤) ، ولكنها عمّرت موات أخرى فى أيام الخليفة الأمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م) فى وزارة المأمون بن فاتك البطائجى (٥١٥ - ٥١٩هـ / ١١٢١ - ١١٢٥م) حيث أزيلت تلك الأبنية وعمق حفر الأرض وأجرى إليها الماء من خليج الذكر فصارت بركة عرفت ببطن البقرة^(٥) .

واستمرت البركة على حالها حتى تعرضت للمحن التى حدثت أيام السلطان الملك العادل كتبنا سنة ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م حيث حدث تقصير كبير للنيل فحدثت مجاعة ، وصارت البركة كيما يعرف بكوم الجاسكى مجاوراً لميدان القمح^(٦) وصار ما حولها خراباً من أرض الطبالة حتى باب اللوق ، ويذكر " المقرئى " أيضاً أن البركة كانت أيامه خراباً ' إلا موضع صغير منها كان الناس يجتمعون هناك للنزهة .^(٧)

= المقرئى أنه أدرك المقس فى أيامه خطة فى غاية العمارة وبها عدة أسواق ويسكنها أمم من الأكراد والأجناد والكتاب وغيرهم .

* وكانت المقس تشغل المنطقة التى تحد من الغرب بشارع عماد الدين ومن الجنوب بشارع قنطرة الدكة وشارع القبيلة ومن الشرق بشارع الكنيسة المرقية ومن الشمال بشارع بين الحارات وحتى ميدان رمسيس . انظر : المقرئى الخطط ج٢ ص ١٢٣ - ١٢٤ ، ٢٨٣ - ٢٨٤ القلقشنلى ، صبح الأعشى ، ج٣ ، ص ٣٦١ ، على مبارك ، الخطط الترفيقية ، ج٣ ، ص ٢٥٠ ، ٣٦٨ ، ٣٦٩ ، ج٤ ، ص ١٢٧ - ١٢٩ . محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق١ ، ص ١٢٨ - ١٢٩ .

(١) عن جنان الزهرى ، ما سبق ، ص ١٨٨ .

(٢) الخطط ، ج٢ ، ص ١٦٣ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٣٠٥ ، ٣٢٦ ، ج٢ ، ص ٢ ، ١٠٠ ، ٢٦٥ .

(٤) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ص ١٦٣ .

(٥) نفسه .

(٦) ميدان القمح قال عنه المقرئى " أن هذا المكان خارج باب القنطرة يتصل من شرقية بعمدوه الخليج ومن غريبه بالمقس ، وبعضهم يسميه ميدان الغلة ، وكان مريضاً للغلال أيام كان المقس ساحل القاهرة " . الخطط ، ج٢ ، ص ١٢٤ - ١٢٥ .

* ونلاحظ أن ميدان القمح (الغلة) ظل يستخدم فى تجارة وتخزين الحبوب فى العصر العثمانى وما بعده ، وقد وقع بمكانه فى خريطة الحملة الفرنسية وكالتين للقمح (رقم ٣١٥ فى المربع E-8 ، رقم ٤٠٣ فى المربع D-8) . ويثل موضع ميدان القمح الآن النصف الشرقى من منطقة باب البحر .

وكانت البركة والمنطقة حولها تأخذ مياهها من خليج الذكر فلما طم وخرت مناظر اللوق سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م وصارت هذه البقعة مقطوع طريق واستمرت على ذلك مدة طويلة لم يلتفت إليها أحد من الناس ، ثم أن أحد الناس أوصل الماء إلى أرض بركة الأريكية عن طريق الخليج الناصري فصار الماء يدخل إليها في آخر الزيادة ويروى بعض أراضيها وتزرع بالبرسيم والشعير . (١)

عمارة البركة على يد أريك :

كتب لنا المؤرخ ابن اياس ما قام به الأمير أريك من ططخ (٢) من إصلاح للبركة وحفرها والعمارة الكبرى حولها ، تلك العمارة التي خلدت اسمه بخلود مدينة القاهرة ، وجعلت الأريكية من أهم البقاع وأنزهها في بقية العصر المملوكي وكل العصر العثماني وعصر أسرة محمد على وظلت الأريكية لوقتنا الحاضر من أهم احياء القاهرة وقلبها النابض بالحياة والحركة والتجارة قال «ابن اياس» عن موقع البركة قبل إصلاح أريك ' كانت هذه البقعة أرض ساحة خراب ذات كيما في أرض سباح وبها أشجار أثل وسنط وبها مزار سيدى عتر (٣) وسيدى وزير (٤) وغيرهما من الأولياء رضى الله عنهم وكان في هذه الأرض جامع خراب يسمى جامع الجاكي (٥) وهو باقى إلى الآن ' . (٦)

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) الأمير أريك من ططخ الأشرفى نسبة للأشرف برسباى ثم الظاهري نسبة للظاهر جقمق ، جلبه تاجر المالك ططخ من بلاد الجركس ، فاشتره الأشرف برسباى سنة ٨٤١هـ فجعله أحد كتبه ، ثم انتقل لولده العزيز ، ثم اشتره الظاهر جقمق فأعقبه ووجه ابنته فلما ماتت تزوج أختها ، وقد تدرج في الرتب حتى وصل إلى أمير مائة مقدم الف وهى أعلى رتبة في رتب الممالك ، وكانت أهم وظيفة تقلدها أريك هى آخر وظيفة له وهى أتابك العساكر أى مقدم الممالك السلطانية وقائد الجيش وذلك في بداية حكم السلطان قايتباى سنة ٨٧٢هـ واستمر بها نحو ٢٨ عاماً ، وكانت له جولات عديدة في التجاريد والحملات ، انتصر فيها على أعداء الدولة التركمانية المتاخمة لحدودها ، وكذلك انتصر على الدولة العثمانية عدة مرات .

'' وكان عظيم القدرة والمهابة ، حج عدة مرات ، وكان ينوب عن السلطان في الاحتفال بكسر سد الخليج وإمارة الحج والسفارات وغير ذلك ، وكان عظيم الثراء وخلف ثروة طائلة ، وقد توفي يوم الأحد ٢٤ رمضان ٩٠٤هـ / ١٤٩٨م عن عمر يناهز ٨٤ عاماً ودفن بترية استاذة الملك الظاهر جقمق وهى تربة قاني باى الجركسى . انظر : السخاوى ، الفقه اللاع ، جـ ٢ ، ص ٢٧٠-٢٧٢ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٤١١ ، ٤١٣ ، أنا مارى شيل ، قال بعنوان "الأتاكي أريك من ططخ مؤسس الأريكية بالقاهرة ، عدد خاص من مجلة فكر وفن خاص بالقاهرة في عيدها الألفى .

(٣) سجل مزار سيدى عتر بخريطة الحملة الفرنسية برقم ١٠٤ في المربع 11- I في جنوب شرق البركة .

(٤) كان مقام سيدى وزير هذا يجاور جامع أريك قد ورد ذكره في كتاب وقف السلطان قايتباى رقم ٨٨٠ أوقاف ، ص ٣٢٠ .

(٥) جامع الجاكي كان في المنطقة المحصورة بين شارع الأهر وسكة المتنصرة . انظر بالتفصيل : محمد رمزي ، تعليقة على النجوم الزهرة ، جـ ٩ ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

(٦) بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١١٦ .

وعن عمارة أربك للبركة يقول " أنه حسن ببال أربك أن يعمر مناخ لجماله ^(١) فى تلك البقعة وكان ساكناً بالقرب منها ، فلما عمر المناخ حلا له هناك العمارة فبنى القاعات الجليلة ثم الدوار والمقعد والمبنيات والحواصل وغير ذلك ثم أنه أحضر أبقار ومحارث وجرف الكيمان التى كانت هناك ومهداها ثم حفر بها هذه البركة الموجودة الآن ، وأجرى إليها الماء من الخليج الناصرى ، وجدد عمارة قنطرة خليج الذكر التى كانت هناك ثم بنى على هذه البركة رصيفاً محتاطاً بها وتعب فى ذلك تعباً عظيماً حتى تم له ما أراد من ذلك فكان فى قوة الحر يدور خلف المحارث فى الكيمان وغيرها وأصرف على ذلك مالا له صورة ما يزيد على مائتى ألف دينار " . ^(٢)

وعن عمارة منطقة الأربكية يستطرد ابن إياس فيقول : " ثم شرعت الناس تبنى على هذه البركة القصور الفاخرة والأماكن الجليلة ، ولأزالت تتزايد فى العمارة إلى سنة احدى وتسعمائة ، وقد رغب الكثير من الناس فى سكنى الأربكية وصارت مدينة على أفرادها ، ثم أنشأ بها الجامع الكبير وجعل به خطبة وأنشأ به المئذنة العظيمة وجاء غاية فى الحسن والتزخرف والبناء . . ثم أنشأ حول هذا الجامع الربوع والحمامات والقيصر والطواحين والأفران وغير ذلك من المنافع وسكن فى تلك القصور وتمتع بها مدة طويلة حتى مات وبقي له تذكارات بالأربكية " .

ولما كملت عمارة الأربكية ودخل الماء إلى بركتها أنعم السلطان قيتباى على الاتابكى أربك بأرضها وكتب له بذلك مربعة شريفة ، وكانت أرض الأربكية قبل اعتناء أربك بها أرض محتكرة موقوفة على خزائن السلاح ^(٣) منذ العصر الأيوبي " ^(٤) .

(١) ذكر على مبارك أن مكان مناخ جمال أربك اللوكاندة الخديوية ، وهى التى سميت فيما بعد بأسم فندق شبرد .
الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٣٦٣ .

* وقد احترقت هذه اللوكاندة فى حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ وبقي مكانها فضاء عمل فى جزء منها الآن جراج متعدد الطوابق ، ويثل مكان المناخ الآن المنطقة المحصورة بين شارع الجمهورية شرقاً وشارع عماد الدين غرباً وشارع سليمان الحلبي شمالاً وشارع ٦٢ يوليو جنوباً .

(٢) بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١١٧ .

(٣) قال القرينى عن حكر خزائن السلاح الذى يثل موضع البركة " هذا الحكر كان يعرف قديماً بحرك الأوسية وهو فيما بين الدكة وقنطرة الموسكى ، وقفه السلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب على مصالح خزائن السلاح هو وعدة أماكن بمدينة مصر مع مدينة قليوب وأراضيها فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وستمئة وظهر كتاب الوقف المذكور من الخزائن السلطانية فى جمادى الأولى سنة خمس عشرة وسبعمئة فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وقد خرب أكثر هذا الحكر وصار كيماناً " .

الخطط ، ج ٢ ، ص ١١٩ ، وانظر أيضاً :

على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٦٨ - ٦٩ .

(٤) بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١١٨ .

وقد قدرت مساحة البركة في العصر المملوكى بـ ٦٠ فداناً^(١) واستمرت كذلك في العصر العثماني .^(٢)

أما عن تاريخ أعمال أربك بالأزبكية فقد ابتدأها في شهر ذى الحجة سنة ٨٨٠هـ / ١٤٧٦م وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٨م كان انتهاء عمارة قاعات الأزبكية وحضر الاحتفال بها السلطان قايتباى الذى بات ليلتها في ضيافة أربك^(٣) . وفي جمادى الأولى سنة ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م كان انتهاء المشروع ككل^(٤) ، وفي سنة ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م كان أول افتتاح لسد خليج بركة الأزبكية الذى يمدّها بالماء^(٥)

ويعد اكتمال الأزبكية ٨٨٩هـ / ١٤٨٤م بدأ الرحالة الأجانب يكتبون عن الأزبكية وعن عمارتها الجديدة ومنهم الرحالة "فابري" الذى أشاد بجمال وفخامة مساكنها وعن منظر البركة البهيج بعدما كانت المنطقة مجرد أذغال ومناطق ينبت بها البوص والحلفاء وكانت منطقة خطيرة^(٦) .

وقد أصبحت الأزبكية بعد تعميرها بقعة قدر لها أن تشهد كثيراً من الأحداث السياسية والاجتماعية وكانت الاضطرابات السياسية على أشدها في نهاية دولة المماليك ، وقد تأثرت منشآت الأزبكية بتلك الأحداث تأثراً كبيراً ونال بعضها التخريب والتحريق كالقاعات والقصور والربوع والدور حتى قناديل الجامع وحصره كانت تنهب في تلك الأحداث ، ومن أهم الأحداث ما حدث في شهر ذى الحجة سنة ٩٠٠هـ أثناء الفتنة التى قام بها الأمير قانصوة خمسمائة أمير اخور كبير الذى اتخذ من الأزبكية مركزاً لتجميع قواته ضد منافسية ، ونال الأتابكى أربك أذى كبير بسبب ذلك وكاد يقتل فطلب من السلطان قايتباى عزله ونفيه إلى مكة خوفاً على حياته ويرجع سبب ذلك لكونه صهراً للأمير قانصوة خمسمائة^(٧) .

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ ، ص ٢٥٠ .

(٢) من الجدير بالذكر هنا أن الرحالة عبدالغنى النابلسى الذى زار مصر في سنة ١١٠٥هـ / ١٦٩٣م ونزل ضيفاً في دار اسرة السادة البكرية المطة على البركة التى كانت وقتئذ مزروعة فناقش في مساحتها وهل هى اعرض من مرجة دمشق أم المرجة اعرض منها مما دحاها إلى قياسها بالسذراع الذى حدده بثلاثة أشبار فكانت مساحتها ١٠٥٠ ذراعاً طولاً في ٤٤٢ ذراعاً عرضاً . انظر : الحقيقة والمجاز ، ص ٢٨٧ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ١٣٤ .

(٤) Abouseif, Op. Cit., P.23

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٢١٩ .

(٦) Fabri, (F)., (1483), Le Voyage en Egypte Cairo , 1975, P. 919.

(٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٣ ، ص ٣١٠ - ٣١٤ .

وقد تكررت مثل تلك الحوادث بالأزبكية مرات عديدة مثلما حدث فى جمادى الآخر ٩٠٢ هـ (١) ، وفى شوال ٩٠٦ هـ (٢) ، وفى رمضان ٩٠٧ هـ (٣) ، وفى محرم ٩١٦ هـ (٤) .

ومن الجدير بالذكر أنه قد خصص قصر أربك بالأزبكية لمن يلى وظيفة أتابك مصر فى بقية العصر المملوكى مثل الأمير قصرو الذى كان نائباً للشام فلما تولى الأتابكية بمصر نزل بقصر أربك فى جمادى الآخر سنة ٩٠٦ هـ (٥) ، وكذلك نزل به الأتابكى قيت فى شوال ٩٠٧ هـ (٦) أثناء سلطنة الغورى ، وكذلك نزل به الأمير أركماس الذى كان نائباً للشام وتولى الأتابكية فى مصر فى ذى الحجة ٩١١ هـ (٧) .

وقد رأينا مثل ذلك الأمر من قبل من تخصيص بيوت على البرك للوظائف الكبرى فى الدولة وهذا يدل على أهمية البرك كمكان ارستقراطى متميز ، وكان ذلك فى تخصيص قصر على بركة القيل لمن يلى وظيفة أمير اخور (٨) وكذلك تخصيص قصر على نفس البركة لمن يلى وظيفة أمير مجلس (٩) . وكذلك تخصيص قصر على بركة الرطلى لمن يتولى منصب الوزارة (١٠) .

تخطيط الأزبكية من خلال وثيقة أربك :

سجل أربك أعماله بالأزبكية بحجة وقفه المؤرخة بسنة ٨٩٠ هـ / ١٤٨٥ و التى تحمل رقم ١٩٨ والمحفوظ بدار الوثائق القومية (١١) ، وقد فقد الجزء الأول منها الذى كان يحوى وصف الجامع (١٢) ولكن موقعة محدد فى مواضع أخرى من الوثيقة .

(١) نفسه ، ج ٣ ، ص ٣٤٨ - ٣٥٠ .

(٢) نفسه ، ج ٤ ، ص ٥ .

(٣) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧ .

(٤) نفسه ، ج ٤ ، ص ١٧٨ .

(٥) نفسه ، ج ٣ ، ص ٤٥٨ .

(٦) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٩ .

(٧) نفسه ، ج ٣ ، ص ٩٢ .

(٨) انظر ماسبق ، ص ١٧٧ .

(٩) انظر ماسبق ، ص ١٧١ .

(١٠) انظر مايلى ، ص ٢٤٣ .

(١١) نقلت محتويات دار الوثائق القومية من مبنائها بالقلمة الى مبنى ملحق بالهيئة المصرية العامة للكتاب برملة بولاق .

(١٢) هذا الجامع تالى فى تاريخه لبناء القاعات ، وهو مرقع على خريطة الحملة الفرنسية برقم ١٧٧ فى المربع I-11 وقد قام جرانند بك بعمل تخطيط له قبل هدمه سنة ١٢٨٦ هـ / ١٨٦٩ . انظر كراسات لجنة حفظ الآثار لسنة ١٨٩٤ تقرير ١٦٦ لوحة (١) .

* وكان الجامع يقع بالقرب من مدخل شارع الازهر وأزيل ضمن ما أزيل فى تنظيم ميدان العتبة الخضراء وفتح شارع محمد على . انظر :

حسن عبدالوهاب ، تخطيط القاهرة ، ص ٤٠ .

وقد بنى أربك مجموعتين متقابلين من المباني بينهما شارع مسلوک ، المجموعة الأولى تطل مباشرة على البركة والثانية تقابلها عبر الشارع ، وقد بنيت المجموعة الأولى أولاً ، وقد اختار أربك موقعاً متميزاً لبناء منشآته على البركة فهي تقع بالجهة الشرقية منها لتستقبل الهواء والنسيم الذى يهب من الشمال الغربى .

ولم يكن بالموقع من أبنية سوى مزارى سيدى عتر وسيدى وزير ، وكان القصر هو أول ما بناه أربك وتلاه بناء الجامع والقيصرية وغيرها من المباني التجارية .

ومن خلال الوثيقة نجد وصفاً شاملاً لتلك المنشآت وقد اتصفت بالفخامة والعظمة واتسعت الأساليب والتخطيطات المعمارية التي كانت سائدة فى زمنه ، وحفلت بالزخارف الرائعة ^(١) ، وشكلت تلك العناصر حياً متكاملًا يحوى المنشآت الدينية مثل الجامع الذى قام أيضاً بدور خانقاة ترد الصوفية إليه ، وذلك حوت المنشآت الاجتماعية مثل الحمامات والسبيل والسواقى وحوض دواب ، كذلك حوت المنشآت التجارية مثل القيصرة والطواحين وغير ذلك .

وتصف الوثيقة أولاً العمارة البحرية المطلة على بركة الأربكية وهي ثلاثة أماكن متجاورة ، والأول هو الدوار والثانى الحوانيت والربع فوقها والثالث سكن اينال شاد العمائر .

فأما الأول فهو الدوار:

وكان لهذا الدوار أحد عشر باباً ، الابواب الثلاثة الأولى كانت تؤدي فى الغالب إلى ثلاثة قصور سكنية بها قاعات سكنية كما يبدو مما تبقى من بداية الوثيقة ^(٢) . وكان الباب الرابع يؤدي إلى مقعد ^(٣) . والباب الخامس يؤدي إلى مطبخ واسطبل وساقية ^(٤) والباب السادس يؤدي إلى شر ابخاناة خاصة بالامير أربك ^(٥) ، والباب السابع يؤدي إلى

(١) بالرغم من تلك الأوصاف التى نجدها بالوثيقة إلا أنه للأسف قد اندثرت كل المنشآت التى تنتمى لأربك ، وكان من الممكن التعرف عليها من مثيلاتها التى أنشأها يشبك بن مهدي بالحسينية وهي مجموعته التى اتخذت متنزهاً كبيراً وكانت تضم بركة وبساتين وقاعات وأبنية أخرى اثنى عليها قايتباى وفضلها على مجموعة أربك ولكن للأسف لم يتبق منها سوى قبته التى عرفت بأسم قبة الفداوية وهي على أية حال هي وقته يحى القبة تعكس صورة حية لما كانت عليه كل من منشآت أربك ويشبك ، ومهما كان التماثل فالأربكية كانت فريدة ففى كونها

غيرت تخطيط المدينة وخفت المناخ أثناء الصيف . Abousief (D)., Op. Cit., P. 29.

(٢) سطير من ١ - ١٢٢ من الوثيقة .

(٣) سطير من ١٢٣ - ١٤٢ . وعن المقعد انظر مايلى ، ص

(٤) سطور ١٤٢ - ١٥٣ .

(٥) سطرى ١٥٣ - ١٥٤ .

* والشراب خاتناه هي بيت الشراب ، وكانت تشتمل على أنواع الاشربة المرصدة للسلطان أو الامير وكان بها الأواني النفيسة . انظر : حسن الباشا ، الفنون الإسلامية والوظائف ، ج ٢ ، ص ٦١٤ .

فراش خاناه (١١) ، والباب الثامن يؤدي إلى طشت خاناه (١٢) ، والباب التاسع يؤدي إلى رواق تركي (١٣) ، والباب العاشر يؤدي إلى كرسى راحة (١٤) ، والباب الحادي عشر يؤدي إلى حاصل (١٥) .

وقد ذكرت حدود هذا المكان كالتالي : كان الحد القبلى ينتهى إلى الطريق السلوك وفيه واجهة هذا المكان وبابه الأسمى ومطل الشباك الذى يبيت المقعد المذكور والحد البحرى ينتهى إلى بركة الأربكية وفيه واجهة القيطون والقاعتين والقصر والمقعدين مطل ذلك على البركة الأربكية ، والحد الشرقى ينتهى إلى مكان يعرف بإنشاء الجنب السيفى الزينى سالم (١٦) ، والحد الغربى ينتهى بعضه إلى الربع المعروف بإنشاء الواقف (أزبك) ، وباقية إلى الرواق والاسطبل المعروفين بإنشاء الواقف ويسكن الجنب السيفى اينال شاد العمائر بخدمة الواقف .

أما المكان الثانى فى العمارة البحرية الملاصق للمكان الأول فهو يشتمل فى سلفه على عشرة حوانيت صف واحد ، كل حانوت يشتمل على مسطبة ودراريب وداخل ومنافع وحقوق ، ويشتمل علوة على ربع يتوصل إلى بابه من استطارق مشترك بين الربع المذكور وبين المكان الثالث المعروف بسكن السيفى اينال شاد العمائر (١٧) ، وهذا الربع يحتوى على صف من عشر طباق كلها مطلة على الشارع السلوك (١٨) .

أما عن حدود المكان الثانى فإن الحد القبلى ينتهى إلى الشارع السلوك وفيه واجهة الحوانيت المذكورة ومساطبها وواجهة الطباق ومطل طاقاتها ، والحد البحرى ينتهى إلى معالم المكان الأول المعروف بالقصر ، والحد الشرقى ينتهى إلى المكان الأول والحد الغربى ينتهى إلى الاستطارق المشترك بين رفع هذا المكان وبين المكان الثالث (١٩) .

(١) سطورى ١٥٤ - ١٥٥ .

* والفراش خاناه هى بيت الفراش وكان يشتمل على أنواع الفرش من البسط والحيام .
انظر : حسن الباشا ، نفس المرجع ، ج ٢ ، ص ٨٠٤ .

(٢) سطور ١٥٥ - ١٥٨ .

* والطشت خاناه هى بيت الطشت . انظر : حسن الباشا ، نفس المرجع ، ص ٧٤٢ .

(٣) سطور ١٥٨ - ١٦٤ .

(٤) سطورى ١٦٥ - ١٦٦ .

(٥) سطورى ١٦٦ - ١٦٧ .

(٦) ورد ذكر الزينى سالم فى المقامة القادرية التى أوردها ابن اياس فى كتابه المخطوط " نزهة الأسم فى العجايب والحكم " .

وعن تلك المقامة ، انظر مايلى : ص ٥٤٧ .

(٧) سطور ١٧٤ - ١٧٨ .

(٨) انظر وصف هذا الربع بالكامل فى سطور من ١٨٧ - ١٨٤ .

(٩) سطور ١٨٤ - ١٨٨ .

أما المكان الثالث من العمارة البحرية وكان ملاصقاً للمكان الثانى من الجهة الغربية فهو المكان المعروف بسكن السيفى اينال شاد العمائر^(١) .

أما عن حدوده فإن الحد القبلى كان ينتهى إلى الشارع السلوك وفيه روشن الرواق الذى على الطريق وطاقاته وواجهته وبابها والاستطراق الذى من داخل الواجهة وهو المشترك المعين أعلاه ، والحد البحرى ينتهى إلى البركة الأزيكية وفيه مظل الرواق الثانى والحد الشرقى ينتهى بعضه إلى الربع والحوانيت التى بالمكان الثانى وباقية إلى المكان الأول والحد الغربى ينتهى إلى مكان يعرف بملك السيفى قان بك قريب الواقف (أربك)^(٢) وهذا آخر وقف الأماكن التى بالعمارة البحرية .

أما العمارة القبلية التى بها الجامع المعمر بذكر الله تعالى والتى أماكنها متجاورة متلاصقة صف واحد يفصل بينها وبين العمارة البحرية الشارع السلوك ، فتشتمل على أماكن متعددة وأبوابها ثمانية عشر باباً فى صف واحد يفتح من الغرب إلى الشرق كالتالى :

- الباب الأول يؤدى إلى فرن^(٣) .
- الباب الثانى يؤدى إلى طاحون^(٤) .
- الباب الثالث يؤدى إلى حانوت^(٥) .
- الباب الرابع يؤدى إلى طاحون^(٦) .
- الباب الخامس والسادس لخوتتين كل منهما بصفة الحانوت^(٧) .
- الباب السابع يؤدى إلى حمام للنساء^(٨) .
- الباب الثامن والباب التاسع والباب العاشر والباب الحادى عشر إلى حوانيت^(٩) .
- الباب الثانى عشر إلى حمام الرجال^(١٠) (رقم ١٧١ فى المربع I-11 فى خريطة الحملة) .

(١) انظر وصف هذا السكن بالكامل فى سطور ١٨٩ - ٢٣٣ .

(٢) سطور ٢٣٢ - ٢٣٨ .

(٣) سطور ٢٤١ - ٢٤٨ .

(٤) سطور ٢٤٨ - ٢٥٠ .

(٥) سطور ٢٥٠ - ٢٥٢ .

(٦) سطور ٢٥٢ - ٢٦٢ .

(٧) سطور ٢٦٢ - ٢٦٣ .

(٨) سطور ٢٦٣ - ٢٨٢ .

(٩) سطور ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(١٠) سطور ٢٨٤ - ٢٨٧ .

- الباب الثالث عشر والباب الرابع عشر والباب الخامس عشر لحوانيت (١).

- الباب السادس عشر يؤدي إلى مجاز متسع أرضى مشترك الاستطراق بين الجامع وبين مقام سيدى عتر وبين الميضأة وبين منافع متعلقة بالحمامين ، وبه سلم يؤدي من ناحية إلى طبقتين ومن الناحية الأخرى إلى ربع من ١٦ طبقة منهم ١٥ صفاً واحد تشرف على الشارع وكان يوجد ٥ مخازن على يسار الممر تحت الجامع وعلى يسار الداخل أيضاً باب قاعة خطيب الجامع ويليه باب يدخل منه إلى مجاز به مقام سيدى عبدالقادر الصابر وعلى يمين الممر باب يؤدي إلى رحبة متسعة وبها باب يؤدي إلى رواق ، وبآخر الممر حديقة تضم ساقية تمد الحديقة والحمامين والفيضأة بالماء اللازم (٢).

- والباب السابع عشر والباب الثامن عشر يؤديان لمخازن تحت الجامع (٣).

والى الشرق من هذه العمارة كان يوجد الجامع ذو الأعمدة وبالناحية الشرقية منه كان يوجد سبيل يعلوه كتاب .

والى الغرب من هذه العمارة استجد اريك بناء قيسارية (٤) سنة ٨٩٠هـ ، وقد وصفت تلك القيسارية بأنها تتكون من ٨٩ حانوتاً و٢٩ مقعداً ، يتوسطها (صحن مستطيل) بوسطة فوارة ، وربما كانت القيسارية تتكون من عدة طبقات فوق بعضها البعض ، ولم تذكر الوثيقة أى طباق سكنية بالقيسارية ، وكان يوجد على جانبى القيسارية أربعة حوانيت اثنان على كل جانب ، وقد كانت القيسارية تقع غرب القرن .

وقد استجد اريك غيط جنوب القيسارية وبحره غربها (٥).

(١) سطرى ٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٢) سطور ٢٨٩ - ٣٣٥ .

(٣) سطرى ٣٣٥ - ٣٣٦ .

(٤) كانت القياسر نوعاً من الأسواق حيث أنها تضم عدداً من الحوانيت للتجارة كما أنها كانت تختص بتوع من البضائع وإن كانت اسمائها لا تنطبق على مايباع فيها من بضائع ، وهى إن تشابهت فى المعنى العام إلا أنها لم تكن فى حجمها أو تخطيطها مشابهة للأسواق فهى فى الحجم يمكن أن توضع مع السويقات أى يمكن اعتبارها سوقاً صغيرة . اما من ناحية التخطيط فهى وإن كانت تحتوى على دكاكين إلا أن هذه الدكاكين لم تكن مبنية على جانبى الشارع مثل الأسواق بل إن كل قيسارية كانت قائمة بذاتها يمتلكها فرد ومن الجائز أن يتوارثها افراد .

وكانت إما متسلسلة أو مربعة تصطف الدكاكين بداخلها وكان لها أبواب خارجية تبلغ أحياناً سبعة أبواب تغلق ليلاً وكان يقوم على حراستها حارس أو حارسان وكان يعلو هذه المحلات ربع يسكنه الأجانب وغيرهم . انظر : آمال العمبرى ، أضواء على المنشآت التجارية فى مصر المملوكية ، بحث فى مجلة كلية الآثار ، ١٩٧٨ ، ص ٦٧ - ٦٨ .

(٥) ظهر الوثيقة سطور ٨٠ - ٤٨ .

وقد وقع بخريطة الحملة الفرنسية درب يسمى درب البحرة (رقم ١٦١ فى المربع K-11 وقد ذكرت حدود القيسارية فى الوثيقة كالآتى : الحـد القبلى ينتهى إلى الغيط المستجد الانشاء ، والحـد البحرى ينتهى إلى ... والحوائث الأربعة المذكورة ، والحـد الشرقى ينتهى إلى القرن المذكور بعضـة وباقية إلى الساقية التى برسم الجامع وفيه باب سر القيسارية المذكورة والحـد الغربى ينتهى إلى البحرة الآتى ذكرها فيه بعضه وباقية إلى الغيط الموعود بذكره أيضاً ^(١) .

وقد وقع بخريطة الحملة الفرنسية درب الوكالة (رقم ١٦٢ فى المربع K-11 حيث حل لفظ الوكالة بدلاً من القيسارية فى العصر العثمانى .

وكان يجاور القيسارية أيضاً حوض معد لسقى الدواب ^(٢) وكذلك عدة مخازن وعدة طباق سكنية تعلوه ^(٣) .

أما الغيط فوصف بأنه كان كبير ويقع غرب وجنوب القيسارية وبه كثير من أنواع الأشجار المثمرة وبه بئر وساقية بجوار المخازن والحوض ^(٤) .

وقد كان لأربك عدة بساتين وبيوت منتشرة حول البركة وفيما بينها وبين الخليج ^(٥) مما كان له أكبر الأثر فى اطلاق اسمه على الحى كله بجدارة واستحقاق .

بركة الأزيكية فى العصر العثمانى :

بعد وفاة أربك مؤسس الأزيكية قل الاهتمام بعمارتها بل أن منشآتها تعرضت للنهب والتخريب أيام السلطان الغورى ^(٦) ، وتعرضت للدمار أكثر أثناء الغزو العثمانى لمصر ^(٧) .

وبدأ الاهتمام يعود للأزيكية بشكل واضح فى القرن ١١هـ / ١٧م فقد بدأت بعض الأسر الثرية من الشيوخ والتجار فى البناء حول البركة وتبعمهم كبار الأمراء ^(٨) ، وكان أكبر عمران لها فى القرن ١٢هـ / ١٨م إذ خفت حولها بيوت الأمراء من أصحاب الوظائف الكبرى فى الدولة ، وكذلك كبار

(١) سطور ٨٤ - ٨٧ .

(٢) سطور ٨٧ - ٩٠ .

(٣) سطرى ٩٠ - ٩١ .

(٤) سطرى ٩١ - ٩٢ .

(٥) سطور ٩٦ - ١٠٢ .

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، جـ ٥ ، ص ١٣٧ .

(٧) نفسه ، ص ١٩٦ ، ٢٣٣ .

(٨) اندرية ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى ، ص ١٨٢ .

التجار ، كما أنها تميزت بصفة خاصة باقامة كبار الشيوخ والسادة الأشراف وأصحاب الطرق الصوفية لبيوتهم حول البركة ^(١) .

وعمرت الأخطاط حول البركة عمارة كبيرة في العصر العثماني ، وكان للأقباط حتى خاص بهم في شمال البركة المعروف الآن بحارة النصارى ^(٢) ، بالإضافة لتواجدهم أيضاً جنوب شرق البركة حول جامع عثمان كئخدا . وفي شمال البركة أيضاً عمر خط قنطرة الدكة ^(٣) ، وفي شمال شرق البركة تكثف العمران واختط خط الرويعى ^(٤) حول جامع الرويعى ^(٥) ، وفي جنوب شرق البركة عرفت المنطقة بأسم العتبة الزرقاء ^(٦) وكانت أشد المناطق ازدحاماً بالعمارة حول البركة ، وفي جنوب

(١) من كبار الشيوخ والسادة الأشراف الذين أقاموا بالأريكية في النصف الثاني من القرن ١٢ هـ / ١٨ م الشيخ عبدالله الشبراوى شيخ الأزهر المتوفى في ٦ ذى الحجة سنة ١١٧١ هـ / ١٧٥٨ م ، وكان بيته بمنطقة الرويعى على البركة . الجبترى ، ج١ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٧ .

وكذلك ابنه عامر المتوفى في ٢٩ محرم ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م كانت داره قرب دار ابيه .

الجبترى ، ج١ ، ص ٥٢٩ .

كذلك سكن حول البركة السيد الشريف محمد بن حسين الحسينى العادلى الدمرداش المتوفى ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م .

الجبترى ، ج١ ، ص ٣٣١ .

والشيخ المرحومى (ت ١١٧٨ / ١٧٦٥ م) ، وكذلك الشيخ حسن المقدسى وكان بيته مظل على البركة مباشرة (ت ١٨ جمادى الآخر ١١٨٢ هـ / ١٧٦٨ م) . الجبترى ، ج١ ، ص ٤٣٠ .

وكذلك الشيخ محمد الجزائريلى (ت ١١٧٨ هـ / ١٧٦٥ م) الجبترى ، ج١ ، ص ٤٣٠ .

وكذلك الشيخ احمد المغربى (ت ١٧ ربيع أول ١١٨٨ هـ / ١٧٧٤ م) . الجبترى ، ج١ ، ص ٤٧٠ .

وكذلك السيد الشريف محمد هاشم الاسيوطى (ت ١١٩١ هـ / ١٧٧٧ م) الجبترى ، ج١ ، ص ٥٠٩ .

والشيخ احمد الحموى (ت ١١٩٩ هـ / ١٧٨٥ م) وكان بيته بخط الساكت على البركة . الجبترى ، ج١ ، ص ٦٠٥ - ٦٠٦ .

(٢) وقع خط حارة النصارى برقم ٢٥٧ فى المربعين F- 12, F- 13 فى خريطة الحملة الفرنسية ، ووقع رصيف حارة النصارى برقم ٢٥٥ فى المربع G- 12 .

(٣) وقعت حارة قنطرة الدكة برقم ٣٤٧ فى المربع G- 14

(٤) وقعت حارة الرويعى برقم ١٩٤ فى المربع G- 11 وضريح الرويعى برقم ١٩٦ فى المربع G-11 وسيل وكتاب

الرويعى برقم ١٩٧ فى المربع G-11 ، وسكة الرويعى برقم ٢٠١ فى المربع G-11 .

(٥) أنشأ هذا الجامع السيد احمد الرويعى شاه بنذر التجار بمصر فى القرن ٩ هـ / ١٥ م . انظر على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٣٠٣ ، ج٤ ، ص ٢٤٨ .

* وقد وقع هذا الجامع برقم ١٩٨ فى المربع G-11 فى خريطة الحملة .

وهذا الجامع لا يزال عامراً ويحمل رقم ٥٥ فى فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة .

(٦) سجلت منطقة العتبة الزرقاء برقم ١٦٩ فى المربع K-11 والمربع I-11 ووقع باب العتبة الزرقاء برقم ١٧٩ فى

المربع I- 11 . والعتبة الزرقاء هذه التى اصبحت علماً على المنطقة كانت عتبة قصر الامير رضوان كئخدا الجلفى وكان لونها لورق .

غرب البركة عمر خط الساكت ^(١) ، وكانت العمارة قليلة غرب البركة وظلت المنطقة شبه ريفية إلى وقت طويل في العصر العثماني إلا أنه من منتصف القرن ١٢هـ / ١٨م بدأ الأمراء يزحفون عليها بعد امتلاء الجانب الشرقي للبركة ^(٢) .

وكانت الأزيكية موضع عناية الولاة في العصر العثماني فكانوا يحرصون دائماً على ترميمها فعلى سبيل المثال أنه وقع حريق في سنة ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م في حى الساكت على البركة كان سبباً في تلف كثير من الدور الكبيرة ، غير أن ولاة الأمور وقتئذ حتموا سرعة ترميمها للدرجة أنهم ألزموا غير القادرين على التعمير ببيع ما يملكون لمن يستطيع التعمير ، وهكذا تم ترميمها في أقرب وقت فلم يحل ميعاد الفيضان الثاني حتى كانت الأزيكية أبهج وأحسن مما كانت عليه ^(٣) .

وكان للبركة الدور الأول في زمن الحملة الفرنسية على مصر فقد اتخذوها مقراً لقيادتهم ومسكناً ومتنزهاً لهم فقد اغتصبوا كثيراً من قصورها ودورها وأقاموا فيها ، وأنشأوا أيضاً مسرحاً كوميدياً لهم ، كما أقاموا مطاعم وملاهى خاصة بهم حول البركة ، وكذلك بدأوا في شق الطرق الواسعة حولها ^(٤) ، وقد شهدت البركة الكثير من الأحداث في ربوعها في زمن الحملة الفرنسية ، كما كانت مسرحاً للمعارك الحربية في أثناء ثورتى القاهرة ضد الحملة الفرنسية ^(٥) .

وظلت البركة قائمة حتى أيام الحديوى اسماعيل حيث بدأ تنظيمها وتحويلها إلى حديقة كبيرة وإنشاء المسارح والملاهى بها ، وشق الطرق الحديثة حولها وإزالة التراب والكثير من الحارات والبيوت والمنشآت الأخرى على النمط الأوربي ^(٦) .

الدور والقصور الشهيرة حول البركة :

تميزت الدور والقصور حول البركة مباشرة بالفخامة والجمال ، وقد أبيع بعضها للناس للتمتع من خلالها بالتنزه وقت الفيضان ، كما كان لبعضها مكانة كبيرة بين الناس ، وكانت مشغولة دائماً

(١) وقع ضريح الساكت برقم ٣٠٦ في المربع I-13 ، وكتاب الساكت برقم ٣٠٠ في المربع I-13 كما وقعت حارة الساكت برقم ٣٤٣ في المربع H-14

(٢) أندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعية ، ص ١٩٤ .

(٣) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤٨٦ .

حسن عبدالوهاب ، تخطيط القاهرة ، ص ٤٣ .

* وقد ذكر الجبرتي في هذه المناسبة أن الأمير رضوان بك بلغيا عمر داراً عظيمة هناك ، وكذلك الخواجا السيد عمر غراب ، والسيد أحمد عبدالسلام ، والحاج محمود محرم .

(٤) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٢٠١ ، ٢٢٧ ، ٢٣١ ، ٣٤٢ ، ٤٠٤ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ .

(٥) نفسه ج ٢ ، ص ٣٢٠ - ٣٤٢ ، ٤٣٣ - ٤٣٥ ، ٥٦١ - ٥٧٠ .

(٦) علي مبارك ، المخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٢٥١ .

والمترددين مثل دار السادة البكرية ^(١) التي كانت تشرف مباشرة على الشاطئ الجنوبي للبركة وكانت تقع بدرب عبدالحق السنباطي ^(٢) ، بخط الساكت ^(٣) الذي كان يشغل الجهة الجنوبية الغربية للبركة ، وكان درب عبد الحق هذا يقع غربى مجموعة أزبك ، ويثل موقع دار البكرية ^(٤) الآن المبني المواجه لمصلحة البريد على ناحية شارع البيدق أمام جراج الاوبرا الذي حل محل دار الأوبرا القديمة .

وقد تنوعت أملاك السادة البكرية على البركة ما بين الدور والحدائق والحمامات والوكائل والأسواق وغير ذلك ^(٥) ، وقد نزل الرحالة " النابلسي " ضيفاً عليهم بذلك البيت أثناء رحلته ، وكان يحتفل في هذا البيت بالمولد النبوي الشريف .

(١) السادة البكرية يتحمن إلى أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، ويذكر " على مبارك " أن وجودهم بمصر يرجع إلى ما قبل سنة ١٥٨١هـ / ١١٨٥م ، وكان شأنهم محدوداً في الدولة المملوكية ، ولما فتح العثمانيون مصر منحوا شيخ البكرية امتيازات لم تكن له من قبل منها الأوقاف العديدة ومنها أنهم جعلوه شيخاً لمشايع الطرق الصوفية ومشرفاً على أوقافها ، وكان شيخ البكرية يجمع أحياناً بين الخلافة البكرية ونقابة السادة الأشراف . وكان الكثير من السادة البكرية على جانب كبير من العلم وكان منهم أدباء حملوا لواء الأدب والشعر والعلوم الدينية في العصر العثماني .

وكانوا أيضاً على جانب كبير من الثراء فاستطاعوا بناء القصور الفخمة وخصوصاً على برك القاهرة والخليج . انظر: الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٥٦٦ ، ج٣ ، ص ٢٥٠ . المحبى ، خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ، ط المطبعة الوهية ، مصر ، ١٢٨٤هـ ، ج١ ، ص ١١٧ - ١١٨ . ج٢ ، ص ١٩٦ - ١٩٩ . على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٤١٥ - ٤٥٠ . محمد سيد الكيلاني ، الأدب المصرى في الحكم العثماني ، نشر دار الفرجاني ، القاهرة ، ص ٧٠ - ١٣٤ . محمد توفيق البكرى ، بيت الصديق ، القاهرة ، ١٣٢٣هـ .

(٢) كان عبدالحق السنباطى قاضياً شافعيّاً أيام السلطان الغورى ، وقد تولى مشيخة الصوفية بجامع أزبك بالإضافة للعديد من الجوامع والمدارس الأخرى ، وقد تولى سنة ٩٣١هـ / ١٥٢٤م وتوارث أبناؤه منصب القضاء الشافعى . انظر : السخاوى ، الفقه اللائع ، ج٤ ، ص ٣٧ ، ابن اياس ، بيذائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٢٠ ، الغزى ، الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ، (ط بيروت ، ١٩٧٩م) ، ج١ ، ص ٢٢١ . * وللشيخ عبد الحق السنباطى جامع موقع بخريطة الحملة الفرنسية برقم ٢٥٣ فى المربع K-12 ، وهذا الجامع لا يزال موجوداً ، وهو صغير ومجدد ويقع بدرب عبدالحق خلف سينما أوبرا .

(٣) وقعت حارة الساكت برقم ٣٤٣ فى المربع H-14 بخريطة الحملة الفرنسية، كما وقع مكان تحت اسم الساكت برقم ٣٠٦ فى المربع L-13، كما وقع كتاب الساكت برقم ٣٠٠ فى المربع I-13 أى أن خط الساكت جنوب غرب البركة . * هذا ويوجد زاوية صغيرة بها ضريح بأسم الشيخ محمد الساكت بالقرب من شارع علوة الكوم الذى يصل بين شارع الأزهر وشارع الموسكى بالقرب من ميدان العتبة وبذلك يكون موقع الزاوية فى الجنوب الشرقى لبركة الأزبكية وبمساحة بعض الشيء عن خط الساكت الذى وقع بخريطة الحملة الفرنسية .

(٤) وقع بيت البكرى برقم ٢٥٣ فى المربع K-12 فى خريطة الحملة .

(٥) وقع جامع البكرى برقم ١٦٣ فى المربع K-12 ، سبيل البكرى بجواره (رقم ١٦٤ المربع K-12 وسوق البكرى برقم ٢٤٣ فى المربع K-12 ، وسكة سوق البكرى برقم ٢٥٠ المربع K-12 .

ومن الدور العظيمة على الشاطئ الجنوبي لبركة الأريكية وتوارث سكانها أغنى أغنياء مصر في القرن ١٢هـ / ١٨م دار الشرايبي وكانت أسرة الشرايبي أكبر تجار مصر في ذلك القرن ، وهذه الدار كما يقول الجبرتي * هي إحدى دور المجد والفخر والعز ، وكانت تتكون من اثني عشر مسكناً متجاوراً كل مسكن منها كان بيتاً متصلاً على حدته ، وكانت هذه الدار ملتقى أمراء مصر وأدبائها وضيوفها ، وكانت تقع مقابل جامع أربك . (١)

ثم انتقلت ملكية الدار إلى الأمير رضوان كتحدا الجلفي (٢) (ت ١١٦٨ هـ / ١٧٥٥م) ، فأدخل عليها تعديلات ووسع حدائقها وأباحها للترهة لكافة الناس وخاصة أيام الفيضان ، وكان على باب هذه الدار العمودان الملتفان المعروفان عند أولاد البلد بثلاثة ودية (٣) ، وعقد على مجالسها العالية قباباً عجيبة منقوشة بالذهب والألوان والزخارف الدقيقة وعمل بوائك على البركة مباشرة كانت بمثابة سوق عامرة وقت الفيضان ، وكانت هذه الدار بفخامتها وبذخ أثائها موضعاً للشعراء . (٤)

(١) أسرة الشرايبي من أصل مغربي ، وكان أفرادها أكبر تجار في مصر في القرن ١٢هـ / ١٨م، ومن أبرزهم محمد الدادة أبو القاسم الشرايبي المتوفى يوم السبت ١٦ رجب سنة ١١٣٧هـ / ١٧٢٥م، ومنهم قاسم الشرايبي بن الحاج الدادة وهو الذي أسس جامع الروبيعي وقد توفي يوم السبت ١٢ ربيع الآخر ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م ، وكذلك أحمد بن محمد الشرايبي المتوفى سنة ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م وكان من أعيان التجار المشهورين كآلافه ، وكانت أسرة الشرايبي في غاية الغنى والرفاهية ويتمتعون بمكارم الاخلاق والإحسان ، وكان يتردد إلى منزلهم العلماء والفضلاء ، وكان لديهم مكتبة كبيرة مفتوحة للإعارة والإطلاع ، وكان صالونهم الأدبي لا ينقطع . انظر بالتفصيل :

أحمد شلبي ، أوضح الاشارات ، ص ٥٨٩ .

الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٦١ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ .

(٢) رضوان كتحدا الجلفي كان مشاركاً إبراهيم كتحدا القارودغلي في السيطرة على مصر ، وكان منصرفاً إلى لذاته وفسوقه وخلعاته ونزهاته ، وكان يتجافر بالمعاصي والراح والوجوه الملاح وتبرج النساء ومخاليع أولاد البلد ، وكما يقول المثل "الناس على دين ملوكهم" ، لذا فقد ناثروا بذلك الجوف فخرجوا عن الحد في تلك الأيام ، وقد توافد على رضوان كتحدا الأدباء والشعراء ولهم فيه مدائح كثيرة .

والى رضوان كتحدا تنسب عمارة باب العزب بالرميلة بالقلعة ، وقد آلت إليه سواء بطريق شرعى أو غير شرعى جملة غيطان حول البركة وبالمقسم وقنطرة الدكة عمل بها قصوراً وبركاً صناعية عديدة ، وكانت له قصور عديدة أخرى بالقاهرة وغيرها يتنقل فيما بينها للترهة وخصوصاً أيام فيضان النيل ، وقد توفي سنة ١١٦٨هـ / ١٧٥٥م وعنه بالتفصيل انظر : الدمرداش ، الدرة المصانة ر ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ١ ص ٢٨٩ - ٢٨٤ .

(٣) المقصود بثلاثة أوليه الأعمدة المقرغة المكتنفة للشياك الصغير الذى يقع بالمداخل ذات العقود المداينية (الثلاثية) .

حسن عبدالوهاب ، تاريخ المساجد الاثرية ، ص ٣٥٨ .

* ثم أطلق الجزء على الكل فعرفت الدار كلها بالثلاثة ودية .

(٤) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

ثم انتقلت ملكية الدار بعد ذلك للأمير محمد بك أبو الذهب^(١) الذي كان قد تزوج محظية رضوان كتحدا المذكور^(٢) ، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الأمير طاهر باشا الكبير^(٣) ثم إلى ملك أحمد باشا طاهر^(٤) فهدمها ووسعها بدور بجوارها وشيدها مرة أخرى وأحكم بناءها واستمرت بيد ورثته إلى أن اشتراها عباس باشا الأول فهدمها ووسعها وبنائها بناءً فخماً لوالدته ، ومنذ ذلك الوقت أطلق على تلك المنطقة اسم العتبة الخضراء بدلاً من العتبة الزرقاء ، وبقيت الدار إلى زمن الخديوي اسماعيل ، ثم لما حصل التنظيم بالأزبكية أخذ منها جزء كبير بسبب التنظيم وبقي منها جزء كان به المحكمة المختلطة .^(٥)

ويمثل موقعها الآن الحديقة التي تقع وسط الميدان العتبة وجزء من مبنى مطافى القاهرة وقسم الموسيقى^(٦) .

وكما كان ابراهيم كتحدا الانكشارية^(٧) شريكا لرضوان كتحدا في ممارسة السلطة فقد جاوره في الإقامة الأزبكية أيضاً فكان بيته مجاوراً لبيت رضوان ، وبيت ابراهيم كان في الأصل ملك محمد

(١) انظر ترجمته فيما سبق ، ص ٢٢٤ .

(٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ ، ص ٣٧٩ .

(٣) هو الأمير الكبير طاهر باشا الأرناؤوطى ، تولى مصر ٢٦ يوماً فقط ، وقتل في رابع صفر ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م ، ودفن بقبته ببركة الفيل الملحقه بجامع حسن باشا طاهر انظر : الجبرتي ، عجائب الآثار ، جـ ٢ ، ص ٥٧٥-٥٧٦ ، على مبارك . الخطط التوفيقية ، جـ ٣ ، ص ٣٨١-٣٨٢ . حسن عبدالوهاب ، تاريخ المساجد الاثرية ، ص ٣٥٧ .

(٤) هو الأمير حسن باشا طاهر الذى يقال أنه ابن اخت محمد على باشا ، وكان ناظراً على ديوان الجمارك ببولاق ، وقد توفى في جمادى الثانية ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م ودفن بقبته (أثر رقم ٥٦٥) التى كانت واقعة جنوب مسجد السيدة زينب ثم دخلت ضمن مساحة المسجد فى التوسعات المتوالية له .

الجبرتي ، عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٥٩٠ - ٥٩١ .

على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ ، ص ٣٨٢ - ٣٨٣ .

(٥) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، جـ ٣ ، ص ٣٧٩ .

(٦) حسن عبدالوهاب ، الأزبكية ماضيها وحاضرها ، مقالة بمجلة الهندسة ، عدد مارس ١٩٣١ ص ٨٤ ، تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها ، ص ٤٤ ، اندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى ، ص ١٨٤ .

(٧) الأمير ابراهيم كتحدا انتهت له السيادة مصر هو وقسيمة رضوان كتحدا الجلفى ، وكان هو الذى يتولى الحكم بشكل فعلى بينما كان رضوان منكياً على مللته ، وقد امتلك عدة دور وقصور بالقاهرة منها داره المجاورة لدار رضوان الجلفى قوصون ، ودار بيباء الخرق وهى دار زوجته بنت البارودى ، والقصر الثوب لها بمنطقة مصر القديمة ، والقصر عند سيل قايمار بالعادلية .

وقدمات على فراشة فى صفر ١١٦٨هـ / ١٧٥٤م ، وهى نفس الستة التى مات فيها رضوان الجلفى . انظر :

الجبرتي ، عجائب الآثار ، جـ ١ ، ص ٢٨٢ - ٢٨٤ .

شلى بن ابراهيم الصابونجي^(١) ، وقد أعطى وجود هذان الاميران الشريكان لى الأزيكية فى منتصف القرن ١٢هـ / ١٨م مكانة اجتماعية كبيرة استمرت بعد ذلك^(٢) .

وكان للأمير عثمان كتخدا القازدوغلى^(٣) أراضى وحدائق ومباني عديدة بدرى عبد الحق السنباطى مجاورة لأملاك السادة البكرية ، كان قد حصل عليها بطريق الشراء والاستبدال وأقام بجوارها جامعة (أثر ٢٦٤) برصيف الخشاب^(٤) المطل على البركة من جانبها الجنوبى الغربى ، وألحق به سبيلاً وكتاباً وبنى بجواره أيضاً حماماً ، كما أنشأ على شاطئ البركة الجنوبى قصراً ذا قاعات ومقاعد ومناظر مطلة مباشرة على البركة بالإضافة لذلك أنشأ منشآت تجارية مثل الحوانيت المتاخمة للجامع وربع كبير وحوشين وساقية وفرن واسطبلات وغير ذلك^(٥) .

وقد اندثرت كل تلك المنشآت ما عدا الجامع المعروف الآن بجامع الكيخيا ويطل على شارعى الجمهورية وقصر النيل ، وكان قد بدأ بنائه سنة ١١٤٥هـ / ١٧٣٢م ، واحتفل بتلك المناسبة احتفالاً كبيراً ، وقد أوقف عليه الأمير أوقافاً عديدة^(٦) .

ومن الدور الكبيرة التى كانت تشرف على البركة بدرى عبدالحق الدار التى أنشأها على بك

(١) مات الأمير ابراهيم شوريجى الصابونجي عزبان فى شوال ١١٣١هـ / ١٧١٩م ، وسبب تسميته بالصابونجي انه كان متزوجاً بابنه الحاج عبد الله الشامى الصابونجي ملتزم وكالة الصابون ، وكان له عزوة عظيمة ومساكن وأتباع .
انظر:

الجبرى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، ٢٩٢ .

اندرى ريمون ، المرجع السابق ، ص ١٧٤ .

(٢) اندريه ريمون ، المرجع نفسه ص ١٨٤ .

(٣) هو الأمير عثمان كتخدا القازدوغلى تابع الأمير حسن جاروش القازدوغلى ، ترقى فى الرتب حتى صار كتخدا (وكيل) طايقة مستحقظان ، وصار من كبار الأمراء وأحد المتحكمين بمصر وله كلمة مسموعة وحرمة وافرة ، وقد ساعدته ظروفه على اقتناء ثروة كبيرة ، ومن منشآته بالقاهرة بخلاف ما عمره بالأزيكية منشآت خيرية عديدة منها زاوية العميان ورحبة ورواق الاتراك ورواق السلیمانية ، كل ذلك بالأزهر الشريف ، وقد رتب مرتبات كبيرة من وقفة . وقد قتل سنة ١١٤٩ / ١٧٣٦م انظر :

الجبرى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٤) سجل رصيف الخشاب برقم ٢٩٤ فى المربع K-13 فى خريطة الحملة الفرنسية .

(٥) كتاب وقف الأمير عثمان كتخدا رقم ٢٢١٥ أوقاف .

(٦) كتاب الوقف رقم ٢٢١٥ أوقاف ، أحمد شلى ، أوضح الاشارات ، ص ٥٧٧

وعن الجامع وتخطيط المنشآت ، انظر :

حسن عبدالوهاب ، تاريخ المساجد الأثرية ، ص ٣٢٣ ، ٣٢٦ .

Abouseif .(D),Op.Cit.,PP.55-58

الكبير^(١) بجوار بيت البكرية ، وقد توفي بها سنة ١١٨٧ هـ / ١٨٧٣ م وقد أنشأها لمحظيته نفيسة خاتون^(٢) وألحق بها حوضاً وساقية وطاحون .

ولما مات على بك الكبير تزوج الأمير مراد بك من نفيسة خاتون وأقام معها بالرغم من أنه كان يملك بيتين آخرين بنفس المنطقة^(٣) ، وكان على بك يعقد الديوان بهذه الدار حتى كادت أن تكون مقر الحكومة^(٤) ، وكانت هذه الدار مجاورة لدار السيد خليل البكري وكلاهما هدم عندم الأزيكية ومحلهما عند ميدان الأوبرا الآن .^(٥)

ومن القصور العظيمة على الشاطئ الغربي للبركة وكان له شأن كبير في القرن ١٢ هـ / ١٨ م القصر الذي كان للسيد ابراهيم بن السيد سعودى اسكندر أحد فقهاء الحنفية ، وقد أباحه للجمهور وجعله متزهاً عاماً^(٦) .

(١) هو الأمير على بك الكبير المشهور أيضاً بعلى بك بلوط قبان الكبير ، واشتهر أيضاً بجن على ، وهو الذى لعب أكبر دور الممالك أثناء الحكم العثماني لمصر ، فقد استطاع أن يستقل بحكم مصر والشام والحجاز ، ووطد حكمه وقضى على الفتن والقتال ، واستتب الأمن فى عهده واستقر استقراراً لم يعرف قبله ، وكاد ينجح فى معاه للعودة بمصر كسلطة مستقلة ومركز الخلافة الاسلامية كما كانت أيام دولة سلاطين المماليك لولا خيانة قائد جيوشه وروج ابنته محمد بك أبو الذهب الذى اتفق مع العثمانيين فانقلب عليه وتغلب عليه ، وجرح على بك فى معركة معه فتوفي متأثراً بجراحه بعد اسبوع. من اصابته فى منتصف صفر ١١٨٧ هـ / ١٧٧٣ م ، ودفن بشربة استاذة ابراهيم كخدا بالقرافة الصغرى بالامام الشافعى (اثر رقم ٣٨٥) . وقد تمتع على بك بشخصية فذة ، وكان له العديد من العمانر بمصر واصلاحه وتجديده لبعض العمانر الهامة مثل قبة الامام الشافعى وعمارته لجامع السيد الهدوى بطنطا وانشائه سيلاً وقيصرية وخان هناك ، وكان له قيصرية وخان ببولاق . انظر بالتفصيل الجيرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤٣٠ - ٤٣٧ .

(٢) هى نفيسة خاتون إحدى المعمرات الخيرات ، كانت تتمتع بالعز والسيادة والكلمة النافذة ، وقد تزوجت مراد بك بعد موت على بك الكبير ، وظلت مكانتها مرموقة حتى وفاتها يوم الخميس ٢٠ جمادى الاولى ١٢٣١ هـ / ١٨١٦ ، وقد دفنت بقرافة الامام الشافعى ، وبها ينسب السيل بباب زويلة (اثر ٣٥٨) ، والوكالة بجواره (اثر ٣٩٥) . انظر : الجيرتى ، عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٥٣٨ - ٥٣٩ .

(٣) هما البيتان الموقعان برقمى ٢٩٨ فى المربع K-13 ، ورقم ٢٤٧ فى المربع K-12 فى خريطة الحملة الفرنسية .

(٤) الجيرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٢٤٦ ، ٤٣٧ .

اندرية ريمون ، المرجع السابق ، ص ١٩٤ - ١٩٥ .

Abouseif, Op . cit., P. 61

(٥) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٣٨٨

حسن عبدالوهاب ، الأزيكية ، ص ٨٥ .

(٦) ذكر الجيرتى فى هذا الامر "انه جعل فى أسفل القصر قناطر وبوائك ناحية البركة وجعلها برسم الفرجة لعامة الناس فكان يجتمع بها عالم من اجناس الناس اولاد البلد شئ كثير وبها قهاوى وبياعون وكفاحية ومغانى وغير ذلك ، ويقف عندها مراكب وقوارب بها من تلك الاجناس فكان يقع بها وبالجسر المقابل لها من عصر النهار إلى آخر الليل من الحظ والنزاهة ما لا يوصف انظر :

عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٥٦٧ .

ثم انتقل القصر إلى ملكية الأمير أحمد اغا شويكار فباعه إلى الأمير محمد بك الألفى^(١) فى سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٦م فهدمه وأضاف إلى مساحته دارين آخرين كانتا بجواره^(٢) ، وأنشأ مكانهم جميعاً قصراً كبيراً وضع تصميمه بنفسه^(٣) لأنه كان مغرمًا بالهندسة ، وألحق به حديقة كبيرة .

وقد أنجز العمل بالقصر فى آخر شهر شعبان ١٢١٢هـ / ١٧٩٨م ولم يمكث به الألفى سوى عشرين يوماً حتى أتت الحملة الفرنسية فسكنه بونابرت وجعله مقراً لقيادته ، ثم اتخذهُ كبيراً ومن بعده ميسر أيضاً مقراً لهما بعد أن قاموا بعمارتها بما يتفق مع مساكنهم فى فرنسا .

وقد تعرض القصر للاحتراق والدمار فى ثورة الجند الأرنؤوط ضد خسرو باشا سنة ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣ م بالرغم من أنه لم يصبه شئ من قبل فى المعارك أثناء ثورة القاهرة سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠٠م والتي استمرت ٣٦ يوماً متواصلاً حوله ، كما قام محمد على بإصلاح القصر وسكنه ثم أعطاه لكرميته زينب هانم وعرف بها .^(٤)

وكان هذا القصر يقع على بركة الاربيكية فى المنطقة التى يمثلها الآن أول شارع الألفى الذى تسمى باسمه .

ومن البيوت التى ورد ذكرها بالوثائق والمصادر بخريطة الحملة الفرنسية والتي كانت تطل على البركة مباشرة بيت الشيخ الجوهري ١٨٣* مربع H-11 شرق البركة ويجاوره سبيل الشيخ الجوهري

(١) الألفى هو الأمير محمد بك الألفى المرادى ، كان من كبار الأمراء فى نهاية الدولة العثمانية ، وقد لعب دوراً كبيراً فى الدولة ، وكان شجاعاً فارساً ومالكية أكفاء مدرين ، وكان له أملاك عديدة وعدة بلاد تجرى فى إقطاعه ، وكان له اهتمامات علمية وأدبية ، وكان يملك عدة قصور ودور بالقاهرة منها دار وحمام بخط نور السظلام ببركة الفيل ودار بخط قوصون ودار بدرب سعادة ، وكان له قصر كبير بمصر القديمة بشاطئ النيل تجاه المقياس ، وأنشأ أيضاً قصراً بالقرب من الدمرداش وجعل غالب إقامته فيها ، وكان كثير التنقل بأقاليم مصر ، وكان له دور كبير فى مقاومة الحملة الفرنسية وقد تولى سنة ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م وموته اضمحلت دولة المماليك وصفا الجيو لمحمد على باشا ليرسخ قواعد دولته انظر:

الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ١٤٧ - ١٧٣ .

(٢) هذان الداران كان يملكهما رضوان بلغيا ، واليد أحمد عبدالسلام . انظر :

الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤٨٦ ، ج ٢ ، ص ١٢٢ .

(٣) يتضح لنا من وصف الجبرتي للقصر أنه بنى على نسق القصور الأوربية فلم يجعل له خارجات حرمات ولا رواشن يارزة عن أصل البناء حرصاً على المتانة وطول البقاء كما جعل به الكثير من الشبايك ذات الزجاج ، وجعل به قاعات واسعة بها عدة نافورات جميلة وجعل به حمامين ، وقد فرشهُ جميعاً بالفرش الفاخر ، وعلق به الستائر الجميلة ، وكان يتكون من طابقين ، وقد جعل بدائر حوشه عدة كبيرة من الطباقي لسكنى المماليك انظر :

الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٥٦٨ .

(٤) نفسه ، ج ٢ ، ص ٥٦٨ ، ٥٦٩ .

(١٨٤ المربع H-11) وكذلك بجواره جامع الشيخ الجوهري (١٠٨ المربع H-11) ^(١) ، وكذلك الدار الكبيرة والقصر والحديقة المثمرة لأسرة غراب المغربية بخط الساكت على البركة ^(٢) ، وكذلك كان للست صالحة خاتون بنت عبد الله قصر يطل على البركة من الجهة الغربية ، وهذا القصر كان قد أوقفه عليها زوجها الخوجا محمد بن حسن الشهير بالكريمي ^(٣) ، وكذلك ورد بالخريطة بيت على يه سليم (١٠٦ المربع I-11) جنوب شرق البركة ، وبيت يحيى كاشف (١١٢ المربع H-11) شرق البركة ، وبيت الشيخ المهدي (١٦٠ المربع G-12) شمال البركة ^(٤) ، وبيت مزروق بك ابن ابراهيم بك (٦٦ المربع K-11) جنوب شرق البركة ، وبيت ابيه ابراهيم بك (١٦٧ المربع K) بجواره ، وبيت بشير آغا (١٧٨ المربع I-11) جنوب شرق البركة أيضاً وبجواره بيت ايوب بك الكبير (١٨٠ المربع I-11) بجوارهما ، وكذلك بيتي اسماعيل بك (١٨٧ المربع H-11 ، ١٨٨ المربع H-11) شرق البركة ^(٥) ، وبيت عثمان بك الأشقر (٢٤٩ المربع K-12) جنوب البركة بجوار قصر الالفى ، وبيت الشيخ البكري (٢٥٣ المربع K-12) جنوب البركة وبيت مراد بك (٢٩٨ المربع K-13) جنوب البركة ، وبيت محمد آغا (٢٩٩ المربع K-13) جنوب البركة ، وبيت عثمان آغا الخازندار (٣٠٧ المربع I-13) غرب البركة ، وبيت قائد آغا الذي جعله الفرنسيون السديوان قرب الرويعي (١٩٠ المربع G-11) ^(٦) شمال شرق البركة ، وبيت الأمير أحمد آغا الخازندار المعروف ببونابرتة جهة الرويعي ^(٧) ، وكذلك بيت سليمان آغا كبير الأرنؤوط ^(٨) ، وبيت سليم بك المجاور لبيت الدادة أبني القاسم الشرايبي ^(٩) ، وبيت الشيخ محمد علاء الدين البابلي ^(١٠) ، وبيت مصطفى آغا المزين في سوق الرحلة في العتبة الزرقاء ^(١١) .

(١) انظر الوثيقة رقم ٢١٨٨ أوقاف ، الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ٢٤١ .

(٢) Zouri, (Ali) , Le Waqfiyya de abd al Aziz Gurab al Maqribi al Safaqui Ann

Isl XVII (1980) PP 311-332

(٣) الوثيقة رقم ٢٧٨ أوقاف بتاريخ ١١٨٠ هـ .

(٤) انظر ترجمة الشيخ المهدي في : الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٤ ، ٤٩٧ - ٤٩٨ .

(٥) الجبرتي ، عجائب الآثار ج ١ ، ص ٤٨٦ ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، ٩٤ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٦) نفسه ، ج ٢ ، ص ١٩٥ .

(٧) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٥٣٨ .

(٨) نفسه ، ج ٣ ، ص ١٤ .

(٩) نفسه ، ج ١ ، ص ١٤٣ .

(١٠) نفسه ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .

(١١) الدمرداش ، الدرر المصانة ، ص ١١٢ .

بركة الرطلى بأرض الطبالة

كانت بركة الرطلى من أحسن متزهات مصر فى العصرين المملوكى والعثمانى ، وكانت تشغل الجزء الشمالى الشرقى من أرض الطبالة ^(١) التى كانت متزهاً منذ زمن الدولة الفاطمية .

موقع البركة ومساحتها :

وقعت هذه البركة هى خريطة ورمز لها بحروف I ، كما وقعت على خريطة الحملة الفرنسية تحت رقم ٤٣٤ فى المربعين B-9,B-10 وكان طولها نحو ٣٥٠ متراً وعرضها المتوسط حوالى ١٠٠ متر ، ومساحتها تقرب من تسعة أفدنة ^(٢) .

ويتضح من الخريطة أيضاً أن العمارة كانت تشمل فى الجهة الجنوبية الشرقية فقط وباقى وما حول البركة بساتين وحقول وبعض الكيانات ، وقد زالت البركة وردمت من أثرية تلك

(١) يتضح لنا عما ذكره المقرئ عن أرض الطبالة فى الخطط (ج ٢ ، ص ١٢٥) ، وكذلك ما ذكره عنها ضمن كلامه عن جزيرة القيل (ج ٢ ، ص ١٨٥) أن أرض الطبالة كانت من أحسن متزهات القاهرة ، وكان النيل يحدها غرباً (قبل انحساره فيما بعد) وبركة بطن البقرة (الأريكية) والبساتين بجوارها تحدها جنوباً ، والخليج المصرى شرقاً ، ومن شمالها أرض البعل التى تمثل الآن فى جزء من الشراية ومهمشا .

* وتمثل أرض الطبالة الآن فى المنطقة السكنية التى تحد من الشرق بشوارع الخليج المصرى ومن الشمال بشوارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلى وما فى امتداده حتى يتقابل مع شارع مهمشا ومن الغرب بشوارع غمرة إلى ميدان رمسيس الآن حيث كان النيل يجرى قديماً ، ومن الجنوب بشوارع الفجالة وبسكة الفجالة ، ويدخل ضمن نطاق أرض الطبالة الآن حى الفجالة وجزء من حى الظاهر وجزء من حى الشراية .

* وحتى أواخر القرن الماضى كان النصف الغربى من هذه المنطقة وما جاورها من الغرب أرض زراعية يزرع فيها الخضروات وعلى الأخص الفجل فاشتهرت الأرض باسم غيط الفجالة نسبة للذين يزرعونها ، ولما عمرت تلك الجهة سعى الطريق الذى كان يجاور هذا الغيط من الجهة القبلىة (الجنوبية) باسم شارع الفجالة .

* أما عن سبب تسميتها بأرض الطبالة فيرجع إلى أن الخليفة الفاطمى المستنصر بالله وهبها لمختبته السماء نسب الطبالة عندما غنت له بمناسبة الدعاء له على منابر بغداد عاصمة الخلافة العباسية السنية مدة ٤٠ اسبوعاً فى الحركة التى قام بها القائد التركى الباسيرى ، وقد طرب المستنصر من غناء نسب الطبالة فقال لها تمنى على فطلبت منه تلك الأرض فوهبها إياها .

* وكانت أرض الطبالة تنوالى عليها الأرملة ما بين التعمير حياً والتخريب حياً آخر ، وظلت طوال تاريخها عامرة بالبساتين والحقول حتى تم بنائها فى نهاية القرن الماضى وقد تميزت أرض الطبالة فى العصر المملوكى بزراعة الخشيش بها الذى كان له تأثير سلبي كبير فى حياة المصريين آنذاك . انظر :

على مبارك ، الخطط الترفيقية ، ج ٣ ، ص ٢٦٥ .

محمد رمزى ، تعليقة على النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٢ ، ج ٧ ، ص ٣٨٩ .

(٢) على مبارك ، الخطط الترفيقية ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

الكيانات في مدة حكم الخديوى اسماعيل أيام نظارة على باشا مبارك لديوان الأشغال وتحولت أراضيها حيثئذ للبناء ^(١) .

والبركة كانت تشغل المنطقة المحصورة الآن بين شارع الظاهر شمالاً وغرباً وشارع غالى وما فى امتداده جنوباً ، وشارع موازى لشارع البكرية شرقاً ^(٢) .

أسماء البركة:

كانت هذه البركة أول أمرها تعرف ببركة الطوابين من أجل أنه كان يعمل فيها الطوب ^(٣) ، ثم عرفت ببركة الحاجب بعد سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م نسبة إلى الأمير بكتمر الحاجب ^(٤) لأنها كانت بيده وضمن اقطاعه ^(٥) ، اما تسميتها ببركة الرطلى والتي شاعت بعد ذلك وظلت السالبة عليها فترجع إلى أنه كان شرق هذه البركة زاوية بها نخل كثير وفيها شخص يسمى خليل الرطلى ^(٦) كان يصنع صنج الأبطال التى يزن بها الباعة فسمها الناس بركة الرطلى نسبة إليه وكان ذلك من زمن الناصر محمد أيضاً ^(٧) . وذكر "المقريزى" أن نخل هذه الزاوية بقيت قائمة بالبركة إلى مابعد سنة تسعين وسبعمائة ^(٨) .

(١) نفسه .

(٢) ذكر المرحوم "محمد رمزى" أن الحد الغربى للبركة كان يتمثل فى شارع يوسف سليمان والحد الجنوبى يتمثل فى شارع حبيب شلى والحد الشرقى يتمثل فى شارع البكرية . انظر : تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ١١ ، ص ١٧١ .

* ولكن بمطابقة خريطة القاهرة للآثار الاسلامية وخريطة الحملة الفرنسية وجدت أن الحدود التى ذكرتها اعلاه تتطابق مع الحدود التى كانت عليها البركة .

(٣) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

* يبدو أن عمل الطوب بالبركة استمر قائما فى العصر العثمانى أيضاً إذ أن الخليج الناصرى فى الجزء الموازى للبركة عرف فى العصر العثمانى باسم خليج الطوابة ووقع بهذا الاسم فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٤٣٦ فى المربع A-9 ، وكان الطوب يصنع من تلال الطمى التى كان يستخرج منها ومن الخليج الناصرى عند تنظيفه .

(٤) كان بكتمر الحاجب من كبار أمراء الناصر محمد ، وقد توفى سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م انظر بالتفصيل : ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٣٨٦ - ٣٩٠ .

(٥) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٦) توفى الشيخ خليل الرطلى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ودفن فى راويته التى حولت لجامع بركة الرطلى وعملت له قبة فيه . انظر :

المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٥٦ .

(٧) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٥٦ .

(٨) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

ايقاف البركة:

كانت هذه البركة أولاً مقاطع للطبانية وأنعم السلطان الناصر بأرضها وأرض الطبالة على الأمير بكتمر الحاجب فصارت فى إقطاعه ^(١) فأوقفها وظلت جارية فى وقفة حتى نهاية العصر المملوكى ^(٢) ، وفى العصر العثمانى انتقل وقفها للسادة البكرية ^(٣) .

العمران حول البركة فى العصر المملوكى :

كانت البركة مجرد أرض راعية منخفضة من جملة أراضي الطبالة ، وكانت تزرع قرطاً (برسيماً) وغيره ، فلما شرع الملك الناصر محمد بن قلاوون فى حفر الخليج الناصرى طلب الأمير بكتمر الحاجب من المهندسين أن يجعلوا حفر الخليج يمر موازياً للجانب الشمالى للبركة ويصب مأؤه فى الخليج الكبير ، ففعلوا ذلك ^(٤) ، وصارت البركة تملأ كل عام من الخليج الناصرى فى موسم الفيضان من عند طرفها الغربى كما يتضح لنا من خريطة الحملة الفرنسية .

وفى نفس السنة التى حفر فيها الخليج الناصرى أى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م عمل بكتمر الحاجب جسراً بين الخليج والبركة (وهو المين بخرطة الحملة الفرنسية) وأذن للناس بالبناء فيه فحكر وبنيت فوقه السدور وصارت تشرف من ناحية على البركة ومن الناحية الأخرى على الخليج ، وكثر بناء المناظر على الجسر وصار من أنزه فرج القاهرة ، وتتابع الناس فى البناء حول البركة حتى لم يبق حولها مكان خال ^(٥) .

واستمرت البركة عامرة حتى تعرضت كغيرها من أنحاء القاهرة وظواهرها للمحن والأحداث التى بدأت فى سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م حين قصر النيل وشرقت البلاد ووقع غلاء عظيم فخرجت بقاع القاهرة وخصوصاً ظواهرها ، إلا أن هذه الأزمات لم تدم طويلاً ، وعاد التعمير للبركة كما كان واستمر بناء الدور والقصور والمناظر ذات المقاعد والطاقت المشرفة على البركة .

وعن العمائر الدينية التى تخدم سكان البركة نجد أنه كان لبركة الرطلى جامع وموقعة شرقى البركة فى موضع زاوية الرطلى ^(٦) ، وقد أنشئ لما عمرت البركة ، وكان أول أمره ضيقاً قصير السقف وعمل فيه قبة تحتها قبر الشيخ خليل بن عبد ربه المتوفى سنة ٧٤٢ هـ / ١٣٤١ م ^(٧) ، وكان عامراً

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٢) ابن أباس ، بلدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٥٦ .

(٣) أوقاف السادة البكرية ، (أوقاف خاصة) .

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

(٥) المقرئى ، الخطط ج ٢ ، ص ١٦٢ ، ١٦٦ .

(٦) نفسه ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ .

(٧) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٦ .

بالزيارة ، ولما سكن الوزراء فى العصر المملوكى بجواره فقد حظى باهتمامهم فتمت به عدة تجديدات وعمارات منها عمارة الوزير صاحب سعد الدين ابراهيم بن بركة البشيرى ^(١) ، الذى كان يسكن بجوار الجامع فهدمه ووسعه وبناه سنة ٨١٤هـ / ١٤١١م وجعل به خطبة وأوقف عليه أوقافاً إلا أن ولده استولى على رقبته ^(٢) ، وظل الجامع يحظى بعناية من يسكن بجواره من أرباب الوظائف فداوموا على رعايته وفرشه وإصلاحه ومنهم القاضى علم الدين شاکر بن الجيعان المستوفى فى ربيع الآخر سنة ٨٨٢هـ / ١٤٧٧م ^(٣) .

ولما مات الشيخ يوسف الحريشى أحد اتباع السعانية فى سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م ودفن بالجامع فعرف الجامع يومئذ بجامع الحريشى ^(٤) .

وفى سنة ٩٢٥هـ / ١٥١٩م عمره المقر شهاب أحمد الجيعان نائب كاتب السر فى هذه السنة وجعل للجامع دروساً للفقهاء وتدریس الحديث ^(٥)

وقد وقع الجامع فى خربة الحملة الفرنسية باسم جامع الخربوطلى برقم ٤١٧ فى المربع ٨-٢٠ بالركن الجنوبي الشرقى للبركة نسبة لتجديد الأمير على كتحدا مستحفظان الخربوطلى ^(٦) ، والجامع لا يزال عامراً للآن وموقع بخريطة القاهرة للآثار الاسلامية لوحة (١) فى شمال المربع ٢ وباسم جامع الجريشى ^(٧) فى شارع الحريشى المتفرع من شارع حبيب شلبى .

وكان يوجد بالقرب من البركة جامع يسمى جامع صاروجا على الخليج الناصرى شمال البركة وقد أنشأه ناصر الدين محمد أخو الأمير صاروجا نقيب الجيش بعد سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م أيام الناصر

(١) ولد البشيرى فى ذى القعدة سنة ٧٦٦هـ / ١٣٦٥م ، وتنقل فى الخدم الديوانية حتى ولى نظر الدولة ثم رقى إلى وزير سنة ٨١٢هـ / ١٤٠٩م أيام السلطان الناصر فرج بن برقوق وياشر الوزارة بضبط إلا أنه تأثر بعصره وتعسف فى أخذ الأموال حتى صرف من الوزارة أيام السلطان المؤيد شيخ ٨١٦هـ / ١٤١٣ ، وقد توفى فى صفر ٨١٨هـ / ١٤١٥م ودفن بالقرافة أنظر : المقرئى ، الخطوط ، ج ٢ ص ٣٢٧ العيسى ، عقد الجمان (بدون ناشر ، ص ٢٥٢ ، ابن الصيرفى نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٣٦١ ، ابن حجر العسقلانى ، انباء الغر ، ج ٣ ، ص ٧٦ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٣ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٩ .

(٢) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ٣ ، ص ٣٦١ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٣٣ .

(٤) على مبارك ، الخطوط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٦) الجبرئى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .

(٧) ينطق الناس كلمة الحريشى بالتاء بدل الشين فيقولون جامع الحريتى .

محمد^(١) ، وكانت الخطبة عامرة حوله إلا أنها تعرضت للاندثار بعد ذلك وصارت كيمانا ، ولكن المقرئ يذكر أن الجامع ظل تقام به صلاة الجمعة في أيام النيل^(٢) ، ويذكر على مبارك أنه لم يبق لهذا الجامع أى أثر وخطته صارت مزارع وأدراك هناك أشجار من الجميز كانت منتزهاً وكان محلها يعرف بدهليز الملك .^(٣)

أما عن الدور والقصور حول البركة فبعد الاطلاع على المصادر والوثائق يتضح لنا أنها تنتمى لطبقة متميزة في المجتمع المصرى زمن المماليك والعثمانيين أيضاً ، فمنذ عمارتها في سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون وحتى نهاية العصر العثماني كان يسكن حول البركة أصحاب سلطة ونفوذ في المجتمع خلا تقريبا من العامة ، فعلى البركة بيت الوزراء يسكنه من يلى الوزارة في العصر المملوكي وكان يقع بجوار الجامع^(٤) .

كذلك بنى أصحاب الوظائف الهامة بيوتا وقصوراً حول البركة من مباشرى الدولة من الوزراء والاستادارات والأمراء والكتّاب والقضاة والمحاسبين^(٥) .

وكانت توجد عائلات بعينها توارث الوظائف الهامة اتخذت من بركة الرطلى مقراً لهم مثل عائلة ابن الجيعان الذين استمروا أكثر من مائة وعشرين سنة في خدمة الدولتين المملوكية والعثمانية ، وكانوا يتوارثون وظيفتى ديوان الجيش والخزانة ، وكانت دورهم بجوار جامع البركة وقاموا بإصلاحه عدة مرات^(٦) .

كذلك سكن بالبركة أيضاً عائلة ابن مزهر وقد توارثوا وظيفة كاتب السر وكان لهم مكانة رفيعة في المجتمع المملوكي^(٧) .

(١) ذكر المقرئ أن أخا الأمير صاروجا هو الذى بنى الجامع بينما ذكر ابن إياس أن صاروجا هو صاحب الجامع . انظر الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٥ ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ٤٦٣ .

(٢) الخطط التوقية ، ج ٢ ، ص ٣١٥ .

(٣) الخطط التوقية ، ج ٥ ، ص ٩٢ .

(٤) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

* وقد سبق أن رأينا هذا الشخص من قبل في كون بيت من يلى وظيفة أمير اخور على بركة الفيل ومن يلى منصب أمير مجلس على بركة الفيل أيضا ، وعلى بركة الازبكية خصص بيت لمن يلى منصب الاتابكية .

(٥) ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج ٢ ، ص ٣٦١ .

(٦) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١١ ، ص ٣-٤ .

ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٣٣ ، ج ٥ ، ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ٢٥٦ ، ٤٨٧ .

(٧) ابن إياس ، نفسه ، ج ٣ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

وكانت البيوت حول البركة حافلة البنيان مليئة بالخاروف والأثاث والمفروشات الأنيقة حتى أن أحد البردارية^(١) أنشأ بيتاً على بركة الرطلى غرم عليه نحو خمسين ألف دينار .^(٢)

كان السلاطين أحياناً ينزلون ضيوفاً على الوزراء والقضاة فى بركة الرطلى ويحتفل بهم احتفالات كبيرة ، منهم السلطان المؤيد شيخ الذى كان ينزل فى بيت صلاح الدين خليل بن الكويز ناظر ديوان المفرد فى سلطته^(٣) ، وكذلك السلطان الملك الأشرف قانصوة الغورى كان ينزل فى ضيافة المحتسب الزينى بركات بن موسى^(٤) .

ومما يدل على نفوذ وثراء من كان يسكن حول البركة فى العصر المملوكى أنه فى جمادى الأولى ٩١٧هـ / ١٥١١م ، أمر السلطان الغورى بمنح جماعة من مباشريه من السكن بالبركة بحجة تضييع الأموال هناك ، فلم يسكن بها أحد من المباشرين ولا القضاة فى هذه السنة ، وأهملت البركة فى هذه السنة وقلت فيها البهجة ولم يسكن بيوت الجسر إلا القليل^(٥) .

ومن كان له دور وأبنية على بركة الرطلى ، الأمير عبدالغنى الفخرى الاستادار المتوفى ٨٢١هـ / ١٤١٨م ، وهو صاحب المدرسة المعروفة بأسم جامع البنات بشارع الخليج المصرى (بورسعيد) أثر رقم ١٨٤ ، فقد كان له بناءان متقابلان يشرفان من ناحية على بركة الرطلى ومن الناحية الأخرى على الجسر ، كما كان له بناءان آخران على البركة بدرب الحاج سعد^(٦) وهو الذى صادره الملك المؤيد شيخ .

(١) البردارية مفردا بردار وهو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الجملة ، يتحدث عن أهوائه والمتصرفين فيه انظر : القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٤٦٨ - ٤٦٩ .

(٢) اسم هذا البردار هو الحاج سعد ، وقد صادره السلطان المؤيد شيخ فى خمسين ألف دينار فى شوال سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م ، وقد أطلق على الدرب الذى فيه هذا البيت أسم درب الحاج سعد حيثما ورد فى وثيقة عبد الغنى الفخرى رقم ٧٢ بدار الوثائق . انظر أيضاً :

العينى ، عقد الجمان ، (بدون ناشر) ، ص ٢٠٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٧ .

(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٤ ، ص ٥٢٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١٤ ، ص ٩٤ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٧٤ .

(٥) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٤ .

(٦) ورد فى وثيقة الأمير عبدالغنى الفخرى رقم ٧٢ المحفوظة بدار الوثائق القومية والمؤرخة فى ١٦ رمضان ٨٢٠هـ ، انه من ضمن أوقافه "جميع البنائين المتقابلين السقائمين على الأرض المحتكرة بظاهر القاهرة المحروسة خارج باب الشعبة بالجسر بالأوسط المطل أحدهما على بركة الحاجب والآخر على الخليج الناصرى ، الأول يشتمل على قاعة معلقة مرخمة ورواق مطل على البركة المذكورة ورواق مطل على الجسر ، ولهذا البناء الأول حدود أربعة : الحد القبلى ينتهى إلى ملك اللحام ، والحد البحرى ينتهى إلى ملك الجباس ، والحد الشرقى ينتهى إلى الجسر وفيه بابان وطبقتان من حقوقه والحد الغربى ينتهى إلى البركة المذكورة ، والبناء الثانى يشتمل على واجهة مبنية من الحجر النحيت (٠٠٠) زريبة وله حدود أربعة الحد القبلى ينتهى إلى زريبة هناك بنى الآن مسجد والحد البحرى ينتهى إلى ملك الجباسى والحد الشرقى إلى الجسر والحد الغربى ينتهى إلى الخليج الناصرى وورد أيضاً انه ضمن =

وكان القاضي عبدالباسط ناظر الجيش صاحب المدرسة بالخرنفش (أثر رقم ٦٠) ، يملك داراً على البركة وكان ينزل عنده القضاة ويقضون أمسيات بها خاصة أيام النيل ^(١) .

وكان شيخ الاسلام الحافظ بن حجر العسقلاني يملك داراً على بركة الرطلى اقام فيها رمنا ^(٢) .
كذلك كان القاضي موفق الدين ناظر الجيش بالشام المتوفى سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧١م ، بيت بدرب الطباخ ببركة الرطلى كان ملتقى لاجتماع القضاة ^(٣) .

وقد ذكر ابن اياس " فى ترجمة للسلطان خورشيدم أن من " عيوبه كثرة المصادره إذ أنه قد صادر صاحب علاء الدين بن الالهاسى حتى أنه فك رخام بيته ببركة الرطلى إلى تربته بالصحراء " ^(٤) .
كما ذكر ابن الصيرفى أنه كان لعلى بن قمتى رأس نوبة الدواidar الكبير بيت ببركة الرطلى ^(٥) وكذلك ذكر " ابن اياس " أنه فى أيام السلطان قايتباى كان ينزل ضيوفه مثل أمير مكة فى بيت أم الناظر الخاص يوسف ببركة الرطلى وخصوصاً أيام امتلاء البركة بالماء ^(٦) .

وكذلك كان للمحتسب الزينى بركات بن موسى بيت على البركة ^(٧) وكانت البركة محاطة فى

« أوقافه » جميع البنائين الكنائين بظاهر القاهرة المحروسة خارج باب الشعرية بخط بركة الحاجب بدرب يعرف بالحاج سعد المشتمل على اصطبل ومقعد وبه ساقية كاملة العدة وله حدود أربعة الحد القبلى ينتهى إلى الزقاق وفيه بابه والحد البحرى ينتهى إلى اصطبل الحاج سعد والحد الشرقى ينتهى إلى دار زوجة جقمق والحد الغربى ينتهى إلى اصطبل خطاب .

والبناء الثانى يشتمل على قاعتين ومنافع وعلى رواق وطبقة ومنافع ومرافق وحقوق ولذلك حدود أربعة : الحد القبلى ينتهى إلى وقف الحاج سعد المذكور والحد البحرى ينتهى إلى (٠٠٠٠) والحد الشرقى ينتهى إلى البركة وفيه روية وطاقاته والحد الغربى ينتهى إلى الزقاق وفيه باب وطبقة من حقوقه " . انظر :

محمد الكحلأوى ، مدرسة الأمير عبدالغنى الفخرى ، ماجستير " غير منشورة " ، (كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨١م) ص ١٦٥ - ١٦٨ ، سطور الوثيقة ارقام من ١٦٨ حتى ١٧٤ ، ومن ١٨٦ - ١٩١ .
(١) العينى ، عقد الجمال ، (نشر الزهراء) ، ص ٣٠٣ .

(٢) السخاوى ، الضواء اللامع ، ص ٢١١ ، ابن ابى السرور البكرى ، التزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة (مخطوط بدار الكتب) ، ص ٧٥ .

(٣) ابن الصيرفى ، انباء الهصر ، ص ١٥٩ ، السخاوى ، الضواء اللامع ، ج ٥ ، ص ٧ .

(٤) بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ٤٥٧ .

(٥) انباء الهصر ، ص ٤٣٨ .

(٦) بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٩٣ .

(٧) نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٧٤ .

بعض جهاتها بالبساتين المشجرة مثل بستان السلطان الملك الأشرف قانصوة الغورى^(١) .

العمران حول البركة فى العصر العثمانى :

لما استولى العثمانيون على مصر فى محرم ٩٢٣هـ / ١٥١٧م استولوا على بيوت الأكابر التى على الجسر المطل على البركة ومنعوا مراكب البياعين من دخول البركة وكذلك منعوا المتفرجين من الدخول إلى الجسر^(٢) . وبعد ذلك قل الاهتمام بالسكنى هناك ، وفى أواخر القرن ١١هـ / ١٧م تخربت بيوت الجسر وصارت أرضه غيطاً لعم المؤرخ ابن أبى السرور البكرى وهو الشيخ الملقب بتاج العارفين الصديقى، وقد أنشأ فيه أنواع الأشجار والزهور وصار فيه بقية بهجة للنظار وبعض صباية زمن النيل للمتفرجين^(٣) .

وأصبحت البركة فى العصر العثمانى بمثابة متنزهاً ومصيفاً أكثر منه للإقامة الدائمة حولها إذ كان الأمراء يتخذون من السكن على البركة فترات موسمية أيام فيضان النيل واستلاء البركة إذ كان لمعظم الأمراء بيوت داخل القاهرة وكانت البركة مصيفاً لهم فقط^(٤) .

وكان للسادة البكرية بيت كبير يسمى الشاذروان يطل على البركة وبجواره جامع البكرية المسمى الجامع الأبيض^(٥) (رقم ٤١٨ فى المربع B-8 فى خريطة الحملة الفرنسية) ، وكان بجوارهما أيضاً

(١) ورد بكتاب وقف السلطان الغورى أن من أوقافه "جميع الأبنية والأشباب القائمة بظاهر القاهرة المحروسة خارج بابى القوس والشعرية بظاهر بركة الرطلى بخط الفواخير ، وكان هذا البستان محاطاً بسياج ، وبه ثوران مركب على أحدهما ساقية ، وبه دار دواب ومخزن وشونة للثمن وبه أشجار نخل وزيتون ورمال وكرم وليمون ونارنج ومشمش وموز ولوز وتمر حنة وياسمين وأصول بنفسج وسدر .
أما حدوده : فكان حدة القبلى ينتهى إلى مفترق الطرق المتوصل منها إلى باب درب الطباخ والفواخير وحدة القول ، والحد البحرى ينتهى للطريق المسلك الفاصل بين ذلك وبين غيط على بن خاص بك ، والحد الشرقى ينتهى إلى مجاز درب سعد وبه باب الجنيبة والحد الغربى ينتهى إلى الكرم المستغرق فيه إلى الفواخير وإلى درب الطباخ" .

انظر : كتاب وقف الغورى رقم ٨٨٢ أوقاف ، ص ١٤٠ - ١٤٢ ،

عوض الامام ، المرجع السابق ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

— ويتمثل موقع البستان الآن الجزء الأوسط من المربع ٧ فى خريطة القاهرة لأثار الاسلاميه .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٥ ، ص ١٩٦ .

الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

(٣) ابن أبى سرور البكرى ، النزعة الزهية ، ورقة ٧٣ .

(٤) اندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى ، ص ١٩٩ .

(٥) أنشأ هذا الجامع الذى كان من أصله وارية صغيرة الشيخ أبو البقاء جلال الدين الصديقى وذلك سنة ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م وكان به قديماً مدفن سيدى مدين بن العارف بالله سيدى شعيب التلمسانى ، فأنشأ عليه قبة وجعل لنفسه مديناً بالقبة ملاصقاً لمدفن سيدى مدين ، وقد أوقف على الجامع أوقافاً عديدة ، وقد دفن فى قبة سنة ٩٢٢هـ / ١٥١٦م وهذا الجامع اندثر الآن ولم يبق سوى القبة التى دفن بها جلال الدين البكرى بشوارع البكرية المتفرع من شارع الظاهر . انظر :

أبى السرور البكرى ، النزعة الزهية ، ورقة ٣٢ ، على مبارك ، المخطط التوفيقية ، ج ٤ ، ص ١٣٨

جنيئة كبيرة تسمى جنيئة الشيخ البكرى (٤١٣ المربع C-8) وقد وقع تجمع البكرية (برقم ٤١٤ فى المربع C-8) ، وكانت تلك المنشآت محصورة بين بركة الرطلى وبركة القرع .

ومن كان لهم أملاك على البركة ابراهيم افندى بن زين الدين جبريل كاتب قلم البهار فقد آل إليه بطريق الشراء عدة أماكن بخط بركة الرطلى ، كما أنشأ أيضاً على البركة قاعات وقصراً ومقعداً ومنظرة على الشاطئ الشرقى للبركة داخل درب مياله بحارة البكرية وألحق بعمارتها جنيئة كبيرة تضم الكثير من الأشجار المثمرة ^(١) .

وكان للأمير عثمان كتحدا مستحفظان القازدوغلى عمائر على الشاطئ الشرقى للبركة تضم قاعات سكنية ومرافق وجنيئة ^(٢) .

وكان لعلى كتحدا مستحفظان الخربوطلى المتوفى ١١٨٣هـ / ١٧٦٩م دور كبير فى الاعتناء ببركة الرطلى إذ أنه جدد جامعها فنسب إليه فى خريطة الحملة الفرنسية (رقم ٤١٧ المربع C-8) ، وكان الخربوطلى يقضى الصيف هناك فى موسم الفيضان ويقوم الاحتفالات الكبيرة ^(٣) .

ويذكر "الجبرتى" بركة الرطلى ويثنى عليها ويذكر بعض البيوت العظيمة التى كانت هناك أيامه منها دار الأمير حسن كتحدا الشعراوى وتابعه عمر جاويش وداره على سمته أيضاً ، ودار على كتحدا السابق ذكرها وكذلك دار قاضى البهار ودار سليمان أغا ودار الحموى ودور كانت جارية فى وقف عثمان كتحدا القازدوغلى وغيرها ، ويذكر "الجبرتى" أيضاً أنه سكن بها عدة سنين ^(٤) .

وقد تعرضت دور وبساتين بركة الرطلى للتخريب على أيدى الحملة الفرنسية فقد أزالوا الأبنية والفيطان والأشجار والتلول وقطعوا جانباً كبيراً من التل الكبير المجاور لقنطرة الحاجب وردموا فى طريقهم قطعة من خليج بركة الرطلى وقطعوا أشجار بستان كاتب البهار المقابل لجسر بركة الرطلى وأشجار الجسر أيضاً ^(٥) ، وكانوا قد حولوا جامع الظاهر إلى حصن سموه حصن سولكوفسكى ، فسموا الطريق الموازى للبركة من شمالها باسم طريق حصن سولكوفسكى ^(٦) .

ولكن بعد جلاء الفرنسيين عاد العمران مرة أخرى إلى البركة ففى سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م أنشأ السيد محمد المحروقى داراً وبستاناً كبيراً محل الأماكن التى تخربت ، وكذلك فعل كتابه عمر الحسينى ، كما أنه قام بتجديد جامع البركة (الحريشى) وتتابع التعمير هناك بعد ذلك ^(٧) .

(١) كتاب الوقف رقم ٩٢٨ أوقاف المؤرخ بسنة ١١٣٩هـ ، ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٤ .

(٢) كتاب الوقف رقم ٢٢١٥ أوقاف ، ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٣) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٣٩٦ .

(٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٨٦ .

(٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ٢٣٢ .

(٦) وقع هذا الطريق برقم ٤٣٥ فى المربع A-9 فى خريطة الحملة .

(٧) الجبرتى ، عجائب الآثار ، ج ٣ ، ص ٥٨٧ - ٥٨٨ .

وقد تم ردم البركة فى أيام نظارة على باشا مبارك للأشغال فى فترة حكم الخديوى اسماعيل (١). وأصبح موضعها جزءاً من حى الظاهر .

بركة القرع

لم يذكر المقرئى هذه البركة ، وهى بركة صغيرة قد لا تزيد مساحتها عن ثلاثة أفدنة حفرها الأمير بكتمر الحاجب بعد اعتناؤه ببركة الرطلى (٢) ، وهى غير مسجلة بخريطة الحملة الفرنسية إذ أن أرضها قد تحولت إلى مبان .

وكانت البركة تقع جنوب شرق بركة الرطلى محصورة بين جامع الدشوطى (أثر رقم ١٢) بباب الشعرية جنوباً وبين جامع البكرية (جامع الأبيض) شمالاً ، وكانت تستمد مائها من الخليج الحاكمى (٣) .

وقد أورد "ابن ياس" ذكرها فى كلامه عن افتتاح جامع عبدالقادر الدشوطى فى حوادث شهر ربيع الأول سنة ٩١٢ هـ / ١٥٠٦ م وقد دخلتها المراكب للتنزه بهذه المناسبة وصارت المراكب تدخلها كل سنة من يومئذ (٤) ، واستمرت مكاناً للتنزه والاحتفالات والاستعراضات بها بعد ذلك (٥) . وصارت البركة متنزهاً هاماً فى العصر العثمانى لمجاورتها للسادة البكرية (٦) .

بركة جناق

قال " المقرئى " عن هذه البركة " هذه البركة خارج باب الفتوح ، كانت بالقرب من منظرة باب الفتوح (٧) ، وكان ما حولها بساتين ، ولم يكن خارج باب الفتوح شئ من هذه الأبنية وإنما كان هناك بساتين فكانت هذه البركة فيما بين الخليج الكبير وبستان ابن صيرم ، فلما حكر بستان ابن

(١) الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٢٦٤ .

Clerget M., Le Caire, I, P. 191.

(٢) ابن ابى سرور البكرى التنزه الزهية ، ورقة ٨٠ .

(٣) ابن ياس ، بلدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ١٩٧ .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٥١ - ٢٥٢ .

(٦) ابن ابى السرور البكرى ، قطف الازهار ، ورقة ١٥٦ ، التنزه الزهية ، ورقة ٢٥ ، ورقة ٨٠ .

(٧) كانت هذه المنظرة معدة لجلوس الخلفاء الفاطميين فيها عند عرض العساكر ووداعها إذا سارت فى البر إلى الشام خارجة من باب الفتوح حيث كانت تمر بهذا الطريق ، وكانت المنظرة تشرف على بساتين حل محلها الآن حى العباسية وحى الظاهر بالقاهرة . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٨١ . ولزيد من التفاصيل عن المناظر انظر ما يلى ص ٣٨٣ .

صيرم^(١) وعمر مكانه الآدر وغيرها وعمر الناس خارج باب الفتوح عمر ما حول هذه البركة بالدور وسكنها الناس وهى إلى الآن عامرة وتعرف ببركة جنات^(٢)

وأقول أن هذه البركة ظل جزء منها باقياً إلى نهاية القرن الماضى ، وقد وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية تحت رقم ٣٨٧ فى المربع D-7 ، وهى صغيرة الحجم ومساحتها حوالى فدانين وكانت تحيط بها المباني من جميع الجهات .

وقد ذكر " على مبارك " أن هذه البركة كان جزء منها لا يزال موجوداً أيامه وأن الماء كان يصل إليها من سرداب بينها وبين الخليج الكبير ، وقد عرفت ببركة درب عجور^(٣) . أما أسمها فى الوثائق العثمانية فكانت بركة جمق .^(٤)

وموقع البركة الآن جزء من حى الحسينية شمال القاهرة فى منطقة يخترقها شارع الجيش فيما بين وبين شارع الزعفرانى " ((أى الجزء الغربى للمربع ٢ ح من خريطة القاهرة للآثار الاسلامية لوحة ١) ، ولا يزال درب عجور الذى كان على البركة معروفاً بهذا الاسم لآن ، وكذلك درب آخر يعرف بدرب البركة متفرعين من يمين شارع البنهاوى بالحسينية .

العمارة حول البركة فى العصرين المملوكى والعثمانى :

فى العصر المملوكى كانت هذه البركة عامرة بالدور والبيوت وكانت ملكاً للأمراء و الأعيان

(١) كان ما خارج باب الفتوح براحاً وأرض فضاء فأنشأ زمام القصر الفاطمى المختار الصقلبى بستاناً وبنى فيه منظره عظيمة ، فلما زالت الدولة الفاطمية استولى عليه الأمير جمال الدين سويح بن صيرم أحد أمراء الملك الكامل الأيوبي فعرف به ، ثم اختط وصار من أجل الأخطاط عمارة فسكنه الأمراء والأعيان من الجند ، وكان فى زمن المقرئى ايل إلى الأذنان إلا أنه عمر بعد ذلك .

* ومحل الآن يعنى الحسينية المنطقة التى يخترقها شارع الحسينية من أمام باب الفتوح والمحدود من الجنوب بشارع البنهاوى ومن الشرق بشارع درب السماكين . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٣٦ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

* وقد اطلقت مصلحة التنظيم اسم شارع بستان صيرم على أحد الشوارع بالمنطقة فى مقابل مدرسة خليل أغا غربى شارع الجيش .

(٢) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

(٣) الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ١١٨ .

(٤) ورد بوثيقة الأمير عبدالرحمن كتحدا رقم ٩٤٣ ، ٩٤٤ أوقاف أنه كان له ربايع سكنية بدرب ابن موسى المعروف بدرب ابن عجور كانت مطلة على بركة جمق . انظر أيضاً :

أمل المصرى ، حى الحسينية فى العصرين المملوكى والعثمانى ، ماجستير "غير منشورة" ، (كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٠) ، ص ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، سطور من ١٠٠ - ١٠٥ من الوثيقة .

والعلماء ، وقد وصف المؤرخ السخاوى أحد البيوت بالبركة بأنه "بيت هائل" ^(١) كما أن المؤرخ السخاوى نفسه كان يسكن ببركة جنناق ^(٢) .

وفى العصر العثمانى استمر سكن شيوخ العلم ببركة جنناق ومن هؤلاء العالم الفقيه حسن الكفراوى المتوفى سنة ١٢٠٢هـ / ١٧٨٨م الذى التفت حوله أهل الحسينية وكان زعيماً لهم ^(٣) ، وكذلك الشيخ محمد الدواخلى المتوفى سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م ^(٤) .

وفى زمن الحملة الفرنسية أثناء ثورة القاهرة ضدها سنة ١٢١٤هـ تخربت أجزاء كثيرة من القاهرة، فقد عم الخراب خطة الحسينية خارج باب الفتوح والخروبي فهدموا تلك الأخطاط والجهات والحارات والدروب والحمامات والمساجد والمزارات والزوايا والتكايا وبركة جنناق وما بها من الدور والقصور المزخرفة ^(٥) .

ولكن أعقب تلك الأزمة التعمير مرة أخرى فى عهد محمد على واستمر حتى الحسينية عامراً وردمت البركة وبنى موضعها فى مطلع هذا القرن .

بركة قراجا

قال المقرئى عنها "هذه البركة خارج الحسينية قريباً من الخندق" ^(٦) ، عرفت بالأمير زين الدين قراجا التركمانى أحد أمراء مصر أنعم عليه السلطان الملك ناصر محمد بن قلاوون بالأمرة فى سنة سبع عشر وسبعمائة ^(٧) .

(١) ذكر السخاوى أن العالم على بن الطنباوى الذى توفى عاشر ربيع الأول سنة ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م :

"اشترى له بيتاً هائلاً ببركة جنناق" ، انظر : الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ٢٨٧ .

(٢) قال "السخاوى" فى ترجمته لخديجة بنت الشرقى المتوفاة فى أواخر المحرم سنة ٨٩٣هـ / ١٤٨٨م "إنها جارتنا فى بركة جنناق" نفس المصدر ، ج ١٢ ، ص ٣٣ .

(٣) الجبريتى ، عجائب الآثار ، ج ٢ ، ص ٦١ .

(٤) نفسه ، ج ٣ ، ص ٥٩٠ .

(٥) نفسه ، ج ٢ ، ص ٤٣٢ .

(٦) الخندق : قرية قديمة كانت تعرف أولاً بمسبة الأصمغ نسبة للأصمغ بن عبدالعزيز بن مروان وعندما حفر جوهر الصقلى خندقاً شمال القاهرة لمنع القرامطة من غزو القاهرة كان هذا الخندق يمر بجوار هذه القرية فسميت القرية باسم الخندق .

* ومكان الخندق الآن المنطقة حول دير الملاك البحرى وما جاورها من منطقة حدائق القبة أى فى المنطقة الدمرداش

حالياً . انظر : المقرئى ، الخطوط ، ج ٢ ، ص ١٣٦ - ١٣٨ .

محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الأول ، ص ٥٦ - ٥٧ .

(٧) الخطوط ، ج ٢ ، ص ١٦٥ .

يتبين لنا مما ذكره المقرئى أن هذه البركة كانت بين الحسينية والحنديق (الدمرداش حالياً) ، وهى التى قصدها المؤرخ ابن اياس بقوله " أن الأمير خاير بك من حديد أنشأ بجامع قيدان الذى بقناطر الأور جوسقا (كوشكا) مطلاً على البركة التى هناك " . (١)

وجامع قيدان هذا ذكره المقرئى فقال عنه : (هذا الجامع خارج القاهرة (٢) على جانب الخليج الشرقى ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الأور تجاه أرض البعل " (٣)

وقناطر الأور هذه موقعة على خريطة الحملة الفرنسية برقم ٣٩٤ فى المربع A-7 وموقعها الآن بشارع الخليج المصرى تجاه الحارة التى أسمتها مصلحة التنظيم خطاً حارة قنطرة الظاهر ، وجامع قيدان هذا قد اندثر وكان واقعاً بشارع قنطرة غمرة عند تلاقيه بشارع سعيد بخط السكاكىنى بالقاهرة (٤)

وبناءً على ما سبق فإن بركة قراجا هذه كانت تقع شرقى الخليج المصرى شمال حى الحسينية وشمال جامع الظاهر ببيرس فى المنطقة التى يشغلها الآن قصر السكاكىنى وما حوله وهى على ذلك تمثل نفس البركة التى عرفت زمن الحملة الفرنسية بأسم بركة الشيخ قمر التى تقع شمال جامع الظاهر ببيرس وكانت البركة محاطة بالبساتين والحقول على خريطة الحملة الفرنسية (٥) . وقد عرفت البركة فى العصر العثمانى أيضاً باسم بركة المجاورين (٦) كما عرفت فى الوثائق العثمانية أيضاً باسم البركة الصغرى وأيضاً بركة بغل الكروش (٧) .

(١) بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٧٦ ، محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٠٣ .

(٢) المقصود بخارج القاهرة أى خارج مدينة القاهرة المعزية المحاطة بأسوار ، أى فى ضواحيها .

(٣) الخطط ، ج ٢ ، ص ٣١٢ .

(٤) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٢٠٣ .

(٥) بالنظر إلى خريطة الحملة الفرنسية للقاهرة وظواهرها نجد بركتين إحدهما تقع فى البر الشرقى للخليج شمال جامع الظاهر ، والأخرى تقع غربى الخليج مواجهة للبركة الأولى وهى تحمل رقم ٤٢٦ فى المربع A8 . وقد عرفت كلتا البركتان فى خريطتى الحملة باسم بركة الشيخ قمر ، ولكن التى نتحدث عنها أعلاه التى قصدها المقرئى هى البركة الواقعة شرق الخليج بالسكاكىنى .

وقد وردت كلتا البركتان أيضاً فى خريطة بوكوك التى رسمها خلال زيارته لمصر سنة ١١٥٨ / ١٧٤٣م وقد سمى البركة التى نتحدث عنها باسم بركة على كايا شلى Birk Ali Caia Gelphe وسمى الأخرى بركة القمر Birk el Omer ، ونلاحظ أن خريطة بوكوك هذه فيها خلط فعلى نفس الخريطة أيضاً جعل بركة القيل مكان بركة الناصرية والعكس . (انظر خريطة بوكوك فى نهاية الرسالة)

(٦) ذكر أحمد شلى أنه فى يوم العاشر من ذى الحجة سنة ١١٤٧هـ الذى هو يوم الأضحى هبت رياح عاصفة كان من تأثيرها "خلع الجميز الذى عند الشيخ قمر ببركة المجاورين" . أوضح الاشارات ، ص ٥٩٦ .

(٧) ورد بالوثيقة المحفوظة بأرشيف الشهر العقارى محكمة الباب العالى سجل ٨٥ ص ٣٧ ، ١٧٤ مايلى " وقف البركة الصغرى أو بركة بغل الكروش أو الشيخ قمر على ضريح قمر وسكان البركة والضريح بالقرب من غيط الطويل " .

بركة الحاج

تمتعت بركة الحاج^(١) بأهمية كبيرة فى تاريخ مصر الاسلامية بحكم موقعها الاستراتيجي الهام بصفتها أول وآخر محطة للذاهبين والعائدين بطريق الحج والتجارة للحجاز والشام ، وكذلك كانت متنزها كبيراً ومضمارا للرياضة والصيد حتى نهاية العصر العثمانى ، وقد كانت متنزهاً للخلفاء والملوك والسلاطين والولاة طول التاريخ الاسلامى .

الموقع :

ذكر المقرئى أنها تقع فى الجهة البحرية من القاهرة على نحو بريد^(٢) منها أى أنها تقع شمال القاهرة على مسافة ٢٢ كم . وكانت هذه البركة رمن المالك عبارة عن أرض منخفضة تملأ وقت الفيضان بماء النيل عن طريق الخليج الكبير ، وكانت مساحتها ٥٠٠ فدان وعبرتها ٣٠٠٠ دينار^(٣) . وهى تتبع اليوم قسم المطرية من القاهرة^(٤) ، وكانت من قبل قرية من قرى شيين القناطر محافظة القليوبية^(٥) .

التسمية :

عرفت هذه البركة بعدة أسماء منها جب عميرة أو أرض الجب أو بركة الجب أو البركة ، وكان العامة يطلقون عليها فى العصر المملوكى جب يوسف نسبة إلى سيدنا يوسف عليه السلام^(٦) ، إلا أن الاسم الذى صار علماً عليها هو بركة الحاج لأنها كانت المحطة التى يتجمع فيها الحجاج المسافرون بطريق البر من القاهرة وعند عودتهم منها .

(١) للاستاذ الدكتور آمال العمري بحث بعنوان بركة الحاج خلال العصورين المملوكى والعثمانى " ، نشر بالقاهرة سنة ١٩٨٧ م ، وقد رأيت أن أوجز فى الكلام عن هذه البركة لاستكمال موضوع الرسالة .

(٢) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

* والبريد يساوى اربع فراسخ والفرسخ ٣ أميال والميل ٤٠٠٠ ذراع ، وبما أن الفرسخ يساوى ٥٤٤٤ متر فالبريد يساوى ٥٤٤٤ X ٤ = ٢٢١٧٦ متراً أى ٢٢,١٧٦ كم ! انظر : محمد ضياء الدين الرئيس ، الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية (ط ٥ ، ١٩٨٥) ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .

(٣) ابن الجيعان ، التحفة السنية ، ص ٦ .

(٤) آمال العمري ، نفس المرجع ، ص ٨

(٥) محمد رمزي ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ١٨ ، القاموس الجغرافى ، ق ٢ ج ١ ، ص ٣١ .

(٦) عن هذه الاسماء انظر : ابن مسير ، اخبار مصر ، ج ٢ ، ص ١٣ .

ابن ممتى ، قوانين الدواوين ص ١١٠ ، ابن دقماق ، الانتصار ، ج ٥ ، ص ٤٥ .

المقرئى ، الخطط ، ج ١ ، ص ٤٨٩ ، ج ٢ ، ص ١٦٣ ، السلوك ، ج ١ ، ص ٤٥ .

ابن خرداذية ، المسالك والممالك ، (ليدن ، ١٣٠٩ هـ) ، ص ١٤٩ .

أهمية بركة الحاج والعمارة بها فى العصر المملوكى :

ازدهر شأن بركة الحاج فى العصر المملوكى ازدهاراً كبيراً ويمكن القول أنه قد ساعد على ذلك ازدياد أهمية الطريق البرى إلى سيناء فى العصر المملوكى بعد إخراج الصليبيين من بلاد الشام وعودة استخدامه من جديد كطريق لقوافل الحج والتجارة ومن ثم ظهر اسم جديد له هو درب الحج أو الدرب السلطاني^(١).

وقد كانت بركة الحاج محطة الحاج وذويهم الذين كانوا يصحبونهم فى رحلة الذهاب والوصول إليها حيث كانوا يسكرون ويستريحون ويتهيأون للسفر ويمكثون بها عدة أيام ، وكانت تقام بها الأسواق فى مواسم الحج^(٢) لذلك فقد اهتمت به وبالطريق فى العصر المملوكى شجر الدر وذلك حين سلكت الطريق للحج سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م فأمرت باصلاح الطريق وحفر الآبار وبناء البرك على طريق الحج المصرى وبذلك أحيت شجر الدر هذا الطريق بعد أن فسد مرة من الزمن^(٣).

وكان لازدهار الطريق البرى للحج أثره الكبير فى زيادة أهمية طريق الصحراء الواقعة خارج باب النصر لأنه يسلك منها إلى بركة الحاج ومن ثم فقد حرص سلاطين وأمراء الممالك على بناء المنشآت المتنوعة سواء بالبركة أو على جانبى الطريق المؤدى إليها^(٤).

وقد أمر الناصر محمد بن قلاوون بعمل أحواش للخليل والجبال وميدان لتتاج الخيل ببركة الحاج وكانت بركة الحاج تروى وتنتج بها الخيول والاغنام حيث كانت مرتعا خصباً ونموها حتى ضرب بها المثل فقد قبل للبكش بكش بركاوى نسبة إلى هذه البركة^(٥).

ومما كان له الاهتمام بالبركة فى العصر المملوكى القاضى عبدالباسط^(٦) ناظر الكسوة الشريفة فقد قام فى شوال سنة ٨٢٨هـ / ١٤٢٤م بعمل بستان وساقية وفسقية ماء فى بركة الحاج برسم الحاج

(١) آمال العمرى ، المرجع السابق ، ص ٩ .

وعن درب الحج انظر : احمد رمضان ، شبه جزيرة سيناء فى العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠٨ .

(٢) رحلة الفاسى ، ص ٩٨ .

(٣) احمد رمضان ، نفسه ، ص ٢٠٦ .

(٤) محمد حمزة ، قرافة القاهرة فى عصر السلاطين المماليك ، ماجستير "مخطوطة" ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٧ ، ص ١٠٦ .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٦٤ .

(٦) هو القاضى عبدالباسط بن خليل ناظر الكسوة الشريفة وقد تولى عدة وظائف فى عهد المؤيد شيخ ویرسبای وقد توفى فى سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م ودفن بترية بالصحراء وكانت فى الجهة الشمالية الغربية من منشآت كل من اينال وقرقاس بقرافة صحراء الممالك انظر :

السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٢٥ ، محمد حمزة ، المرجع السابق ، ص ١٢٣ ، حاشية ٣

وقد عسم بها النفع هناك بالإضافة إلى تخصيص مبلغ ٨٠٠٠ درهم فى كل سنة لصالح تلك المنشآت . (١)

وكذلك أنشأ الأمير علان من ططخ الاشرفى سيلاً حسناً وحوضاً بطريق بركة الحاج (٢) وقد كان موضع هذا السبل أمام قبة يشبك مباشرة على الجانب الشرقى من الطريق تجاه الصحراء وقد وقع هذا السبل فى خريطة الحملة الفرنسية (٣) .

وكذلك أنشأ العارف بالله المتولى المتوفى فى ذى الحجة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م (٤) حوضاً وسيلاً وبستاناً بالبركة فى أثناء سلطنة قايتباى ، وقد دفن بقبة بزايته هناك ، ولا تزال هذه القبة موجودة ملحقة بالركن الجنوبي من المسجد (الزاوية) وقد جددت فى سنة ١٠٢٨هـ / ١٦١٩م . (٥)

وقد اقيمت إلى جانب تلك المنشآت الخانات (٦) والفنادق بسبب القوافل حيث يستريح التجار ودوابهم ، وكان يوجد بها خان بركة الحاج (٧) هذا ولم يتبق من تلك المنشآت أى اثر يعود للعصر المملوكى . (٨)

- (١) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١٠١ .
- سامى نوار ، الاعمال المعمارية للقاضى عبدالباسط ، ماجستير ، غير منشورة "جامعة اسبوط ، ١٩٨٠ ، ص ٤٩ ، ٨٨ .
- (٢) هو الامير علان الاشقر بن ططخ أمير عشيرة وأحد رؤوس النوب، توفى فى جمادى الاولى سنة ٨٨٦هـ / ١٤٨١م . السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٥ ، ص ١٥٠ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ١٨٢ .
- (٣) محمد حمزة ، المرجع السابق ، ص ٢٧٥ ، حاشية ٢ .
- (٤) هو العارف بالله سيدى ابراهيم بن على بن عمر المتولى ، وكان ديناً خيراً وكانت شفاعته عند السلطان والامراء لا ترد ، وكان يأوى إليه الفقراء والمنقطعين وكان نادرة عصره وصوفى وقته . انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٨٨ . الشعرائى ، لواقع الانوار فى طبقات الاخيار ، المعروف بالطبقات الكبرى ، ج ٢ ، ص ٩٢ ، ٩٦ .
- * وقد ذكر الشعرائى أن تاريخ وفاة التولى نيف وثمانين وثمانمائة ولكن الصحيح ما ذكره ابن اياس من أنه توفى سنة ٨٧٧هـ .
- (٥) عن مسجد التولى ، انظر : سعاد ماهر ، مساجد مصر ، ج ٢ ، ص ٤٩ - ٥٤ .
- آمال العمرى ، المرجع السابق ، ص ٢٠ - ٢٦ .
- (٦) الخان كلمة فارسية معناها نزل أو سوق ، وقد استخدمت منذ اقدم العصور لايواء المسافرين ودوابهم وبضائهم ، وكانت الخانات تبنى داخل المدن وخارجها بل نجد أن اغلب الخانات كانت تبنى خارج المدن على الطرق التجارية وكذلك فقد اقتضى الامر أن تدعم تلك الخانات بابرار للمراقبة منعاً للاعتداء عليها . انظر : آمال العمرى ، المنشآت التجارية فى القاهرة فى العصر المملوكى ، دكتوراه " غير منشورة " (جامعة القاهرة ، ١٩٧٤) ص ١٤٦ .
- اضواء على المنشآت التجارية فى مصر المملوكية: الكتاب الذهبى ، ج ٢ ، عدد خاص من مجلة كلية الآثار ، القاهرة ، سنة ١٩٧٨م ، ص ٦٨ .
- (٧) نعيم زكى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ص ٢٩٤ .
- (٨) آمال العمرى ، بركة الحاج ، ص ١١ .

العمارة ببركة الحاج في العصر العثماني :

ظلت بركة الحاج وضع اهتمام من قبل أمراء مصر خلال العصر العثماني لما تتمتع به من أهمية استراتيجية ، ومن هؤلاء دواد باشا (٩٤٥-٩٥٦هـ) ^(١) الذي أنشأ بها بابا وخانا وبستانا وسيلا وفسقية وحوضاً كبيراً يشتمل على محراب للصلاة ودواوين لجلوس المسافرين للاستراحة في ضمن عمارة مشرفة يراها المسافر ، وقد تمت هذه الأعمال في سنة ثيف وخمسين وتسعمائة . ^(٢)

كذلك قام الامير ذو الفقار بك بإنشاء قصر وحوض وبستان وغيط زرع فيه خمسة آلاف نخلة وكان بناء الحوض فيما بين ١١٣٩ إلى سنة ١١٤١هـ / ١٧٢٦-١٧٢٨م ^(٣)

وكذلك كان الولاة العثمانيون القادمون إلى القاهرة في النصف الثاني من القرن ٢١هـ / ٨١م يتوقفون عند بركة الحاج ، لذلك كان لكل منهم قصر أو حديقة هناك . ^(٤)

(١) هو دواود باشا الخادم قدم إلى مصر في ١٧ محرم ٩٤٥هـ / ١٥٣٨م وظل والياً عليها لمدة طويلة استمرت ١١ سنة وهذه المدة قلما حدثت في العصر العثماني واستمر والياً إلى أن مات في ربيع الاول سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م .
انظر : احمد شلبي ، اوضح الاشارات ، ص ١٠٩ - ١١٠ ، آمال العمرى ، دراسات في وثائق داود باشا والى مصر ، القاهرة ، ١٩٨٦م .

(٢) بن عبدالقادر ، دور الفرائد المنتظمة في اخبار الحاج وطريق مكة المكرمة ، ص ٤٧٩ ، عن د . آمال ، ص ١٢ .
(٣) احمد شلبي ، المصدر نفسه ، ص ٥٥٩ ، على مبارك ، ج ٩ ، ص ١٧ . عن هذه الاعمال بالتفصيل ، انظر :
آمال العمرى ، المرجع السابق ، ص ١٠٢ - ١٠٧ .

(٤) عبدالوهاب بكر ، السدرة العثمانية ومصر في النصف الثاني من القرن ١٨م ، دار المعارف ١٩٨٢م ، ص ١٦٣ - ١٦٤ .

الفصل الرابع خلجان القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى

كانت خلجان^(١) القاهرة والقناطر عليها من أهم متنزهات مصر فى العصرين المملوكى والعثمانى ، وكان بالقاهرة عدد كبير من الخلجان والتي استخدمت منها كمتنزهات وأماكن احتفالات وأعياد هى الخليج الكبير والخليج الناصرى وخليج فم الحور وخليج الذكر وخليج قنطرة الفخر وخليج الزعفران وخليج الزربية .

وكانت هذه الخلجان تستمد ماءها من النيل وتمتلىء وقت الفيضان ، وهى محفورة بالأيدي البشرية وليست طبيعية كنهر النيل وفروعه .^(٢)

وكانت الدولة تتحمل مسؤولية الخلجان والقناطر عليها من حيث الاعتناء بحفرها وتطهيرها وإقامة القناطر عليها وإصلاح التالف منها .

الخليج الكبير «الخليج المصرى» التسميات التى اطلقت عليه :

تعددت أسماء هذا الخليج على مر الزمن ، ففى صدر الإسلام عرف باسم خليج مصر^(٣) أو خليج الفسطاط^(٤) نسبة لمدينة مصر التى عرفت أيضاً باسم خليج أمير المؤمنين^(٥) نسبة إلى أمير

(١) الخلجان مفردتها خليج والجمع خلجان وخليج ، والخليج فى اللغة هو نهر صغير يمتلئ أى يتزعم من نهر كبير أو من بحر . انظر مادة خليج فى مختار الصالح للراى ، والقاموس المحيط للفيروزابادى ، ولسان العرب لابن منظور ، المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٣٩ .

(٢) حفر الخليج الكبير بغرض التجارة فى المقام الأول عن طريق ربط النيل بالبحر الأحمر ، بالإضافة لمساهمة فى رى الأراض الزراعية ، وحفر الخليج الناصرى لمساعدته فى تلك المهمتين ، وبعض الخلجان حفرت لزيادة ماء الخليج الكبير مثل خليج الذكر وخليج فم الحور ، وبعض الخلجان حفرت لتكون مساعداً لنهر النيل فى حالة جفافه لارتفاع الرمال بطول القاهرة مثل خليج موردة الحلفا وخليج الزربية .
عن هذه الخلجان بالتفصيل انظر ما يلى تباعاً .

(٣) المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٣٩ .

(٤) نفس المصدر والجزء ص ١٤٠ ، ابن عبدالحكم ، فترج مصر ص ٢١٨ .

(٥) المقدسى ، احسن التقاسيم ص ٢٠٦ ، ابن عماتى ، فوائيد الدواوين ص ٢٠٤ ، المقرئى الخطط ج ٢ ص ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣ .

المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، لأنه هو الذى أمر عمرو بن العاص فاتح مصر ووالها من قبله بحفره عقب عام الرمادة الذى حدث سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م ليصل النيل بالبحر الأحمر لحمل المؤن والزاد إلى الحجاز بصفة دائمة .

وقد سماه «المسعودى» (ت ٣٤٦ هـ / ٩٧٥ م) ترعة ذنب التمساح ^(١) نسبة إلى مصبه فى ذلك الوقت عند بحيرة التمساح .

وقد أطلق عليه فى العصر الفاطمى إسم خليج القاهرة ^(٢) لأنه يسير بمحاذاة سور القاهرة الغربى ، كما عرف أيضاً باسم خليج اللؤلؤة ^(٣) نسبة إلى منظر اللؤلؤة ^(٤) التى كانت على الشاطئ الشرقى للخليج ، وقد ظل اسم خليج القاهرة مستعملاً فى العصر الأيوبى . ^(٥)

وفى العصر المملوكى عرف باسم الخليج الحاكمى ^(٦) وقد ذكر «المقريزى» أن هذه التسمية تسمية خاطئة من العامة الذين اعتقدوا أن الخليفة الحاكم بأمر الله الذى أمر بحفره ، ومن الملاحظ أن هذه التسمية هى الواردة فى معظم الوثائق المملوكية . ^(٧)

كما عرف أيضاً باسم الخليج الكبير ^(٨) على وجه العموم نظراً لوجود عدة خلجان أصغر منه حفرت بعده فى القاهرة مثل خليج الخور وخليج الذكر والخليج الناصرى ، كما أنه هو المقصود من بين الخلجان فى المصادر والوثائق إذا قيل الخليج فقط .

وفى العصر العثمانى تعددت تسميات الخليج لأن الناس قد أطلقت عدة مسميات على أجزائه ما بين بعض قناطره بأسم تلك القناطر أو نسبة للشوارع الموازية له أو نسبة لشخصيات هامة كانت يبيتها

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢٥٧ .

(٢) المقريزى ، الخطط ج ٢ ، ص ١٤٠ .

(٣) نفسه .

(٤) هذه المنظره ما هى إلا قصر فخم انشاء الخليفة العزيز بالله بن المعز لدين الله ، وكان يقع على الخليج بالقرب من باب القنطرة ، وكان قصراً من أحسن القصور وأعظمها رخرفة وهو أحد متزهات الدنيا المذكورة فإنه كان يشرف من شرقه على البستان الكافورى ويطل من غربه على الخليج وكان غربى الخليج إذ ذاك ليس فيه من المباني شيء وإنما كان فيه بساتين عظيمة وبركة بطن البقرة (الأوبكية فيما بعد) .

المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٤٦٧ .

* ويمثل موقع المنظره الآن الأرض المتام عليها مدرسة الفرير بالخرنفش .

(٥) ابن سعيد ، المغرب ص ١٧٢ .

(٦) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ١٤٠ .

(٧) نلاحظ أن إسم خليج اللؤلؤة ظل مستعملاً أيضاً فى بعض وثائق العصر المملوكى مثل وثيقة المؤيد شيخ رقم ٩٣٨ أوقاف .

(٨) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ٤٣٠ .

أو مساجدها وأضرحتها على شاطئيه ، فعلى خريطة الحملة الفرنسية نجد أن اسمه خليج المواردى ^(١) (رقم ٢٨٠ فى المربع V14) فى المسافة بين قنطرة السد (الجير) حتى قناطر السباع ، وعرف بخليج قناطر السباع (رقم ١٦١ فى المربعين 12, 13 u) فى المسافة بين قناطر السباع وقنطرة عمر شاه ، وعرف باسم خليج عمر شاه (رقم ٢٩٣ المربع 11 5) فى المسافة بين قنطرة عمر شاه وقنطرة طقزدمر (قنطرة درب الجمايز) وعرف بخليج حارة النصارى ^(٢) (رقم ٦٣ المربع 10 - Q) فى المسافة بين قنطرة طقزدمر وقنطرة آق سنقر ، وعرف باسم خليج الخلوئى ^(٣) (رقم ٦ المربع 10 - P) فى المسافة بين قنطرة آق سنقر حتر القنطرة الجديدة (قنطرة الذى كفر) ، وعرف باسم خليج مصطفى بيه ^(٤) (رقم ٣ المربعين 09 - N) فى المسافة بين القنطرة الجديدة (قنطرة الذى كفر) وقنطرة باب الخرق ، وسمى باسم الخليج المرخم ^(٥) (رقم ٣٢ فى المربع 9 - M) فى المسافة بين قنطرة باب الخرق حتى قنطرة الأمير حسين ، وعرف باسم خليج الأمير حسين (رقم ١٣ المربع 9 - K) فى المسافة بين قنطرة الأمير حسين وقنطرة الموسكى ، وعرف باسم خليج الموسكى أو الأفرنج ^(٦) (رقم ٦٨ المربع 8-H) فى المسافة بين قنطرة الموسكى وقنطرة الشعرانى ، وعرف باسم خليج الشعرانى (رقم ١٩٧ فى المربع 6 - F والمربع 7 - G) فى المسافة بين قنطرة الشعرانى والقنطرة الجديدة ، وعرف الخليج باسم الخليج

(١) عرف الخليج بذلك الاسم نسبة لضريح ومسجد سيدى محمد المواردى الموجودين حتى الآن بأول شارع الخليج المصرى (بور سعيد حالياً) بمنطقة أبو الريش بالسيدة زينب .

(٢) كان يسكن فى هذه المنطقة فى العصر العثمانى عدد كبير من النصارى فى البيوت المطلة على الخليج ، وكانوا من قبل فى العصر المملوكى يسكنون فى المنطقة المواجهة فى البر الشرقى للخليج بينه وبين بركة القيل وانتقلوا إلى البر الغربى للخليج عندما بنى بشتاك جامعة وخاناته هناك ، انظر المقرئى ، الخطط جـ ٢ ص ٣٠٩ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية جـ ٣ ص ٩٤ .

* وقد وقعت حارة النصارى فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٥٨ فى (المربع 10 - Q) وهى لا تزال تحتفظ بأسمها للآن .

(٣) وقع جامع الخلوئى فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٧٩ فى المربع 10 - P ، ووكالة الخلوئى برقم ٧٧ فى المربع 10 - P ، وسيل الخلوئى برقم ٧٨ فى المربع 10 - P .

* وجامع الخلوئى يحمل رقم ٤١٤ فى فهرس وخريطة القاهرة للآثار الإسلامية ، ولكن المعالم الأثرية للجامع قد ضاعت الآن بعد تجديد الجامع كلية وهو يقع فى تقاطع شارع الخليج بشارع البرموني .

(٤) وقع بيت مصطفى بيه فى الخريطة برقم ٧ فى المربع 9 - N ، وسكة خليج مصطفى بيه برقم ٤ فى المربع 9 - N والمربع 9 - 0 .

(٥) ترجع تسمية الخليج بالخليج المرخم نسبة لتركز صناعة الرخام فى منطقة باب الخرق (الخلق) فى العصر العثمانى ، ولا يزال للآن شارع تحت الربع محتفظاً بالعديد من ورش صناعة الرخام .

(٦) كان للفرنجة (الاجانب الأوربيون) حصى خاص بهم على الخليج بالموسكى ، وكانت لهم كنيسة خاصة بهم لا تزال موجودة للآن بشارع الخليج .

السلطاني^(١) (رقم ٤١٩ المربع B-8) فيما بعد القنطرة الجديدة ، وهذه النسبة ترجع إلى أيام السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الذى حفر الخليج الناصرى وأوصله بهذا الخليج الكبير عند القنطرة الجديدة وقام فى ذلك الوقت أيضاً بتطهير الخليج الكبير .

حفر الخليج فى صدر الإسلام :

يعتبر الخليج المصرى أقدم مجرى مائى تم حفره بواسطة الإنسان وظل مستعملاً حتى تم ردمه فى نهاية القرن الماضى فى سنة ١٨٩٨ م .

وترجع أصول هذا الخليج إلى أيام الفراعنة^(٢) حيث تم اتصال النيل بالبحر الأحمر فى عهد سنوسرت الثالث ، وهو ما يعرف بأسم قناة سيزوسترويس ، وفى العصر الرومانى أعاد حفر القناة الامبراطور تراجان فعرفت به .^(٣)

أما فى العصر الإسلامى فيرجع حفره إلى أيام ولاية عمرو بن العاص على مصر أثناء خلافة عمر بن الخطاب بعد فتح مصر بضع سنوات ، فقد حدث فى سنة ٢١ هـ / ٦٤٢ م قحط وجذب شديدان بالحجاز وسمى ذلك العام «بعام الرمادة» لأن الأرض والشجر صارت مثل لون الرماد ، فاستنجد عمر بن الخطاب بواله على مصر عمرو بن العاص ليمده بالطعام لإغاثة أهل الحجاز ففعل ، وعقب تلك الشدة أمر عمر بن الخطاب عمرأ بحفر ذلك الخليج بناءً على اقتراح عمرو الذى أراد بعد ذلك أن يتراجع عنه لمشتته^(٤) لیساعد فى نقل المدد والخراج للحجاز بسهولة فى أسرع وقت ، فتم حفر الخليج سنة ٢٣ هـ / ٦٤٤ م^(٥) . كما يوجد سبب آخر سارع بالعمل فى حفر الخليج وهو

(١) جرى العرف فى العصر المملوكى أن يطلق على الطرق والجسور العامة التى تربط أنحاء البلاد اسم الطريق السلطاني والجسر السلطاني على أساس مسئولية الدولة ممثلة فى شخص السلطان عنها .

(٢) المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٣٩ - ١٤١ .

(٣) تنسم الكتابات عن توصيل النيل بالبحر الأحمر فى العصر الفرعونى بالتشويش وعدم الدقة ولا توجد دراسة وافية صحيحة يعتمد عليها فى هذا الشأن .

(٤) انظر بالتفصيل :

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ص ٢٢١ - ٢٢٢ ، المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٤١ - ١٤٢ .

(٥) ذكر كثير من المؤرخين أن حفر الخليج فى عام الرمادة أى سنة ٢١ هـ ، ولكن ذلك الرأى غير منطقى ، فلا يعقل أن يحفر الخليج فى وقت قصير وتسير فيه السفن بالطعام من مصر إلى البحر الأحمر ثم الحجاز لأن تلك الملاحه لا تكون إلا فى أيام الفيضان ، كما أن حفر الخليج يحتاج مدة كبيرة قد تستغرق ستين ، ولكن الذى حدث هو حفر الخليج بعد انتهاء عام الرمادة ونجدة مصر للحجاز عن طريق قوافل البر .

وعن قصة حفر الخليج بالتفصيل أنظر :

البلاذرى ، فتوح البلدان ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، نشر مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٦ ، ج ١ ص ٢٥٣ . ابن عبدالحكم ، فتوح مصر والمغرب ص ٢١٨ - ٢٢٢ ، المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٤٣ ، القلقشندى ، =

حرص عمر على اتصال مصر بمركز الخلافة بالحجاز عن طريق البحر الأحمر لأنه كان حريصاً على الاتصال بالاقليم والبلاد المفتوحة في أقرب وقت وأيسر طريق دون عوائق حتى يكون جاهزاً بالمدة والعون إذا احتاجته جيوش المسلمين في تلك البلاد المفتوحة .

مسار الخليج وحدوده :

بالرجوع إلى خرائط القاهرة وإلى ما ذكره المقرئى عن الخليج نستطيع أن نكتب بكثير من الإطمئنان أن فم الخليج عندما حفره عمرو أولاً كان يقع فى نقطة تلاقى أول شارع نوبار بشارع الخليج المصرى (بور سعيد) بالسيدة زينب حيث كان النيل يعبر فى ذلك الوقت فى مسار شارع الخليج حالياً أو قريباً منه عدة أمتار ^(١) ، ثم انحسر النيل بعد ذلك وعمل فم الخليج فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب فى مكانه الذى يمثل الآن ميدان فم الخليج ^(٢) .

وكان الخليج يخرج من فمه ليسير باتجاه الشرق حتى ميدان السيدة زينب حالياً ثم يسير باتجاه الشمال مخترباً ميدان باب الخلق فميدان باب الشعبة والظاهر والوايلى والطرية وعين شمس . هذا

= صبح الاعشى جـ ٣ ص ٣٠٢ ، السيوطى ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ١٥٦ - ١٥٨ ، فتح العرب لمصر ، تعريب مصر فريد أبو حديد (ط ٢ القاهرة ١٩٤٦ م) ص ٢٥٤ .

Weil, Geschichte Der Chalifen Mannheim, 1846, I, P. 130 - 145.

(١) بالنظر إلى خريطة القاهرة للآثار الاسلامية نثبت أن مسار الخليج الذى يمثل الآن شارع الخليج المصرى (بور سعيد) به انشاء عند التقاء الآن بأول شارع نوبار ، وتمثل تلك الانشاء مرحلة مد الخليج إلى فمه الحالى بميدان فم الخليج فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب .

* وقد قال المقرئى فى هذا الشأن (الخطط جـ ٢ ص ١٠٩) «أن أول الخليج الكبير عند وضع القساهرة (أى سنة ٣٥٨هـ) بجانب خط السبع سقايات وكان ما بين هذا الخط وبين المعاريح بمدينة مصر غامراً بماء النيل» . وقال المقرئى أيضاً (الخطط جـ ٢ ص ١٤٦) «أن قنطرة عبدالعزيز بن مروان كانت فى طرف القسطاط بالحرماء القصوى بناها سنة ٦٩ هـ وموضعها خلف السبع سقايات على فم الخليج الكبير» .

وقال المقرئى أيضاً (الخطط جـ ٢ ص ١١٦) «أن خط السبع سقايات عرف فى العصر المملوكى بحكر اقينا وفى هذا الحكر كانت تقع قنطرة عبدالعزيز بن مروان» .

* وذكر المرحوم محمد رمزى بناءً على ما قاله المقرئى «أن خط السبع سقايات الذى عرف بحكر اقينا مكانه اليوم المنطقة التى فيها حارة السيدة زينب وفروعها وجنيته لاط وشوارعها ، وأن النيل كان يعبر وقت الفتح الاسلامى فى الجهة الغربية من جنيته لاط حيث الطريق المسماة بشارع بنى الأزرق وما فى امتداده جنوباً وشمالاً ، وشارع بنى الأزرق يقع الآن بين شارع الوافدية وشارع الخليج المصرى (بور سعيد حالياً) وأن فم الخليج المصرى كان فى ذلك الوقت واقعاً حذاء مدخل الشارع المذكور من جهة شارع الخليج أى نقطة التقاء شارع نوبار بشارع الخليج بالتحديد كما ذكرت أعلاه . انظر : تعليق محمد رمزى على النجوم الزاهرة ، جـ ١١ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

(٢) المقرئى ، الخطط جـ ٢ ص ١٤٦ .

فى حدود مدينة القاهرة - ثم وادى الطميلات حيث الحصوص وسرياقوس والخانكة بمحافظة القليوبية ثم إلى أبى زعبل والعباسة بمحافظة الشرقية ثم إلى الاسماعيلية حيث ينكسر جنوباً إلى بحيرة التمساح ويخترق البحيرات المرة حتى يتهى جنوباً خليج السويس عند مدينة السويس . (١)

ولما أنحسر النيل أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب جعل فم الخليج فى موضعه الحالى بميدان فم الخليج شمال مصر القديمة بجوار سواقى مجرى العيون ، وتم حفر الخليج من هنا حتى موضع فمه القديم عند التقاء أول شارع نوبار بشارع الخليج المصرى (بور سعيد حالياً) .

ثم لم الخليج بعد ذلك فيما بين مصبه بالسويس حتى صار يتهى إلى العباسة بالشرقية حتى وقت الحملة الفرنسية على مصر ، وبعد حفر ترعة الاسماعيلية فى عهد الخديوى اسماعيل صار يتهى عند أبى زعبل .

ويبلغ طول الخليج بحدود مدينة القاهرة الكبرى ٤٦٢٠ كم من نقطة منبعه بميدان فم الخليج حتى أبى زعبل ، ويبلغ عرضه من خمسة إلى خمسة عشر متراً وعرضه المتوسط بالقاهرة نحو عشرة أمتار ، وأقل من ذلك بعدها ، وكان ارتفاع الماء به فى أيام الفيضان ستة أمتار وعشرين سنتيمتر (٢) ، ولم يكن للخليج رصف إذ أن المنازل المطلة عليه تكون غاطسة فى الماء . (٣)

تاريخ الخليج حتى ردمه سنة ١٨٩٨ م :

استعمل الخليج كخط ملاحى هام يربط مصر بالبحر الأحمر زمن الدولة الأموية وقد استعمل فى نقل الحجاج . (٤)

ولما كان له من أهمية استراتيجية كبيرة فقد أمر الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور واليه على مصر فى سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م بدم الخليج قبيل اتصاله بالبحر الأحمر لمنع وصول المؤن من مصر إلى الحجاز لأن المدينة المنورة كانت تتوج بثورة يتزعمها الثائر

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ١٢٣ .

Quatremère, Mémoires Geographiques et Historiques Sur L'Egypte Paris 1811 I, P. 176.

(٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ج ١٨ ص ١٢٣ - ١٢٤ .

Tossour (o), Memoire Sur L'histoire du Nil, L'institut D'Egypte, Le Caire 1925 Tome 2, P. 230 - 232.

(٣) جومار ، وصف مدينة القاهرة ص ١٥٧ .

(٤) البيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ .

العلوى الملقب بالنفس الذكية^(١) ثم أهمل الخليج بعد ذلك وغلب عليه الرمل وانقطع وصار متناهياً إلى بحيرة التماسح .^(٢)

وفى العصر الفاطمى أصبح للخليج أهمية عظمى لأنه كان المورد الرئيسى لإمداد القاهرة بالماء وقت الفيضان ، لذا خصص الخلفاء الفاطميين للخليج والى بمفرده يتولى شئون حفره ونظافته على السدوم^(٣) ، وكانت الدولة تتحمل النفقة ، إلا أنه فى مدة خلافة الأمر بأحكام الله (٤٩٥) - ٥٢٤هـ / ١١٠٢ - ١١٣٠م) جعل وزيره المأمون الطائى (تولى الوزارة من ٥١٥ هـ - حتى / ٥٥٩ ١١٢١ - ١١٢٥م) مصاريف حفر الخليج على الناس أصحاب البيوت والبساتين على الخليج^(٤) ، وقد كان منتشراً على طول الخليج فى العصر الفاطمى عدد كبير من القرى^(٥) ، واستمر الأهالى يتحملون النفقة فى حفر ورعاية الخليج فى زمن الدولة الأيوبية .^(٦)

وفى العصر المملوكى بالرغم من كون الخليج منتزهاً كبيراً إلا أنه كان يسوده الإهمال أحياناً ، فقد قل فى ذلك العصر الاهتمام بحفر الخللجان وإقامة الجسور عليها لتحضى القاهرة من الغرق فى حالة حدوث فيضان كبير^(٧) ، إلا أن بعض السلاطين المعمرين كانوا يهتمون بحفر الخليج وعمل الجسور عليه وإنشاء وإصلاح القناطر بطوله ، ومن أهمهم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى قاد نهضة عمرانية كبيرة للقاهرة وأعاد حفر الخليج وأنشأ عدة قناطر عليه أثناء حفره للخليج الناصرى .^(٨)

ومن السلاطين الذين اهتموا بحفر الخليج السلطان الملك الأشرف برسباى فى أيامه تم تطهير

(١) هو عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن ابي طالب .

(٢) ابن عبدالحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٢ . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٣٠٢ المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٣٩ ، ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٤ .

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٤ . القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج ٢ ، ص ٣٠٣ . السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٨٨ .

(٥) ذكر ناصر خسرو الذى أقام بمصر فيما بين سنتى ٤٣٧ هـ و ٤٤٤ هـ / ١٠٤٥ - ١٠٥٢ م أنه يمتد على طول الخليج ٣٠٠ قرية ، وبالرغم من مبالغات ناصر خسرو إلا أن ذلك يدل على امتداد العمران على طول الخليج لمسافة كبيرة وازدياد أهمية الخليج حينئذ . انظر : ناصر خسرو ، سفرنامه ، ص ٥٠ .

(٦) ابن المقفع ، تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية ، ج ٤ ، ص ٥٦ .

(٧) نظراً لعدم الاهتمام بعمل جسور للخليج أن غرقت دور وبساتين الحسينية سنة ٧٧٨ هـ / ١٣٧٦ م ونتج عن ذلك تكون بعض البرك على جانبي الخليج هناك مثل بركة الشيخ نمر وبركة قراجا وغيرها . انظر :

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٦٩ . السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٨٧ ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ١٦٥ - ١٦٦ .

(٨) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٥ - ١٥٠ .

الخليج وقطع أرضه سنة ٨٣٨ هـ / ١٤٣٣ م^(١) ، وأيضاً اهتم المعمر الملك الأشرف قايتباي بحفر الخليج فتم ذلك في محرم سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م على يد الدوادار الكبير الأمير يشبك واشترك في ذلك العمل خلق كثير .^(٢)

كذلك كان السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى أكثر السلاطين اهتماماً بالتشزّه والمتزهات ، ومنها الخليجان فقد أمر عدة مرات بقطع الخليجان ففي شهر ذى القعدة سنة ٩٠٩ هـ / ١٥٠٤ م بقطع الخليجان قدر ثلاثة أزرع ونصف ، وكان ذلك يتم على نفقة أصحاب الأملاك عليها^(٣) ، وكان يتم مصادرة من يعجز منهم ، وفعل نفس الشيء في محرم سنة ٩١٧ هـ / ١٥١٢ م^(٤) ، وفي ربيع الآخر سنة ٩١٧ هـ وكان المشرف على ذلك حاجب الحجاب .^(٥)

وفي العصر العثماني حدث ما كان يحدث في العصر المملوكي ما بين الاهتمام بالخليج فترة أو اهماله فترات ، ومن الولاة الذين اهتموا بحفره مقصود باشا الوزير (١٠٥٢ - ١٠٥٣ هـ / ١٦٤٢ م - ١٦٤٣ م) الذي أمر بقطع الطين منه فقطع من أرضه ستة أزرع وكذلك من الخليج الناصري .^(٦)

ويبدو أن الخليج في أواخر العصر العثماني كان يتم تنظيفه عاماً بعد عام حسبما ذكر الرحالة «نيبور» الذي زار مصر في سنى ١١٧٥ هـ - ١١٧٦ هـ / ١٧٦١ - ١٧٦٢ م^(٧) ، وكان يوكل بأمر حفر الخليج إلى مقاول ولكن نظراً للفساد الإداري الذي كان يسود نظام الحكم في ذلك الوقت كان العمل على تنظيف الخليج يتم بصورة غير مرضية حيث يتم رشوة المسئولين بالقاهرة .^(٨)

وقد كان الخليج يسد في الشتاء ويتم تطهيره قبل الاحتفال بكسره أى قبل شهر أغسطس ، وكان تراكم الطمي يمنع جريان الماء في الخليج مما يعوق الملاحة به فإذا اشتد بادر الولاة بحفر الخليج وكان الأهالي هم الذين يتحملون النفقة .^(٩)

وكانت تنتشر على طول الخليج تلال مرتفعة كبيرة تكونت من الطين الذي يستخرجونه عاماً بعد عام عند تطهيره^(١٠) .

- (١) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج ٣ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .
- (٢) ابن تنرى بردى ، حوادث الدهور ، ج ٣ ، ص ٦٧٣ .
- (٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦٣ .
- (٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢١١ .
- (٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٢٨ - ٢٢٩ .
- (٦) البكري ، الروضة المأثورة في اخبار مصر المحروسة (مخطوط بدار الكتب رقم ٢٢٦١ تاريخ) ، ص ٤٣ ، أحمد شلبي ، أوضح الاشارات ، ص ١٥٠ ، ابن الوكيل ، تحفة الاحباب (مخطوط) ، ص ١٥٩ .
- (٧) رحلة إلى مصر ، ص ٢٣٨ .
- (٨) نفسه ، ص ٢٢٤ .
- (٩) اندريه ريمون ، فصول من التاريخ الاجتماعى ، ص ٤٧ .
- (١٠) نيبور ، رحلة إلى مصر ، ص ٢١٤ .

ونظراً لتلوث الخليج وعدم المحافظة على نظافته ، وقيام شركات توصيل المياه إلى المنازل فقد تم ردم الخليج فيما بين سنتي ١٨٩٦ ، ١٨٩٨ م . بعد تاريخ طويل حافل .

العمارة على الخليج :

كانت العمارة على الخليج مرتبطة بإنشاء مدينة القاهرة ، واتصفت بالتأنق والثراء ، وخصصت لأغراض الترفيه والتفرج أولاً حيث بنى الخلفاء والوزراء والأمراء والاعيان عدة قصور ومناظر على الخليج وكانوا يقيمون فيها أيام الفيضان النيل وامتلاء الخليج بالماء ، ثم اختطت بعض الحارات على الخليج بعد ذلك إلا أنها كانت تتخرب أحياناً بفعل الأزمات والمحن التي كانت تعم مصر في ذلك الوقت . (١)

وفي العصر الأيوبي اتصلت المباني الجميلة ذات الطبقات والمقاعد والمناظر المطلة مباشرة على الخليج بطول مدينة القاهرة . (٢)

وفي العصر المملوكي بنى السلاطين والأمراء والأثرياء المنشآت الدينية والاجتماعية والمدنية على الخليج والذي بقى منها للآن يدل على عظمتها وأهميتها ، كما امتد التعمير للضفة الغربية للخليج وكانت من قبل مجرد بساتين وأراضى زراعية فحكرت وتكونت الخطط غربى الخليج وأصبح الخليج نفسه ينتصف القاهرة بعد أن كان يمثل حدها الغربى . (٣)

وفي العصر العثماني اكتظ شاطئ الخليج بالمنشآت المدنية والدينية ذات المناظر والمقاعد الحافلة بالمشريات وشغل الحظوظ الرائع ، وكانت تطل مباشرة على الخليج بل كانت أساساتها بمثابة أرصفة للخليج ، وقد صور لنا الرحالة تلك المنشآت والبيوت على الخليج أبدع تصوير .

القناطر على الخليج :

نظراً للنمو العمراني الكبير للقاهرة في العصر المملوكي حين حكمت الأحكار على الضفة الغربية للخليج أن كثر إنشاء القناطر عليه لتوصل إلى غرب القاهرة ، وكان لتلك القناطر والتي يعود أغلبها للسلطان الناصر محمد بن قلاوون أثرها الكبير في تعجيل ونمو وازدياد التعمير بسرعة على الضفة الغربية للخليج التي كانت معظم أراضيها بساتين وحقول ، وقد كانت هذه القناطر موضع تنزه القاهريين في العصرين المملوكي والعثماني .

(١) المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) ابن سعيد ، المغرب ص ٣١-٣٢ ، المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٤٤ .

(٣) المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١١٣ - ١٢١ .

وقد بلغ عدد القناطر على الخليج فى العصر المملوكى حتى منتصف القرن ٩ هـ / ١٥ م ، ١٤ قنطرة حسب حصر المقرئى^(١) ، واستجدت ٤ آخر فى العصر العثمانى ، كما استجدت ٦ قناطر فى عصر أسرة محمد على وبذلك يكون مجموع القناطر على الخليج حتى ردم ٢٤ قنطرة .

ومن هذه القناطر الأربعة عشرة التى ذكرها المقرئى واحد فقط أنشئت فى عهد الفاطميين وأربع أنشئت فى عهد الأيوبيين ، وتسع قناطر فى عهد المماليك ، واحد منها ترجع للظاهر بيبرس وسبع للناصر محمد بن قلاوون وواحد ترجع لولده الصالح صلاح الدين .

وأحياناً كانت تقام القناطر وتندثر ولا يقام مكانها أخرى ، وكان للسلطان الغورى فضل كبير فى تعمير معظم هذه القناطر ، كذلك أعيد ترميم كثير من هذه القناطر على يد الحملة الفرنسية .^(٢) وكانت مادة بناء هذه القناطر الأحجار المهدبة ، وكانت أغلبها تتكون من عقد واحد وبعضها من اثنين أو ثلاثة ، وهذه العقود كانت ذات قطاع مدبب .^(٣)

وقبل أن نستعرض تلك القناطر لابد من الإشارة إلى أول قنطرة أنشئت على الخليج وهى قنطرة عبدالعزيز بن مروان ، والتى لم يكن لها وجود فى العصر المملوكى .

قنطرة عبدالعزيز بن مروان :

ذكر المقرئى نقلاً عن القضاء أنها كانت تقع فى طرف القسطاط بالحمام القصى ، بناها عبدالعزيز بن مروان والى مصر فى سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م ، وموضعها خلف السبع سقايات على قم الخليج الكبير ، وكان المرور على هذه القنطرة بين الحمام القصى وجنان الزهرى .^(٤) ويثل موضع هذه القنطرة الآن نقطة كانت على الخليج مواجهة لشارع بنى الأزرق ، المتفرع من شارع الخليج المصرى (شارع بور سعيد حالياً) .

(١) الخطط ، ج ٢ ص ١٤٦ .

(٢) الجبرتى ، عجائب الآثار ج ٢ ، ص ٤٣٤ .

(٣) جومار ، وصف مدينة القاهرة ص ١٦٦ .

(٤) الخطط ، ج ٢ ص ١٤٦ .

* وخطط السبع سقايات هو الذى عرف بحكر أقبغا فى العصر المملوكى ومكانه اليوم المنطقة التى فيها حارة السيدة

رينب وفروعها وما يقع بجنوبها من أرض جنية ناميش بالسيدة .

* أما جنان الزهرى فيمثل موضعها اليوم منطقة المبتديان والناصرية بالسيدة رينب .

وقد كان بناء هذه القنطرة أمر هام استحق تسجيل المؤرخين لنص انشائها ف سجلوه . (١)
وقد حدثت عدة عمارات لهذه القنطرة ففي سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م زاد فيها تكين أمير مصر
حينئذ ، ثم زاد في بنائها الأخشيد في سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٣ م . (٢)
ثم عمرت كذلك في أيام الخليفة الفاطمي العزيز بالله سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٦ م ، وهذه
القنطرة هي التي كانت تفتح عند السد ويجرى الاحتفال عندها عند وفاء النيل زمن الخلفاء
الفاطميين (٣) ، فلما انحسر النيل عن ساحل مصر في العصر الأيوبي اهتمت هذه القنطرة وضاعت
معالمها بعد ذلك . (٤)

أما القناطر الموجودة زمن المماليك فهي كالتالي مرتبة من الجنوب للشمال :

قنطرة السد :

كانت هذه القنطرة تصل بين البر الشرقي للخليج حيث كان خط الحمراء قديماً بالبر الغربي الذي
يقع به بستان الخشاب حيث منشأة المهراني التي تؤدي القنطرة إليها . (٥)
ومكان هذه القنطرة الآن على شارع الخليج المصري في النقطة التي يتلاقى فيها مع شارع على
باشا ابراهيم (شارع مدرسة الطب سابقاً) .

وقد أنشأ هذه القنطرة الملك الصالح نجم الدين ايوب في سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م (٦) ، وكان

-
- (١) كتب على هذه القنطرة «هذه القنطرة أمر بها عبدالعزيز بن مروان . اللهم بارك له في أمره كله وثبت سلطانه على ما
ترضى وأقر عينه في نفسه وحشمه آمين وقام بينائها سعد أبو عثمان وكتبه عبدالرحمن في صفر سنة تسع وستين» .
المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ١٤٦ .
(٢) المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ١٤٦ .
(٣) ابن ايسك الدوادري ، كنز الدرر ج ٦ ص ١٧٥ ، القلقشندي ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٣ ، المقريزي ،
الخطط ج ٢ ص ١٤٦ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٣٨٨ .
(٤) محمد رمزي ، تعلية على التجوم القاهرة ج ٧ ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .
(٥) المقريزي ، الخطط ج ٢ ص ١٤٦ .

- * وعن بستان الخشاب انظر ما سبق من ٥١ ، وعن منشأة المهراني انظر ما سبق من ٤٦ .
(٦) ذكر المقريزي في الخطط ، ج ٢ ص ١٤٦ «أن الملك الصالح أنشأ قنطرة السد في اعوام يضع وأربعين وستمائة» .
ويبدو أن المقريزي لم يكن قد توصل إلى التاريخ الصحيح لانشائها أما في كتابه السلوك ، ج ١ ص ٣٠٥ ، فقد
عدل المقريزي تاريخ انشاء القنطرة بعد أن توصل إليه بالضبط فقال : «أنه في رابع عشر محرم ٦٣٨ هـ شرع
السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب في بناء القنطرة التي على الخليج الكبير المجاور لبستان الخشاب والتي تعرف
اليوم بقنطرة السد خارج مدينة مصر» .
وهذا التاريخ هو ما ذكره ابن المقفع في كتابه تاريخ بطاركة الكنيسة المصرية ج ٤ ص ١٠٨ .

لهذه القنطرة عقدان وقد انشأها ^(١) ، وقد عرفت بأسم قنطرة السد بسبب وجود السد الترابي الذي يعمل سنوياً في هذا المكان حتى تنتهي زيادة النيل إلى ١٦ ذراعاً فيفتح حينئذ . ^(٢)

قنطرة السد في العصر العثماني :

حدث تعديل معماري على القنطرة في العصر العثماني نتيجة للإصلاحات التي كانت تتم دائماً للقناطر فأصبحت ذات عقد واحد ، كما صوره لنا الرحالة نوردون في رسمه للاحتفال بكسر سد الخليج . ^(٣)

كذلك ذكر في محاضر لجنة حفظ الآثار العربية أن هذه القنطرة تتكون من عقد واحد سيتني من الحجر يرجع للعصر العثماني إذ وجد على جسم القنطرة أسدان منحوتان برداء تشبه الأسود التي كانت على سور مجرى العيون ، وتم نقلها لمتحف الفن الإسلامي . ^(٤)

وقد وقع نيور هذه القنطرة في خريطته باسم قنطرة الجنيئة ^(٥) ورمز لها بالحرف b كما وقعت في خريطة الحملة الفرنسية باسم قنطرة الجير برقم ٢٧٨ في المربع Y14 ، كما عرفت في القرن ١٩ م باسم قنطرة الماوردي نسبة لضريح سيدي محمد الماوردي المجاور لها . ^(٦)

قناطر السباع :

تلي هذه القناطر قنطرة السد ، وكانت تصل بين خط السبع سقايات من جهة الحمراء القصوى وجانبها الآخر من جهة جنان الزهري ^(٧) . ومكانها الآن بميدان السيدة زينب وقد وقعها نيور في خريطته ورمز لها بالحرف c ، كما وقعت في خريطة الحملة الفرنسية وكانت عبارة عن قنطرتين الأولى برقم ١٦٢ في المربعين 12, 13 U وتصل بين شارع السد وشارع الكومي ، والقنطرة الثانية برقم ١٦٠ في المربع 12 U وتصل بين شارع مراسينا (الجسر الأعظم) وشارع الكومي ، وبقيت هذه

(١) المقریزی ، الخطط ج ٢ ص ١٤٦ .

(٢) نفسه .

(٣) Nordon, Voyage D'Egypte et De Nubia PLXVLL

(٤) محاضر لجنة حفظ الآثار العربية المجموعة ٤ لسنة ١٨٩٧ م ص ١٥٠ .

(٥) ذكر سامي نوار في رسالته «المنشآت المائية» ص ١٢٥ «أن نيور سماها قنطرة قم الخليج» ولكن الصحيح هو أن نيور وقعها باسم قنطرة الجنيئة ، وكذلك ذكر الباحث أنها وقعت في خريطة الحملة الفرنسية باسم قنطرة فقط ، ولكن الصحيح أنها وقعت باسم قنطرة الجير .

(٦) محمد رمزي ، تعليقه على التجوّم ، ج ٦ ص ٣٨١ .

(٧) المقریزی ، الخطط ، ج ٢ ص ١٤٦ .

القناطر موحدة ومعروفة بأسم قنطرة السيدة زينب الذى دخل فيه جزء من شارع الكومى وجزء من شارع مرسينا . (١)

وأول من أنشأ قناطر السباع السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ونصب عليها سباعاً حجرية لأنه كان متخذاً القنطرة (السبع) رنكاً (شعاراً) له ، ولهذا قيل لهذه القناطر قناطر السباع (٢) ، وكانت منذ إنشائها لأول مرة تتكون من أكثر من عقد حيث قيل لها قناطر وليس قنطرة ، وقد عرف الحى الذى به حيث خط قناطر السباع وظلت هذه التسمية مستخدمة فى العصرين المملوكى والعثمانى ، ثم عرف بعد ذلك بحى السيدة زينب نسبة لجامع وضريح السيدة زينب .

ثم حدثت عمارة جديدة لقناطر السباع فى زمن الناصر محمد بن قلاوون على يد والى القاهرة شاد الجهاث الأمير علاء الدين على بن حسين المروانى فهدمها وأعاد بنائها من جديد فنقص ارتفاعها ووسعها قدر عشرة أذرع (٣) ، وكان الفراغ منها فى شهر جمادى الأول ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م . (٤)

وقد حدث ترميم معمارى لقناطر السباع فى زمن السلطان قانصوه الغورى حيث أمر فى شهر صفر ٩١٧ هـ / ١٥١١ م بعمارتها لما تشعث وآل أمرها إلى السقوط (٥) ، وقد تعرضت قناطر السباع للتخريب على يد المماليك فى المعارك بينهم وبين العثمانيين فى محرم ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م (٦) ثم عمرت بعد ذلك .

(١) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩١ .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٤٦ ، السلوك ، ج ١ ص ٦٣٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٧ ص ١٩١ .

(٣) ذكر المؤرخون أن السلطان الناصر محمد أمر بهدم تلك القناطر وإعادة بنائها ليزيل السباع الحجرية التى هى رنك الظاهر بيبرس وحيث تنسب القناطر إليه مثلما كان يفعل دائماً فى محو آثار من تقدمه من الملوك حتى يخلد ذكره هو وتعرف الآثار به ، لذلك افتعل الملك الناصر سبباً لعمل ذلك وهو شكواه من تألم ظهره من ارتفاع القناطر حين يعبر إليها فى طريقه للسليمان الناصرى الذى عمله على النيل فى موضع بستان الخشاب حيث موردة البلاط ، ولما هدمت القناطر وأعيد بناؤها من جديد لم توضع عليها السباع الحجرية ، لذلك تحرك المجلس السياسى للعامة للتكلم فى ذلك الموضوع وكثر اللغط بينهم ، لذلك أخبر الأمير الطنبغا الماردانى الناصر محمد بما يقوله العامة من تعمله إزالة آثار الملك الظاهر لذلك تفضايق الناصر محمد فأمر بإعادة السباع على القنطرة مرة أخرى وظلت كذلك حتى شوه صورها الشيخ محمد صائم الدهر مثلما فعل بوجه أبو الهول . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٤٦ - ١٤٧ . السلوك ، ج ٢ ص ٣٨٥ . ابن حجر ، انباء الغمر ، ص ٣٠١ .

(٤) المقرئى ، نفسه .

* بينما ذكر الشجاعى فى كتابه تاريخ الملك الناصر ص ١٨ أنه انتهى من بناء القناطر فى سنة ٧٣٨ هـ .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ص ٢١٥ .

(٦) نفسه ، ج ٥ ص ١٥٤ .

وقد ذكر «النابلسي» في رحلته التي رار فيها مصر سنة ١١٠٥ هـ / ١٦٩٤ م قناطر السباع وكانت السباع لا تزال موجودة عليها فقال . . فمررنا على المكان المسمى بقناطر السباع فوجدنا هناك صورة سبعين اثنين من الحجارة على قناطر لها بالخليج استدارة ^(١) . وقد ظلت قناطر السباع قائمة حتى ردمت مع الخليج سنة ١٨٩٨ م .

قنطرة عمر شاه :

تلى هذه القنطرة قناطر السباع وكانت تقع أمام حارة عمر شاه ^(٢) التي بالجانب الغربي للخليج المواجهة لجامع تراز (أثر رقم ٢١٦) الذي يقع بالجانب الشرقي للخليج شمال ميدان السيدة زينب .

وقد أنشأها الأمير عمر شاه ^(٣) حوالى سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م ^(٤) ، وقد وقعت هذه القنطرة فى خريطة نيسور ورمز لها بالحرف d ، كما وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ١٠٥ فى المربع T 11 ، وظلت موجودة حتى ردمت مع الخليج سنة ١٨٩٨ م ، وكانت تسمى قنطرة عمارشة تحريفاً لكلمة عمر شاه .

قنطرة طقز دمر «قنطرة درب الجمامين» :

تلى هذه القنطرة قنطرة عمر شاه وكانت تقع على الخليج تجاه مدخل شارع قنطرة درب الجمامين الموصل إلى حارتى السلطان الحنفى والهياتم ^(٥) جنوب شارع مجلس الشعب بحوالى ٢٠ متراً .

(١) الحقيقة والمجاز ، ص ٢١٥ .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٤٧ ، محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢٨٥ .

(٣) تولى الأمير عمر شاه عدة وظائف هامة فى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون وأولاده الذين حكموا بعده ، منها وظيفة سلاح دار ووظيفة الخاجب وآخر مناصبه نائب حماء التى عزل عنها فى شهر ذى القعدة سنة ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م ولم تذكر أخبار عنه بعد تلك السنة انظر :

* المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ص ١٤٥ ، ١٦٠ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ص ٣٨٤ - ٣٨٥ ، ج ١

ق ٢ ص ٤٣ ، ٦٠ ، ٧٦ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٨٥ .

(٤) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم ، ج ١٠ ص ٢٨٥ .

* لم يذكر المقرئى تاريخ انشاء هذه القنطرة .

(٥) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ١٩٥ .

وقد أنشأها الأمير طقزدمر^(١) على الخليج حوالى سنة ٧٣٠هـ ليعبر منها إلى حكره بالبر الغربى للخليج^(٢) .

وقد اشتهرت هذه القنطرة أيضاً باسم قنطرة درب الجماميز نسبة لوجود أشجار عظيمة من الجميز معروفة بجماميز السعدية كانت موجودة منذ العصر المملوكى^(٣) ، وقد وقعت فى خريطة نيبور ورمز لها بحرف e كما وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٤٧ فى المربع R-10 ، وظل هذه القنطرة موجودة على الخليج حتى ردمت معه سنة ١٨٩٨ م .

قنطرة آق سنقر:

تلى هذه لاقنطرة قنطرة عمر شاه ، وقد ذكر المقرئى عنها أنها ' يتوصل إليها من خط قبر الكرمانى ومن حارة البديعين التى تعرف اليوم بالحبيانية ويمر من فوقها إلى بر الخليج الغربى ' .^(٤) ومكانها اليوم على شارع الخليج تجاه مدخل شارع اسماعيل باشا أبو جبل (شارع درب الحاجر سابقاً)^(٥) .

(١) الأمير طقز دمر الحموى الكرمانى نائب السلطنة بديار مصر ودمشق فى سلطنة الناصر محمد قلاوون ، وكان له بجانب حكره دار كبيرة على بركة الفيل محلها الآن المدرسة الخديوية وقد مات طقز دمر فى ليلة الخميس مستهل جماد الآخرة سنة ٧٤٦هـ .

المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ١١٦ ، ١٤٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٥٤٣ .

(٢) حكر الأمير طقز دمر ذكره المقرئى فقال " هذا الحكر كان بستاناً مساحته نحو الثلاثين فدناً فاشتره الأمير طقز دمر الحموى نائب السلطنة بديار مصر والشام ، وأذن للناس فى البناء عليه فحكروه وأنشأوا به الدور الجلييلة واتصلت عمارة الناس فيه بساتر العمائر من جهاته وأنشأ الأمير طقز دمر فيه أيضاً على الخليج قنطرة ليمر عليها من خط المسجد المعلق إلى هذا الحكر ، وصار هذا الحكر مسكن الأمراء والأجناد وبه السوق والحمامات والمساجد وغيرها ، وهو مما عمر فى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون " .

الخطط ، ج ٢ ص ١١٦ .

* وهذا الحكر يابى ٤٠ فدناً بفدان هذه الأيام ويشغل مكانه الآن المنطقة التى تحد شمالاً بسكة سوق مسكة ومن الغرب بشارع الناصرية ومن الجنوب بحارة قوارير وعطفة مرزوق ، وهذا هو الحد الفاصل قديماً بين هذا الحكر وبين حكر قوصون ومن الشرق بشارع الخليج المصرى بالقاهرة انظر :

على مبارك ، الخطط التوقيفية ، ج ٣ ص ٩٣ ، محمد رمزى ، تعليق على النجوم ، ج ٩ ، ص ١٩٥ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ص ١١٥ .

(٤) الخطط ، ج ٢ ص ١٤٧ .

* يمثل خط قبر الكرمانى الآن شارع درب الجماميز .

(٥) محمد رمزى ، تعليق على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٠٩ .

وقد عمرها الأمير آق سنقر^(١) حوالى سنة ٧٢٥هـ ، عندما أنشأ جامعة على البركة الناصرية بسوق السباعين^(٢) .

وقد وقعت بخريطة نيور ورمز لها بحرف F ، كما وقعت بخريطة الحملة الفرنسية برقم ٦٩ فى المربع P 10 وقد اختصر اسمها إلى قنطرة سنقر فقط .

قنطرة باب الخرق :

تلى هذه القنطرة قنطرة آق سنقر ، وكانت تقع فى نقطة تلاقى محور شارع تحت الريع بشارع الخليج بميدان باب الخلق^(٣) .

وكان موضع هذه القنطرة ساحلاً وموردة للسقائين فى أيام الخلفاء الفاطميين ، وقد أنشأ هذه القنطرة الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م^(٤) ليمر عليها إلى الميدان السلطاني الذى أنشأ بأرض اللوق وعمر به المناظر ، وكانت تعرف بقنطرة باب الخرق^(٥)

(١) هو الأمير آق سنقر احد امراء الناصر محمد ، تقلد عدة مناصب منها شاد العمارات السلطانية أى المباشر لعمارات السلطان فأقام بها مدة فائرى ثراء كبراً ثم عزل وصودر وأخرج إلى حلب ، ثم نقل منها إلى دمشق فمات بها سنة ٧٤٠هـ ، وهو صاحب جامع آق سنقر بالناصرية الذى كان قد أوقف عليه عدة أوقاف وكان قد أنشأ أيضاً داراً جليلة وحمامين بخطط البركة الناصرية اندثرت الآن وكان حمام منهما عامراً فى القرن الماضى كما ذكر على مبارك .
انظر :

المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٠٩ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ١ ص ٣٩٣ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ص ٩٤ .

(٢) جامع آق سنقر كان يعرف بالجامع الأخضر ويعرف الآن بجامع سيدى محمد أبو طبل بمنطقة حارة السقاين .
عنه ، انظر :

المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٠٩ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٥ ص ٥٢ - ٥٣ .

(٣) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ١١ ص ٧٦ - ٧٧ .

(٤) المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٤٧ .

* يذكر ابن المقفع فى كتابه " تاريخ بطارقة الكنيسة المصرية " ج ٤ ، ص ١٤٤ ، أنها انشئت سنة ٦٤٠هـ .

(٥) قبل لهذه القنطرة بساب الخرق لأنها كانت تجاه أرض زراعية واقعة على الجانب الغربى للخليج وكانت هذه الأرض تخرقها الرياح لاستوائها فعرفت القنطرة باب الخرق .

المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ١٤٧ .

* وكان الميدان الذى فيه القنطرة يعرف بميدان باب الخرق ، ونظراً لاستهجان كلمة الخرق استبدلت هذه الكلمة فى أيام الخديوى اسماعيل واطلق على الميدان اسم ميدان باب الخلق لكثرة إزدحام الناس المارين فيه كما اطلق على القنطرة قنطرة باب الخلق .

انظر : محمد رمزى ، تعليقه على النجوم ، ج ١١ ص ٧٦ .

وقد وقعت هذه القنطرة فى خريطة نيبور ورمز لها بحرف H ، كما وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ١٥ فى المربع M9 ، كما وقع باب الخلق نفسه برقم ١٦ فى المربع M9 .
وقد بقيت هذه القنطرة فى مكانها على حالها إلى أن فتح شارع محمد على (القلعة حالياً) سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م . وكان على باشا مبارك ناظراً على ديوان الأشغال فى ذلك الوقت فهدمت القنطرة وعملت بدلها قنطرة جديدة فى عرض شارع محمد على ^(١) ثم ما لبث أن ردمت مع ردم الخليج بعد ذلك .

قنطرة الأمير حسين :

تلى هذه القنطرة قنطرة باب الخرق ، وهى تقع بباب الخلق تجاه مدخل حارة الأمير حسين ^(٢) التى تقع بالجانب الغربى لشارع الخليج فى مواجهة شارع الاستئناف الذى يقع شمال محكمة جنوب القاهرة الابتدائية حالياً .

وقد أنشأها الأمير حسين ^(٣) فى أواخر سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م ليتوصل منها إلى جامعة ^(٤) التى كان قد أنشأ قبلها بشهور بحكر جوهر النوبى ^(٥) غربى الخليج ، ثم عقب بناء الجامع والقنطرة فتح

(١) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ص ٧٩ .

أمين سامى ، تقويم النيل ، ج ٣ ص ١٠١٩ ، ١١٧٩ .

(٢) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٦٣ .

(٣) هو الأمير حسين بن اسماعيل بن جندير بك الرومى ، كان من كبار الامراء أيام الناصر محمد بن قلاوون ، وقد توفي سنة ٧٢٩هـ / ١٣٢٩م ودفن بجامعة . انظر :

المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٤٧ ، ١٤٧ ، ٣٠٧ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ٢ ص ٥٠ - ٥١ ، ابن تفرى يردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٢٧٦ .

(٤) جامع الأمير حسين انشئ سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م ، وهو يقع بحارة الأمير حسين المتفرعة من شارع الخليج (بووسعيد) بالمناصرة ، وهو مسجل أثر رقم ٢٣٣ ، وكان متهدماً فى القرن الماضى فجددته لجنة حفظ الآثار العربية ، وهو مبنى على نظام الجوامع ذات الأروقة والصحن فمسقطه يتكون من صحن أوسط وبأبواب القبلة ثلاثة أروقة ورواق حول كل ضلع من الاضلاع الثلاثة الأخرى للصحن ، وللجامع مثلثة وقبة دفن بها الأمير حسين . انظر : المقريزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٣٠٦ - ٣٠٧ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٤ ص ٢٠٣ .

كراسات لجنة حفظ الآثار العربية ، الكراسة الثانية ، التقرير التاسع ، سنة ١٨٨٤م ، ص ٢٩ - ٣٠

Creswell Brief Chronology , BIFAO XVI (Le Caire 1919) P.95

(٥) حكر جوهر النوبى ذكر عنه المقريزى أنه كان يقع تجاه حارة الوزيرية من بر الخليج الغربى شرقى بستان العدة المعروف اليوم بغيط العدة بباب الخرق ومارال بستاناً إلى سنة ٦٦٠هـ / ١٢٥٩م فحكر وبني أيام الظاهر بيبرس وعرف بجوهر النوبى أحد أمراء الملك الكامل الأيووبى ، وقد كان هناك طريقاً يصل الحكر من عند جامع الأمير حسين إلى حارة الوزيرية عند قنطرة الأمير حسين . الخطط ، ج ٢ ص ١١٩ .

* ويثل هذا الحكر الآن منطقة المنصورة فى المسافة المحصورة بين شارع الأزهر شمالاً وشارع سامى البارودى جنوباً .

الأمير حسين خوخة^(١) فى سور القاهرة الغربى على رأس حارة الوزيرية ليسهل له المرور من بيته بحارة الوزيرية فيعدى على قنطرته ليصل إلى جامعہ ، وقد أعقب فتح تلك الخوخة أحداث جسام جرت على الأمير حسين .^(٢)

وقد وقعت هذه القنطرة بخريطة نيبور ورمز لها بحرف I ، كما وقعت بخريطة الحملة الفرنسية تحت رقم ١٠ فى المربع 9 L ، وقد ردمت مع ردم الخليج عندما ردم الجزء الأول منه من جهة قنطرة غمره إلى ميدان باب الخرق سنة ١٨٩٧ م .^(٣)

قنطرة الموسكى :

تلى هذه القنطرة قنطرة الأمير حسين وكانت تقع عند نقطة التقاء شارع الخليج بشارع الموسكى . وقد أنشأها الأمير عز الدين موسك قريب السلطان صلاح الدين الأيوبي ، وقد توفى هذا الأمير بدمشق يوم الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٥٨٤ هـ ، وكان من أهل العلم والخير .^(٤)

(١) الخوخة فى العصر المملوكى كانت تطلق على باب من الابواب الصغيرة فى سور المدينة أو على رأس الدروب والأوقه داخل المدينة ، كما كانت تطلق على باب صغير يتوسط بوابة كبيرة من أبواب المدينة يستخدم للاستعمال اليوم فيستغنى عن استعمال الباب الكبير ، وكانت مثل هذه الخوخ لجدها فى ابواب الحصون والأسوار والخانات والوكائل والقصور وغيرها من المباني .

* وكانت خوخة الأمير حسين هذه فى سور القاهرة الغربى على رأس حارة الوزيرية ومكانها اليوم على رأس شارع الاستئناف فى الزاوية الشمالية الغربية لبنى محكمة جنوب القاهرة الابتدائية (محكمة الاستئناف سابقاً) بباب الخلق ، وكان شارع الاستئناف هو مدخل حارة الوزيرية التى تقع بدارب سعادة . انظر :

المقرىزى ، الخطط ، ج ٢ ص ٤٧ ، السلوك ج ٢ ص ٢١٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ص ٦٣ ، عبد اللطيف ابراهيم ، الوثائق فى خدمة الآثار ، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٢) بعد أن أنشأ الأمير حسين جامعة وقنطرته استأذن الملك الناصر محمد بن قلاوون أن يفتح فى سور القاهرة الغربى المشرف على الخليج خوخة على رأس حارة الوزيرية حيث كان يسكن حتى يسهل الوصول وتقرب المسافة بين بيته بالوزيرية إلى جامعة بالبر الغربى للخليج عبر قنطرته فأذن له الناصر فى فتح الخوخة فى السور باباً كبيراً وعمل عليه رتبه ، وفى إحدى جلساته أعاظ والى القاهرة الأمير علم الدين سنجر الخازن بأنه قد فتح خوخة بعد أن منعه آنفاً قبل أن يستأذن الناصر محمد ، فاغتاض والى القاهرة وسعى بالوشاية لدى الملك الناصر محمد فأوغر صدره حيث ذكر أن الأمير حسين فتح باباً كياب زويلة تشبهاً منه بالسلطين ، فغضب الناصر غضباً شديداً ، ورسم بنفى الأمير حسين وأن لا يبيت بالقاهرة منذ ذلك اليوم فنفى من يومه فى محرم سنة ٧٢١ هـ إلى دمشق . انظر :

المقرىزى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٤٦ - ٤٧ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢١٥ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٦٣ .

(٣) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم ، ج ٩ ، ص ٦٣ .

(٤) المقرىزى ، الخطط ج ٢ ص ١٤٧ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ص ٨٣ .

وقد وقعت هذه القنطرة بخريطة نيبور ورمز لها بحرف I كما وقعت كذلك فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٢٣٥ فى المربع I-9

قنطرة باب القنطرة:

تلى هذه القنطرة الموسكى وكانت تقع على الخليج امام مدخل شارع أمير الجيوش الجوانى (شارع مرجوش) .

وقد سميت بهذا الاسم لأنها تقع أمام باب القنطرة ^(١) وعلى الرغم أن الباب سابق فى إنشائه لإنشائها إلا أنه تسمى باسمها فيما بعد ولا ندرى اسمه القديم .

وهذه القنطرة هى ثانياً قنطرة عملت على الخليج بعد قنطرة عبدالعزيز بن مروان ، وقد أنشأها جوهر الصقللى سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م ليعبر البر الغربى ليصل إلى المقس وأرض السطالة أثناء استعداداته لرد غزو القرامطة خارج القاهرة .

وقد ذكر "المقرئى" أن هذه القنطرة كانت عالية بحيث تمر المراكب من تحتها أما فى أيامه فصارت قرية من أرض الخليج لا يمكن للمراكب العبور من تحتها وتسد بأبواب خوفاً من دخول الزعار إلى القاهرة ^(٢) ، وهذا يدل على أن الاعتماد فى النقل والتزهر فى ذلك الوقت صار للخليج الناصرى .

وفى اهتمام الغورى بالمتزهرات اهتم بهذه القنطرة فرمها وعلاها سنة ٩١٧هـ / ١٥١١ بحيث تسير المراكب من تحتها كما كانت أول عهدها . ^(٣)

وقد وقعت هذه القنطرة على خريطة نيبور ورمز لها بحرف M تحت اسم القنطرة الجديدة مما يدل على حدوث ترميم أو إعادة بناء لها فى منتصف القرن ١٢هـ / ١٨م تقريباً ، ووقعت كذلك بنفس الاسم (القنطرة الجديدة) فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٢٦٠ فى المربع G-8 وقد وقعت بحدائهما سكة القنطرة الجديدة برقم ٥٦ فى المربع G - 8

ومما يجدر الإشارة إليه هنا هو أن المؤرخ " ابن عبدالظاهر " ذكر أن السلطان قلاوون بنى قنطرة

(١) باب القنطرة كان أحد ابواب القاهرة فى سورها الغربى الذى أقامه جوهر الصقللى سنة ٣٦٠هـ ، ثم لما أقام صلاح الدين اسوار جديدة للقاهرة سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٥م عمل السور الغربى للقاهرة غرب السور الاول لمسافة ٢٥ متراً وأقام به باباً جديداً باسم باب القنطرة أيضاً فى مواجهة الباب القديم على بعد ٢٥ متراً منه .

وكان هذا الباب على رأس شارع أمير الجيوش الجوانى بجوار سيل سليمان جاروش (اثر رقم ١٦٨) ، وقد هدم الباب قاسم باشا الذى كان محافظاً للقاهرة أيام على باشا مبارك . انظر :

على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) المقرئى الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٧ القلقشنندى صبح الأعشى ج ٣ ، ص ٣٠٣ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢٣٩ .

على الخليج بمباشرة الأمير علم الدين المنصوري ، وانجزت عمارتها في جمادى الآخر سنة ٦٨٤ هـ ، وعن مكانها قال أنها بين باب الخوخة وبين القنطرة . (١)

ونقول أن باب الخوخة هذا هو أحد أبواب القاهرة في سورها الغربى وأصله فاطمى وكان واقعا على رأس قبو الزينة من جهة شارع بين النهرين تجاه جامع القاضي يحيى زين الدين (٢) ، (أثر رقم ١٨٢)

أما القنطرة المذكورة فالمقصود بها قنطرة باب القنطرة التي كانت تقع أمام شارع أمير الجيوش .
فبناءً على ذلك فإن قنطرة قلاوون هذه أغلب الظن المقصود بها قنطرة الموسكى لأنها كانت تقع بين باب الخوخة وبين القنطرة إذ ربما تكون قد هدمت وضاعت معالمها فبنى قلاوون هذه القنطرة مكانها .

أما الاحتمال الثانى فإن المقصود ربما يكون قنطرة أخرى في منتصف المسافة أى شمال قنطرة الموسكى بقليل ، وأن هذه القنطرة قد اندثرت أيام المقرئى فلم يذكرها .

قنطرة باب الشعرية (الخروبي) :

تلقى هذه القنطرة قنطرة باب القنطرة ، وكانت تقع على الخليج بجوار جامع العدوى (٣)
الذى كان على رأس شارع سكة الفجالة وكانت هذه القنطرة خارج أسوار القاهرة ويسلك إليها

(١) ابن عبد الظاهر (محيى الدين أبو الفضل عبد الله) ت ٦٩٢ هـ / ١٢٩٢ م - تشرى الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، تحقيق مراد كامل ط ١ ، القاهرة ١٩٦١ م ، ص ١١٦ .

(٢) محمد رمزى ، تعليق على النجوم الظاهرة ، ج ١١ ، ص ١٤٢ .

(٣) كان جامع العدوى موجوداً إلى وقت قريب بشارع الخليج المصرى وهو موقع على خريطة القاهرة للآثار الإسلامية على الضفة الغربية للخليج مباشرة ، وقد أزيل أثناء توسيع شارع الخليج على يد " إبراهيم بعدادى " عندما كان محافظاً للقاهرة .

* وما يجدر ذكره هنا هو أن " على باشا مبارك " قد تخطى في نسبة هذا الجامع ، ففي الخطط التوفيقية ج ٣ ص ٢٥٦ ذكر الجامع على أنه هو زاوية الشيخ خضر بن أبى بكر بن موسى المهراتى العدوى شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس .
* وفى ج ٥ ص ١١٥ عدل نسبته فنسبه إلى الشيخ عيسى العدوى المدفون به والمدفون معه الشيخ الخروبي .
* وفى ج ٦ ص ١٠٨ ذكر موضعاً آخر لزاوية الشيخ خضر دون أن يشير إلى خطئه السابق في الجزء الثالث فقال أن الشيخ خضر مدفون في زاوية العصياتى التى بشارع البغالة من الحسينية تجاه الدور المظلة على بركة جناح على يسه المار على باب حارة درب عجرور إلى الخليج .

* أما زاوية الشيخ خضر فقد قال عنها المقرئى في خطه (ج ٢ ص ٤٣) " أن هذه الزاوية خارج باب الفتوح من القاهرة بخط زقاق الكحل تشرف على الخليج الكبير ، عرفت بالشيخ خضر بن أبى موسى المهراتى العدوى شيخ الملك الظاهر بيبرس ، بناها له الظاهر في سنة ٦٦٠ هـ ودفن الشيخ خضر بها في سنة ٦٧٦ هـ .

* وقد حقق المرحوم " محمد رمزى " مكان زاوية الشيخ خضر أيضاً فقال " يتضح مما ذكر بالمصادر الخاصة بهذه =

من باب الفتوح وكانت تصل إلى البر الغربى للخليج حيث أرض الطبالة وكانت تعرف أيام المقرئى بقنطرة الخروى . (١)

ولم يذكر المقرئى منشئ هذه القنطرة ولكن المرجح أنها من أعمال صلاح الدين على يد وزيره بهاء الدين قراقوش حين مد سور القاهرة الشمالى فى سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٣م إلى المقس حيث بنى برجاً على النيل بجوار جامع المقسى (جامع أولاد عنان المعروف الآن بجامع الفتح بميدان رمسيس حالياً) .

وقد فتح بهذا السور الشمالى بابين أولهما هو باب الشعيرة (٢) الذى كان يقع غرب جامع العدوى قطعاً شارع سوق الجراية ، والباب الآخر هو باب البحر (٣) الذى كان يقع على رأس شارع فم باب البحر .

وقد قام السلطان الغورى بعمارة هذه القنطرة فرمها سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م وعلاها مقدار ثلاثة أذرع وجعلها ثلاثة عقود . (٤)

أما فى بداية العصر العثمانى فقد ذكر "ابن إياس" فى حوادث شهر ذى الحجة سنة ٩٢٤هـ /

= الزاوية أنها كانت واقعة بزقاق الكحل خارج باب الفتوح وعلى الجانب الشرقى من الخليج المصرى تجاه أرض الطبالة ، وأنها كانت بالقرب من جامع الظاهر بخط الحسينية وأنها كانت موجودة لغاية القرن العاشر الهجرى بدليل أن الشيخ عبدالوهاب الشعرانى الذى توفى سنة ٩٧٣هـ قال : أن قبر الشيخ خضر ظاهر يزار . وبالبحت عن موقع رفاق الكحل يتبين لى من المصادر الصريحة أن مكان هذا الزقاق اليوم الطرق الذى يسمى فى مصلحة التنظيم سكة الظاهر ، وعلى السنة العامة شارع المنسى فيما بين ميدان الظاهر وضريح المنسى . وبالبحت فى سكة الظاهر عن مكان زاوية الشيخ خضر تبين لى أنها اندثرت ودخلت فى المساكن ومكاتها اليوم المربع القائم عليه المنزلان رقما ٢٩ ، ٣١ الواقعان فى نهاية شارع الامبابى من الجهة الشرقية على يسار الداخل من سكة الظاهر فيما بين هذه السكة وشارع الخليج المصرى "...

* ويبدو مما سبق أن تحقيق " محمد رمزى " أكثر دقة من تحقيق على مبارك ، وعلى أية حال فإن زاوية الشيخ خضر كانت على الضفة الشرقية للخليج فى نقطة على شارع سكة الظاهر .

وللشيخ خضر هذا مواقف هامة وطريقة مع السلطان الظاهر بيبرس ، وعن ذلك بالتفصيل انظر : المقرئى ، المخطوط ، ج ٢ ، ص ٤٣٠ - ٤٣١ .

(١) المخطوط ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٢) عرف باب الشعيرة بباب العدوى وقد وقع فى خريطة الحملة الفرنسية بباب العدوى برقم ٣٩٨ فى المربع D-8 بجوار زاوية العدوى رقم ٣٩٦ ، وكان هذا الباب موجوداً وموقعاً على خريطة القاهرة التى رسمها جران بك مدير التنظيم سنة ١٨٧٤م ، وقد هدم سنة ١٨٨٤م بمعرفة الضبطية لتحلل فى مبناء ، انظر : محمد رمزى ، تعليقه على النجوم ، ج ١١ ، ص ٢٣٠ .

(٣) المقرئى ، المخطوط ، ج ١ ، ص ٣٧٩ .

(٤) بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٢١٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

١٥١٨م أن ملك الأمراء خاير بيك رسم لوالى القاهرة بسد قناطر الخروبى الثلاثة بالحجر الفص النحيت على حساب السكان الذى ييوتهم فوق السور فسدت . (١)

وقد وقعها نيبور بخريطته ورمز لها بحرف O وسماها قنطرة الخروبى كما وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٣٩٦ فى المربع 8 - D ، ويبدو أنها جددت فى العصر العثمانى بحيث صارت ذات عقد واحد بعد أن كانت ثلاثة ، وقد عرفت فى القرن ١٩م باسم قنطرة العدوى . (٢)

القنطرة الجديدة:

تلى هذه القنطرة قنطرة باب الشعرية ، وكان يتوصل من هذه القنطرة من رفاق الكحل وخط جامع الظاهر إلى أرض الطبالة وإلى منية السيرج وغير ذلك (٣) ، ويثل موقعها الآن نقطة تقاطع شارع الظاهر مع شارع الخليج المصرى .

وقد أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م عندما انتهى من حفر الخليج الناصرى الذى كان يصب فى الخليج المصرى عندها . (٤)

وقد عرفت هذه القنطرة فى العصر العثمانى باسم قنطرة الظاهر ووردت بهذا الاسم فى خريطة نيبور ورمز لها بحرف P ، وقد وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية باسم القنطرة الجديدة Pont Nouvelle برقم ٣٩٣ فى المربع 7 - A ، كما عرفت باسم قنطرة الامبابى لوقوعها عند دار الشيخ الامبابى أحد مشايخ الأزهر السابقين ، وقد شاهدها محمد رمزى حتى

(١) نفسه ، ج ٥ ، ص ٢٨٥ .

(٢) على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٢٥٦ .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٧ .

* ذكر المقرئى أيضاً أنه " كان ما على جانبى الخليج من القنطرة الجديدة هذه إلى قناطر الأور التى تليها عامراً بالأملاك ثم خربت شيئاً بعد شيء بعد سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٩ فحسب الخراب هناك منذ كانت الشراقى فى زمن الملك الأشرف شعبان بن حسين فى سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥ ، فلما غرقت الحسينية بعد سنة الشراقى خربت المساكن التى كانت شرقى الخليج فيما بين القنطرة الجديدة وقناطر الأور وأخذت انقاضها وصارت هذه البرك المرجودة الآن " .

* إلا أننا نجد أن العمارة عادت إلى تلك المنطقة بكثافة فيما بعد زمن المقرئى ، وعمرت بالكامل فى العصر العثمانى وصارت أعمر أخطاط القاهرة .

وليزيد من التفاصيل انظر :

أمل المصرى ، حى الحسينية فى العصرين المملوكى والعثمانى ، ماجستير مخطوطة ، كلية الآثار ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٩٠م .

ردمت مع الخليج سنة ١٨٩٧ م .^(١)

قناطرالأوز:

تلى هذه القنطرة القنطرة الجديدة ، وكانت تصل بين الحسينية شرقاً إلى أرض البعل التى يمثلها الآن حى الشرايبة ومهمشاً غرباً^(٢) ، ويمل موقعها الآن نقطة على شارع الخليج المصرى تجاه حارة قنطرة الظاهر^(٣) .

وقد أنشأ هذه القناطر الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م على يد الأمير قدادار والى القاهرة فى ذلك الوقت إلى جانب عدة قناطر أخر مثل قنطرة الأميرية وقنطرة الأمير قدادار وذلك بمناسبة حفر الخليج الناصرى واتصاله بالخليج الكبير^(٤) ، وقد كانت هذه القنطرة من أحسن متزهات مصر فى العصر المملوكى^(٥) .

وقد وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٣٩٤ فى المربع 7 - A ، وذكرها "على مبارك" وقال أنها كانت تتكون من عقدين - لهذا قيل قناطر - وكانت تتبع محافظة القليوبية آنذاك^(٦) ، وقد ردمت مع الخليج فى الجزء الأول منه من غمره إلى باب الخلق سنة ١٨٩٧ م .

قناطربنى وائل:

تلى هذه القناطر قناطر الأوز ، وكانت تقع على الخليج فى الزاوية الحمراء^(٧) فى النقطة التى يمثلها الآن مدخل حى الزاوية الحمراء من شارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقاً) .

وقد أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ، وقد عرفت بقناطر بنى وائل نسبة إلى بنى وائل وهم إحدى قبائل العربان التى كانت بمصر

(١) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٨٣ .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٣) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٨٣ .

* وقد ذكر الاستاذ رمزى هنا أن هذه القناطر كانت تسمى أيامه قنطرة الورة وقد سمت الحارة المواجهة لها بحارة

قنطرة الظاهر من قبل مصلحة التنظيم وهى تسمية خاطئة لأن قنطرة الظاهر كانت تطلق على القنطرة الجديدة التى

تقع جنوبها بحوالى ١٨٠م وكانت تقع أمام جامع الظاهر ببيرس .

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٨٢ - ٨٣ .

(٦) الخطط التوفيقية ، ج ١٩ ، ص ٤٣ .

(٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٢٨٠ .

بحدود مدينة القاهرة فى العصر المملوكى ، وكانت منازلهم شرق الخليج ^(١) ولهذا تسمى الحى الذى كانوا به حى الوائلىة (الوائلى) نسبة لهم . ^(٢)

وكانت هذه القناطر من أحسن متنزهات مصر فى العصر المملوكى حسبما أشاد بذلك 'المقرىزى' . ^(٣)

وذكر 'على مبارك' أن هذه القناطر تعرضت للهدم عند حفر ترعة الاسماعيلية وبنيت قناطر أخرى بالقرب منها ^(٤) ، ولكنها ردمت الآن .

قنطرة الأميرية :

تلى هذه القنطرة قناطر بنى وائل ، وهى آخر القناطر على الخليج الكبير من ضواحي القاهرة وكانت تقع على الخليج فى ضاحية الأميرية فيما بينها وبين المطرية ^(٥) عند التقاء شارع السواح بشارع الخليج المصرى (بورسعيد) .

وقد أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥ م بمشرفة الأمير قدادار والى القاهرة ، وكان يتم عندها سد الخليج وقد كان يفتح فى يوم النوروز - وهو أول السنة القبطية - ويقوم بفتحه والى القاهرة ليروى الأراضى على جانبيه . ^(٦)

هذه هى الأربعة عشر قنطرة التى كانت القاهرة وضواحيها فى العصر المملوكى ، وكان هناك قنطرة أخرى بناحية سرياقوس أنشأها الناصر محمد أيضاً سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥ م ، وقد رمت معظم هذه القناطر على يد السلطان الغورى كما رمت بعضها على يد الحملة الفرنسية .

(١) 'المقرىزى' ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٢) الوائلى هذا الذى على الخليج بجوار القصيرين والزواية الحمراء غير حى الوائلى الذى بجوار العباسية .

(٣) 'المقرىزى' ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

(٤) الخطط التوفيقية ، ج ٢ ، ص ٦٦ .

(٥) 'المقرىزى' ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٨ .

* وقد ذكر المرحوم " محمد رمزى " فى تعليقه على النجوم ، ج ٩ ، ص ٨٣ " أن هذه القنطرة قد تجددت فى مكانها ولا تزال قائمة على الخليج تجاه قرية الأميرية إحدى قرى ضواحي القاهرة ، وفى شمالها على بعد ستة كيلو مترات . هذا مع العلم أن الخليج المصرى قد ردم من فمه داخل مدينة القاهرة ومابقى منها لا يزال موجوداً فى محاذة ترعة الاسماعيلية من الجهة الشرقية ومستعمل لرى الأراضى الواقعة عليه " .

* والآن رال هذا الجزء الباقي من الخليج وبنيت هذه الأراضى الزراعية عن آخرها .

(٦) 'المقرىزى' ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٨ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج ٩ ، ص ٨٣ .

القناطر التي أنشئت في العصر العثماني :

استجذت في العصر العثماني ٤ قناطر ، هي قنطرة فم الخليج ، والقنطرة الجديدة (قنطرة الذي كفر) ، وقنطرة الحفنى ، وقنطرة الشعرائى .

قنطرة فم الخليج :

كانت هذه القنطرة تقع على بعد عدة أمـار من فم الخليج وأغلب الظن أن الذى أنشأها هو الأمير عبدالرحمن كتحدا فى الوقت الذى أنشأ فيه القنطرة الجديدة (قنطرة الذى كفر) وقد وقعت بهذا الاسم فى خريطة نييور الذى زار مصر بين سنتى ١١٧٥ و ١١٧٦ هـ / ١٧٦١ و ١٧٦٢ م^(١) ورمز لها بالحرف a .

ومنذ بناء هذه القنطرة صار الاحتفال بكسر سد الخليج يتم عندها إلى جانب الاحتفال عند قنطرة السد .

القنطرة الجديدة "قنطرة الذى كفر" :

كانت هذه القنطرة تقع بين قنطرة سنقر وقنطرة باب الخرق ، وموضعها كان أمام شارع رحبة عابدين (شارع مصطفى عبدالرازق حالياً) غربى شارع الخليج .

وقد ذكرها على مبارك "ولكنه لم يتوصل إلى منشئها"^(٢) ، وقد أنشأها الأمير "عبدالرحمن كتحدا" سنة ١١٧٥ هـ / ١٧٦٢ م ، وهى السنة التى بنى فيها مسجد الشيخ رمضان بشارع رحبة عابدين ، كما أنه قد أنشأ أيضاً قصراً ورباطاً (أثر رقم ٤٣٦) بحارة عابدين لذلك بنى تلك القنطرة لتوصله إلى هناك .^(٣)

وقد وقعت هذه القنطرة بخريطة نييور ورمز لها بحرف 9 وسماها قنطرة عبدالرحمن كتحدا ، كما وقعت باسم القنطرة الجديدة على خريطة الحملة الفرنسية برقم ٢٨ فى المربع 9- O^(٤) ، وقد

(١) اعتقد الأستاذ "محمد كمال السيد" خطأ أن هذه القنطرة من إنشاء أسرة محمد على وعدها من القناطر التى أنشئت فى عهدهم ، وربما يرجع سبب ذلك إلى عدم رجوعه إلى كتاب وخريطة نييور .

انظر : أسماء ومسميات ، ص ٨٨ - ٩٠ .

(٢) الخطط الترفيقية ، ج ٣ ، ص ٨٤ .

(٣) الجيرنى ، عجائب الآثار ، ج ١ ، ص ٤٩٣ .

(٤) وقعت هذه القنطرة على خريطة الحملة الفرنسية بالاسم العربى El Guedideh بينما وقعت القنطرة الجديدة التى بالظاهر بالترجمة الفرنسية Pont Nouvelle بالإضافة الى ذلك فقد أطلقوا اسم " القنطرة الجديدة " أيضاً على القنطرة التى أنشأها عبدالرحمن كتحدا وعرفت بعد ذلك بقنطرة الشعرائى .

عرفت هذه القنطرة في عصر أسرة محمد على بقنطرة الذى كفر وقد دارت بسبب تلك التسمية محاورات طريفة . (١)

قنطرة الحفنى :

كانت هذه القنطرة تقع على الخليج بين قنطرة الأمير حسين وقنطرة الموسيقى على بعد أمتار قليلة إلى الجنوب من تقاطع شارع الأزهر بشارع الخليج (بورسعيد) .
وقد أنشأها الأمير عبدالرحمن كتحدا للشيخ الحفنى (٢) بجانب الجامع الذى أنشأه له ، وكذلك الدار المجاورة له (٣) ، وكان الجامع مسجلاً برقم ٤٥١ فى فهرس وخريطة القاهرة للآثار الإسلامية إلا أنه قد أزيل أثناء توسيع شارع الخليج .

قنطرة الشعراوى :

كانت هذه القنطرة تقع على الخليج بين قنطرة الموسيقى وقنطرة باب القنطرة أمام شارع الخرنفش .
وقد توصلت إلى منشئ هذه القنطرة وهو على كتحدا باش اختيار عزبان ، من نص أورده المؤرخ "أحمد شلبى" يذكر فيه أن على كتحدا أتم فى شعبان سنة ١١٤٧هـ / ١٧٣٤م ، مسجده الذى بدرب اتمار ؟ وصلوا فيه وكذلك الصهرىج والمكتب الذى علوه تجاه القنطرة الجديدة التى أحدثها تجاه منزله الذى بحارة الأفرنج . (٤) وحارة الأفرنج تقع غربى الخليج مواجهة شارع الخرنفش .

القناطر التى أنشئت فى عصر أسرة "محمد على" حتى ردمت سنة ١٨٩٨م :

- (١) قنطرة القصر العينى بين قنطرة السد وقناطر السباع .
- (٢) قنطرة شاهين بك (باشا بعد ذلك) بين قنطرة عمر شاه وقنطرة طقزدمر .

(١) انظر تلك المحاورات فى حاشية الخطوط التوفيقية ، ج ٣ ، ص ٨٤ - ٨٧ . وحاشية النجوم ج ١١ ، ص ٧٧ - ٧٨ .

(٢) هو شمس الدين محمد بن سالم الحفناوى أو الحفنى نسبة إلى حفنا التابعة لمركز بليس بمحافظة الشرقية حيث ولد بها سنة ١١٠٠هـ ، وقد تولى مشيخة الأزهر الشريف سنة ١١٧١هـ / ١٧٥٧ ، وهو الشيخ الثامن له ، وقد توفى ليلة السبت ١٧ ربيع الأول سنة ١١٨١هـ . وكان جليل القدر وقد ترجم له الجبرتنى ترجمة وافية انظرها بالتفصيل فى : عجائب الآثار ، ج ١ ص ٣٣٩ - ٣٥٤ .

(٣) نفسه ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ .

(٤) أوضح الاشارات ، ص ٥٩٢ .

- (٣) قنطرة ثابت باشا بين قنطرة باب الخرق وقنطرة الأمير حسين .
- (٤) قنطرة المفتى بين قنطرة الأمير حسين وقنطرة الحفنى .
- (٥) قنطرة بين السورين بين قنطرة الموسيقى وقنطرة الشعراى .
- (٦) قنطرة سكة حديد السويس بين قناطر الأور وقناطر بنى وائل .

الخليج الناصرى

سبب حفره :

لما عمر الناصر محمد بن قلاوون عمائره العظيمة بسرياقوس سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م ، التى تشتمل على خانقاة بها مائة خلوة لمائة صوفى وبجانبها جامع تقام فيه الجمعة ومكان برسم ضيافة الواردين وحمام ومطبخ وقصور للأمراء ، وجعل هناك ميداناً يسرح إليه وتربص فيه بديلاً عن ميدان القبق ، وكذلك كان الناصر قد ترك النزول إلى المسطبة التى بناها لمطعم الطيور والجوارح بقرب بركة الحبش ، فصارت سرياقوس حيثئذ متنزهاً كبيراً جديداً له ، لذا تراءى للناصر محمد حفر خليج من النيل لتمر فيه المراكب إلى سرياقوس محملة بالغلال وغيرها لذا أمر بحفر الخليج الناصرى .^(١)

خطة عمل الخليج الناصرى:

كان لابد من عمل خطة عمل لحفر الخليج الناصرى ، لذا فقد كلف الناصر الأمير سيف الدين أرغون نائب السلطنة بالإشراف على حفر الخليج ، فجمع أرغون المهندسين وأرباب الخبرة ودرسوا وعابنوا وخططوا مسار الخليج واستقر رأيهم أن يكون فم الخليج فى موضع غائر على النيل فى مودة البلاط ، وأن يمر الخليج بموضع الميدان الظاهرى الذى كان الناصر محمد قد حوله الى بستان ، ثم يمر بعد ذلك إلى خط بركة قرموط ثم ظاهر باب البحر ويمر من هناك على أرض الطباله فيصب فى الخليج الكبير .^(٢)

عرض الأمير أرغون تلك الخطة على الناصر محمد فوافق عليها وأمر سار أمراء الدولة بإحضار الفلاحين من البلاد الجارية فى إقطاعاتهم وكذلك كتب إلى ولاة الأعمال بجمع

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٥ ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦١ .

الرجال لحفر الخليج ، فباشر الأمير أرغون نائب السلطنة العمل بالمشروع ومعه الحجاب وتم قياس مسافة الخليج كلها وألزم كل أمير بحفر جزء منه . (١)

وبدأ العمل فى أول شهر جمادى الأولى سنة ٧٢٥هـ ، واضطروا إلى هدم الدور والأماك القائمة فى مساره من جهة باب اللوق إلى بركة قرموط ، وكذلك حفر فى البساتين التى تعترض مساره ومنها بستان نائب السلطنة نفسه ، وتم تعويض أصحاب الأماك عما تضرروا منه (٢) ، وتم إنجاز الحفر فى آخر جمادى الآخرة سنة ٧٢٥هـ أى أن العمل أنجز فى مدة شهرين فقط ، وجرى الماء عند زيادة النيل ، وسر السلطان لذلك سروراً كبيراً فأقام احتفالاً كبيراً بهذه المناسبة فى سرياقوس وأنعم على المشايخ والأمراء والموالى بإنعامات عظيمة وأموال كثيرة . (٣)

الأثر العمرانى لحفر الخليج :

نتج عن حفر الخليج تغيير كبير فى عمران القاهرة ، فقد اشترى الناس الأراضى حوله من بيت المال مما ساهم فى إثناء موارد الدولة ، وكذلك غرست الأشجار فيها وصارت بساتين جلييلة ، وأخذ الناس فى العمارة على جانبي الخليج فعمرت مناطق كثيرة فعمر ما بين المقس وساحل النيل ببولاق ، واتصلت العمائر على الخليج من أوله موردة البلاط الى مصبة بأرض الطبالة وزرعت البساتين وراء تلك العمائر وتنافس الناس فى السكنى هناك ، وأنشئت المساجد والأسواق والحمامات حتى ازدهر العمران ازدهاراً عظيماً . (٤)

وكانت النتيجة غير المباشرة لحفر الخليج أن صار متنزهاً كبيراً للقاهرة والقاهريين فصار كما يقول " المقرئى " . . . موطن أفراح ومنازل لهو ومغنى صبايات وملعب أتراب ومحل تيه وقصف بما يمر فيه من المراكب وفيما عليه من الدور " . (٥)

(١) المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٢) نفسه .

(٣) نفسه ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ . ابن تفرى بردى ، النجوم ، ج ٩ ، ص ٨١ . ابن ايبك

الدوادار ، كنز الدرر ، ج ٩ ، ص ٣١٥ .

(٤) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٥ :

(٥) نفسه .

مسار الخليج الناصرى :

حدد المقربرى مسار هذا الخليج إيامه بأنه يبدأ من موردة البلاط ويسير إلى الميدان الظاهرى الذى جعله الملك الناصر بستاناً ويمر من البستان الى بركة قرموط حيث ينتهى الى ظاهر باب البحر و يمر من هناك على أرض الطباله فيصب فى الخليج الكبير . (١)

وهذا المسار يمثل الآن نقطة التقاء شارع كورنيلش النيل بشارع عائشة التيمورية (شارع الوالدة باشا سابقاً) حيث كان فمه ، ثم يسير فى شارع عائشة التيمورية الى أن يتقابل مع شارع القصر العينى فيسير بجانبه أو فى مساره إلى أن يتقابل مع شارع الشيخ ريحان وينعطف إلى الشرق ويسير قاطعاً شارع يوسف الجندى (التوفيقية سابقاً) فشارع عرابى ثم شارع رمسيس مخترقاً ميدان رمسيس حتى يصل إلى المستشفى القبطى ثم ينعطف من هناك شرقاً حتى يصل إلى شارع خليج الطوابة فشارع الظاهر حتى ينتهى إلى شارع الخليج المصرى (بورسعيد الآن) حيث كان يصب هناك . (٢)

وبدراسة خريطة الحملة الفرنسية ن جد أن جزءاً من الخليج من فمه حتى منطقة الوزارات بباب اللوق حالياً غير موقع بالخريطة . إذ ينتهى الخليج دون أن يصل إلى فمه ، ويؤكد ذلك جومار أيضاً حيث ذكر أن الخليج الناصرى يتفرع من الخليج الكبير (٣) ، ويؤكد هذا وذاك أن الخليج موقع كذلك مقطوعاً فى خريطة بوكوك الذى زار مصر سنة ١١٥٨هـ / ١٧٤٣م ، وكذلك فى خريطة نيور التى سبق الحملة أيضاً لأنه زار مصر بين سنتى ١١٧٦ - ١٧٦١ - ١٧٦٢م . (٤)

وقد ردم هذا الجزء من الخليج فيما بين سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٩ سنة ١١٥٨هـ / ١٧٤٣م لأنه موقع كاملاً الى منبعه بمورده البلاط بخريطة الرحالة باجاتو المرسومة سنة ٩٥٦هـ / ١٥٤٩م .

وكان يتفرع من الخليج الناصرى ترع صغيرة لرى الحقول والبساتين على جانبيه كما كان يخرج منه ترع صغيرة أو خصلجان تغذى عدد كبير من البرك منها بركة الناصرية وبركة الازيكية وبركة الفوالة وبركة قرموط وبركة الرطلى .

وقد ردم هذا الخليج كله فى عهد الخديوى اسماعيل .

(١) الخطط ، ج٢ ص ١٤٥ .

(٢) محمد رمزى ، تعليقة على النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص ٨٠ .

(٣) وصف مدينة القاهرة ، ص ٨٦ .

(٤) اعتقد كثير من الباحثين مثل المرحوم "محمد رمزى" ، و"سامى نوار" ، و"د. إمين فؤاد" أن الخليج كان يصب فى النيل وقت الحملة الفرنسية على مصر ، وهذا الاعتقاد خاطئ كما ذكرت أعلاه إذ أنه كان مقطوع الاتصال بالنيل قبل الحملة بأكثر من خمسين عاماً .

الأسماء التي أطلقت على الخليج الناصري :

عرف هذا الخليج في العصر المملوكي باسم الخليج الناصري نسبة الى منشئة الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وفي العصر العثماني أطلقت على أجزاء الخليج عدة تسميات شأنه في ذلك شأن التسميات التي أطلقت على الخليج الكبير ، فأطلق عليه خليج المغربي^(١) حتى بركة الرطلى وقد وقع بهذا الاسم في خريطة الحملة الفرنسية برقم ١٢٨ في المربعين M,N-16 وأطلق عليه خليج الطوابة^(٢) من أول بركة الرطلى حتى مصبه وقد وقع بهذا الاسم في خريطة الحملة الفرنسية برقم ٤٣٦ في المربع 9 - A

القناطر التي أنشئت على الخليج الناصري :

أنشئت على الخليج الناصري ٥ قناطر وهي مرتبة من الجنوب للشمال كالتالي :

- (١) قنطرة الفخر .
- (٢) قنطرة قدادار .
- (٣) قنطرة الكتبة .
- (٤) قنطرة باب البحر .
- (٥) قنطرة الحاجب .

قنطرة الفخر :

كانت هذه القنطرة تقع بجوار فم الخليج بجوار مورده البلاط من أراضي بستان الخشاب برأس

(١) سمي الخليج باسم المغربي نسبة إلى صلاح الدين يوسف بن المغربي الذي كان رئيساً للأطباء ، وكان قد عمر جامعاً على الخليج الناصري وبنى بجواره قبة ، وقد توفي ابن المغربي عن عمر كبير يوم الاربعاء ١٨ جمادى الآخر سنة ٧٧٦هـ . انظر :

المقريزي ، الخطط ج٢ ص ٣٢٨ ، السلوك ، ج٣ ص ٢٤٩ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ، ق٢ ، ص ١٤٠
* ومن الجدير بالذكر أن ضريح ابن المغربي لا يزال موجوداً حتى الآن في مدخل العمارة وقسم ٣٠ بشارع عدلى (المغربي سابقاً) والجامع مندثر الآن وكان المقريزي قد ذكر انه كان في طريقة للاندثار أيامه حيث انه قد تخرب بخراب خط بركة قرموط في مطلع القرن ٩ هـ .

* وقد ذكر الاستاذ محمد كمال السيد في كتابه اسماء ومسميات ص ٢٧٩ - ٢٨٠ أن وفاة ابن المغربي كانت سنة ٧٥٦هـ ، ولكن الصحيح سنة ٧٧٦ هـ .

(٢) كان يمتد على الخليج عدة تلال تنتج من الطين الناتج من تنظيف الخليج ومنها تل الطوابة هذا الذي كان يعمل منه الطوب ، وقد وقع في خريطة الحملة الفرنسية برقم ٤٢٥ ، في المربع 8 - A

الميدان الناصرى^(١) ، ويمثل موقعها اليوم تقاطع شارع دار الشفاء بشارع عائشة التيمورية (الوالدة باشا سابقاً) ، وهى أول قنطرة عمرت على الخليج ، وقد أمر الناصر محمد بإنشائها تحت إشراف ناظر الجيش القاضى فخر الدين محمد فضل الله بن خروف القبطى^(٢) فى سنة ٧٢٥ هـ عند انتهاء حفر الخليج الناصرى .^(٣)

قنطرة قدادار:

كانت هذه القنطرة على الخليج الناصرى بأرض اللوق ، وكانت تقع تجاه ميدان الملك الظاهر بيبرس الذى جعله الملك الناصر محمد بن قلاوون بستاناً فى سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م^(٤) ، ويمثل موقعها اليوم بشارع يوسف الجندى (الحوياتى سابقاً) قرب تلاقية بشارع صبرى أبو علم (شارع جامع شرکس سابقاً) حيث كان الخليج يمر فى تلك الجهة^(٥) ، وقد أمر الناصر محمد ببناءها مع حفر الخليج بإشراف الأمير قدادار^(٦) والى القاهرة .

وكانت هذه القنطرة مبنية من عقد واحد وقد تعرضت للتخريب من المماليك لمتنوع وصول العثمانيين لهم فى المعارك بينهم بالقاهرة فى محرم سنة ٩٢٣ هـ^(٧) ، وقد رمت بعد ذلك عدة

(١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص١٤٨ ، ابن ابيك ، كثر الدرر ج٩ ص٣٢١ .

(٢) ذكر المقرئى أن الفخر هذا قد توفى فى شهر رجب سنة ٧٣٢ هـ عن عمر يناهز السبعين عاماً وقد تمكن من الرئاسة تمكناً كبيراً . انظر :
الخطط ج٢ ، ص١٤٨ .

(٣) نفسه ، محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج٩ ، ص٨٢ .

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص١٤٨ .

(٥) محمد رمزى ، تعليقه على النجوم الزاهرة ، ج٩ ص٨٢ .

(٦) قدادار هذا هو الأمير سيف الدين قدادار الذى توفى فى الخدمة زمن الناصر محمد بن قلاوون ومن مناصبه التى تولاها توليته لولاية الغربية ثم صار والياً على البحيرة ثم على القاهرة سنة ٧٢٤هـ ، وقد كان متشدداً فى أحكامه وتصريفه لأمور الولاية حتى هابته العامة فى القاهرة ، ومن أعماله محاربة الخمر والحشيش بالقاهرة وقمعه لجشع التجار ، إلا أنه كان سفاكاً للدماء ، وقد عزل عن ولاية القاهرة سنة ٧٢٩ هـ ، وقد توفى فى يوم ١٦ صفر سنة ٧٣٠ هـ . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص١٤٨ - ١٥٠ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج٣ ، ص٢٤٤ .

* وقد خلدت مصلحة التنظيم اسم قدادار بإطلاقه على شارع متفرع من شارع محمد محمود خلف ميدان التحرير .

(٧) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص١٥٣ .

ترميمات آخرها ترميم الحملة الفرنسية لها ^(١) ، وقد وقعت بخريطة الحملة الفرنسية باسم قنطرة المدابغ برقم ٣٥٨ فى المربع 16 - M ^(٢)

قنطرة الكتبية:

كانت هذه القنطرة على الخليج الناصرى بخط بركة قرموط ، وعرفت بذلك الاسم لكثرة من كان يسكن هناك من الكتاب ^(٣) . ويمثل موقعها اليوم نقطة تقاطع شارع طلعت حرب مع شارع ٢٦ يوليو ^(٤) .

وقد أنشأها القاضى شمس الدين عبدالله بن أبى سعيد الشهير بغبريال ناظر الدولة فى سنة ٧٢٥ هـ . ^(٥)

وقد كانت تعرف فى أواخر العصر المملوكى وأوائل العصر العثمانى باسم قنطرة العسرا ^(٦) ، وقد وقعت فى خريطة الحملة الفرنسية باسم قنطرة المغربى برقم ٣٦٠ فى المربع 15 - I فى تقاطع الخليج الناصرى الذى يمثل فى هذه المنطقة شارع طلعت حرب مع الشارع الذى شقه "لوبيير" مهندس الحملة الفرنسية ليصل الأريكية ببولاق ويمثله الآن شارع ٢٦ يوليو .

(١) الجبريتى ، عجائب الآثار ، ج٢ ، ص ٤٣٤ .

(٢) تركزت المدابغ وصناعة الجلود فى منطقة باب اللوق ابتداءً من مطلع القرن الحادى عشر الهجرى ، السابع عشر الميلادى بعد انتقالها من حى الداودية جنوبى غرب باب وويلة ، ويرجع اندربه ريمون السبب فى ذلك لبناء عدة آثار هامة بموقعها القديم مثل مسجد الملكة صفية (أثر رقم ٢٠٠) الذى بنى سنة ١٠١٩ / ١٦١٠ م ، وكذلك مسجد البردينى (أثر رقم ٢٠١) الذى بنى سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦ م ، ومسجد الغمري (أثر رقم ٤٢٦) انظر : Raymond, A., La Population du Caire, PP.210 - 211 .

ابن فؤاد سيد ، مقدمه كتاب جومار (وصف مدينة القاهرة ، ص ٤٣ - ٤٤) .

(٣) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٠ .

* وقد أورد المقرئى أيضاً " . . وقد أدركنا الأملاك متظمة بسجاني هذا الخليج من أوله بمسوره البلاط إلى هذه القنطرة ، ومن هذه القنطرة ، ومن هذه القنطرة إلى حيث يصب فى الخليج الكبير ، فلما كانت الحوادث بعد سنة ست وثمانمائة شرع الناس فى هدم ما على هذا الخليج من المناظر البهجة والمساكن الجلييلة وبيع أنقاضها حتى ذهب ما كان على هذا الخليج من المنازل ما بين قنطرة الفخمر وأخر بركة قرموط وأصبحت موحشة بعدما كانت مواطن أفراح ومعنى صبابات" .

* ولكننا نجد أن القاهرة بعد المقرئى مرت بها أوقات عمورت فيها مرة أخرى أيام قايتباى والغورى وكذلك بعض فترات العصر العثمانى .

(٤) محمد رمزى ، تعلية على الشجوم ، ج٩ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ .

(٥) تولى هذا القاضى منصب ناظر الدولة ستين من سنة ٧٢٤ هـ حتى سنة ٧٢٦ هـ ، وقد مات بدمشق سنة ٧٣٢ هـ . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٠ .

(٦) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق١ ، ص ٤٥٩ .

قنطرة باب البحر:

كانت هذه القنطرة يتوصل إليها من باب البحر ^(١) ويمر الناس من فوقها إلى بولاق وغيرها ،
وهي مما أنشأه الناصر محمد بن قلاوون عند انتهاء حفر الخليج الناصري في سنة ٧٢٥هـ ^(٢) ،
وبدراسة خريطة الحملة الفرنسية ومطابقتها بخرائط القاهرة الحالية وجدت أنه يمثل موقعها الآن نقطة
بميدان رمسيس في مواجهة شارع كلوت بك ^(٣) .

وقد عمرت هذه القنطرة عدة مرات فقد حدث أثناء سلطنة الملك الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ/
١٤٣٨ - ١٤٥٣م) أن سقطت هذه القنطرة وهلك طائفة ممن كان عليها وذلك يوم ٢٣ جمادى الأول
سنة ٨٤٤هـ ^(٤) ، وبعد بنائها مرة أخرى يبدو أنها تصدعت بعد ذلك فجدد عمارتها السلطان الملك
الاشرف قايتباي . ^(٥)

وقد وقعت هذه القنطرة في خريطة الحملة الفرنسية باسم قنطرة الليمون ^(٦) برقم ٣٥٥ في المربع
D - 15 ، وكانت بجوار الشيخ المدبولي الموقع عليها برقم ٣٥٤ . وقد دخل الآن فسي توسعات
الميدان بعد ذلك .

(١) باب البحر هو أحد أبواب القاهرة التي بناها صلاح الدين عندما مد سور القاهرة الشمالي عند المقس (عند جامع
الفتح وأولاد عنان الآن) وذلك سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤م وهو الذي كان يعرف باسم باب الحديد وكان يقع بمدخل
شارع فم باب البحر في امتداد شارع بين الحارات .

(٢) المقریزی ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥١ .

(٣) ذكر المرحوم "محمد رمزي" أن قنطرة باب البحر كان موقعها أيامه "بأول شارع المدبولي تجاه عطفة المقس من جهة
ميدان محطة مصر حيث كان الخليج يمر من هناك حينئذ . انظر :
تعليقه على النجوم ، ج٩ ، ص ١٨٣ .

* وأقول هذه الأماكن التي ذكرها المرحوم "محمد رمزي" قد أزيلت ودخلت الآن في نطاق ميدان رمسيس حالياً .

(٤) المقریزی ، السلوك ، ج٤ ، ص ١٢١٠ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٣٣٠ .

(٦) لما أنشئت التربة الاسماعيلية كان فيها يأخذ من النيل من ميدان عبدالمنعم رياض وكانت تسيير بمحاذاة شارع
رمسيس وبعد أن تخترق ميدان رمسيس تسيير شمالاً إلى الأميرية ، وقد أقيم على هذه التربة كوبري للمرور بين
ميدان باب الحديد وميدان محطة مصر عرف بكوبري الليمون لقربة من قنطرة الليمون المذكورة ، وقد اندثر هذا
الكوبري بمرم تربة الاسماعيلية داخل القاهرة ونقل فمها إلى شبرا الخيمة ، وإلى هذا الكوبري تنسب محطة
كوبري الليمون التي بميدان محطة مصر بالقاهرة . انظر :

محمد رمزي ، تعليقه على النجوم ، ج٩ ، ص ١٨٣ .

وأقول : عن قريب ربما ينسى اسم محطة كوبري الليمون وذلك بعد الاستثناء عنها بعد أن ربط خط سكة حديد
المرج بخط سكة حديد حلوان خلال مشروع ممر الاتفاق ، كما غلب اسم ميدان رمسيس على ميدان باب الحديد
ومحطة مصر ، وسبحان الباقي الذي لا يتغير .

قنطرة الحاجب :

كانت هذه القنطرة تصل بين أرض الطبالة إلى أرض البعل ومنية السرج وغيرها ^(١) ، ويدراسة خريطة الحملة الفرنسية يتبين أن موقعها الآن عند تقاطع شارع الظاهر مع شارع البكرية .

وقد أنشأها الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب ^(٢) سنة ٧٢٥ ، فقد كان من المفروض أن يمر الخليج الناصري من الجرف الذى يمثل موقعه الآن المنطقة التى بها المستشفى القبطى ليسير شمالاً إلى أن يصب فى الخليج الكبير عند طرف أرض البعل حيث يمثل موقعها الآن عند كوبرى غمرة ، فالتمس الأمير بكتمر من المهندسين المشرفين على حفر الخليج الناصري أن يسيروا بالخليج باتجاه فى محاذة بركة الرطلى التى كانت تجرى فى إقطاعه من ضمن أرض الطبالة فتم ذلك وعمل الأمير بكتمر جسراً بين البركة والخليج وسمح بالبناء فيه وكان ذلك الجسر من أنزه بقع القاهرة لأنه يشرف من ناحية على الخليج ، ومن الناحية الأخرى على البركة ^(٣) . وقد كان لإنشاء قنطرة الحاجب أثر كبير فى اتصال العمارة من بركة الرطلى إلى كوم الريش ^(٤) (الدرداش حالياً) .

وقد عرفت قنطرة الحاجب فى العصر العثمانى باسم قنطرة البكرية نسبة إلى بيوت وجنيئة وجامع السادة البكرية بجوارها ، وقد وردت بذلك الاسم فى خريطة الحملة الفرنسية برقم ٤٢٤ فى المربع 8 - A .

خليج الذكر

يستفاد مما ذكره المقرئى عن هذا الخليج ^(٥) وما ذكره عنه ضمن كلامه عن ميدان القمح ^(٦) أن هذا الخليج كان فى أصله ترعة حفرت لأول مرة أيام كافور الأخشيدي لرى بستان المقدس والبساتين الواقعة غربى الخليج .

(١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥١ .

* المقرئى ، أرض الطبالة الآن حى الفجالة وجزء من الظاهر أما أرض البعل فيمثلها الآن غمرة والشرابية ومهمشا أما منية السرج فما زالت تعرف بهذا الاسم وهى جزء من حى شبرا .

(٢) بكتمر الحاجب هو الأمير سيف الدين بكتمر حاجب الحاجب وكان من كبار الامراء فى دولة الناصر محمد بن قلاوون وقد توفى سنة ٧٢٨هـ . انظر ترجمته كاملة فى :

المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٦٤ ، ٦٥ ، ١٥١ ، ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ٣٨٦ - ٣٩٠ ، ابن حجر ، الدور الكامنة ، ج٢ ، ص ١١٧ .

* وقد خلط بن تغرى بردى فى نسبة قنطرة الحاجب حيث نسبها للأمير بيبرس الحاجب بدلاً من الأمير بكتمر الحاجب . انظر :

المنهل الصافى ، ج٣ ، ص ٤٧٥ .

(٣) المقرئى ، الخطط ج٢ ، ص ١٥١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٤) نفسه .

(٥) الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٦) نفسه ، ص ١٢٤ .

وكان فم هذا الخليج أول ما حفر على النيل مباشرة عند النقطة التى يمثلها الآن تلاقى شارع قنطرة الدكة الذى كان مسار الخليج بشارع عماد الدين الذى كان يمثل مسار مجرى النيل ، وكان الخليج يمتد بطول شارع قنطرة الدكة وما فى امتداده حتى مصبه آنذاك فى الخليج الكبير أمام منطقة الخرنفش حالياً .

وفى أيام الخليفة الفاطمى الظاهر بن الحاكم صار الخليج يصب فى بركة بطن البقرة (الازبكية فيما بعد) التى أمر الخليفة الظاهر بحفرها مكان بستان المقس وكانت البركة تقع أمام منظره للؤلؤة مباشرة . (١)

وقد وسع خليج الذكر فى أيام الملك الكامل الايوبى (٦١٥ - ٦٣٥ هـ / ١٢١٨ - ١٢٣٨ م) ثم وسع مرة أخرى فى أيام الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ / ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) على يد الأمير شمس الدين الذكر الركاكى فعرف به (٢) .

وفى سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٤ م أمر الملك الناصر محمد بحفر خليج فم الخور وإيصاله بخليج الذكر لأن النيل كان فى ذلك الوقت منحسراً إلى الغرب فبعد عن فم خليج الذكر ، كما أمر الناصر محمد كذلك بتوسيع خليج الذكر ومده إلى الخليج الكبير فلما حفر آخر جمادى الآخرة سنة ٧٢٤ هـ وجرى فيه الماء ، كادت القاهرة أن تغرق فاضطر الملك الناصر الى تركه فأمر بحفر الخليج الناصرى بدلاً منه . وقد أدرك 'المقريزى' آثار هذا الخليج وقد نبت فيه القصب الفارسى وكذلك أخبره الشيخ المعمر حسام الدين حسين بن عمر الشهبورى بأنه كان يسبح فى خليج الذكر وأراه آثاره . (٣)

وقد اهتم بهذا الخليج مرة أخرى الأمير أربك من ططخ عندما أعاد حفر بركة بطن البقرة فسميت باسمه ، لذلك حفر أربك خليج الذكر مرة أخرى بعد أن تقلص حجمه وأصبح يخرج من الخليج الناصرى من عند تقابله بشارع قنطرة الدكة وتصب فى بركة بطن البقرة (الازبكية) وعرف حينئذ باسم خليج الازبكية ، كما جدد أربك قنطرة الدكة التى كانت عليه . (٤)

قنطرة الدكة على خليج الذكر؛

كان على خليج الذكر قنطرة عرفت بقنطرة الدكة نسبة للدكة التى كانت عند القنطرة ويجلس عليها المتفرجون أيام النيل ، وكانت أصولها ترجع الى العصر الفاطمى ، وقد عمرت هذه القنطرة

(١) نفسه ، ص ١٤٥ .

(٢) نفسه .

(٣) الخطط ، ج ٢ ، ص ١٤٥ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٢ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

مرة أخرى في زمن الناصر محمد على يد الأمير بدر الدين التركمانى ^(١) فعرفت باسمه ، ثم أصبحت القنطرة معقودة على التراب بعد أن طم خليج الذكر بسبب الاستغناء عنه بحفر الخليج الناصرى . ^(٢)

ثم أعاد تعمير القنطرة الأمير أريك عندما أعاد حفر الخليج وجعله يخرج من الخليج الناصرى ويصب في البركة وعرف باسم خليج الأزيكية ، وقد وقعت هذه القنطرة في خريطة الحملة الفرنسية برقم ٣٥٠ فى المربع F - 14 ثم اختفت القنطرة مع الخليج فى تطوير الأزيكية أيام الخديوى اسماعيل ، وكانت تقع عند التقاء شارع قنطرة الدكة مع شارع الجمهورية (ابراهيم باشا سابقاً) .

خليج فم الخور

أمر بحفر خليج فم الخور ^(٣) الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤ هـ ليمد خليج الذكر بالماء لأن النيل كان قد انحسر عن خليج الذكر فأصبح لا يدخله الماء ، وكان فم هذا الخليج فى المكان الذى يمثل الآن ميدان عبدالمنعم رياض ، أما مجراه فيمثله الآن شارع رمسيس حتى يتقابل مع شارع قنطرة الدكة الذى كان مسار خليج الذكر .

(١) التركمانى هو الأمير بد الدين محمد بن الأمير عيسى التركمانى ، كان من أجل أمراء الناصر محمد بن قلاوون وقد توفى بالمقاس سنة ٧٣٨ هـ .

* وقد بنى الأمير التركمانى جامعاً كبيراً فى المقاس لا يزال قائماً فى منطقة باب البحر بحارة التركمان (الترجمان) المتفرعة من شارع كلوب بك فيما بينه وبين شارع باب البحر ولذلك كان تعميره لتلك القنطرة القريبة من جامعة .
المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣١٣ . على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ١٤٦ .

(٢) المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥١ .

* وكانت هذه القنطرة من أحسن متزهات القاهرة ، وقد قال فيها الشعراء كثيراً من الأشعار منها قول ابراهيم بن المعمار :

يا صالب الدكة نلت المنى وفزت منها بيلوغ الطير
قنطرة من فوقها دكة من تحتها تلقى خليج الذكر

(٣) الخور فى اللغة هو مصب الماء فى البحر ، وقيل هو خليج فى البحر ، والخور هو المظمئن الأرض، والخور هو المنخفض من الأرض بين مرتفعين .

انظر مادة "خور" فى القاموس المحيط للفيروز ابادى ، ولسان العرب لابن منظور ، وتاج العروس للزبيدي ، والمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية .

* وأرض الخور كانت هى الأرض المحصورة بين الخليج الناصرى وخليج فم الخور وجميع هذه الأرض كانت ضمن بستان ابن ثعلب ، وعرفت بالخور الصعبى لأنه كانت هناك مناظر تعرف بمناظر الصعبى تشرف على النيل ، وقد توفى الصعبى فى رمضان سنة ٦٠٣ هـ . انظر المقريزى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١١٩ ، ١٤٤ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص ٢٣٠ ، ٣٦٧ .

ولما فتح هذا الخليج كادت القاهرة أن تغرق لذا أمر الناصر محمد بقطع خليج الذكر حتى لا تغرق القاهرة ، وأمر حينئذ بحفر الخليج الناصري فلما حفر أصبح خليج فم الخور يصب فيه ليقوى جرى الماء فيه ويغزره . (١)

وكانت النقطة التي تمثل نقطة تلاقى كل من شارع عرابي وشارع قنطرة الدكة بشارع رمسيس هي نقطة التقاء الخليجان الثلاثة (٢) (فم الخور والذكر والناصرى) .

وقد أشاد المقرئى بما كان على جانبي هذا الخليج من العمائر والمساكن التي خرب أكثرها منذ سنة ٨٠٦ هـ ، كما ذكر أن هذا الخليج كان متزهاً كبيراً . (٣)

قنطرة المقس على خليج فم الخور:

أنشأ هذه القنطرة الوزير صاحب شمس الدين أبو الفرج عبد الله المقسى (٤) فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين (٥) ، وكانت تقع فى نقطة تقابل شارع رمسيس مع شارع ٢٦ يوليو مواجهة لقنطرة الكتبة . (٦٦٤ - ٧٧٨هـ)

خليج قنطرة الفخر

ذكر المقرئى هذا الخليج فقال : " هذا الخليج يتدنى من الموضع الذى كان ساحل النيل ببولاق ويستهى إلى حيث يصب فى الخليج الناصرى ويصب أيضاً فى خليج لطيف تسقى منه عدة بساتين ، وكل من هذين الخليجين مسموم الجانبيين بالأملاك المطلة عليه والبساتين ، وجميع المواضع التي تمر

(١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٥٠ .

(٢) محمد رمزى ، تعليقة على النجوم ، ج٩ ، ص ١٢٥ ، ج١١ ، ص ١٧٠ .

(٣) انظر ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٠ .

(٤) المقسى هو الوزير صاحب شمس الدين أبو الفرج عبد الله المقسى المتوفى فى اربع من شعبان سنة ٧٩٥ هـ ، وقد اخذ لقبه من المقس أو المقسم لأنه هو الذى جدد جامع المقس الذى كان من إنشاء الحاكم بأمر الله ، فقد جددته حوالى سنة ٧٧٠ هـ فنسب إليه ، كما هدم البرج الذى كان قراقوش قد جعله بجوار الجامع وعمل مكانه جنيئة ، وهذا الجامع كان قديماً يطل على النيل فلما انحسر أصبح يطل على الخليج الناصرى فى عهد الدولة المملوكية ، وهذا الجامع نسب بعد ذلك إلى الشيخ محمد بن عنان صاحب الطريقة العنانية المتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ٩٢٢ هـ ، وقد أقيم مكان الجامع الآن جامع كبير يعرف بأسم جامع الفتح وأولاد عنان بميدان رمسيس ، وقد اخذت أحجار الجامع القديم وبني بها جامع السيدة عائشة . انظر :

المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٢٨٣ ، السلوك ، ج٣ ، ص ٧٩٣ ، على مبارك ، الخطط التوفيقية ، ج٣ ، ص ٣٦٩ ، ج٤ ، ص ١٢٧ - ١٢٩ .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٥٠ .

بها الخليج الناصري وأرض هذين الخليجين كانت غامرة بالماء ثم انحسر عنها الماء شيئاً بعد شيء ، وهذا الخليج حفر بعد الخليج الناصري ^(١) .

وقد ذكر هذا الخليج المؤرخ 'ابن ابى السرور البكرى' المتوفى سنة ١٠٨٧هـ / ١٦٧٦م ، فقال ' وهذا الخليج بالقرب من قنطرة الليمون وقد طم ودثر الآن ' . ^(٢)

وبناءً على ما ذكر وما حققه الأستاذ 'محمد رمزي' ^(٣) نرى أن هذا الخليج كان فمه من النيل الحالى تجاه مدخل شارع اصطبلات الطرق ببولاق ثم تسير بالشارع المذكور إلى أن يتلاقى بشارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقاً) ومن هناك يسير إلى الشرق حتى يتلاقى بشارع رمسيس ربما عند تقابله بأول شارع عماد الدين حيث ذكر البكرى أنه كان بالقرب من قنطرة الليمون التى كانت بميدان رمسيس حالياً .
أما القنطرة التى كانت على هذا الخليج والذي تسمى بأسمها فقد بناها الفمخر ناظر الجيش أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون . ^(٤)

وقد كان هذا الخليج هو وخليج فم الخور وخلجان أخرى صغيرة تساعد على تغذية الخليج الناصري بالماء بالإضافة لدورها فى رى البساتين والأراضى الزراعية عليها .

خليج الزعفران المتفرع من الخليج الكبير

ما يجدر ذكره هنا أن نقول أنه كان يتفرع من الخليج الكبير خليج هام هو خليج الزعفران الذى ورد ذكره بالمصادر كمتنزه هام لسلاطين المماليك ، كما ورد ذكره بالوثائق مرتبطاً بجهة المطرية بوجه خاص . ^(٥)

ونستدل من كلام المؤرخين والوثائق ^(٦) أن هذا الخليج كان يتفرع من الخليج الكبير من منطقة القاهرة ويسير باتجاه الريدانية (العباسية) ويمثل مسار الخليج شارع العباسية الآن ، ويستمر فى مساره شمالاً فى شارع الخليفة المأمون الذى يعتبر

(١) الخطط ، ج٢ ، ١٤٦ .

(٢) قطف الأزهار (مخطوط) ، ورقة ١٤٩ .

(٣) تعلية على النجوم ، ج٩ ، ص ١٢٥ .

(٤) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٣١١ .

(٥) انظر وثيقة الغورى رقم / ٥١٣ ٥٠٥ أوقاف .

(٦) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ١٠٢٧ . السخاوى ، تحفة الاحباب ، ص ١٤ - ١٦ . العبى ، عقد الجمان ، (بدون ناشر) ، ص ٢٤١ .

امتداداً لشارع العباسية مخترقاً الأرض المقام عليها جامعة عين شمس ^(١) ، ويظل سائراً شمالاً مخترقاً أحياء منشية البكري وسراى القبة والزيتون فالمطرية حيث كان يروى أرضها ، ربما كان متعباً هناك ، أو كان متصلاً بخليج آخر ينتهى إلى الخليج الكبير أو إلى بركة الحاج .

وكان السلاطين يخرجون من باب النصر فيمرون بالحسينية فالريدانية فالمطرية حيث يجرى خليج الزعفران بتلك الجهات ^(٢) ، فيعسكرون هناك وأحياناً يقضون عدة أيام للترويح عن النفس على شاطئ الخليج لأن تلك الجهات كانت عبارة عن سائتين وأرض زراعية متصلة ^(٣) ، وكانوا يصبحون معهم كبار الأمراء والضيوف ، ويخرج لرؤية مواكبهم السلطانية العظيمة عامة أهل القاهرة .

ومن أكثر هؤلاء السلاطين تردداً هناك المؤيد شيخ ^(٤) والأشرف برسباى ^(٥) ، و الظاهر جقمق ^(٦) والظاهر خشقدم ^(٧) والأشرف قايتباى ^(٨) والأشرف قانصوه الغورى ^(٩) .

(١) يمثل مبنى إدارة جامعة عين شمس قصر الزعفران الذى بناه الخديو اسماعيل وعرف بذلك الاسم نسبة لخليج الزعفران الذى كان يقع عليه .

(٢) ذكر الباحث " سامى نوار " فى رسالته المنشآت المائية ص ١٥٣ أن خليج الزعفران هو نفسه الخليج الناصرى . * وهذا الاعتقاد خاطئ حيث أن الخليج الناصرى كان يصب فى الخليج الكبير عند الظاهر بينما خليج الزعفران كان يجرى فى أرض الريدانية والمطرية .

(٣) كان لبعض السلاطين وكبار الأمراء بستائن مشجرة بالمطرية منهم المؤيد شيخ والأشرف برسباى والأشرف قانصوه الغورى ، نظر :

وثيقة المؤيد رقم ٩٣٨ أوقاف سطرى ٣٤٣ - ٣٤٤ نشر فهمى عبدالعليم ، المقرئى ، السلوك ج٤ ، ص ٧٦٦ .

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٣١٢ . وثيقتى الغورى ٥٠٥ و ٥١٣ أوقاف .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص ٧٦٦ ، ٩١٠ ، ١٠٢٧ ، ١٠٣٧ . الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج٢

ص ٤٠١ ، ٤٠٨ . ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٤ ، ص ٣١٢ ، ج٥ ، ص ٩٦ ، العينى ، عقد الجمان

(نشر الزهراء) ، ص ٤٠٣ . ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ١١٨ ، ١٥٤ ، ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٥) المقرئى ، السلوك ج٤ ، ص ١٢٢١ ، العينى ، عقد الجمان (نشر الزهراء) ص ٥٦٣ ، السخاوى ، التبر السيوك ،

ص ١٢٢ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج٢ ، ص ٢٢٧ ، ٢٥١ .

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٤٤٢ .

(٧) الصيرفى ، ابناء الهصر ، ص ٥٠ ، ١٥٧ .

ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٢٧ ، ٤١ ، ٦٣ ، ٦٨ ، ٩٩ ، ١٢١ .

(٨) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٤ ، ص ١٧١ ، ٢١٩ ، ٢٤٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣١١ .

(٩) بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٣١٨ ، ٣٢١ .

وذكر ابن اياس الذى أرخ لبداية الحكم العثمانى لمصر أن خاير بك كان يخرج لخليج الزعفران للتزهر^(١) ، ولكن المصادر العثمانية لم تذكر شيئاً عن خليج الزعفران ، ولا ندرى متى ردم .^(٢)

الخليجان الأخرى

حفرت فى العصر المملوكى عدة خليجان لتساهم فى ضبط النيل تجاه القاهرة منها الخليج الذى حفره الناصر محمد بالجزيرة الوسطى سنة ٧٣٨هـ .^(٣)

أما أهم خليجين حفرا واستخدما للتزهر بشكل كبير فى العصر المملوكى فهما خليج موردة الحلفاء وخليج الزربية . وكان خليج موردة الحلفاء هذا يبدأ من رأس موردة الحلفاء ويسير فى الجانب الشرقى لمجرى النيل لمسافة ، ثم يسير باتجاه الشمال الشرقى تحت الدور التى كانت بالخطط على النيل ثم يصب النيل ببولاقي ، وقد حفره الورير منجك سنة ٧٤٩هـ وذلك فى مشروعة لرد النيل ناحية القاهرة^(٤) .

أما خليج الزربية فقد حفره الأمير جركس الخليلي فى مشروعه سنة ٧٨٤هـ عندما عمل جسراً بين رأس جزيرة الروضة وبين الجزيرة الوسطى وكان هذا الجسر بوسط النيل ، وكان فم خليج الزربية هذا من نقطة على الجسر بوسط النيل ويسير فى عرض النيل ويسير غرب الخليج الناصري الذى كان فمه بالقرب من فم خليج الزربية ، وكان خليج الزربية يصب فى النيل عند زربية قوصون^(٥) . وكان لهذا الخليج قنطرة ذكر "ابن اياس" بأنها بموردة الجبس ، وقد سد خليج الزربية فترة فى سلطنة الغورى عن طريق عمل سد عند القنطرة التى عليه وذلك حتى يرتد الماء ويدخل إلى الخليج الناصري ، ولما تضرر سكان الزربية وسكان الجزيرة الوسطى من تأثير غلق الزربية ولما خاف السلطان عليه من الانسداد أمر بفتحه مرة ثانية وكان خليج الزربية هذا من متزهات القاهرة الهامة أواخر العصر المملوكى^(٦) .

ولم أقابل أى ذكر عن هذا الخليج فى مصادر ووثائق العصر العثمانى .

(١) مما يجدر ذكره هنا أن نقول أن محمد على باشا حفر خليجاً سنة ١٨٢٧م سمي أيضاً خليج الزعفران ان كان فمه بحرى قصر النيل (أى من ميدان عبدالمعزم رياض الآن) ويسير باتجاه الشمال لغاية شين القناطر بالقليوبية أى لمسافة ٣٠ كم ، وكان عمقه أمتار وكان عليه سبع قناطر أقيمت بين سنتي ١٢٤٣ ، ١٢٤٥هـ (١٨٢٧ ، ١٨٢٩م) وهى

بالترتيب من الجنوب للشمال :

(١) قنطرة فم الخليج ببولاقي (٢) قنطرة الأريكية (٣) قنطرة الليمون

(٤) قنطرة الزاوية الحمراء (٥) قنطرة الوايلي (٦) قنطرة مسطرد

(٢) قنطرة سرياقوس . انظر :

(٢) الوقائع المصرية ، العدد ١٢٢ بتاريخ ١٩ رمضان ١٢٤٥ هـ .

امين سامى ، تقويم النيل ، ج٢ ص ٣٦٢ ، ٤٣٨ .

على شافعى ، أعمال المنافع العامة ، ص ٣٢ ، ٦٢ ، ٦٣ .

(٣) انظر ماسبق ، ص

(٤) انظر ما سبق ، ص

(٥) انظر ما سبق ، ص

(٦) عن ذلك الخليج انظر : ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ص ٤٣١ ، ٤٣٢ . ج٤ ، ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ٢٣٣ ،

٢٧٣ ، ٢٨٠ ، ج٥ ، ص ٥٦ ، ٥٧ .

الفصل الخامس

المناظر ومطعم الطير والمطرية والبساتين والضواحي ورياض الآثار

أولاً: المناظر

كانت المناظر من المتنزعات الجميلة فى العصر المملوكى ، ومن هذه المناظر ما استخدم استخداماً عاماً مثل مناظر الكباش ومنظر التاج والخمس وجوه ، بالإضافة للكثير جداً من المناظر الخاصة الملحقة بالقصور والدور والبساتين الخاصة .

وإذا تكلمنا عن أصل فكرة المناظر نرى أنها قد استخدمت أولاً فى الأغراض الحربية ، وقد اطلق عليها أيضاً المراقب والطلّاع ، وهذه المناظر كانت عبارة عن أبراج حراسة حربية مبنية فى الأماكن العالية المشرفة على البحر ابتغاء رؤية المراكب المعادية قبل اقترابها من الساحل ، والمناظر فى نفس الوقت وسيلة اتصال عن طريق إيقاد النيران بأعلامها شأنها فى ذلك شأن الفئارات بالنسبة للملاحاة البحرية . (١)

كما شاع لفظ المناظر أيضاً فى مصر والشام والعراق فى الاصطلاح المدنى مثل المناظر التى كانت تعلو أبواب بغداد فى منتصف القرن الثانى الهجرى والمناظر الفاطمية فى القرن الرابع الهجرى ، ولا يزال اللفظ مستعملاً فى ريفنا المصرى فالمناظر (بالضاد) هى الحجرات التى تتصل بالخراج وتشرف على الشارع من الدور الأرضى . (٢)

كما ذكر "ياقوت الحموى" أن المنظر عبارة عن موضع مشرف ينظر منه . (٣)

وقد أقام الفاطميون بمصر العديد من المناظر كانت بمثابة متنزعات لهم وأماكن لإقامة الاحتفالات والمناسبات العديدة ، وقد أُنشئت تلك المناظر بانتهاء دولتهم ولكن الأماكن التى كانت تحويها استمرت مواضع هامة للتنزه فى العصرين المملوكى والعثمانى ، وقد أعيد بناء واحدة منها فى العصر المملوكى هى منظر الخمس وجوه .

وتلك المناظر ماهى إلا قصور بعضها صغير الحجم والمساحة وبعضها الآخر كبير استخدمت للتنزه والاحتفالات ، وكانت تقع فى مواقع هامة مميزة مثل الأماكن الخلوية بضواحي القاهرة وسط البساتين

(١) محمد عبد الهادى شعيرة ، 'من تاريخ التحصينات العربية فى القرنين الأول والثانى الهجرى' بحث فى كتاب دراسات فى الآثار الإسلامية ص ١٢ .

(٢) نفسه ص ١١ .

(٣) معجم البلدان ج ٥ ص ٢١٢ .

والمزدرعات مثل مناظر البعل والتاج والخمس وجوه وقبة الهواء ، كما كانت المناظر تقام على ضفاف النيل والخلجان والبرك مثل مناظر اللؤلؤ والغزالة ودار الذهب على الخليج ومناظر الدكة والمقس والصناعة ودار الملك ومنازل العز والهودج على النيل ومنظرة بركة الحبش ، وأيضا كانت المناظر تقام على هضاب استراتيجية عالية مثل الرصد والكبش حيث أقام الفاطميون العديد منها ، كما أقاموا المناظر بجوار أماكن دفاعية هامة مثل منظرة باب الفتوح حيث كان الخلفاء الفاطميون يستعرضون الجيوش الخارجة للغزو ، كما أقيمت المناظر فى أماكن دينية هامة مثل منظرة الجامع الأزهر حيث كان يجرى الاحتفال بليالى الوقود . (١)

وقد استعمل فى بناء المناظر الأحجار والآجر والأخشاب الجيدة وشبائيك النحاس والحديد ، كما تميزت بأنها كانت لها واجهات عديدة خالية ، وكانت حسنة وعالية البنين ، كما كانت هناك مناظر عبارة عن أكشاك وجواسق خشبية مدهونة فيها طاقات تشرف على الحضرة والماء مثل منظرة بركة الحبش .

وقد جهزت المناظر بأفخر المفروشات والأثاثات والمتاع حتى تستعمل على مدار العام ، كما كانت على أكمل وجه من الزخرفة والزينة والبهاء .

هذا ويرجع للوزير الفاطمى " الأفضل بن أمير الجيوش " بناء العديد من تلك المناظر .

وقد شهدت المناظر والنواحي التى حولها أيام نزاهات واحتفالات كبيرة خاصة وعامة أهل القاهرة والضواحي ، واستطاع الخلفاء الفاطميون أن يستميلوا الناس لهم ولذهبيهم من خلال تلك المهرجانات والأعياد والمناسبات التى شهدت تلك المناظر العديد منها . (٢)

أما عن المناظر الكبيرة التى كانت موجودة زمن سلاطين المماليك فهى مناظر الكبش ومنظرة الخمس وجوه .

مناظر الكبش على جبل يشكر

تقع مناظر الكبش على جبل يشكر ، وجبل يشكر - فى الواقع - هضبة وليس جبلا ، وهذه الهضبة هى التى بنيت عليها مدينة القطائع على يد أحمد بن طولون والتى بقى منها جامع كبير (٣) ، وتلك الهضبة تتوسط المسافة بين القاهرة ومصر الفسطاط ، وقد سميت بهضبة يشكر نسبة الى أول

(١) عن هذه المناظر والاحتفالات بها انظر بالتفصيل : -

المقريزى ، الخطط ج ١ ص ٤٦٥ - ٤٩٠ .

(٢) حسن إبراهيم حسن ، تاريخ الدولة الفاطمية ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة ط ٤ سنة ١٩٨١ م ، ص ٦٣٤ .

(٣) عن مدينة القطائع بالتفصيل انظر : - محمود الحسنى ، التطور العمرانى لمواقع مصر الاسلامية (دكتوراه) .

قبيلة عربية اختطت بها مساكنها عند الفتح الاسلامى لمصر وهى قبيلة يشكر بن جديله بن لحم^(١) . وكانت هذه الهضبة تشرف من جهتها الشمالية على بركة الفيل ، ومن جهتها الغربية على بركة قارون ، ويتضح لنا مما ذكره "المقريزى" أن الجزء الشمالى الغربى للهضبة عليه الكباش وأن الجزء الجنوبى يسمى الشرف ، وكان هذا الشرف مشرف من غربية على جهة الخليج الكبير وهو يقع بين كوم الجراح وخط الجامع الطولونى^(٢) ، وهو أحد هضاب ثلاثة تسمى كل منها باسم الشرف أحدهما الذى بنيت عليه قلعة الجبل والآخر الذى يطلق عليه الرصد وهو يمثل الجانب الغربى للقرافة الكبرى جنوبى مدينة الفسطاط^(٣) .

موقع مناظر الكباش وتاريخ انشائها

قال "المقريزى" عن موقعها وتاريخ انشائها : - " هذه المناظر آثارها الآن على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى مشرفة على البركة التى تعرف اليوم ببركة قارون عند الجسر الأعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون ، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب فى أعوام بضع وأربعين وستمائة " (٤) .

وقد حدد الأستاذ "محمد رمزى" مكانها بقوله " إنها فى المنطقة التى تعرف بقلعة الكباش وتشرف من بحريها على شارع مراسينا ومنته الحوض المرصود ومن غربيها على حوش أيوب بك والبغالة وتنتهى من قبلى إلى درب الساقية وسكة المناظر ومن الشرق الى حارة النטיפقة بقسم السيدة زينب بالقاهرة " (٥) .

(١) المقريزى ، الخطط ج١ ص ١٢٥ .

(٢) نفس المصدر والصفحة ، ج٢ ص ١٣٣ .

(٣) الخطط ج١ ص ١٢٥ .

(٤) الخطط ج٢ ص ١٣٣ .

* وقد ذكر المقريزى موقعها فى عدة مواضع أخرى ، فقال عندما تكلم عن ساحل النيل بمدينة مصر : - " وبآخر الحمراء القصوى الكباش وجبل يشكر وكان الكباش يشرف على النيل من غريبه " . الخطط ج١ ص ٣٤٤ . كما ذكر موقعها فى كلامه عن الأمير سلار فقال "كان سلار صديقا للجاولى شديد المحبة له من قديم حتى ان كل منهما عمر مدرسته على جبل يشكر بجوار مناظر الكباش مجاورة للمدرسة الآخر وعمل لنفسه مدفنا بحداء مدفن الآخر " السلوك ج٢ ص ٢٤ .

كما ذكر موضعها عند كلامه عن المدرسة الجاولية فقال " هذه المدرسة بجوار الكباش فيما بين القاهرة ومصر " الخطط ج٢ ص ٣٩٨ .

وفى كلامه عن الكباش قال " هو جبل بجوار يشكر كان قديما يشرف على النيل من غريبه ثم لما اختط المسلمون مدينة الفسطاط بعد فتح أرض مصر صار الكباش من جملة الحمراء القصوى وسمى الكباش " الخطط ج١ ص ١٢٥ .

(٥) محمد رمزى ، تعليقة على النجوم ج٩ ص ١٨٩ .

وقد ذكر "المقريزى" أن هذه المناظر وقت أنشائها كانت تشرف مباشرة على بركة الفيل من ناحية ومن ناحية أخرى على بركة قارون " وكان حيثنذ ليس على بركة الفيل بناء ولا فى المواضع التى فى بر الخليج الغربى من قنطرة السباع إلى المقس سوى البساتين وكانت الأرض التى من صليبة جامع ابن طولون إلى باب رويلة بساتين وكذلك الأرض التى من قناطر السباع إلى باب مصر بجوار الكبارة ليس فيها إلا البساتين وهذه المناظر تشرف على ذلك كله من أعلى جبل يشكر وترى باب رويلة والقاهرة وترى باب مصر ومدينة مصر وترى قلعة الروضة وجزيرة الروضة وترى بحر النيل الأعظم وبر الجزيرة فكانت من أجل متزهات مصر " (١).

وفى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون أمر بهدمها فى سنة ٧٢٣هـ وأعاد بناءها بناء آخر وأجرى الماء إليها وجدد بها عدة مواضع وزاد فى سعتها وأنشأ بها اصطبلًا تربط فيه الخيول ، وهذه المناظر التى بناها الناصر محمد عبارة عن سبع قاعات بناها لأجل بناته ينزلون فيها للفرجة على ركوب السلطان للميدان الناصرى الكبير على النيل بأرض الخشاب (٢).

واستمرت مناظر الكباش قائمة حتى هدمها الملك الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون (٧٧٧ - ٧٧٨هـ) لما غضب على الأمير استدمر الذى كان ساكنًا بها وقبض عليه ، وفى سنة ٧٩٥ هـ حكر الناس أرض الكباش وبنوا عليها بيوتهم واصطبلاتهم (٣).

سكان وضيوف مناظر الكباش

اتخذت مناظر الكباش متنزها ملكيا ، وقد اتخذت فترة دار سكن للخلفاء العباسيين وفترة أخرى لسكن كبار الأمراء فى دولة المماليك ، وكانت كذلك دار ضيافة ينزل بها ضيوف السلطنة والرسل والقصاد وترتب لهم أمور ضيافتهم من مأكول ومشرب وملبس ونفقات .

وكان أول من سكن بها من الخلفاء العباسيين الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد الثانى أول خليفة عباسى يمصر حينما أحيا الظاهر بيبرس الخلافة فى سنة ٦٦١هـ بعد سقوطها ببغداد سنة

(١) الخطط ج٢ ص ١٣٣ .

(٢) المقريزى ، الخطط ج٢ ص ١٣٤ ، السلوك ج٢ ص ٥٤٠ ، ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج٩ ص ١٨٩ .

(٣) تاريخ ابن قاضى شعبة ص ٤٧٣ ، المقريزى ، السلوك ج٣ ص ٧٨٧ ، القلقشندى ، صبح الاعشى ج٣ ص ٣٦٣ .

٦٥٦هـ^(١) ، وبالرغم من عودة الخلافة اسمية فقط إلا انها كانت ميزة لدولة المماليك لما للخلافة من تأثير روحي على المسلمين فى كل مكان ، ولما توفى الخليفة الحاكم فى سنة ٧٠١هـ بعد ان استمر فى الخلافة مدة اربعين سنة خلقة ابنه المستكفى بالله وأقام أيضا بمنظر الكبش^(٢) .

أما كبار الأمراء فى دولة المماليك الذين حلوا محل الخلفاء فى سكن مناظر الكبش بعد انتقالهم للقلعة فأهمهم الأمير صرغتمش فى أيام السلطان الملك الناصر حسن ، وقد عمر صرغتمش الباب ذا البدنتين الحجر الذى يوصل إلى المناظر بجانب الكبش بالحدرة^(٣) وكان هذا الباب موجوداً أيام المقرئى^(٤) ، ثم سكن مناظر الكبش بعد ذلك الأمير يلبغا المعروف بالخاصكى وظل بها إلى أن قتل فى سنة ٧٦٨هـ فسكنها من بعده الأمير استدر إلى أن قبض عليه الملك الأشرف شعبان وأمر بهدم الكبش فهدم ثم حكره الناس بعد ذلك وبنوا فيه مساكنهم واصطبلاتهم^(٥) .

وكانت مناظر الكبش هى المكان الذى يستضاف فيه ملوك حماة الأيوبيين بالشام^(٦) ، وأول من نزل منهم الملك المنصور وكان ذلك يوم ٦ محرم سنة ٦٧٣ هـ وصحبته أخوه الملك الأفضل نور الدين على بن الملك المظفر وولد الملك المنصور الملك المظفر تقى الدين محمود ، وقد احتفل السلطان الظاهر بيبرس بهم احتفالا كبيرا وأباح لهم ما لم يحبه لأحد من الأمراء والخواص من شرب للخمر وسماع ملاهى كما رتب لهم متنزعات فى النيل والروضة^(٧) .

(١) بيبرس الدوادار ، التحفة الملوكة ص ١٤٩ ، ١٦٢ ، ابن حبيب ، تذكرة النبى ج ١ ص ١٩٥ ، المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٣٣ ، السلوك ج ١ ص ٨٢٨ ، ابن ابيك ، كنز الدر ج ٩ ص ٧٩ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهية ص ١٩٥ - ١٩٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ص ٣٢٠ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ج ٢ ص ٦٢ .
* وقد ذكر بعض هؤلاء المؤرخين أن السلطان الظاهر بيبرس هو الذى أنزل الخليفة بالكبش بينما ذكر البعض الآخر أن السلطان لاجين هو الذى أنزله .

(٢) توفى المستكفى سنة ٧٤٢هـ ، وقد سبق أن أبعده الناصر محمد مدة خمسة أشهر من الكبش وجعله بالقلعة سنة ٧٣٦هـ وذلك لغضبه عليه .

ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج ٩ ص ١١٥ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ص ٤٧٢ .
(٣) نلاحظ ان هذه الحدرة التى كان عندها باب يؤدى إلى مناظر الكبش هى الدحديرة الموجودة إلى اليوم غرب جامع صرغتمش وجامع ابن طولون وتسمى الآن شارع الدحديرة .

(٤) الخطط ج ٢ ص ١٣٤ .
(٥) نفسه . ، تاريخ ابن قاضى شعبة ص ٤٧٣ .

(٦) أقطع صلاح الدين حماه لابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر وبقيت بيد أولاده حتى قيام الدولة المملوكية ، كانوا يخضعون أحيانا لسلطة التار وأحيانا للمماليك حتى انتصر المماليك فخضعوا لهم وحكموا باسمهم وظلت بأيديهم حتى استولى المماليك عليها .

انظر ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور ص ٢٤ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ج ٧ ص ١٦٦ ، هامش السلوك ج ١ ص ٦١٤ .

(٧) ابن ابيك ، كنز الدرر ج ٨ ص ١٧٦ ، المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٣٤ .

كما حضر الملك المنصور إلى مصر مرة ثانية ونزل بمنابر الكيش يوم ٨ جمادى الأولى سنة ٦٧٥هـ مهنتاً بزواج الملك السعيد بن السلطان بيبرس وقدم هدايا ثمينة . (١) وكذلك حضر يوم ٢٥ شوال سنة ٦٧٨هـ أيام السلطان قلاوون (٢) كما حضر في مستهل المحرم سنة ٦٨٢هـ فركب السلطان برقوق لتلقيه وأنزله بمنابر الكيش على عادته وأكرم وفادته وكل من معه (٣) .

وظل ملوك حلب الأيوبيين يأتون إلى مصر ويقيمون أثناء ذلك بالكيش حتى استولى المماليك على حلب وأصبحت تحكم بواسطة ولاية من أمراء المماليك ، ومن الملوك الأيوبيين الذين نزلوا بمنابر الكيش الملك المؤيد عماد الدين اسماعيل وكان قد نزل سنة ٧١٦هـ (٤) .

وكانت مناظر الكيش من أهم الأماكن التي يستضاف فيها الرسل والضيوف . ومن الرسل الذين نزلوا بها صاحب المؤرخ كمال الدين عمر بن العديم (ت ٦٦٠هـ) رسول الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب النجدة من السلطان قطز لقتال التتار ، وكان ذلك في ذى القعدة سنة ٦٥٧هـ (٥) .

ونزل بمنابر الكيش أيضا رسل الملك طقطاي ملك القبجاك الذين وصلوا إلى مصر أول ربيع الأول سنة ٧٠٤هـ ، وقد أكرمهم السلطان الناصر محمد وأجرى لهم الرواتب وقدموا للسلطان هداياهم ، وقد جاءوا بكتاب يعرضون تحالفهم مع سلطان مصر ضد أعدائهم ورد عليهم السلطان بهدية (٦) .

وفي سنة ٧١٣هـ جهز طقطاي سفارة كبيرة إلى مصر على رأسها رسول اسمه بكلمش بن قنجوبغا وكان قريبا للملك طقطاي وكان جليل القدر ، وقد أحسن السلطان الناصر محمد استقباله ، وكان بصحبته ثلاثمائة نفر منهم مماليك وجواري قدموا هدية للسلطان ، وقد أنزلوا بمنابر الكيش ، وكان لهذه السفارات تأثير كبير في تقوية أواصر الصداقة بين الملكين . (٧)

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج٧ ص ١٦٦ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ص ٥٨ (عن ابن الفرات) ، المقرئى ، السلوك ج١ ص ٦٦٨ .

(٣) بيبرس المنصورى ، ودة الفكره ص ٢١٥ ، ابن عبد الظاهر ، تشریف الايام ص ٢٤ ، المقرئى ، السلوك ج١ ص ٧١٢ .

(٤) ابن حجر ، الدرر الكامنة ج١ ص ٣٧١ .

(٥) ابن تغرى ، النجوم الزاهرة ج٧ ص ٧٢ .

(٦) المقرئى ، السلوك ج١ ص ٨٠٢ ، ج٢ ص ٧ .

(٧) ابن ايك ، كنز الدرر ج٩ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ .

وفى يوم ٢٦ ذى الحجة من نفس السنة (٧١٣هـ) وصلت سفارة من الملك يوزيك خان الذى جلس موضع الملك طقطاى وكانوا نحو مائة وأربعة وسبعين نفرا فأنزلوهم بمناظر الكيش ونزل صحبتهم رسل الملك الأشكرى^(١) والمقصود به الملك البيزنطى .

كذلك كانت مناظر الكيش هى المكان المعد والمهيأ لاستقبال وإسكان أى عدد من الناس دون حدوث أى ارتباك ، ومن أمثلة ذلك انه فى سنة ٦٩٣هـ أنزل بمناظر الكيش نحو ثلاثمائة من ممالك الأشرف خليل بن قلاوون عندما قبض عليهم بعد قتل الملك الأشرف^(٢) .

زواج ابنة الملك الناصر محمد بالكيش

شهدت مناظر الكيش حفل زفاف ابنة الملك الناصر محمد بن قلاوون على ولد الأمير ارغون نائب السلطنة بمصر بعدما جهزها جهازاً عظيماً ندر أن يكون له مثال^(٣) .

منظرة الخمس وجوه

فى العصر الفاطمى كانت الأراضى شمال القاهرة عبارة عن بساتين وحقول متصلة ، وأقام الخلفاء الورراء الفاطميون فى تلك البساتين والحقول أربع مناظر متجاورة متباعدة ترتبها من الجنوب للشمال كالآتى: ١- منظرة البعل ٢- منظرة الخمس وجوه ٣- قبة الهواء ٤- منظرة التاج^(٤) .

(١) المفضل بن أبى الفضائل ، النهج السديد ج٢ ص ٢٣٨ .

(٢) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام ص ٢٨١ ، بيبس المنصورى ، التحفة الملوكة ص ١٤١ .

(٣) قال القرينى " . . . جهزها جهازاً عظيماً منه بشخاناه وداير بيت وستارات طرر ذلك بثمانين ألف مثقال ذهب مصرى سوى ما فيه من الحرير وأجره الصناع وعمل سائر الأواني من ذهب وفضة فبلغت زنة الأواني المذكورة ما ينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب وتناهى فى هذا الجهاز وبالغ فى الاتفاق عليه حتى خرج عن الحد فى الكثرة فلإنها كانت أول بناته ولما نصب جهازها بالكيش نزل من قلعة الجبل وصعد الى الكيش وعابته روتيه بنفسه ، واهتم فى عمل العرس اهتماماً ملوكياً وألزم الأمراء بحضوره فلم يتأخر أحد منهم عن الحضور ونقط الأمراء الأغاني على مراتبهم من أربع مائة دينار كل أمير إلى مائتى دينار سوى الشقق الحرير ، واستمر الفرح ثلاثة أيام بلياليها فذكر الناس حينئذ أنه لم يعمل فيما سلف عرس أعظم منه حتى حصل لكل جوقه من جوق الأغاني اللاتي كن فيه خمسمائة دينار مصرية ومائة وخمسون شقة حرير وكان عدة جوق الأغاني التى قسم عليهن ثمان جوق من أغاني القاهرة سوى جوق الأغاني السلطانية وأغاني الأمراء وعدتني عشرون جوقه لم يعرف ما حصل لهذه العشرين جوقه من كثرة ما حصل ولما انقضت أيام العرس أنعم السلطان لكل امرأة من نساء الأمراء بستمية قماش على مقدارها وخلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء والكتاب وغيرهم فكان مهماً عظيماً تجاوز المصروف فيه حد الكثرة " الخطط ج٢ ص ١٣٤ .

(٤) استطعت ترتيب مواقع تلك البساتين وما تضمه من مناظر من خلال ما ذكره القرينى عنها ، فقد ذكر عن " منظرة البعل " أنها " كانت فى بستان أنيق يعرف بالبعل أنشأه الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش وموضع هذا البستان =

وتلك البساتين والحقول وما تضم من مناظر يمثل موضعها الآن أجزاء متتالية مرتبة من الجنوب للشمال من أحياء غمره فالشرابية فمهمشا .

ويرجع انشاء منظرة الخمس وجوه للأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش ^(١) وبقي من آثارها الفاطمية بناء رآه المقرئ ^(٢) .

وقد سميت المنظرة بهذا الاسم لأنها أقيمت على بئر منسعة كان بها خمس أوجه من المحال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان العظيم الوصف البديع الزى البهيج الهيئة المحيط بها ، وقد أطلق عليها العامة فى العصر المملوكى السبع وجوه ^(٣) ربما تيمنا بالرقم سبعة الذى له اعتبار كبير فى التراث الشعبى .

ويذكر "ابن تغرى بردى" أن بعض كتاب الخطط اعتقد خطأ أن منظرة الشاج هى منظرة الخمس

= إلى اليوم يعرف بالبعل وصارت أرضه مزرعة فى جانب الخليج الغربى بحرى أرض الطبالة فى كوم الريش مقابل قناطر الأور وقد خرجت المنظرة وبقي منها آثار أدركتها يعطن بها الكتان تدل على عظمتها وجلالتها فى حال عمارتها . . . الخطط جـ ١ ص ٤٨٠ - ٤٨١ .

وقال أيضا فى "ذكر أرض البعل والتاج" . . . وأرض البعل هذه بجانب الخليج تصل بأرض الطبالة كانت بستانا يعرف بالبعل وفيه منظرة انشاء الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى وجعل على هذا البستان سورا وإلى جانب بستان البعل هذا بستان التاج وبستان الخمس وجوه . . . وأرض البعل فى هذا الوقت مزرعة تجاه قنطرة الأور التى على الخليج يخرج الناس للنتزه هناك أيام النبل وأيام الربيع وكذلك أرض التاج فإنها اليوم قد زالت منها الأشجار واستقرت فى أراضى المنية الخراجية . . . الخطط جـ ٢ ص ١٢٩ .

وقال عن "منظرة الشاج" "هى من جملة المناظر التى كانت الخلفاء تنزلها للترهة بناها الأفضل بن أمير الجيوش وكان لها فرش معد لها للشاء والصيف وقد خربت ولم يبق لها سوى أثر كوم توجد تحته الحجارة الكبار وما حول هذا الكوم صار مزارع من جملة أراضى منية السرج . قال ابن عبد الظاهر " وأما التاج فكان حوله البساتين عدة وأعظم ما كان حوله قبة الهواء وبهدها الخمس وجوه التى هى باقية " الخطط جـ ١ ص ٤٨١ .

وقال عن "قبة الهواء" "وكان من أحسن متزهات الخلفاء الفاطميين قبة الهواء وهى مستشرف بهيج بديع فيما بين التاج والخمس وجوه يحيط به عدة بساتين لكل بستان منها اسم ولهذه القبة فرش معدة فى الشتاء والصيف ويركب إليها الخليفة فى أيام الركوبات التى هى يوم السبت والثلاثاء " الخطط جـ ١ ص ٤٨٧ .

* وقد ذكر المرحوم على باشا مبارك تلك المناظر وإن لم يكن قد راعى الترتيب الجغرافى لها ، وذكر أن تلال أحجارها ظلت موجودة حتى أيامه ، انظر : - الخطط الترفيقية جـ ١ ص ٥٥ ، جـ ٢ ص ٦٥ - ٦٦ .

* وكذلك ذكرها المرحوم محمد رمزى باعتبار أنها كانت معظم الأوقات تحسب من ضمن نواحي وضواحي القاهرة الواجب عليها الخراج . انظر : - القاموس الجغرافى ق ١ ص ١٥ ، ١٦ ، ٥٥ ، ٥٦ ، تعليقة على النجوم الزاهرة جـ ١ ص ١٢٤ ، مذكرة بيان الأغلاط التى وقعت من مصلحة التنظيم فى تسمية الشوارع والطرق بمدينة القاهرة وضواحيها .

(١) الخطط جـ ٢ ص ٤٨١ ، . اتعاظ الخفا جـ ٣ ص ٧٤ .

(٢) الخطط جـ ٢ ص ٤٨١ .

(٣) نفسه . ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى جـ ٥ ص ١٩٢ .

وجوه ولكنه يصحح ذلك الخطأ ويذكر أن التاج كان بالقرب من الخمس وجوه على بعد مقدار رميتى شاب وكان كوما فى أيامه إلا أن اسم التاج والخمس وجوه صار علما على تلك المنطقة (١) .

وموقع منظره الخمس وجوه الآن فى حى الشرايية فى المنطقة المحصورة بين شارع الالايلى وشارع الشرايية .

عمارة المنطرة فى العصر المملوكى

أعاد بناء منظره الخمس وجوه السلطان الملك المؤيد شينخ الذى كان محبا للمتنزهات والمقترجات مقضيا أغلب أوقاته بها ، وكان دائم الذهاب الى تلك المنطقة لذا أمر بتجديدها وتعميرها وترك التاج خرابا ، وكان الابتداء فيها فى يوم الاثنين أول شهر ربيع الآخر سنة ٨٢٣هـ (٢) ، وظل المؤيد يتابع بنائها فذهب عدة مرات حتى اكتملت فى شعبان سنة ٨٢٣هـ برواية ابن تغرى بردى (٣) أو فى شهر شوال برواية المقرئى (٤) ، وكانت قد تكلفت أكثر من عشرين ألف دينار .

وقد أراد المؤيد أن يعمر المنطقة حولها وأن يقيم بستانا كبيرا ، وطلب من أمراء وأعيان دولته أن ينوا حولها بيوتا ينزلون بها إذا توجهوا فى ركابة السلطانى فشرع بعضهم فعلا فى رعى الأساس واختط بعضهم الأرض ولكن القدر لم يمهل المؤيد وقتا ليتم ويرى ما كان يرجوه ، وكان غرض المؤيد لإنشاء المنطرة والبستان أن يجعل ذلك عوضا عن قصور سرياقوس ليسرح إليها مثلما كان السلاطين السابقون يسرحون لسرياقوس . (٥)

وفى ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ أيام السلطان الملك الأشرف برسباى (٨٢٥ - ٨٤١هـ) وقع الشروع فى هدم المنطرة ولكن ذلك الأمر لم يتم فبقى بناؤها مشعسا (٦) إلا أنها رمت عقب ذلك فأسكنها ..

(١) المنهل الصافى ج٥ ص ١٩٢ .

(٢) المقرئى ، الخطط ج١ ص ٤٨١ ، السلوك ج٤ ص ٥٢٦ ، ابن حجر ، انباء الغمر ج٣ ص ٢١٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ج١٤ ص ٩٤ ، العينى ، عقد الجمان (نشر الزهراء) ص ١٠٨ ، نفس المصدر (بدون ناشر) ص ٣٨١ ، الصيرفى ، نزهة النفوس ج٢ ص ٤٧٣ ، ابن إياس ، بدائع الزهور ج٢ ص ٤٣ .

(٣) النجوم الزهرة ج٤ ص ١٠٢ - ١٠٣ .

(٤) السلوك ج٤ ص ٥٣٨ .

(٥) السخاوى ، تحفة الاحباب ص ٢٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ج٤ ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٦) المقرئى ، السلوك ج٤ ص ٦١٠ .

برسبای للشيخ حيدر الرفاعي (١) وأخوته ، وأنعم عليه برزقه عشرين فدانا بأراضى تلك الناحية وجعلت زاوية للصوفية ، وعرف الشيخ حيدر منذ أن سكنها بشيخ التاج والسبع وجوه (٢) .

واستمرت المنظرة قائمة متنزها كبيرا يفد عليها الناس للفرجة ولزيارة الشيخ الرفاعي ، وكان المؤرخ 'ابن تغرى بردى' دائم التزول بها والمبيت بها أياما عديدة وقضى بها أوقاتا طيبة فى ضيافة الشيخ حيدر . (٣)

ولكن فى سلطنة الظاهر جقمق (٨٤٢-٨٥٧هـ) تم هدم المنظرة حيث أمر جقمق بهدمها حين أوحى إليه شخص يسمى محمد بن على بن اينال بأن هذا المكان يقع فيه الكثير من الفواحش من المتزهين والمتفرجين ، ويأثر ذلك الرجل هدم المنظرة فى شوال سنة ٨٤٨هـ وأخذ جميع ما كان هناك من الأخشاب والشبابيك النحاس والحجر والأجر ودام أشهر فى هدمها وباع من أنقاضها الكثير . (٤)
وصعب ذلك الهدم على الناس قاطبة ، وذكر المؤرخ 'ابن تغرى بردى' أنه لاصحة لتلك الادعاءات الباطلة لأن هذا المكان من أحسن أبنية مصر وأنزهها ، وأنه قد صار متنزها ذات صفة دينية صوفية منذ إقامة الشيخ حيدر به ، وقد ندم السلطان جقمق على هدم المنظرة بعد أن تبين له كذب ادعاءات ابن اينال هذا ، فأمر بالقبض عليه ، وعوض الشيخ حيدر بأن أسكنه بالقرب من زاوية الشيخ أحمد الرفاعي ثم أنعم عليه بمشيخة قبة النصر . (٥)

التنزة بالتاج والخمس وجوه

كانت منطقة البعل والتاج كما ذكرت ضواحي تقع شمال القاهرة وكانت تمثل بما تضم من مناظر واحدة من محاسن مصر ومفترجاتها ، وكانت تحوى الكثير من البساتين والحقول ذات المناظر الأخاذة بما تزرع بها من زراعات تسر الناظرين من رؤية هذه الخضرة الكبيرة الممتدة بزراعة نبات القوط

(١) هو الشيخ حيدر بن أحمد بن إبراهيم أبو الحسن الرفاعي الرومى الأصل ، العجمى المولد والنشأ ، المصرى الدار والوفاة الحنفى القدوة والمسلك ، ولد حوالى سنة ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م ومات سنة ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م ، وكان من أعلام الصوفية ومن أهل العلم والأدب ، والأخلاق الحميدة . أنظر : - ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى جده ص ١٨٩ - ١٩٥ .

(٢) نفسه ص ١٩٢ .

(٣) المنهل الصافى جده ص ١٩١ .

(٤) كان محمد بن على بن اينال هذا يعتريه جنون ونفخة عقل وعمل مساوى كثيرة ، وكان يشغل منصب أمير شكار (امير صيد) فى عهد الظاهر جقمق ، ولما هدم المنظرة شكته خوند ابنه المؤيد شيخ فامر جقمق بترسيمه والقبض عليه فهرب فترة ثم ظهر بعد ذلك بمدة ولزم داره . انظر : - ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ص ٦١ .

(٥) المنهل الصافى جده ص ١٩٤ .

(البرسيم) والكتان والبشني وما يحيط بها من الأشجار والنخيل . وفى زمن الربيع وفى أيام النيل يتنزّه بها خاصة وعامة أهل القاهرة منذ العصر الفاطمى ^(١) .

ولما أقام ' المؤيد شيخ ' بناء المنظرة كان كثير التنزه إليها هو وامرائه بل إنه سمح لعامة أهل مصر والقاهرة بمصاحبة مودبة فى تنزهاته ، وكان الناس يقيمون الخيام للإقامة هناك ، وكان المؤيد يبيت عدة ليالى فى منظرة الخمس وجوه وكانت الناس تتردد إليه لقضاء حوائجهم وللفرجة أيضا ^(٢) ، وفى ذلك الوقت أقام الأمير جمال الدين يوسف ناظر الجيش والخاص عمائر هائلة وسيلا ومكتبا ويستانا وغير ذلك فى التاج ^(٣) فكثرت تردد الناس الى هناك .

واستمر التاج والخمس وجوه منتزها للسلطين والناس حتى أن الملك الأشرف برسباى لما ذهب إليه يوم ١١ صفر ٨٢٨هـ أعجبه المكان جدا ولم يكن قد رآه من قبل ^(٤) وكثر تردد الزوار للمنطقة وخصوصا بعد إقامة الشيخ حيدر الرفاعى بالمنظرة .

هذا وقد شهدت منظرة الخمس وجوه احتفالا كبيرا فى شعبان سنة ٨٤٢هـ وذلك بمناسبة انتهاء قاضى القضاة ' بن حجر العسقلانى ' من تأليف كتابة فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، ففضل الاحتفال بذلك المؤلف الجليل بأعلى منظرة الخمس وجوه ، فأقام وليمة حافلة حضرها المقر الناصرى محمد بن السلطان برسباى وأعيان الدولة وأمرائها وقضاها وعلمائها وطلابها وكثير جدا من الناس ، ومدت هناك وليمة حافلة تحوى أطعمة فاخرة ومد سماط فاكهة وحلوى وسكر ، وكان الوقت شتاء والأرض مخضرة بأنواع الزراعات ، وقد اجتمع يومها بالمنظرة وحولها عالم كبير جدا من الرجال ونصب هناك سوق وضربت خيام عديدة فكانت من الأيام المذكورة المشهودة وأنفقت فيها أموال وأنشد الكثير من الشعراء بهذه المناسبة . ^(٥)

وقد استمرت المنظرة على حالها حتى تم هدمها فى عهد الظاهر جقمق ولكن المنطقة ظلت منتزها هاما طوال العصرين المملوكى والعثمانى .

ما قيل فى التاج والخمس وجوه :

أفاض الكثير من الشعراء والزجالين فى وصف التاج والخمس وجوه وما يحيط بها من مناظر خلابة . فقال فيها حجة :-

(١) المقرئى ، الخطط ج١ ص ٤٨١ .

(٢) المقرئى ، السلوك ج٤ ص ٥٢٨ ، ٥٣٨ ، ٥٤٠ - ٥٤١ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ج٤ ص ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم ج٤ ص ١٠٣ .

(٤) المقرئى ، السلوك ج١ ص ٦٧٩ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ج٤ ص ٢٧١ ، العيسى ، عقد الجمان (نشر الزهراء) ص ٢٥٤ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج٢ ص ٩٥ .

(٥) المقرئى ، السلوك ج٤ ص ١١٠٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج٢ ص ٢٠٧ .

سبع وجسره لتاج مصر تقول ما فى الوجود شبيهى
وعندنا ذو الوجوه يهجى وأنت تاج بفرد وجه

وفيه يقول الصاحب فخر الدين بن مكانس من موشح :-

والتاج يعلو فوق هام الزهر والسبعة الأوجه ذات البشر
وكل وجهة حولها كقصرى مثل بروج حل فيها بدر

وقد أتى فى كل برج سعد

ولبعضهم :-

محاسن مصر تبدو حين تجلى بتاج زائمه درر وقرط
وقد كتب الربيع بها سطورا وأتقن خطها شكل ونقط

وللعقلى :-

الروض من أنهاره وبهاره فى المصمت الفضى والدياج
تعلو رعيته ملوك غصونه هذا ياكليل وذاك بتاج^(١)

ثانياً : مطعم الطير بالريدانية

ذكر المقرئى أن الريدانية اسم لأرض اطلقت على بستان كبير انشأه ريدان الصبلى أحد خدام الخليفة الفاطمى العزيز بالله الذى كان يحمل المظلة على رأس الخليفة واختص بالخليفة الحاكم بأمر الله أن قتله الحاكم فى يوم الثلاثاء ٢٠ ذى الحجة سنة ٣٩٣هـ^(٢)

والريدانية كانت تقع فى حدود الصحراء الواقعة فى شمال القاهرة وكان العمران يتهى إليها لذا فقد أطلق اسم الريدانية على البستان وعلى ما جاوره من الأراضى الرملية الفضاء التى كانت تمتد فى ذلك الوقت من حد باب الحسينية حيث ميدان عبده باشا الآن وبين الصحراء التى فيها الآن ميدان

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ق١ ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) الخطط ج٢ ص ١٣٩ .

روكسى بمصر الجديدة ويؤيد ذلك ما ورد فى كتب المؤرخين وما حدث فى هذه المنطقة من وقائع ومعارك بين المماليك والعثمانيين ، ويدخل فى حدود الريدانية الآن الوايلى الصغير والعباسية وثكنات الجيش الواقعة على جانبى شارع الخليفة المأمون ومنشية البكرى ومصر الجديدة ، وحتى منتصف هذا القرن كانت أرض الوايلى الصغير أرضا زراعية فى المنطقة الواقعة الآن على جانبى شارع بين الجنانين وشارع أحمد سعيد بالعباسية بالقاهرة . (١)

مطعم الطير:

كان مطعم الطير منتزها سلطانيا ، وكان موقعة فريدا حيث يتوسط مكانا بين أرض صحراوية وأرض زراعية وقد بنى الناصر محمد هناك مسطبة ، ويمثل موقع مطعم الطير المنطقة التى يتوسطها الآن قبة العادل طومان باى (٢) (اثر رقم ٢) الواقعة فى ثكنات الجيش شمال العباسية حيث كانت المسطبة بجوار القبة .

التنزه والصيد واستقبال الرسل والضيوف عند مطعم الطير:

لما كان موضع مطعم الطير فريدا حيث يتوسط حدود الصحراء والزراعات كانت تلك البيئة تكثر بها الحيوانات والطيور البرية الشاردة ، لذلك حرص سلاطين المماليك على الذهاب لتلك المنطقة للاستمتاع بجوها النقى وخصوصا وأنهم كانوا يذهبون إليها فى بداية موسم الشتاء غالبا للصيد والرياضة والاستجمام فى ربوعها ، وكانوا يخرجون فى مواكب الى هناك مجهزة باللازم ، ويصحبون معهم أرباب الوظائف المتعلقة بالصيد على رأسهم أمير شكار والبازارية والحيوانات المدربة للصيد مثل الصقور والحيوانات والطيور التى يراد اصطيادها مثل الكراكي حيث يطلقها أمير شكار ويطلق وراءها الطيور الجارحة لاصطيادها (٣) حتى يتسلى السلطان برؤية هذا المنظر (٤) .

وكانت تلك الأيام بمثابة مهرجانات وأعياد شعبية إذ تزين القاهرة فى طريق الذهاب والعودة ويمتلأ طريق الموكب من القلعة حتى الريدانية بالمتفرجين .

ولما كان موضع مطعم الطير يمثل البوابة الشمالية للقاهرة أيضا لذا حرص السلاطين على استقبال

(١) محمد رمزى ، تعليقاته على النجوم الزاهرة ج٩ ص ٩ ، ج ١٠ ص ١٧١ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ج٤ ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، ج٥ ص ٤٣٢ .

(٣) عن مواكب السرحات والصيد والاسفار انظر :- عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ج٢ ص ١٣٣ - ١٣٧ .

(٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ج٩ ص ٢٩ ، حوادث الدهور ج٣ ص ٤١٦ ، ٤٨٤ .

ضيوفهم هناك بأنفسهم أو بواسطة مندوبين عنهم .

ومن السلاطين الذين داوموا على التنزه بمطعم الطير الناصر محمد بن قلاوون^(١) وابنه الصالح اسماعيل (٧٤٣ - ٧٤٦هـ)^(٢) ، وكذلك كان الظاهر برقوق كثير الذهاب لمطعم الطير منذ كان أمير حتى تسلطن^(٣) ، وعند مطعم الطير استقبل الظاهر برقوق ضيفه الكبير السلطان أحمد بن أويس^(٤) سلطان العراق وفارس طالبا النجدة من سلطان مصر للوقوف في وجه تيمور لئلا ، وقد وصل إلى مطعم الطير في يوم الثلاثاء ٢٧ ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ وأجرى له مراسم استقبال رسمية كالتى تجرى في هذه الأيام حيث قام لحجاب بتقديم أمراء الدولة وأعيانها للسلطان أحمد وسلموا عليه ، ثم استقبله السلطان برقوق وعانقة وطيب خاطره ووعد بمساعدته في استرداد كرسى مملكته من تيمور لئلا ، واستراح برقوق وضيفه فترة على المسطبة وخلع برقوق عليه قباء حرير بنفسجي بطراز عريض ررکش وقدم له فرسا من أفراسه بسرجه ذهب وكنبوش زركش وسلسلة ذهب ، وركبا وسارا وحولهما الأمراء والمماليك مرتين حسب منازلهم ووظائفهم في وسط مهرجان شعبي كبير إذ خرج الناس كلهم إلى الريداتية والصحراء التى امتلأت بهم مما أدهش وتعجب له السلطان أحمد من كثرة المتفرجين وواصل الموكب الى القلعة .^(٥)

ومن السلاطين الذين كانوا ينزلون لمطعم الطير للصيد والتنزه السلطان المؤيد شيخ الذى اهتم بذلك اهتماما كبيرا^(٦) .

وكان السلطان الأشرف برسبای (٨٢٥ - ٨٤١هـ) يداوم على النزول لمطعم الطير وغالبا في بداية فصل الشتاء حيث يرتدى السلطان والأمراء الملابس الصوفية المعدة لذلك^(٧) .

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢٩ . (٢) المقرئى ، السلوك ج٢ ص ٦٧٩ .

(٣) نفسه ج٢ ص ٣٦٥ ، ٧٢٦ ، ٧٨٩ ، تاريخ ابن الفرات مجلد ٩ ج١ ص ٢٣٥ .

(٤) هو السلطان غياث الدين أحمد بن أويس بن الشيخ حسن بن حسين بن أقبعا بن ايلكان صاحب بغداد وتبريز وغيرها من بلاد العراق ، ملك بعد أخيه في سنة ٧٨٤هـ واستمر ملكا على العراق حتى سنة ٧٩٥هـ حيث خرج فارا من تيمور لئلا استولى على بغداد ، وقصد مصر ومعه ٤٠٠ فارس من أصحابه ولما وصل إلى حلب أرسل إليها إلى السلطان بذلك فأمر السلطان برقوق بإكرامه ودعاه للقاهرة ، وظل في صراع على الحكم بالعراق وفارس حتى قتل سنة ٨١٣هـ وقد وصفه المؤرخون بأنه كان سفاسكا للدماء وظلما ، وله بعض الاهتمام بالعلم والأدب .

أنظر :- ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ج١ ص ٢٤٨ - ٢٥٩ .

(٥) عن هذا الموضوع بالتفصيل أنظر :-

تاريخ ابن قاضى شهية ص ٥٠٤ - ٥٠٥ ، تاريخ ابن الفرات مجلد ٩ ج٢ ص ٣٦٦ ، المقرئى السلوك ج٢

ص ٨٠٠ ، ابن حجر ، اتباه العمر ج١ ص ٧٩٦ ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس والابدان ج١ ص ٣٧٥ - ٣٧٧ .

(٦) العيى ، عقد الجمعان (بدون ناشر) ص ١٧٤ .

(٧) المقرئى ، السلوك ج٢ ص ٦٢٢ .

وكان السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ) يستقبل أمراء الشام عند مطعم الطير ويحتفل بهم احتفالا كبيرا وكذلك كان يستقبل أمراء مكة والحجاز وعلى رأسهم الأمير الشريف بركات بن حسن بن عجلان أمير مكة الذي كان يبالغ في إكرامه . (١)

وكان السلطان الأشرف إينال (٨٥٧ - ٨٦٥هـ) ينزل للتنزه والصيد عند مطعم الطير ويمد هناك الاسمطة الحافلة وكانت مواكبة من المواكب الهائلة ويخرج معظم الناس للفرجة . (٢)

ومثل تلك المهرجانات الشعبية تكررت في أيام السلطان الظاهر خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢هـ) . (٣)

وكان السلطان الغوري كثير التردد على مطعم الطير للتنزه والصيد بالإضافة لاستخدام المكان هناك لعمل التجارب على المدافع التي صنعت أيامه وكان أهل القاهرة وظواهرها يخرجون جميعا تلك الأيام للفرجة . (٤)

وفي العصر العثماني ظل الولاية يذهبون إلى مطعم الطير وخصوصا لمجاورته للمنشآت المعمارية العديدة التي أنشأها السلطان العادل طومان باي سنة ٩٠٦هـ / ١٥٠١م التي أهمها القبة التي كانوا يبيتون بها أوقاتا عديدة . (٥) وقد عرفت المنطقة منذ ذلك الوقت بالعادية وتمتعت بمكانة مرموقة في العصر العثماني حيث كان الولاية العثمانيين يتزلون بها وكانت محطة واستراحة لهم في ذهابهم وإيابهم ، كما كانت محطة استقبال للمسافرين والعائدين بطريق البر وكانت مركزا تجاريا هاما حيث كان هناك خان يسمى خان العادل يجتمع به المسافرين من قوافل التجارة والحج ، وظلت المنطقة متنزها حيث كانت الفرق العثمانية تلعب هناك القبق . (٦)

(١) المقرئى ، السلوك ج٢ ص ١٢٢٦ ، السخاوى ، الترمذى ص ١٥ ، ٧٥ ، ١٨٤ ، المعنى ، عقد الجمان (نش الزهراء) ص ٦٠١ .

(٢) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ج٢ ص ٢٨٠ .

(٣) نفسه ج٣ ص ٤١٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٨٤ ، ٥٠٣ ، ٥٠٩ ، ٥٣٠ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ج٢ ص ٢٣٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ج٢ ص ٤٣٢ .

* بنى السلطان الملك العادل طومان باي التي تولى السلطنة عدة شهور سنة ٩٠٦هـ تربة بجوار مطعم الطير وهذه التربة كانت تشكون من عدة وحدات معمارية هي القبة التي دفن بها ومسجد الذى استخدم أيضا كخانقاه وسبيل وساقية ومطبخ بالإضافة لوجود خان وعدة منشآت أخرى لم يتبق منها سوى هذه القبة الجليلة (اثر رقم ٢) .
انظر التفصيل : - محمد حمزه ، قراة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك ، ماجستير غير منشورة - كلية الآثار - جامعة القاهرة . ص ١٥٠ - ١٥٢ .

(٦) البكرى ، قطف الازهار (مخطوط) ورقة ١٣٩ .

ثالثاً: المطرية ونواحيها

كانت المطرية ونواحيها من أنزه الأماكن بمصر في العصور الملوكي والعثماني ، وكان التنزه والذهاب إليها وإلى نواحيها، من شعائر السلطنة الملوكية كما كان من شعائر الفاطميين .

وقد كانت المنطقة جديرة بمكانتها المرموقة لأن مساحتها الكبيرة الممتدة من حدائق القبة جنوباً حتى عين شمس شمالاً كانت عبارة عن بساتين وحقول زراعية ويجرى بأرضها البرك والترع والخلجان وأهمها خليج الزعفران .^(١) الذي كان منتزه سلطانيا ، إلى جانب شهرتها العالمية بما حوته من مقدسات ورموز مسيحية مثل شجرة مريم^(٢) وبئر ويستان البلسان وكنيسة العذراء بالإضافة لذلك فإنها محطة واستراحة الذاهبين والعائدين من وإلى الشام وسيناء ، ومكان استقبال للرسول والضيوف .

وقد ذكر الرحالة أن الطريق من القاهرة إلى المطرية كان مليئاً بالقصور الفخمة والاستراحات الجميلة على الجانبين التي تمثل دور ضيافة خاصة بكبار الأمراء .^(٣)

(١) عن خليج الزعفران انظر ما سبق ص ٣١٣ .

(٢) نسبت هذه الشجرة الى مريم العذراء حيث تروى القصص أن العائلة المقدسة لما هربت من حاكم فلسطين الروماني هيرود ووصلت أون "عين شمس" استراحات تحت ظل هذه الشجرة القديمة المورقة ومن ذلك الوقت عرفت بشجرة مريم ، وتضيف الأسطورة أن الطفل يسوع الناصري "عيسى عليه السلام" جلس تحت هذه الشجرة وضرب الأرض بقدمه فانفجرت عين من المياه العذبة المنعشة فشربت مريم وطفلها ويوسف النجار وحماتهم حتى ارتووا ، ثم غسلت العذراء ملابس طفلها بمياه هذه العين ثم ألقت بالمياه المتخلفة على عصا يوسف التي كان قد غرسها في الأرض فتحوّلت إلى شجرة البلسم المعروفة أيضاً باسم البلسان ، ثم أينعت هذه الشجرة وفاحت منها رائحة ذكية ، ولما تمت روعة البلسان وغدا عصره ناجعا لجميع الجروح والأمراض الجلدية المستعصية أصبح البلسان موضع رعاية وعناية الحكومة والناس . انظر :- سعاد ماهر ، مساجد مصر ج ٤ ص ٤٠ . Savary, Lettres Sur L'Egypte Paris 1786, I P. 127.

الهام ذهني ، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سلسلة تاريخ المصريين (١٩٢٢م) ص ٢١٦ .

(٣) ابن أبياس ، بدائع الزهور ج ١ ص ٢٠٧ . Breydenbac, Les Saintes Peregrinations (1483) ed F. Larrivaz Cairo 1904. P.45.

Von Harff, The Pilgrimage of Arnold Von Harff, Trans, Malcolm Letts, London, 1964. P. 109.

Abouseif (D), The North eastern Extension of Cairo Under the Mamluks" Ann Isl T.XVII (1981) P. 153.

Fabri, Le Voyage en Egypte, IFAO 1975 PP.526 F.,906.

وقد حرص الرحالة العرب والأجانب على زيارة المطرية خلال رحلاتهم إلى مصر وذلك لشهرة شجر البلسان بها الذى يستخرج منه دهن البلسم الذى لا مثيل لجودته فى جميع أنحاء العالم . (١)

وترجع أهمية البلسان للاستخدام الكهنوتى والطبى له فى الاقطار المسيحية فقد قال "المقرىزى" للملوك النصارى من الحبشة والروم والفرنج فيه غلو عظيم وهم يتهادونه من صاحب مصر ويرون أنهم لا يصح عندهم لأحد أن يتنصر إلا أن ينغمس فى ماء المعمودية ويعتقدون أنه لا بد أن يكون فى ماء المعمودية شئ من دهن البلسان ويسمونه الميرون (٢) وقال "ابن اياس" "أيضا" إن ملوك الافرنج تتغالى فى دهن هذا البلسم ويشترون بثقله ذهبا ولا يتم عندهم التنصير حتى يضعون من دهنه شيئا فى ماء المعمودية وينغمسون فيه" (٣) لذلك كان يحتكر التجارة فيه سلاطين الممالك فقط . (٤)

وقد انقطعت زراعته فى مصر فى أوائل القرن العاشر الهجرى (فى سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م بالتحديد) ، ويرجع ذلك إلى إتلاف أشجاره بسبب الحرب بين طوائف الممالك عقب وفاة السلطان قايتباى كما ذكر ذلك الرحالة الألمانى فون هارف الذى رار مصر فى أيام الناصر محمد بن قايتباى . (٥)

ولما انقطعت زراعته من أرض المطرية تنكد السلطان الغورى بسبب ذلك لأن مصر كان تفخر بزراعته على سائر البلاد ويعتبر أحد خصائصها ومفترجاتها . (٦)

"ولا يزال الغورى يتفحص أمره حتى أحضر إليه بلسان برى من بعض الأماكن بالحجاز وهو فى طينه فزرعة بالمطرية فى مكانه المشهور به فتج و طلع لما سقى من ماء تلك البئر التى هناك فتج فى هذه السنة وطلع ما كان قد بطل أمره فعده ذلك من محاسن الملك الأشرف قانصور الغورى " . (٧)

(١) عن الكلام عن البلسم وكيفية استخراجه وخصائصه أنظر: -

ابن حوقل ، صورة الأرض (ط ليدن ١٩٣٨م) ص ١٦٠- ١٦١ ، ناصر خسرو ، سفرنامه ص ٥٥- ٦٠ ، الأديسى ، نزعة المشتاق ص ٣٢٦ ، عبداللطيف البغدادي ، الإنادة والاعتبار ص ٢٢ ، ٤١ ، الهوى ، الاشارات إلى معرفة الزيارات (ط دمشق ١٩٥٣م) ص ٣٤ ، المقرىزى ، الخطط ج١ ص ٢٣٠- ٢٣١ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ق١ ص ٥٧ ، ج٢ ص ١٤٩ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ج٢ ص ٢٨٧

(٢) الخطط ج١ ص ٢٣٠ .

(٣) بدائع الزهور ج٢ ص ١٤٩ .

(٤) Abouseif, Op. Cit., P. 160.

IBID. (٥)

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ج٢ ص ١٤٩ ، ابن ظهيرة ، الفضائل الباهرة ص ١٣٣ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ج٣ ص ٢٨٧ .

(٧) ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ص ١٤٩ .

وكانت المطرية تنتقل في تبعيتها من ولاية لأخرى من وقت لآخر فكانت أولا تعد من ضواحي مصر ثم تبعت الشرقية وأحيانا القليوبية ^(١) إلا أنها في العصر المملوكي وردت في الوثائق والمصادر أنها من ضواحي القاهرة . ^(٢)

وكانت تدخل في العصر المملوكي في إقطاع الأمراء الكبار وأحيانا يستخلصها السلاطين لأنفسهم وأحيانا تكون أرضها أملاك وأوقاف . ^(٣)

ولما كانت المطرية عامرة بالبساتين المثمرة لذا حرص بعض السلاطين أن يكون لهم بساتين بها فعلى سبيل المثال ورد بوثيقة المؤيد شيخ أنه كان له بستان يشمل على سياج مبنى بالبلسان وغير ذلك وماهو من حقوقه من أبنية ومنظرة وآبار وسواقي وأنشأب مختلفة . ^(٤)

وكان للأشرف قانصور الغوري ثلاث قطع أرض متجاورات بالمطرية وقفها على بعض عمائره . ^(٥)

ولا تزال بقايا شجرة مريم موجودة الآن وبجوارها البئر والكنيسة المجاورة لها ، وحتى منتصف هذا القرن كان حول الكنيسة بستان كبير في محل بستان البلسان إلا إنه ضاع في ظل التعديلات المستمرة على الآثار .

ويمثل موقع المطرية وجهاتها الآن احياء القبة والزيتون والمطرية وعين شمس وشرقها العباسية ومصر الجديدة وغربها الزاوية الحمراء والأميرية .

التنزه والصيد والاحتفالات بالمطرية ؛

كان الخروج للمطرية ونواحيها من شعائر السلطنة المملوكية كما كان أيام الفاطميين ^(٦) ، فقد كان سلاطين المماليك يخرجون اليها في مواكب عظيمة ويصحبون معهم كبار الأمراء ورجال الدولة

(١) محمد رمزي ، القاموس الجغرافي ، ق٢ ج١ ص ١١ .

(٢) وثيقة المؤيد رقم ٩٣٨ أوقاف سطر ٣٤٤ ، كتاب وقف السلطان الغوري رقم ٨٨٢ أوقاف .

(٣) على سبيل المثال ذكر ابن تغري بردي " ان المطرية كانت من ضمن اقطاع الأمير بشتك ولما فرق السلطان المنصور ابوبكر بن محمد بن قلاوون اقطاعا على الامراء ضم المطرية لنفسه " النجوم ج١٠ ص ٨ - ٩ .

وذكر " ابن الجيعان " ان المطرية كانت عبرتها ١٥٠٠ دينار والبلسم ٣٠٠٠ دينار . التحفة السنية ص ٦ .

(٤) الوثيقة رقم ٩٣٨ أوقاف سطرى ٣٤٣ - ٣٤٤ نشر : - فهمى عبدالمليم ، العمارة العربية بمصر في عصر السلطان المؤيد شيخ .

(٥) كتاب الوقف رقم ٨٨٢ أوقاف ١٤٢ - ١٤٣ .

(٦) كان الخلفاء الفاطميون يتوجهون كثيرا الى مسجد تبر بناحية المطرية .

* ومسجد تبر قال عنه " المقرئى " هذا المسجد خارج القاهرة مما يلى الخلدق عرف قديما بالبئر والجميزة وعرف ' بمسجد تبر وتسميه العامة مسجد التين وهو خطأ وموضعه خارج القاهرة قريبا من المطرية " . كما ذكر " المقرئى " =

والجنود ، وينصبون هناك الخيام ومعهم كل ما يلزمهم من مأكّل ومشرب ووسائل صيد وغير ذلك لأنهم أحيانا كثيرة كانوا يبيتون هناك .

وكانت المنطقة من مناطق الصيد الشهيرة فامتدادها كبير من القبة جنوبا لعين شمس شمالا ويجاورها من الشرق الصحراء الريدانية التى حلت محلها مصر الجديدة ويحدها غربا الأميرية والزاوية الحمراء ، ويجرى بأرضها الخلجان والترع والملق .

وكان السلاطين يزورون بئر وبستان البلسان وشجرة مريم والكنيسة المجاورة لها ويقومون احتفالات كبيرة يحييها مغنيو العصر وأصحاب الآلات وتعد هناك الأسطة والموائد الحافلة التى يقيمها السلاطين لأمرائهم أو العكس وتكلفتها شئ كثير .

ويوم خروج السلطان لتلك الجهات يكون أشبه بأيام الأعياد حيث يصطف الآلاف من سكان القاهرة فى طريق الموكب فى الذهاب والإياب وتزين القاهرة أحسن زينة وتضاء بالوف الشموع والقناديل .

ويكون الاحتفال أكثر روعة فى أيام أعياد النصرارى التى قد يتصادف وجود السلطان هناك ^(١) ، فعند شجرة مريم وبئر وبستان البلسان يجرى الاحتفال بعيد الزيتونة الذى يسمى أيضا عيد الشئمة ، ويذكر "ابن الحاج" ان المسلمين كانوا يشاركون الأقباط فى هذا العيد فيصحبونهم إلى هناك إلى بئر البلسان بالمطرية حيث يغتسلون حيث يعتقد أن العذراء مريم غسلت فيه ثياب المسيح عليه السلام . ^(٢)

= نقلا عن القضاء والكندى وابن عبد الظاهر ان مسجد تبر هذا بنى على رأس إبراهيم بن عبدالله بن حسن بن الحسين ابن على بن ابي طالب الذى قتل سنة ١٤٥هـ وأثروا برأسه إلى مصر فى شهر ذى الحجة ، أما تبر هذا فهو أحد الامراء الاكابر فى أيام الاستاذ كافور الإخشيدى وكان له دور فى مقاومة جهر الصقلى قائد جيوش الفاطميين وقد قبض عليه وحبس حتى توفى سنة ٣٦٠هـ / ٩٧١م ، وقيل أنه انتحر فسلخ بعد موته وصلب وحشى جلده تبنا ولعل ذلك سببا فى أن العامة كانت تسمى هذا المسجد مسجد التين . الخطط جـ ٢ ص ٤١٣ .

* ومسجد تبر هذا يقع بحدثة قصر القبة من الجهة الشرقية ، وقد أزلت السيدة شفق نور والدة الخديوى توفيق بقاياها الاثرية وأنشأته من جديد فى سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م طبقا لحساب الجمل على اللوحة الرخامية التى فوق باب المسجد المنقوش بها :

رعا طالع الأنوار فى مسجد التبر	به البطل التبرى فى قبه السر
لقد أنشأته شفق نور وحبذا	بها حرم المولى الخديوى ذى القدر
بوالدة التوفيق أنعم مؤرخنا	أمد أساس الثور فى مسجد التبرى

٤٥ + ١٢٢ + ٢٨٧ + ٩٠ + ١٠٧ + ٤٦٣ = ١٢٩٤هـ

أنظر : - محمد كمال السيد ، أسماء ومسميات ص ٤١٩ - ٤٢٠ .

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور ج٤ ص ٢٩٧ .

(٢) للمدخل جـ ٢ ص ٥٩ - ٦٠ .

وصارت المنطقة أكثر قصودا عندما بنى الأمير يشبك من مهدى الدوادار قبة عظيمة برسم التنزه وأنشأ الى جانبها مدرسة وأماكن كثيرة ، وقد بنيت هذه القبة فيما بين سنتى ٨١١ ، ٨٨٢هـ / ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ م ، وقد افتتحها السلطان الملك الأشرف قايتباى فى جمادى الأولى ٨٨٢هـ / اغسطس ١٤٧٧م وأعجب بها فأقام هناك يوما وليلة وأثنى على منشئها (١) .

ومن السلاطين الذين واطبوا على الخروج للمطرية ونواحيها الناصر حسن بن قلاوون (٢) والظاهر بوقوق (٣) والناصر فرج (٤) .

وكان الأشرف قايتباى أكثر الملوك خروجاً الى المطرية ونواحيها وخليج الزعفران وبصفة خاصة بعد بناء قبة يشبك الذى بات بها مرارا وتكرارا ، وكان يقيم بها الأسطة الحافلة لأمراته وضيوفه الذين

(١) الأمير يشبك من مهدى من خيرة أمراء المماليك الجراكسة ، و له مآثر عظيمة ، وكان له فضل فى تجميل القاهرة فقد اهتم بإصلاح الطرق وتوسيعها وإصلاح واجهات الربوع التى تطل على الشوارع وهدم الكثير مما كان يعوق سعتها ، ومهد الشارع الرئيسى بالقاهرة وترتب على ذلك اكتشاف سلم باب مسجد الصالح طلائع وإصلاح مسجدي المؤيد والفاكهاني وغيرهما .

وكان شغوا بالعمارة فأنشأ كثيرا من الآثار التى لم يتبق منها سوى زيادته فى قصر الأمير قوصون ومنارة مسجد الإمام الليث وقبة القداوية وهذه القبة ، وقد قتل يشبك فى إحدى حملاته فى الرها فى رمضان سنة ٨٨٥هـ / نوفمبر ١٤٨٠م .

* وهذه القبة من القباب الكبيرة امتازت بطراز خاص لم يكن شائعا بقباب مصر يومئذ ، وتسود خارجها البساطة بخلاف قباب عصرها ، وهى مكونة من قاعدة حجرية فوقها قبة بالطوب مقامة على منطقة انتقال عبارة عن أربع حنايا ركنية معقودة بمقدب مدبب بكل حنية عقد ثلاثى الفصوص وقد اوجد المعمار على جانبى كل حنية أى فى كوشتها مثلثين قمها لأسفل وقاعدتها لأعلى ليشاركا منطقة الانتقال فى إكمال استدارة القبة ، وقد كسيت من الداخل بالرخام المختلف الألوان وحوت كتابات قرآنية وإنشائية غاية فى الروعة ذات تذهيب والوان جميلة .

وقد ألحق مصطفى باشا.فاصل فى سنة ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م جنوب القبة جامعا ذات منارة اسطوانية وقد جدد السلطان الغورى هذه القبة فنسبت له فترة من الزمن كما جددت عدة مرات فى العصر العثمانى وعلى يد لجنة حفظ الآثار العربية .

وكان يشبك يبنائه قبة هذه مقتديا بالفاطميين الذين أنشأوا العديد من القباب والمناظر والاستراحات فى ضواحي القاهرة لأجل التنزه والتفرج مثل قبة الهواء ومنظرة التاج ومنظرة الخمس وجوه وغيرهم . انظر بالتفصيل : -

ابن اجا ، تاريخ الامير يشبك الظاهرى (تحقيق عبدالقادر طليمات) القاهرة ١٩٧٣م ، السخاوى ، الضوء اللامع ج١ ص ٢٧٢ - ٢٧٤ . حسن عبدالوهاب ، تاريخ المساجد الاثرية ص ٢٥٨ - ٢٦٠ ، سامى عبدالحليم ، الامير يشبك من مهدى واعماله المعمارية بالقاهرة ، ماجستير - جامعة القاهرة سنة ١٩٧٠م .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ق ١ ص ٥٦٨ .

(٣) المقرئى ، السلوك ج٣ ص ٤٨٢ ، ابن الصيرفى : نزهة النفوس ج١ ص ٣٧٣ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ق ٢ ص ٨١٤ .

اصطحبهم وأضافهم هناك ، مثل جم بن عثمان ، وأحيانا كان كبار الأمراء والوزراء هم الذين يستضيفون السلطان هناك منهم الأمير ابن مزهر كاتب السر والاتابكى أريك . (١)

كذلك اعتاد السلطان الناصر محمد بن قايى على الذهاب إلى هناك (٢) وكذلك الظاهر قانصوه أبو سعيد . (٣)

وكان السلطان الأشرف قانصوه الغورى مغرما بالتنزه بالمطرية ونواحيها فكان غالبا مايقضى عدة أيام بليلاتها متنقلا ما بين قبة العادل طومان باى إلى مطعم الطير والمسطة السلطانية هناك حيث يستعرض ويجرب المدافع ، ويذهب من هناك إلى بة يشبك فيقيم حفلات كبيرة يحييها كبار المغنيين والموسيقين ، وأحيانا كانت نزواته أعياد النصارى . (٤)

وكانت مواكبة من أعظم المواكب ، وقد حدث ذات يوم أنه أراد أن يغير من طابع الموكب بأن يحمل على رأسه القبة والطير (المظلة) وهما من شعائر السلطنة التى تجرى فى بعض الاحتفالات والمناسبات وأهمها موكب العيدين ، فنهاه الأمراء عن ذلك وقالوا له أن العادة لم تجر بمثل ذلك من قبل . (٥)

وقد ذكر "ابن اياس" أن السلطان الأشرف قانصوه الغورى أمر بحفر بئر عند قبة يشبك لإرواء المسافرين وأمر بعمل فساقى ، وأنه شرع فى عمارة قصر كبير وعمل بحيرة طولها نحو مائة ذراع ، وقد شرع فى تلك الأعمال فى ذى القعدة سنة ٩١٨ هـ وظل يذهب إلى هناك ويكشف عن تلك الأعمال حتى افتتح الفساقى فى يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة ٩٢٠ هـ وأطلق فيها الماء ويات هناك وانشرح للغاية ، ولكن "ابن اياس" لم يذكر القصر وبقى العمارة . (٦)

(١) ابن الصيرفى ، انباء الهصر ص ٤٧ ، ١٦٦ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٣٢٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٣ ، ٦٣ ، ١٤٧ ، ١٦٢ ، ١٨٢ ، ١٨٧ ، ٢٢٥ ، السخاوى ، الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠٥ ، ج ١٠ ص ٢٧٤ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٤ ، ٣٤١ ، ٤٠٠ .

(٣) نفسه ج ٣ ص ٤٢٨ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٤ ص ١٧١ ، ٢١٩ ، ٢٤٤ ، ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ ، ٣١١ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٥٢ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٩ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٣٨٥ ، ٤٠٩ ، ٤٣١ ، ٤٤٦ ، ٤٦٦ ، ٤٧٠ .

(٥) نفسه ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

* ويبدو ان العادة فى ركوب السلطان للصيد وفى مواكب السرحات والمتنزهات أن يكون بغير القبة والطير دلالة خاصة على التحرر والانطلاق .

(٦) بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٣٠٢ ، ٣١١ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

* من الملاحظ هنا أن وثائق السلطان الغورى لم تذكر شيئا عن القصر الذى بناه بجوار قبة يشبك وأغلب الظن ان الغورى قد عدل عن عمله لأن الظروف وقتها لم تكن تسمح بذلك كما يقول ابن اياس .

وقد ذكر ابن اياس فى كتابه طبعة بولاق ج ٣ ص ٦٢ أن الغورى أنشأ عند القبة مساطب عليها دعامات .

وقد ذكر "ابن اياس" أنه كان يوجد بجوار قبة يشبك ملفة كبيرة تملأ بالماء عند الفيضان ويكون منظرها أخذاً . (١)

وفى العصر العثمانى استمرت المطرية موضع تنزه كبير فكان الأمراء والممالك والفرق العثمانية يفضلون الذهاب لتلك الأماكن الخلوية للترويح عن النفس وللتصالح بين طوائفهم أحياناً .

ولما كانت المطرية فى طريق الجيش العثمانى الفاتح لمصر كانت المعركة الفاصلة قد دارت فى الريدانية بجوارها وكذلك بعض عمليات المقاومة المملوكية بعدها ، لذا أراد السلطان سليم الأول الاستمتاع بتلك الأماكن الجميلة التى رآها فى طريقة فذكر "ابن اياس" أنه "توجه إلى بئر البلسان التى بالمطرية وأضاف هناك محمد بن الرئيس شمس الدين القوصونى فمد له مدة حفلة وكذلك الشيخ دمرداش وانشرح ابن عثمان فى ذلك اليوم إلى الغاية وجلس على بئر البلسان وغسل وجهه من مائها وأقام هناك الى بعد العصر" (٢)

وكذلك كان ملك الأمراء خاير بك يذهب إلى قبة الأمير يشبك وتعد هناك الموائد الخافلة . (٣)

رابعاً : الحقول (الغيطان) واليساقين والضواحي

تمثل غيطان مصر وبساتينها متزهات بديعة فى العصرين المملوكى والعثمانى وكانت تحيط بالقاهرة من الشمال والغرب والجنوب ، وقد وصفها المؤرخ "ابن ظهيرة" بأنها "عظيمة وكثيرة ومنظرها عالية ومياهها جارئة ، فيها كثير من الأشجار النضرة والأزهار العطرة والرياحين ، والفواكة الكثيرة من غالب الثمار لكن الخوامض فيها أكثر" (٤)

وثمة مشهد خللاب لا تزال نرى مثيله إلى اليوم بريفنا المصرى ، كان يغلب على حقول مصر والقاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى وعد واحد من محاسن القاهرة ألا وهو منظر القرط (البرسيم) بأراضى مصر فى أيام الربيع ، فإنها تتميز تربة خضراء بمنظر بهيج إذا وقف الناظر فيها يرى مد بصره يمينا وشمالا بساطا أخضر ، جلّت عظمة خالقة ، ويشم فيه روائح طيبة ونسيما طيبا ، ويشاهد غيما كثيفا وظلا رقيقا وطيورا مختلفة الألوان والأشكال والأصوات وليهذا قال بعض الحكماء : من أراد أن ينظر إلى شبة الجنة فليتنظر إلى ديار مصر فى زمن الربيع قبل طلوع الشمس . (٥)

(١) نفسه جده ص ٢٢٠ .

(٢) بدائع الزهور جده ص ١٨٨ .

(٣) نفسه ص ٢٢٠ ، ٣٧٨ .

(٤) الفضائل الباهرة فى محاسن مصر والقاهرة ص ٢٠١ .

(٥) نفسه .

وبالنظر إلى خرائط الحملة الفرنسية للقاهرة نرى إحاطة الحقول (الغيطان) والبساتين بحدودها الشمالية والغربية والجنوبية ، وكانت مسماة بأسماء الامراء والشيخ ومن أكبرها غيط (بستان) قاسم بك الذى كان يجتمع فيه أعضاء المعهد المصرى ومجلس العلوم والفنون خلال الحملة ، وكان يوجد داخل المدينة نفسها عدد كبير من البساتين البهيجة أهمها اثنان وعشرون بستانا يسمى الواحد منها تبعا لحجمة غيط أو جنية . (١)

وقد قارن "جومار" بين بساتين القاهرة وبساتين فرنسا ذكر أن بها اختلافا كبيرا لأن بساتين القاهرة كانت تتألف من مشاجر كثيفة ومجاميع من أشجار البرتقال والليمون وتكسيات العنب وفيها أشجار السنط والتين والجميز أضخم أشجار مصر - متداخلة مع النخيل ذى الجذع المتطاوول وأشجار التوت والرمال والنبق والآس والسنط المصرى وأشجار الموز ذى الأوراق العريضة والفاكهة اللذيذة ، وكانت بساتين فرنسا على النمط المعمول به بساتين وحدائق اليوم من تقسيمها بممرات وتغطية أرضها بالنجيل الأخضر وإقامة المقاعد بها وغير ذلك . (٢)

ولكن جومار يبدى إعجابه بلحمة جمال وجددها فى حدائق القاهرة بقوله ' وإذا كنا لانشعر فى هذه البساتين بمتعة الرحلة ففى المقابل يمكننا أن نأخذ بها قسطا من الراحة داخل أكشاك مغطاة بالأعراش حيث يدخن فيه مرتادوها دخانا طيب الرائحة وحيث نستششق بها طوال العام هواءا تفوح منه أذكى أنواع العطور' . (٣)

وكانت ضواحي القاهرة من متزهاتها فى العصرين المملوكى والعثمانى وكانت تحيط بها الحقول والبساتين من كل جانب ، ومن أهم تلك الضواحي أرض البعل والتاج والحدق ، وكوم الريش ، ومنية السرج .

١- أرض البعل والتاج :

أرض البعل (٤) كانت فى العصر الفاطمى بستانا يعرف بالبعل وفيه منظره البعل وقد أنشأهما الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى وقد جعل على هذا البستان سورا . (٥)

(١) جومار ، وصف مدينة القاهرة ص ٨١ .

(٢) جومار ، وصف مدينة القاهرة ص ٨١ .

(٣) نفسه ص ٨١ - ٨٢ .

(٤) البعل فى اللغة هو الزرع يشرب بعروقه فيستغنى عن السقى ، والبعل الأرض المرتفعة التى لا يصيبها المطر إلا مرة واحدة فى السنة ، وقيل البعل كل شجر أو روع لا يبقى ، وقيل البعل ما سقته السماء وقد استعمل الموضوع ، والبعل من النخل ما شرب بعروقه من غير سقى ولا ماء ، وقيل هو ما اكثى بماء السماء ، والبعل ما أعطى من الاتاوة على سقى النخل . انظر : - مادة بعل فى المعجم الوسيط ، المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٢٩ .

(٥) المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ٤٨٠ - ٤٨١ ، ج ٢ ص ١٢٩ .

وأرض التاج كانت فى العصر الفاطمى بستانا وفيه منظره التاج بناها الأفضل ايضا ، وكان بستان التاج مجاورا لبستان البعل ويجاورهما بستان الخمس وجوه ، وكانت تلك البساتين والمناظر من أجل متزهات الخلفاء والوزراء الفاطميين . (١)

وأرض البعل تقع فى جانب الخليج الغربى بحرى أرض الطباله مقابل قناطر الاور ، وقد ذكر "المقرىزى" أنها فى أيامه كانت مزرعة ويخرج الناس للتنزه هناك أيام النيل والربيع ، وقد خربت المناظر آنذاك وبقي منها آثار ادركها المقرىزى يعطن بها الكتان تدل على عظمتها وجلالته فى حال عمارتها . (٢)

أما أرض التاج أيام المقرىزى فقد زالت عنها الاشجار واستقرت فى أراضى منية السبرج الخراجية وفى أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنيين له ساق طويل وزهرة يشبه اللينوفر وإذا أشرقت الشمس انفتح فصار منظرا انيقا وإذا غربت الشمس انضم (٣) ، وربما هو الذى نعرفه اليوم باسم عباد الشمس .

ويمثل أرض البعل الآن المنطقة السكنية فى غمرة والشرابية المحدودة من الشرق بشارع الخليج المصرى (بورسعيد) ومن الشمال بشارع الآلايلى وما فى امتداده ومن الغرب بخط السكة الحديد الموصل الى محطة مصر ومن الجنوب بشارع الظاهر وما فى امتداده . (٤)

وأرض التاج تقع شمال المنطقة السابقة ويشملها الآن المنطقة السكنية المعروفة بمهمشه وحدها الشرقى شارع الخليج المصرى أيضا والحده الشمالى شارع معمل الصابون ومن الغرب السكة الحديد ومن الجنوب شارع الآلايلى وما فى امتداده .

٢- الخندق :

الخندق (٥) قرية خارج باب الفتوح شمال القاهرة كانت تعرف أولا بمنية الاصبغ نسبة الى الاصبغ

(١) نفسه .

(٢) نفسه .

(٣) المقرىزى ، الخطوط ج ٢ ص ١٢٩ .

(٤) انظر أيضا : - محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، القسم الاول ، ص ١٥ - ١٦ .

(٥) الخندق هذا الذى نسمت القرية به ترجع قصته إلى أول سنوات الدولة الفاطمية بمصر ، فبعد أن اختط القائد جوه القاهرة فى سنة ٣٥٨هـ أمر المغاربة أن يحفروا خندقا من الجبل إلى الإبلز (وهو الطين الذى يخلفه نهر النيل على وجه الأرض بعد ذهابه) شمال القاهرة فى طريق القادم من الشام عشرة عشر أذرع فى عمق مثلها ، فبدىء فى حفره يوم السبت حادى عشر شعبان سنة ٣٦٠هـ وفرع الحفر فى أيام سيرة ثم حفر خندقا آخر قدامه وعمقه =

بن عبدالعزيز بن مروان^(١) ، ثم صار بستانا جليلا من جملة البساتين السلطانية فى أيام الخلفاء الفاطميين ، وقال المقرئى عن الخندق فى العصر المملوكى " وأدركت الخندق قرية لطيفة يبرز الناس من القاهرة إليها ليتنزهوا بها فى أيام النيل والربيع ، ويسكنها طائفة كبيرة ، وفيها بساتين عامرة بالنخيل الفاخر والثمار وبها سوق وجامع تقام به الجمعة وعليه قطعة أرض من أرض الخندق يتولاهما خطيبه ، فلما كانت الحوادث والمحن من سنة ست وثمانمائة خربت قرية الخندق ورحل أهلها منها ونقلت الخطبة من جامعة إلى جامع بالحسينية وبقي معطلا من ذكر الله تعالى وإقامة الصلاة مدة ثم فى شعبان سنة خمس عشرة وثمانمائة هدمه الأمير طوغان الدوادار وأخذ عمده فلم يبق إلا بقية أطلاله وكانت قرية الخندق كأنها من حسنها ضرة لكوم الريش وكانت تجاهها من شرقها فخريتا جميعا^(٢)

ولكننا نجد أن العمارة عادت بعض الشيء عقب تلك المحن وظلت الخندق منتزها بعد ذلك .^(٣)
وكان قرية الخندق الآن المنطقة الواقعة حول دير الملاك البحرى وما جاورها من منطقة حدائق القبة بالقاهرة .^(٤)

= ونصب عليه باب يدخل منه وهو الباب الذى كان على ميدان بستان الإخشيد ، ويقصد بذلك أن يقاتل القرامطة من وراء هذا الخندق فليل له من حيث الخندق وخندق العبيد والحفرة .

المقرئى ، الخطط جـ ٢ ص ١٣٦ .

* ولمصادفة مرور الخندق الخارجى المحفور من الجبل الأحمر إلى النيل بجوار منية الإصبغ من جهتها البحرية اشتهرت هذه القرية من ذلك الوقت باسم الخندق .

* وقد حقق المرحوم الأستاذ محمد رمزى مسار الخندق فقال " وبالبحت عن المكان الذى يمر فيه الخندق الخارجى المذكور تبين لى أنه كان يبدأ من قاعدة الجبل الأحمر ثم يسير إلى الشمال الغربى مارا بشارع السكة البيضاء إلى نهايته الغربية ومن هناك يعتدل إلى الشمال ثم يسير فى طريقه إلى الزاوية القبلية العربية من حوش كلية العلوم بسرائى الزعفران (مبنى جامعة عين شمس الآن) ، ومن هناك ينعطف الخندق إلى الغرب ويسير فى طريقه إلى أن يتلاقى بشارع الملك (شارع مصر والسودان حاليا) تجاه مدخل شارع إسرائيل ومن هناك يسير الخندق إلى الغرب مارا فى شمال قرية منية الإصبغ وقرية الزاوية الحمراء ثم يسير فى طريقه إلى الغرب إلى أن ينتهى بالنيل وكان شاطئه النيل الشرقى فى اتجاه الزاوية الحمراء فى ذلك الوقت أى فى سنة حفر الخندق يقع فى المكان الذى يمتد فيه الآن جسر السكة الحديدية الموصلة من محطة مصر إلى الاسكندرية وبعد ذلك طرح البحر حتى وصل شاطئه إلى مجراه الحالى " .

محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق ٢ ج ١ ص ٥٦ - ٥٧ .

(١) المقرئى ، الخطط جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٢) الخطط جـ ٢ ص ١٣٨ .

(٣) المقرئى ، السلوك ج ٢ ص ٦٧٩ ، ابن نغرى بردى ، النجوم ج ١٤ ص ٢٧١ .

(٤) محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ق ٢ ج ١ ص ٥٦ .

٣. كوم الريش (الزاوية الحمراء) :

كوم الريش اسم لبلد فيما بين أرض البعل ومنية السرج ، وكان النيل يمر بغربيها بعد مروءة بغربى أرض البعل^(١) وكان كوم الريش من أجمل متنزهات القاهرة ورغب أعيان الناس فى سكنها للتنزه بها^(٢) ، وقبل المحن التى تعرضت لها القاهرة ابتداء من سنة ٨٠٦ هـ كان يسكن بكوم الريش أمراء دائما ، وكان من جملة من سكن فيها دائما نحو الثمانمائة من الجند السلطاني^(٣) .

وعن عمارتها قال المقرئى " وأنا أدركت بها سوقا عامرا بالمعاش بأشواعها من المأكول ولا أعرف اليوم بالقاهرة مثله فى كثرة المأكول وأدركت بها حساما وجامعين تقام بهما الجمعة وموقف مكارية ومنازة لا يقدر الواصف أن يعبر عن حسنهما لما اشتملت عليه من كل معنى رائع بهيج^(٤) " .

وعما آلت إليه فى زمنه من خراب قال " وما برحت على ذلك الى أن حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع وجهلت طرقها وتغيرت معاهدها ونزل بها من الوحشة ما أبكاني وأنشدت فى رؤيتها عند مشاهدتها خرابا :

قفرا كأنك لم تكن تلهو بها فى نعمة وأوانس أتراب

" وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة أن أخذهم شديدا " (٥) (سورة هود الآية ١٠٢) .

ولكن الأزمان التى بدأت سنة ٨٠٦ هـ لم تدم ، وفى أيام المؤيد شيخ بدأ التعمير يعود للقاهرة ، وعادت كوم الريش إلى ماكانت عليه سابقا أثناء سلطنة الملك الأشرف قايتباى ، فقد أنشأ بها زاوية تجاه جامع قيدان دهنت حيطانها باللون الأحمر فعرفت بالزاوية الحمراء وكان ذلك سنة ٨٩٠ هـ ، وقد عرفت كوم الريش منذ ذلك الوقت باسم الزاوية الحمراء وكان ذلك على يد أبو البقاء ابن الجيعان .^(٦)

وقد ذكر " ابن إياس " أنه فى جمادى الأولى سنة ٨٩٦ هـ " انتهت عمارة أبو البقاء ابن الجيعان من "

(١) المقرئى ، الخطط ج٢ ص ١٣٠ .

* وقال المقرئى عن النيل وأثره على كوم الريش " وأدركت آثار الجروف باقية من غربى البعل وغربى كوم الريش إلى أطراف المنية (منية السرج) حتى تغيرت الأحوال من بعد سنة ست وثمانمائة ففاض ماء النيل فى أيام الزيادة ونزل فى الدرب الذى كان يسلك فيه من أرض الطبالة إلى المنية فانقطع هذا الدرب وترك الناس سلوكه " .

(٢) المقرئى ، الخطط ج٢ ص ١٣٠ .

(٣) نفسه .

(٤) نفسه .

(٥) نفسه .

(٦) السخاوى ، الضوء اللامع ج٦ ص ٢٠٩ . محمد رمزى ، القاموس الجغرافى ج ٢ ص ١١١ ، تعليقه على النجوم الزاهرة ج٩ ص ٢٠٣ .

تجديد ما عمره فى الزاوية الحمراء التى عند قناطر الأوز وصارت من جملة مفترجات القاهرة ، وفى ذلك يقول بعض الشعراء : -

عجبت لجامع قد راد حسنا وأبدع فى التزخرف والبناء
به أنهار تجرى فى جنان وقصر شاهق لأبى البقاء
وصنع هناك جامعا بخطبة وجاء فى أحسن المباني * (١)

ونفهم من كلام ابن اياس ان ابن الجيعان قد حول الزاوية إلى جامع بخطبه ، ويرسم لنا ابن اياس صورة للمنطقة آنذاك بقوله فى ترجمته لابن الجيعان (٢) انه هو الذى " أنشأ عمارة الزاوية الحمراء وجعل بها خطبة والخوض والسيل ، وأنشأ هناك القصور والمناظر والغيط الحافل وصار ذلك المكان من جملة مفترجات القاهرة وتسعى إليه الناس فى زمن النيل بسبب الفرجة هناك وصار عوضا عن التاج والسبعة الوجوه التى كانت من المفترجات القديمة " (٣)

وقد ظلت أعمال ابن الجيعان قائمة فى العصر العثمانى وكانت الزاوية معروفة باسمه وقد آل القصر الذى أنشأه والجنيته الملحقه به وكذلك الاراضى والغيط الذى كان جاريا فى أوقافه إلى الأمير عثمان كتخدا القادر وغلى فى محرم سنة ١١٤٥هـ / ١٧٣٢م (٤)

٤ - منية السيرج :

منية السيرج لا تزال موجودة للآن بشبرا بالقاهرة ، وهى بلدة قديمة لها أهميتها لسوقها فى طريق الاسكندرية ، وسميت بهذا الاسم لأنه كان بها معاصر كثيرة للسمسم الذى يستخرج منه زيت السيرج المعروف بالسيرج وهى تعرف أيضا بمنية الأمير ومنية الامراء لكثرة من سكن بها منهم فى العصر المملوكى ، وكانت آنذاك عامرة بدور السكنى والقصور وجامع وزوايا وحمامات وبساتين ومتنزهات وكان سوقها الذى يقام الاحد من أسواق مصر المشهورة وكان يباع فيه البقر والغنم

(١) بدائع الزهور ج٣ ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

(٢) ابن الجيعان هو ابو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر ، كان رئيسا حشما فاضلا عارفا بأحوال المملكة وكان مقربا عند الأشرف قايتباى ورتقى فى أيامه وانتهت إليه الرئاسة وفاق على من تقدمه من أقاربه وكان أدريا حلو اللسان سيروا وله اشتغال بالعلم وكان من نوابغ بنى الجيعان ، وكان له بر معروف ، وقد قتله بعض المماليك فى ذى القعدة سنة ٩٠٢ هـ عن عمر يناهز الستين عاما ، وولى السلطان مكانه أخاه صلاح الدين وقرره فى استيلاء الجيش مضافا لما بيده من كتابة السر .

ابن اياس ، بدائع الزهور ج٣ ص ٣٦٣ .

(٣) نفسه .

(٤) كتاب وقف عثمان كتخدا رقم ٢٢١٥ أوقاف ص ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٥٦ .

والغلال، وكانت عبرتها في العصر المملوكي تفوق العشرة آلاف دينار وكانت تشتهر بعصر الحمر وبيعه، وكان أكثر من كان يسكن بها النصارى^(١) ولا يزالون.

وهي من محاسن متزهات القاهرة فقد اتخذها الناس منزل قصف ودار لعب ولهو ومغنى صبايات، وبها كان يعمل عبد الشهيد لقربها من ناحية شبرا، وذكر 'المقريزي' أنه أدركها عامرة بكثرة المساكن والأسواق والمناظر وتقصد للزخمة بها أيام النيل والربيع لاسيما يومى الجمعة والأحد فإنه كان للناس في هذين اليومين مجتمع ينفق فيه مال كثير^(٢).

وكانت منية السبرج واقعة على شاطئ النيل لغاية سنة ٦٨٠ هـ وفي تلك السنة طمى الخور الذى كان فاصلا بينها وبين جزيرة الفيل التى تشمل اليوم قسمى شبرا وروض القرج من أقسام القاهرة فاتصلت أرض الجزيرة المذكورة بالشاطئ الأسمى للنيل وبذلك أصبحت مساكن هذه القرية فى وسط الأراضى الزراعية^(٣).

خامسا: رباط الآثار

يعتبر رباط^(٤) أثر النبى من أهم متزهات مصر ذات الصفة الدينية فى العصرين المملوكى والعثمانى وذلك لما تمتع به منذ انشائه من موقع إذا كان يقع جنوب مدينة مصر القسطاط مطلا على النيل مباشرة ومحاطا بسبائين ومزروعات ومواجهاً لبرك الحبش والشعبية وشطا، وكان يتوصل إليه عن طريق جسر الأفرم^(٥).

وكان الرباط مجاورا لبستان شهير عرف باسم المعشوق، والمعشوق هذا بستان قديم كان بمظاهر مصر من جملة خطة راشدة كان قد عرف أولا بجنان كهمس بن معمر ثم عرف بجنان الأمير تهيم بن

(١) ابن دقماق، الانتصار جده ص ٤٧، المقريزي جده ص ١٣٠، ابن الجيعان، التحفة السنية ص ٧، احمد دراج، حجة وقف الأشرف بربساي ص ٤٢.

(٢) المقريزي، الخطط جده ص ١٣٠.

(٣) محمد رمزي، القاموس الجغرافى، ق ٢ ج ١ ص ١٤ - ١٥.

(٤) الرباط نوع من الأبنية العسكرية كان يسكنه المجاهدون الذين يدافعون عن حدود الاسلام، بحد السيف، وكانت الأربطة متشرة فى صدر الإسلام قبل أن ينتشر الدين ويستتب الأمن وتأمين الدولة الاسلامية على حدودها، وقد كانت فى تصميمها تشبه التحصينات الحربية فمعظمها عبارة عن أبنية مستطيلة الشكل فى أركانها أبراج للمراقبة، ولما زالت عن تلك الأربطة صفتها الحربية أصبحت بيوتا للمتشف والعبادة يسكنها الصوفية وأصبحت تدرس بها علوم الدين وصارت تبنى فى وسط المدن، كما خصصت بعض الربط للنساء اللاتى أصبحن بلا عائل فأهتمت تلك الربط النسائية بكفالتها المرأة المسلمة وحمايتها. انظر: المقريزي، الخطط جده ص ٤٢٧، معاد ماهر، مساجد مصر ج ١ ص ٤١٣، دولت عبدالله، معاهد تذكى النفوس فى مصر فى العصر الايويسى والمملوكى، القاهرة ١٩٨٠م ص ٤٩ - ٥٠.

(٥) عن جسر الأفرم انظر ما سبق ص ١٣٣.

المعز لدين الله ثم جده الأفضل بن أمير الجيوش فعرف به ثم صار من وقف ابن الصابوني فأخذ الصاحب تاج الدين محمد بن حنا وعمر به مناظر وأوصى بعمارة رباط للآثار النبوية وأن توقف عليه . (١)

وظلت الأراضي حول رباط اثر النبي بساتين وحقولا (٢) حتى حولت إلى أرض مبانى فى النصف الثانى من هذا القرن فاتصلت مبانيها بدار السلام (دير الطين سابقا) من ناحية الجنوب أما شمال الرباط فقد شغل ساحل اثر النبي جزءا كبيرا من هذه البساتين ، و كذلك شغل جزء من الأرض الآن جراج لهيئة النقل العام بالقاهرة .

ويشرف جامع اثر النبى (رباط سابقا) حاليا على ترعة أثر النبي وهى فرع من النيل يواصل لساحل الغلال .

الآثار المنسوبة للرسول "صلى الله عليه وسلم" :

اعتبر المؤرخون هذه الآثار من الفضائل التى اختصت بها مصر دون غيرها من البلاد (٣) ، وقد اختلف المؤرخون والرحالة فى عدد وثمن وصفة وتأکید نسبة هذه الآثار للرسول صلى الله عليه وسلم التى حوّاها الرباط وقت انشائه ، ويرجع سبب ذلك أن بعضهم لم يرها فذكر مانقل له عنها بالسماع ، ومنهم من تساهل فى استقصاء عددها واكتفى بذكر بعضها ، ولقد أحسن من احتاط منهم فأعقب عبارته بقوله (وغير ذلك) ، ونخلص من تلك الروايات أنها كانت قطعة من العترة أى الحرية ، وقطعة من القصعة ، ومروود عبر عنه بعضهم بالميل وقال بعضهم من نحاس وبعضهم من نحاس اصفر ، وملقط قال عنه بعضهم من حديد وقيد بعضهم بكونه صغير لإخراج الشوك من الرجل أو غيرها ، ومخفف وقيد بعضهم بكونه صغيرا وعبر عنهم بعضهم بالاشغى الذى كان

(١) المقرئى ، الخطط ج٢ ص ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ٤٢٩ .

(٢) ذكر المرجوم "محمد رمزى" أن "أثر النبى أصلها عزة قديمة من ضواحي مصر القديمة عرفت باسمها الحالى نسبة إلى مسجد الآثار النبوية الموجود بهذه القرية ، وفى تاريخ سنة ١٢٢٨ هـ ضمت الأراضي الزراعية الواقعة فى منطقة البستان المعشوق وبركة شطا وبركة الشعبية إلى بعضها وتكون منها زمام خاص باسم ناحية أثر النبى وبذلك أصبحت هذه القرية من ذلك التاريخ ناحية قائمة بذاتها من الوجهتين الإدارية والمالية وهى الآن تابعة لمحافظة مصر فيما يختص بأعمال الإدارة والضبط والصحة والقرعة ولمركز ومديرية الجيزة فيما عدا ذلك ويسمى العامة أثر النبى بالثناء بدل الثاء "

أنظر : - القاموس الجغرافى ق ٢ ج٣ ص ٣ ، تعلية على النجوم الزاهرة ج٩ ص ١٦١ ، ج ١١ ص ٢٧٢ .

* والآن أصبحت تلك الناحية تابعة من كافة أمورها لمحافظة القاهرة .

(٣) ابن ابى السرور البكرى ، الكواكب السائرة فى اخبار مصر والقاهرة (مخطوط) ص ٩٣ .

صلى الله عليه وسلم يخصف به نعله ، ومكحلة ومشط وانفرد بذكرهما "ابن كثير" وقطعة عصا وانفرد بذكرها "الجبيري" وقطعة من القميص لم يذكرها الا "ابن اياس" و"الجبيري" . (١)

ومن غير الآثار النبوية المصحف المنسوب لأمير المؤمنين على بن ابي طالب كرم الله وجهه ثم أضاف إليها السلطان الغوري المصحف العثماني الذي كان بمدرسة القاضي الفاضل (٢) وهما باقيان إلى اليوم وفي نسبتها إليهما نظر . (٣)

ولم يبق من الآثار النبوية اليوم إلا المكحلة والمروء والقطعة من القميص والقطعة من القضب وهي التي عبر عنها الجبيري بقطعة عصا وضم إليها شعرتان من اللحية النبوية الشريفة محفوظتان في زجاجه . وقد حفظت جميعها في أربعة صناديق صغيرة من الفضة ملفوفة في قطع من الديباج الأخضر المطرز : المكحلة والمروء في صندوق والشعرتان في صندوق والقميص في صندوق والقضب في صندوق ، وفقدت بقيت الآثار التي كانت معها وهي القطعة من العترة والقطعة من الستمة والمخفف والمقط والمشط ولا يعلم في أي زمان فقدت . (٤)

نقل الآثار من الرباط :

ظلت الآثار برباط الآثار منذ إنشائه حتى نقلها السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري إلى قبة التي أنشأها مواجهة لمدرسته بسوق الشرايين بأول الغورية حاليا (اثر رقم ١٨٩) بحجة تشعث بناء الرباط والخوف عليها من السراق نظرا لانعدام الأمن في المنطقة التي بها الرباط آنذاك ، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٩١٠هـ / ١٥٠٤م بعد أن أفتى العلماء بجوار نقلها فأجازه بخلاف شروط الواقف ، وأضاف الغوري إلى هذه الآثار أربعة شريفة مكتوبة بالذهب كانت بالخانقاة البكتيرية التي بالقرافة . (٥)

(١) ابن بطوطة ، الرحلة (ط دار الكتاب اللبناني) ص ٣٧ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٤٧ ، المقرئ ، الخطط ج ٢ ص ٤٢٩ ، ابن ابيك ، كسز الدرر ج ١ ص ١٩٢ ، ابن دقماق ، الانتصار ج ١ ص ١٠٢ - ١٠٣ ، السيوطي ، حسن الحاضرة ج ٢ ص ٢٧٣ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٤ ص ٦٨ - ٦٩ ، الجبيري ، عجائب الآثار ج ٢ ص ١٧٤ ، احمد تيمور ، الآثار النبوية (ط ٢ القاهرة ١٩٥٥م) ص ٢٧ - ٣٥ .

(٢) كانت مدرسة القاضي في درب ملوخية المعروف الآن بدرب القزازين قرب المشهد الحسيني ، انظر : - احمد تيمور ، الآثار النبوية ص ٣٦ .

(٣) نفسه ص ٤٢ .

(٤) نفس الصفحة .

(٥) ابن اياس ، بدائع الزهور ج ٤ ص ٦٨ - ٦٩ .

* خاتمة بكتمر هذه ذكرها المؤرخون بأنها بطرف القرافة في سفح الجبل ما يلي بركة الحبشي وأقامها بكتمر في =

وظلت هذه الآثار الشريفة محفوظة بقبة الغورى حتى سنة ١٢٧٥هـ / ١٨٥٩م حيث نقلت إلى المسجد الزينبى ، ثم نقلت نى موكب حافل إلى خزانة الأمتعة بالقلعة ، ثم نقلت منها سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م الى ديوان الأوقاف ، وفى سنة ١٣٠٥هـ / ١٨٨٨م نقلت الى قصر عابدين مقر الخديوى ومنه نقلت فى السنة المذكورة إلى المسجد الحسينى فى موكب مهيب ضم ثلاثين ألف نسمة واحتشد لرؤية نحو مائتى ألف ، ثم أقام لها الخديوى عباس حلمى سنة ١٣١١هـ / ١١٩٣م حجرة خاصة لها وراء الجدار الشرقى للمسجد الحسينى والجدار الجنوبى لقبة المسجد وجعل لها بابان واحد إلى المسجد وواحد الى القبة . (١)

المكانة الدينية التى تمتع بها الرباط :

تمتع الرباط بمكانة عظيمة فى قلوب الناس جميعا حكاما ومحكومين فى العصرين المملوكى والعثمانى نظرا لما ضم به من آثار شريفة نسبت للنبي صلى الله عليه وسلم كانوا يتباركون بها على وجه العموم .

ويكون للرباط أهمية عظمى فى حالة حدوث الأحداث الجسام كالطواعين والأويشة ويكون له الأهمية القصوى بوجه خاص فى حالة حدوث توقف النيل عن الفيضان أو زيادته عن الحد إذ يهرع اليه الناس جميعا على رأسهم العلماء والقضاة حيثئذ وكانوا يفسلون تلك الآثار فى ماء النيل فى الرباط أو فى مقياس النيل ويتضرعون الى الله سبحانه وتعالى أن يكشف عنهم البلاء (٢) ، وربما كان

* شهر رجب ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م وبنى بجانبها حماما وأنشأ هناك بستانا فعمرت تلك الحطة وصار بها سوق كبير وعدة سكان وتنافس الناس فى مشيختها ووضع بها الربرة الشريفة المكتوبة بماء الذهب ، وكانت هذه الحائقاء بالقرب من مقام ابن عطاء الله السكندرى وعبد الله بن أبى جمرة الباقيين لأن بقراة على ابو الوفا الكائنة تحت سفح المقطم من الجهة الشرقية لقراة الامام الليث ، كما كانت مجاورة لمقام سيدى محمد وفا ، وكانت بجوار حوش الملك الظاهر بيبرس . انظر : - المقرئى ، الخطط ج ١ ص ٤٢٣ - ٤٢٤ ، السخاوى ، تحفة الاحباب ص ٧٧ - ٧٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ص ٤٦٧ .

* هذه الربرة الشريفة محفوظة الآن بدار الكتب المصرية تحت رقم ٧٢ مصاحف ميكروفيلم ٣١٧٧ ، والوقفية الواردة عليها مؤرخة بتاريخ ٢٧ جمادى الآخرة سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م ومقاسها ٥٥٤ X ٤٠١ سم . انظر : - عبداللطيف ابراهيم ، المكتبة المملوكية (القاهرة ١٩٦٢م) ص ٧؛ لوحة ٢ ، محمد حمزة ، قراة القاهرة ص ٨٠ - ٨١ .

(١) انظر بالتفصيل : - احمد تيمور ، المرجع السابق ص ٣٩ - ٤١ .

(٢) انظر : - المقرئى ، السلوك ج ٣ ص ٢١٨ .

ابن حجر العسقلانى ، انباء الغمر ج ١ ص ٥٩ ، ج ٢ ص ٢٥٩ ، ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ج ١ ص ٨٧ ،

ذلك هو السبب الذى من أجله جعل الصاحب تاج الدين ابن حنا يبنى الرباط على النيل مباشرة .

عمارة الرباط فى العصر المملوكى :

بالرغم من أن الرباط الاصلى قد زال كلية وبني مكانه مسجد إلا أننا نستطيع أن نستشف الوضع الإنشائى الذى كان عليه والذى كانت عليه الأربطة فى العصر المملوكى فتقول أنه فى الغالب كان يتكون من صحن مكشوف يحيط به مكان مغلق للعبادة (إيوان أو أكثر) وكذلك طبقات (حجرات) متجاورة لإقامة الصوفية وربما كان له أكثر من طبق . (١)

وقد أنشأ الرباط الوزير الصاحب تاج الدين محمد بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب بهاء الدين على بن محمد بن سليم بن حنا ، وذلك ليضم به الآثار التى تنسب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد مات تاج الدين سنة ٧٠٧ هـ ولم يكن قد أكمل الرباط فأكماله ابنه الصاحب ناصر الدين . (٢)

ولما أكمل الصاحب ناصر الدين بناء الرباط بعد وفاة والده رتب عليه الأوقاف الكثيرة وجعل فيه الطعام للوارد والصادر والجراية لخدام تلك الآثار الشريفة (٣) ، كما استحدث وظيفة هامة تعلقت بالآثار فى العصر المملوكى هى وظيفة شيخ رباط الآثار . (٤)

واستمر الاهتمام بالرباط فى العصر المملوكى فترى أن السلطان الاشرف شعبان بن حسين بن

(١) نستشف ذلك الوصف من الأربطة التى بقيت من العصر المملوكى مثل رباط أبو طالب .

* وكذلك ما ذكره الرحالة "ابن بطوطة" الذى زار مصر فى طريقه للحجاز أيام السلطان الناصر محمد بن قلاوون حيث وصف الرباط بأنه رباط عظيم وأنه قد بات به ليلة .
انظر الرحلة ص ٣٧ .

* وكذلك ما ذكره البرهان الحلبي فى حاشيته المسماة نور التبراس على سيرة ابن سيد الناس إذ قال : " فى آخر مصر مكان على النيل مبنى محكم البنيان وله طاقات مطلة على النيل ومكان ينزل اليه وبركة من ماء النيل ومطهرة بماء النيل ... " .

انظر احمد تيمور ، المرجع السابق ص ٣٢ .

(٢) أسرة ابن حنا أسرة عريقة تولى أفرادها منصب الوزارة وغيره من الوظائف الهامة فى زمن الدولتين الأيوبيه والمملوكية البحرية ، وتميز أفرادها بالتدين وحب العلم والكثير من الصفات الحميدة . عنهم بالتفصيل انظر : -

ابن ابيك ، كنز الدرر ج ٢ ص ١٩٤ ، ابن دقماق ، الانتصار ج ٤ ص ١٠٢ - ١٠٣ ،

المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ٢٢٩ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٤٢٩ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ج ١ ص ٢٤٨ ، ج ٤ ص

٢٠١ - ٢٠٢ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ص ٣٨٥ ، ٤١١ ، ٥١٥ .

(٣) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ٤٢٩ ، ابن بطوطة ، الرحلة ص ٣٧ .

(٤) السخاوى ، التبر المسبوك ص ٣٥ ، الضوء اللامع ج ١ ص ١٣٨ .

محمد بن قلاوون قد قرر فيه دروسا للفقهاء الشافعية وجعل له مدرسا وعنده عدة من الطلبة ولهم جار فى كل شهر من وقف وقفه عليهم .^(١) وفى ايام الملك الظاهر بريقوق وقف قطعة أرض لعمل الجسر المتصل بالرباط^(٢) ، كذلك أمر السلطان المؤيد شيخ بتجديد الرباط فى رجب سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م .^(٣)

ونظرا لترميمات العديدة للرباط ذكر السيوطى أن الرباط قد تغيرت معالمه فى نهاية العصر المملوكى .^(٤)

عمارة الرباط فى العصر العثمانى :

هدم الرباط كلية فى العصر العثمانى وبنى مكانه جامع صغير هو الموجود حاليا ، وكان ذلك بإذن السلطان العثمانى محمد الرابع (١٠٥٨ - ١٠٩٩ هـ / ١٦٤٨ - ١٦٨٨م) وتم إنجازه ذلك على يد الوالى ابراهيم باشا الدفتردار (١٠٧١ - ١٠٧٤ هـ / ١٦٦١ - ١٦٦٤م) كما بنى ابراهيم باشا قصرا كبيرا مجاورا للجامع بالاضافة إلى رصيف لدفع ماء النيل عن بنائه كما أوقف عليه أموالا ، وكذلك أوقف عليه أرضا وعين وعين به قراء ووظائف وحراسا قاطنين به .^(٥)

وكان بناء الجامع لأجل وضع آثار قدمين نسبوهما إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بديلا عن الآثار التى كانت قد نقلت إلى قبة الغورى .^(٦)

وفى فترة حكم الوالى عمر باشا السلحدار (١٠٧٤ - ١٠٧٧ هـ / ١٦٦٤ - ١٦٦٧م) تم إحاطة الجامع بسور من الخارج فى الأربع جهات وتم وضع سوائى فى الأرض المحصورة بين الجامع والسور

(١) المقرئى ، المخطوط ج٢ ص ٤٢٩ .

(٢) نفسه .

(٣) المقرئى ، السلوك ج٤ ص ٥٣٤ ، السعنى ، عقد الجمان (نشر الزهرى) ص ١٠٨ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ج١٤ ص ٩٩ .

(٤) حسن المحاضرة ج٢ ص ٢٧٣ .

(٥) تم تسجيل تلك العمارة التى قام بها ابراهيم باشا الدفتردار بأمر السلطان محمد الرابع على اللوحة الرخامية التى توجد أعلى مدخل القبة التى بها آثار القدمين وكذلك على اللوحة التى تعلو دخلة الآثار . وانظر ايضا :- ابن

الوكيل ، تحفة الاحباب (مخطوط) ص ٢٠٣ ، الصوالحى ، تراجم الصواعق فى واقعة الصناحق ص ٩٩

* وقد اثنى الرحالة النابلسى على هذا القصر . انظر الحقيقة والمجاز ص ٢٤٠ .

(٦) آثار الاقدام التى نسبوها للرسول صلى الله عليه وسلم والمتشرة فى أماكن عديدة لا أساس لها من الصحة وقد فند تلك الادعاءات الكثير من العلماء

من الجهة الجنوبية الشرقية والجهة الشمالية الشرقية ، وتم إنجاز ذلك حسب ماهو مثبت باللوحة التي تعلو الباب فى السور بالجهة الجنوبية الشرقية سنة ١٠٧٧ هـ .

وفى شهر رجب سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م قام الخواجا (التاجر) محمود حسن بزرجان بتجديد الجامع كما كان عليه .^(١)

وفى سنة ١٢٣٢ هـ / ١٨١٧ م هدم محمد على القصر المجاور للجامع وأنشأ مكانه قصرا غيره على طراز القصور الاوربية وزخرفه بزخارف الباروك والروكوكو وفرشه أحسن فرش وكان كثير التنزه إليه والمبيت به^(٢) ، وهذا القصر لا وجود له حاليا ولا يزال موضع أرضه فضاء محاطا بسور ملاصق لسور الجامع .

الوصف الحالى للجامع (الترقيم ٣٢٠) :

الجامع محاط من الخارج بسور كبير من الأربعة جهات ، وبالطرف الجنوبى من الجانب الجنوبى الشرقى للسور باب ذو عقد قوس (موتور) يعلوه نص انشائى باللغة التركية يحمل اسم السلطان محمد غازى (محمد الرابع) وتاريخ سنة ١٠٧٧ هـ ويفيد النص وضع ساقية فى الجنة المحيطة بالجامع ، ولا يزال يوجد للآن عمودا ساقية فى الجهة الشمالية الشرقية للجامع ، العمود الأول يقع على امتداد جدار القبلة يتوسط المسافة بين كتف الزاوية الشرقية للجامع وبين السور وهو يربط بين عقدين قوسيين يرتكزان فى الوسط على طبلية العمود وفى الطرفين على كتف الزاوية الشرقية للجامع وعلى السور الشمالى الشرقى وهذا العمود مشتمل الاضلاع وتاجه كورنشى (لوحة ٥٣) أما العمود الآخر فهو اسطوانى وتاجه كورنشى ويربط كذلك عقدين قوسيين يرتكزان فى الوسط على طيلته وفى الطرفين على كتف الزاوية الشمالية للجامع وعلى السور الشمالى الشرقى ، وتربط هذا العقود بأزبطة خشبية .

ويتوسط السور الشمالى الشرقى فتحة باب متوجه بعتب مستقيم ، وقد سعت هذه الفتحة حاليا وكانت تؤدى إلى القصر الذى موضعه الآن أرض فضاء .

والجامع من الخارج مستطيل الشكل أبعاده ١٧ر٦٠X١٠ر١٦ م وواجهاته الأربعة خالية وهو خال من الزخارف ، ويتوسط الجانب الشمالى الغربى باب الدخول إليه وهو باب خشبى بسيط من مصراعين وهذا الباب يتوسط دخلة متوجة بعقد قوسى (موتور) وعلى جانبيها جليستان صغيرتان ، وعلى جانبى المدخل أربعة شبايك شباكبان فى كل جانب وتلك الشبايك مستطيلة الشكل يتوجها

(١) الجيرى ، عجائب الآثار ج٣ ص ٢٧٢ .

(٢) نفسه، ص ٥٧١ .

أعتاب من صنجات معشقة ويغشيها من الخارج مصبغات خشبية ، ويرتد الجدار قليلا للداخل فوق مستوى الشبايك ، ويعلو الأربع شبايك والباب خمس قمريات مطولة عقودها مدببة ويغشيها من الخارج سلك ، وكذلك باقى الواجهات بسيطة وتشابه تلك الواجهة .

أما الجامع من الداخل فيتكون من مساحة مستطيلة أبعادها ١٥٦٠X١٤١٠ م ، وهذا الجامع مقسم إلى ثلاثة أروقة متساوية بواسطة بائكتين ثلاثيتين عقودها نصف دائرية أوسعها الأوسط تسير موازية لجدار القبلة محمولة على أربعة أعمدة .

وي توسط جدار القبلة محراب قطاعه مدبب يتقدمه دخله اتساعها متران على جانبيها عمودان مثنان ذوا تيجان وقواعد ناقوسية أما اتساع فتحة المحراب فتبلغ ١٨م ، وعمقها ٨٠م ، يعلوه طاقيّة على هيئة ربع كرة زخرفت بزخارف إشعاعية بالألوان الصفراء والزرقاء والحمراء ، وتلك الإشعاعات تنطلق من شمس مشرقة ، وقد حددت توشيحته المحراب بجفت لاعب ذات ميمات مستديرة ومسدسة ، يلعو ذلك آية قرآنية نصها " كلما دخل عليها زكريا المحراب " ، وعلى كل جانب من جانبي المحراب شباكان وتلك الشبايك الأربعة وكذلك بقية شبايك الجامع ذات اتساع واحد يبلغ كل منها ١٥٥ م يغلق على كل منها مصراعان خشبيان من الداخل ومصبغات حديدية من الخارج ، وترتفع الشبايك عن أرضية الجامع ٣٢م ويعلو كل شباك قمرية مطولة من الجص والزجاج الملون من الداخل بشكل زخارف هندسية وأشكال لجمية ، ومن الخارج مغطاة بسلك ، ويعلو المحراب قمرية مستديرة من الزجاج المعشق بالجص .

ويقابل هذا الجانب الجانب الشمالى الغربى الذى يماثله فى فتحات شبايكه وقمرياته ولكن القمرية التى تعلو الباب مطولة وليست مستديرة كالتى تعلو المحراب الذى على نفس محور الباب .

والجانب الجنوبى الغربى يحتوى على ست فتحات أربع فيها شبايك واثنين باين يؤدى أحدهما إلى الحجرة بها آثار الأقدام والباب الآخر يؤدى إلى دورة المياه ، ويعلو الشبايك الأربعة أربع قمريات مطولة ، ويقابل هذا الجانب الجانب الشمالى الشرقى الذى فتح به ٤ شبايك وحوى كتيبتين وفى المستوى العلوى فتحت أربع قمريات من الزجاج المعشق بالجص تعلو الشبايك .

وأرضية هذا المسجد حجرية والسقف خشبى حديث وكان السقف القديم مزخرف بالألوان والتجليد كما يتضح من بقايا قليلة تبقت منه أثناء ترميم هيئة الآثار الحالى للجامع وقد زخرفت جدران المسجد بالألوان ، وعلى جدار القبلة زخارف عبارة عن مربعات بداخلها أشكال ورود ، وأما الجدران الثلاثة الأخرى فزخارفها عبارة عن دالات وذلك باللونين الأحمر والأسود ، وقد زخرفت بواطن العقود بزخارف على هيئة صنح مزودة باللونين الأحمر والأسود .

ويوجد على يمين المحراب منبر خشبى حديث من حشوات هندسية مستطيلة ومربعة ويوجد فى

الركن الغربى للمسجد دكة مبلغ محمولة على الجدارين المتقابلين وعمود مستدير ذات تاج كورنثى ،
ويصعد من خلاله الدكة إلى سطح والمثدنة .

ونلاحظ أن الاعمدة الرخامية الأربعة بالمسجد متماثلة وهى مئمنة البدن ونلاحظ أن عمودى
البائكة التى تلى جدار القبلة مباشرة شكل الجزء السفلى منها على هيئة قاعدة مربعة يعلوه التمين ،
ويعلو هذين العمودين تاجان كورنثيان أما عمودى البائكة الأخرى فيعلوهما تاجان ناقوسيان وقد حفر
على بدنهما كتابة بالخط الثلث المملوكى على أحدهما كتب "أمر بتجديد هذا المكان المبارك " والآخر
عليه "مولانا السلطان الملك" (١) .

القبلة :

أما الحجرة التى بها الآثار فهى مربعة ٢٩٥ ر ٢٨٥ م ، يعلو تريبعها منطقة انتقال على الطراز
الحلبى على هيئة أربعة مثلثات بأركانها رأسها لأسفل تتكون من أربع حطات (١ - ٢ - ٣ - ٤) ، يلى
ذلك رقة مستديرة فتح بها ٨ قمریات يعلوها قبة مرتفعة قطاعها مذهب محلاة من الداخل بزخارف
دالية ملونة ويتدلى من صنجتها المفتاحية سلسلة تحمل مركبا . والقبة من الخارج مزينة بزخارف دالية
تبدأ بميمات ، ومنطقة الانتقال من الخارج على هيئة مثلثات منزقة (مائلة) .

ويوجد بجدار القبلة بهذه الحجرة محراب ذات قطاع مذهب على يسار الداخل ، أما على اليمين
فتوجد دخلة متوجه بعقد مذهب يرتكز على عمودين مسدسين ، وترتفع ارضية الدخلة ٨٠ سم عن
أرضية الحجرة وقد وضع بها قطعة حجرية نحت بها آثار قدمين ، ويتصدر الدخلة لوحة شجرتى سرو ، وبها
نص كتابى عبارة عن سطرين باللغة التركية تفيد الدعاء لآبراهيم باشا واضع الاثر ، ويتوسط أعلى
جدار القبلة قمرية مستديرة ، وبالجانب المقابل يوجد باب الدخول عبر مدخل منكسر ، وبالجدار
الجنوبى الغربى شباك فى دخلة مائلة يعلوه قمرية مطاولة ايضا ، والجدار المقابل له به شباك مشترك مع
المسجد يعلوه قمرية مطاولة أيضا ، و أرضية الحجرة من رخام ملون موزع بطريقة هندسية .

وكانت الحجرة كلها مزخرفة بالبلاطات الخزفية المربعة المزخرفة تبعا لاسلوب المسمى بأسلوب
أزنيق الذى أنتشر فى القرن ١٧ م وهى تحوى زخارف من زهور اللالا والأوراق المسننة والخرشوف
وغيرها ، وهى كلها باللون الازرق ، وقد فقدت بعض البلاطات الآن .

(١) هذه الاعمدة تجلنا فى وضع محير إن كانت تنتمى للعصر المملوكى فمعنى هذا أن الرباط قد تحول إلى مسجد فى
ذلك الوقت واسلوب الكتابة هنا يذكرنا بالنقوش الكتابية الخاصة بالسلطان قايتباى بالرغم من أن أى من المصادر
المملوكية لم تذكر تحويل الرباط لمسجد حتى أن "ابن اياس" الذى عاصر الدولتين المملوكية والعثمانية لم يذكر مثل
ذلك وإنما ظل ينعت المكان برباط

المقدمة :

للجامع مئذنة مقامة على الطراز العثماني وهى تقع على نفس محور القبة فى الزاوية الغربية للمسجد، وهى تتكون من قاعدة مربعة بارتفاع مدماك حجرى واحد فوق سطح المسجد ثم منطقة انتقال على هيئة مثلثات متزقة ، ثم بدن مضلع من الخارج يتكون من ١٢ ضلعا أما من الداخل فهو مستدير وقد فتح بكل ضلع من أضلاع الاتجاهات الجغرافية فتحة مستطيلة للاضاءة ، ويعلو ذلك البدن دورة محمولة على مقرنصات ذات دلايات ، وينطلق من وسط الدورة البدن الثانى وهو على شكل اسطوانى يعلوه قمة مدببة من ١٢ ضلعا ينطلق منها هلال .

التنصوص الكتابية :

يوجد بداخل الجامع نصان انشائيان ، بالاضافة الى نص ثالث بلوحة تعلو المدخل الذى بسور الجامع الخارجى ، وهذه النصوص باللغة التركية .

أما النص الأول الذى بداخل الجامع فيقع على يسار مدخل القبة وهو منقوش بلوحة رخامية أبعادها ١٥ X ٧م ، و هو يتكون من أربعة سطور كل سطر منها يتكون من ثلاثة بحور تفصل بينها رخارف على شكل جامات وأنصافها ، وهى كالتالى :

* السطر الاول : جناب حضرت سلطان محمد غازى . وجود يابنى خبراته مظهرها ايتدى خدا . درون ياكته الهام ايدوب خدای جليل .

* السطر الثانى : كايدى بو جامعى رسم قدم اوورره بنا . سمى بانى بيت اله ابراهيم . كه ملك مصر عد الله والى در حالا .

* السطر الثالث : كمينه بنده سمى اول بادشاه دورانك . بوكو برا ثرى ايتدى نامنه احيا . سوروب يوزين قدمى رسمته او سلطاناه .

* السطر الرابع : نوله شفا عنته مظهرها وله روز جزا . دعا ايدوب ديدى اتمامنه ذكى تاريخ . يرنده جامع عالى اساس بى همتا .

ترجمة النص :

١ - حضرة جناب السلطان محمد الغازى . لأعمال الخير وجهه الله . وجه الله الجليل قلبه الحساس .

٢ - بنى الجامع بنش التخطيط القديم . بانى بيتا لله هو ابراهيم والى مصر حالا .

٣ - هو عبيد ياد شاه الكون . قدم لالحياه عمل فنى لتمجيده . قدم ولاته للسلطان حسب التقليد القديم .

٤ - لتكتب له الشفاعة يوم القيامة . قال ذكى عن تاريخ الانتهاء فى هذا المكان القينا أساس لمسجد فريد من نوعه . (١)

النص الثانى :

عبارة عن سطرين باللوحة الرخامية التى بأعلى صدر الدخلة التى فوق أثرى القدمين ونصهما كالتالى : -

١ - بو مقامى ايلدى رسم قدم او ورره جديد .

٢ - قيلسون ابراهيم باشا نيك خدا عمرن فريد .

ترجمة النص :

١ - فى هذا المكان يظهر على سطح هذا الحجر آثار قدمين من جديد .

٢ - اللهم اجز ابراهيم باشا خير الجزاء وأفيض عليه بالمزيد من النعم والجزاء الاوفى . (٢)

النص الثالث :

هذا النص بلوحة رخامية تعلو المدخل الخارجى بالسور الجنوبى الشرقى المحيط بالجامع ، وهو يتكون من سطرين باللغة التركية نصهما : -

١ - وضع اولندى ساقية سلطان محمد نامنه . بر سبيل داخى يايلدى ساقية نك يا ننه . نوش ايدوب آب صفا بخشندن تشنه لر .

٢ - ايسلونلر جوق دعا اول بادشاهك شاننه . جون تمامه ايرىحك هاتف يدى تاريخنى . برثواب اولدى روا سلطان محمد ادنه سنة ١٠٧٧ هـ .

ترجمة النص :

١ - حفر ساقية وضعت باسم السلطان محمد . وقد أنشأ سبيل بجانب الساقية عندما يشرب الانسان الماء الصافى .

(١) هذه الترجمة منشورة فى رسالة الباحث "مصطفى بركات" وهى بعنوان دراسة للخط والالفاظ والوظائف من خلال النصوص التأسيسية الباقية للعمائر العثمانية بمدينة القاهرة ، ماجستير مخطوط ، كلية الآثار جامعة القاهرة ، ص ٤٨ .

(٢) هذه ترجمة الاستاذ سيد حنفى الباحث بمركز تسجيل الآثار الاسلامية .

٢ - بدعو بالمغفرة كثيرا للبشاه وقال الهاتف فى تاريخ الانتهاء هذا العمل المقدس رائع المجد للسلطان محمد سنة ١٠٧٧ هـ . (١)

ملحوظات :

تعرض الجامع لترميم شامل تم بعد سنة ١٩١٦م وهى السنة التى تحمل تاريخ التخطيط القديم للجامع ، فهناك بعض الاختلافات بين ماهو قائم حاليا وما كان قديما منها :

١ - يتضح فى الرسم القديم عدم انتظام وضع الأعمدة الأربعة وعقودها بما يتفق مع الوضع الطبيعى لها إذ أن بها بالرسم القديم انحراف .

٢ - دكة المبلغ بالرسم القديم تختلف عن الدكة الموجودة حاليا ، فالقديمة أكبر وغير موقع بالرسم القديم العمود القائمة عليه .

٣ - فتح ثلاثة شبابيك فقط فى جدار القبلة فى الرسم القديم وبالوضع الحالى أربعة .

٤ - الجانب الشمالى الغربى وقع فى الرسم القديم ثلاث دخلات بينما مفتوح به الآن باب وأربعة شبابيك .

٥ - الجانب الجنوبى الغربى لا يوجد بالرسم القديم إلا شباك واحد بين القبة والجامع بينما فتح حاليا أربعة شبابيك .

٦ - الجانب الشمالى الشرقى فتح بالرسم القديم باب للدخول للجامع بينما هو يمثل شبাকা حاليا .

٧ - اختلاف مكان دورات المياه بين القديم والجديد .

٨ - لا وجود الآن للملاحق القديمة للجامع ، وكذلك تم تغيير بعض فتحات الاسوار القديمة .

المتنزه بالرباط فى العصرين المملوكى والعثمانى :

كان لموضع الرباط على شاطئ النيل ولقربة من مدينة القسطنطين وجواره لساحلها وما حواه الرباط من آثار نسبوها للرسول صلى الله عليه وسلم تأثير كبير فى اتخاذه متنزا عظيما طوال العصرين المملوكى والعثمانى ، بالإضافة لكونه استراحة ومحطة نزول للمسافرين والقادمين للصعيد . (٢)

وقد جمع الرباط المتنزهين بكافة طوائفهم ومكانتهم الاجتماعية فارثاده السلاطين والخلفاء والعامة وأهل العلم والدين والأدب ، وكان الرباط فى أيام زيادة النيل يمثل موقعا فريدا وكانت أيام الفيضان

(١) ترجمة الاستاذ سيد حنفى .

(٢) ابن بطوطة ، الرحلة ص ٣٧ .

بمناخ أيام الاعياد والمواسم الجلييلة^(١) . وقال 'المقريزى' فى ذلك .. وأدركنا لهذا الرباط بهجة وللناس فيه اجتماعات ولسكانه عدة منافع ، يتردد عليه أيام كان ماء النيل تحته دائما ، فلما انحسر الماء عن تجاهه وحدثت المحن من سنة ست وثمانائة قل تردد الناس اليه وفيه الى اليوم بقية . .^(٢) ولكن تلك المحن التى تعرضت لها القاهرة أيام المقريزى قد زال أثرها بعد ذلك وعاد الرباط ملتقى المتنزهين والمتفرجين بقية العصر المملوكى .

وفى العصر العثمانى استمر الرباط منتزها كبيرا نظرا لما تميز به هذا العصر من انتشار للدروشة وازدياد التبرك بالأولياء والمقدمات .

وقد زار المسجد الرحالة 'النايلسى' بصحبة الشيخ ابن العابد بن البكرى وأثنى على المسجد وذكر القصر المجاور له فانفعل البكرى بما رآه وانشد فيه أشعارا عديدة .^(٣)

ما قيل فى الرباط :

انفعل الشعراء والأدباء برباط الآثار وما حواه من آثار فذكروا ذلك فى أشعارهم ونثرهم ، من ذلك قول الأديب صلاح الدين الصفدى :

أكرم بأثار النبى محمد من زاره استوفى السرور مزاره
يا عين دونك فأنظري وتمعى إن لم تريه فهذه آثاره^(٤)

واقضى به جلال الدين بن خطيب داريا الدمشقى فقال : -

يا عين إن بعد الحبيب وداره ونأت مرابعة وشط مزاره
فلقد ظفرت من الزمان بطائل ان لم تريه فهذه آثاره^(٥)

(١) المقريزى ، السلوك ج٣ ص ٢٠٦ ، ٢٣٤ ، ابن حجر ، اتباه النمر ج٣ ص ٢٢١ ، ٢٢٤ ، السمعى ، عقد الجمعان (بلون ناسخ) ص ٢٨٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ج١١ ص ٢٣٢ ، ج١٤ ص ٩٩ ، ١٠١ ، حوادث الدهور ج٣ ص ٥٤١ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ق٢ ص ١٣٦ ، ٨١٠-٨١١ ، ج٥ ص ١٩٢ ، النايلسى : الحقيقة والمجاو ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ، الجبترى : عجائب الآثار ج٣ ص ٤٩٢ ، ٥٧١ .

(٢) الخطط ج٢ ص ٤٢٩ .

(٣) الحقيقة والمجاو ص ٢٣٩ - ٢٤١ .

(٤) المقريزى ، الخطط ج٢ ص ٤٣٠ ، السيرطى ، حسن المحاضرة ج٢ ص ٢٧٣ .

(٥) المقريزى ، الخطط ج٢ ص ٤٢٩ ، السيرطى ، نفس المصدر والصفحة .

وقال آخر :

يانفس إن لم تذهبي لطيبه
ها أنت في مصر وفيها أثره

وقال ابو الحرم المدني :

ياعين كم ستفحين مدامعا
إن كان صرف الدهر عاقك عنها

وقال النابلسي :

طه الرسول به الفؤاد مولى
إن فات عيني أن تراه فإنها

وهناك اشعار عديدة في هذا الخصوص .

وترى أنوار الحبيب وداره
فاسعى إليه وانظري اثاره (١)

شوقا لقرب المصطفى ودياره
فتمتعى ياعين في اثاره (٢)

أكرم بممشاء المؤثر في الحجر
قنعت هناك بما تراه من الاثر (٣)

(١) ابن اياس ، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٥٣ .

(٢) المقرئزي ، الخطط جـ ٢ ص ٤٣٠ ، النابلسي ، الحقيقة والمجاز ص ٢٤٠ .

(٣) الحقيقة والمجاز ص ٢٤٠ .

* وقد رار النابلسي هذا المكان بصحبة الشيخ زين العابدين البكري الذي أرتجل في هذه المناسبة قوله :

في يوم ريح فاكتسبنا راحه

فكأنما هو قد سقانا راحه

متبركين بنوره الفياض
أنوارها كالبرق في الايامض
يهدى القلوب لذكر عهد ماض
للزائرين وساير الاغراض
من مسها يشنى من الامراض

قدم النبي المصطفى جثنا له
فرد النابلسي على البديهة :

وامالنا عرف النسيم بطيبه
ثم قال في وصف ذلك المكان :

قدم النبي بمصر جثنا نحوه
تعلو عليه من الجلالة قبة
وعليه أسرار المهابة والبها
حصلت به كل السعادة والمنى
أثر شريف قد بدا في صخرة

الفصل السادس

مظاهر الحياة الاجتماعية المرتبطة بالمتنزهات

تمهيد:

كانت المتنزهات هي المكان المحبب لكل الناس للترويح عن أنفسهم وقضاء أعيادهم ومواسمهم إلا أنها ارتبطت بشكل خاص ببعض الأعياد والمواسم الهامة مثل موسم دوران المحمل وأعياد وفاء النيل .

وكانت مظاهر تنزه المصريين حافلة فقد عمد الناس أن يقضوا بعض أوقاتهم بالمتنزهات على أحسن ما يكون فتحرروا من كل القيود ، وقضوا أوقاتهم فى لعب ومرح وسعادة .
على أن الحال لم يكن دائماً على هذا النحو من التحرر وإنما تعرض المتنزهات فى بعض الأوقات خصوصاً أيام الأزمات والأوبئة والمحن لرد فعل مضاد فكان الوالى ومن معه يكبسون المتنزهات ويهجمون على من فيها .

ومن خلال حصرتنا السابق للعمائر على البرك وجدنا أنها تنتمى لطبقة متميزة فى المجتمع فمعظمها عمائر سلاطين وولاة وامراء وقضاة ، ولكن المتنزهات كانت مرتعاً للخاصة والعامة حتى أن البعض فتح قصوره وحدائقه للعمامة ، واتخذ الأمراء القاطنين بالمتنزهات مثل البرك دعوة العامة للحضور إلى قصورهم هناك كنوع من الدعاية لهم حيث أنهم أرادوا أن يحيطوا شخصياتهم فى ثوب فضفاض براق يظهرهم أمام العامة فى وضع هام ومتميز ، كما أنهم كانوا يتحينون الفرص لدعوة السلطان وكبراء البلد والضيوف لينالوا شرفاً عظيماً ، فأقاموا المهرجانات الكبيرة بكل ما فيها من مظاهر بذخ وجو يملؤه الفرح والسرور ليرضوا غرور المدعوين .

وقد عُرف عن المصريين روح المرح والدعابة فى كل زمان ومكان بالرغم من خضوعهم لأرستقراطية حاكمة فى العصرين المملوكى والعثمانى تفننت فى استغلال البلاد وأهلها^(١) ، وقد ذكر «ابن بطوطة» الذى زار مصر أثناء سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون أن أهل مصر " ذو طرب وسرور ولهو "^(٢) ، وذكر " بيلوتى الكريتى " أن ماء النيل من خصائصه أن يجعل

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٠١-١٠٢ .

(٢) الرحلة، ص ٣٨ .

الناس دائماً مرحين فرحين بعيدين عن الهموم والأحزان. (١)

ونلاحظ أن روح المرح لم تقتصر على فئة دون أخرى من فئات المجتمع المصري، بل شملت جميع الفئات من طبقات المجتمع حتى المحافظين من الفقهاء وأهل العلم (٢)، ويضرب لنا "ابن بطوطة" مثلاً يقوام الدين الكرمانى وهو من كبار علماء مصر أنه اعتاد أن يذهب إلى مواضع الفرج والنزهات منفرداً عن أصحابه بعد صلاة العصر (٣).

ومثال لتعلق الناس بالترويح عن النفس حتى فى أحلك الظروف ما ذكره "ابن تغرى بردى" أن فى سنة ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م كانت الدولة تستعد للقيام بحملة ضد "سوار" حاكم إحدى الدويلات التركمانية المجاورة لحدود السلطنة المملوكية بالشام . . . إلا أن جماعة ممن ليس لهم مروءة ولا عرض تنتزه وتدور فى المفترجات وأكثرهم من العوام والأطراف (٤)

ومثال آخر يبين تعلق الناس بالمنتزهات وانتهازهم الفرص للهو والمرح حتى فى ظل أحلك الظروف ما ذكره "الجبرتى" أنه فى أيام عثمان باشا الحلبي أشيع فى الناس فى يوم الاربعاء رابع عشرة ذى الحجة آخر سنة ١١٤٧ هـ / ١٧٣٥ م أن يوم القيامة قائمة يوم الجمعة وفشا هذا الكلام فى الناس قاطبة حتى فى القرى والأرياف وودع الناس بعضهم بعضاً ويقول الإنسان لرفيقه بقى من عمرنا يومان وخرج الكثير من الناس والمخاليع إلى الغيطان والمنتزهات ويقول بعضهم لبعض دعونا نعمل حظاً ونودع الدنيا قبل أن تقوم القيامة (٥)

وقد عالجنا فى هذا الفصل أربع نقاط هى مظاهر التنزه والاحتفال فى الأيام العادية والأعياد والمواسم التى ارتبطت بالمنتزهات، وارتباط المنتزهات ببعض الأمراض الاجتماعية ورد الفعل المضاد لها، والمنتزهات والأدب.

أولاً: مظاهر التنزه والاحتفال فى الايام العادية

التنزه بالنيل وجزره والخطط عليه :

كان الخروج للنيل للتنزه على صفحات مياهه وعلى جزره والخطط التى على شواطئه مثل منشأة المهرانى وغيرها يأتى فى مقدمة الأماكن للفرجة، الترويح عن النفس خارج منازلهم

(١) Dopp, L'Egypte, p. 9.

(٢) ابن حجر، أنباء الغمر، ج١، ص ٥٩٣-٥٩٤.

(٣) الرحلة، ٣٨.

(٤) حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٨٤.

(٥) عجائب الآثار، ج (١)، ص ٢١٩.

وأماكن عملهم خلال العصرين المملوكى والعثمانى .

وكانت مظاهر تلك النزهات تكون على أبداع ما يكون فى حالة وفاة النيل ، ، كثيراً ما تعرضت تلك المتنزهات للخراب والهجر فى حالة عدم وفاة النيل .

وكان خاصة وعامة أهل القاهرة ينغمسون فى اللهو والقصف والفرجة وما يصاحب ذلك من مجالس وغناء وعزف وموسيقى وأطعمة وأشربة عديدة^(١) ، وكانت أجمل أيام الخروج هى أيام خروج السلطان وكبار الأمراء حيث تقام مهرجانات أشبه بالأعياد ، وقد حرص معظم السلاطين المماليك على الخروج أحياناً للنيل ، وكذلك بعض ولاة مصر فى العصر العثمانى .

ومثال للسلاطين المغرمن بالتنزه على ساحل النيل وخططه مثل منشية المهرانى السلطان الملك المنصور أبو بكر بن محمد بن قلاوون (٧٤١-٧٤٢هـ) حيث ينزل هو والأمراء خفية إلى هناك حيث يقيمون أمسيات مع المغانى وينزلون فى الشخاتير^(٢) ويفترجون ويطلعون سراً إلى القلعة^(٣) .

وكان الناس يتحينون أى فرصة للتفرج والاحتفال على النيل مثلما تجمعوا ببولاق وامبابة لاستقبال الأمير شيخو بعد عودته من سجنه بالاسكندرية يوم ٤ رجب سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م ، وقد خرج الناس للفرجة حتى بلغت المراكب التى أحاطت بالحراقة التى يركبها شيخو نحو الألف مركب ، فسار شيخو فى موكب عظيم إلى الغاية لم ير مثله لأمر إلى أن صعد القلعة .^(٤)

ومن السلاطين الذين اعتادوا الذهاب للنيل والاحتفال هناك والمبيت أحياناً بقصور امبابة والجزيرة السلطان الملك الصالح صلاح الدين صالح^(٥) (٧٥٢-٧٥٥هـ / ١٣٥١-١٣٥٤م) والملك المنصور حاجى^(٦) (٧٦٢-٧٦٤هـ / ١٣٦١-١٣٦٣م) والملك الظاهر برقوق^(٧) .

وإذا تتبعنا سيرة السلطان الملك المؤيد شيخ نجدها تعطينا مثلاً جلياً لما كان يحدث فى العصر المملوكى من مظاهر التنزه إذ أنه كان أكثر السلاطين خروجاً وأنه قد أقام فى نزهاته أكثر مما أقام فى القلعة إذ أنه قد يبقى فى تنزهه خارج القلعة أحياناً شهراً متواصلاً^(٨) وبالرغم من الآلام

(١) ابن الحاج ، المدخل ، ج١ ، ص ٢٤٦ . (٢) انظر تعريف الشخاتير فيما سبق ، ص ١٣٦ .

(٣) الشجاعى ، تاريخ الملك الناصر ، ص ١٣٥ ، ١٤٢ . ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج١ ، ص ٤٦٢ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج٢ ، ص ٨٤٨ .

(٥) نفس المصدر والجزء ، ص ٩٢٩ .

(٦) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج١ ، ق ١ ، ص ٥٨٧ .

(٧) المقرئى ، السلوك ، ج٣ ، ص ٨٨٧ .

(٨) المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص ٥٥٢ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٤ ، ص ٨٧ .

التي عانى منها بسبب مرض رجله إلا أنه كان يداوم على الخروج محمولاً في محفة أو على الاعناق^(١).

وكان يقضى أغلب أوقاته بالنيل وجزره والخطط عليه ، وأحياناً يأخذ حريمه وأولاده معه وحاشيته وكبار الأمراء^(٢) ، وأصبحت المراسم تتم هناك على النيل ، فتدق طبليخانات السلطان وكبار الأمراء هناك وتعمل الخدمة على ما جرت به العادة في القلعة ويذكر المقرئى " ولم نعهد بمصر نظير هذا"^(٣).

وكان المؤيد ينتقل طوال فترة خروجه على النيل ما بين بيت البارزى ببولاك^(٤) ، إلى قصره بحرى امبابية ، إلى الجزيرة الوسطى ، إلى الميدان السلطاني ومنشية المهرانى أمامها ، إلى بيت الخواجا ابن الخرنوبى بالجزيرة المواجه للمقياس ، إلى جزيرة الروضة إلى رباط الآثار النبوية ، وأحياناً كان يبيت بالحراقة الذهبية^(٥).

وينتقل المؤيد بين تلك الأماكن بالذهبية التي يكسر بها سد الخليج وحوله حراريق الأمراء المزينة أحسن زينة ، ويجتمع الناس على اختلاف طبقاتهم وطوائفهم للتفرج حيث يتلأ البران بهم ما بين بولاك وامبابية شمالاً إلى مصر القديمة والجزيرة جنوباً ، " فلا ينكر على احد منهم"^(٦).

وكانت تلك المهرجانات التي تقام على درجة كبيرة من الإبهار ، فقد كان المؤيد يلزم الأمراء بإحضار الزيت والنفط ويلزم العامة بإشعال مسارج الفخار بالزيت والنفط وعمل مسارج أيضاً

(١) المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص ٤٩٩ ، ٥٣٤ ، ٥٤٢ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٤ ، ص ٩٥ ، المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص ٥٢٩ .

(٣) السلوك ، ج٤ ، ص ٤٩٩ . وابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج٤ ، ص ٨٥ .

(٤) بيت ابن البارزى كان فى الأصل للناصر الدين بن سلام فاستأجره منه ابن البارزى وأضاف إليه عدة بيوت مجاورة له واتقن بناءها ووضعها وضعا غربياً على قاعدة عمائر بلده حماه وقد أعجب السلطان الملك المؤيد شيخ بها إعجاباً شديداً فقضى بها أغلب أوقاته . انظر : ابن حجر ، انباء الغمر ، ج٣ ، ص ١٩٦ .

* وابن البارزى هو تاجر الدين محمد بن محمد بن الفخر عثمان بن الكمال محمد بن عبد الرحيم بن عبيد الله بن المسلم البارزى (٧٦٩ - ٨٤٣هـ) برع فى الأدب وولى كتابة السر بالديار المصرية . السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج١ ، ص ٢٧٤ .

(٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج٤ ، ص ٩٩ ، المقرئى ، السلوك . ج٤ ، ص ٥٠١ ، ٥٢٩ ، ابن الصيرفى ، نزهة النفوس ، ج٢ ، ص ٤٤٨ ، العينى ، عقد الجمان ، (بدون ناشر) ص ٣٥٦ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج٣ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٦) المقرئى ، السلوك ، ج٤ ، ص ٥٠١ .

* ويعبر «المقرئى» عن نفسه كمحتسب ويستنكر تلك التصرفات التي حدثت أيام المؤيد بقوله ان الناس «مر لهم جميعاً من السخف ما لم نعهد بمثله لملك قط» . السلوك ، ج٤ ، ص ٤٣٥ .

من قشر البيض وقشر النارج وقد انغمست فيها فتايل القطن بالزيت وتشعل بالنيران ثم ترسل بعد غروب الشمس بنحو ساعة، وتطلق النفوط وتشمل وقدات نفط هائلة ببرى امبابة وبولاق، ويزدحم النيل بمراكب المتفرجين الذين يخرجون فى التمهتك عن الحد ولا سيما أن تلك المهرجانات كانت بأمر سلطاني.^(١)

وكان المؤيد حريصاً على الاحتفالات بطريقة مبالغ فيها فكان يأمر الممالك للعب بالرمح على شاطئ النيل^(٢)، كما أنه جعل موكب المحمل يدور ببولاق ولم يقع مثل ذلك فى سالف الأعصار^(٣)، وكان المؤيد يمارس رياضة السباحة فى النيل لمسافات كبيرة حتى فى ظل ظروف مرضه مما أدهش الناس^(٤).

وقد حظيت بولاق بمكانة مرموقة أيامه، وقال "المقريزى: الذى عاصر تلك الأيام" . . . فمرت للناس ببولاق فى تلك الايام والليالى أوقات لم نسمع بمثلها^(٥)، وأغلب إقامة المؤيد كانت بيت كاتب السر ابن البارزى الذى بات به أغلب الاحيان، وكانت الأمراء تنزل فى عدة من دور الناس حول بيت ابن البارزى^(٦)، وكان ابن البارزى يبالغ فى الاحتفالات حتى أنه كان يفرش شقق الحرير تحت حوافر الخيل السلطاني^(٧).

وقد ظلت مكانة بولاق مرموقة طوال العصرين المملوكى والعثماني، وكانت تعج بالقصور والمناظر والبيوت والمساكن الممتدة على شاطئ النيل، وكان السلاطين والأمراء والولاة ينزلون بتلك القصور الفخمة مثل قصر (بيت) ابن البارزى والقصر الباسطى^(٨) والقصر المعروف بالبرابخية^(٩) وقصر الحجازية^(١٠) وقصر الانصارى^(١١) وغيرها كثير، بالإضافة لجوامعها ومدارسها الحسنة وحماماتها وأسواقها ووكايلها الشهيرة.

-
- (١) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٥٠١ والعينى، عقد الجمان، بدون ناشر، ص ٣٧٣.
 (٢) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٥٣٧. (٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج٤، ص ٨٧.
 (٤) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٥٣٤. (٥) السلوك، ج٤، ص ٥٠٢.
 (٦) المقريزى، السلوك، ج٤، ص ٤٩٩. (٧) العينى، عقد الجمان (بدون ناشر)، ص ٣٢٣.
 (٨) القصر الباسطى نسبة إلى القاضى زين الدين عبدالباسط بن خليل بن ابراهيم الدمشقى ناظر الجيوش ومنشأه الجامع الباسطى يخط الكافورى بالخرنفس سنة ٨٢٢هـ. المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٣٣١.
 (٩) القصر المعروف بالبرابخية لن أقف على الشخصية التى نسبت إليه هذا القصر، وكان القصر يقابل القصر المعروف بالحجازية. ابن تغرى بردى، النجوم، ج٤، ص ٩٥.
 (١٠) القصر المعروف بالحجازية نسبة إلى مالكة خوند تتر الحجازية بنت الملك الناصر محمد بن قلاوون وزوج الأمير بكتمر الحجازى وبه عرف. المقريزى، الخطط، ج٢، ص ٧١، ٣٨٢.
 (١١) قصر الأنصارى هو قصر المقر الأشرف القضائى شرف الدين الأنصارى نسبة إلى زكريا بن محمد الأنصارى (٨٢٣-٩٢٦هـ)، وكان قاضياً ومفسراً ومن حفاظ الحديث تولى منصب قاضى القضاة أيام السلطان قايتباى، الرزكلى، الاعلام، ج٣، ص ٨٠.

وقد أرجع المؤرخ : ابن اياس : تعرض بولاق للخراب أحياناً إلى : كثر الفسق والفساد ببولاق جداً حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد " ، وذلك عندما كتب عن الحريق الذى وقع بها فى جمادى الآخرة سنة ٨٦٢هـ والذى أتى على ثلاثمائة منشأة ما بين دور وربوع ودكاكين ، وكان يوماً مهولاً .^(١)

إلا أن التعمير سرعان ما يعود إلى بولاق بعد المحن التى ألمت بها فتعود أبهى مما كانت وتظل دائماً قبلة المتزهين .

وكان السلطان اينال يخرج لبولاق هو وزوجته وحاشيته ، ونزلت زوجته مرة فى القطيعة ببولاق بمناسبة شفائها فى العشر الأخير من ربيع آخر ٨٥٩هـ وتزايد تردد الناس إلى بابها ولا سيما لما عملت لها مرامى النفط والصواريخ ، وغير ذلك فى ليلة الاربعاء ثامن عشرينه وتسامع الناس بذلك فقصدوا التفرج من الأماكن البعيدة حتى ضاقت شوارع بولاق وسواحليها مع سعتها عنهم ، وازدحم الناس فى الطرقات وصارت كأيام دوران المحمل أو بعض ليالى وفاء النيل بل أعظم حتى جاء جماعة من أعيان الأمراء وأرباب الدولة ، وأما النسوة فكانن اضعاف الرجال ودام ذلك من أول النهار إلى بعد العشاء الآخرة ووقعت فى تلك الليلة من القبائح والمفاسد والأمور الشنيعة ما لا مزيد عليه .^(٢)

وقد أورد لنا " ابن اياس " حادثة تبين لنا ما كان يحدث فى بولاق ، ففي رجب سنة ٨٦٥هـ فى أول سلطنة المؤيد احمد بن اينال " هجم المنسر على المتفرجين بجزيرة بولاق وكان فى الظلمة فى نصف الليل فنهبوا من الناس شيئاً كثيراً وكان الناس قد خرجوا عن الحد فى التهتك والقصف بسبب الفرجة ونصبوا هناك الخيام حتى سدوا رؤية البحر وصاروا يقيمون فى الرمل ليلاً ونهاراً من نساء ورجال وهم فى غاية التزخرف فهجم عليهم المنسر على حين غفلة ونهب ما قدر عليه ومضى ولم تنطح فى ذلك شاتان " .^(٣)

وكان السلطان قايتباى يذهب كثيراً إلى بولاق حيث يستضيفه هناك القاضى شرف الدين الأنصارى ، ويركب الغراب الذى عمره الأنصارى ويتوجه به إلى شبرا^(٤) ، وكذلك كان السلطان الناصر محمد بن قايتباى مغرمًا بقضاء بعض وقته فى بولاق ويحرق إحراقات نفط حافلة وكان يبات هناك أحياناً^(٥) .

(١) بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٣٤٧ .

(٢) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج٢ ، ص ٢٢٨ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٣٢٤ .

(٣) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٣٧٣-٣٧٤ .

(٤) نفس المصدر ، ج٣ ، ص ١٠٨ .

(٥) نفس المصدر ، ج٣ ، ص ٣٨٩ .

وكان السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى ينزل فى مواكب حافلة إلى بولاق حيث يضيفه القاضى كاتب السر محمود بن أجا بالبرابخية التى هناك حتى أنه تكلف على أسمطة وطوارى حافلة وتقدمة عظيمة قدمها للسلطان فى إحدى المرات فوق الألف دينار، وكان ابن السلطان معه وجماعة من الخاصكية، وانشرح السلطان هناك إلى الغاية، وأحضر بين يديه مغانى وأرباب الآلات^(١).

وفى حوادث سنة ٩١٢ هـ طلعت جزيرة بولاق تجاه ربع قائم التاجر ذكرنا من قبل أنها غالباً اندمجت ببر بولاق فيما بعد، وقال عنها "ابن اياس" . . . فصارت هذه الجزيرة فى كل سنة تزرع امقته ورياحين فتوجهت إليها الناس وخرجوا فى القصف والفرجة هناك عن الحد وضربوا الخيام واعمل هناك اخصاص للمتفرجين بها وصاروا يبيتون هناك ليلاً ونهاراً وصاروا الناس يخرجون فى البحر إلى نصف الليل وقد قال فى هذا المعنى:

فى جزيرة بولاق رأينا عجب ١٠ أسد صاروا معهم ظبا شاردين
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح ١٠ أذهلونا خضنا مع الخايضين^(٢)

وكانت تتم ببولاق احتفالات بعدة موالد مثل مولد الامبابى ومولد الشيخ سويدان المجذوب فى مدرسة ابن الزمن برصيف بولاق وكان له مولد حافل^(٣).

وفى العصر العثمانى فضل السلطان سليم شاه أن يقيم اثناء وجوده بمصر على شاطئ النيل فأقام ببولاق فترة وفى الجزيرة الوسطى وفى الروضة^(٤).

وكان مملك الامراء خاير بك يركب فى الذهبية ويتجول على النيل متنقلاً ما بين الروضة والقصر العينى وبركة الحبش والبريم^(٥)، ويقوم له القاضى بركات بن موسى المحتسب الموائد العظيمة من خرفان شوى وحلوى وفاكهة ويطبخ صيفى وغير ذلك من مطابق ضمنها مأمونية وسنبوسك وسكر وغير ذلك أشياء فاخرة^(٦).

وقد ذكر "البكرى" أن بولاق أصبحت فى زمنه فى غاية العمارة وأنها من المتنزهات الهامة فى العصر العثمانى^(٧).

(١) نفس المصدر، ج٤، ص ٤٧٣-٤٧٤. (٢) بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٠-١١١.

(٣) نفسه، ص ١١٤.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٤٩-١٥٠.

(٥) البريم هو مكان على النيل يقع بمنطقة أثر النبى حالياً وكان مجاوراً لبركة الحبش.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢١٦، ٣٣١، ٣٨٠.

(٧) قطف الأزهار (مخطوط)، ص ١٤٦-١٤٧.

وإثنى الرحالة " النابلسي " على بولاق وذكر في زيارته لقبر الشيخ يوسف بها وأنه رأى على الحائط من نظم الشيخ الفاضل أحمد الدلتنجوى المالكي بخطه قوله :

إذا رمت تأتي مجمع الأنس والصفاء لتحظى بأنواع التنزه والفرج
بيولاق فأنزل في رياض أريضه حوت كل أنس في حدايقها فرج^(١)

مظاهر التنزه بالجزر:

وقد حرص بعض السلاطين على التنزه في الجزر وخاصة جزيرة الروضة، التي تعتبر عروس المتنزهات،

وقد اتخذتها أم السلطان شعبان في سنة ٧٧٤هـ مكاناً للاستشفاء وكان ابنها يزورها هناك على شاطئ نيل الروضة بمنظرة الأمير طشتمر الدوادر.^(٢)

وكان المؤيد كثير الخروج للروضة والإقامة بالمقياس وقد أمر بتجديد جامع المقياس وحرص على الاحتفال بتخليق المقياس وكسر سد الخليج أغلب سنوات حكمه.^(٣)

وكان السلطان قايتباي مداوماً على التنزه بالروضة وقضى أوقاتاً عديدة بخرطوم الروضة^(٤) أي الطرف الشمالي لها.

وبمناسبة الانتهاء من عمل جامع قايتباي الذي جاء غاية في الحسن، فقد صنع هناك ابن الطولوني معلم المعلمين ناعورة تدور بحمار وهو واقف ويحرك رجله فقط، وكان الناس يتوجهون للفرجة عليها، وكان ابن الطولوني يصنع في كل ليلة رابع عشر الشهر ليلة حافلة بالجامع ويسمونها البدرية وينصب على شاطئ البحر قدام الجامع من الخيام ما لا يحصى، وتجتمع المراكب هناك حتى تسد البحر ويجتمع الجسم الغفير من العالم ويوقد بالجامع وقده حافلة ويحضر هناك قراء البلد قاطبة والوعاظ وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلها فيما تقدم، واستمر الحال على ذلك مدة ثم بطل^(٥).

وكان السلطان الملك الأشرف قانصوه الغوري أكثر السلاطين تنزهاً بالروضة حيث يقيم مخيمات ويبست هناك وبصحبه كبار الأمراء والقضاة والعلماء ورجال الدولة ويصحب معه الضيوف أحياناً^(٦)، وكان معظم إقامته بالمقياس حيث بنى القصر على بسطته، وأحياناً يقيم

(١) الحقيقة والمجاز، ص ٢٥٨.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٣، ص ٢٠٦، ٢٠٧، ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ١١٤.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج ١٤، ص ٩٩. (٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ١٨٢، ٢٢٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٣، ص ٢٨٣. (٦) نفسه، ج ٤، ص ٣٨٤.

بخرطوم الروضة (طرفها الشمالى) وتقام الاحتفالات الكبيرة وتمد الأسمطة والولائم الفاخرة وكان السلطان يستدعى المغانى وأرباب الآلات والمهرجين والمضحكين^(١)، وتقام بين يديه الاستعراضات البحرية بالحراقات وخصوصاً بعد أن انشأ ذهبية جديدة^(٢)، وتطلق المدافع والصواريخ وتعمل حراقات نفط وتقاد القناديل والأمشاط وكان سكان البرين (بر مصر وبر الروضة) يوقدون على طولهما آلاف القناديل ويطلقون آلاف الصواريخ وقد تفتكوا فى القصف والفرجة حتى خرجوا فى ذلك عن الحد.^(٣)

واستمر الحال كذلك فى العصر العثمانى، فقد فضل السلطان سليم الإقامة بالمقياس وطرد جنوده سكان الجزيرة ومصر العتيقة وأقاموا مكانهم فى دورهم^(٤)، وقد قال "ابن اياس" فى خصوص ذلك "وفى مدة اقامة ابن عثمان بمصر لم يجلس بقلعة الجبل على سرير الملك جلوساً عاماً ولا رآه أنصف مظلوماً من ظالم بل كان مشغولاً ببلذته وسكره وإقامته فى المقياس بين الصييان المرد".^(٥)

ومن أمثلة احتفال سليم الأول فى المقياس أنه فى جمادى الآخرة سنة ٩٢٣ هـ لما كان بالمقياس احضر فى بعض الليالى خيال الظل فلما جلس للفرجة قيل أن المخايل صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شق عليه ولما انقطع الحبل مرتين فانشرح ابن عثمان لذلك وانعم على المخايل فى تلك الليلة بمائتى دينار والبسه قفطان مخمل مذهباً^(٦).

وظل الولاة بمصر على صلة وثيقة بجزيرة الروضة وذلك لرئاستهم للاحتفال بوفاء النيل سنوياً بالمقياس، وكان خاير بك كثير النزول للمقياس وإقامة الأسمطة الحافلة به^(٧) مشال لذلك فى يوم الخميس ٦ من ذى القعدة ٩٢٦ هـ حيث أقام فى خرطوم جزيرة الروضة مدة حافلة صرف عليها القاضى بركات المحتسب نحو خمسمائة دينار من جملة ذلك أربعون خروفاً مشوياً وأربعمئة مجمع حلوى وعدة مطابق ضمنها مأمونية سكب ومأمونية حموية بسكر وسنبوسك بسكر وأرز حلو مسكر وسمك على أنواع مختلفة وأجبان مقلّى وأشياء غير ذلك مؤنقة وأحمال بطيخ صيفى وعبيدى وأطنان قصب وأحمال قشقة ويطط جلاب وأحمال موز وغير ذلك^(٨).

(١) نفسه، ص ٣٣٧. (٢) نفسه، ص ٢٩٨.

(٣) نفسه، ص ٢١٢، ٢١٣، ٢٣٩، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٥٥، ٢٦٦، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٨، ٣١١، ٣٢٨، ٣٣٧، ٣٣٩.

٣٤٠، ٣٦٢، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٨٤، ٣٨٨، ٤٣٨، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٦٨، ٤٨٤، ج٥، ص ١٩.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٦، ١٩٥.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٠٧. (٦) نفسه، ص ١٩٢.

(٧) نفسه، ص ٢١٦، ٢٥١، ٣٠٠. (٨) نفسه، ص ٣٥٦-٣٥٧.

وكانت جزيرة الذهب متنزهاً جليلاً في العصر العثماني وكان بعض الولاة والأمراء، يفضلون الخروج إليها مثل ملك الأمراء خاير بك^(١)، وظلت كذلك حتى آخر العصر العثماني حيث قضى بها الأمير مراد بك أوقاتاً عديدة في قصره هناك.^(٢)

ونافست جزيرة اروى المعروفة بالجزيرة الوسطى جزيرة الروضة في العصر المملوكي في الاحتفالات والتفرج بها.

وكذلك جزيرة حليلة التي ظهرت سنة ٧٤٧هـ شمال جزيرة اروى وانددمجت بها فيما بعد، وقال عنها "المقريزي" "... تتظاهر الناس بكل قبائحها وبلغ مصروف كل خص فيها من الفين إلى ثلاثة آلاف درهم، وعمل كل خص بالرخام والدهان البديع وزرع حوله المقائى والرياحين وأقام بها معظم الناس من الباعة والتجار وغيرهم وكشفوا ستر الحياء وبالغوا في التهنك بما تهوى أنفسهم في حليلة وفي الطينة، وتنافسوا في أرضها حتى كانت كل قبضة قياس تؤجر بعشرين درهماً فيبلغ الفدان الواحد ثمانية آلاف درهم ويعمل فيها ضامن يستأجر منها الإخصاص فأقاموا على ذلك ستة أشهر حتى زاد الماء وغرقت الجزيرة فاجتمع فيها من البغايا والأحداث وأنواع المنكرات ما لا يمكن حكايته وأنفق الناس بها أموالاً تخرج عن الحد في الكثرة وكانت الأمراء والأعيان تسير إليها ليلاً إلى أن قام الأمير أرغون العلاني في أمرها قياماً عظيماً وأحرق الإخصاص على حين غفلة وضرب جماعة وشهرهم فتلف بها مال عظيم جداً".^(٣)

وكان السلاطين يقيمون مهرجانات بحرية عند تلك الجزر مثل السلطان الأشرف شعبان^(٤)، والمؤيد شيخ الذي كان يعسكر بها أياماً^(٥). وكذلك الأشرف اينال ولكن في بعض المرات لم يتجهج الناس بنزوله للجزيرة الوسطى "لعظم ما قاسوه من الظلم في عمل المراكب التي كان قد أعدها للغزو من قلة الإنصاف والجور في حق العمال من ارباب الصنائع وغيرهم".^(٦)

وكانت الخطط على النيل من أجمل مواضع التنزه في العصرين المملوكي والعثماني بما تتضمنه من حدائق وبساتين وحقول وقصور ومناظر تطل على النيل مباشرة.

(١) نفسه، ص ٤١٣. (٢) الجبرتي، عجائب الآثار، ج ٢، ص ٣٤٤.

(٣) المقريزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٠٣، ٧٠٤، وانظر أيضاً، الخطط، ج ٢، ص ١٨٦، ابن تغرى بردى، النجوم، ج ١٠، ص ١٢٨، ١٢٩.

(٤) المقريزي، السلوك، ج ٣، ص ١٣٠.

(٥) ابن تغرى بردى، النجوم، ج ١٤، ص ١٠٢، المقريزي، السلوك، ج ٤، ص ٥٣٧.

(٦) ابن تغرى بردى، النجوم، ج ١٦، ص ١٥٠.

وكانت من أهم تلك الخطط منشأة المهراني ، وكان الناس على اختلاف طبقاتهم يكثر من الخروج إلى تلك المتنزهات الخلوية ويقيمون احتفالات كبيرة بها وخصوصاً أن منشأة المهراني ضمت مكانين حازا القبول والزيارة طوال بقائهما هما قبتى چانى بك ببستانه الكبير وقصر ابن العيني .

وكان الأمير چانى بك الدودار نائب جده الذى لقب أيضاً بعظيم المملكة يقيم احتفالات كبيرة ببستانه وقبته على شاطئ النيل والذى انزل بهما الصوفية ، ويقيم ولائم عظيمة يحضرها أعيان الدولة ، ويحتشد العامة لينالوا بعض الخيرات مما ينعم عليهم تلك المناسبات^(١) ، وكانت بعض الاحتفالات تتم ليلاً حيث تنصب الصواري وتعلق القناديل ويأتى الناس زمراً فى البر والبحر بسبب الفرجة وتزاحم المراكب هناك وتكون ليالى حافلة " قل ان يقع مثلها فى القصف والفرجة " ^(٢) .

وكان السلاطين يذهبون كثيراً إلى منشأة المهراني ويقضون أوقاتاً طيبة وخصوصاً فى قصر العيني وقبتى وبستان چانى بك : وتجتمع سائر الناس للفرجة ومنهم السلطان خشقدم الذى أعجب بقصر العيني إعجاباً زائداً وكان ابن العيني يقدم الأسمطة الحافلة والفواكه والخلوى وبعد تناول السلطان والأمراء الطعام ، يتخاطف العوام ما تبقى من طعام وخلوى وفاكهة . ^(٣) واستمر نزول ولاية مصر إلى نشأة المهراني فى العصر العثماني بدءاً من ملك الأمراء خاير بك الذى أقام عدة ولائم حافلة بقصر ابن العيني كان يشرف على إعدادها القاضى الزينى بركات المحتسب . ^(٤)

وظل الولاية بقية العصر العثماني يفضلون الذهاب إلى جهة قصر العيني ^(٥) ويلعب أمامهم الصناجق والأغوات بعض الألعاب مثل الجريد والرمى بالبندق وغير ذلك ^(٦) .

(١) ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج١ ، ص ٢٧٧ . حوادث الدهور ، ج٤ ، ص ٧٦٦-٧٦٧ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٤٠٦ .

(٣) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ج٣ ، ص ٥٤١ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٤٢٨ ، ٤٤٩ .

(٤) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٥ ، ص ٣٩٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٣ .

(٥) الجبرتي ، عجائب الآثار ، ج١ ، ص ٥٠٢ .

(٦) الدرر داش ، الدرر المصانة ، ص ١١٤ .

* البندق كرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص أو غيرها وترمى بها الطيور ، وكان لرمى البندق شأن كبير فى العصور الوسطى بمختلف البلاد ومنها مصر حتى أن خط البندقانيين بالقاهرة ينسب إلى صناعة أفراس البندق . المقرئى ، السلوك ، ج١ ، ص ١٧٢ ، حاشية (٢) .

وكانت جهة قصر العينى مكاناً يبعث على رقة النفس والصفا لهذا أقيمت به عزومات الصلح بين بعض الطوائف المتصارعة مثلما حدث يوم الخميس ١٢ شوال ١١٣٥هـ\ ١٦ يوليو ١٧٢٣م وكان يوماً عظيماً^(١).

وقد اثنى الرحالة النابلسى " على جهة قصر العينى وأبدع فيها قصيدة شعر. (٢)

وكانت الخطط على النيل جنوب القاهرة متنزهات سلطانية أيضاً وكان السلطان قايتباى كثير الخروج إلى المعادى وطرا والمعصرة بقصد التنزه، وكان يبيت هناك أحيانا فعلى سبيل المثال أنه فى يوم الأحد الثانى من صفر ٨٢٣هـ ركب السلطان من القلعة يجمع أمرائه وخاصيته بغير قماش المركب وتوجه إلى جهة العدوية^(٣) وقد نصب بها خام عظيم عند زاوية الرفاعى على البحر^(٤) فلما قارب المكان المذكور خلع سلاية وعباءة فرسه ثم أطلق عنان فرسه غاره وكذا جميع أعيان العسكر إلى المعصرة^(٥) فى مشوار واحد ثم عاد إلى مخيمه بالعدوية وأكل السماط مع الأمراء وأقام هناك إلى بعد أذان الظهر فمد مدة أخرى غير أطعمة من أنواع البطيخ والأجبان والمخللات شيئا كثيراً بحيث كفى العسكر ثم ركب وعاد من وقته إلى القلعة ووصل إليها قبيل العصر^(٦).

واستمر قايتباى كثير التوجه إلى تلك الجهات على سبيل التنزه حيث يضيفه هناك شيخ هذه الجهات ويسمى ابن البلاح أو يضيفه الأمير أزيك الأتابكى^(٧).

وكان السلطان الغورى يذهب إلى طرا كثيراً ويقيم الموائد الحافلة ويستعرض هناك المراكب الجديدة الكبيرة التى تنشأ فى بولاق وكان يرجع من هناك عن طريق البحر راكباً الحراقة التى يكسر فيها السد والعسكر حوله فى عدة مراكب^(٨).

(١) أحمد شلى، أوضح الاشارات، ص ٣٧٠.

(٢) الحقيقة والمجاز، ص ٢٠٤، ٢٥٦.

(٣) العدوية المقصود بها المعادى حالياً وتسمت بذلك الاسم نسبة إلى دير العدوية الذى لا يزال بإمكانه الآن كنيسة العذراء على كورنيش النيل بالمعادى.

(٤) زاوية الرفاعى هذه لا تزال موجودة حتى الآن وهى عبارة عن حجرة صغيرة مغطاة بسقف جمالونى، وله مولد كل عام، وتقع على الطريق الزراعى على بعد ١٠٠ من مدخل المعادى الأول عند المعهد القومى للتنمية الإدارية بكورنيش النيل.

(٥) المعصرة، هى منطقة المعصرة البلد الآن على كورنيش النيل تميزاً لها عن المعصرة المحطة.

(٦) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٧٥، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩.

(٧) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩، ٣٣، ٥٣، ١٠٧، ١١١.

(٨) نفس المصدر، ج٤، ص ٢١٥-٢١٦.

استعراضات الاسطول فى النيل :

هناك احتفالات فى العصر المملوكى صارت تقليداً وعادة اتبعت فى ثلاث مناسبات متعلقة بالأسطول ، الأولى أيام الانتهاء من صنع المراكب الكبيرة والثانية يوم خروجها للغزو والثالثة يوم عودتها ، وكان بعض السلاطين حريصين على متابعة عمارة المراكب المعدة للغزو أو لتأديب قراصنة البحر الأبيض المتوسط منهم الظاهر بيبرس^(١) ، والأشرف برسباي^(٢) ، والأشرف إينال^(٣) .

وكانت مراكب وسفن الاسطول تقوم بعمل استعراضات بحرية كبيرة ومناورات على القتال البحرى ، فيحتشد خاصة وعامة المصريين من كل مكان للفرجة بأعداد غفيرة ويستأجر الناس المراكب فى هذه الأيام بأعلى كثيراً من قيمة تأجيرها فى الأيام العادية وتقوم السفن بدق الكوسات^(٤) وإطلاق النفوط وكأنها فى اشتباك حقيقى مع سفن العدو^(٥) .

وأول من أحدث عادة الاستعراضات بالنيل فى العصر المملوكى هو السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى عقب الانتهاء من عمارة مراكب حربية جديدة ، ومن أمثلة ذلك ما حدث يوم الاحد ١٩ رجب ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م بعد أن أتم الظاهر عمارة عدد كبير من الشوانى الحربية^(٦) والطرايد^(٧) وغيرها من المراكب وقد اصطحب بيبرس معه الخليفة العباسى الحاكم

(١) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص ٢٧١ . ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٢ ، ص ٩٥ .

(٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، ج١٦ ، ص ١٥٠ .

(٤) الكوسات هى صنوجات من نحاس يدق بأحداها على الآخر . انظر :

عبدالمعنى ماجد ، نظم الفاطميين ، ج٢ ، ص ٨٢ ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ج٢ ، ص ١٨٠ .

(٥) قاسم عبده ، النيل ، ص ٩٠ .

(٦) الشوانى جمع شينى أو شونه أو شينية ، وهى من أهم قطع الأسطول فى عهد المماليك وهى سفن حربية كبيرة معدة للجهاد ، وذكر «ابن ممتى» أن الواحد منها كانت تسير بمائة وأربعين مجدافاً وفيها المقاتلة والجداون ، وأشار «المقرئى» إلى أن بعضها كان يقل الفا من المحاربين ، وهى مزودة بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم وتحتوى على اهرأ (مخازن) لحزن القمح وصهاريج لحزن الماء العذب . انظر :

ابن ممتى ، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ ، المقرئى ، الخطط ، ج١ ، ص ٩٤ ، ج٢ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

سعاد ماهر ، البحرية ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، درويش النخلى ، السفن الإسلامية ، مادة شينى .

(٧) الطرايد جمع طريدة وهى مركب تستخدم لحمل الخيل والفرسان وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارساً ، ويقول «دوى» : الطراد نوع من المراكب الحربية لا يزيد طولها عن سبعة أذرع ، وعرضها ذراعين ونصف ذراع ، وهى أكثر شبهاً بالبراميل منها بالسفن الحربية وليس لها سقف وتكاد تكون خالية تماماً من المسامير ولذا كان ألواحها الخشبية رقيقة وصلبة وقد استعملها بكثرة صلاح الدين الأيوبي . انظر : سعاد ماهر ،

البحرية ، ص ٣٥٤ ، Dozy, Supp, 2, p34.

بأمر الله إلى ساحل الفسطاط حيث تفرجاً على لعب الشوانى فى النيل " على هيئة محاربتها للعدو فى البحر ذهاباً وإياباً والطبول والبوقات والنقود عما له " وقد خرج الناس لمشاهدتها فكان يوماً مشهوداً^(١).

وقد أمر بيبرس بعمارة عدة شوانى سنة ٦٧٠هـ بديلاً عن الشوانى التى تكسرت فى حملته الفاشلة على قبرص سنة ٦٦٩هـ، ولأزم الركوب إلى صناعة العمارة بمصر كل يوم فى مدة شهر المحرم سنة ٦٧٠هـ إلى أن أنجزت، وفى نصف المحرم سنة ٦٧١هـ لعبت الشوانى بين يديه فكان يوماً مشهوداً^(٢).

واهتم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون بإنشاء أسطول قوى فى صناعة مصر سنة ٦٩٢هـ/ ١٢٩٢م وقد عهد بإعداده وتجهيزه إلى الوزير شمس الدين محمد السلجوس، فلما اكتمل عدد السفن ستين شينياً شحنها بالعدد والآت الحرب ورتب لها عدة من المماليك السلطانية والبسهم السلاح " فأقبل الناس لمشاهدتهم من كل أوب قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام وصنعوا لهم قصوراً من خشب وأخصاص القش على شاطئ النيل خارج مدينة مصر وبالروضة واكثروا الساحات التى قدام الدور والزرابى بالمائتى درهم كل زريبة فما دونها بحيث لم يبق بيت بالقاهرة ومصر إلا وخرج أهله أو بعضهم لرؤية ذلك فصار جمعاً عظيماً وركب السلطان من قلعة الجبل بكرة والناس قد ملأوا ما بين المقياس إلى بستان الخشاب إلى بولاق، ووقف السلطان ونائبه الأمير بيدار وبقية الأمراء قدام دار النحاس ومنع الحجاب من التعرض لطرده العامة فبرزت الشوانى واحدة بعد واحدة وقد عمل فى كل شونه (شينى) برج وقلعة محاصر والقتال عليها ملح والنفط يرمى عليها وعدة من النقاين فى أعمال الحيلة فى النقب ومامنهم إلا وأظهر فى شونته عملاً معجباً يفوق بها على صاحبه، وتقدم ابن موسى الراعى وهو فى مركب نيلية فقرأ قوله تعالى " بسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم "، ثم تلاها بقراءة قوله " قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء . . . إلى آخر الآية، هذا والشوانى تواصل بمحاربة بعضها بعضاً إلى أن أذن صلاة الظهر فمضى السلطان بعسكره عائداً إلى القلعة فأقام الناس بقية يومهم وتلك الليلة على ما هم عليه من اللهو فى اجتماعتهم وكان شيئاً يجلب وصفه وانفق فيه مال لا يعد . . . وحصل لعدة من النواتية أجرة مراكبهم عن سنة فى هذا اليوم . . . فبلغ خبر الشوانى إلى بلاد الفرنج فبعثوا رسلهم بالهدايا يطلبون الصلح " ^(٣).

(١) النويرى، نهاية الارب جـ ٣٠، ص ٢٥، المقرئى، السلوك، جـ ١، ص ٤٥١، ابن اياس، بدائع الزهور، جـ ١، ق ١، ص ٣٢٠.

(٢) النويرى، نهاية الارب، جـ ٣، ص ١٩٧، المقرئى، الخطط، جـ ٢، ص ١٩٤.

(٣) المقرئى، الخطط، جـ ٢، ص ١٩٥.

ومن الاحتفالات الكبيرة بمناسبة انتهاء صنع السفن والاذن بتدشينها ما حدث يوم السبت ١٢ محرم سنة ٧٠٢هـ حيث انجزت عمارة أربعة شوانى حربية كبيرة وجهزت بالمقاتلين والعدد والسلاح والعتاد والنفطية، والأزوده وزينت أحسن زينة فخرج معظم الناس لرؤيتها يومين بلياليهما على الساحل بالبرين وكان جمعاً عظيماً إلى الغاية، وكان يرأس الشوانى الأمير جمال الدين أقوش القارى، واجتمع الناس لمشاهدة لعبهم فى البحر، ونزل السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون والأمراء لمشاهدة ذلك واجتمع من العالم ما لا يحصيهم الا الله تعالى، وارتفعت قيمة أجرة المراكب ارتفاعاً كبيراً "امتلاً البران من بولاق إلى الصناعة بمصر بالناس حتى لم يوجد موضع قدم خال، ووقف العسكر على برستان الخشاب وركب الأمراء الحاريقى إلى الروضة" وبدأت المناورات البحرية من لعب الشوانى كأنها فى الحرب، فلعب الأول والثانى والثالث وأعجب الناس بذلك إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المقاتلة والنفوط وآلات الحرب، والناس فى سرور بالغ لما يشاهدون ولكن تلك البهجة والفرحة لم تكتمل إذ أن الشينى الرابع بعد ما خرج من مينا الصناعة حتى توسط البحر لعبت به الريح حتى غرقت ونجا الجميع فيما عدا قائد الشوانى الأمير جمال الدين أقوش^(١)

وفى سنة ٧٦٤هـ حدث استعراض ومناورة لبعض قطع الأسطول على صفحة نهر النيل، " . . . وكان يوماً مشهوداً لم ير مثله فى سالف الأعصار " حيث أتى الناس من كل مكان للاستمتاع والفرحة بذلك المهرجان البحرى الكبير.^(٢)

وفى سنة ٧٦٨هـ فى سلطنة الأشرف شعبان تمت فى صناعة جزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطانية عمارة مائة مركب ما بين غريان^(٣) وطرايد لحمل الرجال والخيل جهزها الأمير بلبغا ألاتابك للقيام بحملة على جزيرة قبرص رداً على مهاجمة ملكها لثغر الاسكندرية فى المحرم

(١) المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٩٥، السلوك، ج١، ص ٩٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ١٥٥-١٥٦، السيوطى، كوكب الروضة (مخطوط)، ص ٣٩.

(٢) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١، ص ٣٥-٣٦.

(٣) الغربان أو الأغربة جمع غراب وهو نوع من السفن الحربية التى كانت تستعمل فى البحر الأبيض المتوسط منذ أيام الامبراطورية الرومانية والأرجح أن هذا النوع من السفن سمي بهذا الاسم نظراً لمشايبته لهذا الطائر من حيث السواد لطلائها بالقار والزفت وكذلك لاستواء مناقيرها على حد قول النويرى فى مخطوطة الاعلام بما جرت به الأحكام المقضية فى وقعة الاسكندرية، وتختلف الأغربة بعضها عن بعض من حيث الحجم ما بين صغيرة وكبيرة وذلك لعدد مجاديفها التى تتراوح ما بين عشرة ومائة وثمانين مجداً، ويقول ابن شداد «من خصائصه أنه كان مزوداً بجسر من الخشب يهبط على مركب العدو ويمر على ظهره الجند فيقاتلون بالأساليب البرية. سعاد ماهر، البحرية، ص ٣٥٩-٣٦٠، ابراهيم حسن سعيد، البحرية فى عصر سلاطين المماليك، (ط دار المعارف، ١٩٨٣م)، ص ٢٣٢-٢٣٣، عبد المنعم ماجد، نظم دولة المماليك، ج٢، ص ١٩٢.

من السنة السابقة^(١)، فشحنت الأغربة بالرجال والآلات والعدد الحربية وزينت بالأعلام ، ونزل السلطان الملك الاشرف شعبان بن حسن من القلعة وركب فى موكب حافل وتوجه إلى جزيرة أروى فنزل هناك فى المركب المسماة بالذهبية ، وقد امتلأت تلك الأرضى بالناس فقدمت الشوانى ولعبت قدامه رجالها بالآلات الحربية كما يفعل عند لقاء العدو ودقت كوساتها ونفخت بوقاتها وزعقت الزمور وفرقت النفوط * فكان أمراً مهولاً ومنظراً جميلاً وأمرأ حسناً ، وقد تجمع على شاطئ النيل الناس من كافة أنحاء المدينة للفرجة على تلك المناورة البحرية وانشرح الجميع فى ذلك إلى الغاية .^(٢)

واستمرت الاحتفالات والاستعراضات البحرية فوق مياه النيل بمناسبة إتمام عمارة السفن والمراكب بقية العصر المملوكى وجزءاً من العصر العثمانى ، فعلى سبيل المثال فى سلطنة الغورى تم الاحتفال فى سنة ٩١٤ هـ بتدشين ستة أغربة صنعت فى رشيد وأرسى بها عند رأس الجزيرة الوسطى فخرج الناس يتفرجون عليها وقد زينت بالصناجق والشطافات ودقت فيها الطبول وزعقت الزمور واجتمع الناس هناك أفواجاً فلما كان يوم الثلاثاء ٢٦ شعبان سنة ٩١٤ هـ، نزل السلطان الغورى من القلعة وصحبته الأمراء قاطبة والمباشرون وتوجه إلى نحو طرا وضرب له هناك الخيام ثم أحضر بين تلك المراكب الأغربة فلعبوا قدامه فى البحر ذهاباً وإياباً والطبول والنفوط عمّاله وأرموا قدامه فى البحر عدة مدافع وكان له يوم مشهود ، واجتمع هناك الجم الغفير من الناس ، وأقام السلطان هناك إلى بعد العصر ومد له هناك ناظر الخاص أسمطة حافلة ولم يقع للسلطان من حين تسلطن يوماً مثل ذلك فى القصف والفرجة ، فلما ركب من هناك أخلع على ناظر الخاص كاملية بصمور وأخلع على رئيس المراكب وجماعته الخلع السنية ثم عاد إلى القلعة .^(٣)

وفى يوم الأربعاء ثالث عشرين صفر ٩١٧ هـ ذهب السلطان الغورى إلى طرا حيث احتفل بتدشين مركب كبير فى النيل صنعت فى رصيف بولاق ، فلما كمل " زينوه بالصناجق والطوارق والمكاحل " وتوجهوا به إلى طرا وعرضوه على السلطان فى البحر وأرموا قدامه بالمدافع ذهاباً وإياباً كما فعل قبل ذلك لما عرض المراكب الأغربة وكان يوماً مشهوداً وعاد السلطان بالحراقة التى يكسر فيها السد^(٤) .

(١) عن حملة ملك قبرص على الإسكندرية فى محرم ٧٦٧ هـ، انظر: النويرى السكندرى (محمد بن قاسم بن محمدت ٧٧٥ هـ / ١٣٧٣ م)، اللام بالاعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية فى واقعة الاسكندرية مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٣٩٤٢ تاريخ، ٤١٩٣ تاريخ .

(٢) المقرئى، السلوك، ج٣، ص ١١٣، ١٢٩، ١٣٠، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٢٧، ٢٨، ٤٤، ٤٥، ٤٦ .

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٣-١٤٢ . (٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢١٥ .

وفى سنة ٩١٨ هـ تمت عمارة مركب كبير للسلطان فأحضر إلى ساحل الفسطاط أمام المقياس وصنعوا له ثمانية مراسى فى النهر وعلقوا فى صواريه القناديل والأعلام وأحضرت النفرط وأنزلت فى خمسين مركباً وحضر الأمراء المقدمون بطبلخاناتهم فى مراكب أمام المقياس " . . وكانت تلك الليلة من الليالى المشهودة فى القصف والفرجة " وكالعادة ارتفعت فيه كرى المراكب فى هذا اليوم فتحصل للنواتية مال كثير من نقل المتفرجين بمراكبهم^(١).

واستمرت الاستعراضات والاحتفالات بمناسبة تدشين المراكب فى بداية العصر العثماني " ففى ربيع الآخر سنة ٩٢٦ هـ نزل ملك الامراء (خاير بك) إلى بولاق وأقام بها إلى قريب النهار فأحضر إليه القاضى بركات بن موسى المحتسب هناك مدة حافلة بين خرفان شوى وقدر هريسة ومأمونية وفاكهة وحلوى وغير ذلك، ثم أن ملك الامراء عرض المراكب الأغربة التى أنشأها ولعبوا قدامه فى البحر وانشرح فى ذلك اليوم إلى الغاية ونصب له سحابة فى الجزيرة التى تجاه امبابة وكان يوماً مشهوداً^(٢).

وكانت أيام خروج الأسطول فى حملات حربية لغزو جزر البحر المتوسط ومحاربة القراصنة من أبهج الأيام بمصر فكان الناس يحتشدون على الشاطىء للفرجة وترتفع الأصوات بالدعاء والعود الظاهر بين دقائق الطبول والزمر والكوسات التى عادة ما كانت تصحب مظاهر الاحتفال بخروج إحدى الحملات.

ومثال لذلك ما حدث فى رجب سنة ٨٢٩ هـ فى زمن السلطان الأشرف برسباى إذ شهد النيل احتفالاً كبيراً بمناسبة خروج الحملات ضد جزيرة رودس فكان ليوم خروج المجاهدين بساحل بولاق نهار يجل الوصف تجمع فيه الناس للفرجة على المسافرين من الأقطار والبلاد والنواحي " حتى صار ساحل بولاق لا يستطيع الرجل أن يمر فيه لحاجته إلا بعد تعب ومشقة زائدة، وعدى الناس إلى البر الغربى ببر امبابة وبولاق التكرور ونصبوا فيها الخيم والأخصاص "، هذا وقد امتلأت صفحة النيل بمراكب المتفرجين، : وأما بيوت بولاق فلم يقدر على بيت منها إلا من يكون له جاه عريض أو مال كبير، وتقضى للناس بها أيام سرور وفرح وابتهاال إلى الله تعالى بنصر المسلمين وعودتهم بالسلامة والغنيمة^(٣).

وفى سنة ٨٤٤ هـ أمر السلطان الظاهر جقمق بخروج حملة للقضاء على " عبث الفرنج فى البحر وأخذها مراكب التجار " وقد خرجت هذه الحملة المكونة من خمسة عشر غراباً فيها المقاتلون من المماليك السلطانية والمتطوعون من عامة الناس من ساحل بولاق فى احتفال هائل

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٧٦-٢٧٧.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٣٣١.

(٣) ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٢٨٩.

حضرته جموع المصريين التي دأبت على مشاهدة مثل هذه الاحتفالات وتكررت الصورة ولنفس السبب سنة ٨٤٦هـ وفشلت الحملة الأخيرة وإن كان خروجها من ساحل بولاق قد تم بين مظاهر الاحتفال المعهودة في مثل هذه المناسبات^(١).

وعن الاحتفال عند عودة الأسطول من الغزو والمجاهدة فإن الناس جميعاً تستقبله حيث يتجمعون في ساحل بولاق أو ساحل القسطنطينية مثلما حدث سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م أذ قدمت بعض سفن الأسطول المصري إلى ساحل بولاق وهي تحمل الأسرى والغنائم فاجتمع الناس لمشاهدتها والاحتفال بها^(٢).

وكان مثلما تجمعوا في ساحل بولاق سنة ٨٢٩هـ / ١٤٢٦م عند عودة الحملة من قبرص منتصرة ظافرة في زمن الأشرف برسباي ووافق ذلك يوم وفاة النيل وعيد الفطر "فتضاعفت مسرات الناس من كل جهة"^(٣).

ومن العجيب والملفت للنظر أن العامة كانوا يتحينون الفرص للتفرج والمشاركة على الأساطيل حتى في حالة نشوب المعارك بين طوائف المماليك، وقد يتعرضون للأخطار إلا أن حب المشاهدة والفرجة كانت تتغلب عليهم، مثلما حدث في شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م بعد شهر واحد من تدشين الأغربة التي أشرف عليها الأمير يلبغا أثناء سلطنة الأشرف شعبان، فقد انقلب ممالك يلبغا عليه فأراد خلع الأشرف شعبان وتولية الأمير أنوك ابن أخيه بدله وكان مسرح الانقلاب جزيرة أروى ونهر النيل واستمرت المعارك بين سفن السلطان وبين سفن يلبغا عبر نهر النيل عدة أيام بينما تعطلت أسواق القاهرة "وليس للناس شغل سوى التفرج من شاطئ النيل عند جزيرة أروى على المقاتلين السلطانية واليلبغاوية"، وكان يلبغا قد سلطن الأمير أنوك بالجزيرة، ولكن العامة تعصبت للأشرف شعبان فصاروا يرقصون ويقولون "سلطان الجزيرة ما يساوى شعيرة" يقصدون التهكم بأنوك، وسبح العامة إلى معسكر السلطان الملك الأشرف ببر أمابة واستمرت المعارك بين مراكب الطرفين والرمي بالنشاب والمكاحل والمدافع فترة حتى انتهى الأمر بفرار يلبغا إلى القاهرة حيث قتله ممالك^(٤).

(١) العيني، عقدا الجمال (مخطوط)، ج٥، ٢٥، ورقة ٧١٨، ابن تغري بردي، (ط كالفورنيا) ج٧، ص ١١٢،

١٢٢، عن قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٩٣.

(٢) المقرئى، السلوك، ج٣، ص ٥٣٣.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم، ج١٤، ٢٦٩.

(٤) المقرئى، السلوك، ج٣، ص ١٣٣-١٣٦-١٣٦، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص ٣٦-٤٠،

السيوطى، كوكب الروضة (مخطوط)، ص ٤٠-٤١، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٤٦-٥٠.

مظاهر التنزه بالبرك :

وكانت بركة الشعبية قبل ثورها تدخلها الشخاخير فى زمن النيل أى أيام فيضانه وقال عنها ابن دقماق " كانت نزهة المصريين " (١) ربما يقصد سكان مصر الفسطاط .

وكانت بركة الحبش من أجل متزهات مصر الاسلامية ، وقد جمعت بين جميع طوائف المجتمع المصرى على اختلاف أجناسهم وعقائدهم وطبقاتهم الاجتماعية من خلفاء وسلاطين وأمراء وجنود وأعيان وعامة ، كما كانت البركة وما يجاورها مكاناً للتريض وإقامة المسابقات الرياضية بالخيول والجمال ، كما كانت مسرحاً لتدريب الجنود بالسلاح والرمح .

وكانت هى المتزه الرئيسى لولاية مصر منذ فتحها وصارت محفل الخلفاء الفاطميين الذين أسعدوا شعب مصر بمظاهر الاحتفالات بها طوال دولتهم (٢) .

وقد اهتم سلاطين المماليك اهتماماً كبيراً بالتنزه والتريض ببركة الحبش فكان يصحبون معهم الأمراء والجنود والحاشية ويقضون أوقاتاً طيبة بها فينصبون خياماً ويمدون الموائد الحافلة ويقيمون مسابقات للخيول ، وكانوا يستعرضون الهجن التى تعد لأجل الحج ، كما كانوا يصطادون بها حيث أقام الناصر محمد بن قلاوون مسطبة للطير هناك .

ومن السلاطين الدائى النزول للبركة الاشرف خليل بن قلاوون (٣) ، وكان الناصر محمد ينزل إلى المصطبة التى هناك ويأمر بإطلاق الطيور وإطلاق طيور الصيد عليها لاصطيادها (٤) وكان الأمير أنوك ابن الناصر محمد قد عمر حوشاً للطيور وموضعا يتنزه به على بركة الحبش وكان مشغولاً بمغنية اسمها زهرة يقضى غالب وقته معها على البركة (٥) . وكان السلطان المؤيد شيخ كثير الذهاب إلى بركة الحبش حيث يقيم مسابقات بين الهجن ويطمئن على الجمال المعدة لركب الحجاج (٦) . وكذلك كان الظاهر خشقدم (٨٦٥-٨٧٢هـ) يخرج إلى بركة الحبش مع أمرائه ومماليكه ويستعرض تدريبات المماليك الرماحة الذين يلعبون بالرمح أثناء دوران المحمل المعد للحج (٧) .

(١) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ٥٥، المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٥٩ .

(٢) عن الاحتفال ببركة الحبش زمن الفاطميين، انظر: المقرئى، الخطط، ج٢، ص ١٥٤-١٥٥ .

(٣) ابن ابيك، كثر الدرر، ج٩، ص ١٥٣ .

(٤) المقرئى، السلوك، ج٢، ص ٢٠٨ .

(٥) نفس المصدر، ج٢، ص ٤٩٢ .

(٦) نفس المصدر، ج٤، ص ٥٥، ابن الصيرفى، نزهة النفوس، ج٢، ص ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٤٨، العيى،

عقد الجمان (بدون ناشر)، ص ٣٣٤، ٣٥٦ .

(٧) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٩٣ .

وقضى السلطان قايتباي (٨٧٢-٩٠١هـ) أوقاتاً طيبة ببركة الحبش وبساتين الوزير حيث يلعب هناك الكرة ويستعرض الخيل والإبل المعدة لركب الحجاج، وبات قايتباي بعض الليالي هناك^(١). وكان السلطان الغوري يتنقل ما بين بركة الحبش وبين طرا^(٢).

وقد توجه ملك الأمراء خاير بك هناك عدة مرات وأعد له القاضي الزيني بركات المحتسب هناك الولائم الحافلة بالطعام والشراب ويصحبه كبار قادة الجيش العثماني^(٣)، وكانت بركة الحبش هي مكان إعداد الفرق العسكرية في العصر العثماني ومحطة هامة بالنسبة للأمراء الصعيدي.

وبالنسبة لبركة الرطلى نجد أنه بالرغم من أن سكان بركة الرطلى يمثلون طبقة متميزة في المجتمع في العصرين المملوكي والعثماني إلا أن العامة وبقية طوائف الشعب يشاركونهم في التنزه والتفرج بالبركة، وكان الاحتفال هناك علي مدار العام، ففي الصيف والخريف يكون فيضان النيل فتمتلأ البركة بالماء وتدخلها مراكب النزهة، وفي فصل الشتاء والربيع تزدهي البركة بمنظر أخاذ من غو الأزهار والمزروعات بها وخصوصاً منظر القروط والكبتان مما هييج احساس الشعراء فأفاضوا بالكثير من الأشعار في وصف البركة وما حولها.

وكان الناس يأتون البركة أيام اجازتهم وخصوصاً أيام الجمع والآحاد حيث يجتمع هناك عالم لا يحصى وتدور بهم الشخاتير التي تدخل البركة عن طريق الخليج الناصري والخليج الكبير فتدور بأرجائها، وتموج البركة بالنشاط والحوية بما عليها من قوارب وما بها من اسواق عائمة بجميع أنواع المأكولات والمشروبات^(٤)، وقد تعددت مظاهر الاحتفال بالبركة من السياحة بها وإقامة مخيمات بربوها وإقامة الاحتفالات حيث يشترك أعلام الغناء والموسيقى وأرياب الألعاب وخيال الظل، وتقام إحراقا نفط هائلة، وكانت المراكب والبيوت حول البركة توقد ليلاً بالقناديل فتحيل الليل نهاراً.

وقد توفرت للمتزهين بالبركة حرية كبيرة لم تتوفر لهم داخل المدينة ففشيت بينهم الأمراض الاجتماعية وساعد جو الثراء حولهم في ذلك فأقيمت الليالي ذات الترف الشديد وحفلت بمجالس شراب من خمور أو من المواد المخدرة التي كانت تزرع بالبركة وحولها بأرض الطبالة، وشاركت النساء الرجال واختلطن بهم وهن متبرجات ويحدثنا «المقريزي» أنه أدرك

(١) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٩٧، ابن الصيرفي، انباء الهصر، ص ٤٣، ٤٥، ٤٦، ١٣١، ١٤٠، ١٤١، ابن اياس، بدائع الزهور ج٣، ص ١١، ٢٦.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٦٨.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٨٨، ٣٨٠، ٤٤٤.

(٤) المقريزي، الخطط، ج٢، ص ١٦٢، ابن تغري بردي، النجوم، ج١١، ص ١٧١.

التنزه بهذه البركة من سنة ٧٧٠هـ حيث كانت بمنأى عن الأحداث التي تدمر البلاد والناس يستمتعون بأيامهم هنالك غاية الاستمتاع، وقد ذكر «المقريزي» أن البركة تأثرت بما حدث بمصر من المحن التي بدأت سنة ٨٠٦هـ^(١)، إلا أننا نرى هذا التأثير كان مؤقتاً وسرعان ما عادت البركة كما كانت وأعمر من قبل.

وقد حرص بعض السلاطين على الخروج والتفرج بالبركة ولا سيما الملك المؤيد شيخ أكثر سلاطين المماليك خروجا وكان يستضيفه هناك صلاح الدين خليل بن الكويز ناظر ديوان المفرد في بيته على البركة الرطلى ويمد له الأسمطة الحافلة^(٢).

وكان السلطان قايتباي ينزل ضيوفه هناك، وعلى سبيل المثال نزل قاضى مكة وأخاه وابن أميرها ببيت أم ناظر الخاص يوسف على البركة ورتب لهم ما يكتفيهم من أسمطة وغير ذلك فرأوا في ذلك البيت بهجة أيام النيل حتى سافروا^(٣).

ومثال للأيام الحافلة التي شهدتها بركة الرطلى ما حدث في شعبان سنة ٨٨٦هـ، بمناسبة ختان أولاد القاضى كاتب السرايين مزهر ببركة الرطلى وكان له مهم حافل جداً وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشرات وحضر عنده جمجمة بن عثمان^(٤)، وبات عنده وقد وصف «ابن اياس» ذلك الاحتفال وصفاً دقيقاً إذ كان شاهد عيان للأحداث في نهاية الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية بمصر، فقال «وكان النيل في أواخره فأمر كاتب السرايين سكان البركة بأن يوقدوا في البيوت وقدة حافلة وشرع يرسل لكل بيت في البركة عشرة أرتال زيت وطبلية فيها أكل فاخر من طعام ذلك المهم فاحتفلوا في الوقدة وعلقوا في الطبقان الأحمال والتنانير والأمشاط معمرة بالقناديل حتى كانت البركة تضيء بالنور ويكان الإنسان أن يدخل الحائط في خرم الإبرة من عظم ضوء النور، وأحرق حراقة نفط حافلة لم يسمع بمثلها حتى خرجت البنت في خدرها بسبب الفرجة على ذلك وبلغ كرى كل مركب أربعة اشرفية، واستمرت هذه الوقدة وحراقة النفط ثلاث ليل متوالية حتى عد ذلك من النوادر التي لم يقع مثلها، واجتمع بالبركة نحو أربعمئة مركب موسوقة بالخلایق، وصار ابن رحاب المغنى عمال في كل ليلة وسائر مغانى البلد من رجال ونساء وانطلقت ألسن النساء بالزغاريت وأنفق في

(١) الخطط، ج٢، ص ١٦٢.

(٢) المقريزي، السلوك، ج٤، ص ٥٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٩٤.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٩٣.

(٤) جمجمة هو أخو السلطان العثماني بييديد (٨٨٦-٩١٨هـ / ١٤٨١-١٥١٢م) حضر إلى مصر، ومعه والدته وأولاده خوفاً على نفسه من أخيه السلطان أن يقتله وذلك لأن البلاط العثماني اتبع سنة شيعية وهي أن من يتسلطن كان يبادر بقتل اخوته حتى لا يزاحموه على العرش.

تلك الليالى من الأموال ما لا يحصى حتى قيل ابتاع من عصفور الجبان على المتفرجين بنحو مائة وعشرين ديناراً جبن مقلّى وكذلك ابن الزبيق الحلوانى ابتاع منه حلوى بنحو ذلك ، وقد خرجت الناس فى القصف والفرجة عن الحد وقد رسم السلطان للقاضى كاتب السر أن لا يبقى ممكناً فى هذا المهم لأجل الجمجمة ابن عثمان كونه كان حاضراً فى هذا المهم وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء :

طابت على بركة الرطلى ليلتنا حتى تباهت على الخلجان والبرك
حفت بضوء مصابيح زهت وغذت تضىء فى حندس الديجور والحلك
فكان لما تنهاى حسن وقدها تخفى شمس الضحى فى داره الفلك
وقال الشمس القادري :

تاه الأنام بجنح الليل فاتخذوا لهم دليلاً لذا الظلماء من اللهب
حتى كأن جلاليب الدجى رغبت عن لونها وكان الشمس لم تغب^(١)

ومن الأيام الحافلة التى شهدتها البركة أيام شهر ربيع الآخر سنة ٨٩٩هـ حينما عين السلطان قايتباى الأمير ماماي من خداداد الدوادار الثانى بأن يتوجه رسولاً إلى سلطان الدولة العثمانية «فشرح ماماي فى عمل يرق^(٢) حافل وصنع له ردكاً ببركة الرطلى فى زمن الشتاء وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة وهرعت الناس إلى هناك بسبب الفرجة وعمر الجسر وسكن به الناس أياماً فى قلب الشتاء حتى عد ذلك من النوادر وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال ظل أو مغانى غرب أو ابن رحاب المغنى أو غير ذلك من الملاهى وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد وأقاموا على ذلك نحو من عشرين يوماً ثم سافر الأمير ماماي . . .»^(٣).

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباى فكان ينادى فى سكان بركة الرطلى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليال متوالية . «وصار ينزل فى المركب ويطوف بالبركة هو وأولاد عمه»^(٤).

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٨٦-١٨٧.

* ونلاحظ دقة ابن اياس فى وصف تلك الأحداث الاجتماعية فى ذلك النص حتى انه امدنا ببعض أسماء البياعين التى قلما يأتى ذكر لهم فى التاريخ الذى أرخ للملوك والسلاطين غالباً.

* ونلاحظ ان الأديب قد اقتبس البيت الثانى من قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية.

(٢) يرق كلمة تركية معناها سلاح. انظر:

أحمد السعيد سليمان، تأصيل ما ورد فى تاريخ الجبرتى من الدخيل، (دار المعارف) ص ٢١٠.

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٢٩٩.

(٤) نفسه، ج٣، ص ٣٩٧. ويذكر «ابن اياس» عن الناصر محمد بن قايتباى أنه كان أهوجاً فى تصرفاته=

وشهدت بركة الرطلى احتفالات كبيرة زمن السلطان قانصوه الغورى وخصوصاً إنها تضم بيوت الوزراء والأعيان وكبار رجال الدولة، ومنهم على سبيل المثال القاضى الزينى بركات بن موسى المحتسب، وقد حدث فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٨هـ/ ١٥١٢م أن تغير خاطر الغورى على الزينى بركات لشجاره مع الوزير الجمالى يوسف البدرى، فحبسه ثمانية أيام ولكنه أفرج عنه بعدها وخلع عليه كاملية صوف بصمور «ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه جماعة من أرباب الدولة فزيت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين وتخلق الناس بالزعفران حتى زيت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير والكوامل الحرير الملون فعلق فى الطبقان وانطلقت له النساء بالزغاريت ولاقته الطبول والزمر ومغانى النساء وكان ساكناً ببركة الرطلى فى أيام النيل وكان الزينى بركات محبباً للناس فى أيام ولايته على الحسبة.. (١).

ومن الأيام المشهودة التى عاشتها البركة أيام شهر شعبان سنة ٩١٩هـ/ ١٥١٣م، فقد صدر أمر سلطاني بالزينة والاحتفال بالقاهرة لأجل عافية السلطان من مرض ألم بعينه وكان الاحتفال عظيماً ببركة الرطلى لأن الزينى بركات المحتسب كان ساكناً بها فأشهر الزينى «المناداة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وقدة حافلة ويزينوا الطبقان لأجل عافية الملك فانطلقوا سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطبقان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ودارت الطبول والزمر فى المراكب يهنوا أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان، ثم أن سكان البركة شرعوا فى أمر الوقدة فعلقوا فى الطبقان أحمال وأمشاط فيها القناديل فاحتفلوا سكان البركة بوقدة عظيمة ثلاث جمع متوالية وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ويقع بالبركة من القصف والفرجة ما لا يحصى وصفه ولا سيما قد صار أمرا سلطانياً وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى ذلك عن الحد وصار يقع فى البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع مغنى لطيفة ووقدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة» (٢).

واستمرت البركة موضع نزّه واحتفالات عامة فى العصر العثمانى وينقل لنا المؤرخ الواعى

= وأفعاله وكانت أيامه كلها فتن وقد ضرب «ابن إياس» مثلاً على ذلك أنه كان إذا رأى امرأة جميلة فى بيتها ببركة الرطلى يهجم عليها ويطلع لها من الطاقة ويأخذها غصبا ويضرب زوجها بالمقارع فى وسط بيته فارتابت الناس منه.

كما ذكر أيضاً أنه كان يخالط الأوباش وكان به طيش ورعونة وخفة وسفه، ومن الأمور التى كان يفعلها أنه جعل له مركباً فى البحيرة التى بالقاعة التى بالقلعة وصنع فيه حلوى وفاكهة وجبن مقلّى وكان يتزل بنفسه فى المركب ويبيع كما يصنع الباعون فى بركة الرطلى. انظر: بدائع الزهور. ج٣، ص ٣٥٦، ٣٩٧.

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٧٤-٢٧٥.

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣٣-٣٣٤.

«ابن اياس الذى أرخ للحياة الاجتماعية بكل دقة وأمانة قلما تطرق إليها كثير من المؤرخين - صورة اجتماعية مسرحها بركة الرطلى -، ففى يوم الأحد ٩ ربيع الأولى سنة ٩٢٧ هـ/ ١٥٢١ م» وقع بين شخص من أرباب الفن يقال له محمد بن سرية وبين شخص يقال له محمد الأوجاقى ويعرف أيضا بالشرابى، وقع بينهما رهان فى فن الموسيقى، فقال محمد الأوجاقى: إن كان ما تدعيه حقاً فنجمع مشايخ أرباب الفن ونجمع مغن البلد قاطبة ويكون ذلك فى يوم الأحد فى وسط بركة الرطلى، وكان ذلك فى زمن الربيع، فلما كان الميعاد حضر جماعة من أرباب الفن، وحضر مغانى البلد قاطبة، وأتوا إلى بركة الرطلى فجلسوا فى وسطها، واجتمع هناك الجمل الغفير من المتفرجين، وكان ذلك اليوم مشهوداً فغنى كل أحد من المغانى فى ذلك اليوم أحسن ما عنده من الغناء نوبة، وابتهج فى ذلك اليوم الناس غاية البهجة، وأما محمد بن سرية فإنه احتج بأنه ضعيف فى ذلك اليوم ولم يحضر وقال: الرهان باقى إلى يوم الأحد الثانى فظهر عليه العجز ولم يف بما إدعاه مما تقدم فكان كما قيل فى المعنى:

كل من يدعى بما ليس فيه كذبه شواهد الامتحان

فانفض ذلك الجمع وعد ذلك من النوادر فى الفرجة والقصف» (١).

وقد ظلت بركة الرطلى تتمتع بمكانة كبيرة فى العصر العثمانى كله، يأتيها الناس للتفرج والاحتفالات، وقد أورد لنا المؤرخ «البكرى» ما يفيد ذلك فذكر فى ثانيا كلامه عن محمد باشا (٢) الذى تولى حكم مصر سنة ١٠٠٤ هـ. . وقد جعل لى والدى فى أيامه فرحاً كان نادرة الزمان وفريداً فى الحسن والإتقان أبذل فيه أموالاً كثيرة وتجمل فيه بتجملات غزيرة أصرف فيه من النقد نحو خمسة آلاف دينار ومن الأقمشة وغيرها ما يزيد على هذا القدر ونزل فيه البكر بك المذكور «أى الباشا العثمانى» وذلك بمنزل والدى المظل على بركة الرطلى المعروف بالشادروان وجلس فيه ثلاثة أيام مع الإحسان لساير الأنام وأرباب الملاهى المستحسنات الآتين عند سماعهم بالفرح من جميع الجهات فكانت مدة الفرع أربعين يوماً لم يذق فيها غالب أهل مصر نوما مع الوقفات الوافرة ببركة الرطلى التى أصبحت على جميع أمثالها فاخترة وذلك فى زمن النيل السعيد ما زال ممتدا بعون الملك المجيد» (٣).

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٥، ص ٣٨٠-٣٨١.

(٢) هو محمد باشا الشريف الذى تولى على مصر لمدة ستين وشهرين يوماً (١٠٠٤-١٠٠٦ هـ/

١٥٩٦-١٥٩٨ م) عمر فى زمنه الجامع الأزهر وجدده وعمر المشهد الحسينى.

البكرى، التزهة الزهية فى ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٦٦ تاريخ)، ورقة ٣١.

(٣) التزهة الزهية (مخطوط)، ورقة ٣١.

وأما الجسر الذى كان على بركة الرطلى بينها وبين الخليج الناصرى فذكر «البكرى» ان المبانى عليه كانت مندثرة أيامه وصار غيطاً لعمه تاج العارفين الصديقى وأنشأ فيه أنواع الأشجار والزهور فصار بهجة النظار، وبقي أيامه . . «بقية صباية المتفرجين زمن النيل»^(١).

وحتى أواخر العصر العثمانى حافظت بركة الرطلى على مكانتها المعهودة حيث يتوجه إليها المتنزهون وتعمل ببيوتها أفراح تحدث عنها المؤرخون فذكر «الجبرى» فى ترجمته للأمير على كتحدا مستحفظان الخربوطلى المتوفى سنة ١١٨٣ هـ / ١٧٦٩ م أنه عمل لابنته التى تزوجها على بك الغزاوى «فرحاً عظيماً ببركة الرطلى أيام عدة كانت من مفترجات مصر»^(٢).

أما عن بركة الفيل فقد كانت من متنزهات مصر الهامة منذ زمن الدولة الطولونية حتى القرن الماضى، وفى العصرين الفاطمى والأيوبرى كان ما حول البركة بساتين وفضاء ولم تتطرق إليها المبانى بعد وإنما مجرد مناظر للنزهة، وقد وصفها الرحالة «ابن سعيد» الذى زار مصر فى زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب فقال «إن بركة الفيل ظاهر القاهرة وهى دائرة كالبدر والمناظر حولها كالنجوم وعادة السلطان يركب فيها وتُسرج أصحاب المناظر على قدر همهم وقدرهم فيكون بذلك منظر عجيب»^(٣).

وفى العصرين المملوكى والعثمانى بنى حولها السلاطين والولاة والأمراء والأعيان، القصور والمناظر الفاتنة وسكنوا بها، وكانت الناس تأتى إليها فى أيام النيل وتنزه بها بالشخاتير وفى الشتاء تكون البركة مزروعة بالزراعات الشتوية التى تعطىها منظرأ أخاذاً، وقد ظلت على هذا الوضع المميز حتى ردمت نهائياً فى أواخر القرن الماضى.

ويكفي أن ننظر فى ولوحه الكتاب وصف مصر لنرى بها الناس يتحركون على صفحات مياهها بالشخاتير والبعض الآخر يفتش على ضفافها ويلعبون بالآلات الموسيقية.

أما عن بركة الأزبكية فقد كانت متنزهاً فى زمن الدولة الفاطمية عندما كانت تعرف ببركة بطن البقرة ولكنها هجرت فى زمن الشدة العظمى فى زمن الخليفة المستنصر بالله وعمرها بعد ذلك الخليفة الأمر بأحكام الله وظلت كذلك حتى تأثرت زمن السلطان المملوكى الملك العادل كتبغا، وكانت مهجورة فى أيام «المقريزى» إلا بقية منها يجتمع فيها الناس للنزهة^(٤).

(١) نفسه، ص ٧٣.

(٢) عجائب الآثار، ج ١، ص ٣٩٦.

(٣) المغرب فى حلى المغرب، ص ٢٦، المقريزى، الخطط، ج ٢، ص ١٦٢.

(٤) الخطط، ج ٢، ص ١٦٣.

وظلت كذلك حتى عمرها الأمير الأتابكي أزيك من ططخ تلك العمارة الرائعة لتلعب دوراً كبيراً في زمن السلطان قايتباي، وأمست لها الصدارة بين البرك في متنزهات العصر العثماني.

وقد شهدت البركة في أثناء سلطنة الأشرف قايتباي احتفالات كبيرة، وقد حضر قايتباي افتتاح عمارة قاعات الأزيكية في جمادى الأولى سنة ٨٨٢هـ ويات في ضيافة أزيك هناك^(١).

وعندما اكتملت عمارة الأزيكية كلها سنة ٨٨٩هـ أصبح يقام فيها احتفال كبير بمناسبة كسر السد على الخليج الذي يدها بالماء والذي تسمى باسم خليج بركة الأزيكية حيث تجتمع عند الأمير أزيك الأمراء المقدمون بالقصر «وتأتى الناس أفواجا ويكون لها يوم مشهود كان يصنع بها في كل سنة وقدة حافلة وتحرق بها حراقة نפט وتدخل إليها المراكب قاطبة ويكون لها ليلة حافة لم يسمع بمثلا وينفق في تلك الليلة أموال جمة بسبب الفرجة بها وتضرب حول البركة عدة خيام ويقع بها من القصف والفرجة أشياء غريبة وتكون ليلة حافة»^(٢).

وظل الاحتفال بكسر سد خليجها يتم سنوياً بعد أيام قليلة من كسر سد الخليج^(٣)، وكان يقام بها من حين لآخر ولائم كبيرة ووقدات حافلة وإحراقات نפט هائلة^(٤)، وقد ذكرت من قبل أن الأزيكية أصبحت مقر الأتابكية لهذا كانت للأتابكة أيام مشهودة بها، وكذلك شهدت حفلات زواج كبيرة تخصهم، مثل زواج الأمير قانصوه خمسمائة على ابنة الأتابكي أزيك في شهر رجب سنة ٨٩٢هـ / ١٤٨٧م^(٥)، وزواج أصلباي أرملة السلطان قايتباي من جانبلاط الذي تولى السلطنة باسم العادل في ١٩ شعبان ٩٠٥هـ / ١٥٠٠م، «وكان به من الأمتعة والتحف ما يعجز عنه الواصفون»^(٦) ولم لا وهي زوجة سلطان سابق وأم سلطان سابق.

وكانت الاحتفالات ببركة الأزيكية هائلة في العصر العثماني وخصوصاً أن السادة البكرية كانوا يحتفلون بمولد النبي هناك^(٧).

(١) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٣٤.

(٢) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١١٨.

(٣) نفسه ج٣، ص ٢١٩، ٢٦٧، ٣٠٥، السخاوي، الضوء اللامع، ج٢، ص ٢٧٢.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ١٩٦، ٤٦٧.

(٥) نفسه، ج٣، ص ٢٤٢.

(٦) نفسه، ج٣، ص ٤٢٩.

(٧) الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص ١٣٥، ٥٣١، ٥٩١، ٥٩٣، ج٣، ص ١٢٢.

وكانت البركة تعتبر المنتزه الرئيسى للقاهرة آنذاك ، ففي موسم الفيضان تعج صفحة مياهها بالناس فى الشخاتير ، وتقام احتفالات عظيمة بربعها فى مناسبات مختلفة وخصوصاً وإن معظم سكانها كانوا يمثلون أعلى طبقة فى المجتمع فى العصر العثمانى ، فتتصب الزينات وتقام السراقات والمخيمات حولها ، ويجتمع خلق كثير من سكان القاهرة فى قهاوى الأزيكية ويتجمعون حول الشعراء والمداحين لسماع القصص الشعبى على أنغام الربابة ، وكانت تقام فى المناسبات الدينية مواكب الطرق الصوفية بأعلامهم وراياتهم ويقومون بالأذكار فى جوامع الأزيكية .

وقد زار مصر فى العصر العثمانى العديد من الرحالة وكلهم أثنوا على الأزيكية بقصورها وبساتينها وما يتم فيها من احتفالات وألعاب وترفيه .

ومن أوائل الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى «ابن الوزان» المعروف بليو الأفريقى ، وقد ذكر أن عادة سكان القاهرة أن يجتمعوا كل يوم جمعة بعد الصلاة فى الأزيكية لأنهم يجدون هناك بعض المسليات القبيحة كالحانات والعاهرات ويتجمع أيضاً فى هذه الساحة عدد كبير من البهلوانيين وبالأخص من يرقصون الإبل والحميز والكلاب وهو منظر ممتع حقاً^(١) ويضرب «ابن الوزان» مثلاً شيقاً لذلك^(٢) ، ويذكر أيضاً انه يجتمع بالأزيكية ضاربو السيوف والعصا والمصارعون وغير ذلك من وسائل التسلية وإلى جانب المغنون والمتشدون يتغنون بالوقائع بين العرب والمصريين أثناء فتح مصر^(٣) .

وقد اهتم الرحالة الفرنسيون بزيارة الأزيكية وقد اعتبروها «من أجمل مناطق القاهرة ومنازلها من أفخم المنازل وهى منطقة منخفضة عن القاهرة تنتشر بها الأشجار الجميلة وبها شوارع جميلة ومساجدها مزينة وعندما تمتلئ بركتها بالمياه يركب السكان المراكب ويتنزهون فيها»^(٤) .

=* ويجانب مظاهر الاحتفال المعتادة بالمولد من حفلات الذكر والإنشاد وغير ذلك كان يصاحب ذلك حفل كبير يسمى حفل الدوسة ، وكيفية ذلك أن ينكب نحو من مائة أو مائتين على وجوههم فوق الأرض متلاصقين متلاحمين فتكون أجسامهم سجادة بشرية ثم يسير عليهم شيخ السجادة البكرية فوقهم ممطياً صهوة جواده يتبعه بعض مريديه سائرين عليهم حفاة الأقدام ، والذى يزعمه أولئك الدراويش بعد مرور الشيخ ومريديه فوق أجسامهم أن سنايك الجواد لم تصبهم بألم وإن هذا ينهض دليلاً على ولاية الشيخ ، انظر : كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر ، ج ٢ ، ص ١٤٦-١٤٧ .

(١) ابن الوزان ، وصف أفريقيا ، ج ٢ ، ص ٢٠٨ .

(٢) نفسه ، ص ٢٠٨-٢٠٩ .

(٣) نفسه ، ص ٢١٠ .

(٤) الهام ذهنى ، مصر فى كتابات الرحالة الفرنسيين فى القرنين السادس عشر والسابع عشر ، (نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١) ، ص ١٠٨ .

وبالرغم من إحاطة البركة بالقصور من جميع جوانبها ألا أن أصحاب الأملاك لم يمنعوا أحداً من التنزه بها، وفي هذا المعنى ذكر «الجبرتي» في كلامه عن القصر الذي أنشأه السيد إبراهيم بن السيد سعودى اسكندر والذي آل إلى الألفى فيما بعد» . . . وجعل فى أسفله قناطر وبوائق من ناحية البركة وجعلها برسم النزهة لعامة الناس فكان يجتمع بها عالم من أجناس الناس وأولاد البلد شىء كثير وبها قهاوى وبياعون وفكهانية ومغانى وغير ذلك ويقف عندها مراكب وقوارب من تلك الأجناس فكان يقع بها وبالجسر المقابل لها من عصر النهار إلى آخر الليل من الحظ والنزهة ما لا يوصف»^(١).

وقد رسم «الجبرتي» أيضاً فى كلامه عن هذا القصر صورة للبركة ومظاهر الاحتفال بها هى والبرك الأخرى، وكانت البركة قد تعرضت لردم جزء منها بالأتربة أثناء ترميم قصر الألفى على يد محمد على باشا، فقال « . . . ورموا جميع الأتربة فى البركة حتى ردموا منها جانباً كبيراً ردماً غير معتدل حتى شوهوا البركة وصارت كلها كيماًناً وأتربة والعجيب أن انتهى الرغبة فى سكن هذه البركة وأمثالها إنما هو تسريح النظر وانسباط النفس باتساعها واطلاقها وخصوصاً أيام النيل حتى تمتلئ بالماء فتصير لجة ماء دائرة بركاوية مملوءة بالزوارق والقننج والشطيات المعدة للنزهة تسرح فيها ليلاً ونهاراً، وعند دخول الماء يوقودون القناديل بدائرها فى جميع قواطين البيوت فيصير لذلك منظر بهيج لا سيما فى الليالى القمرية فيختلط ضحك الماء فى وجه البدر والقناديل وانعكاس خيالها كأنها أسفل الماء أيضاً وصدى أصوات القيان والأغاني فى ليالى لا تعد من الاعمار إذ الناس ناس والزمان . . .»^(٢)

وكان الباشوات العثمانيون يفضلون بركة الأزبكية كمكان كبير للاحتفالات فيعملون شئك وحراقات ووقدات حافلة بها ويلقوا الزينات فى ربوعها^(٣) ونظراً لكبر البركة فإنها كانت مكان أغلب سكان القاهرة فى بعض الأحداث الاجتماعية مثلما حدث فى أواخر شهر جمادى الأولى سنة ١٢٠٥هـ / ١٩٧١م عندما سرت إشاعة بين سكان القاهرة أنه فى منتصف ليلة السابع والعشرين من جمادى الأولى سوف يحدث زلزلة عظيمة تستمر سبع ساعات، واعتقد الخاصة والعامة فى صحة ذلك الخبر، فلما كانت تلك الليلة خرج غالب الناس إلى الصحراء وإلى الأماكن المتسعة مثل بركة الأزبكية والفيل وخلافهما ونزلوا فى المراكب ولم يبق فى بيته إلا من ثبته الله وباتوا ينتظرون ذلك إلى الصباح فلم يحصل شىء وأصبحوا يتضحكون على بعضهم^(٤).

(١) عجائب الآثار، ج٢، ص ٥٦٧.

(٢) نفسه، ص ٥٦٩.

(٣) نفسه، ص ٧٨.

(٤) الجبرتي، عجائب الآثار، ج٢، ص ٩٤.

وفى فترة الحملة الفرنسية اتخذ الفرنسيون البركة وبيوتها مركزاً لهم لأنها كانت أرقى أحياء القاهرة آنذاك فاتخذ بونابرت بيت محمد بك الالفى مقراً له ولقيادة جيشه^(١)، وتوزعت قصور البركة الفخمة لقادة الحملة الفرنسية، وفى أثناء ثورة القاهرة ضدهم تجمع أغلبهم من الأحياء الأخرى التى كانوا بها إلى الازبكية^(٢).

وقد قام الفرنسيون بالبركة احتفالات كبيرة سواء بأعياد ومواسم إسلامية تقريباً للمصريين مثل الاحتفال بالمولد النبوى^(٣)، أو احتفالات خاصة بهم مثل الاحتفالات بعيدهم القومى^(٤)، أو غيرها^(٥). وقد حرص الفرنسيون على أن تكون هذه الاحتفالات على درجة كبيرة من الإبهار لكنها لم تجد صدًى من أغلب أبناء مصر الذين رفضوا الاحتلال والتعامل معه مهما تقرب منهم. وقد اتخذ الفرنسيون البركة متنزهاً لهم فأقاموا بها مسرحاً كوميدياً ومطاعم وملاهى خاصة بهم^(٦).

وبالنسبة لباقي البرك نجد أن حتى البرك الصغيرة مثل بركة القرع لم تخل من احتفالات شائعة، فيحدثنا «ابن اياس» أنه بمناسبة انتهاء العمل من بناء جامع الشيخ عبد القادر الدشوطى فى ربيع أول ٩١٢هـ/ ١٥٠٦م وبعد افتتاح الجامع «أشار الشيخ عبد القادر بفتح فم بركة القرع حتى تدخلها المراكب مثل بركة الرطلى، ففتح لها مسرب من الخليج الحاكى من عند ذيل التمساح، وكان يوماً مشهوداً وعد ذلك من النوادر وصارت المراكب تدخلها فى كل سنة من يومئذ»^(٧).

وضرب لنا «ابن اياس» مثلاً آخر للاحتفال ببركة القرع وكان ذلك فى بداية العصر العثمانى ففى شهر ربيع الآخر سنة ٩٢٤هـ «حضر شخص من حلب فهلوان (بهلوان) ونصب فى بركة القرع التى بالجنية صوارى وحبالاً، وكان يوم الجمعة فاجتمع الجمل الغفير من الخلائق، فلما صعد على الحبال أظهر أشياء غريبة فى صنعة الفهلوانية وهو واقف على الحبال، منها أنه نصب له أوماج وبتيه (برميل) وأرمى بالنشاب فى البتية وهو واقف على الحبال ومنها أنه مشى على الحبال وهو مقيد وعينيه مربوطة بخرقه ومنها أنه مشى على الحبل وفى رجله قبقاب وتحت ألواح صابون وأرمى فى الأوماج وهو واقف على حمل فيه سيوف مسلولة، ومنها أنه مشى على الحبال مقلوباً وهو مغمى العينين، وأظهر من هذه الأنداب العجائب والغرائب...»^(٨)

(٢) نفسه، ج٢، ص ٢٢٧.

(١) نفسه، ج٢، ص ١٩٣.

(٣) نفسه، ج٢، ص ٢٠١-٢٠٢، ٣٠١.

(٤) نفسه، ج٢، ص ٢٠٤-٢٠٥، ٢٠٦-٢٠٧، ٣٠٦-٣٠٧، ٣٩٦.

(٦) نفسه، ج٢، ص ٢٣١، ٤٠٤.

(٥) نفسه، ج٢، ص ٢٣٠، ٢٤٤.

(٨) نفسه، ج٥، ص ٢٥١-٢٥٢.

(٧) بدائع الزهور، ج٤، ص ٩٧.

ويذكر ابن ابى السرور البكرى «المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ، أن بركة القرع ظلت متنزهاً جليلاً فى العصر العثمانى لمجاورتها لأمالك السادة البكرية وقال " ويجتمع فيها يوم الجمعة والسبت بالمقصف المعروف بالغواص والمقصف المجاور للجامع الأبيض خلق لا يحصون عدداً، وتصرف فى اليومين المذكورين أموال كثيرة جداً»^(١).

وذكر «ابن اياس» عن الاحتفال ببركة الفرايين أنه فى يوم الجمعة ٢٩ جمادى الآخرة سنة ٩١٨ هـ «صنع الأمير قانصوه بن سلطان جركس أحد الأمراء المقدمين وقدة وإحراقه نفط فى بركة الفرايين، مكان داره التى أنشأها هناك، فكانت له ليلة حافلة وعزم على الأمراء عنده، ونقل مراكب صغاراً على جمال إلى بركة الفرايين فكانوا انحوا من ثلاثين مركباً أو دون ذلك وأمر سكان البركة بأن يوقدوا فى بيوتهم القناديل والثريات والأشواط فأوقدوا وقدة حافلة تلك الليلة ومد أسمطة حافلة للأمراء ولم يقع فى بركة الفرايين ليلة مثل تلك الليلة فى الفرجة والقصف»^(٢).

وكما سبق القول أن المتنزهات كانت متاحة لجميع الناس بكافة طبقاتهم الاجتماعية بل أن بعض القصور على البرك أبيضت لتنزه العامة ومثال لذلك حدث فى قصر السيد ابراهيم بن مسعود على بركة الازبكية، ونرى مثال آخر يحدث ببركة الناصرية فقد أباح قاسم بك للناس الدخول لداره وحديقته العظيمة على البركة وأباح لهم التنزه فى رياضها والتفسيح فى غياضها والسروح فى خللالها والتفسيح فى ظلالها، وسماها حديقة الصفصاف والآس لمن يريد الحظ والائتناس، ونقش ذلك فى لوح من الرخام وسموه فى أصل شجرة يقرأها الداخلون إليها فأقبل الناس على الذهاب إليها للتنزه ووردوا عليها من كل جهة وعملوا فيها قهاوى ومساقى ومفارش وأتخاها يفرشها القهوجية للعامة وقللاً وأباريق واجتمع بها الخاص والعام وصار بها مغان وآلات وغوانى ومطربات . . .»^(٣).

وكذلك اثنى «النابلسى» «على القصور والبساتين على بركة الناصرية وما يتم بها من مجالس أنس وطرب فذكر أنه هو وجماعة معه ذهبوا الى البستان الزاهى والقاعة العظيمة والمقعد الذى قصرت المحاسن عليه أيما قصر وهو مشهور بقصر حجبى باشا مطل على بركة الناصرية وقد حضر النابلسى جلسة سماع وموسيقى فأنشد فى ذلك قصيدة»^(٤).

ومثال متأخر لاحتفال عظيم فى بركة ابو الشوارب بباب اللوق، ذكر «الجبرتى» أنه فى

(١) التنزهية الزهية (مخطوط)، ورقة ٨٠.

(٢) بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٨٠.

(٣) الجبرتى، عجائب الآثار، ج٢، ص ٥٢٤.

(٤) الحقيقة والمجاز، ص ٢٨٣.

أواخر ربيع الأول سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م بمناسبة افراح ابني ولي افندى ويقال له ولي جحا على بتتين من أقارب محمد على باشا. . . واجتمعت الملاعب والبهلونات بالبركة وما حولها وبالشوارع وعلقوا تعاليق قناديل ونجفات وأحمال بلور وزينات واجتمع الناس للفرجة وبالليل حراقات ونفوط ومدافع وصواريخ سبع ليال متوالية^(١).

مظاهر التنزه بالخلجان :

وكانت الخلجان موضع نزه عظيمة في العصرين المملوكي والعثماني ، وكان الخليج الكبير أحد منتزهات مصر الهامة طوال التاريخ الإسلامي حتى تم ردمه نهائياً عام ١٨٩٨م ، ففي فصل الصيف يكون موسم الفيضان فيدخله الناس بمراكبهم الصغيرة المسماة الشخاتير ، وكان ما حول الخليج خارج القاهرة بساتين وحقول ذات منظر أخاذ^(٢).

وقد رسم «ابن سعيد» الذي زار مصر في أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب صورة للخليج فقال " وقد دخلت في الخليج الذي بين القاهرة ومصر ومعظم عمارته فيما يلي القاهرة فرأيت فيه من ذلك العجائب ، وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشرب وذلك في بعض الأحيان ، وهو ضيق وعليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة بعالم الطرب والتهكم والمجانة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب ، وللسرج في جانبه منظر فنان^(٣) .

ويقول «المقريزي» «وما برح هذا الخليج متنزهاً لأهل القاهرة يعبرون فيه بالمراكب للنزهة إلى أن حفر الملك الناصر محمد بن قلاوون الخليج المعروف بالخليج الناصري»^(٤).

وقد أصبح الخليج الناصري منذ حفره سنة ٧٢٥هـ متنزهاً هاماً وفضله كثير من سكان القاهرة على الخليج الكبير^(٥).

وكان خليج الزعفران متنزهاً لسلطاناً حيث يركب السلاطين إليه ويقيمون مخيمات على جانبه بالمطرية على وجه خاص ، وكانوا يبيتون هناك أحياناً ويظلون في لعب ويسط وصلاة وعبادة ومسامرة واستمتاع بجو بديع ومناظر طبيعية رائعة وبيئة نقية . وبني العديد من الامراء القصور والمناظر عليه .

(١) عجائب الآثار ، ج٣ ، ص ٥٠٧ .

(٢) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

(٣) المغرب في حلى المغرب ، ص ٣١-٣٢ ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٤ .

(٤) الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

(٥) المقريزي ، الخطط ، ج٢ ، ص ١٤٣ .

ومن السلاطين الذين داوموا على النزول لخليج الزعفران والتتزه بنواحيه السلطان المؤيد شيخ^(١) والأشرف برسبای^(٢) والظاهر جقمق^(٣) وخشقدم^(٤) وقايتباي^(٥) والغوري^(٦).

وكانت القناطر على الخليج الكبير مواضع نزه عظيمة في العصرين المملوكي والعثماني، ومن أهمها قناطر الأوز، حيث كان على حافة الخليج الشرقية عندها البساتين الأنيقة، وكان تجاه هذه القنطرة من الغرب منظر البعل وبها عرفت أرض البعل التي هناك^(٧).

وكان هناك صف من شجر السنط قد امتد تجاه قناطر الأوز إلى منظر البعل وصار فاصلاً بين مزرعتين، يجلس الناس تحته يومى الأحد والجمعة للنزهة فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ما لا يقع عليه حصر ويبيع هناك مأكلاً كثيرة وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك أدركها المقریزی وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم في السنة منها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالاً على أن لا يباع فيها السمك إلى نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك ولم يزل هذا السنط موجوداً إلى نحو سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م فقطع، وإلى زمن المقریزی تجتمع الناس هناك ولكن شتان ما بين ما أدركها المقریزی وبين ما كانت عليه حين كتب الخطوط^(٨).

وقنطرة بنى وائل أيضاً كانت متنزهاً هاماً وكان بجانب هذه القناطر من الجانب الغربي مقعد أحدثه الوزير صاحب سعد الدين بن نصر الله البقرى لأخذ المكوس واستمر مدة ثم خرب، وكانت هذه القنطرة موضع فرجة وبهجة وخاصة أيام زيادة النيل وزمن الربيع^(٩).

(١) العيني، عقد الجمان (بدون ناشر)، ص ٢٤١. ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج٣، ص ٢٨٠، ٤٠١، ٤٠٨.

(٢) المقریزی، السلوك، ج٤، ص ٦٧٩، ٦٦٦، ٩١٠، ١٠٢٧، ١١٣٧، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١٤، ص ٣١٢، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٩٥.

* وكان لبرسبای بستان على خليج الزعفران يذهب إليه. العيني، عقد الجمان، نشر الزهراء، ص ٤٣.

(٣) المقریزی، السلوك، ج٤، ص ١٢٢١. العيني، عقد الجمان (نشر الزهراء)، ص ٥٦٣، السخاوى، التبر المسبوك، ص ١٢٢.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٤٤٢.

(٥) ابن الصيرفي، انباء الهصر، ص ٥٠، ١٥٧، ١٦٦، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٣٢٨. ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٦٠٨، ابن اياس، بدائع، ج٣، ص ٢٧، ٤١، ٦٣، ٦٨، ٩٩، ١٢١.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ٢٢٩.

(٧) المقریزی، الخطوط، ج٢، ص ١٤٨.

(٨) المقریزی، الخطوط، ج١، ص ١٤٨، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١٩، ص ٤٣.

(٩) المقریزی، الخطوط، ج٢، ص ١٤٨.

وعند قنطرة الأميرية كان يحدث احتفال أيام وفاء النيل لأنه كان يقام سد هناك يفتح يوم النوروز. (١)

وظل الخليج متنزهاً عظيماً في العصر العثماني لعامة وخاصة الناس، وكان والى مصر محمد باشا الشهير بدوت كى (٩٦٣-٩٦٤ هـ/ ١٥٥٤-١٥٥٦ م) مغرمًا بالتنزه في الخليج (٢) وكانت القنطرة الجديدة متنزهاً كبيراً في العصر العثماني حيث كان يجتمع بها كثير من الحشاشين لهذا سميت بقنطرة الحشاشين (٣).

والصور التي صورها الرحالة في القرن ١٣ هـ/ ١٩ م تبين لنا الخليج وقد ملته الشخاتير المتنزهين بالأنهم الموسيقية وكانت تحيط بالخليج المقاعد والمناظر الجميلة.

وذكر جومار «أن الخليج كان دائماً وسيلة لمتعة الشخصيات الرئيسية والمشايخ وأثرياء المدينة في زمن الحملة الفرنسية، وكان عادة المشايخ وأثرياء الأقباط التنزه في المراكب ويصحبهم الموسيقى والاندماج في أنواع كثيرة من الألعاب والتسالي» (٤).

ثانياً: الأعياد والمواسم التي ارتبطت بالمتنزهات

. ارتبطت بمتنزهات القاهرة بعض الأعياد والمواسم ارتباطاً مباشراً، فقد كانت المتنزهات مسرحاً للاحتفال بها في المقام الأول إلى جانب الارتباط غير المباشر بالمتنزهات ببقية الأعياد.

وقد تنوعت هذه الأعياد والمواسم ما بين عيد ذات صفة إسلامية خالصة هو الاحتفال بدوران المحمل وخروجه، وآخر ذات صفة قومية هو مهرجان وفاء النيل، وأعياد أخرى قبطية اتخذت في العصر المملوكي طابعاً قومياً بمشاركة المسلمين فيها مثل عيد الشهيد وعيد النوروز، إلى جانب ذلك يوجد احتفال محلي بمولد ولي من الأولياء وهو مولد اسماعيل الالمبایی.

والشيء العجيب هنا أن هذه الأعياد والاحتفالات والمواسم كلها خاصة بمصر وبالأمة المصرية دون بقية البلاد والأمم، فنرى أن الاحتفال بدوران المحمل وخروجه كان وليد العصر المملوكي، لأن مصر صارت آنذاك زعيمه العالم الاسلامى، وكان السلطان المملوكي يلقب بحامى وخادم الحرمين الشريفين، فعلى الرغم من أن مصر كانت من قبل ترسل كسوة الكعبة المشرفة فإن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس قد ابتكر الاحتفال بدوران وخروج المحمل الذى

(١) نفسه.

(٢) أحمد شلبى، أوضح الإشارات، ص ١١٢.

(٣) ابن أبى السرور البكرى، التزهة الزهية (مخطوط) ورقة ٧١.

(٤) وصف مدينة القاهرة، ص ١٦١.

يحمل الكسوة وجعله احتفالاً عظيماً جليلاً ليتناسب مع الزعامة الدينية لمصر وسلطانها ، وكان ميدان الرملة مسرحاً للجزء الهام من ذلك الاحتفال .

أما المهرجان الثانى العظيم فهو مهرجان وفاء النيل وكسر سد الخليج وهو عيد قومى يعتبر أهم احتفال عرفته مصر منذ فجر التاريخ وظلت مكانته محفوظة فى العصرين المملوكى والعثمانى .

وهناك بعض الأعياد القبطية اتخذت شكلاً قومياً عاماً فى العصر المملوكى مثل عيد الشهيد وعيد النيروز وغيرها من الأعياد التى شارك المسلمون فيها اخوانهم أقباط مصر ، ولكن بعض هذه الأعياد لم يكتب لها الاستمرار بقية العصر المملوكى بالرغم من أن مظاهر الاحتفال بها كانت عظيمة قبل ذلك مثل عيد النيروز وعيد الشهيد وعيد الغطاس .

ب- الاحتفال بوفاء النيل "تخليق المقياس وكسر الخليج" :

يعتبر الاحتفال بوفاء النيل من أكبر وأعظم الاحتفالات بمصر الاسلامية إن لم يكن أعظمها بالفعل ، وهو « يوم مشهود وموسم محدود ليس له نظير فى الدنيا »^(١) . واعتبره المؤرخون من المحاسن والفضائل التى اختصت بها مصر والقاهرة وأهلها وما شاركها فيه غيرها من الأمم^(٢) ، وقد احتفل به المصريون منذ فجر التاريخ وتوارثوه عبر الأزمان حتى بطل منذ وقت قريب .

وكان الاحتفال فى مصر الاسلامية مهرجاناً قومياً شاركت فيه عناصر الأمة جميعاً - مسلمون وذميون - بكافة طبقاتهم الاجتماعية وطوائفهم ابتداءً من السلاطين وانتهاءً بالعامه ، وكان الاحتفال فى العصرين المملوكى والعثمانى امتداداً لبعض مظاهر الفخامة والعظمة والثراء التى كانت سائدة أيام الفاطميين^(٣) والذى كان احتفالهم بذلك المهرجان يفوق الوصف ، وقد حافظ خلفائهم فى الحكم - الايوبيين - على كثير من المظاهر بالرغم من أن فترة حكمهم لم تكن تسمح بذلك لأنها امتازت بالحروب والفتن فى أغلب فترات^(٤) ، وبالرغم من ذلك فإن الاحتفال زمن المماليك لفت نظر الرحالة الذين زاروا مصر آنذاك ومنهم «دومينكو تريفزيان» ، عندما كان على رأس سفارة كبيرة لدى السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى سنة ٩١٨هـ / ١٥١٢م ، حينما شاهد الاحتفالات التى أقامها المصريون فى هذه السنة

(١) القلقشندى، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٤ .

(٢) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٠ .

(٣) عن الاحتفال زمن الفاطميين، انظر: المقرئى، الخطط، ج١، ص ٤٧٠-٤٧٩ .

(٤) عن الاحتفال زمن الأيوبيين، انظر: أحمد عبدالحاميد خفاجى، جوانب من الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر الأيوبي، (مجلة الآداب، جامعة الاسكندرية، مجلد ٢٩، سنة ١٩٨١) .

عند وفاء النيل على ذلك بقوله: «والواقع أن لهم الحق في كل ذلك لأننا نستطيع أن نؤكد أن حياة مصر كلها تتوقف على فيضان النيل وإليه مرجع الثروة الطائلة التي نشاهدها في مصر»^(١).

وكان يسبق الاحتفال تمهيد أساسي يبدأ قبل الاحتفال بمدة تقرب من شهرين فعند بداية الفيضان يتم مراقبة زيادة النيل يومياً^(٢)، وكان ذلك يبدأ في اليوم السادس والعشرين من شهر بؤونه القبطي (المعادل لشهر يونيه الميلادي)، فكان ابن أبي الرداد^(٣) المشرف على مقياس النيل في جزيرة الروضة يحسب ارتفاع مياه النيل في قاع المقياس ويبدأ إعلام الناس بمقدار الزيادة في اليوم التالي مباشرة، وفي عصر كل يوم يقيس ابن أبي الرداد مقدار الزيادة لكي يعلنها مناديو البحر في الطرقات والأسواق حتى يطمئن الناس، كانوا ينادون على ارتفاع النيل

(١) - Schefer (c), Voyage de Magnifique et Tres Illustre Cheralier Domenico Trevisan (Paris 1864), pp. 206.

207. سعيد عاشور، المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ص ١٩٧.

(٢) حافظ المصريون في العصر المملوكي على مراقبة زيادة النيل وحساب ارتفاعه كل يوم بالأصابع لأن النيل كان - ولا يزال - هو قوام الحياة المصرية، فإذا تأخر أو توقف عن الزيادة عم الناس القلق وارتفع سعر القمح وتزاحم الناس على شراء الغلال ويكون الغلاء، وعندئذ تفزع الدولة فيأمر السلطان القضاة الأربعة والمشايخ والعلماء أن يتوجهوا إلى المقياس بالروضة حيث يواصلون تلاوة القرآن الكريم والحديث والدعاء بزيادة النيل، وكذلك يطوف المنادون في شوارع القاهرة ليأمرؤا الناس بالصيام ثلاثة أيام والخروج إلى جامع عمرو بن العاص أو الجامع الأزهر أو الصحراء للصلاة والاستسقاء والدعاء بزيادة النيل، ويشارك في هذا الدعاء سائر الناس من رجال الدين والعلم والصوفية والأمراء والعوام نساءً ورجالاً صغاراً وكباراً حتى أهل اللفة كانوا يخرجون مع المسلمين إلى الصحراء ويصلون ويدعون من أجل زيادة النيل.

ولم يكن نقص الماء هو السبب في الصلوات والدعاء وإنما كان يحدث أحياناً أن يزيد النيل عن الحد فيغرق البلاد والأراضي فيأمر السلطان بالصلاة والدعاء لأجل ذلك بالإضافة لأوامره بحفظ الجسور وعدم الغفلة عنها. انظر: السخاوي، والتبر المسبوك، ص ٦٨١-٦٨٢، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٦٨١-٦٨٢، خليل بن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٩، سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٩٨.

(٣) كان أقباط مصر هم الذين يتولون قياس النيل حتى عام ٢٤٧هـ حين بنى الخليفة المثلوك على الله العباسي مقياس الروضة فأمر بعزل الأقباط عن ولاية المقياس وأمر أن يتولاه مسلم فتم اختيار ابن أبي الرداد واسمه عبد الله بن السلام بن أبي الرداد المؤذن وأجرى عليه صاحب خراج مصر آنذاك راتباً شهرياً قدره سبعة دنائير، ولما توفي سنة ٢٦٦هـ / ٨٧٩م ظل هذا المنصب متوارثاً في عائلته حتى أن «علي مبارك» يذكر أن بعض القياسين في زمنه يذكرون أنهم من سلالة ابن أبي الرداد، وقد كان لعائلة ابن أبي الرداد مكانة كبيرة في العصر الفاطمي إذا كانوا يشتركون في مراسم الاحتفالات وتجري عليهم أرزاق كثيرة ويخلع عليهم الخلفاء الخلع الشمين، وظلت مكانتهم مرموقة في العصر المملوكي ينعمون بالخلع والانعامة من السلاطين والأمراء ولهم رواتب سنوية معلومة، انظر: ابن عمتي، قوانين الدواوين، ص ٧٦، المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٥٧، ٤٧٧، السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٧٥، على مبارك، الخطط التوفيقية ج ١٨، ص ٢٠.

بالأصابع فقط دون ذكر أذرع المقياس^(١). ولكن ابن ابى الرداد كان يكتب فى كل يوم بياناً لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام فيذكر زيادة النيل فى ذلك اليوم من الشهر العربى وموافقة من القبطى بعدد الأذرع والأصابع، ويذكر ما كانت زيادته فى مثل اليوم من العام السابق والفرق بينهما فى الزيادة والنقصان، ولا يطلع على ذلك التقدير عامة الناس فإذا أوفى النيل ستة عشر ذراعاً صرح فى المناداة فى كل يوم بما زاد ويصير ذلك مشاعاً عند جميع الناس^(٢).

وقد ذكر بيلوتى الكريتى Pilote De Crete الذى زار مصر فى مطلع القرن التاسع الهجرى/ ١٥ م، أنه شاهد زمن الفيضان عدة فرسان يخرجون كل يوم وهم يرفعون الأعلام فوق أكتافهم ثم يتجهون إلى المقياس لكى يعرفوا مقدار زيادة النهر ثم يسرون خلال الشوارع والطرق ويصيحون «أن النهر زاد كذا»^(٣)، وهؤلاء الفرسان الذين وصفهم بيلوتى هم الذين أطلقت عليهم المصادر العربية اسم «مناديو البحر»^(٤)، ويبدو دورهم مشابهاً لدور وسائل الاعلام فى عصرنا الحالى من حيث نقل أخبار الفيضان اليومية إلى الناس^(٥).

وكان الاحتفال بوفاء النيل يتم فى فصل الصيف وخاصة فى شهر أغسطس الموافق لشهر مسرى القبطى^(٦)، وهو الشهر الذى يبلغ فيه فيضان النيل الدرجة الكافية التى تسمح بالاحتفال وهى ١٦ ذراعاً. ونلاحظ انه ليس للاحتفال يوم محدد مثل باقى الأعياد والمواسم،

(١) النويرى، نهاية الارب، ج١، ص ٦٤، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٣، ص ٢٩٤، السيوطى، كوكب الروضة، ص ٧٤.

* نلاحظ أنه قبل مجيء الفاطميين إلى مصر جرى ولاية مصر على انه إذا بدأ الفيضان ينادى على ارتفاع النيل يوماً إلا أن حكمة الفاطميين قضت بمنع هذا النداء العلنى نظراً لما يحدثه من بلبلة للأفكار واضطراب وقلق بين الشعب ووقوع الغلاء فى أسعار المأكولات والبضائع فكانت الدولة الفاطمية تكتم أمر الفيضان عن الشعب إلى أن يتم مقدار الوفاء ستة عشر ذراعاً وعندئذ يركب الخليفة إلى المقياس للاحتفال بالوفاء. لذلك فى العصر المملوكى استمر النداء بالأصابع دون التصريح بعد أذرع الفيضان حتى يبلغ الستة عشر ذراعاً. انظر: ابن مسير، تاريخ مصر، ص ٥٤٤، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٣، ص ٥١٢، عبدالمعتم ماجد، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر، ج٢، ص ١٠٥-١٠٦.

(٢) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٣، ص ٢٩٧.

(٣) Dopp (P.H). L'EgYpte au Commencement de Quinzieme Siecle, D'apres la Traite D'emmanuel Piloti de (٣) Crete (Le Caire 1950) pp. 20-21.

(٤) السيوطى، كوكب الروضة، مخطوط، ورقة ٤٧.

(٥) قاسم عبده قاسم، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى عصر سلاطين المماليك، (دار المعارف، ص ١، سنة ١٩٨٣م)، ص ١٠٧.

(٦) قمت بعمل حصر لتواريخ الاحتفال بوفاء النيل فوجدت أنه قد تم الاحتفال فى شهر مسرى بنسبة ٧٥٪ والباقى إما قبله أو بعده، وهذه النسبة وجدتها فى كتاب تقويم النيل لأمين سامى، ج١، ص ٤١.

ولمّا جعل الاحتفال مقروناً ببلوغ ماء النيل مقدار ستة عشر ذراعاً بأذرع مقياس النيل بجزيرة الروضة وهو ما يعرف بماء السلطان الذى يجب فيه الخراج^(١) وحينئذ يكون الاحتفال، وكان يوم وفاء النيل أكثر تحديداً بالتقويم القبطى الذى كانت تعتمد عليه أمور الزراعة بمصر وتوارثه الاحفاد عن الاسلاف عبر القرون.

وحينما يفى النيل تكتب البشارات من ديوان الانشاء إلى سائر ولايات المملكة بمصر والشام والحجاز ابتهاجاً بذلك الحدث الجليل حتى تطمئن قلوب العباد وتكون بمثابة اشعار باستحقاق الخراج، وهذه البشائر من خصائص الديار المصرية التى تفرد بها^(٢).

ويكون الاحتفال فى اليوم التالى لوفاء النيل ستة عشر ذراعاً، وكان الاحتفال يتم على مرحلتين، الاولى الاحتفال بتخليق المقياس والثانية الاحتفال بكسر سد الخليج، وكان ذلك يتم فى يوم واحد فى العصرين المملوكى والعثمانى بينما فى العصر الفاطمى كان بينهما بضعة أيام^(٣).

ولما كان الاحتفال مهيباً زمن الفاطميين يرأسه الخليفة الفاطمى نفسه، وتبعهم فى ذلك الملوك الايوبيين فى أغلب سنين حكمهم، فإن مظاهر تلك الأبهة والعظمة قد تراجعت بعض الشيء فى العصر المملوكى، فرأينا سبعة سلاطين فقط قد رأسوا الاحتفال بأنفسهم فى فترات حكمهم، وأول هؤلاء هو الملك الظاهر بيبرس^(٤). بالرغم أن فترة حكمه اتسمت بالجهاد والحرب، وثانى السلاطين كان الملك المنصور قلاوون^(٥)، وثمة فترة طويلة لم يرأس الاحتفال بعده أحد من السلاطين حتى أيام الملك الظاهر برقوق الذى رأس الاحتفال أغلب سنين حكمه محاكياً فى ذلك الظاهر بيبرس والذى ربما أراد أن يتشبه به وبأفعاله حتى انه اتخذ نفس لقبه، وقد خلفه ابنه الملك الناصر فرج فى الاحتفال بنفسه أيضاً، وكذلك الملك المؤيد شيخ رأس الاحتفال أغلب سنين حكمه، أما الملك الاشرف برساي فلم يرأس الاحتفال إلا

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٢٩٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٨، ص ٣٢٨.

※ انظر نموذج لهذه البشائر فى الملحق رقم ٣.

※ وقد ذكر القلقشندي أيضاً «أن البشارة بوفاء النيل كانت تتخذ حجة لجباية بعض الأموال للبريدى (حامل

البشارة) وإذا كانت الدولة عادلة لا تجبى للبريدى شيء بسبب ذلك صبح الأعشى، ج٨، ص ٣٣٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص ٥١٢-٥١٣، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٤٧٧.

(٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٣٢٤.

(٥) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام والعصور، ص ٧٤، ١٤٢.

※ ومن الملاحظ أن معظم المؤرخين لم يدرجوا اسم السلطان قلاوون فيمن رأس الاحتفال بتخليق المقياس وكسر سد الخليج ربما لأنهم لم يطلعوا على كتاب ابن عبد الظاهر.

سنة واحدة وهى سنة ٨٣٣هـ عقب وفاة ابنه الاكبر الذى كان يبييه فى الاحتفال ، وكان آخر السلاطين الذين رأسوا الاحتفال بأنفسهم هو الملك الظاهر خشقدم الذى أراد أن يتشبه بأستاذه الملك المؤيد شيخ .

وفى سنين عديدة كان السلاطين ينيون عنهم أبناءهم فى رئاسة الاحتفال مثل الأشرف برسبای ، والظاهر جقمق والأشرف إينال ، أما باقى السنوات فكان كبار الأمراء هم الذين يتولون الاحتفال مثل الأتابك وحاجب الحجاب وأمير مجلس وأمير دوا دار كبير وأمير سلاح . وكان يحضر الاحتفال كوكبه من الأمراء أصحاب الرتب والوظائف مثل مقدمى الألوف والطبلخانات وأمراء العشرات وغيرهم ، ومجموعة كبيرة من المماليك والأعيان والمشايخ ورجال العلم والادب ، فضلاً عن تجمع الآلاف من عامة أبناء مصر فى مكان الاحتفال فى جزيرة الروضة وعلى صفحة النيل المبارك وعلى جانبى الخليج .

وتبدأ مراسم الاحتفالات فى اليوم السابق على تخليق المقياس بأن يعلق والى الفسطاط على الشباك الشرقى للمقياس المواجه للفسطاط الستار الخلفى الأصفر علامة على وفاء النيل وبلوغه ستة عشر ذراعاً ، فيشاهد الستار أهل الفسطاط فيستبشرون بالوفاء^(١) ، وتكون تلك الليلة - التى يعلق فيها الستر - من ليلالى الفرج العظيمة بمصر والروضة إذ يوقد الناس الشموع والقناديل ويستأجرون المراكب بأجور باهظة وتزين حرايق (مراكب) الأمراء ويجعل فيها الطبلخانات والنفظ وأنواع الزينة ، فى حين يحضر استا دار السلطان الكبير (المشرف على البيوت السلطانية) ليبيت فى المقياس وصحبته خازن وبعض الجمدارية (الحراس) ، وكذلك يحضر بعض المقرئين لتلاوة القرآن حول الفسقية بالمقياس ، أما المغانى والمنشدون فيستمررون فى الغناء والإنشاد طوال الليل لمن يكون حاضراً فى دار المقياس^(٢)

أما يوم الاحتفال فيركب السلطان أو من ينوب عنه من قلعة الجبل صباحاً ولا يكون ركوبه بمظلة ولا ربة فرس ولا غاشية التى تكون بمواكبه الأخرى الخاصة بالأعياد أو ركوب الميدان بل يقتصر على الصناجق والطبرداريه والجاويفية ونحو ذلك^(٣) ، وينزل السلطان من القلعة إلى باب السلسلة (باب العزب حالياً) إلى ميدان الرميطة فشارع الصليبه فشارع الجسر الأعظم تحت الكباش فيصل إلى قناطر السباع فيعبرها ، ويسير الموكب حتى يصل إلى دار النحاس

(١) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧-٤٨ .

(٢) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٤-١١٥ ، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ١٩٨-١٩٩ .

(٣) القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧ .

بجوار كوبرى الملك الصالح حالياً) فيركب هناك الحراقة السلطانية المسماة الذهبية^(١)، ويركب الأمراء ومرافقه المراكب التى تزينها الأعلام الملونة والشارات الزاهية وغيرها من الزينات وتندق الطبول وتطلق الألعاب النارية (النفوط) من المراكب حتى يصل الموكب النهري إلى دار المقياس، وقد ماجت صفحة النهر بمئات من مراكب النزهة.^(٢)

وكانت الجماهير الغفيرة تصطف على جانبي الطريق من ميدان الرملة إلى دار النحاس لرؤية موكب السلطان حتى أن الدكاكين والدور التى بالصليية والكباش كانت تؤجر فى ذلك اليوم للمتفرجين لرؤية الموكب.

وعند وصول السلطان أو من ينوب عنه إلى مقياس النيل بطرف جزيرة الروضة يمد سماط كبير من الشواء والحلوى والفاكهة حتى إذا تناول الكبراء ما يشتهون يسمح للعامة «باختطاف» ما تبقى من أطعمة «ولا يمنع أحد من ذلك»^(٣)

وبعد الفراغ من الطعام تتم عملية التخليق^(٤) وذلك بأن يذاب الزعفران أو المسك والعنبر فى ماء الورد فى إناء فضى ويتناوله ابن ابى الرداد الذى يلقي بنفسه فى فسقية المقياس ومعه ذلك الإناء فيخلق عمود المقياس (أى يدهنه بالعطر) ثم جوانب الفسقية^(٥).

ثم يخرج السلطان أو نائبه فيجلس بالشباك الكبير تحت الستر ويفرق الخلع والتشريف على من له عادة بذلك مثل والى الفسطاط وريس مركب السلطان (الذهبية) ورؤساء مراكب الأمراء وغيرهم وتنتهى بذلك أول مرحلة للاحتفال لتبدأ المرحلة الثانية وهى عملية كسر سد الخليج.^(٦)

(١) كانت الحراقة المسماة الذهبية مركباً كبيراً خاصاً بالسلطان، وكانت من شعار المملكة ولاسيما يوم وفاة النيل وكانت السلاطين تتوجه بها إلى المقياس، وكان بها ستون مقدافاً، وقد أبطلها السلطان قايتباى ضمن أشياء أبطلها من شعائر المملكة فى زمنه إلا أن السلطان الغورى أعاد بناء واحدة أخرى مماثلها صنعت فى بولاق وزينت بالصناجق والأعلام ووضعت بها الطبول والزمور والنفوط. ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٣٠، ج٤، ص ٢٩٨.

(٢) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص ١١٥، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧، ابن شاهين الظاهري، زبدة كشف الممالك، ص ٨٧، الكتبي، مباحج الفكر، (مخطوط بدار الكتب)، ج١ ورقة ٨٦، ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٢٣٣، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٩، ابن ظهير، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٠.

(٣) كانت نفقات تلك الوليمة تجبى من الأهالى حتى أبطلها السلطان الملك المنصور فلاوون وجعل نفقات الاحتفال من بيت المال. ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٣٦٣.

(٤) كلمة التخليق مشتقة من الفعل خلق أى دهن بالخلوق وهو العطر الأحمر. Dozy, Suppl I p. 309.

(٥) المقرئى، الخطوط، ج١، ص ٤٧٣، القلقشندي، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧-٤٨،

(٦) ابن دقمان، الانتصار، ج٤، ص ١١٥.

ومما يجدر ذكره هنا أن نقول إن عملية التخليق هذه مرتبطة بوفاء النيل ستة عشر ذراعاً بأذرع المقياس، أما إذا لم يبلغ الستة عشر ذراعاً ففي هذه الحالة لا يخلق المقياس لأن التخليق مرتبط بالوفاء^(١)

أما المرحلة الثانية للاحتفال وهى كسر سد الخليج فكانت تتم عقب المرحلة الأولى مباشرة من نفس اليوم، وذلك بأن ينزل السلطان أو من ينوب عنه من شبك المقياس المطل على النيل ويركب حراقة الذهبية^(٢) التى كانت تزين بأنواع الزينة المختلفة وتسبح الحراقة فى ماء النيل وحولها حرايق الامراء وقد شحن البحر بمراكب وقوارب المتفرجين يسرون خلف السلطان والامراء فى استعراض نهري كبير تطلق خلالها المراكب مدافع النفوط والصواريخ وسط تهليل الطبول والزمور، حين يصل الموكب النهري إلى فم الخليج^(٣). وفى موقع السد يكون نائب السلطان أو حاجب الحجاب منتظراً ومعه بعض كبار الامراء فوق قنطرة السد وعند السد ينزل السلطان عن فرسه ويمسك بمحول من الذهب ويضرب السد ثلاث ضربات إيذاناً بكسر السد فيأتى جمع غفير من الناس بفتوسهم فيحفرون ذلك السد حتى يجرى الماء فى الخليج فى أقرب وقت. ثم يمتطى السلطان صهوة جواده ويعود من نفس الطريق التى أتى منها إلى القلعة ويشترى طريقة على الجماهير الغفيرة على جانبى الطريق خفائف الذهب والفضة حتى يصل إلى القلعة^(٤).

وقد حضر عملية كسر سد الخليج رحالة اجنبى يدعى انسلم فقال «أن كسر الخليج تم أمامه بمحول من الذهب الخالص»^(٥).

وظل الاحتفال بوفاء النيل يوماً مشهوداً فى القاهرة ولا سيما جزيرة الروضة «حيث يحشر الناس ويحج فيه إلى المقياس»^(٦)، ففي ذلك اليوم تغلق فيه الأسواق فى مصر والقاهرة ويعم الناس البشر والسرور فيهربون إلى النيل على هيئة مواكب حيث يستأجرون السفن والمراكب ويملاؤها بالطرب والغناء^(٧).

-
- (١) بيرس الدوادار، زبدة الفكرة، ج٩، ص ٤٧٦، سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٠٠.
 (٢) أحياناً كان السلطان يذهب إلى المقياس بالذهبية فيخلقه ويذهب بعد ذلك لكسر السد راكباً الحراقة الصغيرة المعروفة بالقراة. انظر: ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٣، ص ٤٧٩، ٥٠٢، ٥٤٧.
 (٣) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٨، الكتبى، مباحج الفكر ومناهج العبر، ج١، ق ٢، ص ٨٦
 ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١١، ص ٢٢٣، ابن شاهين الظاهري زبدة كشف الممالك، ص ٨٧، النويرى، نهاية الارب، ج١، ص ٢٦٤. (٤) القلقشندى، صبح الاعشى، ج٤، ص ٤٧-٤٨.
 (٥) Dopp (P.H), Le Caire un Par Les Voyageurs Occidentaux du Moyen Age. (Buletin de Le Societe Royale de Geogrphi D'Egypte. Tome 26 p. 190, L'Egypte au Commencement, p. 21.
 (٦) السيوطى، كوكب الروضة، ورقة ٣٧.
 (٧) Dopp. L'Caire Vu.. T 24 p. 122 & L'Egypte.. p. 21. (٧) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٠٠.

وأحاطت مظاهر الفخامة والأبهة والعظمة احتفالات وفاء النيل وكسر سد الخليج حتى أواخر الدولة المملوكية باستثناء بضعة اعوام إما كانت بسبب الفتن والاضطرابات السياسية أو بسبب عدم وفاء النيل^(١).

ونستخلص من المصادر أن الاحتفال بوفاء النيل كان يتم أثناء النهار وقد ربط بعض مفسري القرآن الكريم بين قوله تعالى إخباراً عن فرعون «قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشُر الناس ضحى»، وبين الاحتفال بوفاء النيل على أساس أن اجتماع الناس للاحتفال لتخليق المقياس يكون وقت الضحى، وإن يوم الزينة هو يوم وفاء النيل عند الفراعنة^(٢) أو هو يوم النيروز^(٣).

ولكن طبقاً للقول بأن «لكل قاعدة شواذ» فإنه يوجد استثناء في ذلك، ففي سنة ٩٠٤ هـ/ ١٤٩٩ م كسر السد ليلاً وهذه هي المرة الوحيدة التي ذكرها المؤرخون التي حدث فيها ذلك، ويرجع سبب ذلك لأن السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباي أراد أن يحضر الاحتفال بنفسه ولكن الامراء منعه خوفاً من الفتنة فنزل ليلاً في خواصه وفتح السد فأصبح الناس ليجدوا الماء في الخلدجان والبرك فتعجبوا لأن ذلك ما وقع في الجاهلية ولا في الاسلام وقد ضيع على الناس فرحتهم بيوم الوفاء وما كان يقع فيه من القصف والفرجة. وفي هذه الواقعة يقول الناصري محمد بن قانصوه من صادق:

منذ السلطان قالوا	الورى بالكسر جبر
كسر السد بليل	فغدا للناس كسر ^(٤)

الاحتفال بوفاء النيل في العصر العثماني:

في العصر العثماني استمرت نفس المراسم الرسمية والشعبية والتي كانت تتم في العصر المملوكي للاحتفال بتخليق المقياس وفتح سد الخليج، وقد رأس الاحتفال طوال ذلك العصر ولاية مصر أنفسهم نائبين عن السلاطين العثمانيين فينزل الباشا (الوالي) ومعه الصناجق (حكام الأقاليم المصرية) وقاضى العسكر وكبراء الدولة ويذهبون إلى المقياس عندما يقارب النيل الوفاء ويكثرون هناك قبل الوفاء أياماً في لهو ومتعة من مأكّل ومشرب وطرب حتى يتم الوفاء ثم يعود الوالى ومن معه إلى الخليج فيأمر بفتحه ويعود إلى القلعة، وكان الشعب يشارك في هذه الاحتفالات بالتجمع والتبهرج وإظهار الفرح والزينة^(٥).

(١) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٧٤٨-٧٤٩، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٦٩.

(٢) النويرى، نهاية الارب، ج١، ص ٢٦٤، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٠، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ٣٤٩، الكتبى، مباحج الفكر، ج١، ق٢، ورقة ٨٦.

(٣) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٢٦٨. (٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٣، ص ٣٩٦-٣٩٧.

(٥) محمد كمال السيد، اسماء ومسميات، ص ٧٢.

وقد وصف لنا «ابن اياس» الاحتفال فى السنوات الأولى لغزو العثمانيين لمصر منذ سنة ٩٢٣هـ حتى ٩٢٨هـ، فذكر الاحتفال سنة ٩٢٣هـ قائلاً «وكان الذى فتح مصر فى ذلك اليوم يونس باشا نائب السلطنة، فلم يكن ليوم الوفاء بهجة مثل العادة وبطل ما كان يعمل فى مثل ذلك اليوم من الأسمطة التى كانت تصنع بالمقياس والمجامع الحلوى والمشنات الفاكة التى كانت تفرق فى ذلك اليوم فنزل يونس باشا الحراقة السلطانية وتوجه إلى السد وفتحه على العادة. ولكن أين الثريا من يدى المتناول بالنسبة لما كان يعمل فى يوم الوفاء بمصر. (١)

وذلك الوصف يرجع بلا شك لحالة الحزن والأسى التى صارت عليها مصر عقب أشهر قليلة من الفتح العثمانى، وعاد الأمر كما كان أيام المماليك من البهجة والفرح فى السنوات التالية، فذكر عن سنة ٩٢٤هـ. . . ونزل ملك الامراء (خاير بك) وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة وحضر الأمراء العثمانية ثم نزل الحراقة وصحبته الامراء العثمانية وتوجه إلى السد وفتحه وكان يوماً مشهوداً وأوكب وهو طالع القلعة موكباً حافلاً» (٢)

كما وصف ابن اياس الاحتفال سنة ٩٢٥هـ فقال «لما طلع ابن ابى الرداد واخبر ملك الامراء بوفاء النيل المبارك نزل من القلعة وتوجه إلى المقياس وخلق العمود ومد هناك مدة حافلة ثم قدموا له المركب الغراب الذى كان عمره السلطان الغورى فنزل فيه وتوجه إلى نحو السد الذى عند رأس المنشية ففتحه وأظهر التعاضم فى ذلك اليوم وفرق المجامع الحلوى والمشنات الفاكة، وكان ذلك اليوم مشهوداً من كثرة المراكب والنفوط والطبول والزمر ثم ركب ملك الامراء (خاير بك) من هناك وتوجه إلى القلعة ثم توجه الأمير كمشبحاً الوالى ففتح السد الذى عند قنطرة السد (٣). وفتح سد القنطرة ورجع إلى داره وكان يوماً مشهوداً وقد عمت هذه الفرحة لكل مسلم وكافر وكانت فرحة عامة لسائر الناس». (٤)

وحدث نفس الشيء فى سنة ٩٢٦هـ (٥) وفى سنة ٩٢٧هـ (٦) وفى سنة ٩٢٨هـ (٧).

وقد وصف لنا المؤرخ «ابن ابى السرور البكرى» صورة لحفلات الوفاء فى العصر العثمانى فقال «وأما فى الدولة العثمانية - أيدها الله تعالى - فيركب بيكلر بيكى مصر (ملك الامراء) فى

(١) بدائع الزهور، ج٥، ص ١٩٦.

(٢) بدائع الزهور، ج٥، ص ٢٦٩.

(٣) نستنتج من ذلك انه كان هناك سدان الأول عند فم الخليج وهو الذى كان يتم فتحه بصفة رسمية والثانى عند قنطرة السد ويفتحة والى القاهرة والأهالى.

(٤) بدائع الزهور، ج٥، ص ٣١٠.

(٥) نفسه، ص ٣٥١.

(٦) نفسه، ص ٤٠١.

(٧) نفسه، ص ٤٧٢.

وقت الصباح من القلعة وينزل إلى بولاق للمراكب التى أعدت له وللصناجق والأمراء تجاه الترسانة فينزل بها وتقلع المراكب التى هو بها وتقلع خلفه جميع السناجق بمراكبها والأمراء يضربون المدافع العديدة ، ولا يزال سائراً من نحو مصر العتيقة إلى المقياس بالروضة ، وذلك حين يبقى لوفاء البحر دون العشرين إصبع ، ويجلس بالمقياس المذكور إلى أن يفى البحر الستة عشر ذراعاً فإن رأى خطأ جلس بعد الوفاء اليوم واليومين ويجعلون الحراقات والعرايس النفيسه ويقع من القصف واللهو مالا يحصى . وفى يوم ارادة البكر بيكى فتح السد يجعل سماتاً عظيماً قبل طلوع الشمس للصناجق والجاويشيه والمتفرقة وغيرهم من العساكر ويحضر عنده قاضى مصر آذ ذاك ، وحين الفراغ من السمات يخلع على كاشف الجيزة « وعلى بن الخبيرى شيخ عربان الجيزة وعلى الصوباشى وعلى أمين الشون وعلى جنجى باش وعلى والى مصر القديمة وعلى والى بولاق وعلى أمير البحرين وعلى أمين الخضرة ثم يقوم هو وقاضى مصر إذ ذاك وجميع الصناجق فى المركب معه ، ولا يزال سائراً وطول الصناجق تضرب خلفه إلى أن يأتى السد فيفتحه ثم يصعد من على السد إلى القلعة ويكون يوماً مشهوداً»^(١).

وقد حرص بعض الرحالة الذين زاروا مصر فى العصر العثمانى على وصف تلك الاحتفالات التى لفتت انظارهم ، ومن أوائلهم الحسن بن الوزان المعروف بليو الافريقى (١٤٩٤ - ١٥٥٢م) الذى زار مصر فى السنين الأولى للفتح العثمانى لمصر فقال « . . . وتقام بالقاهرة حفلة كبرى فى الأيام الأولى لفيضان النيل يرتفع أثناءها ضجيج الصراخ والموسيقى حتى كأن المدينة تنقلب رأساً على عقب وتأخذ كل أسرة زورقاً تزينه بأرفع القماش وأزهى الزرابى ، وتتزود بكمية وافرة من المؤن والحلويات ومشاعل من الشمع جميلة ويكون جميع السكان فى الزوارق يتسلون حسب امكاناتهم ويشارك السلطان نفسه فى الاحتفال مع أمرائه الكبار وضباطه فيذهب إلى قناة مسورة تدعى القناة الكبرى (يقصد الخليج) وهناك يتناول شاقورا ويشرع فى هدم الجدار (بقصد سد الخليج) ، ويفعل كبار الشخصيات فعله حتى يتهدم جزء الجدار الذى كان يمنع وصول الماء فيتدفق النيل حالاً فى القناة بقوة كبيرة وينتشر من هناك إلى باقى القنوات بالضواحي والمدينة المسورة حتى ان القاهرة تكون ذلك اليوم شبيهة بالبندقية فيمكن الذهاب بالزوارق إلى جميع الاماكن المسكونة وكل أطراف مصر ويستمر الاحتفال سبعة أيام وسبع ليال بحيث أن التاجر أو الصانع ينفق كل ما ربحه أثناء السنة فى هذا الأسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والمغنيين ، وهذا الحفل من بقايا حفلات قدماء المصريين»^(٢).

(١) النزهة الزهية (مخطوط)، ورقة ٦٧، ٦٨. قطف الأزهار من الخطط والآثار، ص ٨، ٩، على مبارك، الخطط التوفيقية، ج ١٨، ص ٣٣-٣٤، المناوى، نهر النيل، ص ١٦٤-١٦٥.
(٢) وصف افريقيا، ص ٢١٤-٢١٥.

ونفس الوصف وصفة الرحالة الفرنسيين الذين زاروا مصر في القرنين ١٠، ١١هـ/١٦،
١٧م، ومنهم «باليرن» Jean Palern الذي زار مصر سنة ٩٨٩هـ/١٥٨١م الذي ذكر «أن
الاحتفال بفتح الخليج من أهم الاحتفالات وأنه ارتبط بفيضان النيل ويحضره الباشا الذي يسير
في موكب مع كبار الشخصيات ويضرب الباشا بالفأس في جدار الخليج فيتدفق الماء وتستمر
الاحتفالات سبعة أيام»^(١)، وذكر مثل ذلك بيلون Pierre Belon de Mona الذي زار
مصر في الفترة ما بين ٩٥٤-٩٥٦هـ/١٥٤٧-١٥٤٩م^(٢) أما كوبن Coppin الذي زار مصر
مرتين الأولى بين سنتي ١٠٤٨-١٠٤٩هـ من آخر يناير ١٦٣٨ حتى يوليو ١٦٣٩م والثانية عام
١٠٥٣هـ/١٦٤٣م وعمل خلالها قنصلاً للفرنسيين في دمياط، فقال «تقام الاحتفالات في
جزيرة الروضة ويسهر سكان القاهرة ويتنزهون في المراكب النيلية وهم يشعلون المصابيح
وينشدون الأغاني ويتوافدون على الروضة الصنع والحواة «أصحاب جلا جلا» ويغطس
الأطفال في النيل وهم عرايا، ويحرص الممالك على حضور الاحتفال في مراكب كبيرة مزينة
بالأعلام الملونة ومنهم من يقيم معسكراً على البر لاستقبال الزوار، ولا يقتصر الاحتفالات
على الروضة فقط وإنما تقام الاحتفالات في الأزيكية حيث تمتلئ البركة بالمياه فتسير المراكب
فيها»^(٣) وسجل مثل تلك الانطباعات الرحالة والقناصل الفرنسيون في القرن ١٢هـ/١٨م
ومنهم بول لوكاس^(٤)

ومن الجدير بالذكر هنا أن نذكر أن محمد باشا النشجي الذي تولى على مصر في المدة من
١٧ رمضان ١١٣٣هـ حتى ١٠ ذي الحجة ١١٣٨هـ الموافق من ١٢ يولية ١٧٢١ حتى ١٠ يولية
١٧٢٦م قد بنى كشكاً على حافة الخليج بدلاً من الخيمة التي كانت تعد للباشا في ذلك
المكان^(٥). كما حرص أصحاب الدور التي على جانبي الخليج على إقامة مناظر وأماكن
خصصت للضيوف للاحتفال بها وتقديم الطعام والولائم أثناء وفاء النيل للضيوف سواء أكانوا
رجال الدولة أو العامة^(٦).

(١). Palerne, (J), Le Voyage en Egypte 1581 Le Caire 1970, p. 52.

الهام ذهني، مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرنين السادس عشر والسابع عشر، (الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ١٩٩١م)، ص ٨٩، ١٠٨.

(٢). Belon, (P), Le Voyage en L'Egypte 1547, Le Caire 1969, P. 110.

(٣). Coppin. (J) Les Voyages de Jean Coppin 1639. Le Caire, 1971. pp. 74 - 78.

(٤). Lucas (P), Voyage du Sieur Paul Lucas au Levant Rouen 1772 Tome I pp 76 - 78.

الهام ذهني، مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر، (الهيئة المصرية العامة
للكتاب، ١٩٩٢)، ص ٣٢١.

(٥) أحمد شلبي، أوضح الإشارات، ص ٣٧٠-٣٧١.

(٦) الجبرتي، عجائب الآثار، ج٣، ص ٢٧١، ٤٠٧، ٤٨٥.

ومن الملاحظ ان فى بعض السنوات لم يتم عمل الموسم والمهرجان إلا فى أضيق الحدود بسبب القلاقل والفتن وانعدام النظام بالقاهرة آنذاك^(١)

وفى اثناء وجود الحملة الفرنسية بمصر (١٢١٣-١٢١٦هـ/١٧٩٧-١٨٠١م) حاول الفرنسيون أن يتقربوا إلى المصريين بالمشاركة فى أعيادهم ومواسمهم واحتفالاتهم التى من أهمها مهرجان وفاء النيل ، ولكن أغلب الشعب لم يشارك فى تلك الاحتفالات ولم يشترك سوى بعض الموظفين الرسميين والنصارى الشوام والقبط الأروام والافرنجى وقليل جداً من الناس ، بالرغم من مظاهر الاحتفال الضخمة اسى عملها الفرنسيون فى السنوات الثلاثة التى قضوها بمصر^(٢) .

واستمر المهرجان يقام بانتظام فى عصر اسرة محمد على^(٣) . وكان يسوده احياً الفخامة وأحياناً التواضع حتى أهمل تماماً منذ منتصف هذا القرن ونسى الآن تماماً على المستويين الرسمى والشعبى وضاع احتفال بدأ منذ فجر التاريخ واستمر بضعة آلاف من السنين وسبحان الله الباقي الدائم الأزل .

جـ - عيد الشهيد :

ارتبط بوفاء النيل فى العصر المملوكى مهرجانات وأعياد اخرى لا تقل فى مظاهر الاحتفال بها عن مهرجانات تخليق المقياس وكسر سد الخليج وبخاصة على المستوى الشعبى ومن هذه الأعياد عيد الشهيد وعيد النيروز . . . وغيرهما من الأعياد القبطية .

ولما كانت مصر تسودها أغلب الأحيان مشاعر المودة والتآخى والسلام ، ويسود أبنائها وشائج الوحدة الوطنية بكافة عقائدهم ومللهم وطوائفهم ومكانتهم الاجتماعية فقد كان عيد الشهيد هذا عيداً قبطياً اتخذ طابعاً قومياً فى العصر المملوكى ، وقد وصفه « المقرئى » بأنه « من أنزه فرج مصر »^(٤) .

(١) نفسه، ج١، ص ٦٣، ٦٣٣، ٦٣٤، ج٢، ص ٥٣٧، ج٣، ص ٨٣، ١٣١ .

(٢) الجيرتى، ج٢، ص ٢٠٠، ٣٠١، ٣٠٢، ٤٣٧، ج٣، ص ١٧٩، ج٤، ص ٣١٧-٣٢٠ .

(٣) نفسه، ج١، ص ٥٠٣، ٥٣٨، ٥٤٣، ٥٤٩، ٥٥٣، ٥٨٠، ٦٣٣، ج٢، ص ٢٩، ٥٨، ٨١، ٨٧، ١٦٦، ٢٠٠، ٣٠٢، ٤٣٧، ٤٨٥، ٤٩٧، ٥٣٧، ٦٠٠، ج٣، ص ٢٧، ٨٣، ١٣١، ٢١٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٧١، ٣٠٦، ٣٣٢، ٣٥٢، ٤٦٥، ٤٨٥، ٥١٥، ٥٦٤، ٥٨٠، ٦٠٣، ٦١٤ .

ادوارد ولیم لین، المصريون المحدثون - شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور، ط٢، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٤١٥-٤٢١ . كلوت بك ، لمحة عامة إلى مصر، ج١، ص ١١٨-١١٩ . على مبارك، الخطط التوفيقية، ج١، ص ٣٤٠، أحمد زكى، مهرجان وفاء النيل وخطأ المحكمة الشرعية العليا، . مقالة بمجلة المقتطف، ديسمبر ١٩٢٣هـ، ص ٣٢٩-٣٣٤ .

(٤) الخطط، ج١، ص ٦٨ .

أما عن تاريخ بدء الاحتفال بهذا العيد المصري الخالص فلم نعلم بالضبط متى بدأ أما عن كونه مصرياً خالصاً فيرجع السبب في إقامته إلى أن اقباط مصر كانوا يزعمون أن نهر النيل لا يزيد إلا بعد غسل إصبع أحد القديسين الشهداء في مائه، وكان الإصبع محفوظاً في تابوت خشبي عليه قفل من الحديد في كنيسة على النيل في منطقة شبرا الخيمة^(١).

وكان الاحتفال يتم في اليوم الثامن من بشنس القبطي الموافق لشهر مايو من كل عام وكان يمتد أحياناً ليومين أو ثلاثة أيام^(٢).

وكان الاحتفال يتم على صفحة النيل وعلى شواطئه وفي جزره - وخصوصاً جزيرة الوراق لمواجهة شبرا الخيمة التي بها الكنيسة التي تحوى الإصبع - حيث يقام مهرجان كبير لا يقل في عظمتة عن مهرجان تخليق المقياس وكسر سد الخليج.

وفي يوم الاحتفال يجتمع النصارى من جميع القرى ويشاركهم بعض المسلمين أيضاً وأغلب عامة أهل القاهرة بكافة طبقاتهم وطوائفهم فيمتلئ النيل بالقوارب، وينصبون الخيام على شاطئ بحر النيل بأعداد كبيرة وفي الجزائر، وكان أعيان القبط من المباشرين ينزلون في المراكب وقت القاء ذلك الإصبع في البحر وكانت الشموع توقد في المراكب مع القناديل حتى يضيء منها البر، وتحرق النفوط في تلك الليلة حتى تدبش العقول من رؤية ذلك^(٣)، وكان الفرسان يجتمعون ويرقصون بخيولهم على إيقاعات الطبول وأنغام الزمور... ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب معلوب ولا بغى ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاك ولا فاسق إلا وخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم^(٤).

لأجل ذلك فقد العيد مدلوله الديني وانقلب إلى معرض لكل أنواع الفجور وصحبته

(١) نفسه، ص ٦٩.

.. السخاوي، التبر المسبوك، ص ١٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج٨، ص ٢٠٢، السيوطي،

حسن المحاضرة، ج٢، ص ٢٩٩، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٦٥.

* يعتقد «على باشا مبارك» في خطته التوفيقية ج١٨، ص ٣١، أن الاحتفال بعيد الشهيد هذا هو تطور للاحتفال بعروس النيل وهي العادة التي أبطلها عمرو بن العاص فاتح مصر بأمر الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

* ولكن من الجدير بالذكر أن نقول أن قصة عروس النيل هذه قصة مختلفة وقد دحضها الكثير من الكتاب.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج١، ص ٦٨، السلوك، ج٢، ص ٤٥١-٤٥٢، ابن تغرى بردى، النجوم

الزاهرة، ج٨، ص ٢٠٣، السخاوي، التبر المسبوك، ص ١٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٦٦.

(٤) المقرئزي، الخطط، ج١، ص ٦٩، السيوطي، كوكب الروضة، ص ١٣١.

مظاهر الفساد والانحلال والفوضى والعريضة، إذ ترتكب المعاصي نهائراً جهاراً، وتثور الفتن وتقع بعض حوادث القتل، ويبيع من الخمر في ذلك اليوم ما ينيف على مائة ألف درهم فضة عنها خمسة آلاف دينار ذهباً حتى قيل أن أحد الباعة باع في يوم واحد بائني عشر ألف درهم فضة من الخمر، لذلك فإن فلاحى شبرا كانوا يعتمدون على مبيعاتهم من الخمر في هذا العيد للوفاء بما عليهم من الخراج مما يبين مقدار ما يراق من الخمر للمتفرجين والمتزهين^(١)

وقد تعرض هذا العيد للإلغاء في سنة ٧٠٢هـ على يد الأمير بيبرس الجاشنكير وكان استاداراً للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وكان متحكماً في المملكة حينئذ هو والأمير سلار نائب السلطنة، وكان لبيبرس دور كبير في التعرض لبعض مظاهر الفساد والانحلال في ذلك الوقت، فأمر بالغاء عيد الشهيد وأن لا يرمى إصبع في النيل ولا يعمل له عيد، وندب الحجاب ووالى القاهرة لمنع الناس من الاجتماع بشبرا على عادتهم، وخرج البريد إلى سائر أعمال مصر ومعهم الكتب إلى الولاة بإجهاار النداء وإعلانه في الأقاليم بأن لا يخرج أحد من النصارى ولا يحضر لعمل عيد الشهيد، فشق ذلك على أقباط مصر وحاولوا إعادته فأوعدوا بيبرس بأموال عظيمة وخوفوه من عدم طلوع النيل وانكسار الخراج ولكن بيبرس صمم على رأيه فتم الغاء العيد^(٢).

وظل الاحتفال بالعيد معطلاً حتى أعاده مرة أخرى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد ست وثلاثين سنة من الغائه أى سنة ٧٣٨هـ^(٣) وأرجع المؤرخون السبب في إعادة العيد إلى أن السلطان الناصر محمد أراد أن يعوض الأميرين يلبغا اليحياوى والطنبغا الماردانى^(٤) عن رغبتهم في الغياب مدة للسرح للصيد في الإسكندرية ونواحيها، ولما كان السلطان لا يطيق فراقهما لذا أمر بإعادة الاحتفال بعيد الشهيد مرة أخرى كى لا يبتعدا عن القاهرة^(٥).

(١) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٩.

(٢) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٩، السلوك، ج١، ص ٩٤١-٩٤٢، ابن تغرى بردى، النجوم، ج٨، ص ٢٠٢-٢٠٣، ابن حجر، الدرر الكامنة، ج١، ص ٥٤.

(٣) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٦٩، السلوك، ج٢، ص ٤٥١.

(٤) ذكر المقرئى في السلوك، ج٢، ص ٤٥١، أن الأميرين هما ملكتمر الحجازى ولبغا اليحياوى، بينما ذكر في الخطط، ج١، ص ٦٩، انهما الطنبغا الماردانى ولبغا اليحياوى.

(٥) قال المقرئى في شأن هذا الموضوع «... طلب الأمير يلبغا اليحياوى والأمير الطنبغا الماردانى من السلطان أن يخرجوا إلى الصيد ويغيبا مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامة بهما وتهتكه في محبتهم وأراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد فيكون تفزجكما عليه أنزه من خروجكما إلى الصيد وكان قد قرب أوان وقت عيد الشهيد فرضياً منه بذلك وأشيع في الأقليم إعادة عمل عيد الشهيد، فلما كان اليوم الذى كانت العادة بعمله فيه ركب الأمراء النيل في الشخاتير بغير حراريق واجتمع الناس من كل جهة =

وقد أبطل الاحتفال بالعيد نهائياً سنة ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م أثناء سلطنة الملك الصالح بن محمد قلاوون على يد الأمير صرغتمش أحد الأمراء الكبار المتحكمين في المملكة آنذاك، فهدمت الكنيسة في أواخر رجب وأحرق لإصبع بين يدي السلطان وزرورا رماده في النهر، وكان ذلك ضمن حملات المصادرة والاضطهاد التي تعرضت لها الكنائس والديورة وكذلك الأوقاف الموقوفة عليها في تلك السنة^(١).

د - عيد النيروز:

عيد النيروز^(٢) عيد قبطي اتخذ طابعاً قومياً في ظل الدول الإسلامية المتعاقبة في مصر.

وعيد النيروز هو عيد رأس السنة القبطية يحتفل به في أول يوم من شهر توت القبطي الموافق ليوم ٢٣ أغسطس الميلادي^(٣)، وأغلب الظن أن هذا العيد متوارث عن قدماء المصريين لأنه ارتبط بالنيل ارتباطاً كبيراً لأن موعد الاحتفال به يكون عادة وقت اكتمال فيضان النيل، وقد ارتبط النيروز في العصر المملوكي بأماكن النزهة مثل البرك والخلجان وغيرها.

وكان لهذا العيد رونق كبير في زمن الدولة الفاطمية، واستمرت مظاهره في الدولتين التاليتين لها « الأيوبية والمملوكية »، وقد حرص المسلمون على مشاركة الأقباط في الاحتفال بذلك العيد نظراً لما كان بينهم من مودة ولسبب آخر هو ارتباط العيد باكتمال فيضان النيل - روح المصريين جميعاً - لذا اعتبر هذا اليوم بمثابة عطلة عامة تغلق فيها الأسواق وتعطل فيها المدارس^(٣).

ومن التقاليد المتوارثة التي سادت يوم العيد واستمرت في العصر المملوكي هي إيقاد النيران

= ويرز أرباب الغناء وأصحاب اللهو والخلاعة فركبوا النيل وتجاهروا بما كانت عاداتهم المجاهرة به من أنواع المنكرات وتوسع الأمراء في تنوع الأطعمة والحلاوات وغيرها توسعاً خرجوا فيه عن الحد في الكثرة البالغة وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه لكثرتهم واستمروا على ذلك ثلاثة أيام . . .

الخطط . ج ٢، ص ٦٩، انظر أيضاً: السلوك، ج ٢، ص ٤٥١-٤٥٢.

(١) المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ٦٩-٧٠، السلوك، ج ٢، ص ٤٥١-٤٥٢، ٩٢٦، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٦٥-٥٦٧.

(٢) كلمة النيروز كلمة فارسية معناها اليوم الجديد، وكان الفرس يعتبرونه من أهم أعيادهم وكان يحتفلون به في يوم الاعتدال الربيعي أى يوم ٢١ مارس، وقد عرفت شعوب كثيرة ودول عديدة عيد النيروز وكل منهم احتفل به حسب التقويم الخاص به. انظر: المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٢٦٨.

(٣) المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٢٦٧.

(٤) ابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٤٩، ابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٣، المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٤٩٣.

والتراش بالماء والخمر فى الشوارع والطرق وفوق صفحة النيل والبرك والخلجان
وسائر أماكن النزهة، وكان البعض أيضاً يقفون فى الطرق ويتراجمون بالبيض
ويتضاربون بأنطاع الجلود والأخفاف والعمائم، وكان بعض كبار القوم يفعلون مثل ذلك فى
بساتينهم وداخل بيوتهم^(١).

ومن التقاليد المتوارثة أيضاً والتي كانت سائدة فى العصر الفاطمى واستمرت فى العصر
المملوكى موكب (كرنفال) أمير النيروز الذى اتسم بالهرج والخفة، فقد كان بعض العامة يولون
عليهم شخصاً منهم يسمونه أمير النيروز له صفات جسمانية معينة فقد كان قوى الطباع
ويغيرون صورته وخلقته إذ يدهن وجهه بجير أو دقيق ويجعلون له لحية مستعارة من فروة أو
غيرها ويضعون على رأسه طرطوراً طويلاً من الخوص ويركبونه حمراً وهو شبه عريان يستر
بعض جسمه بثوب أحمر أو أصفر ليظهره بذلك، ويجعلون موله الجريد الأخضر وشمارين
البلح ويبيده شئ يشبه الدفتر كأنه يحاسب الناس، ثم يطوفون أزقة المدينة وشوارعها على
البيوت والأسواق، فيقف على باب كل فرد سواء من الأكابر أو غير الأكابر ويكتب عليه
إيصلاً مرابطين أمام داره حتى يأخذوا ما فرضوه عليه وهم فى كل ذلك يحتمون بالنيروز
ويقولون «ليس فيه حرج ولا تقع فيه أحكام»^(٢).

ويبدو أن ذلك اليوم اعتبر بمثابة راحة أو عطلة عامة يتحرر الناس فيها من قيود حياتهم
اليومية وتقاليدهم بما فى ذلك سطوة القانون فلم يكن الوالى يحكم لأحد مما ينالهم الضرر من
جرائم الجرائم والحوادث التى كانت تحدث فى يوم النيروز^(٣).

ونظراً لما ساد مظاهر الاحتفال بهذا العيد من أخطار ومفاسد الخروج عن نطاق
المعقول^(٤)، فإن بعض الحكام حاولوا إلغاء الاحتفال أو فرض العقوبات على بعض من

(١) المقرئى، الخطط، ج١، ص ٢٦٩، السلوك، ج١، ص ١٣٦-١٣٧، ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٤٩. وقال شعراء العصر فى ذلك:

بدارى رجلاً للمجون ترجلت
فألراح مازرت عليه جيوبها
مساحب من جرد الزقاق على القفا
وصفع انطاع جنى وباس

ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٣٦٤.

(٢) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٥٢-٥٣، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٢٦٩، ٤٩٣، ابن اياس،
بدائع الزهور، ج٢، ص ٣٦٣-٣٦٤-٣٦٤، نزهة الأُم (مخطوط)، ص ٢٢٥.

(٣) قاسم عبده، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١١١.

(٤) كانت مظاهر الفساد والفجور والقوضى يشتت أشكالها تصحب الاحتفال بهذا العيد فقد ذكر «ابن الحاج»
«أن الخمر يشرب جهاراً والنساء يلعبن فى بيوتهن مختلطين مع الرجال والشبان فيرش بعضهم بعضاً»

يشارك في تلك المظاهر الفاسدة، فنرى على سبيل المثال أن الأمير الكبير برقوق (قبل أن بلى السلطنة) وهو المتحكم في الدولة آنذاك قد أبطل كثيراً من مظاهر الاحتفال وعاقب البعض بسبب ذلك وكان ذلك سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م، وفي أثناء سلطنته رسم في أواخر شعبان ٧٨٧ هـ بإبطال ما كان يعمل في يوم النيروز «... فانكف الناس عن اللعب في القاهرة وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخلدجان والبرك ونحوها من مواضع التزهة بعد ما كانت أسواق القاهرة تتعطل يوم نيروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس من اللهو واللعب ما يخرجون عن حد الحياء والحشمة إلى الغاية من الفجور والعمور وقلما انقضى يوم نوروز إلا وقتل فيه قتيل أو أكثر»^(١)

ولكننا نجد السلطان الناصر فرج بن برقوق قد أعاد الاحتفال بالعيد مرة أخرى ولكن مظاهر هذا الاحتفال قد تواضعت إلى حد كبير بسبب الأزمات التي توالى على مصر منذ مطلع القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فقد ذكر «المقريزي» بهذا الخصوص «... لم يبق الآن للناس من الفراغ ما يقتضى ذلك ولا من الرفة والبطر ما يوجب لهم عمله»^(٢).

وقد ارتبطت بالاحتفال بعيد النيروز بعض الأطعمة والحلوى التي كان الناس يحضرون على توفيرها في هذا اليوم حتى صارت من لوازم ذلك الاحتفال، وربما نشأت المشاكل بسببها داخل البيوت، ومن هذه الأطعمة والحلوى الزلابية والهريسة التي كانت بعض الناس يحضرون الصانع ليبيت عندهم لتجهيزها قبل طلوع النهار، وفي هذا العيد كان المصريون جميعاً يتهادون بهذه الحلوى كذلك جرت العادة أن تؤكل في هذا اليوم أنواع معينة من الفواكه مثل البطيخ والخرخ والبلح... وغير ذلك مما تلزمه النساء لأزواجهن.^(٣)

= بالماء دون أن تستحي الجارة من الجار أو من ابن العم أو من الصهر أو من أصدقاء زوجها وإذا ضاقت بهم المنازل خرجوا إلى البرك والخلجان وغيرها من أماكن التزهة حيث يصل بهم الأمر إلى نزاع ثيابهم فيصبح أكثرهم حرايا في حين يقنع المحتشم أو المحتشمة منهم بقميص رقيق»، المدخل، ج٢، ص ٥١.

* وقد ذكر ابن اياس مثل ذلك، انظر: بدائع الزهور، ج٢، ق ٢، ص ٣٦٤.

(١) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٦٩، السلوك، ج٣، ص ٣٩٤، القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٤١٩-٤٢٠، السيوطي، كوكب الروضة، ص ١٩٥-١٩٦، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ٢، ص ٣٦٣، ٣٦٥.

(٢) المقريزي، الخطط، ج١، ص ٢٦٩.

(٣) نفسه، ص ٢٦٨-٢٦٩، ٤٩٣، ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٤٨-٤٩، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٣٦٤-٣٦٥.

هـ- الاعياد القبطية الأخرى :

(١) عيد الغطاس :

كان هذا الاحتفال، من الاحتفالات الكبيرة زمن الدولة الإخشيدية والدولة الفاطمية، إلا أن كثيراً من مظاهر الاحتفال قد تراجعت زمن المماليك وربما ألغى الاحتفال كلية .

وكان الاحتفال يتم فى اليوم الحادى عشر من طوبة، الموافق التاسع عشر من شهر يناير الميلادى، وبالرغم من أن هذا العيد متصل بالعقيدة المسيحية إلا أن بعض المسلمين شاركوا فيه واتخذوه موسماً، وكانت صفحة النيل وشاطئاه وجزيرة الروضة مسرحاً للاحتفال وبخاصة أمام المقياس حيث تنصب الخيام ويمتلئ البحر بالمراكب المزينة وتشعل الشموع والقناديل وتجتمع أرباب المغاني والآلات وأرباب الملاهى من كل مكان ويخرج الناس فى ذلك عن الحد فى اللهو والقصف، وكانوا يغطسون بعد العشاء قبالة المقياس ويزعمون أن من يغطس فى تلك الليلة لا يضعف فى تلك السنة^(١).

(٢) عيد الزيتونة :

شارك المسلمون أيضاً الأقباط فى هذا العيد ويخرجون فيه إلى بئر البلسم بالمطرية ويغتسلون فيه حيث يعتقد أن العذراء مريم غسلت فيه ثياب السيد المسيح عليه السلام،^(٢)

(٣) سبت النور :

كان الناس يخرجون فيه إلى شاطئ النيل .^(٣)

و- مولد اسماعيل الامبايى :

من الاحتفالات الكبيرة التى ارتبطت بالمتنزهات (بالنيل والجزر بوجه خاص)، الاحتفالات بمولد الشيخ اسماعيل الامبايى^(٤).

(١) السعدى، مروج الذهب، ج٢، ص ٣٦٤، ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٥٩، المقرئى، الخطط، ج١، ص ٢٦٥، ٤٩٤، السيوطى، كوكب الروضة ص ١٦٥، ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٢١٢-٢١٣.

(٢) عن أصل هذا العيد، انظر: المقرئى، الخطط، ج١، ص ٢٦٤، ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٥٩-٦٠، ابن الوردى، خريدة العجائب، ص ٦٤-٦٦.

(٣) ابن الحاج، المدخل، ج١، ص ٥٧.

(٤) هو اسماعيل بن يوسف الامبايى الشيخ المعتقد المشهور، قال عنه «المقرئى» انه أحد من تشفيت به العامة إذا مسها الضر وتجار إليه ويزعمون أن سره يجلب لهم النفع ويدفع عنهم السوء والمكره، عادة سوء فى سفهاء أهل مصر، عافانا الله منها»، كان أبوه أحد الفقراء السطوحية وله سمعة وشهرة بناحية اتبوبة =

وكان مكان الاحتفال على صفحة نهر النيل فى منطقة امبابية على النيل حيث ضريح اسماعيل الامبابى^(١) وما يواجهها من بولاق والجزيرة الوسطى .

وكان الشيخ اسماعيل الامبابى يحتفل فى كل عام بمولد النبى يوم ١٢ ربيع الاول^(٢) ، وبعد وفاته سنة ٧٩٠ هـ عمل الناس له مولداً فى كل عام يوم ١١ من شهر صفر^(٣) ، وكان أهل القاهرة والجزيرة والنواحي يحتفلون به احتفالاً كبيراً إذ صار عندهم هذا الوقت من جملة التنزه ويتواعدون عليه من قبل عمله بأيام ويتوجهون إليه أفواجاً ويستأجرون المراكب للتنزه وينصبون الخيام التى يصل عددها إلى ٥٠٠ خيمة فى الجزيرة المواجهة لبولاق وعلى شاطئ النيل عند بولاق وامبابية ، ويوقدون حراقات نفط هائلة ، وكانوا يبيتون عدة أيام وتقام الأسواق

= (امبابية) من بر الجزيرة غرب القاهرة وله بها زاوية فنشأ اسماعيل واشتغل بالفق على مذهب الشافعى رحمه الله ، وأقبل الناس لزيارته بعد موت أبيه وتبركوا به وصار يعمل المولد النبوى فى كل سنة فيستأبه الناس من الأقطار وترحل إليه من الأطراف وقد توفى الشيخ آخر شعبان سنة تسعين وسبعمئة ودفن بزايوته .

وقال «المقريزى» عنه أيضاً «وقد اجتمعت به فلم أرفيه ما يقتضى الذم ولا المدح سوى أنه كان يمد يده لمن يأتيه حتى يقبلها وظهر لى منه انه حريص على الرياسة غفر الله له» . وقد أثنى عليه «ابن تغرى بردى» . انظر: المقريزى، درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة، تحقيق محمد كمال الدين ، نشر عالم الكتب، القاهرة، سنة ١٩٩٢م، ج٢، ص ٥٠١-٥٠٢ . ابن حجر، انباء الغمر، ج١، ص ٣٥٧ . الدرر الكامنة، ج١، ص ٤٥٧ . ابن تغرى بردى، النجوم، ج١١، ص ٣١٤ . ابن الصيرفى، نزهة النفوس، ج١، ص ١٨٠ . ابن اياس، بدائع الزهور، ج١، ص ٢، ص ٣٩١ .

(١) ضريح اسماعيل الامبابى عبارة عن قبة ملحقة بالركن الشرقى من مسجده، وقد جددت وزارة الأوقاف الآن الضريح والمسجد معاً تجديداً شاملاً والأثر الباقي القديم من المسجد عبارة عن باب بالواجهة الشمالية الشرقية وفى نفس الواجهة مثلثة تعود للعصر العثمانى، والجامع والقبة كانا فى الأصل زاوية لوالد المترجم . ويقع الجامع فى شارع المحطة حيث يطل على محطة سكك حديد امبابية بواجهته الشمالية الشرقية، وهو على بعد ١٥٠ متراً غرب النيل، غرب مركز وقسم شرطة امبابية بشارع النيل .

(٢) غاب المقريزى ما كان يتم يوم الاحتفال بالمولد النبوى هناك فقال « . . . وصار يعمل المولد النبوى فى كل سنة فينتأبه الناس من الأقطار وترحل إليه من الأطراف ويخرج بياض أهل مصر والقاهرة إليه وتضرب بظاهر زايوته الخيم وتعد الأسواق وتجتمع من النسوان والشبان خلق كثير فأذكر أنه عمل المولد على عادته فى شهر ربيع الأول من سنة تسعين وسبعمئة فخرج الناس لحضور المجتمع حتى غص الفضاء بكثرة العالم وتنوعوا تلك الليلة فى الفسق لكثرة اختلاط النسوان والمردان بأهل الخلاعة فتواتر الخبر أنه وجد فى صبيحة تلك الليلة من جرار الخمر التى شربت بالليل فوق الخمسين فارغة ملقاة حول الزاوية فى المزارع وانفتحت تلك الليلة عدة أبكار وأوقدت شموع بمال كبير فبعث الله يوم الأحد بكرة صباح المولد المذكور . قاصفاً من الريح كدرت على من كان هناك ونعت فى وجوههم التراب واقتلعت الخيم ولم يقدر أحد على ركوب النيل ولم يعمل بعدها مولد فإن الشيخ مات آخر شعبان ودفن بزايوته . انظر: المقريزى، درر العقود، ج٢، ص ٥٠١-٥٠٢ .

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١١٤، ١٣٢، ١٥٢، ١٨٢، ٢١٤، ٣٧٥ .

بكافة البضائع للمحتفلين ، وكانت الناس تخرج فى القصف والفرجة فى هذا المولد عن
الحل (١)

وكان بعض السلاطين يحتفلون بهذا المولد مثل السلطان الملك الناصر محمد بن
قايتباى (٢).

وقد استمر الاحتفال بمولد اسماعيل الامباى فى العصر العثمانى ولا يزال للآن يسوده
مظاهر احتفال كبيرة من كل عام .

ثالثاً : ارتباط المنتزهات ببعض الامراض الاجتماعية ورد الفعل المضاد لها

ارتبط بمنتزهات القاهرة بعض الأمراض الاجتماعية التى كانت سائدة فى العصرين
المملوكى والعثمانى ، بل أن بعض المنتزهات كالبرك والخلجان كانت عاملاً هاماً وسبباً رئيساً
فى نفشى وانتشار تلك الأمراض انتشاراً كبيراً بين العامة والخاصة .

والأمراض الاجتماعية التى سادت آنذاك كانت نوعين ، أولهما وهو الذى ارتبط
بالمنتزهات بوجه خاص هو الفساد الخلقي مثل الزنا واللواط والشذوذ الجنسى وتعاطى
الحشيش والمخدرات ومعاقرة الخمر ، وثانيهما هو المعتقدات الباطلة مثل الاعتقاد فى قدرة
الشيوخ والأولياء والتطير والتشاؤم والحسد والتعاويد وأيام السعد والنحس والاعتقاد فى الجن
والتنجيم والكيمياء (٣).

هذا فضلاً عن التصرفات الخاطئة التى سادت بين المنتزهين والتى تتنافى مع تعاليم الدين
مثل المبالغة فى الاسراف ومظاهر الترف الزائدة وغير ذلك .

وكانت تلك الأمراض والسلوكيات الأخلاقية الخاطئة المرتبطة بالمنتزهات متوارثة منذ
زمن ، وحاول بعض الحكام تقويمها ، وفى العصر الفاطمى كانت الناس تتجاهر بالمنكرات من
غير نكر عليهم (٤) ، ولكن هناك بعض المحاولات القليلة للردع مثل ما حدث سنة ٤٠١ هـ حين
منع الحاكم بأمر الله من الركوب فى المراكب بالخليج وسد أبواب القاهرة التى تلى الخليج
وأبواب الدور التى هناك والطاقت المظلة عليه (٥).

(١) نفسه . ، وابن تغرى بردى ، ج٤ ، ص ٣١٤-٣١٥ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج٣ ، ص ٣٨٩ .

(٣) سعيد عاشور ، المجتمع المصرى ، ص ٢٢٧ .

(٤) المقرئى ، السلوك ، ج١ ، ص ١١٩ ، ١٤٢ .

(٥) المقرئى ، الخطط ، ج٢ ، ص ٢٤ ، ١٤٣ .

وقال القاضي الفاضل في متجددات حوادث سنة ٥٩٤ هـ ونهى عن ركوب المتفرجين في المراكب في الخليج وعن إظهار المنكر وعن ركوب النساء مع الرجال وعلق جماعة من رؤساء المراكب بأيديهم قال وفي يوم الاربعاء تاسع عشر رمضان ظهر في هذه المدة من المنكرات ما لم يعهد مصر في وقت من الأوقات ومن الفواحش ما خرج من الدور إلى الطرقات وجرى الماء في الخليج بنعمة الله تعالى بعد القنوط ووقوف الزيادة في الذراع السادس عشر فركب أهل الخلاعة وذوو البطالة في مراكب نهار شهر رمضان ومعهم النساء الفواجر وبأيديهم المزاهر يضربن بهن وتسمع أصواتهن ووجوههن مكشوفة وحرفاؤهن من الرجال معهن في المراكب ولا يمنعون عنهن الأيدي ولا الأبصار ولا يخافون من أمير ولا مأمور شيئاً من أسباب الإنكار وتوقع أهل المراقبة ما يتلو هذا الخطب من المعاقبة^(١).

ويحدثنا «ابن سعيد» الذي زار مصر زمن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب عن الخليج فيقول «... فرأيت فيه من ذلك العجائب وربما وقع فيه قتل بسبب السكر فيمنع فيه الشراب وذلك في بعض الأحيان وهو ضيق وعليه من الجهتين مناظر كثيرة العمارة ومعالم الطرب والتهكم والمجانة حتى أن المحتشمين والرؤساء لا يجيزون العبور به في مركب وللسرّج في جانبية بالليل منظر فتان، وكثيراً ما يتفرج فيه أهل السّتر، وأقول مخاطباً أحد الرؤساء وقد استدعاني للركوب فيه نهاراً:

لا تركبن في خليج مصر	إلا إذا يسدل الظلام
فقد علمت الذي عليه	من عالم كلهم طغام ^(٢)

وقد انتشرت تلك الامراض الاجتماعية والخلقية بين جميع الطبقات حكماً ومحكومين من أهل الدنيا والدين على الرغم مما كانت عليه الدولة من أمور تبدو وكأنها تعمل للمصلح والتقوى والتدين في ذلك الوقت نظراً لما عمد اليه السلاطين والأمراء من إقامة المنشآت الدينية الفخمة والرغبة البالغة في إحياء شعائر الدين ولكن ذلك كان مظهرًا خارجيًا يخفى وراءه انحلالاً خلقياً بعيد الغور وأمراضاً متوطنة خبيثة تثير الاشتمزاز والنفور^(٣).

وعلى أية حال لم تنفرد مصر عن غيرها من البلاد الإسلامية بتلك الامراض الاجتماعية بل إنها سادت في معظم البلاد آنذاك^(٤).

(١) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٤٣.

(٢) ابن سعيد، الغرب، ص ٣١-٣٢، المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٤٤.

(٣) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٢٥.

(٤) ابن حجر، انباء الغمر، ج ١، ص ٦٠٢، سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٢٥.

ومن الامراض الاجتماعية التى سادت فى العصرين المملوكى والعثمانى الزنا والبغاء^(١) الذى كان معترفا به من قبل الدولة، وكانت تنتشر بالمدينة وحول البرك والخلجان وعلى شاطئ النيل بشكل خاص بيوت ومواخير بكل منها ضامنة تشرف على محترفات البغاء الذى كان منتشراً آنذاك، كما ابتلى المجتمع ايضاً فى عصر المماليك بتفشى الشذوذ الجنىسى واللواط^(٢)

وكان على امتداد النيل بعض الدور التى اتخذت فى أمور اللهو والفسق وأغراض منافية للأداب مثال لذلك كان على شاطئ النيل ببولاق بيت كان فى أصله لابن عز الفرائش واشتراها بعد موته تاج الدين الأزرق ناظر الجهات فعرفت «بدار الفاسقين» ورأت هذه الدار من اللهو والفسق ما يتجاوز الحد» إلى ان اشتراها الأمير عز الدين ايدمر الخطيرى وعمرها جامعاً سنة ٧٣٧هـ وسمى جامع التوبة^(٣)

وكان المنتزهون ينصبون الأخصاص على النيل وعلى شواطئ البرك والخلجان ويظهرون من المنكرات من الخمر ونحوها من المسكرات واختلاط النساء والرجال من غير استتار.^(٤)

وعبر «المقريزى» كثيراً عن سخطه عن مجتمع المتزهات وما كان يسودها من مظاهر تنافى الخلق والدين، من ذلك ما كتبه عن الجسر الذى بين بركة الرطلى وبين الخليج الناصرى

(١) كانت الدعارة من المهن المعترف بها فى الدولة المملوكية لأنها كانت تفرض عليها ضريبة معينة كانت تدرب دخلاً كبيراً للخزينة السلطانية، فقد كان على كل من ترغب فى احتراف الدعارة ان تذهب إلى «ضامنة المغانى» والغريب فى الأمر أن صاحبة هذه الوظيفة كانت بمثابة النقيب لمن يحترف الدعارة، ولكنها كانت مسئولة ايضاً عن حرقة نساء أخرى مختلفة بل ومتناقضة مع هذه الحرقة إذ كانت الضامنة هى المسئولة عن المغنيات والواعظات والقارئات والندابات فضلاً عن مسئوليتها عن بنات الليل، وقد تميزت محترفات الدعارة فى العصر المملوكى بملابس خاصة بهن، ويقول «المقريزى» فى سياق حديثه عن «سوق الشماعين» إن حوانيت هذا السوق كانت تظل مفتوحة طوال الليل وكان يجلس به بالليل بغايا يقال لهم زعيرات الشماعين لهن سيماء يعرفن بها وزى يتميزون به وهو لبس الملاءات والطرح وكن يعانين الزعارة ويقفن مع الرجال المشالقين فى وقت لعبهم وفيهن من تحمل الحديد معهم، وكانت هناك أماكن خاصة بالبغايا فى المدن والريف. وأحياناً ما كان بعض السلاطين يحارب البغاء مثل السلطان الظاهر بيبرس، والناصر محمد والأشرف برسبى والظاهر جقمق، ولكن سرعان ما يعود الأمر إلى ما كان عليه سابقاً واستمر الحال قائماً فى العصر العثمانى، انظر :

سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٧.

قاسم عبده، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى، ص ١٣٩.

(٢) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٢٨.

(٣) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ١٢، المقريزى، السلوك، ج ١، ص ٤٢٣.

(٤) المقريزى، السلوك، ج ٤، ص ٣٥٨.

« . . . وتجتمع العامة تحت مناظر الجسر وتغر بحافة الخليج للنزهة فكثير اغتباط غوغاء الناس وفساقهم بهذا الجسر إلى اليوم وهو من أنزه فرج القاهرة لولا ما عرف به من القاذورات الفاحشة» (١).

وأيضاً يرسم لنا «المقريزى» صورة حية لمجتمع البركة فى العصر المملوكى حين يتحدث عن ربيع المشانيق على الجسر، وتبدو المبالغة واضحة جليلة فى كلام المقريزى إلا أننا يهمنا منها مغزاه إذ يقول « . . . وكان تحته (أى ربيع المشانيق) رصيف يجلس عليه الناس للفرجة وإنما سُمى ربيع المشانيق لأن المار تحته على الرصيف لا يشتغل بالنظر إلا إلى الطيقان لما فيها من النساء الحسن، ومما وقع لشخص أنه رص الف دينار من أول الرصيف إلى آخره فبقيت ثمانية أيام وأتى الرجل فوجد الألف دينار ولم ينقص منها شيء لاشتغال الناس بالنظر إلى النساء المشرفات من الطيقان» (٢).

ومن أمثلة البيوت على شواطئ الخليج الناصرى يسمى ربيع الزيتى بجوار قنطرة الحاجب «وكان يشتمل على عدة مساكن ينزل بها أهل الخلاعة للقصص فإنه كان يشرف من جهاته الأربع على رياض وبساتين وفى شرقه غيط الزيتى» وقد خرب أيام المقريزى وصار موضعه بركة ماء، «وفى غربيه غيط الحاجب ببيرس «ويقول المقريزى» «وأدركته عامراً وهو اليوم مزارع بعدما كان له باب كبير بجانبه حوض ماء للسبيل وعليه سياج من طين دائر به ومن قبلى هذا الربع الخليج وقنطرة الحاجب والجنيحة التى بأرض الطبالة ومن بحرية بساتين تتصل بالبعل وكوم الريش، وما زال هذا الربع معموراً بالذات أهلاً بكثرة المسرات إلى أن كانت سنة الغرق، وهى سنة ٧٥٥هـ فخربت دور كوم الريش وغيرها ووصل ماء النيل إلى قنطرة الحاجب فخرب ربيع الزيتى وأهمل أمره حتى صار كوماً عظيماً تجاه قنطرة الحاجب وغيط الحاجب، وسمعت من أدركته يخبر عن هذا الربع بعجائب من الملاحذ التى كانت فيه، وكانت العامة تقول فى هزلها : ستى اين كتنى واين رحتى واين جيتى قالت من ربيع الزيتى، ثم انقضت تلك السنون وأهلها . . . فكأنها وكأنهم أحلام» (٣).

وكان يوجد بجوار قنطرة الموسكى ربيع يسكن به بنات الخطا يفعلن الفاحشة وقد هاجم انصبأى الحاجب هذا البيت فى ذى الحجة سنة ٩١٤هـ وضرب النساء اللاتى كن به وأشهرهن فى القاهرة على حمير، وبسبب مجاورة الربع لبيت الامير نوروز وهو أمير مائة مقدم ألف زمن الغورى حدث نزاع ومشاجرة بين انصبأى حاجب الحجاب وبينه لحمايته هو وغلمان لهذا البيت ورفع النزاع الى الغورى فاننصف لحاجب الحجاب» (٤).

(١) الخطط، ج٢، ص ١٦٦. (٢) البكرى، النزهة الزهية، مخطوط، ورقة ٧٣. (٣) الخطط، ج٢، ص ٧٨. (٤) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٨.

وكان يوجد فى القاهرة العديد من المواخير منتشرة فى العصر العثمانى وخصوصاً الأزيكية^(١)، وظلت حول البرك الأخصاص التى تضم بنات الخطأ مثل التى كانت على بركة المجاورين (بركة الشيخ قمر)^(٢).

وعن ارتباط المتزهات بالامراض الاجتماعية أيضاً ذلك الرباط الوثيق بينها وبين المخدرات وعلى رأسها الحشيش^(٣) الذى عانت منه مصر والمصريون كثيراً ولا تزال تعاني من مآسيه وتبعاته.

وقد انتشرت زراعة شجرة الحشيش فى بركة الرطلى وأرض الطباله وفشت هذه الشجرة فى عصر المماليك «ولوع بها اهل الخلاعة والسخف ولوعاً كبيراً وتظاهروا بها من غير احتشام»^(٤) ويرجع سبب ذلك إلى سماح الدولة آنذاك بزراعته نظراً لما قد يعود عليها من ضريبته وانتشر إلى جانب الحشيش الأفيون الذى عرفه المصريون فى العصر المملوكى واستمر سائداً.^(٥)

وقد قيل فى زراعة بركة الرطلى والجنية المجاورة لها بالحشيش عدة أشعار^(٦).

ويبدو أن الحشيش قد بطل زراعته فترة من البركة ولكنه زرع مرة أخرى سنة ٩١٥هـ وقد قال ابن اياس بخصوص ذلك «وكان الذى زرع الحشيش كمال الدين بن قوسان وقد استأجر أرض بركة الرطلى فكان كل من دخل إليها يبتهج بذلك لا سيما أصحاب الكتبة من الحشاشين

(١) أرشيف الشهر العقارى، محكمة الصالحة النجمية، ٤٩٥، حجة رقم ٥٢٠، ورقم ٥٢١، ص ٣٨٥.
(٢) البكرى، الروضة الزهية فى ولاية مصر المعزية، مخطوط بدار الكتب برقم ٢٤٠٧ تاريخ تيمور، ورقة ١٤٤.

(٣) أول من أهتم بالحشيش الصوفية وأصحاب الطرق حتى نسب إليهم فليل حشيشة الفقراء وكان مقروضاً على الحشيش فى العصر المملوكى ضريبة عالية وقد أبطل بعض السلاطين ضمانها مثل الظاهر بيبرس وأمر بتأديب من يتعاطاه ولكن سرعان ما يعود الأمر إلى ما كان عليه ولم يقتصر تفشى الحشيش على الطبقات الدنيا من الشعب بل تخطاها إلى غيرها من الطبقات حتى شغل بها كثير من العلماء والقضاة بل أفتى بعض القضاة بإباحة أكلها لذلك نظم كثير من أدباء العصر المملوكى أشعاراً الغرض منها إيضاح مزايا الحشيش وتفضيله على الخمر، انظر:

المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٢٦-١٢٩، سعيد عاشور، المجتمع المصرى ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٤) المقريزى، الخطط، ج٢، ص ١٢٦.

(٥) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣٠.

(٦) من ذلك قول الشاعر:

بمصر لأهل اللهو والتبه بركة
وببلغ رطلأكل من رام أرضها
تولع فيها بالحشيش أولو العقل
ومن أجل هذا سميت بركة الرطلى =

فجاءت إليها الناس أفواجاً يتفرجون على ذلك الحشيش وقد وضع من أهله فى محله حتى عد ذلك من النوادر الغريبة وفيه يقول بعض شعراء العصر :

تناهت بركة الرطلى حسناً وصارت جنة فيها عروش
ومنذ زرعوا الشدائق فى ثراها يبدو نسيمها طلع الحشيش^(١)

وقد ارتبطت القنطرة الجديدة فى العصر العثمانى بتعاطى الحشيش حتى أطلق عليها فى ذلك العصر قنطرة الحشاشين^(٢).

وكان المتنزهون على شواطئ النيل والخلجان والبرك وعلى صفحات مياهها وفى البساتين والحقول والضواحي يقيمون الولائم الخافلة ومجالس شرب الخمر، وكان شرب الخمر منتشرأ فى العصرين المملوكى والعثمانى بين الخاصة والعامة^(٣)، وكان كثير من السلاطين وأمرأء المماليك شغوفين بها حتى أن بعض أنواع منها نسب لبعض الأمراء مثل التمر بغاوى والبشتكى،^(٤) بل نجد أن الملك الظاهر يرقوق رتب شرب نوع منها يسمى القمز فى ميدان الرميلى وجعلها من شعائر المملكة أيامه^(٥).

=ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢١١ ومن ذلك قوله الشهاب المنصورى:

كم بالجنينة من قتيل وحشيئة لا يستفيق ولا ينفخ الصور
وهبت له الخضراء من أفعالها أذان أطروش وعين ضرير
وقوله فيها أيضاً

كم بالجنينة من أصم أبكم ورجلاه فى قيد وعينه فى قفل
أشبهه فى خلقه بابن آدم مجازاً وفى أكل الحشيئة بالعجل
يحاول منه الناس رد جوابهم وكيف يرد القول من مات بالقتل
أيصفى بلا سمع أيومى بلا يد أيرئىو بلا عين أيمشى بلا رجل

ابن إياس بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٦١.

وقد قال الأديب شمس الدين محمد بن عفيف الدين سليمان بن على التلمسانى الشاعر المشهور الذى توفى سنة ٦٨٨هـ فى ذم الحشيش وبيان أعراضه السيئة :

ما للوحشيئة فضل عند أكلها لكنه غير مصروف إلى رشده
صفراء فى وجهه خضراء فى فمه حمراء فى عينه سوداء فى كبده

ابن تغرى بردى، النجوم الزهرة، ج٧، ص ٣٨١.

(١) بدائع الزهور، ج٤، ١٥٦. (٢) البكرى، النزهة الزهية، مخطوط، ورقة ٧١.

(٢) انظر بالتفصيل: سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ص ٢٣١-٢٣٣، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ج٢، ص ١٢٢-١٢٣.

(٤) سعيد عاشور، المجتمع المصرى، ق ٢٣١. (٥) انظر ما سبق، ص

وكانت بركة الرطلى من المنتزهات الهامة التى ارتبطت بشرب المسكرات^(١) مثلما ارتبطت بالمخدرات .

وقد ربط المؤرخون أحياناً بين أصل وديانة السكان حول المنتزهات وبين الأمراض الاجتماعية ، فعلى سبيل المثال ذكروا أنه كان يسكن حول بركة الفيل فى خط قبو الكرمانى فيما بينها وبين الخليج الافرنج والكتاب وكانوا يرتكبون من القبائح ما يليق بهم وكانوا لا يراعون للدين حرمة ، واشتهر المكان بالفسق والنجس حتى قام بشتاك بعمل جامعته وخاناته سنة ٧٣٧هـ فبدل الإيمان بالكفر والقرآن بالفسق فاشمئزت قلوبهم لذلك ورحل من هذا الخط أكثرهم لما صاروا يسمعون الآذان وصوت القرآن^(٢) .

على أن هذه الأمراض الاجتماعية وارتباطها بالمنتزهات ما كانت تُترك سدى دون حساب أو رد فعل بوازع دينى أو اخلاقى ، ويعبر لنا «ابن الحاج» عن وجهة النظر الدينية فنراه يشدد على عدم خروج النساء إلى الدور التى على البرك ، وما كان فى معناها ، إذ انها احتوت على جملة من المفاسد منها «ركوبهن إليها على الدواب فى الذهاب والعود على الصفة المتقدمة ومنها خروج بعضهن من البيوت التى هناك على شاطئ البركة متبرجات متزينات مختلطات بالرجال ، وبعضهن يختسلن فى البركة وبعض الرجال ينظرون فى الغالب إليهن وما يفعلن أيضاً من تبرجهن إن كان فى تلك البيوت من ينظرهن من الطاقات وأبواب الريح والأسطحة وغير ذلك ، ويظهرن ما بهن من الزينة وما عليهن من حسن الثياب والحلى وغير ذلك ومزاحتهن للرجال فى الغالب»^(٣) .

وكذلك ينبه «ابن الحاج» على عدم خروج النساء فى أيام الخضير «لأن ذلك الموضع محل

(١) قال الشهاب المنصورى فى ذلك :

تَشْرَبُ أَرْطَالاً عَلَى بَرَكَةِ الرُّطْلَى
لِيَضْرِبَ عُنُقَ الْجَدْبِ أَوْ هَامَةَ الْمَحْلَى
إِلَى النَّبِيلِ تَسْتَحْلِي لِمَاءَهُ وَتَسْتَجْلِي

دَعْوَتِكَ فَانْهَضَ مَسْرِعاً يَا أَخَى الْفَضْلِ
فَقَدْ سَلَّ كَفَ الْخَصْبِ سَيْفَ خَلِيجِهِ
وَقَدْ مَدَّتْ الْأَدْوَا حُفَايَ غُصُونِهَا
وَقَالَ فِي الْجَسْرِ الَّذِي بِالْبَرَكَةِ أَيْضاً :

يَدَايَ عَلَى شَرَبِ الْمَدَامَةِ بِالرُّطْلَى
فَإِنْ خَفْنَا مِنْ وَاشٍ تَسْتَرِنَا بِالظِّلِّ
بِكَثْرَةِ أَجْفَانٍ عَلَى صَحَّةِ الْعَقْلِ

وَبِى لَيْلَةَ بِالْجَسْرِ فِيهَا تَجَسَّرَتْ
وَقَدْ سَنَحَ الْأَرَامُ فِي ضَوْءِ بَدْرِهَا
فَقَمَّ نَجْتَلِيهَا نَ غَزَالَ مَسْلُطَ

ابن اياس، بدائع الزهور، ج١ ، ١ ، ص ٦٠-٦١ .

(٢) الشجاعى، تاريخ الملك الناصر، ص ١٢-١٣ ، المقرئى، الخطط، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣) المدخل، ج١ ، ص ٢٧٠ .

لفرجة الرجال وفسحتهم فكل من تراه هناك إلا وهو رافع رأسه إلى الطاقات والغالب عليهم الزينة والتبرج والغالب على بعض المتفرجين انهم لا يغضون أبصارهم عن المحارم، ولا يفكرون في ذلك بل يرتكبون المحرم جهاراً، فيمشون في زروع الناس قصداً ويتخذونها طريقاً ومجالس وربما عملوا فيها السماع وإنشاد الشعر الرقيق المشتمل على التغزلات التي تميل قلوب الرجال فكيف بالنساء. (١)

كذلك يشدد «ابن الحاج» في منع النساء من الدور التي على البساتين إذ أن في ذلك كشفه لهن اللهم إلا أن يكون البستان لا يدخله أحد إلا بأذنه فهو أخف لأنه إذا أذن في الدخول إلى البستان تمرز مما يتوقعه بخلق الطاقات والأبواب والأسطحة ويمنعن من النظر في ذلك الوقت ويباح له أن يخرج أهله إلى البستان بشرطين وهو أن يكون البستان لا يكشف عليه أحد وأن لا يدخله مع أهله غير ذى محرم. (٢)

وكذلك يشدد «ابن الحاج» في عدم الخروج إلى النهر وإلى الخللجان والقناطر التي كانت متنزعات لما فيه من المفاصد ولا يذهبن إلى هناك إلا بعد التأكد أن موضع الفرجة لا منكرفيه ولا فتنة يتخوف وقوعها، وأما إذا انضم إلى ركوب البحر (النهر) مفسدة فالأولى المنع مثل خروجهن إلى القناطر وغيرها واجتماع الرجال والنساء وما يجري هناك مما يكل السمع عنه، فكيف برؤيته. وكذلك ما أشبهه من كسر الخليج وما يجتمع فيه من الغوغاء وما فيه اليوم من الفتن ويؤول أمره إلى ازهاق النفوس في ذلك من الغرق أو غيره، ويذكر «ابن الحاج» كذلك انه يقع في ذلك اليوم مفاصد كثيرة من قتل وسلب ونهب ولا يحاسب في ذلك اليوم أحد لما جرت به العادة من قبل. (٣)

كذلك يشدد «ابن الحاج» في خروج النساء إلى شهود المحمل حيث يدور في الطرقات وكان ميدان الرميطة هو الموضع الرئيس لذلك الاحتفال لأنه كان يحدث مفاصد كثيرة آنذاك. (٤)

وكان الدولة تتخذ اجراءات حاسمة تنصب على المتفرجين بالمتنزعات والمفترجات وقد ارتبط هذا الموقف المضاد بعدة عوامل أهمها، رد فعل ديني بإيعاز من رجال العلم والدين للحكام نظراً لما كان يحدث بالمتنزعات من مفاصد، وقد ربطوا بين تلك المفاصد وبين غضب الله الذي يتمثل في انخفاض أو ارتفاع النيل عن الحد المناسب مما يسبب مشاكل اقتصادية خطيرة ومجاعات، وكذلك انتشار الأوبئة والطواعين.

(١) نفسه، ص ٢٧١.

(٢) نفسه.

(٣) المدخل، ج ١، ص ٢٧٢.

(٤) نفسه.

بيد أننا نلاحظ ان هذه الاجراءات كانت مؤقتة ومرهونة بظروف الأزمة فإذا زال الخطر عادت الأمور إلى سيرتها الاولى .

وعن رد الفعل للمتنتزهات فى العصر المملوكى ما حدث سنة ٧٠٦ هـ اثناء سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثانية إذ منع الاميران المتحكمان فى الدولة آنذاك بيبرس وسلاز مرور الشخاتير والمراكب من دخول الخليج الحاكى والتفرج فيه ، ويرر «المقرىزى» سبب ذلك بقوله «بسبب ما يحصل من الفساد والتظاهر بالمنكرات الثلاثى تجمع الخمر وآلات الملاهى والنساء المكشوفات الوجوه المتزينات بأفخر زينة من كوافى الزركش والقنايز والحلى العظيمة ويصرف على ذلك الأموال الكثيرة ويقتل فيه جماعة عديدة ورسم الاميران المذكوران لمتولى الصناعة بمصر أن يمنع المراكب من دخول الخليج المذكور إلا ما كان فى غلة أو متجر أو ما ناسب ذلك فكان هذا معدوداً من حسناتهما» .^(١)

وفى أخريات رجب سنة ٧٥٥ هـ هدم الأمير صرغتمش كنيسة شبرا الخيام (شبرا الخيمة) التى بها اصبح الشهيد وأبطل منذ ذلك اليوم الاحتفالات بها وما كان يحدث هناك من موسم قبيح^(٢) .

وعن رد الفعل أيضاً للمتنتزهات ما حدث فى ربيع الآخر سنة ٧٨١ هـ أيام السلطان الملك المنصور على حيث رسم الأمير بركة^(٣) بإيحاء من الشيخ محمد صائم الدهر بعمل سلاسل على أفواه القناطر ، فعملت على فم قنطرة فم الخور وعلى فم قنطرة الفخر بموردة الجبس وعلى قنطرة السد^(٤) لتمنع دخول الشخاتير بالمتفرجين إلى الخليجان وإلى بركة الرطلى للفرجة ووكل لكل قنطرة من يحفظ السلاسل ويسمح بفتحها فقط لمراكب البضائع ، وقد أفاض الشعراء فى تسجيل هذا الحدث فقال بدر الدين ابن الشامية أحد صوفية الخانقاة الركنية بيبرس :

يا سادة فعلهم جميل وما لهم فى الورى وحاشه
هم سلسلوا البحر لا لذنب وارسلوا للحججاز باشا

(١) الخطط، ج٢، ص ١٤٣ ، السلوك، ج٢، ص ٢٩ .

(٢) السلوك، ج٢، ص ٩٢٦ ، انظر بالتفصيل ما سبق، ص ٥١٥ .

(٣) الأمير بركة كان يتولى وظيفة رأس نوبة الأمراء وكان بينه وبين برفوق صراع انتهى بقتله بالاسكندرية فى رجب سنة ٧٨٢ هـ / ١٣٨٠ م ، وكان محباً للعلماء والفقراء وكان له منشآت مائة بالحجاز . انظر ترجمته بالتفصيل فى :

ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج٣، ص ٣٥٢-٣٥٥ .

(٤) لا يزال للآن بشارع بورسعيد (الخليج المصرى) بالسيدة زينب محطة اتوبيس تسمى السلسلة وأغلب الظن انها تسمية متوارثة على المكان حتى الآن .

اشارة بذلك إلى ارسال سودون باشا إلى الحجاز فى هذه السنة لاصلاح الطرق وإجراء الماء إلى عرفه .

وقال الشهابى بن العطار :

اطلقت دمعى على خليج
من رام ينظر إلى عجيب
مذ سلسلوه فصار مقفل
فلينظر المطلق المسلسل

وقوله أيضاً فى المعنى :

حديث فم الخور المسلسل ماءه
الا فاعجبوا من مطلق ومسلسل
بقنطرة المقسى فى سائر الخلق
يقول لقد اوقتموا الماء فى حلقى
وقال البدر البشتكى :

لئن سلسلوا من مصر رأس خليجها
وما قصدوا إلا ليصدق انه
فما ذاك من نقص يلوح لفاضل
يقاد إلى جناتها بالسلاسل
وقوله أيضاً فى المعنى :

قد سلسلو الخلجان فى
ماتم ماء مطلق
مصر فعنها نكبوا
ولا صعيد طيب (١)

وفى يوم الاربعاء ٢٦ جمادى الاولى سنة ٧٨٢ هـ تودى بالقاهرة ومصر ألا يلعب أحد بالماء فى النيروز وهذد من لعب فيه بالماء أن يضرب ويؤخذ ماله فامتنع الناس فيه مما كانوا يفعلونه ووجد أربعة من الناس يلعبون بالماء فى يوم النيروز فضربوا بالمقارع وشهروا (٢)

وفى يوم الجمعة ١٣ جمادى الآخرة سنة ٧٨٢ هـ ركب سلاسل على قنطرة المقسى بخليج فم الخور وعلى قنطرة الفخر برأس الخليج الناصرى بجوار الميدان الناصرى كما عمل فى السنة الماضية ، فامتنعت المراكب التى تحمل المتفرجين وأهل الخلاعة من عبور الخليج وبركة الرطلى فانكف بذلك فساد كبير . (٣)

(١) تاريخ بن قاضى شهبه ، ص ٦ ، المقرئى ، السلوك ٣ ، ص ٣٥٧ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ١٩٣ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، ج ١ ، ص ١٧٠ - ١٧١ ، المنهل الصافى ، ج ٣ ، ص ٣٥٢ - ٣٥٣ ، السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٢٦ ، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .
(٢) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ ، ابن حجر ، انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٢١٧ .
(٣) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٩٤ .

ومن أمثلة مهاجمة المتنزهات كرد فعل لتوقف النيل ما حدث سنة ٧٨٩هـ إذ لم يبلغ نهر النيل حد الوفاء ، وأعقب ذلك الاضطراب والفوضى ، فبادر نائب السلطنة الامير سيف الدين سودون بمهاجمة المتنزهين على شاطئ النيل وقبض على جماعة منهم وويهمهم ثم هاجم أماكن بيع الخمر واستولى على كميات كبيرة ضبطها هناك وأتلفها بالتراب تحت أسوار القلعة .^(١)

ومثال لما يحدث من محاربة للتنزه وبعض البدع ما حدث في رمضان سنة ٧٩٣هـ ، حينما أمر كمشيبغا نائب الغيبة بأن لا تخرج النساء إلى الترب بالقرافة وغيرها ومنع المتفرجين في الشخاتير ومنع النساء من لبس القمصان الواسعة الأكمام وقد أثنى شيخ الاسلام «ابن حجر العسقلاني» على سياسة الأمير كمشيبغا وذكر انه «لم يتمكن أحد في مدة مباشرته الحكم في هذه الغيبة أن يتظاهر بفسق ولا فجور من هيئته» .^(٢)

وكان «لابن حجر العسقلاني» نصيب في محاربة التصرفات الخاطئة منها ما هو مرتبط بالمتنزهات مثل بركة الرطلى والخليج الناصري ، فقد ذكر البكري في كلامه عن بركة الرطلى « . . . وكان يعمل فيها أول يوم من توت أمر غريب وهو أن يجتمع الناس في هذا اليوم ويأتي شخص على صورة قاضى وشاهدين ويجلسوا بقم البركة ويجعلوا نكاح الخليج الناصري على بركة الرطلى فيقع في تلك الليلة من القذف واللهو والإشهار بالمنكرات ما لا يوصف ثم في صبيحة تلك الليلة تأتي جماعات بأنواع من الملاحى في المراكب ويرموا خرق بها آثار الدم ويقولوا قد أفلحت بركة الرطلى من الخليج الناصري ، ويأكل جميع من بها الزلاية فيباع في ذلك اليوم يفوق الألف دينار زلاية ، فحين سكن شيخ الاسلام «ابن حجر» رضى الله عنه على هذه البركة ورأى هذه الكائنة الشيعة قام في إبطالها وذلك في أواخر المائة الثامنة» .^(٣)

ومن أمثلة مهاجمة المتنزهات كرد فعل لتوقف النيل عن الزيادة وقت الفيضان ما حدث في ذى القعدة سنة ٨٠٢هـ / ١٤٠٠ م حيث ركب بعض الأمراء وكسبوا أماكن اجتماع الناس للفرجة ونهوا عن عمل الفواحش .^(٤)

ومثال لبعض المبادرات من كبار الأمراء من مهاجمة بعض المتنزهات دون سبب قوى يستدعى ذلك كتوقف النيل مثلاً ما حدث في رابع عشرين صفر سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١ م حيث خرج الامير بليغا السالمى إلي شبرا الخيام من ضواحي القاهرة وكسر بها من جرار الخمر أربع

(١) تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٩ .

(٢) انباء الغمر ، ج ١ ، ص ٤١٨ .

(٣) البكري ، التنزه الزهية ، مخطوط ، ورقة ٧٣ - ٧٤ .

(٤) ابن اباس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٥٨٩ .

وأربعين الف جرة، وأراق ما فيها، وخرب بها كنيسة للنصارى وعاد فى آخره ومعه عدة أحمال من جرار الخمر فكسرها عند باب زويلة وتحت القلعة. ومن حيثئذ تلاشى حال أهل شبى ومنية السبرج فإن معظم أموالهم كان من عصير الخمر وبيعه. (١)

وفى سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣ م لم يف النيل وحدثت أزمات عظيمة عانت منها البلاد معاناة كبيرة، لذا عندما أوفى النيل فى السنة التالية بأمر السلطان الملك الناصر فرج بن برفوق كسر الخليج بنفسه، وأمر بشبى الحاجب بعمل جسر على فم بركة الرطلى لمنع دخول شخاتير المتنزهين للبركة «فقطع لذة الناس من الفرجة فى تلك السنة» ونسب الجسر إلى شبى وظل معروفاً فترة باسمه. (٢)

وعن مهاجمة المتنزهات كرد فعل لتوقف النيل عن الزيادة ما حدث يوم الجمعة سابع جمادى الأولى سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦ م إذ رسم السلطان المؤيد شيخ للأمير سودون قراصيل حاجب الحجاب بكبس المتنزهات فتوجه الأمير إلى شاطىء النيل وجزيرة الروضة فأحرق ما كان هناك من الأخصاص ومنعهم من الاجتماع لأنهم حسبما ذكر المؤرخون قد أظهروا المنكرات كالزنا واللواط واختلاط النساء بالرجال من غير استئذان وشرب الخمر ونحوها من المسكرات وكانوا يتجاهرون بذلك غير مستحيين، وعندما طردهم الحاجب اضطربوا ونهب بعضهم بعضاً، فقدر الله بعد ذلك وفاء النيل (٣).

وكذلك توقفت زيادة النيل سنة ٨٣٠هـ/ ١٤٢٧ م فأمر السلطان برسبى بمنع المتنزهين على شاطىء النيل وجزيرة الروضة من إظهار المنكرات القبيحة، وعقب ذلك حصل الوفاء. (٤)

كذلك حدث سنة ٨٣٢هـ أن هاجم حاجب الحجاب مواضع الفساد فأراق الخمر وأحرق الحشيش كما هاجم أماكن تجمع النساء. (٥)

وأيضاً لما قل النيل سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤ م وتشحطت الغلال صار الوالى بكسر جرار الخمر وحجر على الحشيش ومنع الخواطىء من عمل الفواحش. (٦)

(١) المقرئى، السلوك، ج٣، ص ١٠٣٠.

(٢) ابن حجر، انباء الغمر، ج٢، ص ٢٨٩، ابن اياس بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٦٩٤.

* وقف وصف ابن اياس بشبى بأنه من الخوارج العال!!.. انظر ترجمة شبى فى النجوم، ج١٢، ص

٣٤٤، الضوء اللامع، ج٣، ص ١٦.

(٣) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٣٥٨، ابن حجر، انباء الغمر، ج٣، ص ٩٣، العيى، عقد الجمان،

(بدون ناشر)، ص ٢٦٣، ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ٢٧.

(٤) المقرئى، السلوك، ج٤، ص ٧٤٨-٧٤٩.

(٥) ابن الصيرفى، نزهة النفوس، ج٣، ص ١٤٤.

(٦) ابن اياس، بدائع الزهور، ج٢، ص ١٦٣.

ولما توقف النيل عن الزيادة فى شوال سنة ٨٦٦هـ / ١٤٦٢م كان رد الفعل الرسمى هو إصدار السلطان خشقدم الأمر بكف الناس عن المعاصى وردع المتجاهرين، فكبس والى القاهرة المتنزهات على الاخص بولاق والجزيرة الوسطى وأمسك جماعة من الرجال والنساء وأركبهم على حمير وشهرهم من بولاق إلى القاهرة ومن جملتهم أحد اولاد قاضى القضاة شمس الدين القاباتى فشق ذلك على الناس فصعد جماعة من الفقهاء إلى السلطان وشكوا والى ولكن السلطان انتصف لواليه وأرسل المنادين لينادوا بالأ يتوجه أحد الى المفترجات والمتنزهات^(١) وكان لبعض الوزراء دور كبير فى الحد من بعض التصرفات الخاطئة فى المتنزهات وعلى سبيل المثال ما ذكره ابن اياس عن الشمس محمد بن البياى الذى تولى الوزارة فى سنة ٨٦٨هـ أنه سكن فى بيت الوزراء ببركة الرطلى وكان متشدداً وكان يكبس البيوت على الناس فى أيام النيل فى بركة الرطلى فمن وجده يسكر إن كان رئيساً صادره وسلب نعمته وإن كان غير ذلك أدبه .^(٢)

ولما توقف النيل فى الحجة ٨٧٠هـ / ١٤٦٥م وقلق الناس لذلك رسم السلطان للقضاة والعلماء بأن يتوجهوا إلى المقياس ويدعو إلى الله بالزيادة، كما قام تمر والى بمهاجمة المتنزهين بجزيرة الروضة وشوش على المتفرجين وأحرق الخيام التى كانت هناك وضرب منهم جماعة وكان يوماً مهولاً ، ثم زاد النيل بعد ذلك وكان الوفاء فى محرم^(٣) .

وفى صفر ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م لم يزد النيل فرسم السلطان للوالى أن يتوجه إلى الروضة ومصر ونادوا «ان لا يفعل منكرا ومن وجد عنده شىء من المنكر ينكل به»^(٤)

وفى شهر جمادى الاولى سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م توقف النيل عن الزيادة فرسم السلطان الغورى لحاجب الحجاب ووالى القاهرة بأن يتوجهها ويكبس على المتفرجين الذين فى الخيام بالروضة فتوجهوا إلى هناك وخرقا بعض الخيام وأمر الناس بالكف عن المعاصى والفسوق^(٥)

وفى سنة ٩٢٢هـ لما كان جيش مصر بقيادة السلطان الغورى على وشك المعارك مع العثمانيين بقيادة السلطان سليم الاول، «فان الأمير طومان باى الدوادار نائب الغيبة منع الناس من السكن بجسر بركة الرطلى وفى المسطاحى، ومنع المراكب من الدخول فى بركة الرطلى

(١) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور ج٣ ص ٤٢٤-٤٢٥، ابن اياس، بدائع الزهور ج٢، ص ٣٩٤-٣٩٥.

(٢) بدائع الزهور ج٢ ص ٤١٦.

(٣) بدائع الزهور ج٢ ص ٤٤٠-٤٤١.

(٤) ابن الصيرفى انباء الهصر ص ٥٥.

(٥) ابن اياس، بدائع الزهور ج٤ ص ٢٣١.

ولا في الخلدجان قاطبة، وعمل جسر على خليج الزربية عند قنطرة موردة الجبس، فآل أمر الجزيرة الوسطى إلى الخراب ولم يسكن بها بيت ولا فتح بها دكان ومنع المقاصفية الا ينصبوا مقصفا في الجسر ولا في الزربية، وصارت بيوت بركة الرطلى خاوية على عروشها لا سيما بيوت أولاد الجليعان وبيت كاتب السر وغير ذلك من بيوت الأعيان، فحصل للناس في هذه السنة غاية الإنكاد بسبب ذلك وخسروا الناس كرى بيوتهم وأشيع بسد خوخة الجسر، فتلطف القاضى بركات بن موسى المحتسب بالأمر الدوا دار على أن يسمح في دخول المراكب على العادة وأن يسكن الجسر فأبى ذلك وقال إن العوام يفسدون نساء الأغوات المسافرين صحبة السلطان في هذه النيلية واستمر مصمما على منع ذلك، ثم في أواخر النيلية شفع القاضى بركات بن موسى في خمس مراكب للبياعين بأن يدخلوا في البركة على العادة فدخل الحلواني والجبان والفكهاني والعداس والسويخاني لا غير فأقاموا أياما يسيرة فلم يجدوا من يبيعون عليه فمضوا حال سبيلهم، واستمرت بركة الرطلى ليس فيها ديار ولا نافخ نار^(١) فعند ذلك عمل فيها الشيخ بدر الدين الزيتوني مريثة لطيفة في واقعة الحال.^(٢)

واستمر الولاية في العصر العثماني يكبسون المتنزهات عقب توقف النيل عن الزيادة في أيام الفيضان، وقد حدث مثل ذلك في شهر رجب سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م واضطربت احوال الناس في تلك الأيام وتشحطت الغلال، فعند ذلك رسم ملك الأمراء (خاير بك) للوالى أن ينزل ويكبس الروضة، فنزل هو وجماعة من الأمراء العثمانيين وكبس الروضة وفك الخيام التي كانت بها، وأشهر المنادة هناك بأن أحد لا يتجاهر بالمعاصي ولا يجمع جموعه ولا ينصب خيمة على شاطئ البحر ومن يفعل ذلك شق على باب داره من غير معاودة في ذلك فانكف الناس عن التجاهر بالمعاصي في الروضة فنزل في ذلك اليوم غالب الناس من الروضة^(٣)

وحدث نفس الشيء العام التالي أى في رجب سنة ٩٢٥ حيث استمر النيل في التوقف فأمر ملك الأمراء بإبطال المحرمات من النبيذ والحشيش والبوزة ومنع بنات الخطا من عمل الفواحش - ثم أن الوالى قبض على امرأة يقال لها أنس وكانت ساكنة في الأزبكية تجمع عندها بنات الخطا اللائى يقترفن الفاحشة وكان عليها مبلغ مقرر ترده في كل شهر للوالى وكان أمرها مشهورا فرسم ملك الأمراء بتغريقها هي وامرأة أخرى يقال لها بدرية زوجة شخص من الناس يقال له البغضى كانت ماشية على طريقه أنس هذه في جمعها للبنات الخاطئات فلما قبض الوالى على أنس توجه بها إلى قصر ابن العيني في المنشية وغرقها هناك بعد العصر واجتمع كم

(١) ابن اياس، بدائع الزهور ج ٥ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) انظر نص هذه القصيدة نقلا عن ابن اياس في الملحق رقم

(٣) ابن اياس، بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٦٧ .

غفير من الناس للفرجة عليها وكان يوما مشهودا فغرقت على النداء والاجهار وأراح الله تعالى المسلمين منها وظهرت الارض منها^(١)

وكان للوالى حسين باشا الدالى^(٢) دور فى محاربة الفساد بالمتنزعات مثل مهاجمته أخصاص الخاطيات ببركة الشيخ قمر (المجاورين)^(٣)

وكان يحدث بالمقياس احتفال كبير لمدة اسبوع متواصل أيام وفاء النيل فى العصر العثمانى ولكن «احمد شلبى ذكر بمناسبة كلامه عن توليه حسن باشا السلحدار محافظة مصر سابقا ٢٥ شعبان ١١١٩ إلى ٩ رمضان ١١٢١ هـ/ ٢١ نوفمبر ١٧٠٧ الى ١٢ نوفمبر ١٧٠٩ م)» وفى يوم الخميس أوفى النيل رابع مسرى، وهو آخر سنة المقياس، الذى كانوا يعملوه الينجشيرية، سبعة أيام، عند نزح الفسقية التى للمقياس، وكان جميع أهل القاهرة يهرعون وجميع الصناجق والأغوات وشيخ الاسلام والوزير وكان يصرف فيه مال كثير، وكان دائما على كل من كان باش جاويش وكان جميع الاكابر والتجار يهادوه فى عمايل ذلك الاسبوع الذى لم يكن يوجد له نظير فى الدنيا فأبطلوه من سنة ١١٢١ هـ^(٤). ولكن الجبرتى يذكر أن هذا حدث نظرا للفتن القائمة حينئذ^(٥) وكان لبعض الامراء دور فى محاربة أمور الفساد التى حوت على كثير منها المتنزعات مثلما قام الامير على أغا سنة ١١١٥ هـ حيث هجم على «الخمامير وأماكن الخطا وغيرها» وهدم بوظة الكوم التى قصاد الشيخ الطيبى وبطل الخواطى ودخل مصر القديمة فأخرج من كان فى دار النحاس من المتسبين وسمرها وكانت أولاد البلد تعمل أنس وصفا فى الروضة والمقياس وتأتى دار النحاس وكان بها طابونة وزيات وقلاسمك وكبابجى وبوظة وخمارة وخواطى حسان أبطل ذلك كله، وأخذ حسن اغا النجدلى، عمله بيت ببستان عظيم وركب على أغا من مصر القديمة وفات من قصر العينى هدم عيش النخل القصير وأبطل منه الخواطى ودخل بموكبه من الناصرية^(٦).

ومن الامراء الذين كان لهم موقف مضاد للمتزهين على بك الكبير حيث يذكر «الجبرتى» أنه قام بسد بوائك قصر السيد ابراهيم بن السيد سعودى اسكندر المطل على بركة الازبكية ومنع الناس منها لما كان يقع بها فى بعض الأحيان من اجتماع أهل الفسوق والحشاشين^(٧)

(١) نفسه، ص ٣٠١.

(٢) تولى على مصر من ٥ رجب ١٠٤٥ هـ الموافق ٢٥ ديسمبر ١٦٣٥ م حتى جمادى الآخرة ١٠٤٧ هـ الموافق ٦ سبتمبر ١٦٣٧ م

(٣) البكرى، التزهة (مخطوط) ص ١٤٤، الروضة المأنوسة (مخطوط) ص ٣٦.

(٤) أوضح الإشارات ص ٢٢٥. (٥) عجائب الآثار ج١ ص ٦٣.

(٦) الدرمداش، الدرة المصانة ص ٦٨. (٧) عجائب الآثار ج٢ ص ٥٦٧-٥٦٨.

ويذكر لنا «الجبرتي» أيضاً أنه حدث يوم السبت ٢٤ من شوال سنة ١٢٠٠ هـ «نادوا على النساء بالمنع من النزول في مراكب الخليج والأزيكية وبركة الرطلى» (١)

رابعاً: المتنزهات والأدب

كانت المتنزهات عامل جذب هام، ومصدر وحي والهام، لبيدع الأدباء والشعراء أحسن الكلام، حيث انطلقت قرائحهم في مجال وصف المتنزهات وتصوير الحياة الاجتماعية بها فسمت كتاباتهم عنها فوق ما كتبوا في باقي الألوان الفنية الأدبية

وقد نظم الشعراء الأشعار العديدة في المتنزهات باللغة الفصحى واللغة العامية، وكتب الأدباء النثر بكافة أشكاله، فقد كتبوا المقامات والرسائل وكذا المناظرات والمفاضلات بين المتنزهات بعضها البعض، وسأقدم نماذج منها في الصفحات التالية (٢)

(١) نفسه ج١ ص ٦٣٦.

(٢) وصف بعض النقاد الأدب في العصرين المملوكي والعثماني بالضعف والانحطاط والركاكة وحذى حذوهم الكثيرون، وبالرغم من أن الخوض في هذا الموضوع بعيد عن مجال دراستنا وبحثنا إلا أنني أريد أن أشير إلى أن هذا الحكم به كثير من التجنى، فمن الخطأ تعميم هذا الحكم على أدب عصرين كبيرين من خلال دراسة سريعة غير متعمقة، لأننا وجدنا أن المخطوطات المملوكية بصفة خاصة وبعض المخطوطات العثمانية لا تزال تحوى الكثير من ألوان الأدب صادقة التعبير وجزلة اللفظ لم ترحلها من النشر. ومن حجج أصحاب الرأي القائل بضعف الأدب هي الإسراف في صور البديع، معنوية وحسية وتنوع ضرويه وهيئاته متناسين أن مثل هذا الشكل كان يعجب الذوق العام والخاص في تلك الأيام، وكانوا يطربون لتلك الصور، ولهذا تنافس الأدباء والشعراء في هذا الشكل حتى بلغوا مرتبة كبيرة في ذلك ينم عن مقدرة أدبية كبيرة وصناعة محكمة، لأن الحياة المادية في العصر المملوكي اتسمت بالتزخرف والتبهرج الكبير، فمن باب أولى أن تتزخرف اللغة أيضاً، وهذا يتأتى عن مقدرة لا عن ضعف لذا استساغه الناس في زمنهم ولم يتسبغوا البعض في زماننا لأن لكل عصر ظروفه ولغته وفنونه وآدابه.

كما نجح الأدباء والشعراء في العصرين المملوكي والعثماني في تناول أشكال الحياة اليومية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية في نثرهم وشعرهم مما يفيد في دراسة التاريخ.

وبالرغم من وجود كم كبير من الأدب مكتوب باللغة العربية الفصحى، وآخر مكتوب باللغة الدارجة، فإننا نجد من مميزات العصر المملوكي نجاح الأدباء في التقريب بين اللغة الفصحى والدارجة في بعض كتاباتهم، ونتيجة لهذا التمازج بين العامي والفصيح أن أصبح الأدب قريباً إلى الشعب ملتجماً بحياته وظروفه لذا نبغ بين طبقات العوام أصحاب الحرف كثير من الشعراء والأدباء مثل الجزار والوراق والحمامي والصايغ والخياط والطار والكحال.

انظر بالتفصيل: محمد زغلول سلام، الأدب في العصر المملوكي، ص دار المعارف بمصر، أحمد صادق جمال، الأدب العامي في مصر في العصر المملوكي، الدار القومية للطباعة والنشر، ١٩٦٦ م. محمد سيد كيلاني، الأدب المصري في ظل الحكم العثماني، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٨٤.

من أمثال المقامات التى قبلت فى المتنزهات فى العصر المملوكى اقتطف فقرات من مقامة الشيخ شمس الدين محمد بن أبى بكر القادرى التى سماها «عرف الروضة الذكية فى وصف محاسن الأزبكية»^(١)، والتى كتبها عقب عمران أزبك للأزبكية، ومنها وصف الجامع وصفا طريفا قال فيه: «... أعمدته كشموع كبيرة ناصعة البياض، ورخامه المديح قد استعار من البستان خضرة رياضه، ومن الليل والنهار لون سواده وبياضه، وكأن شرفاته المرتفعات حسان نساء فى أزهرن متربعات، وكأنه فى الليل البدر غير محتجب، سراق من الفضة قد ضرب...»^(٢)

ثم أخذ فى وصف منشآت الأمير أزبك حول البركة بأسلوب بليغ تحايل فيه ببلاغته على وصف تفاصيل العمارة الاسلامية أبلغ وصف^(٣)، فمن وصفه لقاعات القمر ورخامها قال «وافتخرت على البقاع بقاعاتها التى هى كجنان تجري من تحتها الأنهار، تطرد بها أناء الليل وأطراف النهار، من كل شاذروان تقربه العينان، إذا انكسر ماؤه وانسكب، تسلسل كالفضة على أرض من ذهب، وقام بعد تكسر يجرى فى أخدود، يسر الوارد عند الورود، ينتهى من تلك الأخاديد إلى فساقى، تسعى لسقيها عند الورود ألف ساقى، وتلك القاعات بها رخام ملون، كأنه من بديع الزهر قد تكون، فكان بستانها أهدى لرخامها من رياضه حللا، محكمة النسيج لا ترى خلالها خلا.

وكل فيت يفضح الشموس والأقمار بقمرياته، ويدهش العيون إذا نظرت إليه بحسن دهاناته، إذا قابلت قمرياته الشمس إذا بزغت والقمر إذا طلع، يظنان أن قوس السحاب وقع عليها لجة إياها وقطع، يقابلها الدهانات البعلبكية، التى تدهش العيون برؤيتها السنية، وشى كالنقش الأخضر على ترائب الأتراب الحسان، إذا رآها الإنسان أذكرته رياض الجنان، فبهجة الأنس عن مناظرها غير غائبة، وجسم جمال النقش يكاد أن يتحرك بروح حسنة وعروقه اللاعبة^(٤)، وتظن رخامها الملون فى حسنه من زهور الرياض، وأسوده فى أبيضه كسواد العيون منها فى البياض، وإذا قرأ القارىء الذى من سجيته الطرب، تكاد سقف تلك القاعات تنقطه من مكارم منشيها بالذهب».

ثم وصف الحمامات بقوله: «... يالها من حمامات يستوقف الناظر حسن رخامها

(١) نقل هذه المقامة «ابن اياس» فى كتابه «نزهة الأم فى العجائب والحكم»، (مخطوط)، ص ٢٤٦-٢٥٥.

(٢) ابن اياس، نزهة الأم (مخطوط)، ص ٢٤٨.

(٣) هنا تعبير المرحوم «حسن عبدالوهاب» فى مقاله «تخطيط القاهرة وتنظيمها منذ نشأتها»، ص ٤٠.

(٤) استعمل الأديب الألفاظ الوثائقية لوصف الآثار مثل الدهانات البعلبكية والقمريات والعروق اللاعبة مما يدل على شيوع هذه المصطلحات فى لغة الكتابة.

الوسيم ، ويستوقف الأسماع صوت مائها الرخيم ، وتحير في حسن بهجتها النظر ، إذا
أشرفت أقمار جاماتها بالنهار . . . » .

ثم وصف البركة بقوله : «إنها بركة محفوفة بالمفترجات والمناظر ، تتراح إليها النفوس
وتقربها النواظر ، فهي بركة أنيقة المنظر ، صافية المخبر ، أرضها كالعنبر ، وعرفها كالمسك
الأذفر» . (١)

ثم وصف الحداثق حولها وما يتم به من حفلات تطلق فيها الألعاب النارية بقوله : «كأنى
أراها حين سعى الناس إليها من كل مكان في ليلة أحرقت مردة الهموم ، بشهب من نيران
النفط كالنجوم الرجوم ، فبينما الناس في لهو وفرح ، وبسط من الأنس ومرح ، إذ أطلع فلك
السماء الماء فلما تحمل أشجاراً من نار ، يقذف النفط منها أنواعاً من الأزهار ، من مفضض
ومذهب ومدبج من ألوان اللهب ، وأسهم تنسب مع إصابتها إلى الخطأ ، وضوء شمس
يكشف عن وجه الظلام الغطا ، في ليلة ينجاب عن وجهها الظلام ، وشاهد الناس فيها
العجب ، لما اصططح الماء مع اللهب ، وطار على وجه الماء فراس من ذهب ، ودارت بأكف
اللاعبين دواليب من نار ، من غير رياش تدور على قلب ولا زنار ، فيالها من نار أثلجت
الخواطر ، وأقرت برؤيتها من الحاضرين كل ناظر . (٢)

ثم استطرده في وصف البركة فقال :

« . . . زادت على بركة الرطلى قناطير بقناطرها ، وزهت عليها حسناً للناظرين بمناظرها ،
فهى فى الارض لكثرة الخلق كالسماء ذات الحُبك ، وإذا كررت النظر فى منظرها العجيب
يعجبك ، فيالها من بركة ماؤها بتجعيد الرياح كالمبرد يجلو عن القلوب الصدا ، ويرد العيون
مد مائها الأسيل فلا يزال بالعيون مورداً ، إذا افتخرت السماء بنجومها وسماكها افتخرت
سماء مائها ، بكواكب اسمائها ، وان افتخرت بشموسها وبدورها ، افتخرت بشموس حسانها
وبدورها ، فهى فى زمن النيل بمناظرها كالسماء ذات البروج ، وفى زمن الخريف ذات شطوط
ومروج ، فإذا نضب عنها الماء خرج من سجن طينها من زغب الحب ما كان من المحابيس ،
وبرزت فى حلال من زهر الربيع كأذنان الطواويس ، يالها من بركة إذا رآها الناظر أعلن
بالتهليل والتكبير ودعا بطول البقاء لمنشأها الأمير الكبير» . (٣)

وختم هذا الوصف بما كانت عليه حوانيت التجارة حولها من رواج يشبه رواجها الحالى .

(١) ابن إياس ، نزهة الأمل ، ص ٢٥٢ .

(٢) ابن إياس ، (مخطوط) ، ص ٢٥٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٢٥٣ .

ومن المقامات التي قيلت في المتنزهات المقامة التي كتبها الإمام السيوطي وسماها «بلبل الروضة» وقد تعرض فيها لمحاسنها وما ضمته من آثار، ومقارنتها بالمتنزهات الأخرى ومنها تقتطف تلك الفقرات^(١) :

«... روضة ذات محاسن، فيها أنهار من ماء غير آيسن، وأشجار تنبت أفانين الأحاسن، وأزهار ما بين مفتوح العين ووسن، وأطياف ترغم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن، روضة أريضة، عيون أزهارها مريضة، وأنواع البركات من نهرها مفيضة، روضة هي مجمع البحرين ومختار يقابل مجمع البدرين، ومنهاج يسير فيها كل في فلك من النواعير ويدور، فهى على كل الاحوال ذات النورين، ومطلع البدرين، ومنازل الفرقدين، لم يقر غيرها بحسن إلا وكان لها منه قسم قسيم، ولم تقابل وجوه المناظر إلا وكان وجهها وسيم، فلا غرو إن كانت ملكة المتنزهات، فإنها أوتيت من كل شئ ولها عرش عظيم»^(٢).

«... ان فاخرتها مصر بأنها القديمة قالت أنا الجديدة، ولكل جديد لذة، أو ناظرتها الجزيرة الوسطى قابلتها بالكسر وقالت أنا فى ملازمة النيل الفردة البزة، وإن تطاولت نحوها الجزيرة الكبرى أعرضت عن القليل والقال، وقالت إنى يقاس بخرطومى المشتهى زلومة الفيل، وإن قال التاج أنا المرفوع على الرؤوس قالت أنا عروسة الحسن، لا سهما فى عرس النيل، والتاج فى خدمة العروس، وإن قالت السبعة أوجه لقد تعددت منا الوجوه والمناظر قالت رب واحد كآلف أو يزيد عند المناظر»^(٣).

«كأنها بدر والنيل حولها هالة أو شمس فى وسط السماء ليس عليها سحابة أو غلالة، أو وجه دار عليه طيلسان أو سرير ملك نصب فى ميدان، أو قلب جيش له مصر والجزيرة جناحان، ومسكن علماء أعلام، ومجلس قضاة وحكام، ومقر صلحاء وعباد ومقر صوفية وزهاد. وكم سكن بها من ملوك وخلفاء، وأمراء وكتاب ورؤساء، ووزراء وقراء وأولياء، وفقراء وأغنياء، وأذكيا، وذوى هيئات وأتقياء، وتلاوة قرآن، وتدريس وأفنان، وشعائر وأذان، ونغمات والحان، وقضاة أوطار، وضربات اوتار»^(٤).

... يؤكل فيها حيوان البر زكيا وصيد البحر طريا، وثمر الاشجار جنيا، ويشرب فيها الماء من شوائب الاقدار عريا، ويمر فيها النسيم صحيحا عليلا، فيبرىء من الأسقام عليلا، ويشفى

(١) نشر هذه المقامة د. نبيل عبدالعزيز فى كتيب صغير بعنوان «بلبل الروضة»، مكتبة الازهر.

١٩٨١، ص ٤٤-٢٣، وهى أيضا ضمن كتاب كوكب الروضة للسيوطى.

(٢) السيوطى، بلبل الروضة، ص ٢٤-٢٧.

(٣) نفس المصدر، من ص ٢٧-٢٨.

(٤) نفس المصدر، من ص ٢٩-٣٢.

من الأورام غليلا، ساكنها قد وقي السموم والحرور، وأعفى من شعث الكيمان والبرور. ويحيط بأرجائها النيل وما أدراك ما النيل، سيد الانهار والمسخر له جميع مياه الأرض تده في الزيادة كما ورد في الآثار؛ إن أصل منبعه من الجنة، وسمى في القرآن باسمه دون غيره، ونطقت به السنة، وهو في الجنة نهر العسل، ويرفعه جبريل عند رفع القرآن ومن لم يعرف فليسأل، وهو الذي كاتبه «عمر بن الخطاب» لما حمل أهل مصر الاصر، فكتب له بطاقة صدرها «من عبد الله عمر بن الخطاب إلى نيل مصر». (١)

« . . . وتختص الروضة من بين سائر الأقطار بيوم هو لها يوم عيد، طالعها في برج السنبلة والحوت للمشتري سعيد، وهو يوم الزينة، وما أدراك ما يوم الزينة، يوم يحشر له الناس، ويحج به الى المقياس، وتطيب من تخلية الأنفاس، ويسبل فيه ستر الوفاء بالعفو وفي الحقيقة خلعة رضا ولباس، وتكمد الحساد، وتجتمع الاضداد، فيحصل الصفاء إذا انكدر، والجبر إذا انكسر، وبلغ الخلق من النيل غاية النيل، ويسحب الماء على بساط الأرض الذيل، ويركب إليه الملك والجنود، وتعد له الأولوية والبنود، ويكون من ماءه ولونه المحمر الورود، ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود، وله في كل سنة أجل محدود». (٢)

وكانت المفاخرات والمناظرات بين المتزهات لونا أدبيا شيقا لما حوته من صور بيانية بديعة، إلى جانب ما حوته من معلومات تفيد في دراسة الحياة الاجتماعية التاريخية ومن أمثلة ذلك تلك المفاخرة بين بركة الرطلى والجسر عليها. (٣)، ومنها أيضاً مفاخرة بين جزيرة الروضة ومصر وهى من انشاء الشريف صلاح الدين محمد بن ابي بكر، ونقطتف منها بعض الفقرات. (٤)

« . . . فقالت مضر بسم الله تبركا لفظا ومعني، أنا القديمة مثنا، والذي اذا عدت أوصاف غيرى من البلدان فرادى جاءت محاسنى مثنى مثنى، لى سمعة فى الجاهلية والاسلام، وإذا حل فى حال دام الأمن بسلام، وشبه بعض السلف خلق الدنيا بالطير، وإنى الصدر، وحسبك هذا التشبيه رفعة فى القدر، فخري على البلاد، كفخر العلماء على العباد، وذكرى فى كل ناد، بين حاضر وباد، أنا نزهة النفوس، ومطلع البدور والشموس، وإذا بدا زمن الربيع فترانى كالعروس، وحبذا بساتينى المفضنة بكل عصر طایل ونيلى الجارى كالسكر المذاب النایل، وأحسن بقول القائل:

(١) السيوطى، بلبل الروضة، ص ٣٦-٣٩.

(٢) نفسه، ص ٤١-٤٤.

(٣) انظر تلك المفاخرة كاملة فى الملحق الأول.

(٤) نشر السيوطى المقامة كلها فى كتابه كوكب الروضة (مخطوط) ص ١٦٦-١٦٩.

ارض مصر فتلك ارض من كل فن بها فنون
ونيلها العذب ذاك بحر ما نظرت مثله العيون

فقال الروضة: « الحمد لله علي هذه المسرة ثم الحمد لله الذى أظهر محاسنى ، بشهادة الضرة وأقر كل لسان بمن رأي بآنى لانشرح القلوب مقرة ، أنا للجموع راقية ، وبأنواع الفرح والخير قانصة ، ولموج الحرث الزى مثل الجبال غايصة ، أزهارى بطيها تفوح ، وبألوانها المعجبة تنبهرج وتلوح ، وأغصانى تتمايل طربا إذا فاخر ضدضده ، أنا العروس بالتحقيق فى زمن الربيع ، أنا زهرى الباسم الناسم ، وتلوينه البديع ، أنا لساكنى من الوشاة والرقباء والأعداى لاسيما فى أيام النيل حصناً منيعاً^(١) .

« . . . فقالت مصر للروضة : « الآن حصحص الحق ببيانها ، وظهر كتمانها أسأت بهذه المقابلة ، وكيف لك بالمطولة ، أنا فضلى مذكور ، وصيتى غير منكور ، ودلىلى القاطع كالسيف عند أهل العلم مشهور ، ذكرت فى أربع وعشرين موضعاً من التنزيل ، منها أربعة صريحة وباقيها بتأويل ، ووردت الأخبار بسندها فى بصحة الأقاويل ، شهد لإجماع بفضللى ، وللى الآثار الجميلة والجامع العتيق كعبة للمصلى ، وأنا مأوى التنزيل من أبناء السبيل والعالم والصالح والمتولى ، وكم للنزهة والتعب عندى من زاوية ، وكم فقير بالبحر من زاوية ، لطفت أبنائى فوصفوا بالركة والصفا ، وتمازجوا بحلاواتهم حب الوفا ، فقل عنهم ما ليس فيه خفا :

حبذا الفسطاط من والده جنبت أولادها در الجفا
والنيل يأتى إليها كدرا فإذا مازج أهلها صفا

فقال الروضة : « تبرهن البرهان ، وبان البيان ، قال الله عز وجل « فى روضة تحبون » ، وقال تعالى « فى روضات الجنات لهم من يشاءون » ، وحسبى بهذا دليلاً إذ كثر المكثرون وإن لم أكن تلك فى المعنى والعيان ففيه تشبيه لى بأحسن الجنان ، وهو من أقوى الدلائل على تفخيم الشأن ، فإذا شهد بفضلك الإجماع فأنا كذلك وأزيد عليك بالقياس ، وعرفت على الحقيقة بالوفا دونك بالابتناس ، واشتهر افتخارى يوم الزينة على العاصى وغيره من الناس ، وإن كان لك جامع فى الزيادة ، وأثار جميلة ، فكم الأصابع زيادة ، أياها عيد وهى عادة^(٢) .

وفقالت مصر « أنا مدينة الكسب والمعاش وللمقيم بى إقامة حال معاش ، ومعدن المتاجر والمتاجر وذوى الرياش أنا مستودع نفائس الأموال وحواصل أربع من رباعى للأحبة مربع ، ومخلص بالمضطر فى بيوتى عند كل مطلع ، وفى كل ناحية منى للممتزح مرتع ، قالت الروضة :

(١) السيوطى ، كوكب الروضة ، ص ١٦٧ . (٢) السيوطى ، كوكب الروضة ، ص ١٦٨ .

ان كان بك غلال فكم بك من مغلول ، وعلى تنفق الأموال وتروح الأرواح فلك الحاصل ولى المحصول»^(١).

والمخطوطات تحتفظ بأمثلة عديدة من تلك المناظرات والمفاخرات كما حرص الأدباء على ذكر المتنزهات فى أدب المراسلات فى العصر المملوكى من أمثلة ذلك ما كتبه المؤرخ بن حبيب (توفى ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) فى مراسلة إلى بعض أصحابه بحلب ذكر فيها «وأما ديار مصر فإنها نعم الديار ، وهى كما قيل شرك النفوس وعقلة الأبصار ، تولد حيرة العقول بحسن حورها وولدانها ، وتقرط الأسماع بنغمات أطياف قرطها وكتانها ، وتجدد الأفراس بمقطعات نيلها ، وتتقرب بسائر التزه إلى قلب نزيلها ، ما أحسن جيزتها التى جازت الحد سيوف لهوها اللماعة ، وأعطر روضتها التى لم يزل منصوباً بها منبر الخلاعة . يحلو لطرف المتنزه بها اجتلاء جلاها ، ويجود ما تشتهى الأنفس وتلذ الأعين مشتهاها ، وأما البحر فحدث ولا حرج ، واركب فيه باسم الله تظفر بكل مطلوب من الفرج ، كم لأصابع مقياسه على الخلق من الأيادى . وكم لخلجانه من منهل يرده الرائح والغادى ، وكم له من منظره عالية تقول هل من مناظر ، وزربية عيون شبابيكها ناظرة إلى كل روض ناضر ، وعلى الجملة فإنه بحر تعجز عن حصر محاسنه ألسن الأقلام .»^(٢).

ومن الألوان الأدبية التى كانت مرتبطة بوفاء النيل رسائل البشارة التى كانت تصدر عن ديوان الإنشاء وهذه البشارة من خصائص الديار المصرية لا يشاركها فيها غيرها من الممالك «وقد حرص حكام مصر من قديم الزمان أن يكتبوا البشارة بوفاء النيل إلى ولاية الأعمال اهتماماً بشأن النيل واطهاراً للسرور بوفائه الذى يترتب عليه الخصب الذى يؤدى إلى العمارة وقوام المملكة»^(٣).

ونالت جزيرة الروضة حظاً موفوراً فى سجلات الأدب والأدباء فى العصر المملوكى بصفة خاصة بصفتها عروس المتنزهات والمفترجات .

ونقتطف بعضاً من الأشعار التى قيلت فيها مثل قول الشاعر المتصوف محمد بن وفا الذى كان يسكن فيها فأضفى عليها من روحانياته وصوفيته جملة معانى ، فقال :

رأيت رياض القدس فى روضة الرضا على نيل مصر بين تلك المناظر
مناظرها للناظرين مشارق وفيها وجوه كالبذور البوارق^(٤)

(١) نفس المصدر ، ص ١٦٩ . (٢) ابن حبيب ، تذكرة النيه ، ج٢ ، ص ٢٧١ .

(٣) القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج٨ ، ص ٣٢٨-٣٣٠ ، قاسم عبده قاسم ، النيل ، ص ١١٣ .

* وانظر نماذج من البشارة فى الملحق رقم ٣ .

(٤) محمود رزق سليم ، النيل فى عصر المماليك ، ص ١٤١ .

ويزهر البدر البشتكى بمصر بسبب منتزهاتها فيقول :

من روضة المعشوق فى عشاق	انظر إلى مقياس مصر وغن لى
يقضى على الأوصاف باستغراق	وافخر بمصر على البلاد فنيّلها
دار دوائره على الأسواق	وتخلخلت منه الغصون ومذعلا
كانت نجوم السعد فيه رفاقي	لله فى أفق الجزيرة ملعب
تملى عليه مصارع العشاق ^(١)	حيث الصبا تصبى اللبيب لأنها

ويرسم لنا الشاعر ابن أبى حجلة^(٢) صورة لجزيرة الروضة وقد علت سماءها غيوم والسفن تتسابق حولها فيقول :

ندّ يلوح لنا بأفق المجلس	أو ما ترى غيم السماء كأنه
وكسا خمائلها رياض السندس	والروضة الفيحاء باكرها الندى
قد أقبلت مثل الجوارى الكنس ^(٣)	والسفن تبدو كالعرائس حولها

ويرسم لنا الشاعر أيضا صورة لجزيرة الروضة مفعمة بمجالس الطرب والموسيقى وسط طبيعة ساحرة من الأزهار يحيط بها النيل فيقول :

ورقاء قد غنت على العيدان	وكاننا فى روضة المقاس والـ
أرأيت أعجم معرب الألحان	وشدت بلحن معرب فاعجب لها
والزهر منه مرصع التيجان	فالطلُّ درُّ قد تناثّر عقده
والريح تصقله بغير توان ^(٤)	والبحر قد رقت حواشى برده

ويصور لنا الشاعر عز الدين الموصلى جزيرة الروضة فى صورة جمالية متعددة الرؤى فقال :

(١) محمود رزق سليم، النيل فى عصر المماليك، ص ١٤١.
 (٢) ابن حجلة هو شهاب الدين أحمد بن يحيى بن أبى بكر بن عبد الواحد المغربى (٧٢٥ - ٧٧٦هـ)، محدث، فقيه، نحوى، أديب. انظر: الزركلى، الاعلام، ج١، ص ٢٥٥.
 (٣) محمود رزق سليم، النيل فى عصر المماليك، ص ١٤٢.
 (٤) نفسه، ص ١٤٣.

روضة نقشتها للحيا إبر
مثل السوار لها سرو احاط بها
أو كاخلل خيل للأرواح دار على
تحت الرياض غياض دبجت فبدت
أغصانها الند والأوراق سندسه
والزهر بين شعاع الشمس تحسبه
والظل ثوب إذا مر النسيم به
ونهرها زائد بالخصب يؤذنا

فأصبحت بين تطريز وتزهير
من سلسل هي منه ذات تسوير
سوق لها مطلقا في زى مأسور
ألوانها ذات تشهير وتشذير
والزهر عرق ياقوتًا ببلور
دراهمًا نثرت بين الدنانير
فالروض ما بين مهتوك ومستور
كصارم في سبيل الله مشهور^(١)

ومما قيل في مصر وبه ذكر الروضة، قول الشاعر ناصر الدين أبو بكر العيذراوى :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما
فأولادها الولدان من نسل آدم
هى الجنة العليا لمن يتفكر
وروضتها الفردوس والنيل كوثر^(٢)

ومن المقطعات الأدبية فى الروضة والمقياس والمشتهى، قال ابن الصايغ الحنفى^(٣) :

وليلة مرت بنا حلوة
لا يبلغ الواصف فى وصفها
ان رمت تشبيها بها عبتها
حدا ولا يلقي لها منتهى
بت مع المعشوق فى روضة
ونلت من خرطومه المشتهى^(٤)

ومن المقطعات الأدبية فى جزيرة الروضة والمقياس، قال الشيخ برهان الدين القيراطى^(٥)،
وقد جمع متزهات الروضة مثل المعشوق والمشتهى والمنتهى :

(١) محمود رزق سليم، النيل فى عصر المماليك، ص ١٤٤ - ١٤٥ .

(٢) نفسه . وقد ذكر ابن إياس هذين البيتين بصيغة أخرى هى :

لعمرك ما مصر بمصر وإنما
فأولادها الولدان والخور عينها
هى جنة الدنيا لم يتبصر
وروضتها المقياس والنيل كوثر

انظر، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥١ .

(٣) ابن الصايغ، هو موفق الدين أبو البقاء يعيش بن على، المتوفى سنة ٦٤٣هـ، شهد أدباء دمشق له برسوخ
القدم فى فنون الأدب . انظر: ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٧، الحاشية .

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٤ .

(٥) هو عبد الله محمد بن عسكر . أبو محمد (المتوفى سنة ٧٣٩هـ) سمع من الدمياطى وابن دقيق العيد وقرأ
الأصول على الباجى والجزرى والعربية على أبى حيان إلى نظم وسط انظر: ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة،
ص ٢٠٨ (الحاشية) .

وحسنتها العشوق والمشتهى
وجنة فيها الذى يشتهى

وروضة أضحى لها المنتهى
وهى لمن قد حلها روضة

وقال أيضا :

مشتهى حسنه هو العشوق
ووسيم يصبو إليه المشوق

رشق القلب بالسهم رشيق
هو فى مصر روضة ومحيا

وقال الشهاب المنصورى :

بحبها قلب هذا النيل مشغول
وريقها من زلال الماء معسول

كأنما الروضة الغناء غائية
أعطافها من غصون الدوح مائسة

وقال أيضا :

يا خجلة البدر وظبى الصريم
تزهو بوجه قمرى وسيم^(١)

اسفر وجهها ورننا مقللة
فى مشتهى وجنته روضة

وقال الشيخ كمال الدين جعفر الأدفوى :

يطيب لمن أقام بها المقام
وذو الوجهين مذموم يلام

لروضة مصر حسن لا يسامى
لها وجهان ممدوحان حسنا

وقال على بن رستم المعروف بابن الساعاتى :

واسمع من بدائع تشبيهى وثنيلى
هناك أشبه شىء بالسروايل
نسيمها بين تفريك وتعديل

انظر إلى روضة الغناء والنيل
وانظر إلى البحر مجموعا ومفترقا
والريح تطويه أحيانا وينشره

وقال :

هم بغية الخاطر والمشتهى
وشيخهم ذاك له المنتهى^(٢)

فى روضة المقياس صوفية
لهم فى البحر أياد علت

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٥.

(٢) ابن تغرى بردى، حوادث الدهور، ج٢، ص ٣٢٥، ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٤.

وللشهاب المنصوري في المقياس :

تقول لنا مصر أنا خير موطن
فإن تك أوقات السرور قصيرة
ولا ناس في الأمصار أظرف من ناس
فلا تقطعوها في إلا بمقياس

وللبدر البشتكي :

انظر إلى مقياس مصر وغن لي
وانظر إلى الأغصان كيف تمايلت
في روضة المعشوق في عشاق
لسماع نوح الورق في الأوراق

وقال آخر :

تقول مصر حين قاسوا القرى
بأى شيء قستموني به
بها أيا من ضيعوا حرمتي
وبسطة المقياس في قبضتي

وللشهاب بن صالح :

إن جئت بحر النيل عدى روضة
ولئن أتتك من العذول ملامه
يا مشتهاى وقاتلى من صده
فاضرب على قول العذول وعده

وبما قيل في القوس الذي كان بالروضة والذي تخلف من القلعة الصالحية وهو من
المتفرجات القديمة ، قال فيه شمس الدين النواجي :

مصر قالت دمشق لا
لورأت قوس روضتي
تفتخر قط باسمها
منه راحت بسهمها (١)

ومن الاشعار التي قيلت في البرك في العصر المملوكي .

كتب الصلاح الصفدي إلى بعض أصحابه يتشوق لبركة الفيل :

يا بركة الفيل كم لي فيك من وطر
أفديك من بقعة في الأرض أحسبها
تداول الأفق في حسن وتفضله
يطل من كل دار حولها قمر
وددت لو أشتريه فيك بالعمر
ترد قول المعري عند ذى النظر
وتكشف الشهب ما فيها من الدرر
وليس للأفق يا هذا سوى قمر

(١) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٥٥ .

يشف عن نبرات الأنجم الزهر
تعلم اللطف منهم نسمة السحر
فراق أزرق فى الأصال والبكر
فما تلفظ إلا جاء بالدرر
يحتاج فيه إلى الألحان الوتر
سعيًا على الرأس أو سعيًا على الشعر
فليت شعري هل يدرون ما خبري (١)

والماء مثل السما لونا وباطنه
قطعت فيها ليالى الأنس مع فئة
قد أدبوا الدهر حتى لان جانبه
من كل من فاق فى فضل وفى أدب
إذا سقاك وعاطاك الحديث فما
لو ساعدتنى الليالى زرت ساحتها
أخبار سكانها فى الظن طيبة

وفى بركة الرطلى يقول الشيخ شمس الدين بن الصايغ الحنفى :

مدهشة للعين والعقل
كل بحار الأرض بالرطل (٢)

فى أرض طبا لتنا بركة
ترجح فى ميزان عقلى على
وقيل فيها :

واشرح محاسنها يا أيها الخاكي
كأنها جنة حفت بأماك

انظر إلى بركة الرطلى مبتهجا
الماء والبنت والخور الحسان بها

وقال آخر :

من البدور وأصناف الملاح زمر
فهذه فُلك دارت بألف قمر

قد قلت فى بركة الرطلى إذ جمعت
إن كان فى الفلك الأعلى يرى قمر

وقال الشهاب المنصوري :

لنشرب أرطالا على بركة الرطلى
ليضرب عنق الجذب أو هامة المحلى
إلى النيل تستحلى لماه وتستجلى (٣)

دعوتك فانهض مسرعا يا أخا الفضل
فقد سل كف الخصب سيف خليجه
وقد مدت الأدواح أيدي غصونها

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٩ - ٢١٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٦٠.

(٣) نفسه.

وقال على بن سودون مواليا :

يا بركة الرطلى ليش روحي لكى توتاح
كم من فتى استحيى اليكى راح
لأن ما فيك لا غولة ولا تمساح
خلع عذارو وصار فيك خليع مشكاح

وقال المنصورى فى الجسر الذى بالبركة :

وبى ليلة بالجسر فيها نجاسرت
وقد سنع الأرام فى ضوء بدرها
يداي على شرب المدامة بالرطلى
فإن خفن من واش تسترن بالظل
بكسرة أجفان على صحة العقل
فقم نحتليها من غزال مسلط

وقال المنصورى فى الجنينة التى بجوار بركة الرطلى :

كم بالجنينة من قتيل حشيشة
وهبت له الخضراء من أفعالها
لا يستفيق ولا بنفخ الصور
آذان أطروش وعين ضرير

وقال فيها أيضا :

كم بالجنينة من أصم أبكم
أشبهه فى خلقه بابن آدم
ورجلاه فى قيد وعيناه فى قفل
مجازا وفى أكل الحشيشة بالعجل
يحاول منه الناس رد جوابهم
أيصغى بلا سمع أيومى بلا يد
وكيف برد القول من مات بالقتل
أبرنو بلا عين، أيمشى بلا رجل

وقيل :

بمصر لأهل اللهو والتهيه بركة
ويبلغ رطلا كل من رام أرضها
تولع بالحشيش أولو العقل
ومن أجل هذا سميت بركة الرطلى^(١)

وكان من مفترجات القاهرة قديما وكان يعرف بالتكة، وخليج الذكر، وكان مكان الأزبكية الآن، وفيه يقول العمار:

يا طالب التكة نلت المنى
قنطرة من فوقها تكة
وفزت منها ببلسوغ الوطر
وتحتها تلقى خليج الذكر

(١) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢١١.

وفى بركة الأزيكية ينشد الشيخ شمس الدين القادري :

يا حسنها بركة بالحسن ما برحت	تزهو على سائر الخلجان والبرك
تجمع الحسن فيها من معادنه	فأصبح الحسن فيها غير مشترك
حفت بدارتها الأقمار فهى بهم	تضئ فى حندس الديجور والحلك
مرآة حسن قربات الجمال بها	مثل الشمس تُرى فى دارة الفلك
وعندما نصبت أشراك بهجتها	صادت طيور قلوب الناس بالشرك ^(١)

وقال المنصورى فى جزيرة أروى والزربية :

قم سيدى نسعى إلى فرج زهت	ما بين أملاق وبين جسور
ونرى زرابيا بها مبثوثة	تسبك بالولدان أو بالخور

وقال آخر :

إذا رحلت بالجزيرة كى اعدى	أرى خلقا كخييل للطراد
فاذكر يوم حشر الخلق طرا	وأدعو بالسلامة فى المعاد

وقال ابن أبى حجلة :

أمسيت فى قصب الجزيرة مغرما	ويقده العسال كالولهان
عيدانه لولا حلاوة ذوقها	شبهتها فى الشكل بالمران

ولابن قادوس فى الجزيرة :

أرى سرح الجزيرة من بعيد	كأحداق تغازل والمغازل
كأن مجرة الجوزاء خُطت	وأنبتت المنازل فى المنازل ^(٢)

وقيل فى موردة الحلفا :

بدا الشعر فى الخد الذى كان يشتهى	يبين للمحبوب حالى وما يخفى
وقد كانت الوجنات بالأمس روضة	من الورود وهى الآن موردة الحلفا

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٥٩.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق ١، ص ٥٨.

وقيل فى جزيرة الطمية لابن مكانس :

بأبى الطمية جنة قد زخرفت
لى فى ربى قيناتها الرتب العلى
حور وولدان بها ورحيتى
ولها بقلبى هزة وعلوق

وقال الشيخ إبراهيم المعمار فى جزيرة حليلة :

جزيرة البحر هامت
لما حوت حسن معنى
فكم يخوضون فيها
ولم تزل ذى احتمال
بها عقول سليمة
وبسطة مستقيمة
وكم مشوا بنميمة
ما تلك إلا حليلة (١)

وقيل فى بولاق، لبعضهم زجل :

فى جزيرة بولاق رأينا عجب
حين رأينا ذيك الوجوه الصباح
أسد ساروا معهم ظبا شاردين
أذهلونا خضنا مع الخائضين (٢)

وقال الشيخ شمس الدين النواجى فى منية السيرج :

أركب النيل ما استعطت ففيه
كم تفرجت حين سافرت فيه
راحة الفتى وغاية بغيه
فى بلاد وكم ظفرت بمنيه (٣)

وقيل فى كوم الريش ، وهى من المفترجات القديمة :

انظر إلى كوم ريش قد غدا نزاها
به بحار لآلى قد حوت قضبا
ولا تقل كوم ريش ما له ثمن
للب كل سليم الطبع يجتلب
من الزبرجد منها يحصل العجب
فإن بالريش حقا يحسن الذهب

وقيل فى قناطر الأوز، وبرك البشين :

فى مصر تُعزى للأوز قناطر
وحكى بها البشين شخصا خائضا
يصبو التنديم بها لخمرة كأسه
فى الماء لف ثيابه فى رأسه

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص ٥٦.

(٢) نفسه، ص ٥٨. (٣) نفسه، ص ٥٩.

وقال ابن حجة فى التاج والسبع وجوه وكان من مفترجات مصر قديما :

سبع وجوه لتاج مصر تقول ما فى الوجود شبهى
وعندنا ذو الوجوه بهجى وأنت تاج بفرد وجهه (١)
وفيه يقول صاحب فخر الدين بن مكاس، من موشح :

والتاج يعلو فوق هام الزهر والسبعة الأوجه ذات البشر
وكل وجه حولها كقصرى مثل بروج حل فيها بدر
وقد أتى فى كل برج سعد (٢)

وقال صاحب فخر الدين بن مكاس فى بئر البلسان بالمطرية من موشح :

انظر إلى أنوار بئر البلسم فهى سبيل صحتى من سقم
لكونها فيما يقال تنتهى إلى المسيح السيد ابن مريم
يحى يا ذن الله ميت للحد (٣)

وقال :

بئر لها التعظيم والجلالة بدرا أنارت واستدارت هاله
أتمودج الفردوس لا محاله لها على الجنة أى دلاله

تذكر الناس نعيم الخلد (٤)

وقد حمل لواء الأدب فى العصر العثمانى أسرة السادة البكرية ، وقد امتازت المدرسة البكرية الأدبية فى أشعارها ونثرها بوصف الحقائق والبساتين والقصور والبرك والنسيم العليل وما يتركه فى النفس من أثر (٥) ، وقد حظيت بركة الأزيكية بنصيب وافر فى مطارحاتهم الأدبية لأن معظم إقامتهم كانت بقصورهم عليها .

وقد وصف الرحالة الأديب عبد الغنى النابلسى البيئة العلمية للبكرية بقوله اثناء زيارته

(١) نفسه ، ص ٦١ .

(٢) ابن إياس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ق ١ ، ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٣٤ ، ٣٥ .

(٤) نفس المصدر والجزء ، ص ٥٧ - ٥٨ .

(٥) محمد سيد الكيلانى ، الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص ١٢٩ .

مصر ونزوله ضيفا عليهم سنة ١١٠٥ هـ : « . . ثم لم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى منزل الهمام ، بركة الأنام ، الشيخ زين العابدين البكرى الصديقى ، فتلقانا بصدره الرحب وجلست عند حضرته حصّة من الزمان فى مجلسه المثل على بركة الأزيكية ذات الروح والريحان ، التى فيها نفحة من نفحات الجنان ، وتذاكرنا معه فى بعض المسائل العلمية ، والمطارحات الأدبية ، والقصائد الشعرية ، واجتمعنا هناك عنده بقريتنا وعزينا الفاضل الكامل محمد أمين المحبى^(١) الشامى ، وبصديقنا الفاضل الأديب الشيخ شاهين فتح الله ، وقد أنزلنا الشيخ فى دار لصق داره ، بحيث لم نخرج عن ظله وجواره »^(٢) .

وقد استأثرت بركة الأزيكية بكثير من كتابات الأدباء المصريين أو الزائرين لها فى العصر العثمانى ، وقد جمعهم الحضرة البكرية على شواطئها ، ومن قصيدة للمحبى حرص فيها على ذكر البركة بالإضافة لمدحه للشيخ زين العابدين البكرى ، قال :

يا حيهدا خضر الخما	ثل فى رياض الأزيكية
وخفولها أودية النسيم	سرى ببقعتها الندية
أرض تكتنفها الحدبا	ثق والبرياض الأريضية
وتقطرت أرجاؤها	بالرايحات المندية
فنواجسه بشذا العبير	وعابقت عنبيرية
وترغمت أطيارها	سحرا بأصوات شجية
وإذا تأملت القصو	ريها عرفت لها المنزية ^(٣)

وللنابلسى فى بركة الأزيكية :

رعى الله من مصر على القرب موردا	به النيل وافى ماؤه يذهب الصدا
له الحظ من كل النفوس تشوقا	إليه وقد مدت عليه العلايدا
يسمونه بالأزيكية بركة	مباركة كل المياه لها فدا
تظل بها الأمواج ترسم نقشها	كوجه عروس لاح فى الحسن مفردا
يباكرها ريح الصبا فيمسها	ويكثر فيها بالعشى ترددا

(١) هو صاحب كتاب خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر .

(٢) الحقيقة والمجاز ، ص ١٨١ .

(٣) نفسه ، ص ١٨٤ .

إذا زال فيها الماء كانت حديقة
وإذا قل الماء إذ زال بعضه
ومن حولها تلك القصور تزخرت
وفيهما شبابيك عليها مطلّة
فتلبس ثوباً أخضرا وموردا
فروض على شط حكى النهر قد بدا
وجلست بها فيها وزادت توددا
وعيدانها صيغت لجينا وعسجدا (١)

ويتنقل النابلسى بعد ذلك إلى مدح الشيخ زين العابدين البكرى ، والنابلسى أيضا فى بركة الأزيكية :

وبركة مباركة
تكاد من إشراقها
مصر بها فى عصرنا
منبسط الماء بها
وقانص الأسماك قد
كم حولها قصر زها
وماؤها إن جفف
يسرح فيها الطرف لا
وكم بها من جوذر
وكم هنا طالع
وكيف لا وهى التى
يسر بيت مفرد
بيت الكمثال والهدى
لم يزل الفخر له
كوكبه زين العبا
بحر العلوم كامل
وكم من غريب ضايح
وكم به من همة

لأزيك الأتابكة
تنزلها الملائكة
قد فاختت ممالكه
تبدى الصبا سبأيكه
أوردها شبأيكه
بمده أرايكه
فهى روضة مباركة
يدرى بها مسالكه
يحوى العيون الفاتكه
بدر الليالى الخالكه
تهدى بليل سالكه
ما أن ترى مشاركه
البكرى نعم ذلك
ومعا عده تاركه
دالمقتفى مداركه
فى كل فن شاركه
ربى به تداركه
قامت وكانت مباركه (٢)

وأقول فى النهاية أن جزءاً كبيراً من كتب الأدب المملوكية والعثمانية لا تزال مخطوطة وتحتاج للنشر.

(٢) الحقيقة والمجاز ، ص ٢٥٦ - ٢٥٧ .

(١) الحقيقة والمجاز ، ص ١٨٦ .

الفهرس

٥	تمهيد :
١١	القاهرة فى العصر العثمانى
١٥	الفصل الأول : نهر النيل بحدود مدينة القاهرة
٤٩	الفصل الثانى : الجزر
٩٠	الفصل الثالث : البرك
١٨٧	الفصل الرابع : خلجان القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى
	الفصل الخامس : المناظر ومطعم الطير والمطرية والبساتين والضواحي
٢٢٧	ورباط الآثار
٢٦٩	الفصل السادس : مظاهر الحياة الاجتماعية المرتبطة بالمتنزهات

شبت اللوحات

- لوحة (١) منظر عام لبولاق ومينائها
- لوحة (٢) جامع مهديم بالطرف الشمالى لجزيرة الروضة حوله الفرنسيون إلى طاحون « عن : وصف مصر »
- لوحة (٣) المنظر العلوى لجسر على سيالة الروضة أمام القصر العينى والمنظر السفلى لطريق الجميز بجزيرة الروضة « عن : وصف مصر »
- لوحة (٤) بركة الفيل أيام الفيضان وبالصورة مراكب النزه وأحد العازفين وسط شخصين من المتفرجين « عن : وصف مصر »
- لوحة (٥) منظر مأخوذ للحديقة الواقعة بالغرب من باب الناصرية ويظهر باللوحة مسجد قانى باى الرماح « عن : وصف مصر »
- لوحة (٦) منظر لحديقة وبركة قاسم بك (أبو الشامات) « عن : وصف مصر »
- لوحة (٧) منظر لحديقة الأزبكية من جهتها الجنوبية « عن : وصف مصر »
- لوحة (٨) منظر لبركة الأزبكية من الجهة الغربية « عن : وصف مصر »
- لوحة (٩) منظر لحديقة وقصر الالفى على بركة الأزبكية « عن : وصف مصر »
- لوحة (١٠) منظر آخر لحديقة وقصر الالفى « عن : وصف مصر »
- لوحة (١١) قصر مراد بك على بركة الأزبكية « عن : ثروت عكاشة ، مصر فى عيون الغرباء »
- لوحة (١٢) فم الخليج وبدايته أمام قناطر مجرى العيون « عن : باسكال كوست »
- لوحة (١٣) منظر الخليج وما يحف به من الدور ذات المناظر والمقاعد والمشربيات وما يجرى على مياهه من الشخاتير « عن : باسكال كوست »
- لوحة (١٤) منظر الخليج وأحد البيوت ذات المقاعد والمشربيات بحافته .
- لوحة (١٥) شرفه (منظره) مطله على الخليج « عن : باسكال كوست »
- لوحة (١٦) إحدى القناطر على الخليج تتكون من عقدين ذات قطاع مدبب وعليها رنك سلطانى « عن : وصف مصر »

- لوحة (١٧) الاحتفال السنوى بكسر سد الخليج « عن : وصف مصر »
- لوحة (١٨) بقايا مناظر الكيش
- لوحة (١٩) شجرة مريم بالمطرية
- لوحة (٢٠) لحفلة الدوسة التى تتم بمولد النبى بالازبكية « عن : ثروت عكاشة،
مصر فى عيون الغرباء ، ج ٢ ، ص ٣٤١ »
- لوحة (٢١) منظر خارجى لجامع أثر النبى
- لوحة (٢٢) الدخلة التى تحوى آثار الاقدام ويعلوها لوح رخامى بها نص كتابى
باللغة التركية



(٥١) منظر مأخوذ للحديقة الواقعة بالقرب من باب الناصرية ويظهر
باللوحه مسجد قاني يابى الروماح « عن : وصف مصر »



(٦) منظر لحديقة وبركة قاسم بك (أبو الشامات) « عن : وصف مصر »



(٧) منظر لحديقة الأزيكية من جهتها الجنوبية « عن : وصف مصر »



(٨) منظر لبركة الأزيكية من الجهة الغربية « عن : وصف مصر »



(١) منظر عام لبولاق ومينائها



(٢) جامع مهدم بالطرف الشمالى لجزيرة الروضة حوله الفرنسيون إلى
طاحون « عن : وصف مصر »



(٣) المنظر العلوى لجسر على سيالة الروضة أمام القصر العيشي
والمنظر السفلى لطريق الجميز بجزيرة الروضة «عن : وصف مصر»



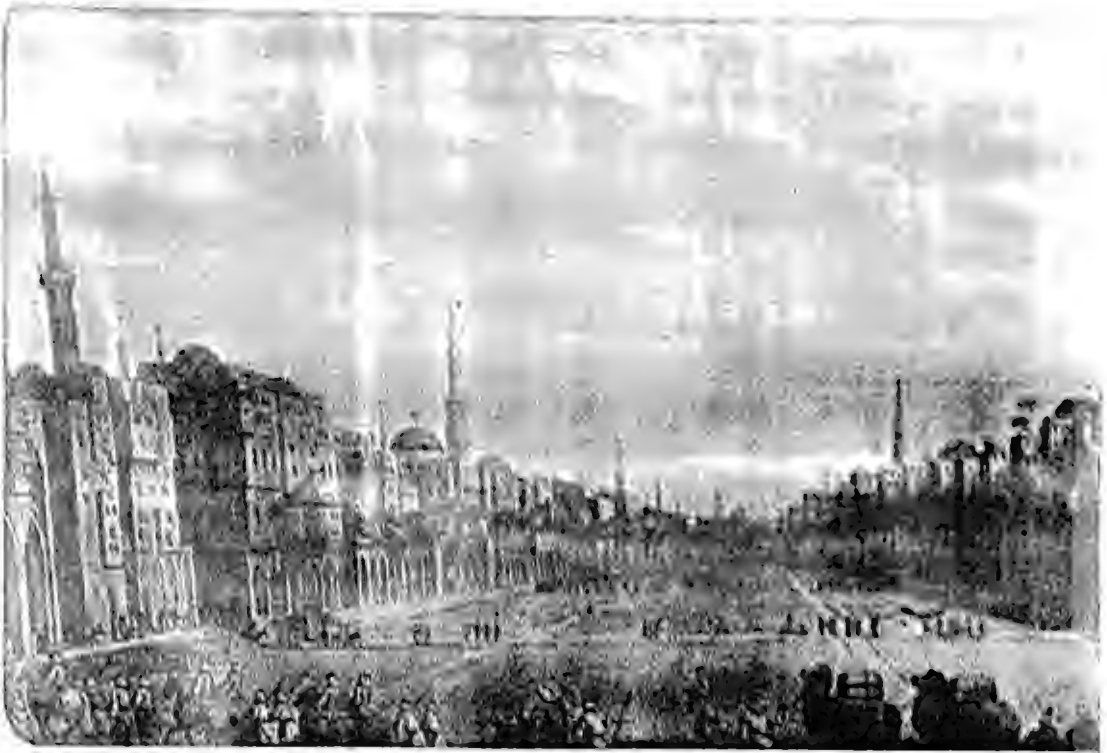
(٤) بركة الفيل أيام الفيضان وبالصورة مراكب التزهه وأحد العازفين
وسط شخصين من المتفرجين «عن : وصف مصر»



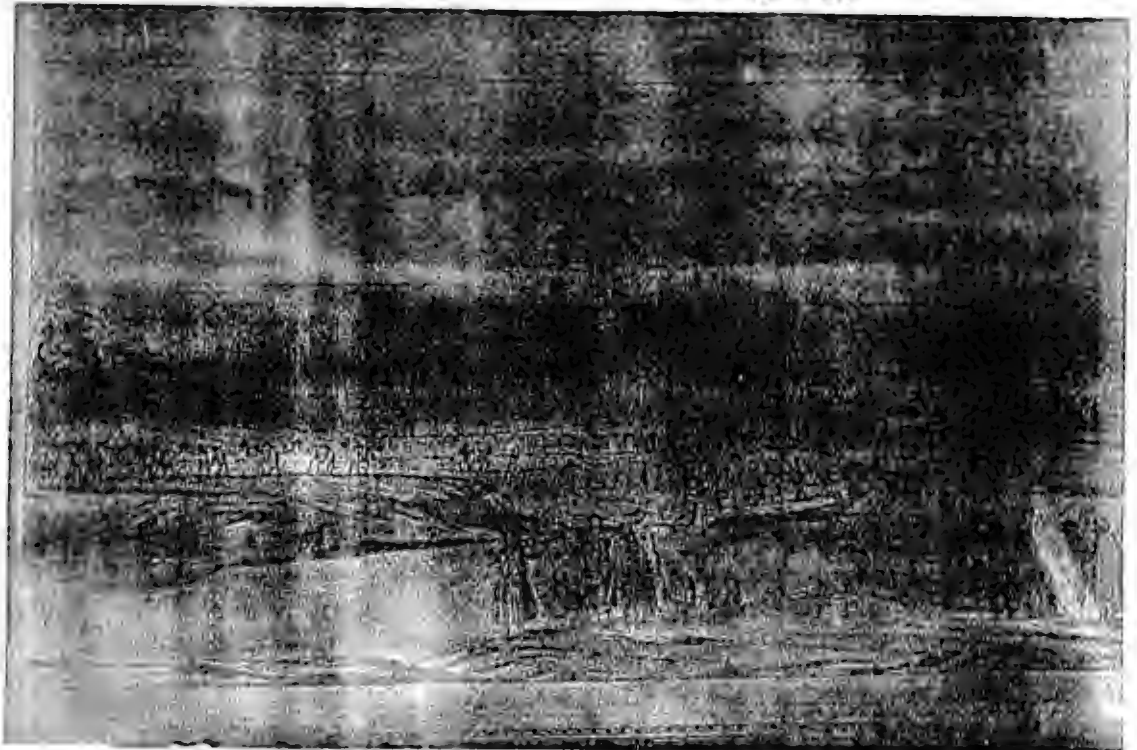
(٩) منظر لحديقة وقصر الالفى على بركة الأزبكية « عن : وصف مصر »



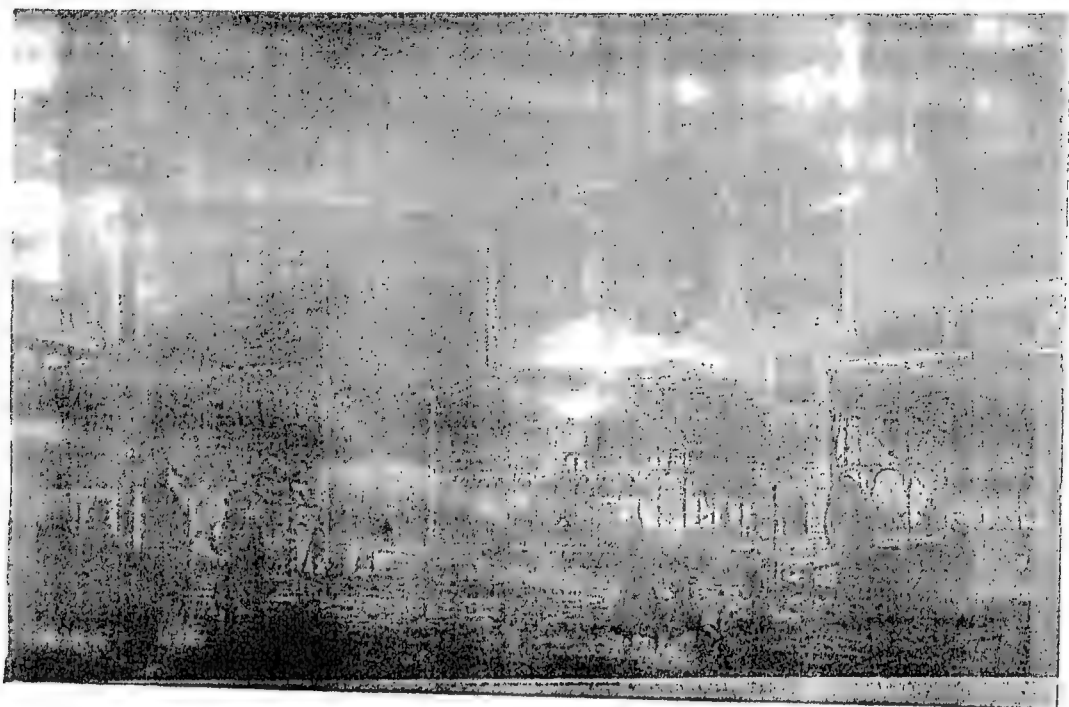
(١٠) منظر آخر لحديقة وقصر الالفى « عن : وصف مصر »



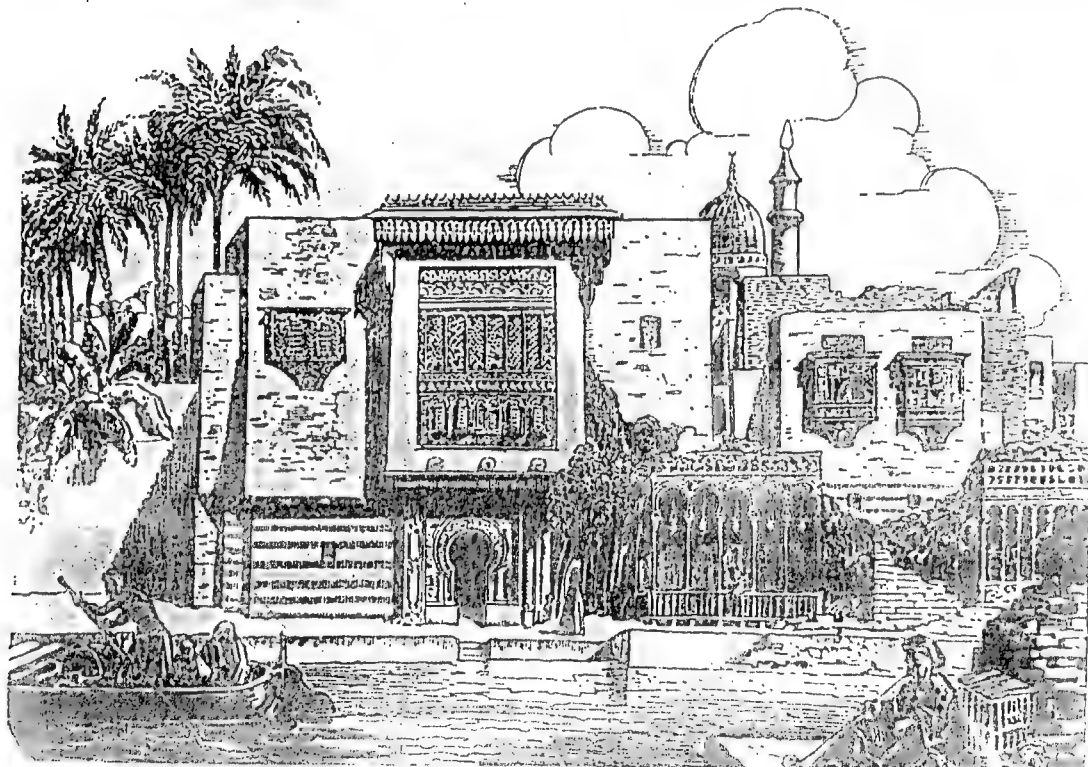
(١١) قصر مراد بك على بركة الأزيكية « عين : ثروت عكاشة ، مصر في
عيون القربا »



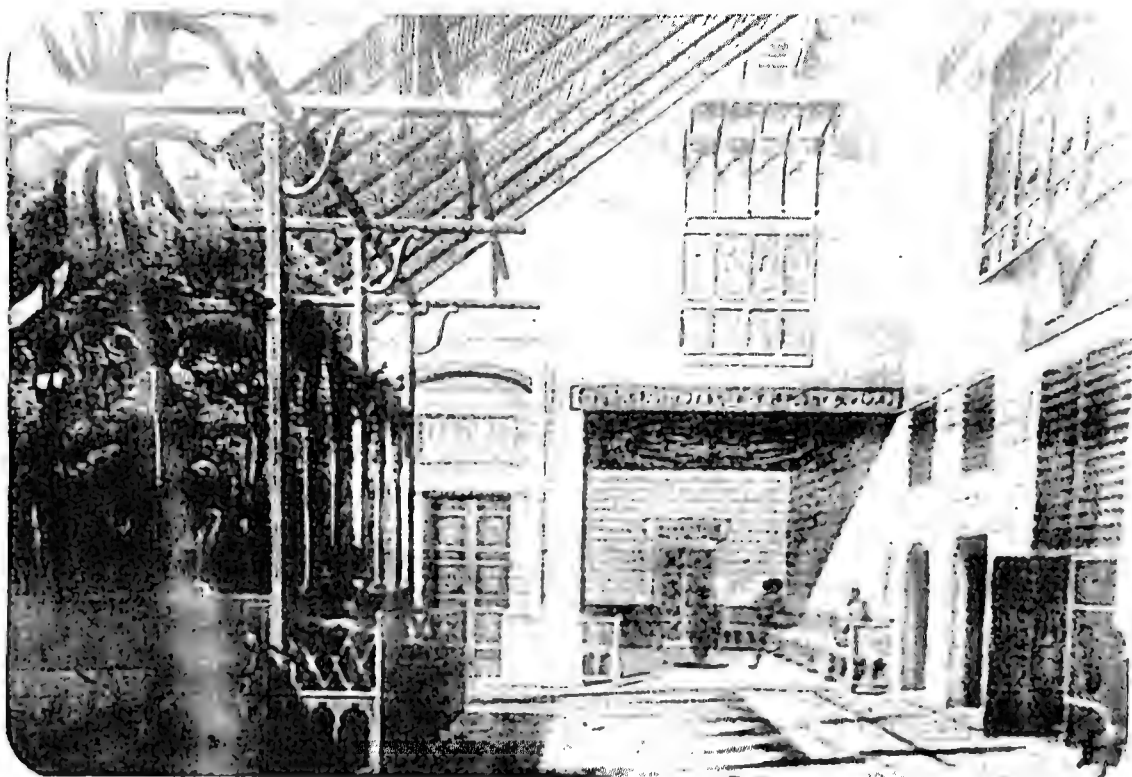
(١٢) قم الخليج وبيداته أمام قناطر مجرى العيون « عين : باسكال كوست »



(١٣) منظر الخليج وما يحف به من الدور ذات المناظر والمقاعد والمشريات
وما يجرى على مياهه من الشخاتير « عن : باسكال كوست »



(١٤) منظر الخليج وأحد البيوت ذات المقاعد والمشريات بحافته .

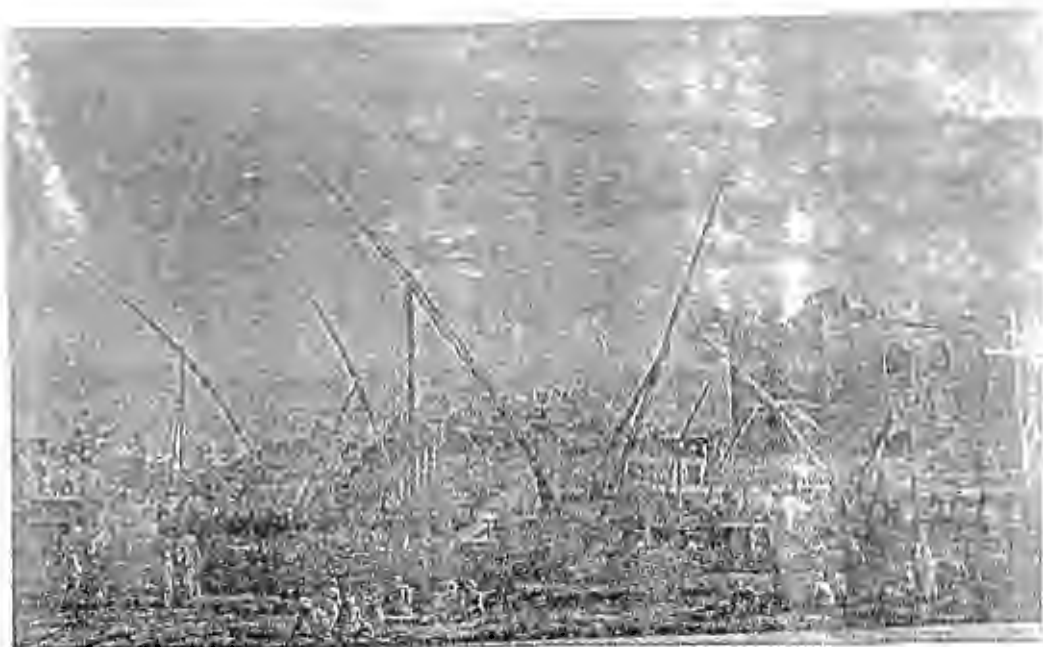


(١٥) شرقه (منظره) مطلة على الخليج « عن : باسكال كوست »

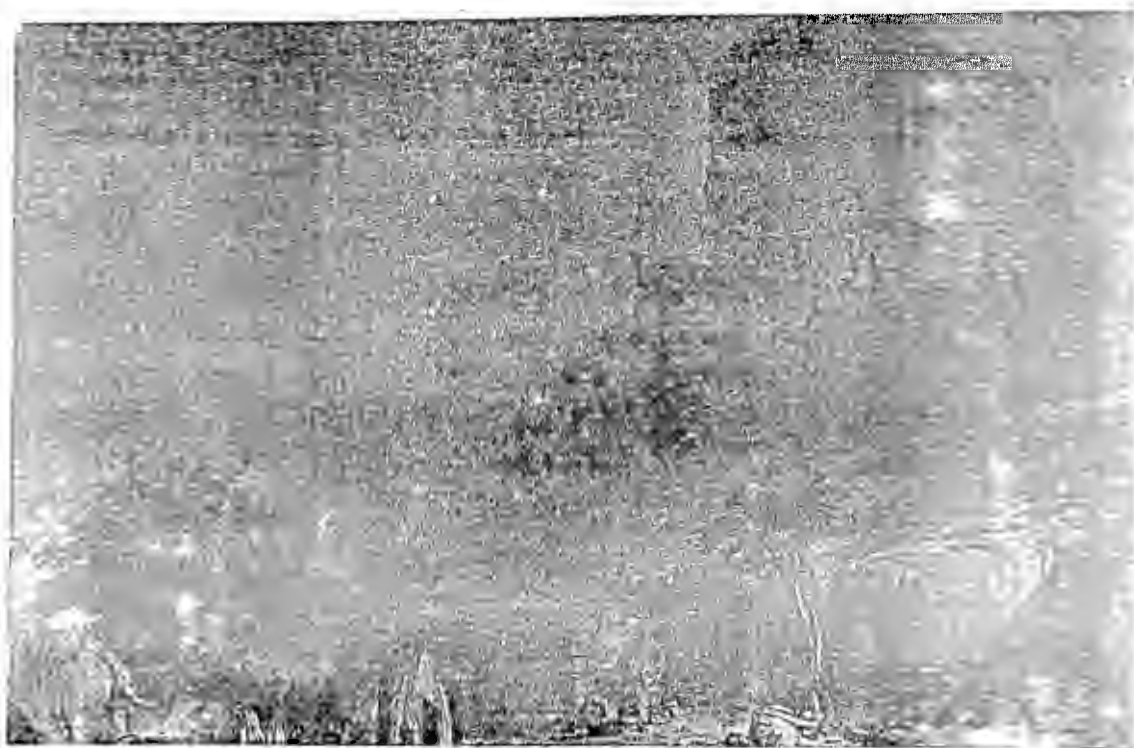


(١٦) إحدى القناطر على الخليج تتكون من عقدتين ذات قطاع مدبب

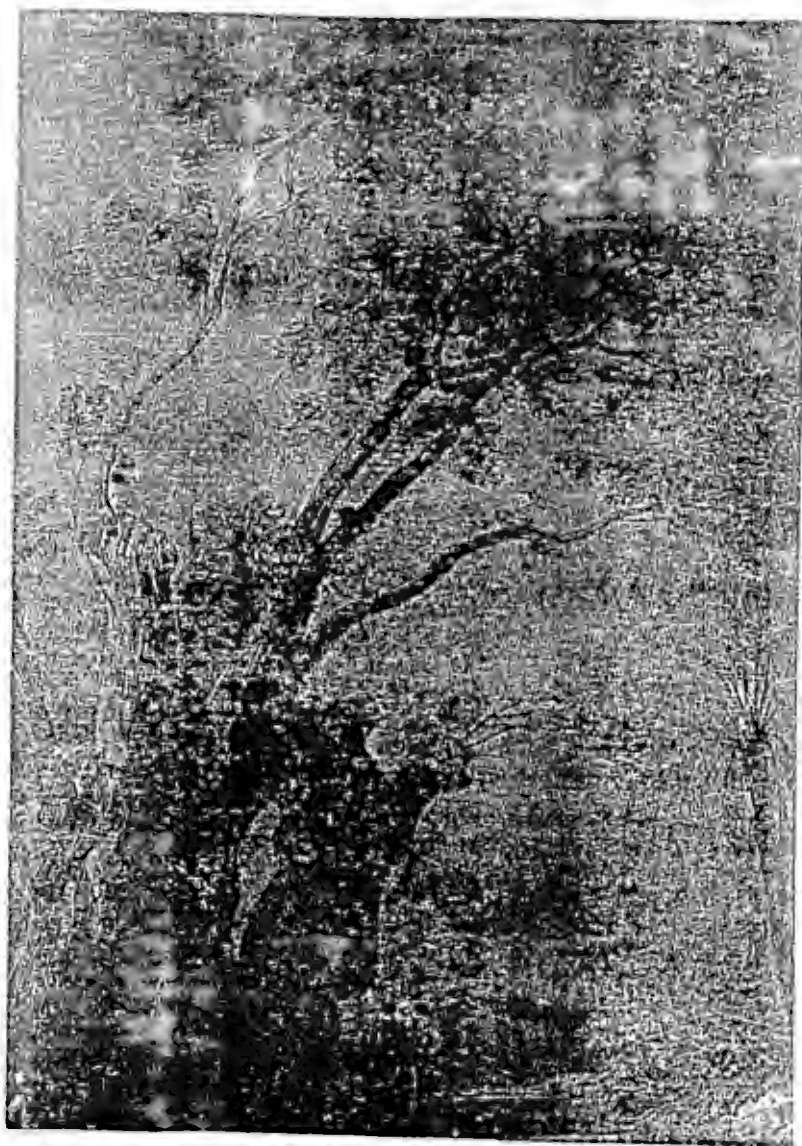
وعليها رنك سلطاني « عن : وصف مصر »



(١٧) الاحتفال السنوي بكسر سد الخليج « عن : وصف مصر »



(١٨) بقايا مناظر الكهش



(١٩) شجرة مريم بالمطرية

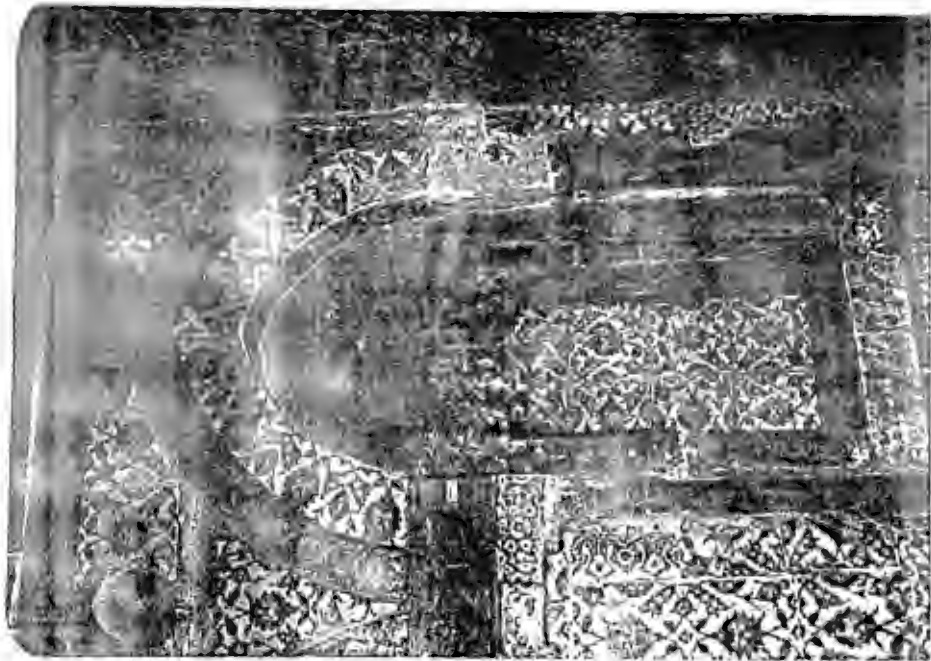


(٢٠) لحفلة الدوسة التي تنم بمولد النبي بالازيكية « عن : ثروت عكاشة،

مصر في عيون الغرباء ، ج ٢ ، ص ٣٤١ »



١٩١١ منظر خارجي لجامع أثر النبي

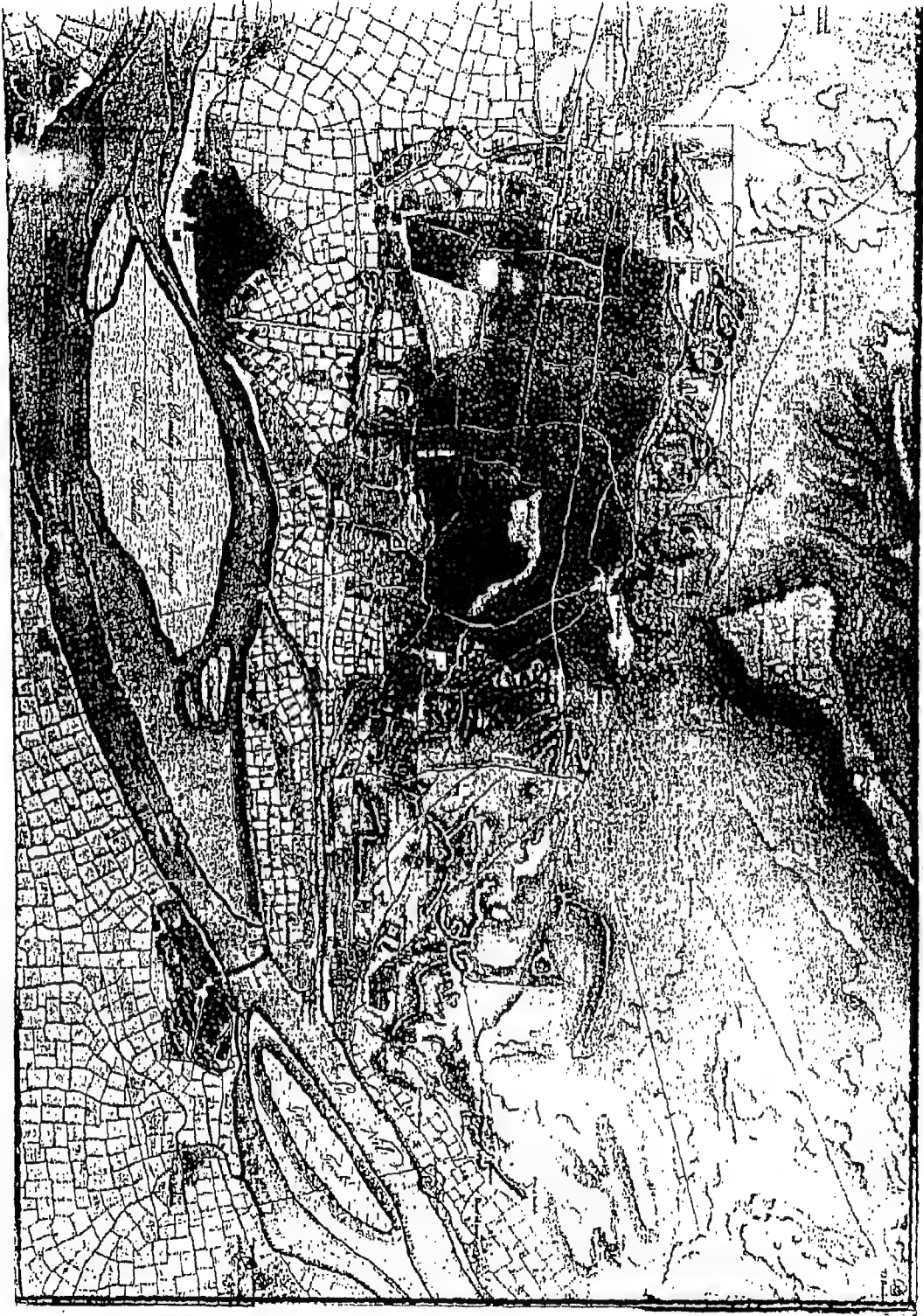


(٢٢) الدخلة التي تحوى آثار الاقدام ويعلوها لوح رخامى

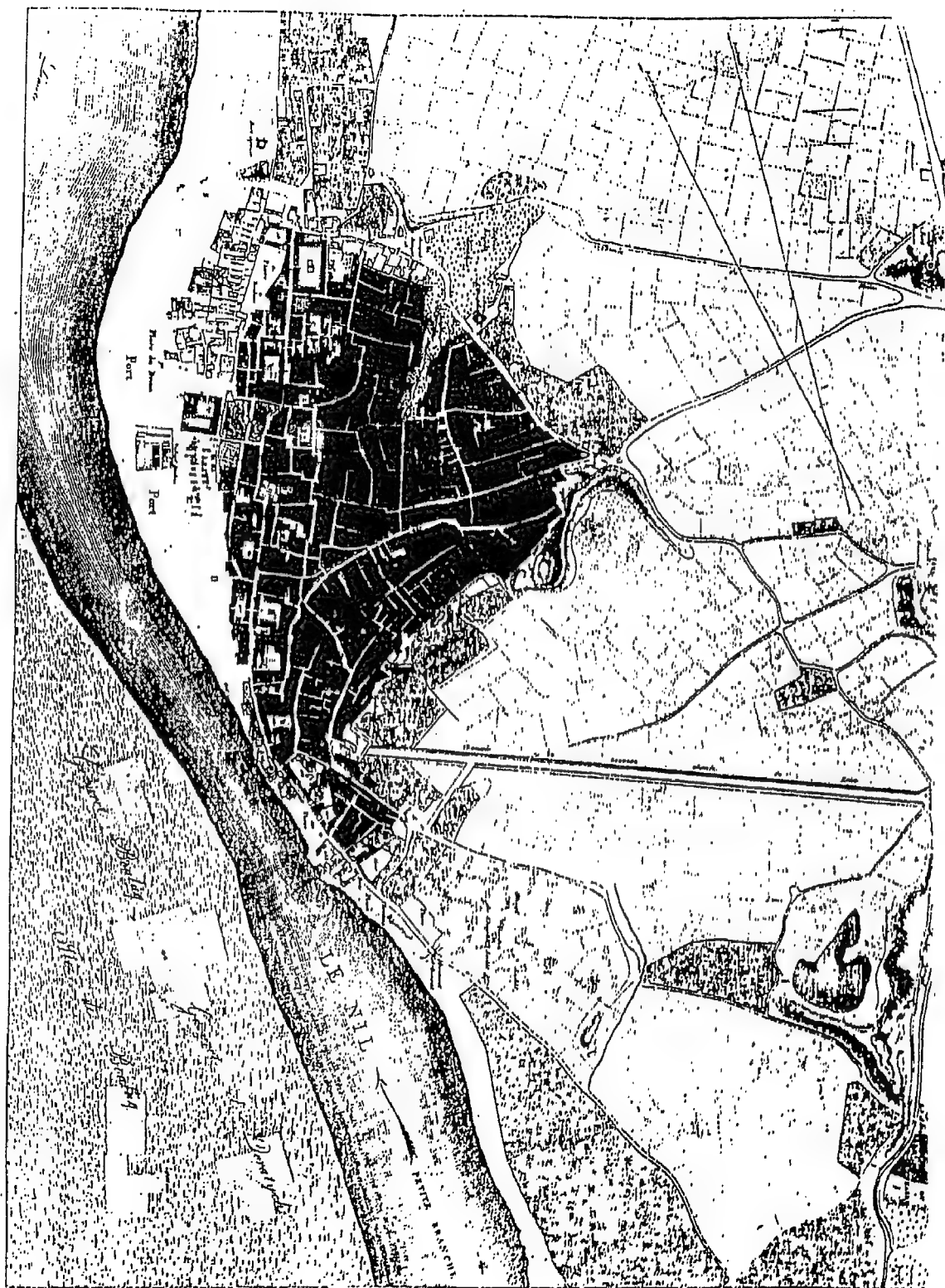
بهما نص كتابين باللغة التركية

ثبت الأشكال

- شكل (١) القاهرة فى أيام الحملة الفرنسية على مصر « عن : وصف مصر »
- شكل (٢) خريطة الحملة الفرنسية لبولاق
- شكل (٣) الضواحي التى دخلت فى حدود القاهرة الكبرى الآن
- شكل (٤) مراحل طرح النيل بالقاهرة من سنة ٦٩ هـ / ٦٨٨ م حتى سنة ١٢٤٦ هـ / ١٨٣٠ م بتصرف عن محمد رمزي ، مجلة العلوم ، السنة التاسعة ، ص ٥١٧
- شكل (٥) المخطط التى عمرت فى العصرين المملوكى والعثمانى على أرض طرح النيل بالقاهرة
- شكل (٦) النمو العمرانى للقاهرة وارتباطه بإنشاء القناطر على الخليج عن : فتحى مصيلحى ، تطور العاصمة المصرية والقاهرة الكبرى ، ط ١ ، القاهرة ، ١٩٨٨ ، ص ١٢٥
- شكل (٧) برك الحبش والشعبية وشطا فى العصر المملوكى « كروكى »
- شكل (٨) بركة الأزبكية والجوامع والدور التى كانت تحيط بها زمن الحملة الفرنسية
- شكل (٩) موقع وحدود بركة الفيل والأحكار والمخطط حولها فى العصر المملوكى
- شكل (١٠) ترتيب القناطر على الخليج المصرى والعصور التى أنشئت فيها
- شكل (١١) خلجان القاهرة فى العصر المملوكى
- شكل (١٢) برك القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى

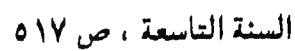


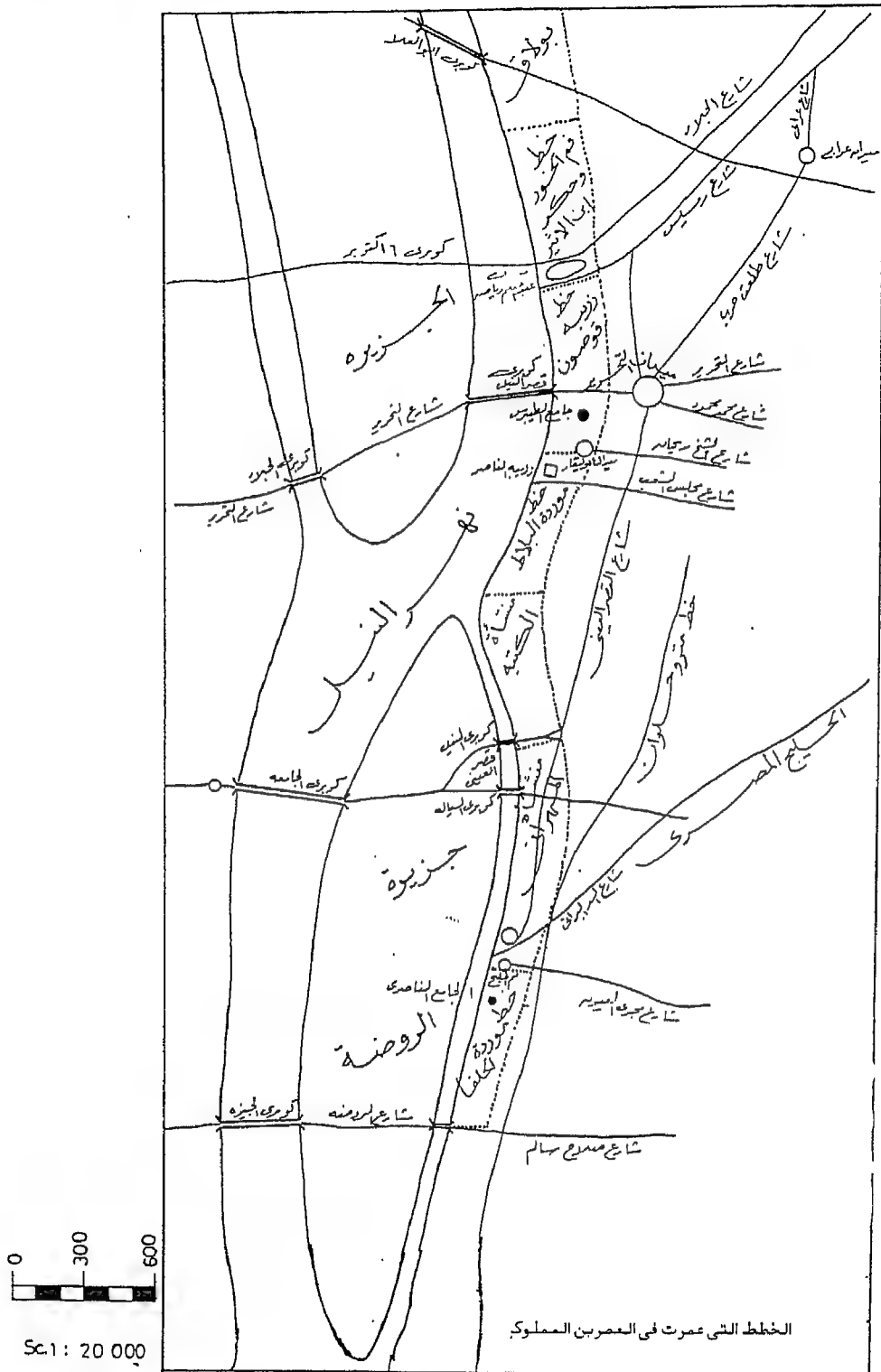
(١) القاهرة في أيام الحملة الفرنسية على مصر « عن : وصف مصر »



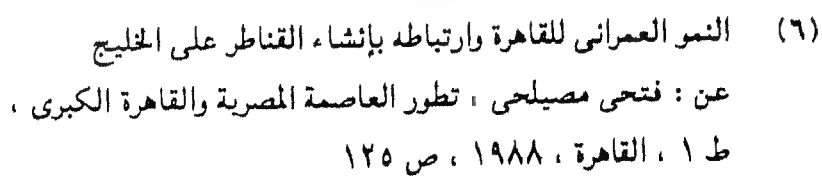
(٢) خريطة الحملة الفرنسية لبيروت

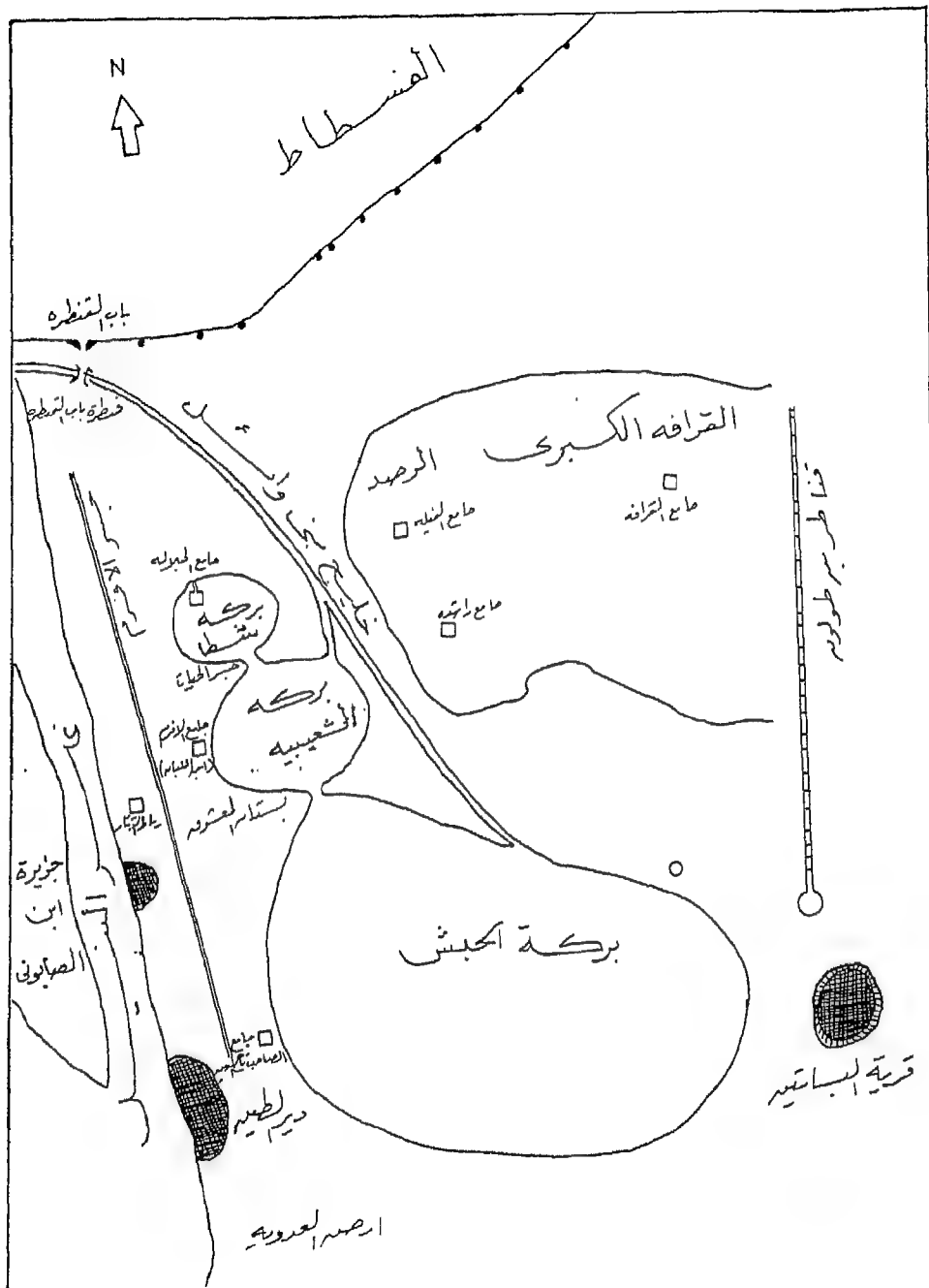
(٣) الضواحي التي دخلت في حدود القاهرة الكبرى الآن



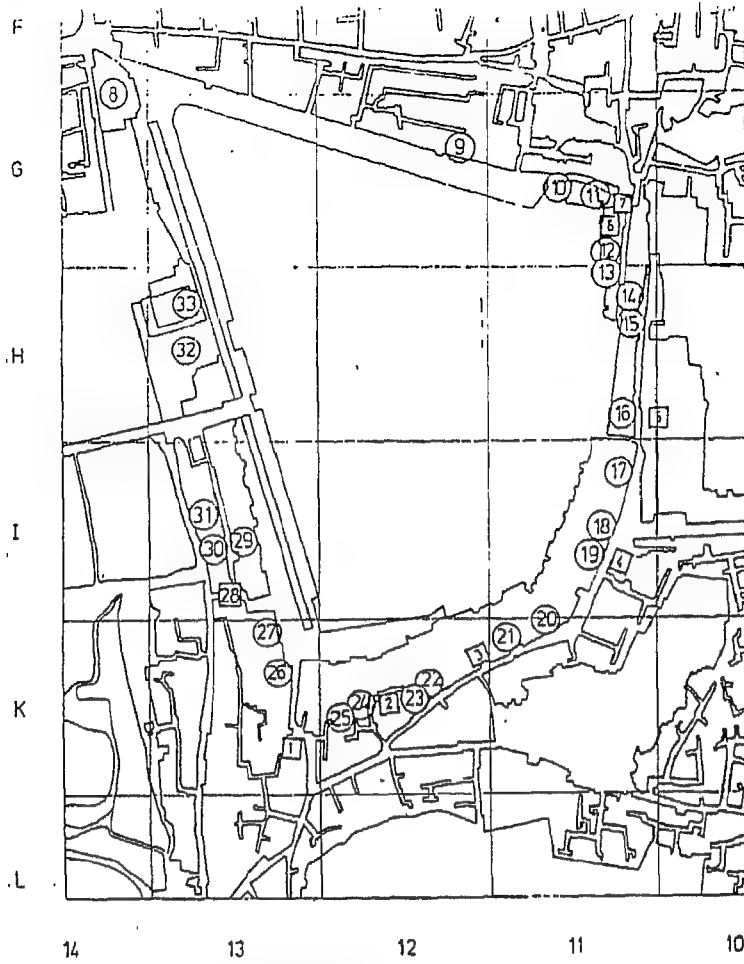


(٥) الخطة التي عمرت في العصرين المملوكي والعثماني على أرض طرح النيل بالقاهرة



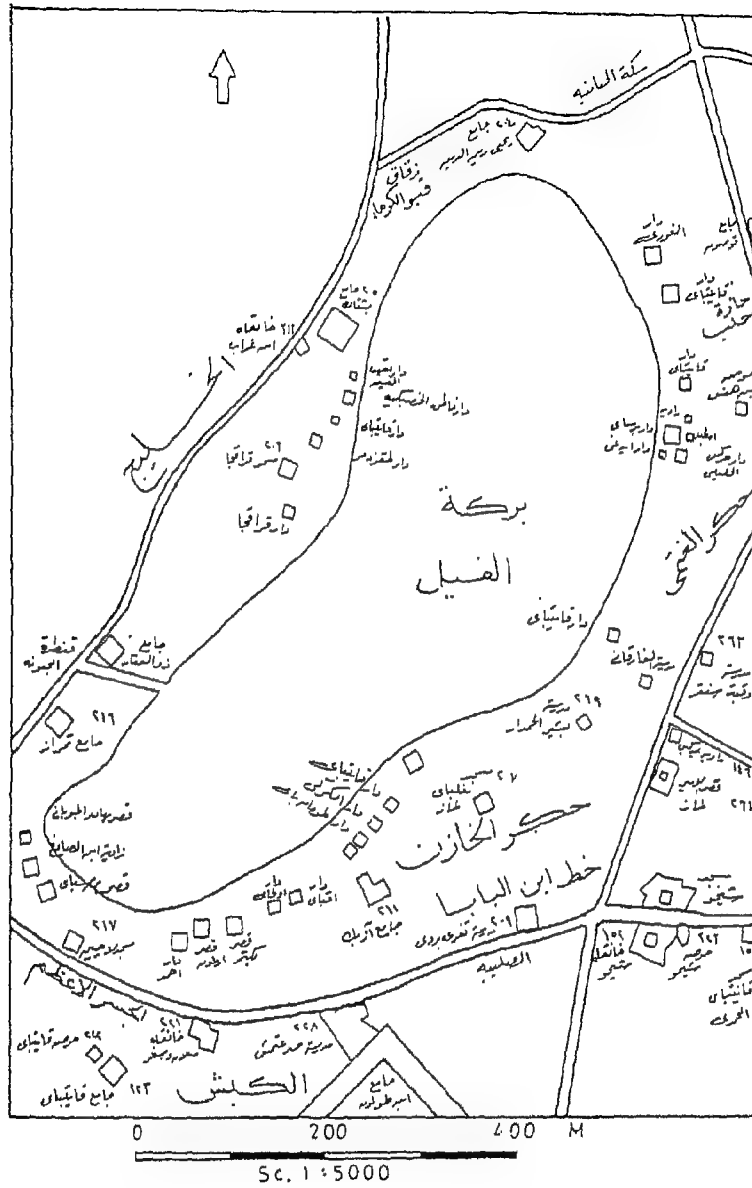


(٧) برك الحبش والشعبية وشطا فى العصر المملوكى « كروكى »

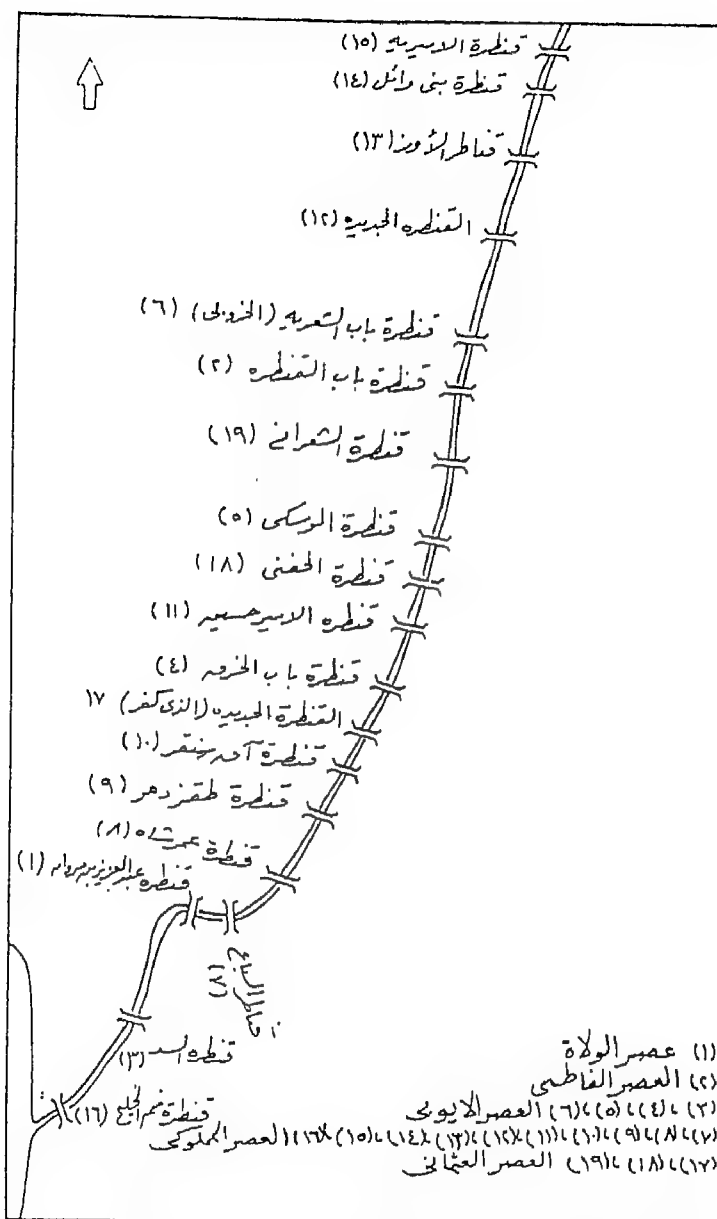


(٨) بركة الأزبكية والجوامع والدور التي كانت تحيط بها زمن الحملة الفرنسية

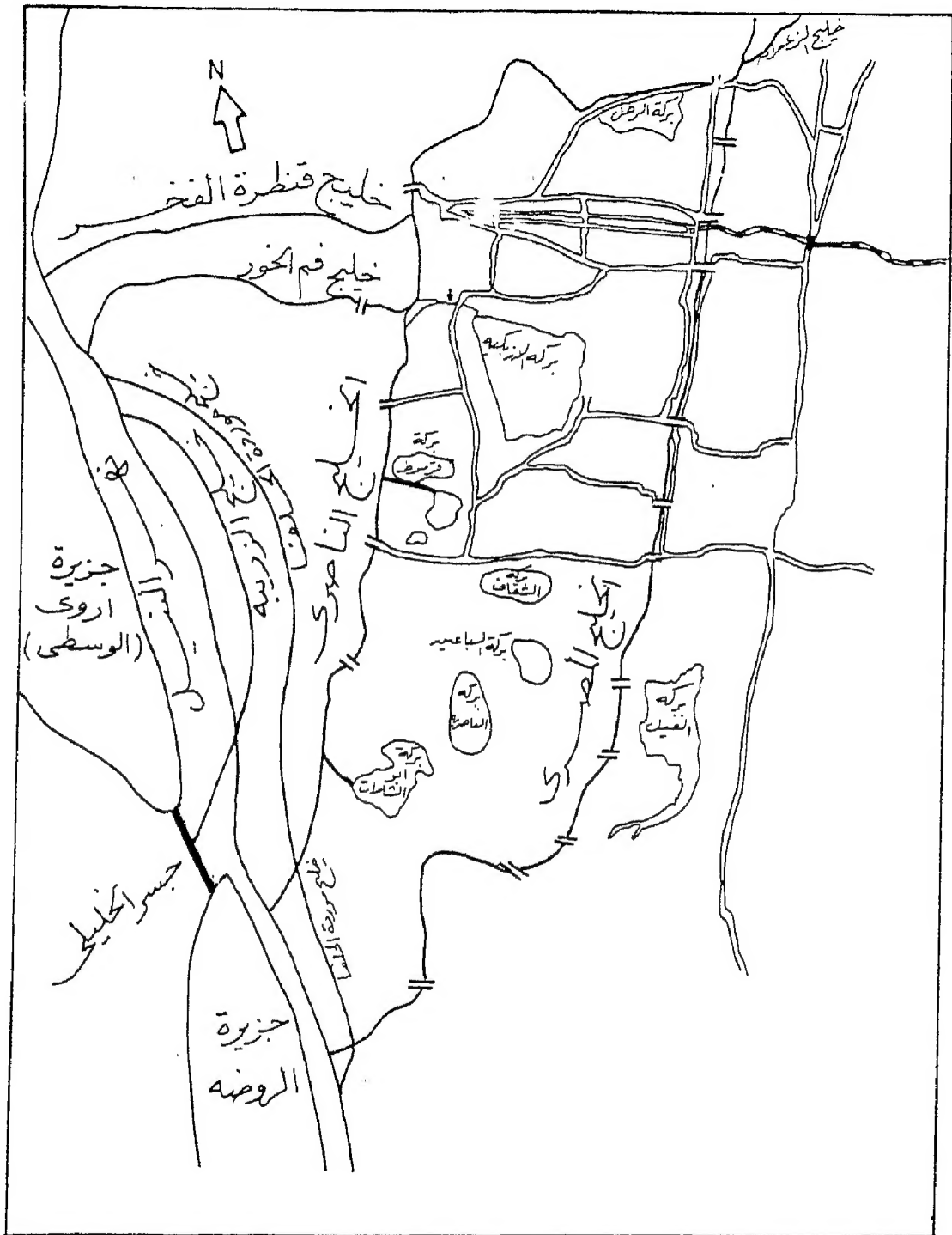
- | | | |
|-------------------------|-----------------------------|----------------------------|
| 1- جامع عثمان كتحدا | 2- جامع السنباطي | 3- جامع البكري |
| 4- جامع أزبك | 5- جامع الجوهري | 6- جامع الرويعي |
| 7- الجامع الأحمر | 8- بيت جرجس الجوهري | 9- بيت الشيخ المهدني |
| 10- المطبعة الأهلية | 11- الصيدلية | 12- بيت قائد أغا (الدبوان) |
| 13- الديوان | 14- بيت اسماعيل بك | 15- بيت اسماعيل بك |
| 16- بيت الشيخ الجوهري | 17- منزل بشير أغا | 18- بيت الشرايبي |
| 19- بيت ابراهيم بك | 20- بيت مرزوق بك | 21- منزل عمر الكاشف |
| 22- بيت الشيخ البكري | 23- إدارة الأموال | 24- بيت مراد بك |
| 25- بيت عثمان بك الأشقر | 26- بيت مراد بك | 27- بيت محمد أغا |
| 28- جامع الحلبي | 29- بيت عثمان أغا الخازندار | 30- بيت محمد أفندي |
| 31- قصر محمد بك الألفي | 32- قصر محمد بك الألفي | 33- رئاسة القوات الفرنسية |



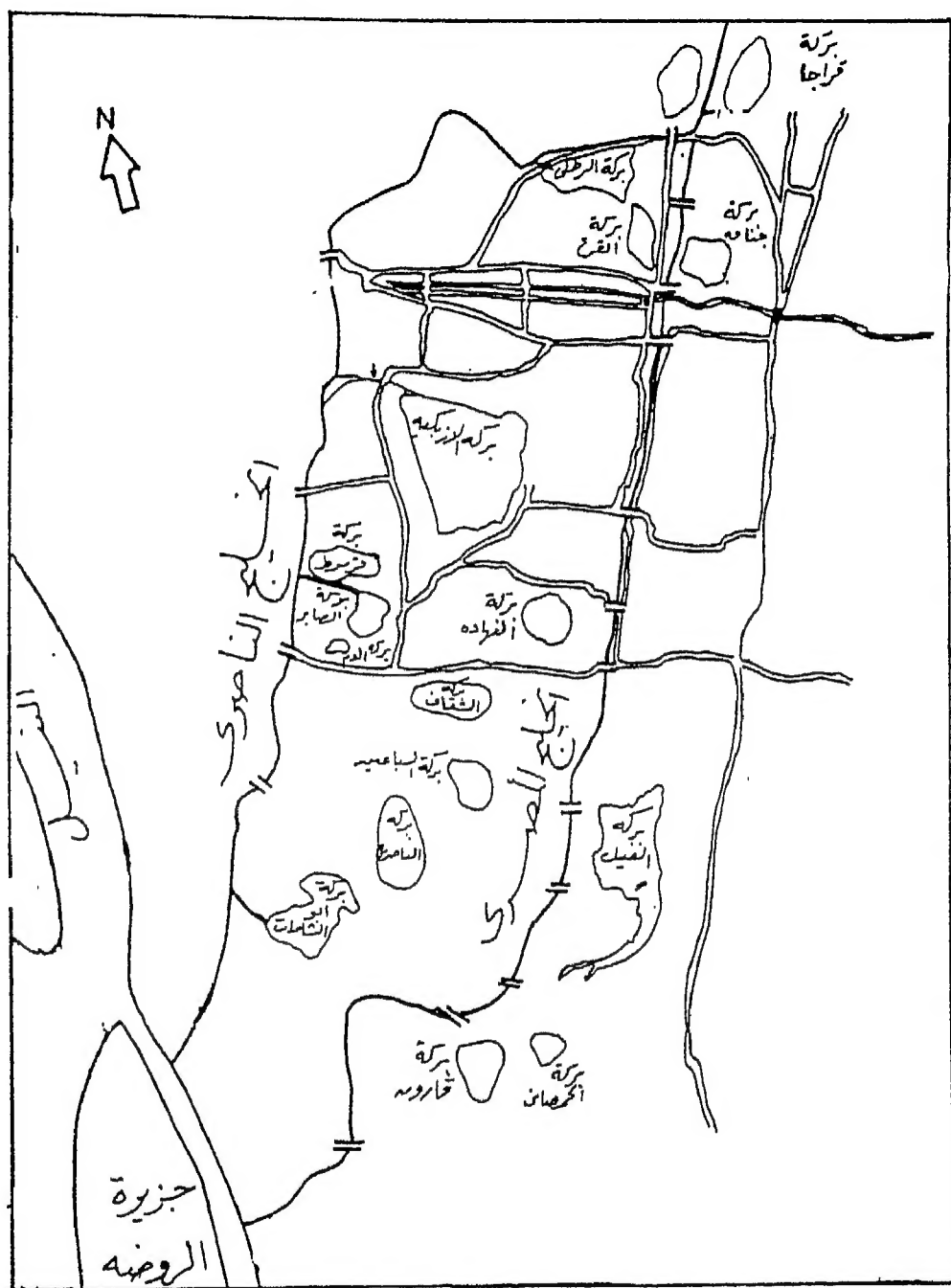
(٩) موقع وحدود بركة الفيل والأحكار والمخطط حولها في العصر المملوكي



(١٠) ترتيب القناطر علي الخليج المصرى والعصور التى أنشئت فيها



(١١) خليجان القاهرة في العصر المملوكي



(١٢) برك القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني

هذا الكتاب

كان لقاهرة المماليك والعثمانيين متنزهات عديدة يحسدهم عليها
فأهريو هذه الأيام واستمتع الناس وقتئذ بأيامهم فيها أيما استمتاع،
وأهم متنزهات القاهرة على الإطلاق نهر النيل وشاطئيه وجزره
ولاسيما جزيرة الروضة عروسة المتنزهات، وكانت الخطط الممتدة على
شاطئ النيل الشرقى متصلة العمران حافلة بالقصور ذات المناظر
والمقاعد المطلة على النيل وبها بساطين وحدائق مغروس بها جميع أنواع
الأشجار والأزهار، يلي ذلك برك القاهرة وخليجها وهي ٢١ بركة أهمها
بركة الأزبكية والرطلى والفيلى و٨ خليجان أهمها الخليج الحاكمى
والخليج الناصرى وخليج الزعفران، ومن المتنزهات أيضا مناظر الكباش
ومنظرة التاج والخمسة وجود ومطعم الطير وكانت الضواحي الشمالية
للقاهرة متنزهات هامة مثل المطرية وأرض البعل والتاج والخندق وكوم
الريش (الزاوية الحمراء) ومنية السيرج، وكذلك يوجد متنزهات ذات
صفة دينية مثل رباط الآثار النبوية على شاطئ النيل بمصر القديمة
جنوبى الفسطاط.

وكانت المتنزهات هي المكان المحبب لكل الناس للترويح عن النفس
وقضاء أعيادهم ومواسمهم إلا أنها ارتبطت بشكل خاص بأعياد
النيل.

